تهذيب

حيوان الجاحظ

لابن منظور

تحقيق

د. زهران محمد جبر عبد الحميد

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

تَهْذِيب
حيوان الجاحظ





تصدير

بقلم الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

(١)

هذا الكتاب القيم الذي كان ثمرة جهد كبير قام به الدكتور الكبير زهران محمد جبر في تحقيق كتاب نفيس من أمهات كتب التراث وهو تهذيب حيوان الجاحظ للإمام اللغوي ابن منظور صاحب لسان العرب.

يعد عملاً كبيراً بكل المقاييس التراثية والأدبية جميعاً.

فالكتاب تهذيب واختصار لأشهر كتاب في تراثنا الأدبي وهو كتاب الحيوان لإمام العربية الكبير الخالد أبي عثمان الجاحظ (١٦٠ ـ ٢٥٥ هـ).

والذي قام بهذا العمل الكبير هو إمام اللغة العلامة ابن منظور المتوفى عام ٧١١ هـ، وهو من هو شهرة في تاريخنا اللغوي والأدبي جميعاً.

ويضم هذا السفر النفيس قسماً دراسياً تناول الباحث فيه الجاحظ وكتابه الحيوان، وابن منظور وتهذيبه لكتاب الحيوان بالدراسة، وقسماً آخر يشتمل على تهذيب كتاب الحيوان نفسه.

(٢)

وتنتظم الدراسة عن الجاحظ باباً من ثلاثة فصول:

تحدث الباحث في الفصل الأول عن عصره، إذ أن الشخصية الأدبية لا

يمكن دراستها بمعزل عن المؤثرات البيئية، ولا بمنأى عن الظروف التي أحاطت بحياته، كما أنه لا يمكن الفصل بينها وبين الواقع السياسي والديني والاجتماعي والثقافي للعصر، إذ أن كل ناحية مما سبق لها تأثير مباشر في مكوناته، وتكوين انطباعاته، ولا يمكن النظر إلى العصر الذي تنشأ فيه الشخصية الأدبية نظرة شاملة، واعتباره مرحلة فنية واحدة، ولكن يجب الوقوف عند الظواهر الفنية المختلفة التي لها تأثير في الشخصية، إذ أنه ربما قد يكون هذا الشخص أو ذلك مرتبطاً ارتباطاً فنياً باتجاه مذهبي وقع تحت تأثيره، أو كان ذا شخصية فنية موهوبة طاغية، أثرت فيمن عاصره.

ولما بين الشخص وعصره من ارتباط عضوي، كان لا بد أن يكون الحديث بعد ذلك عن حياته، فقد تناول الجاحظ من حيث نشأته وتكوينه، حتى يمكن التعرف على دقائق حياته.

ثم تحدث في الفصل الثاني عن الجانب الثقافي الذي لا ينفصل عما تحدث عنه في الفصل السابق، إذ أن ثقافته واكبت نموه، وشهدت معه، وبقدر ما وهب من اتساع المدارك، كانت رجاحة عقله، وسعة أفقه، واتقاد ذكائه، تلك العوامل التي تضافرت فيما بينها، حتى جعلت منه شخصية مؤثرة وعلماً يهتدى به، وأصبح له شهرة تضارع في ثباتها ووضوحها وخلودها شمساً لا تغرب عن الوجود أبداً.

ولما كان أساس هذه الشهرة، وقواعد هذا التفوق، لسانه البليغ وقوة بيانه القاهر، ونبوغه في الفصاحة، كان طبيعياً أن يعقد الفصل الثالث لاستجلاء أسباب شهرته، وتتبع منهجه العلمي في البحث ومنهجه في التأليف وأسلوبه، نستخبرهما من آثاره، ونستنطق كتبه، فإنها خير إشارة وعلامة نهتدي بها إليها، ولسانه الباقي في الدنيا التي ما زالت وستظل تتحدث عن مكانته وسبقه لأقرانه وأنداده في كل زمان ومكان.

وأما بالنسبة لابن منظور فقد بسط القول فيه وعقد لدراسته باباً من فصلين، ألقى الضوء في الفصل الأول منه على الظروف السياسية والاجتماعية

والثقافية التي عاصرها ابن منظور، وكان لها تأثير على تكوينه كما تناول هـذا الفصل حياته التي تلونت بعصره.

والفصل الثاني يشتمل على ثقـافته ومؤلفـاته، مـع التركيـز على منهجـه والاستفادة منه، وبخاصة منهجه وأسلوبه في الاختصار، مع توضيح الأسباب الداعية إليه والغاية منه، مع تسليط الضوء عـلى ما عـرف له حتى الآن من مختصرات.

ولما كان كتـاب الحيوان للجـاحظ من الأهمية بمكـان، قام ابن منـظور باختصاره، ليعم الانتفاع به، ويسهل اقتناؤه، وكان لا بد أن يعقد الباحث باباً ثالثاً يتناول فيه الكتاب من حيث أهميته والتعريف به، وإظهار مكانته العلمية وقيمته بين أقرانه التي ألفت في بابه، ومصادره وآراء الدارسين فيه، وإذا كان ما سبق هو موضوع الفصل الأول، فإن الفصل الثاني: كان المائدة التي عرض عليهـا الأشكال المختلفـة التي ظهر عليهـا هذا السفـر، والتي ضمت الجهود الضخمـة التي بذلت في تنقيحـه، فتمثلت في طبعات واختصـارات، ونسـخ وتهذيب قام به علماء دروا حقيقة هذا المؤلف، وأدركوا خطورته ونفعه، فحاز اهتمامهم واهتمام الباحثين حتى احتل مكاناً رفيعاً في المكتبة العربية، باعتبـاره مرجعاً لا يستغني عنه العلماء، ولا الأدباء، ناهيك عن محبي الثقافة والباحثين في التراث.

وحتى نعلم مدى علمية هذا البحث، وندرك ثمرة هذا العمل، كان لا بد من عقد فصل ثالث يوضح فيه الباحث أهمية هذا المختصر، ومكانه من الأصل، وموقعه من النسخة المتداولة. ولكي يقدمه في ثوب أصيل، قام بإزالة عجمته بوصف متمكن قادر على جـلاء الحقيقة، ويمسـح عن الكتاب ركـام النسيان الذي علق به ردحاً من الزمن. وحيث أن درجة الإجادة في عرضـه وصقل معدنه، وتوضيح مبهمه، وفتح مغاليقه، لا تأخذ شكلاً موضوعياً إلا من طريقة تنقيحه، والتدقيق في نقده، والأمانة في تحقيقه، وأسلوب تناوله، كان اتباعه لمنهج حازم حدد دروبه ومسالكه تحت عنوان فرعي في الفصل الثالث من

الباب الأخير- (منهجي في التحقيق)، ليسهل الوصول إلى الهدف، وبلوغ الغاية من أقرب طريق دون تعثر أو تخبط.

(٣)

أما في جانب التحقيق لكتاب ابن منظور في تهذيب الحيوان فلقد سلك الباحث في تحقيق هذا المختصر منهجاً حازماً التزم فيه بما يلي:

١- مقابلة هذه النسخة بالنسخ المتعددة لكتاب الحيوان، المخطوطة منه والمطبوعة.

٢- التدقيق في كل لفظة والتحقيق من صحتها قبل إثباتها، وذلك بمعارضتها بما ورد في المراجع إن وجدت، أو ملاءمتها لسياق المعنى، أو البحث عنها في المعاجم.

٣- معارضة النصوص بالنصوص الواردة في كتب التراث الأخرى، التي نقلت عن الجاحظ، وأثبت ما وقع فيها من اختلاف أو تغيير في الكلمات مع الإشارة إليها. كما أفادته هذه النقول في تصويب تحريفات وقعت في بعض العبارات المشابهة كما في المخطوطة.

٤- الإشارة إلى تعليقات ابن منظور على كلام الجاحظ.

٥- وضع الرموز المعينة التي تساعد على معرفة السقط الذي حدث في النسخة المتداولة، مع الإشارة إلى هذا السقط وأرقام الصفحات مقابل أرقام لوحات المخطوطة التي تثبت ذلك السقط.

٦- التعريف بالأعلام الواردة في الكتاب إلا القليل النادر مما لم يعثر له على ترجمة فيما رجع إليه من مراجع، اما لأنه من غير المشاهير من معاصري الجاحظ، أو لأن في الاسم تحريفاً.

بالإضافة إلى الجهد العادي الذي قام به المحقق في تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، والأبيات الشعرية، والشواهد النثرية، والتي بذل في تخريجها

جهد الطاقة، بالإضافة إلى عمل فهارس تشمل ما يحتويه البحث عامة، والتحقيق بخاصة، مع فهرسين هامين هما: فهرس (السقط) الذي حدث في النسخة المتداولة، وثبت بالمخطوطة ثم فهرس (الكلمات المتباينة).

وبلغت جملة الفهارس تسعة عشر فهرساً بيانها كالآتي:

١ - فهرس السقط.
٢ - فهرس الكلمات المتباينة.
٣ - فهرس الآيات القرآنية
٤ - فهرس الأحاديث النبوية.
٥ - فهرس أنواع الحيوان
٦ - فهرس أنواع الحيوان وما يتعلق بها.
٧ - فهرس أعلام الحيوان.
٨ - فهرس الاعلام.
٩ - فهرس القبائل والطوائف.
١٠ - فهرس البلدان والمواضع.
١١ - فهرس الأمثال.
١٢ - فهرس الأشعار.
١٣ - فهرس الأرجاز.
١٤ - فهرس اللغة.
١٥ - فهرس أيام العرب.
١٦ - فهرس مراجع التحقيق والدراسة.
١٧ - فهرس موضوعات المخطوطة.
١٨ - فهرس الموضوعات.
١٩ - فهرس الفهارس.

ولقد سبق أن قام الأستاذ عبد السلام هارون بتحقيق نسخة من كتاب الحيوان وقد طبع تحقيقه طبعتين مختلفتين تدارك في الثانية كثيراً من الأخطاء التي حدثت في الأولى؛ وقد وضع السمات العامة لكتاب الحيوان، معلقاً وشارحاً لبعض نصوصه؛ وقد أفاد الدكتور المحقق ذلك كثيراً في تحقيقه لمختصر ابن منظور. كما قام الأستاذ عبد السلام هارون أيضاً باختصار نسخة أخرى من كتاب الحيوان للجاحظ، ويظهر ذلك الاختلاف بجلاء عند عرض المخطوطة ومقابلتها بالنسخة الأولى.

وكانت مصادر الدكتور المحقق هي نفس مصادر من سبقوه في دراسة الجاحظ وابن منظور، ولكنه حاول أن يقف في تخريج النصوص والشواهد الشعرية وشرحها عند مجموعات الشعر الموثقة، حاول ذلك جهد الطاقة طالما

كان ذلك متيسراً.. إضافة إلى مصادر أخرى لها صلة مباشرة بالدراسة أو التحقيق، كما انتفع كثيراً من كل ما أمكنه الاطلاع عليه في كتابة هذا البحث الذي أخذ مجهوداً كبيراً ومشقة.

ولقد كان الكشف عن هذه المخطوطة «اختصار حيوان الجاحظ لابن منظور» حدثاً كبير الأهمية لاعتبارات كثيرة: **أولها**: قيمة كتاب الحيوان للجاحظ في تراثنا الأدبي والفكري.. **والثاني**: إن هذا المختصر أو التهذيب يكمل الكتاب ـ الحيوان ـ المطبوع والذي سقطت منه فقرات كثيرة على امتداد عصور التاريخ وأيدي الناسخين.. ففي هذا المختصر توجد اختلافات كثيرة، وتقويمات عدة، للنسخة المحققة من كتاب الحيوان على سبعة أجزاء في طبعتين مختلفتين للأستاذ عبد السلام هارون.. **والثالث**: انه بالعثور على هذه المخطوطة وتحقيقها يضاف إلى أعمال ابن منظور القليلة المعروفة، كتاب جليل، وعمل كبير قام به، يعطينا دلالة واضحة على منهجه وطريقته في تهذيب المطولات، واختصار الكتب، ثم عرضها في شكل جديد وحجم ميسر.

كما انه بالعثور عليها نستطيع أن نؤكد أن ابن منظور قام باختصار عدد ضخم من الكتب تقارب الخمسمائة مجلد، كما نقل هذا العدد منسوباً إليه على لسان ابنه شرف الدين، ومما اختصره كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني وإذا كان ما عثر عليه حتى الآن من مختصرات بخط يده يعتبر أقل القليل من ذلك الكم الهائل، فليس معنى هذا إنكار ما قام به من عمل، إذ أن ظهور واحد منه من وقت لآخر يقودنا إلى تصديق ما نقل عنه، والاعتراف بالقيمة العلمية لكل عمل قام به ابن منظور، وحمده على ما بذله من جهد مشكور على مر الأحقاب والدهور.

وكما يعد كتاب الحيوان من كتب التراث الضخم، يعتبر هذا المخطوط من الأعمال النادرة الموروثة عن أحد الجهابذة الذين ما زالوا وسيظل صدى إنتاجهم وفكرهم وعقلهم مضرب الأمثال، يتردد في كل زمن، منذ أن كانوا نقطة مضيئة في تاريخنا الأدبي والفكري والثقافي، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

إن أبناء هذا الجيل على أعناقهم دين لتاريخهم ولثقافتهم، وللتراث العربي

عامة، أن يعرفوا به، وأن يخرجوه للناس محققاً منشوراً وأن لا يبقى هذا التراث مطموراً في خزائن الكتب في العالم في زوايا النسيان في مختلف دور الكتب. ولو قيض للمخطوطات العربية أن تخرج من عزلتها، ويطلع العالم على كنوزها، لأفاضت على تاريخنا نوراً وضاء يجلو ملامحه، وزودت ثقافتنا الحاضرة، بما يقيمها على أسس آصل وأثبت، وأفاءت على التراث الإنساني فضلاً كثيراً، وخيراً كبيراً.. والله ولي التوفيق.

د. محمد عبد المنعم خفاجي



البـــاب الأول

«أبو عثمـــان الجاحـــظ»

ويشتمل على:

الفصل الأول: عصر الجاحظ وحياته.
أولاً: عصر الجاحظ.
ثانياً: حياتـه.

الفصل الثاني: ثقافة الجاحظ ـ مؤلفاته ـ شهرته.

الفصل الثالث: منهج الجاحظ.
أولاً: منهجه العلمي في البحث.
ثانياً: منهجه في التأليف.
ثالثاً: أهمية مؤلفاته.



الفصـــــل الأول

«عصر الجاحظ وحياته»

أولاً: عصر الجاحظ

كانت حياة الجـاحظ ـ الزاخـرة بالعلم ـ في العصرين العبـاسيين الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ)، والثـاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ)، حيث ولد عـام ١٥٠ هـ أو ١٥٩ هـ، وكانت وفاته عام ٢٥٥ هـ بإجماع الرواة.

كان العصر العباسي الأول (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الـدولة، أمـا العصر العباسي الثـاني (٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ)، فاتسم بضعف الخلافة وضياع هيبة الخلفاء، وفساد شؤون الدولة، وذلك بتغلغل نفوذ الأتراك الذي بلغ مبلغاً كبيراً في هذا العصر.

وإذا كان ما سبق يعد إيجازاً للحياة السياسية للعصرين السابقين، فإن الحياة الثقافية والاجتماعية قد بلغتا الذروة في الكمال والتحضر، لقد درج الخلفاء على تشجيع العلم والعلماء، ومن مظاهر هذا التشجيع أن الخلفاء كانوا يبعثون بأولادهم إلى البادية لمشافهة الأعراب، حتى تقوى لديهم ملكة اللغة، فإن لم يكن كذلك، فقد كانوا يجلبون المؤدبين لأبنائهم، ومن الأدبـاء غير قليـل قد اشتهروا بتأديب أبناء الخلفاء.

وفي هذا العصر زاد امتزاج الثقافات واتصالها بتطاول الزمن، وتـلاقح العقول قد بلغ أشده، كما ظهرت الترجمات. أدت تلك العوامل إلى علو شأن كل من يتصل بالعلم، واحتلال مكانة طيبة في قلوب الخلفاء، يترجمونها على شكل هبات أو أعطيات أو منح يقدمونها للعلماء.

وإذا كان العصر العباسي الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال التي بـدأها

المأمون بكل ما يستطيع، فإن العصر العباسي الثاني - وهو عصر نفوذ الأتراك - كان مصحوباً بمظاهر جديدة أهمها: إبقاء سلطان المعتزلة، وإعلاء شأن المحدثين. فأمر المتوكل بترك الجدل في القرآن، واضطهد رؤساء المعتزلة كمحمد بن أبي الليث في مصر، وأحمد بن أبي دؤاد في العراق، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين «وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الأتراك ويعملون له»[1].

لقد تعددت مراكز الثقافة، وأصبح التنافس بين المدن المختلفة شيئاً محموداً، فإذا كان تفوق الشام فيما سبق، فإن العراق احتلت الصدارة في العلم والأدب، فكانت بغداد والبصرة وحران من أهم مراكز العلم والحضارة.

زخر هذا العصر بالعلوم قديمها وحديثها، كما كان حافلاً بالعلماء والمفكرين والفلاسفة، كما كثرت العلوم المترجمة، واتخذت سبل التفكير طرائق مختلفة، فتبع ذلك اختلاف مناهج الثقافة مما أدى إلى الخلاف بين العلماء.

أما عن الحياة الاجتماعية: فقد عاش الخلفاء حياة البذخ والترف يمثلون طبقة الخاصة[2] صاحبة الثروة والنفوذ والجاه، وحياتهم مترفة لاهية، على حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس[3].

كان عصر الجاحظ - مع تنوع الحياة وتعدد أشكالها، وتباعد ما بين الطبقات ترفاً وفقراً - بحق هو العصر الذهبي للأمة العربية، فقد أتت به الأقدار في عصر الرشيد والمأمون، وناهيك به من عصر كانت فيه سائر عواصم الإسلام تزخر معاهدها بأنواع الفنون، وألوان العلوم.

ولقد أرسيت قواعد الدولة منذ عصر الرشيد وابنيه من بعده، مما ساعد في توفير المناخ المناسب للاشتغال بالعلم، والإنتاج العقلي الوفير، كما كان لهذا الاستقرار دور كبير في بلوغ هذه الدولة المكانة الرفيعة في شتى المجالات

(١) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٤١.
(٢) ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان د. خفاجي ص ٤٧ وما بعدها.
(٣) ظهر الإسلام جـ ١ ص ٩٧.

«فأصبحت تفيض بحياة رفيعة عزيزة يظللها الإسلام، وتقومها لغة القرآن، فأينما وليت وجهك تجد نشاطاً في السياسة والثقافة والاجتماع والاقتصاد»[1].

وكانت حياة الترف والبذخ ذات شأن كبير في تعدد مصادر الإلهام وثراء الخيال، «فملك شاسع، وجاه عريض، وجيش قوي، ووزراء وحجاب، وقصور فخمة، وترف ونعمة، وبساتين ورياض، ومغنون وقيان، وأموال وفيرة، وصناعات كثيرة، وثقافات غزيرة، ومعارف جمة، ومجالس للغناء، ومجالس للشراب، ومدارس متعددة، ونزعات متباينة، وعناصر مختلفة»[2] جدير بأن يخلق حياة ثرة في مختلف النواحي غنية بعوامل تشحذ العقول.

كانت البصرة التي ولد فيها الجاحظ تفخر ببعض البيوتات التي بها، وإذا استقصينا هذه البيوتات لما لها من تأثير فرض على أربابها خطوطاً سياسية ودينية اتبعتها تلك الأسر نجد «في البصرة توطنت أربعة بيوتات، أو بيوتات الأمراء والشرف البدوي، وهي آل زرارة، وآل زيد، وآل الدئل، وآل القيس»[3].

ويقرر ابن الفقيه أيضاً أن في البصرة «أربعة بيوتات ليس في الكوفة مثلها «بيت بني المهلب، وبيت مسلم بن عمرو الباهلي من قيس، وبيت بني مسمع من بكر بن وائل وبيت آل الجارود من عبد القيس»[4].

أما عن المهلب فبتاريخه البطولي، يعتبر البطل القومي عند البصريين وسموا مدينتهم «بصرة المهلب»[5] على اسمه، ولقد كانت حروب المهلب مع الأزارقة ذات أثر كبير على مكانته ـ فقد دفع خطرهم عن البصرة[6]ـ «مما جعل الأمويين يعيدونه إلى سابق عمله، على الرغم من مشايعته لعبدالله بن الزبير، ولكن ثروته الضخمة التي أفادت منها سلالته، قد جعلت منه هدفاً للمطاعن،

---

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص ١٨٣.
(٢) المرجع السابق ص ١٨٥.
(٣) الجاحظ ـ شارل پلاَّ ص ١٦٤.
(٤) ابن الفقيه ص ١٩٠.
(٥) الجاحظ ـ شارل پلاَّ ص ١٦٤.
(٦) التهذيب ـ النووي ص ٥٨٣.

فإن شاعراً كالفرزدق الذي لم يحجم الحجاج عن استخدامه ضد المهلبيين، قد نظم قصائد هجائية من شأنها أن تغبش مؤقتاً سيرة هذه الأسرة المشهورة»[1].

ومسلم بن عمرو الباهلي، أحد رؤساء البيوت الأربعة التي ذكرها ابن الفقيه، ولكن البصريين كانوا ينظرون إلى ابنه قتيبة على أنه البطل القيسي[2]، وكان مسلم من كرام البصريين.

وكان مالك بن مسمع ينعم عند بكر بن وائل بمنزلة عالية.

والجارود العبدي رئيس أسرة ذكرها ابن الفقيه، كانت بيدها مقاليد بني عبد القيس وكانت هذه الأسرة معروفة بتشيعها، وقد تولى قيادة العبديين مالك ابن المنذر بن الجارود في جيش مصعب الذي وجهه لمحاربة المختار الثقفي.

ظهرت هذه البيوتات في القرن الأول للهجرة، وأسهمت بقدر كبير في حضارة الأمة الإسلامية، وإثراء معين الأدب خاصة والثقافة بوجه عام.

وإذا كان هؤلاء هم رؤوس الأسر التي عمرت بها البصرة، فقد كان هناك بعض العناصر الدخيلة، وتتمثل في أولئك الخدم والرقيق والموالي التي صحبت القبائل العربية عند أول استقرارها بالبصرة، وقد تعددت أصولهم ومنشأهم، وكان اتصال هذه العناصر الدخيلة بالعرب عن طريق الولاء الذي يتفاوت في الجدة والقدم «فبعضهم كان عربياً وكانت صفة الولاء عندهم ناشئة عن حلف، وهو نوع من المساعدة المتبادلة كانت تحط من منزلة القبائل الضعيفة العاجزة عن حماية نفسها، على أن تهيِّئ لها الأمن والسلامة، والبعض الآخر كانوا رقيقاً أعتقوا بعد الإسلام، وصهروا في البوتقة فنسوا أصلهم الأجنبي الحقير»[3].

كان هذا الخليط من الجنسيات والعناصر المختلفة يضفي على الحياة في هذا العصر لوناً خاصاً، فهو مزيج من العادات والتقاليد العربية الأصيلة، والسلوك والحياة العربية والعادات والتقاليد الوافدة مع الأرقاء والخدم، مع ما

(١) الجاحظ - شارل بلاّ ص ١٦٤.
(٢) المحاسن والمساوئ - البيهقي ص ١٠١.
(٣) الجاحظ - شارل بلاّ ص ٦٥.

لهؤلاء الموالي من تأثير في الناشئة بفضل مكانتهم وولائهم عند أرباب البيوتات، وقد منحتهم حياة الفريقين السيد والمسود المشتركة، وسبق الموالي إلى الإسلام وحتى قيامهم بالأمور الموكولة إليهم، جنسية مزدوجة عربية إسلامية «تجيز لهم الاستعلاء على الموالي الجدد الذين جاؤوا إلى العرب من جراء الفتوحات الواسعة»[1].

وإذا ما أجلنا النظر في أنحاء الدولة العباسية باسطة السلطان على الدولة الإسلامية المترامية الأطراف، وجدنا راية العلم خفاقة في كل صقع، فالفنون يومئذ تزخر بها معاهد البصرة وبغداد والكوفة وقرطبة، وسائر عواصم الإسلام، وكان المعين فياضاً مترعاً، والعقول في نشاط، وفورة التأليف والترجمة لها دوي النحل في كل صقع.

كما امتاز هذا العصر بمن عرفوا بوفرة النتاج الفكري وغزارة العلم، وممن ضربوا بسهم وافر في مجال التأليف، واستووا على غاية قصر معها من عداهم، منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ ـ ٢٠٩ هـ)، وكان من أهل البصرة، وقد نعم الجاحظ بالجلوس إليه[2]، وهو ممن عرف بكثرة تصانيفه ووفرة علمه وحذقه وذكائه. يقول صاحب الوفيات «تصانيفه تقارب مائتي مصنف»[3] وشهد له الجاحظ نفسه فقال «لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي، أعلم بجميع العلم منه»[4]، عدّ له ابن النديم في فهرسته مائة وخمسة مصنفات.

ثم أبو الحسن علي بن محمد المدائني (١٣٥ ـ ٢٢٥ هـ) العالم الجليل وصاحب التصانيف الكثيرة، نبغ في الفنون، وحاز الإعجاب، كان محط أنظار الأمراء والطلاب ومريديه، عدّ له ابن النديم مائتين وأربعين مصنفاً.

ثم هشام بن محمد الكلبي الكوفي، كتبه في الفهرس نحو مائة وتسعة وثلاثين مؤلفاً.

---

(١) الجاحظ ـ شارل بلا ص ٥٥.
(٢) البيان جـ ٣ ص ٢٠٦.
(٣) الوفيات جـ ٢ ص ١٠٦.
(٤) البيان جـ ١ ص ٢٢٤.

هكذا كانت الحياة في هذا العصر الذي ظهر فيه الجاحظ، مزيجاً قوياً من حضارات وثقافات قديمة رفدتها جداول تلك الأمم التي فتحها العرب وامتزجوا بها. شهد الجاحظ هذه الحياة، وتفاعل معها، ووقف أمامها بعقله الكبير، كما يقف المصور البارع، والناقد اللاذع، والموجه الأمين والمؤرخ الحكيم، ينقل هذا العالم الواسع وتلك الحياة الصاخبة بكل صورها ومشاهدها وأحداثها إلى بطون كتبه ورسائله، حتى كان له هذا التراث الضخم، وذلك المجد الخالد، وحتى أصبح إماماً في البيان العربي، وقبلة الأدباء والبلغاء بأسلوبه الشيق، وعظمة شخصيته البسيطة النادرة.

ثانياً: حياة الجاحظ

أولاً: مولده ونسبه:

ولد الجاحظ في البصرة التي وصلت إلى أوج ازدهارها، والتي أصبحت موئلاً من أعظم موائل العلم، وبيئة من أخصب البيئات الثقافية، يلتقي فيها العلماء والأدباء من مختلف الشعوب، ويجتمعون بالمربد، أو المسجد «وكانوا يسمون المربديين أو المسجديين»(١).

في هذه البيئة الخصبة الآهلة بالعلم والثقافة ولد الجاحظ، أما عن تاريخ مولده، فلم تذكر لنا كتب التراجم ذلك التاريخ بالتحديد، إلا أن الذين قاموا بالتأريخ لمولده، قد اعتمدوا في ذلك على بعض الأقوال الصادرة عن الجاحظ نفسه.

قال المرزباني «حدث المادي قال: حدثني من رأى الجاحظ يبيع الخبز والسمك بسيحان، قال الجاحظ: أنا أسنّ من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة خمسين ومائة، وولد في آخرها»(٢).

وعلى هذا القول كان اعتماد ياقوت في تحديد تاريخ مولد الجاحظ، وأنه ولد سنة(٣) ١٥٠ هـ، بينما يجعل بعض المؤرخين ولادة الجاحظ سنة ١٥٥ هـ، ١٥٩ هـ ١٦٣ هـ، ١٦٤ هـ، ١٦٥ هـ.

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص ١٨٣ - ٢١٣.
(٢) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٥.
(٣) مرآة الزمان - ابن الجوزي ص ١٨٥.

وقبل حسن السندوبي الخبر الذي يقول: بأن الجاحظ ولد سنة ١٥٠ هـ والذي قال به ياقوت، ومنحه صحة مطلقة، إلا أن ياقوتاً الرومي، وهو متأخر كان أول من ذكر الخبر دون أن يصحبه بإسناد[١].

وإذا كان تاريخ مولد الجاحظ لم يحدد تحديداً قاطعاً، فإن تاريخ وفاته معروف على وجه التأكيد، فقد توفي سنة ٢٥٥ هـ، وكانت وفاته بالبصرة أيضاً. يقول الزركلي «مولده ووفاته بالبصرة، فلج في آخر عمره»[٢].

ومهما كان عمره من حيث القصر والطول إلا أن السنوات التي عاشها الجاحظ كانت سنوات كفاح وجهاد توّجها الجاحظ بهذا النتاج الضخم من المؤلفات كتباً كانت أو رسائل، ويدلنا على أنه استغل حياته حتى آخر يوم فيها يعمل من أجل العلم ما قاله صاحب الأعلام «فلج في آخر عمره، وكان مشوه الخلقة، ومات والكتاب على صدره، وقتلته سجلات من الكتب وقعت عليه»[٣].

وهكذا كانت هذه الكتب التي عشقها طول حياته، وجعل منها أنيساً وسميراً أيام عمره، يتغنى بها، ويفرح لاقتنائها، وأفنى من أجلها عمره - كانت - سبباً في مصرعه، فمات شهيد كفاحه، وفداء ما عشقه.

وكما اختلفت المصادر في تحديد تاريخ مولده، اختلفت أيضاً في اسمه، وفي أصله، فإن المترجمين له منقسمون إزاء هذه القضية، ويمكننا أن نلتمس الحل عند أرباب التراجم أنفسهم، يشير الخطيب البغدادي[٤]، ومن بعده ابن عساكر[٥] إلى أن الجاحظ ينتسب إلى قبيلة مضرية من كنانة ضاربة في جهات مكة، على أنه امّا كناني قح من صلبهم، أو مولى لهذه القبيلة، على أنهما يذكران بعد ذلك خبراً يصعد إلى خال أم الجاحظ (يموت بن المزرع)، الذي قال «كان

---

(١) الجاحظ - شارل بلاّ ص ٩٠.
(٢) الأعلام جـ ٥ ص ١٦٣.
(٣) الأعلام جـ ٥ ص ١٦٣ - ٢٥٥.
(٤) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٢٢٢.
(٥) تاريخ دمشق ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

فزارة جد الجاحظ عبداً أسود، وكان جمالاً لعمرو بن قلع الكناني»[1].

وكان ياقوت الذي نقل جزءاً من هذا الخبر، الوحيد من المؤرخين الذي ذكر بأن أحد أجداد الجاحظ يدعى فزارة، ويطلق عليه السمعاني اسم محبوب[2]، في حين تطلقه بعض المصادر على جد الجاحظ.

والبغدادي وابن عساكر لم يقطعا بأصل الجاحظ، على أن الرأيين الواردين هما: إما أن يكون جده كنانياً ليثياً من بني كنانة بن خزيمة والد النضر أبي قريش، وبنو كنانة بطن من مضر، فيكون الجاحظ على هذا منحدراً من أصل عربي، وإما أن يكون مولى لأبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي فتكون نسبته إلى كنانة نسبة ولاء.

ورجل مثل الجاحظ، لهو رجل يغلي في عروقه الدم العربي الذكي، وتفور في نفسه النعرة العربية الصحيحة، وإن كنت مرجحاً رأياً في هذا الباب فإني أميل إلى ما قاله الأستاذ عبد الحكيم بلبع في كتابه عن الجاحظ[3]، أنه عربي مؤيداً ما ذهب إليه بما قاله البلخي سالكاً الحيدة في الرأي «الجاحظ كناني من أهل البصرة».

وعن اسمه يقول صاحب وفيات الأعيان هو «أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني[4] الليثي». وينقل الزركلي اسماً شبيهاً بذلك، إلا أنه ذكر في نهاية تلك السلسلة «الكناني بالولاء الليثي[5] أبو عثمان»، وأبو عثمان كنيته قال الجاحظ «نسيت كنيتي ثلاثة أيام، حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنى؟ فقالوا: بأبي عثمان»[6].

والجاحظ لقبه، بينما اقتضب ياقوت اسمه وقال في ترجمته له «أبو عثمان

(١) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٢٢٢.
(٢) الأنساب ص ٢٢٨.
(٣) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص ١٨٥.
(٤) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٠ ـ ١٤٤.
(٥) الأعلام جـ ٥ ص ١٦٣.
(٦) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٥.

الجاحظ كان جده مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي»[1].

ومن النقولات التي أوردناها نصل إلى اسمه المتداول فنقول: هو أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني الفقيمي البصري، بغض النظر عن اللقب الذي حفظته لنا الأجيال، وقد أطلق عليه لقب (الجاحظ) بسبب نتوء حدقتيه، مما جعله دميماً، واتخذ هو نفسه ذلك القبح مثار فكاهة ودعابة، وربما لقب بالحدقي، وهو أقل ذيوعاً من لقبه الأول.

يقول صاحب الوفيات «وكان مع فضائله مشوه الخلقة، وكان يقال له أيضاً (الحدقي) كذلك، ومن جملة أخباره أنه قال: ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني»[2].

ومهما يكن من أمر نسبه وأصله وما فيهما من اختلاف، فإن الجاحظ قد كرس حياته وجهده لخدمة العرب والعربية، كما تزعم أكبر حركة قامت في وجه الشعوبية حتى هدمتها أو قضت عليها[3].

وإذا كانت قيمة الفرد فيما يؤديه من عمل نافع، وهذا العمل هو المقياس الذي يوزن به قدر الأشخاص، والمعيار الذي يقوم به بقاء ذكرهم وخلودهم مع التاريخ فإن الجاحظ بهذا المقياس قد أدى الكثير خدمة للإسلام والعلم، ولا جدال في أنه خدم العرب والعربية.

ثانياً: نشأته:

أما عن نشأته فتذكر المصادر أن طفولته كانت طفولة فقيرة، حيث أنه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان، ويبدو أنه كان يمتهن ذلك قبل احتراف الكتابة والتأليف وإن كانت مهنته الأولى لم تمنعه قط من المطالعة والتردد على دكاكين

(١) معجم الادباء جـ ١٦ ص ١١٢.
(٢) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٠.
(٣) النثر الفني ص ١٨٥.

الوراقين، مات أبوه منذ حداثته، فكفلته أمه وقامت على تربيته، ولم يكن لديه مورد يقتات منه إلا بيعه الخبز والسمك[1].

قضى شطراً من حياته يقاسي من شظف العيش وشدة الحياة، ولم ترفه حياته وتظهر نعمته إلا بعد أن اتصل بكبار رجال الدولة، وقربوه منهم، وأجازوه على رسائله وكتبه، ونلمس مقدار الرفاهية والترف اللذين عاش فيهما بعد ذلك اللأي من قوله «أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى ابراهيم بن عباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد»[2].

«كما أحبه محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق من بعده، وكان من دهاة الأدب والسياسة، فصادقه وآخاه، وعشق فيه علمه الغزير وأدبه الوفير وعبقريته الفذة»[3].

كان الجاحظ يعيش في رغد من فيض هذه العطايا والمنح، التي كانت تتدفق عليه. قال، وقد سأله سائل مرة عما إذا كانت له ضيعة فتبسم وقال «إنما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار»[4].

ويظهر أن الجاحظ جنى الخير الوفير لملازمته محمد بن عبد الملك الزيات، وإن كانت هذه الصحبة والنعمة تنقلب عليه نقمة عندما قبض على ابن الزيات، يقول المرزباني «وكان الجاحظ ملازماً لمحمد بن عبد الملك خاصاً به، وكان متحرفاً عن أحمد بن أبي دؤاد للعداوة بين أحمد ومحمد، ولما قبض على

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٨٤.
(٢) المرجع السابق ص ١٠٦.
(٣) النثر الفني ص ١٨٨.
(٤) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ١٠٦.

محمد هرب الجاحظ فقيل له: لم هربت؟ فقال: خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور!، يريد ما صنع بمحمد»[1].

وكانت نفسه الفكهة علامة له وطابعاً فيه، وبهذه النفس الطيبة كان يواجه بعض المواقف العصيبة التي يتعرض لها، فقد حدث أن أتي به مقيداً أمام أحمد بن أبي دؤاد بعد قتل ابن الزيات الذي كان يشايعه الجاحظ، فاستطاع الجاحظ أن يفك نفسه من أغلالها ومن القيود التي كان ينوء بحملها، بحضور بديهته، وطرافة نكتته[2].

وحدث المرزباني قال «روى أصحابنا أن الجاحظ صار إلى منزل بعض إخوانه فاستأذن عليه، فخرج إليه غلام عجمي فقال: من أنت؟ فقال: الجاحظ، فدخل الغلام إلى صاحب الدار فقال: الجاحد على الباب، وسمعها الجاحظ، فقال صاحب الدار للغلام: أخرج فانظر من الرجل، فخرج يستخبر عن اسمه فقال: أنا الحدقي فدخل الغلام فقال: الحلقي، وسمعها الجاحظ فصاح به في الباب: ودنا إلى الأول يعني أن قوله الجاحد مكان الجاحظ أسهل عليه من الحلقي مكان الحدقي، فعرفه الرجل فأوصله واعتذر إليه»[3].

وحكى الجاحظ عن نفسه قائلاً «ما أخجلني قط إلا امرأة أخذت بيدي إلى نجار فقالت: مثل هذا، ومضت، فعجبت، وسألت النجار عن قولها فقال: أتت إليّ وقالت أن أصنع لها صورة تخوف بها أولادها، وأتت بك مثالاً»[4].

ومع هذه المواقف النفسية التي كان يتعرض لها إلا أنه كان منطلقاً عاشقاً للحرية.

كان الجاحظ منذ وعى نفسه يعيش حياة حرة لا يقيدها إلا دينه وإلا

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٦.
(٢) راجع القصة في معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٨.
(٣) المرجع السابق.
(٤) دائرة معارف البستاني مجلد ١ ص ٣٤٨.

شغفه بمطالعة الكتب، والتردد على دكاكين الوراقين، فما عرف عنه أنه قبل أن يلي منصباً من المناصب في الدولة.

كانت شخصية الجاحظ مزيجاً من القوة والدعة، والجد والهزل، والأنفة والتواضع، والحمق والتبسط، شخصية فذة، اتسمت بأعظم القيم الإنسانية فأتيح لها على مر الأزمان المجد والخلود.

آراء الدارسين في الجاحظ:

لقد جمع الجاحظ أدوات كثيرة تجعله في صدارة المرموقين، وأحلته المحل الرفيع، أوتي القدرة على التعبير، وجمع أقوى عناصره التي تمنحه الإبداع وتضفي عليه ظلال الجمال والروعة، والدقة والوضوح والإحاطة، لا يجهد في تفهم معانيه - إنما يعطيها ميسرة سهلة - ولا ينغلق على الأفهام مراده، حتى أصبح أدب الجاحظ وعلمه وعبقريته مما يلفت الأنظار، وموضع الثناء والإعجاب من الناس جميعاً، شهد له بالفضل أعداؤه قبل أصدقائه، وعشقوا كتبه ومؤلفاته قبل تلامذته ومريديه.

والمقام يضيق بنا لو أننا تتبعنا آراء الدارسين والعلماء في علم الجاحظ وأدبه، ولكننا سنكتفي هنا بعرض قليل من هذه الآراء، حتى نتبين مقام الرجل ومكانته، ومكان مؤلفاته من نفوس الناس والدارسين والقارئين لها، وما كان للجاحظ من أثر في توجيه الحياة العلمية والأدبية.

قال أبو الفرج الأصفهاني فيما يرويه عن عبدالله بن جعفر الوكيل قال: «كنت يوماً عند ابراهيم بن المدبر، فرأيت بين يديه رقعة يردد النظر إليها فقلت له: ما شأن هذه الرقعة كأنه استعجم عليك شيء منها؟ فقال: هذه رقعة أبي عثمان الجاحظ، وكلامه يعجبني وأنا أردده على نفسي لشدة إعجابي»[1].

وقال المسعودي «لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب إلا أن أبا الحسن المدائني كان

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٩٢.

يؤدي ما سمع وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة، ولا يعلم من سلف وخلف من المنزلة أفصح منه»(١).

وقال المرزباني... «كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية المخالفين والآداب والأخلاق، وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرأوها وعرفوا فضلها، وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه، علم أنه ليس في تلقيح العقول وشحذ الأذهان، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال، إلى القلوب كتب تشبهها، والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور»(٢).

وقال أبو الفضل بن العميد «ثلاثة علوم، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس، أما الفقه فعلى أبي حنيفة، لأنه دون وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه، وأما الكلام فعلى أبي الهزيل، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ»(٣).

وقد ألف أبو حيان التوحيدي كتاباً برمته عن الجاحظ أسماه «تقريظ الجاحظ»(٤).

ومما جاء في هذا الكتاب: اتفق أهل صناعة الكلام بأن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة، وأبو زيد البلخي، فمنهم من يزيد لفظه على

(١) معجم الادباء جـ ٤ ص ١٥٣.
(٢) المرجع السابق جـ ١٦ ص ٥٧.
(٣) المرجع السابق ص ١٠٣.
(٤) المرجع السابق ص ٩٥.

معناه وهو الجاحظ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه، وهو علي بن عبيدة، ومنهم من توافق لفظه ومعناه، وهو أبو زيد».

وقال ثابت بن قرة، وهو معاصر للجاحظ ومن كبار المؤلفين «ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس، أولهم عمر بن الخطاب (ويسرد له أوصافاً كثيرة) والثاني الحسن البصري (ويذكر له أوصافاً جليلة)، والثالث أبو عثمان الجاحظ، خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين، ومدره المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظّام في الجدال، وإن جد خرج من مسك عامر بن عبد القيس، وإن هزل زاد على مزيد، حبيب القلوب، ومراح الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رثاه آنفاً، ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استبقاء، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصفه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه والخاصة تسلم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم، طال عمره، وفشت حكمته وظهرت خلته، ووطئ الرجال عقبه وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه، ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب»[1].

وقال ابن العميد أيضاً «إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً، والأدب ثانياً»[2].

إلى آراء كثيرة أخرى قالها فيه من تناولوا الجاحظ وعلمه بالتقريظ والمدح، وإظهار فضله وسبقه، وتقدمه في جميع المجالات، واحتلاله مكانة فريدة في تاريخ العلم والأدب. وكثرت فيه الأقوال التي تعترف بفضله في كل زمان ومكان. ولم ينج الجاحظ ـ ككل عبقري يترك غيره وراءه يحبو ليلحق به فلا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ـ من قلة رأت ذكاءه ووفرة فكره جذوة ستنطفئ، وقيمته وقدره ضرباً من التفوق المؤقت، فحملوا عليه، يغضون من قيمة

(١) معجم الأدباء جـ١٦ ص٩٢.

(٢) المرجع السابق ص١٠٣، وفيات الأعيان جـ٣ ص١٤٢.

الرجل، ويحطون من شأنه، وإن كانت هناك دوافع وأسباب لهذه الحملات وهذا الهجوم غير العادل، والاتهامات الباطلة، ليس فيها إنصاف للحق أو العلم «كابن قتيبة، وأبي منصور البغدادي وغيرهما»[1].

قالوا فيه أقوالاً متهافتة، وقد بسط هذه الأقوال وفندها ورد عليها الأستاذ (حسن السندوبي) في كتابه «أدب الجاحظ»، والأستاذ (شفيق جبري) في كتابه (الجاحظ معلم العقل والأدب)، وغيرهما.

ولن نستعرض هنا تلك الآراء الكثيرة التي قيلت في الجاحظ، فقد كفانا مؤونة البحث عن ذلك أستاذنا الدكتور خفاجي، ولكن نحيل كل متطلع إلى معرفة المزيد عنها إلى سفره الذي ألفه بعنوان (أبو عثمان الجاحظ)، فقد استقصى فيه على مدى ثلاث وعشرين صفحة ما قيل في الجاحظ من آراء المفكرين والأدباء، وما قيل عنه من خصومه عرباً كانوا أو أجانب مع الرد المستفيض المقنع عليهم[2].

كما صدر عن الجاحظ كثير من البحوث والمؤلفات بمختلف اللغات الأوربية، وأهم الدراسات عنه ما كتبه (بروكلمان) في كتابه المشهور (تاريخ الأدب العربي) عن مؤلفات الجاحظ[3]، وكتاب (شارل پلاً) عن (الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء)[4]، وفي دائرة المعارف الإسلامية دراسة مستفيضة عن الجاحظ[5].

وليس هناك مفكر أو أديب عربي نال من الشهرة وذيوع الصيت، ومن الخلود الأدبي، على طول عصور التاريخ، ما ناله أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وليس هناك ـ كذلك ـ من الأدباء والمفكرين من شغل الناس والعصور، وكتبت عنه آلاف الآراء واالدراسات مثل أبي عثمان، الذي تتلمذ عليه أعلام العربية في عصره وفي كل عصر.

---

(١) راجع تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٧٢، الفرق بين الفرق للبغدادي ص ١٦٠.
(٢) راجع أبو عثمان الجاحظ لخفاجي ص ٢٦١ ـ ٢٨٤.
(٣) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان جـ ٣ ص ٧٠ وما بعدها.
(٤) الجاحظ ـ تأليف شارل پلاً ـ دار اليقظة العربية سنة ١٩٦١ ترجمة ابراهيم الكيلاني.
(٥) أبو عثمان الجاحظ ـ خفاجي ص ٢٧٤.

الفصـــل الثـــاني

(ثقافة الجاحظ ومؤلفاته وشهرته)

ثقافة الجاحظ:

أتيح للجاحظ من الظروف ما جعله عالماً في كل فن، فمع البيئة الثقافية التي نشأ فيها كان استعداده الفطري بذكائه الـوقاد، وحسـه المرهف، وعقله الممحص، وذاكرته القوية النادرة، كل ذلك جعل منه رجلاً مهيئاً لأن يكون الجاحظ لا غيره.

التحق في حـداثتـه بكتـاب من كتـاتيب البصرة، حتى أجـاد القـراءة والكتابة، ولم يكد يشتد ويبفع حتى ظهرت عليه علائم النبوغ، فأخذ يكرس كل وقته لطلب العلم والمعرفة، ويتلقى العلم والفصاحة شفاهاً من العرب في المربد ـ والمربد يـومئذ سـوق رائجة للعلم ـ وفيـه التقى بالعلماء والخـطباء في مجالسهم وحلقاتهم، فأخذ عنهم كل ما وعت صدورهم من علم ومعرفة.

أتيح له أن يجالس أساتذة أجلاء كانوا غرة دهرهم وآية عصرهم، ويكفيه أن يكون من هؤلاء: الأصمعي، ذلك العالم الأديب الذي كـان يحفظ ثلث اللغة، وجمع شتيتها في الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش. يقول ياقوت «سمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن الأخفش أبي الحسن وكـان صديقـه، وأخذ الكـلام عن النظام، وتلقى الفصـاحة من العرب شفاهاً بالمربد»[1].

كانت أولى مكونات ثقافته من مصادر ثرة لا ينقطع لها معين، فارتضع أفاويق البيان والفصاحة من منابعها، مع ما جبل عليه من حب وميل فطريين

---

(١) معجم البلدان جـ ١٦ ص ٧٥.

للاطلاع والتحصيل، حدّث أبو هفان قال: «لم أر قط ولا سمعت من أحبّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً من كان، حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر»[1].

كان ولع الجاحظ وشغفه بالعلم يفوق حد التصور، يقول ياقوت «قال الفتح بن خاقان: أنه كان يحضر لمجالسة المتوكل (يعني الجاحظ) فإذا أراد القيام لحاجة أخرج من كمه أو خفه كتاباً وقرأه في مجلس المتوكل، إلى حين عوده إليه حتى في الخلاء»[2].

كان لا يعرف غير الكتاب أنيساً، ولا غير الاطلاع والنظر في الكتب سميراً، حتى أنه كان لا يرى إلا والكتاب في يده، يقول اسماعيل بن اسحق القاضي «فإني ما دخلت إليه إلا رأيته ينظر في كتاب أو ينفضها»[3].

اتسعت مدارك الجاحظ وتعددت بتعدد مصادر ثقافته، فقد تلقى على الجهابذة المبرزين، وتأثر بأساتذته، وعلى الأخص أستاذه الذي تلقى عليه علم الكلام (ابراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنظام) شيخ المعتزلة وإمامهم، حتى أصبح الجاحظ من أعلامه المشهورين، وأساتذته المجيدين، وصار شيخاً لمدرسة من مدارس المتكلمين عرفت بالجاحظية، أعجب بأستاذه النظام كثيراً وقال عنه «إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن كان ذلك صحيحاً، فهو أبو اسحق النظام»[4].

قال المرزباني «قال أبو بكر أحمد بن علي: كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام، وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من العلوم، وفي حكاية مذهب المخالفين، وفي الآداب والأخلاق وفي ضروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس وقرأوها، وعرفوا فضلها»[5].

(١) معجم البلدان جـ ١٦ ص ٧٥ وما بعدها.
(٢)، (٣) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٦.
(٤) ذكرى المعتزلة - المرتضى ص ٢٩.
(٥) معجم البلدان جـ ١٦ ص ٧٦.

وتشير هذه المقالة إلى تعدد ثقافة الجاحظ وتنوعها، فلم يترك علماً من العلوم ولا فناً من الفنون إلا ونبغ فيه، يتخطف الناس نتاج عقله، وما تجود به قريحته من كتب أو رسائل، ويطلبونها في شتى الأصقاع والبقاع، يقصدونه لعلمه، فيتقرب إليه الأمراء، ويطلب مجالسته العلماء والأدباء، روي أن أبا محمد الحسن بن عمرو النجيري قال «كنت بالأندلس فقيل لي: إن ها هنا تلميذاً لأبي عثمان الجاحظ يعرف بسلام بن يزيد ويكنى أبا خلف، فأتيته فرأيت شيخاً ، فسألته عن سبب اجتماعه مع أبي عثمان، ولم يقع أبو عثمان إلى الأندلس فقال: كان طالب العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبي عثمان فوقع إلينا كتاب (التربيع والتدوير) له فأشاروا إليه، ثم أردفه عندنا كتاب (البيان والتبيين) له، فبلغ الرجل السماك بهذين الكتابين، قال: فخرجت لا أعرج على شيء حتى قصدت بغداد، فسألت عنه، فقيل لي: قد انحدر إلى البصرة، فانحدرت إليها، وسألت عن منزله، فأرشدت ودخلت إليه، فإذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحية غيره، ودهشت فقلت: أيكم أبو عثمان! فرفع يده وحركها في وجهي وقال: من أين؟ قلت: من الأندلس، فقال: طينة حمقاء، فما الاسم؟ قلت: سلام فقال: اسم كلب القراد، ابن من؟ فقلت: ابن يزيد، فقال: بحق ما صرت، أبو من؟ فقلت: أبو خلف، فقال: كنية قرد زبيدة، ما جئت تطلب؟ فقلت: العلم، فقال: ارجع بوقت فإنك لا تفلح، فقلت له: ما أنصفتني، فقد اشتملت على خصال أربع: جفاء البادية، وبعد المشقة، وغرة الحداثة، ودهشة الداخل، فقال: فترى حولي عشرين صبياً ليس فيهم ذو لحية غيري، كان يجب أن تعرفني بها، فقال: فأقمت عليه عشرين سنة»[1].

لقد ألمّ أبو عثمان الجاحظ بكل ما اتسع عصره من ألوان العلوم والمعارف، وانفعل بها عقله الكبير وذكاؤه النادر، وتمخضت هذه الثقافة الواسعة المتنوعة عن ذلك النتاج الضخم القوي، والذي لم يكن يدع علماً من العلوم، ولا فناً من الفنون، ولا نوعاً من أنواع المعرفة الشائعة في زمانه إلا جدد أصوله

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ١٠٤.

وفروعه، وقعد قواعده وبيّن مناهجه، ولم يكد يمضي وقت قصير حتى طارت لأبي عثمان شهرة عالية طبقت الآفاق، وعمت الأمصار، فعرفه البعيد والقريب، وشهد بفضله الصغير والكبير، وأصبحت كتبه قبلة العامة والخاصة على السواء.

كان لتلمذة الجاحظ على أساتذة أجلاء أثر كبير في تكوين عقليته، ليس فقط ما تلقاه بالدرس والتحصيل والقراءة، بل يضاف إلى ذلك ما تلقاه مشافهة وسماعاً، وتجربة وخبرة بدروب الحياة ومسالكها، فلم يدع فرصة إلا انتهزها فيما ينمّي هذه ويقويها ويعمقها، اتسعت هذه الثقافة الجاحظية لكثير من ضروب المعرفة[1]، حتى عدّ أوسع أهل زمانه ثقافة[2]، فهو في الأدب ملمّ بكل ألوانه ومذاهبه، وأخبار أعلامه وآثار عبقريتهم، وفي العلوم الدينية متضلع في كل لون، متعمق في كل مادة، فهو مربع في القرآن والحديث والمذاهب الكلامية، كما كان في الثقافة اليونانية خبيراً بها، مطلعاً على دقائقها، وهكذا حوى عقل الجاحظ كل ثقافات عصره، وهذه الغزارة والموسوعية فاق فيها الجاحظ أقرانه وأساتذته[3].

أخذ الجاحظ يعب من بحر المعارف والعلوم والآداب التي شاعت في عصره، ويلتهم كل ما تقع يده عليه منها، حتى كان يقضي لياليه وأيامه في طلبها، يلتمسها في الطريق وفي حوانيت الوراقين، ولم يكن يشغل نفسه إلا بالقراءة وجمع الكتب من هنا وهناك، باذلاً في ذلك وقته وجهده، حتى وصل إلى درجة من الثقافة والعلم لم يدانه أحد إليها.

كان حجة في كثير من العلوم والمعارف، ومن قراءاته في كتب فلاسفة اليونان وحكماء الهند، وبلغاء الفرس، ونظره في ثمرات قرائحهم، وفي الجديد مما ابتكرته أذهانهم، كانت ثقافات الجاحظ الواسعة، جعلت منه مفكراً موسوعياً، ومن كتبه دوائر معارف حيّة، فوعى في صدره دقائق المسائل في الدين والعلم والفلسفة والأدب. قال أبو الفضل بن العميد «ثلاثة علوم الناس كلهم

---

(١) راجع ضحى الإسلام جـ٣ ص ١٢٨.
(٢) راجع المرجع السابق ص ١٣١.
(٣) معجم الأدباء - ياقوت جـ١٦ ص ١٠٢ - ١٠٣.

عيال فيها على ثلاثة أنفس: أما الفقه فعلى أبي حنيفة لأنه دوّن وخلد ما جعل من يتكلم بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل (العلاف)، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ»[١].

لقد تلقف الجاحظ كل كتاب ترجم إلى العربية فقرأه واستظهره، فوق ما استظهر من مؤلفات عربية، ولم يقف عند مصدر واحد، بل رجع إلى كل ما أمكنه الرجوع إليه من مصادر، فأساتذته ومطالعاته في الكتب المترجمة وغير المترجمة، ثم تجاربه ومعايناته ومشاهداته، ثم مشافهته للأعراب في جزيرة العرب وفي المربد[٢]، ثم ما كان يأخذه من رواة الأدب واللغة، ومن أفواه الخبراء وجماهير الناس، وما كان يتلقفه في مجالس الملوك والأمراء، وفي حلقات المسجديين والمربديين، وفي اجتماعات الناس، وغير ذلك من كل طريف وجديد، وما أكثر ما أخذ الجاحظ من أصدقائه ومن رجالات الدولة وأقطابها، ومن العلماء والأدباء والشعراء والكتاب، ومن الأعراب واللغويين، ومن أرقى طبقات الناس وأدناها.

قد ساعد على ذلك الجو الزاخر بالعلم والتأليف فقد عاصر ثلاثة ممن ضربوا بسهم في وفرة النتاج الفكري والتأليف، واستووا على غاية قصر معها من عداهم[٣]، أحدهم: أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢٠٩ هـ) جلس إليه الجاحظ[٤]، (تصانيفه تقارب مائتي مصنف)[٥]، والثاني: أبو الحسن علي بن محمد المدائني (١٣٥ - ٢٢٥ هـ) وله نحو مائتين وأربعين مصنفاً كما في فهرس ابن النديم، وثالث هذه الجماعة: هشام بن محمد الكلبي الكوفي (٢٠٦ هـ)، وكتبه في الفهرس نحو مائة وتسعة وثلاثين مؤلفاً، وكان للجاحظ في هؤلاء أسوة وحافزاً على المسابقة والمناقشة، فكثرت تآليفه.

كان الجاحظ مع كل الناس، يتخذ من كل واحد منهم مصدراً من

---

(١)، (٢) معجم الأدباء - ياقوت جـ ١٦ ص ٧٥.
(٣) راجع عصر الجاحظ في هذا الفصل ص ١٧ وما بعدها.
(٤) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٠٦.
(٥) الوفيات جـ ٢ ص ١٠٦.

مصادره، ويعرف لكل منهم منزلته ومكانته في العلم والأدب فلا يتجاوز بهم قدرهم، ولا يقبل منهم شيئاً إلا إذا أيده العقل وآزره الامتحان والتجربة.

وإذا كان أساتذة الجاحظ يعدون جزءاً من ثقافته، فلنا أن نتوقف مع بعض أساتذته لنتبين مدى تأثر الجاحظ بهم، وحتى نعرف منزلته بين شيوخه وشيوخ عصره.

فقد جلس إلى الخليل بن أحمد الأزدي البصري (١٠٠ - ١٧٥ هـ) وهو إمام من أئمة اللغة وشيخ من أكبر شيوخها، وهو مبتكر علم العروض العربي، وقد اشتق النحو العربي من ألمعية الخليل، ومن مواهبه العقلية العربية المحققة[١].

ثم جلس إلى الأصمعي (١٢٢ - ٢١٦ هـ) وهو من أعلام اللغة والأدب والشعر وهو من أعلام البصرة ومفاخرها، وكان يحفظ ثلث اللغة، وهو من أساتذة الجاحظ، والجاحظ يروي عنه كثيراً في كتبه ويجله، وكان الأخفش يقول فيه: لم أدرك أحداً أعلم بالشعر من خلف والأصمعي[٢].

وكذلك من الذين جلس إليهم أبو عبيدة الشيباني الكوفي (١٢٥ - ٢١٠ هـ)، وهو من أئمة اللغة في عصر الجاحظ، ومن أساتذته، وكان الجاحظ يجله، وروى عنه الكثير في كتبه[٣]، كما جلس إلى الأخفش الأوسط البصري (٢١٥ هـ أو ٢٢١ هـ)، أعلم الناس بالنحو وبالكلام، وأحذقهم بالجدل[٤]، وينقل الجاحظ عن أبي الحسن الأخفش الكثير من الروايات في كتبه، كما نقل عن محمد بن سلام (٢٣١هـ)، وعن العتبي البصري (٢٢٨هـ) الاخباري الذي نقد رواياته[٥].

---

(١) بروكلمان جـ ٢ ص ١٢٤.
(٢) معجم الأدباء جـ ١١ ص ٦٧.
(٣) راجع أبو عثمان الجاحظ لخفاجي ص ١٠٥.
(٤) معجم الأدباء جـ ١١ ص ٢٣٠.
(٥) راجع أبو عثمان الجاحظ لخفاجي ص ١٠٨.

مؤلفاته:

ترك الجاحظ آثاراً فكرية وأدبية ودينية على جانب كبير من الأهمية في تاريخ الفكر العربي، وقد ضاعت هذه الآثار، ولم يبق إلا القليل الأقل منها.

يقول المسعودي «ولا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً منه»[1]

وبلغت مؤلفات الجاحظ «زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً في ألوان شتى من المعرفة رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ»[2] وقدرها البعض بمائة ونيف وسبعين كتاباً، قال ابن حجر «وسرد ابن النديم كتبه وهي مائة ونيف وسبعون كتاباً»[3].

وذكر صاحب معجم الأدباء فهرساً لكتب الجاحظ[4]، فأثبت منها مائة وثمانية وعشرين مصنفاً، كما ذكر الجاحظ في أول كتابه الحيوان بعض كتبه وجعله كالفهرس لها»[5]

وهذه الآثار مظهر لملكة علمية وذهنية وعقلية، ولمطالعات وبحوث عميقة، إذ كان أبو عثمان أكثر الناس حباً للقراءة والتأليف، ولا يعلم أحد من العلماء أكثر تأليفاً منه كما يقول المسعودي[6].

والعالم والكاتب في كل زمان ومكان إنما يتخصص في شعبة من شعب العلم أو فرع من فروع الأدب، ويكرس لذلك جهده وحياته، ولا يكاد يتجاوز تخصصه إلا في القليل النادر، لكننا نرى الجاحظ في هذا الباب يشذ عن غيره، ويصبح فرداً في مضمار الشمولية في التأليف، فيتسع عقله لكل شيء، وتستغرق معرفته كل ما زخر به زمانه من ألوان العلوم والآداب والفنون والفلسفات، فما من باب من أبواب المعارف الإنسانية على كثرتها وتنوعها، إلا وللجاحظ فيه قدم

---

(١) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٣٥.
(٢) تقديم مكتبة الجاحظ ـ عبد السلام هارون ص ٥ ـ ٦.
(٣) لسان الميزان جـ ٤ ص ٣٥٧.
(٤) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ١٠٦.
(٥) راجع كتاب الحيوان تحقيق عبد السلام هارون ص ٦ وما بعدها.
(٦) مروج الذهب جـ ٤ ص ١٩٥.

راسخة، وشخصية بارزة، ومكان معروف. قيل لأبي العيناء «ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن؟ فقال: ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن»[1].

والقارئ لكتب الجاحظ، وما حوته من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه يدرك سر إعجاب الأجيال بها، حتى كان الناس يترقبون في عصره صدورها، ولم يكن عند أبي عثمان أحب من الكتاب والعلم كما قال أبو هفّان[2].

قال المسعودي «لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ، وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب إلا أن أبا الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة لطيفة، ولا يعلم من سلف وخلف من المنزلة أفصح منه»[3].

وقال ابن العميد «إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً، والأدب ثانياً»[4]

وقد ألف أبو حيان التوحيدي كتاباً برمته عن الجاحظ أسماه (تقريظ الجاحظ)[5].

وقد أعد الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي حصراً شاملاً وافياً للكتب المعروفة عن الجاحظ، مما يجعل الناظر إليه مستغنياً عن النظر فيما سواه[6].

---

(١) جمع الجوامع - الحصري ص ١٦٥.
(٢) معجم الأدباء - ياقوت جـ ١٦ ص ٧٥.
(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥٣.
(٤) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٢.
(٥) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٩٥.
(٦) أبو عثمان الجاحظ - خفاجي - الباب العاشر - الفصل الرابع - آثار الجاحظ ص ٢٨٤ - ٣٠٨، مقدمة كتاب الحيوان لعبد السلام هارون راجع ص ٥ وما بعدها، وبحثا نشر لعبد السلام هارون في صحيفة دار العلوم السنة التاسعة أبريل سنة ١٩٤٨ م.

شـــهرتـه:

لقد أصبحت كتب الجاحظ كعبة القراء، ومرجع الأدباء والعلماء، تسبق شهرته شهرة مؤلفاته، فيطلبونها في كل صقع، وعرفوا فضلها فالتهموا ما فيها، يقول ياقوت الرومي «وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول، وشحذ الأذهان، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها، والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور»(١).

وعن فضل علمه وشهرته يقول أيضاً: قال أبو حيان في كتاب التقريظ ومن خطه نقلت «وحدثنا أبو دلف الكاتب قال: صدر الجاحظ في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ثم إنه استعفى فأعفي، وكان سهل بن هارون يقول: إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب»(٢).

لما تحدث عن فضله أبو سعيد السيرافي قال «وهمك من رجل، وناهيك من عالم وشرعك من صدوق، قال حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب: إن ثابت ابن قرة قال: ما أحسد هذه الأمة إلا على ثلاثة أنفس... ثم قال: والثالث: أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدره المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام في الجدال... ثم قال: شيخ الأدب ولسان العرب»(٣).

وتناول فضل كتبه فقال «كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفاً، ولا تعرض له متعرض إلا قدم له التواضع استيفاء»، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ منه، والخاصة تسلم له، والعامة تحبه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، طال

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٤.
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ - ٧٩.
(٣) المرجع السابق ص ٩٥ - ٩٧.

عمره وفشت حكمته «وظهرت خلته، ووطئ الرجال عقبه، وتهادوا أدبه، وافتخروا بالانتساب إليه ونجحوا بالاقتداء به، لقد أوتي فصل الخطاب»[1].

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٤.

الفصـــل الثالـــث

منهـــج الجـــاحـــظ

أولاً: المنهج العلمي عند الجاحظ

يحتل (ديكارت) الفيلسوف الفرنسي (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) مكانة مرموقة في تاريخ الفلسفة الحديثة، حتى أنه لقب (بأبي الفلسفة الحديثة)، ولعل مرد هذه الشهرة العظيمة التي حظي بها (ديكارت)، والتي جعلت اسمه خالداً، إلى مذهبه في التفكير وفي المنهج العلمي في البحث، وهو ما أطلق عليه (الشك المنهجي) والذي يقال إن ديكارت اتخذ الشك أول وسيلة إلى اليقين العلمي، وقد جعل الشك أساس كل تفكير مهما كان، ولا بد أن تنسحب ظلال الشك إلى كل شيء محيط بنا، لا فرق في ذلك حتى «بين الحقائق المتميزة»[١] فلا ينبغي أن نؤمن بمدركات العقل، لأن العقل كثيراً ما يخطئ في الاستدلال، ولذا جعل العصمة للفكر، حيث لا يمتد إليه الشك، وقد جعل (الفكر) مصدراً للشك، فما دام الإنسان يشك فهو مفكر، وما دام يفكر فهو موجود، إذن فإيمان الإنسان بوجوده إنما هو نتيجة لإيمانه بوجود فكره، وإيمانه بوجود فكره نتيجة لإيمانه بأن الفكر هو مبعث الشك ومصدره، ولذلك أثر عن ديكارت هذه العبارة «أنا أفكر إذن أنا موجود»[٢].

وهذا المذهب العلمي الحديث يقوم على أسس مقررة وهي:

١) الإقبال على البحث بروح علمي نزيه محايد مستعد لقبول الحق واعتقاده.

---

(١)، (٢) راجع ما كتبه الدكتور عثمان أمين في الشك المنهجي عند ديكارت في كتابه (ديكارت) ص ١٤٠.

٢) الشك في الموضوع حتى تثبت صحته.
٣) التجـربة التي تبـدأ بالملاحظة ثم الاستقـراء، ثم الموازنـة والترتيب، ثم الاستنباط القائم على المقدمات للوصول إلى النتيجة.

كما نسب هذا المنهج إلى (فرانسيس بيكون)، وقيل إنّه من ابتكاره.

وما سبق خلاصة موجزة للشك المنهجي عند ديكارت وبيكون، وإذا كان هذا المذهب قد خلّد (ديكارت)، وأتاح له هذه الشهرة الواسعة، فإن علماء المسلمين الذين سبقوا عصر ديكارت وبيكون بمئات السنين، لهم الباع الطويل في تأسيس وتقعيد هذا المنهج الذي لا يعرف إلا لهما.

والواقع أن علماء المسلمين قد سبقوا في هذا الميـدان، وخاصـة النظام والجاحظ ونستعرض آراءهما لنرى كيف اهتدى علماؤنا إلى أحدث المناهج العلمية التي تسير عليها الجامعات اليوم في الشرق والغرب.

يكاد الباحثون يجمعون على أن الجاحظ هو كبير أئمة الأدب في تراثنـا العربي، على عهد ازدهاره وتـألقه. وشهـرة الجاحظ هـذه في ميدان الأدب أفادت؛ فهي قد ضمنت البقاء وجلبت العناية من المحققين والدارسين لأغلب آثاره الفكرية في بيئة استمرت عنايتها بالأدب حتى بعد غروب شمس الازدهار الحضاري، أكثر من عنايتها بالدراسات العقلية والفلسفية والعلمية، وضاعف هذه الفائدة أن الجاحظ لم يكن في آثاره هذه مجرد أديب، بل كان فيلسوفاً وعالماً أودع الكثير من آرائه الفلسفية والفكرية في ثنايا هذه الآثار التي غلب عليها طابع الأدب.

فالجاحظ قبل (بيكون ـ وديكارت) بسبعة قرون تقريباً قد جعل الشك منهجاً من مناهجه في التفكير، ووسيلة من أهم الوسائل اللازمة للوصول إلى درجة اليقين العلمي، ولكن منهج الشك عند الجاحظ يختلف في هدفه وغايته عن منهج الشك عند (ديكارت)، فالجاحظ يعتبر سابقاً ورائداً في طريقة شكه ومنهجه المبني عليه. وبيكون وديكارت، يعتبران أيضاً سابقين ورائدين في منهجهما على أساس اختلاف المنهجين.

فشك الجاحظ هو الشك الذي يصل به الإنسان إلى اليقين، أو بمعنى آخر، هو أولى الخطوات على درجات سلم اليقين، ومنهجه فيه شمولية يستطيع الدارس أن يجعله منهجاً لأي نوع من الدراسة، وإن كان منشؤه عقيدة المتكلمين، فالجاحظ من مدرسة المعتزلة - بل هو رئيس فرقة فيها عرفت (بالجاحظية) - ويتصل اتصالاً مباشراً بالجدل المذهبي، إلا أنه كذلك يمكن تطبيقه في شتى النواحي العلمية باعتباره منهجاً علمياً عالياً يسير الباحث وفق خطواته الدقيقة، وقد كان هذا هو منهج الجاحظ في كتابه الحيوان بينما شك ديكارت - فيما ذهب إليه - هو شك يقصد منه ذات الشك كخطوة أولى في تفتيت اليقين، ولعل نشأة ديكارت لها عامل كبير ودور فعال فيما أزعمه، فقد نشأ في فترة نفوذ الكنيسة ورجالها، مما دعا بعض المفكرين إلى النداء بالتحلل من سطوتهم، وقصر وظيفتهم على القيام بالطقوس الدينية، وأن تكون مهمتهم - أيضاً - مقصورة على ما يقومون به داخل الكنيسة، وإن كان هذا رأي بعض المعتدلين من الثائرين عليهم إلا أن أكثر المنادين كانوا يرون سلب رجالها كل شيء حتى وظائفهم الدينية، والثورة عليهم، معللين ذلك، باستغلال رجال الكنيسة لوظائفهم في فرض ما يشاؤون من إتاوات وضرائب على جموع الشعب تحت اسم الدين والكنيسة، وعلى هذا كانت أكثر المذاهب التي نشأت تستمد قوتها من العداء للكنيسة ورجالها.

فالكلاسيكية - مثلاً - ما هي إلا ثورة على الكنيسة، أسسها جماعة من الشعراء الشباب الذين تأثروا بما يسر لهم عصر النهضة من معارف وثقافة - وهذه الجماعة هي جماعة (الثريا) التي تأسست في فرنسا (١٥٠٠ - ١٥٧٥ م)[١]- وقد تحول هذا التأثر إلى حماسة شديدة تجاه فهم الجمال في الشعر والنثر، فثاروا على ما كانوا قد ورثوه من شعر نظم في العصور الوسطى أو تحت سيطرة الكنيسة وتوجيهاتها الصارمة[٢]، وديكارت من أتباع هذا المذهب في الحقيقة.

---

(١) راجع مذاهب النقد وقضاياه - الطبعة الأولى ص ٢٩١.
(٢) راجع المرجع السابق ص ٢٩٩.

ونلخص هنا نداءات ديكارت والتي تعتبر خطوات للشك المنهجي عنده وهي :

الاسترشاد بالعقل للوصول إلى الحق الصراح والانطلاق الطبيعي للصعود إلى الفكرة حتى الوصول إلى القمة، وله كتابان أكثر ما يقدسان العقل حتى يصلان به إلى درجة التأليه، وهما (خطاب في المنهج)، أصدره سنة ١٦٣٧ م، وملخصه تمكين لسلطة العقل، وأتبعه بالثاني تحت عنوان (مقالة في الأهواء)، يعلي من شأن العقل أيضاً. والعجيب أنه يعصم الفكر مرة عن الشك إذ هو ـ أي الفكر ـ أساس الشك ومصدره، فلا يرتقي إليه، وما دام الإنسان يشك فهو يفكر، وما دام يفكر فهو موجود[(١)]، ويتهم العقل مرة بكثرة الخطأ في الاستدلال فلا ينبغي أن نؤمن بمدركات العقل، بينما نجده تارة أخرى يعلي من شأن هذا العقل المتهم، ويدعو إلى تمكين سلطة العقل وإلى إعلاء شأنه، ومتى كان للعقل القدرة في الوصول إلى الأشياء غير المحسوسة، وهو أعجز من أن يفهم شيئاً عن الغيبيات، إذ هي لا تحتاج إلا إلى التسليم، وهي بمثابة الحقائق المسلم بها، ولكن ديكارت نادى بأن تنسحب ظلال الشك إلى كل شيء محيط بنا، لا فرق في ذلك حتى «بين الحقائق المتميزة».

وإذا تتبعنا بقية المذاهب الأدبية التي ظهرت بعد الكلاسيكية ونظرنا إليها من خلال منظور ديني، فإننا سوف نجد الرومانطيقية التي هي ثورة على القديم والموروث وقد نبتت أول ما نبتت فيها كتب (جان جاك روسو) (١٧٢٢ ـ ١٧٧٨ م)، وڤولتير. فقد كان لما أذاعاه من أفكار جريئة أثر عميق في التحول السياسي والاجتماعي الذي صحب الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م، إلى جانب ما أحدثته هذه الأفكار من ثورة على القديم، واستحداث أدب لا يؤمن بالقواعد، ولا يعترف بالقيود[(٢)]، فالرومنطيقية تفلت من قيود الدين وثورة عليه، والعداء للكنيسة قاسم مشترك ونقطة التقاء بين الرومنطيقية والكلاسيكية، فڤولتير وهو أحد مؤسسي الرومنطيقية «قد أظهر تمرداً سافراً على نظام الحكم والكنيسة بعد

---

(١) راجع (ديكارت) لعثمان أمين ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) مذاهب النقد وقضاياه ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

خروجه من سجن الباستيل وعند عودته من منفاه في انجلترا»[1].

ويتفق الأخير مع ديكارت في تقديس العقل والتدين العقلي، ودعا الفرنسيين إلى ذلك، ونفرهم من رجال الكنيسة، ولهذا يقول «لم يعد قساوستنا على ما يظنه بهم الأغرار من الناس، فسذاجتنا هي كل علمهم»[2]، وشرع في نشر أفكاره بكتابه (الرسائل الفلسفية) أو (الرسائل الانجليزية)، «وظل يصدر القصص ذات الأفكار الحرة، حتى أنه حمل حملة عنيفة على التوراة، وعلى صكوك الغفران، مما يصرف الناس عن حقيقة الدين والعدالة الإنسانية»[3].

ولعل زعمي ـ بأن هذه المذاهب التي روج لها المغرضون، وصاروا ينفخون في نارها، يبثون سمومها تحت ستار المذاهب الأدبية ـ لا يجانبه الصواب إذا رأينا أن الأسس الأولى لتلك المذاهب والتي بُنيت عليها، عداء للدين وثورة على مسلماته، اتخذت خدمة الأدب مظهراً تارة وغايتها وهدفها توهين العقيدة، وإضعاف الحق، وتارة تظهر تحت دعاوى أنها تطورات حتمية لمسيرة الأدب عبر تاريخ الحياة تستلهم القوة والاندفاع من روافد الحياة ومعطياتها، ويتأصل بقاؤها من ركائزها وإلهامات الأدباء، فما بقيت ولا دامت، بدليل تعاقب كثير من المذاهب إثر مذاهب وفنائها أيضاً مذهباً إثر مذهب.

لقد ساروا يروجون لتلك المذاهب بين الشباب، وهي في جوهرها معاول تهدم العقيدة، وتبذر الشك، فلم يكن مأرب المؤسسين أو المتمذهبين إلا المساس بالعقيدة، «فلقد نظم ڤولتير قصيدته (كارثة لشبونة)، حينما دمرها الزلزال عام ١٧٥٦ م وأبيات هذه القصيدة تعمر بالسخط والتمرد على القدر الذي يصيب الناس بالكوارث»[4].

وكان الأجدر بهم تسخير هذا العقل ـ الذي نادوا له بالتمجيد والتقديس حيناً ـ لفهم هذه الظواهر الكونية المحسوسة، فإذا عجز عن التحليل والتعليل،

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ص ٣٣٤.
(٢) أنظر المرجع السابق ص ٣٣٦، ڤولتير لموردا.
(٣) مذاهب النقد وقضاياه ص ٣٣٧.
(٤) مذاهب النقد وقضاياه ص ٣٣٧.

فكيف يشكون في كل المسلمات والحقائق المتميزة، ولكنها البراعة في تفنيد ما يتصل بالعقيدة والقدر.

ونعجب عندما يصل اليأس العقلي إلى القمة ويقرر الفيلسوف (دي كونت) «أن ما في العالم كله خاضع خضوعاً كاملاً للمنطق والعلم المعتمد على التجربة»[1]، وهي فلسفة بهذا الاتجاه تصرف عن البحوث الميتافيزيقية (ما وراء الطبيعة).

ثم تضطرب الأحوال بالمفكرين وتموج بهم الأهواء، وبعد عقم للأفكار لا يطول يأتي أوان المخاض، فتنتج عقولهم مسخاً من الفلسفات تتخبط بآراء متناقضة، فتارة ينادون (الفن للفن) ومؤسسه (تيوفيل جوتييه ١٨١١ - ١٨٧٣ م)، ولا يخفى ما في هذا المذهب من النداءات لنشدان الجمال المطلق، أياً كان هذا الجمال، وكيف كان؟ وتارة يفلسفون آراءهم بتوهيمات الخيال، وترديد كل ما هو غير مفهوم، كطلاسم لا يقوى على حلها أو فهمها حتى مدعوها، تحت اسم الرمز أو الرمزية، «وهو مذهب جديد دعا إليه (شارل بودلير ١٨٢١ - ١٨٦٧ م»[2].

وعلى منوال ما سبق نجد (السريالية) - ما وراء الطبيعة - ثم التأثرية والواقعية التي انقسمت إلى واقعية اجتماعية أسس لها «الفيلسوف الفرنسي (سان سيمون ١٧٦٠ - ١٨٢٥م)»[3]. ثم الواقعية الطبيعية، والواقعية الاشتراكية التي نادى بها الفيلسوف (أوجست كونت ١٧٩٨ - ١٨٥٧م)، وفرعها الاشتراكية الماركسية، وكلاهما من مذاهب الهدم والإلحاد، لا يؤمنان إلا بالمادية والوجودية فقط، ويقررون «أنه لا وجود للأشياء إلا بإدراك الإنسان لها بواسطة عملية فكرية يتم بها ربط الظواهر التي تعنيه في الأشياء بالأشياء نفسها وحينئذ يتطور

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ص ٢٦٤.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٠.

(٣) المرجع السابق ص ٣٧٤.

وجودها في فكره ثم يستقر في نفسه»[1].

وبعد فهذا سرد سريع وعرض ملخص لبعض المذاهب الأدبية، وقد تعرفنا إلى العامل المشترك بينها، وإن كانت هي في مظهرها توحي بخدمة الأدب، ويضع أسسها أصحاب الأفكار الهدامة ويروج لها أتباع متخصصون، وإنما قصدت من وراء هذا العرض البرهنة والتدليل على ما هناك من فرق بين مذهب الجاحظ ومنهجه، وبين شك ديكارت وطريقته وهدفه.

ونعود إلى حمى كاتب الإسلام والعربية أبي عثمان الجاحظ لنسير معه وفق خطوات شكه المنهجي لنصل إلى اليقين الذي ينشده - أو سيفرضه أخيراً - على أن نعرف أيضاً الظروف التي أدت إلى ولادة هذا المذهب والبيئة التي نشأ فيها.

الجاحظ هو أحد أعمدة المتكلمين والمنافحين عن مذهب الاعتزال، «وشيخ من كبار شيوخهم، وعلم من أشهر أعلامهم، ويعد من الطبقة السابعة في المعتزلة، درس الاعتزال في البصرة، وكانت هي المدينة التي ظهر فيها المذهب، وغلب عليها سلطان المعتزلة الفكري، وكان من شيوخه في المذهب أبو اسحاق النظام (١٨٠ - ٢٢١ هـ) فعنه أخذ، ومنه تعلم، ولا يعلم ممن سلف وخلف أفصح من الجاحظ، وكذلك أخذ عن ثمامة، وبشر بن المعتمر، ولقي أحمد بن أبي دؤاد، وعاصر حركة المعتزلة الفكرية في البصرة وبغداد، حتى أصبح حجة في المذهب، وقطباً من أكبر أقطابه»[2].

وقد جعل الجاحظ الشك منهجاً في التفكير، ووسيلة من أهم الوسائل اللازمة للوصول إلى اليقين، وهو يشك ويدعو إلى الشك، ولكنه لم يدع إلى الشك على إطلاقه في كل الأمور - وهذا يقوي ما ذهبنا إليه من التفريق بين شكه وشك ديكارت - فللشك عند الجاحظ مواضع لا بد أن يشك فيها الإنسان ليصل إلى اليقين، ولكن تلك الأمور التي تصبح في حكم المسلمات فلا منفذ

---

(١) مذاهب النقد وقضاياه ص ٣٩٤ وما بعدها.
(٢) أبو عثمان الجاحظ - خفاجي ص ١٤٥.

للشك إليها، فللشك عنده حالات موجبة له لا بد أن يفطن إليها الإنسان، حتى يشك في مواطن الشك فقط، وهو يعقد في كتابه الحيوان فصلاً عن الشك واليقين يقول فيه «وبعد هذا فاعرف مواضع الشك، وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين، والحالات الموجبة له»[1].

ثم يقول إن الشك لا يكون في كل الأمور إذ أن بعضها لا يرقى إليها الشك، ولا موجب له في بعض الأحيان، وإلا أصبح تشكيكاً يقول «وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً» فالشك عنده علم يحتاج إلى قواعد وأصول، وليس شكاً مطلقاً في كل شيء ولأي شيء «فلو لم يكن في ذلك إلاّ تعرف التوقف قبل التثبت، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه، ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم»[2]، ويظهر الفرق بجلاء بين منهج الشك عند الجاحظ وغيره في عبارته التالية التي تقول «ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف»[3].

وإذا أدركنا أن مكان الجاحظ من تراثنا الفلسفي مكان متميز، فإن فلسفته لم تكن فقط ثمرة من ثمار حركة الترجمة التي تمت، فنقلت تراث اليونان الفلسفي إلى العربية ـ وإن كان الجاحظ قد استوعب وأفاد من ذلك التراث ـ ولكن مكانه الحقيقي كان بين المتكلمين المسلمين، الذين تجلى في فنهم إبداع الأمة العربية المسلمة في هذا الميدان، وبرزت في تراثهم هذا خصائص العرب المسلمين، عندما جعلوا برهان العقل أداتهم الأولى في النظر والبحث، دون أن ينفصلوا عن واقعهم المتميز بالإيمان بعقائد دينهم، دين التوحيد فقدموا بناء فكرياً فلسفياً متوازناً لأنه وسط، يهتدي بالكتاب وبالعقل، ويعرض المنقول على المعقول، ويوافق بين ظواهر النص وبرهان العقل عن طريق التأويل، حتى لقب العقل «وكيل الله» عند الإنسان، جعل إليه أزمة أموره، وقيادة نشاطاته وعلى الإنسان حتى يبلغ كماله أن يدع عقله الغريزي المكتسب»[4].

ولم يفد هذا المنهج الفلسفي في البحث أصحابه إلى الغوص تحت ظواهر النصوص تقليداً للآخرين أو نقلاً عنهم ـ ولو كان كذلك لما عاب أصحابه ـ

(١)، (٢)، (٣) الحيوان ـ تحقيق عبد السلام هارون جـ ٦ ص ٣٥.
(٤) رسائل الجاحظ ـ تحقيق عبد السلام هارون جـ ١ ص ٩٢ ـ ٩٦.

لكنه كان الامتداد لوصية نبوية شريفة دعت العلماء إلى الغوص وراء معاني القرآن، وعدم الاكتفاء بما يفرضه بعض هذه الظواهر، فقالت الوصية «أثيروا القرآن فإن فيه خير الأولين والآخرين» و«من أراد العلم فليثوِّر القرآن»[1].

ومن هنا كان مقام العقل عند الجاحظ عالياً، لأنه الحكم عندما تتعارض سبل الاستدلال ومناهجه.

ولقد نبه باحثون أجلاء إلى دور الإمام الغزالي (١٠٥٩ ـ ١١١١ هـ) في هذا الميدان، فكتابه «المنقذ من الضلال»، هو ترجمة ذاتيه رائعة لمفكر وقع فريسة للشك ثم تنقل عبر العلوم وطرق الاستدلال بحثاً عن اليقين حتى وجد في طريق الصوفية سبيله إلى اليقين، فهو معلم من معالم التراث الإنساني في اتخاذ الشك سبيلاً إلى اليقين، ويقرر أنه لم يقتنع بالدين التقليدي، واتجه إلى العلم بحقائق الأمور، وبناء دينه على يقين، ولذلك بدأ بالشك في كل ذلك، حتى يقوم البرهان على صحته، وقال «كل ما أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني»[2].

أما الجاحظ فقد تابع أستاذه النظام في اتباع هذا المنهج، يقول النظام «الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك»[3].

وعلى ضوء هذه الأفكار سار الجاحظ الذي قال «إعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، فتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبيت، لقد كان ذلك مما تحتاج إليه ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف، ولما قال أبو الجهم للمكي: أنا لا أكاد أشك، قال المكي: وأنا لا أكاد أوقن ففخر عليه المكي بالشك في

(١) لسان العرب ـ ابن منظور مادة (ثور).
(٢) أبو عثمان الجاحظ ـ خفاجي ص ١٧٣.
(٣) الحيوان جـ ٦ ص ٣٦.

مواضع الشك، كما فخر عليه أبو الجهم باليقين في مواضع اليقين»[1].

على أن نشأة هذا الجدل ديني بحت، في مجال الإقناع والاقتناع، عندما انقسم الناس إلى اتباع لمذاهب متباينة، فعقدت المناقشات، ومجالس الحوار، وحلقات المناظرة، وطرحت الأدلة والبراهين التي تعضد رأياً دون آخر، وكل مجادل يحاول نصرة رأيه، أو ما يراه صواباً، أو يدافع عن مذهب، وأقرب ما يكون الشاك إلى الاقتناع من الجاحد، لأن الأخير يضرب صفحاً عن الاستماع لتصلبه عند رأي معين اعتقده، ولا يرجى زحزحته عنه، يقول النظام «نازعت من الملحدين الشاك والجاحد، فوجدت الشاك أبصر بجوهر الكلام من أصحاب الجحود، والشاك أقرب إليك من الجاحد، والعوام أقل شكوكاً من الخواص»[2].

والمفهوم من هذه العبارة أن النزاع والجدل كان سببه دفع الشبه، ورد الملحدين عما أشكل عليهم، والوصول بهم إلى بر اليقين، أو محاولة الإقناع وترسيخ فكرة معينة في ذهن المخاطب بالقياس وإثباتها بالمناظر والمشابه، والمخاطب العادي أقرب ما يكون للاستجابة السريعة. فالشك ليس مطلوباً لذاته، بل هو منهج دقيق يتوخى تقرير أصول معينة لا يعلم بها المناقش، وقد تكون لديه أوليات الفكرة، فهو بين القبول والرفض والأخذ والرد، حتى يتسنى له ترجيح أحد الطرفين، بعد أن يزن الرأيين بكفتي القبول والرفض والتأييد والنقض، ويقبل أقربها إلى الصواب والعقل، دون أن يكون للغضب أو الرضا دخل في الترجيح. والجاحظ يعرض لهذا الموقف المنهجي باعتباره منهجه في كتابه (الحيوان)، فهو يرفض التمذهب الذي جعل الناس فرقاً وشيعاً، أراحت عقول المتمذهبين من عناء النظر في كل معضلة وقضية ومسألة «عندما ترك الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة والتثبت عند الحكومة جانباً، وأضربوا عنه صفحاً، فليس إلا (لا) أو (نعم) إلا أن قولهم (لا) موصول بالغضب، وقولهم (نعم) موصول منهم بالرضا! وينبه الجاحظ على أن هذا

(١) الحيوان جـ ٦ ص ٣٥.
(٢) المرجع السابق ص ٣٦.

المسلك المعيب قد حرم الناس من استخدام نعمة (الحرية) إذ قد عزلت الحرية جانباً بمسلكهم هذا»[1].

ويبرز الجاحظ هنا دور العامل النفسي وأثره في إصدار الأحكام، وتحييد النفس أعدل لقبول الحق، فالعامل النفسي يؤثر في قبول الرأي أو الفكر، أو رفضهما مهما كانت صحة ذلك أو تلك، والذي يعبر عنه بقوله: فليس إلا (لا) أو (نعم) إلا أن قولهم (لا) موصول بالغضب، وقولهم (نعم) موصول بالرضا، ويقرر الجاحظ أن عدم التعصب لرأي معين أصل من أصول الحوار الفكري العلمي، والجدل المنطقي السليم.

ونعود إلى ما قاله (ديكارت) وأن كل شيء يجب أن يشك فيه عندما يقول «حتى بين الحقائق المتميزة»[2]، ونوازنه بأصول الشك المنهجي عند الجاحظ، لنجد الفرق واضحاً، فالجاحظ من الرواد الذين دعوا إلى اتخاذ الشك طريقاً إلى اليقين، إذ فرق بين أن يعرض لك شك في أمر، فتبحث حتى تصل عن طريق هذا الشك إلى اليقين، وبين أن تقف أمام الأمور العقلية، عمداً وبمنهج معقد موقف الشاك الذي يرفض التسليم واليقين والراحة الإيمانية، إلا بعد اختبار هذه الأمور والتحقق من مقدماتها ببرهان العقل ووسائل النظر والتدبر، وهذا هو الشك المنهجي، الذي قعد له الجاحظ وأرسى أسسه في القرن الثالث الهجري.

فالشك عند الجاحظ خلاف الشك عند ديكارت، إذ أن الجاحظ عنده للشك مواضع، وهو يدعو إليه، كما يدعو إلى معرفة مواطنه ومواضعه، وإلى الكشف عن أسبابه بل يدعو إلى تعلم هذه الأمور، أي تعلم الشك باعتباره علماً يقصد إلى تعلمه العلماء.

وليس الشك على إطلاقه، ويطلب ذلك من قارئه[3]، بينما أطلق

---

(١) الحيوان جـ ٧ ص ٨.
(٢) ديكارت ـ عثمان أمين ص ١٤٠.
(٣) الحيوان جـ ٦ ص ٣٥.

ديكـارت) للشك عنـانه، وتـرك للشاك حـرية الشـك، ورسم أسلوب شكه ومحصلته في مقولته «أنا أفكر، إذن أنا موجود»[1].

ووقفة متأنية مع هذه المقولة ترينا أن سلب إيجابيتها ينقض المقولة من أساسها فلو قلنا: أنا لا أفكر، إذن أنا لست مـوجوداً، لـوجدنـاها عبـارة لا يصدقها المنطق ولا يقبلها الواقع. إذا آمنا بذلك السلب، نفينا الـوجود عن أشياء موجودة بالفعل محسوسة ومدركة، ولكنها لم ترزق نعمة التفكـير، ومن الذي قال أن الآلاف من بني البشر غير العقلاء وهم عـلى قيد الحيـاة ليسوا موجودين، باعتبار أنهم لا يملكون التفكير حسب وضعية المقولة؟!.

إلى جانب ما لهذه المقولة من زرع الشك بل التشكيك في نفوس ضعفاء الإيمان باستحداث علامات استفهام أمـام عقولهم، بينـما وضوح المنهـج عند الجاحظ وأسسه ومعرفة مواطن الشك ومواضعه وتعلمه لإثبات كل خبر تناقض واستحال، يرفع أية شبهة تنال من منهجه أو تضيق حدوده وتطبيقه.

وقد فعل ذلك الجاحظ، فقد شك فيما امتنع على الطبيعة وخرج عن طاقة الخلقة وقرر أنه إذا خرج الخبر من هذين البابين، وجرى عليه حكم الجـواز «فالتدبير في هذا التثبت، وأن يكون الحق في ذلك ضالتك، والصدق هو بغيتك كائناً ما كان، وقع منك بالموافقة أم وقع منك بالمكروه»[2].

وفي أصول منهجه يحدثنا عندما يقول أن العلماء والمفكرين ـ الخاصة ـ لهم حيال الحقائق والمسائل حالات ثلاث[3]: التكذيب والرفض، أو التصديق، أو الشك وهو درجات وطبقات، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من زعم الفرق بـين المنهجين، فليست كل الحقائق قابلة للشك ـ كما دعا ديكارت ـ بل هناك بعض منها يكذب وبعض يصدق وبعضها يشك فيها.

بينـما الشك عنـد (ديكارت) يخضـع كل الأمـور تحت سيـطرة الشـك

---

(١) ديكارت ـ أمين عثمان ص ١٤٠.

(٢) الحيوان جـ٣ ص ٢٣٩.

(٣) المرجع السابق جـ٦ ص ٣٦ ـ ٣٧.

والعقل، وليست هناك مسلمات أو حقائق جديرة بالقبول إلا بعد الشك فيها، وتناولها بالتفكير وعرضها على الفكر، وهذا منهج غير مقبول.

والجاحظ أوسع إدراكاً واحتياطاً في منهجه من ديكارت حيث قال ـ بعد أن قسم موقف الخاصة (العلماء) حيال الحقائق ودرجة قبولهم لها ـ : «بينما العامة والجهلاء لا يعرفون إلا : التكذيب أو التصديق، لأنهم مقلدون، لا يستخدمون ملكاتهم العقلية كما ينبغي للإنسان الراقي أن يستخدمها»[1].

كما يقول «والعوام أقل شكوكاً من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحالة الثالثة من حال الشك التي تشتمل على طبقات، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك، وعلى قدر الأغلب»[2].

ونسرد أمثلة من شك الجاحظ هنا، فقد شك في كثير مما ليس يمتنع في القدرة أو الطبيعة[3]، وقال: كل قول يكذبه العيان فهو أفحش خطأ[4].

وقبل إيراد أمثلة بشك الجاحظ يحسن أن نقرر أن النظام أستاذ الجاحظ كان يعتبر الشك أساساً للبحث، ويعمد إلى التجربة واستخدام المنطق في البحث عن الحقائق بينما الجاحظ يتخذ الشك سبيلاً إلى اليقين، ويضيف إليه النقد العلمي، فهو مغرم بالتنبيه على الخرافات، والنيل من أصحابها، فقد نال من أرسطو من قبل[5] (٣٢٢ ق.م) وأخذ عليه أنه لم يعتمد في تحقيقه على العيان والسماع والامتحان أي التجربة وأنه إذا تكلم في بعض الأحيان على حيوان لا يستوفي عجائبه.

ومن أمثلة النقد الذي وجهه الجاحظ لأرسطو فيما يزعمه الأخير من أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه في بطنها، ويقول

---

(١)، (٢) الحيوان جـ٣ ص ٣٦١، جـ٧ ص ١٢٧.
(٣) الحيوان جـ٣ ص ٣٦١، جـ٧ ص ١٢٧.
(٤) المرجع السابق جـ٣ ص ٣٦١.
(٥) أبو عثمان الجاحظ ص ١٧٣.

الجاحظ في هذا: إن قلبي ليس يقبله، ولست أثبت بإنكاره، ونقده له كذلك فيما ذكره من أن ثوراً وثب بعد أن خصي على بقرة فأحبلها[1]، وينقده أيضاً فيما ذهب إليه من عقوق العقاب وجفائها بأولادها قائلاً «فأما أشعار العرب فهي تدل على خلاف ذلك»[2].

كما استخدم الجاحظ التجربة أو الامتحان استخداماً بارعاً عجيباً، وكذلك كان أستاذه النظام[3]، فهو يسقي الخمر للحيوانات لرصد نتائج ذلك، ويجري تجارب على ذكر النعام ليعرف كيف يبتلع الجمر والحجارة المحماة والحديد والزجاج والمسامير وغيرها.

كما كان استناد الجاحظ الدائم على التجربة والملاحظة، وأن يرى الأمور مع عللها وبراهينها، يلاحظ ويحس ويتدبر، لا يمتهن شيئاً في الكون، وإن كان ضئيلاً[4] ولم يعمد إلى العقل في كل شك أو كل قضية، بل كان يعمد إلى ثنائية الدليل أو اتباع الخطين المتوازيين للوصول إلى الحقيقة، ونعني بذلك الاعتماد على الحس المشاهد والعقل، فقد كان يجمع إلى معونة الحس معونة العقل، فيعتمد الحواس والعقل في إدراك الأمور، واعتبر المعاينة (المشاهدة) العنصر الأساسي في تحقيقه التجريبي، يضم إليها الفرض والمقابلة والتصنيف.

وكانت أقل الظواهر خطرة على قلبه تشكل لديه مقدمة، فيطرحها للبحث، ليصل إلى أسبابها ونتائجها، فهو يتساءل: لم يناغي الطفل المصباح؟ وهل تلك المناغاة نافعة له؟[5] وعن العين وتأثيرها[6]، ويقول: إن الناس تزعم أن الأفاعي تكره رائحة السذاب والشيح، وجرب ذلك الجاحظ بنفسه وقال: أما أنا فإني ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم أجد على ما

---

(١) الحيوان جـ ٥ ص ٥٠٢ - ٥٠٣.
(٢) المرجع السابق جـ ٧ ص ٣٧.
(٣) راجع المرجع السابق جـ ٢ ص ٨٣، جـ ٣ ص ١٣٩، جـ ٤ ص ١٠٦، جـ ٦ ص ١١.
(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ٢٩٩.
(٥) الحيوان جـ ٥ ص ٤١.
(٦) المرجع السابق جـ ٢ ص ٤٧.

قالوه دليلاً[1]، وما فات أمثلة على شك الجاحظ واستخدامه التجربة في إثبات صحة ما سمع.

وقد ظلت آراء الجاحظ في التجربة منهجاً علمياً للباحثين المسلمين بعد عصره فذهب ابن رشد إلى أن كل ما أدى إليه البرهان والعقل وخالفه ظاهر الشرع يقبل التأويل، ومن قبل قال الإمام الشافعي: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون منه.

ومن نقدات الجاحظ للآراء الشائعة ما ذكره من أنه لا يؤمن بقول الناس: أن في حمص طلسماً يمنع العقارب من أن تعيش فيها، ويعلل ذلك باحتمال وجود حيوان مضاد للعقرب يمنعها من أن تعيش في هذا البلد، ويهزأ بوجود طلسم يمنع البعوضة إذا عضت أن يكون لها حرقة، ويكذب ذلك بأثر تجربة[2].

وهكذا كان يذهب إلى التجربة في الإنسان والحيوان والنبات، ويفضلها على كل نقل، ويأخذ نتائج تجارب الناس والخبراء، فهو يسأل الجزارين ويصحح منهم أخباراً كاذبة شاعت عند الناس[3].

لقد كان الجاحظ مفكراً موسوعياً، وفي ذات الوقت صاحب مذهب، ومبدع فكر فهو فيلسوف وعالم، وصاحب منهج، طرق بمنهجه وفكره حقولاً عديدة في الفكر الذي اهتم به خاصة عصره وطليعة مفكريه، فلم يكن موسوعياً بمعنى الوقوف عند الاطلاع على مختلف الفنون، والتصنيف فيها، ولا فيلسوفاً وعالماً اقتصرت جهوده على ميدان تخصصه بل كان واسع الاطلاع، متنوع الإنتاج، صاحب نظر وفكر، ومنهج جعل انتاجه إبداعاً وإضافات إلى الفكر الإنساني العظيم.

والانصاف وإحقاق الحق، يلزمان، بتسجيل الريادة للجاحظ في هذا

(١) الحيوان جـ ٥ ص ٣٦٥، جـ ٦ ص ١٣٣.
(٢) المرجع السابق جـ ٥ ص ١٢٠.
(٣) الحيوان جـ ٦ ص ١٤٩.

الميدان فهو بحق يعتبر واضع أسس الشك المنهجي، ومن جاء بعده تابع له، وديكارت يعتبر رائداً في منهجه وطريقته الذي يختلف في أصوله وأهدافه عن منهج الجاحظ، ويمكن تلخيص هذا الفرق بين المنهجين في كلمة فنقول: إن شك الجاحظ بدايته من أجل إثبات وتثبيت العقيدة فهو شك مذهبي لا يخرج عن إطار الشرع والتوحيد، وأنه يسترشد الوصول إلى اليقين من خلال فهم ديني، وهو شك ملتزم، ثم ينسحب بعد ذلك إلى فروع العلوم الأخرى التي تحتاج في إثبات نتائجها إلى النظر والتجربة والاستدلال والفكر، بينما شك ديكارت شك مطلق أقرب إلى التشكيك الذي يزعزع اليقين الراسخ وليس مقصود شكه الوصول إلى نتيجة حتمية للمقدمات المطروحة، بل المطلوب هو الشك والوصول به إلى ذروته، ولو في الحقائق المتميزة، فمجرد الشك في حد ذاته مطلب لمنهجه.

ثانياً: منهج الجاحظ في التأليف

يعد الجاحظ ذا منهج فريد في نوعه، متميز عن غيره، بأسلوبه البياني السهل الواضح، الذي لا يختلف مهما تنوعت مادة مؤلفاته، كتباً كانت أو رسائل، أدبية كانت أو علمية، فقارئ كتبه يلمس هذا المنهج الفريد الذي يتمثل بجانب الأسلوب الجاحظي في المزج البين بين الجد والهزل، متمثلاً في الطرائف والفكاهات التي ينثرها أثناء الأفكار العلمية، دونما حرج من ذكر أنواع من المجون عندما يستدعي المقام ذلك، وقلما نجده يحيد عن هذا المنهج.

وعند تصفحنا لكتابه الحيوان ـ على سبيل المثال ـ نجد الجاحظ بعد أن يقطع شوطاً طويلاً في سرد موضوع علمي متماسك البنية، متحد المنحى، ينعطف إلى ذكر الأمثال والأدلة المشاهدة والمحسوسة من الواقع الملموس لتخدم فكرته المعنية، والتي يحاول إبرازها وتوصيلها إلى ذهن القارئ كما يريد، أو إلى أذن السامع فتنال منه الاستحسان المصحوب بالإنصات المؤدي إلى التركيز

وحسن التلقي والقبول، وقد وافق علم الجاحظ الغزير طبيعته السهلة المرحة وروحه الفكه، فأضفتا على مؤلفاته طابع السهولة والروح المرحة، فحشد غير قليل من الشواهد المتنوعة، والقصص ذات الصلة الوثيقة بموضوع الفكرة.

لكن درج الباحثون الأفاضل على نقل هذه الصورة التي أبرز فيها الجاحظ كتاباته وهذا الثوب الموشى الذي زان به مؤلفاته على أنه عيب يؤخذ عليه، وعمل واهن ينسب إليه كما اعتبروا الاستطراد فيه نقصاً، إلا القليل منهم، هكذا دونما بحث عن سبب مقنع أو تعليل يستندون عليه، ينقل مآخذهم من هامش التصدي بلا تحليل، إلى دائرة النظر في أسباب مجيء هذا الأسلوب الفريد كعقد منظوم، يضم منهجاً علمياً ونفسياً في آن واحد.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن الجاحظ لم يكن ذلك الذي يتخم مؤلفاته بالحشو، أو الذي يغرس في حدائقه نبتاً سقيماً، فلنا أن نتساءل: ما الذي دفع الجاحظ إلى اتباع هذا المنهج وابتكار هذه الطريقة لتدبيج ما تجود به قريحته، وما ينهمر من وافر العلوم على لسانه وقلمه؟.

أقول: إن الجاحظ شخصية علمية بمكوناته الفطرية واستعداداته الطبيعية، وسع ذهنه شتى العلوم والمعارف، وتقفى الأخبار بالسماع حيناً، وبالقراءة والمشاهدة والتجربة أحياناً أخرى، والمتمثلة في كتبه مرة بقوله «فأما الذي شهدت أنا..... الخ»[1] أو بمثل قوله «وأنا أقول: إن الاعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة وتلك العادة، فإذا دخلت على هذا الأمر ـ الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام التي فيه ـ حروف الإعراب والتحقيق والتثقيل، وحولته إلى صورة الاعراب ـ الفصحاء، وأهل المروءة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب نظمه وتبدلت صورته»[2].

أو مثل قوله «فأما الذي يعتريه الاختلاج بعد جموده ليلة فلحم البقر،

(١) يذكر الجاحظ قصة خروجه مع أبي اسحاق النظام، والقصة بالتفصيل في الحيوان جـ١ ص ٢٨١.
(٢) الحيوان جـ١ ص ٢٨٢.

والجزر تختلج وهي على المعاليق، اختلاجاً شديداً»[1].

كما كانت المشافهة رفداً من روافد ثقافته، وكان له السبق على المتخصصين في كل فن إذا أراد سبر أغوار شاردة من الشوارد، أو أن يدلي بدلوه في مسألة من المسائل، وحيث بزَّ غيره في كل شيء، وتفوق على أنداده في كل ما كتب، كان لا بد أن يكون ذا منهج متميز له سمات تعليه وتسمو به، فكان منهجه الذي ابتكره في كتاباته، والذي تميز بخصائص تشير إلى صاحبه، وتدل على مبتدعه، ومن هذه الخصائص والسمات: تعمده نثر هذه الطرائف والملح مع الدعابة والفكاهة، والقصص في كتاباته، فينتظم عقد التأليف في أسلوب بديع وشهي، يتناوله القارئ فلا يكاد يشفي غلته، ولا يشبع نهمه، إلا إذا أتى إلى نهايته، ويبدو لي أن كل هذه الافتراضات كانت في مخيلة الجاحظ وهو يعد كتبه ليتداولها القراء، وتفتح مغاليق العقول في مختلف الأصقاع، وتوقف القارئ عند نقطة معينة في مؤلفاته يخدم غرضاً وهدفاً للجاحظ في منهجه كما سيأتي.

فقارئ كتبه المتوقف عند نقطة ما، شديد التلهف لمعاودة القراءة، وهذا التلهف والشغف، وحب استئناف القراءة، يحدثان نوعاً من التركيز على نفس نقطة التوقف، والتي هي جزء أو لبنة في الفكرة المطروحة، والذي يستدعي تذكرها بالضرورة تذكر اللبنات المكملة لها، وحتى تستوي تماماً وتكتمل أعضاؤها بالرجوع إلى القراءة، فتظهر الفكرة متكاملة جلية كما أراد لها صاحبها أن تكون.

لم يكن منهج الجاحظ في كتاباته منهجاً تقليدياً، أو أكاديمياً بحتاً، بل كان مزيجاً من المنهج العلمي بأسلوبه المتميز، والأدبي بأسلوبه المتنوع، لأنه أراد الجمع بين التعليم والترويح، وبين الإشارة والتوضيح، وجذب القارئ والبلوغ به أقصى غاية في الفائدة، ولعلمه أن النفوس إذا ضجرت سئمت، وإذا كلّت ملّت، ومتى استحكم أحدهما على النفس تركت ما هي بصدده مهما كانت لذة ذلك الشيء ودرجة الإجادة والإفادة، وطبيعة النفس البشرية، تعاف الاستمرار على نمط معين، وتمل اللون الواحد والأشكال المتشابهة.

(1) المرجع السابق جـ٢ ص ١٧٦.

لاحظ الجاحظ في نفسه قبل غيره تأثير السآمة والملل في نفس عاشقة للقراءة وقد يكونان العقبة في تثقيف بعض الناس عقولهم، وتنوير أفكارهم، والجاحظ بانكبابه على المطالعة، وشغفه بالتحصيل ثم الكتابة والتأليف، أعرف من غيره بهذا العامل النفسي ومدى تأثيره على طالب العلم والمعرفة، وأراد أن يتحاشى هذا المنعطف في مؤلفاته، والذي اعتبره حجر عثرة يعترض المطلع، فاختار المنهج الذي ارتآه، واصطفى أسلوب علماء النفس في علاج حالة نفسية، وقف أمامها كطبيب متمكن شخص الداء، واختار له ناجع الدواء.

ولم يكن الجاحظ عندما أورد تلك الطرائف يقصدها لذاتها، أو التسلية المجردة بل كان مرماه وهدفه وغايته من ذلك خدمة الفكرة الأساسية، والموضوع العلمي الذي يكتب فيه، مع تعريف القارئ بما زخر به عصره من ألوان الملح والحكايات والطرائف، وأنماط الخلق، وأنواع الأجناس، وما بينها من اختلاف في مقادير العقول وتباين الأصول. والفكرة التي يطرحها الكاتب قد تكون متعددة الجوانب، أو فكرة تتكون من أفكار جزئية بعناصر متحدة. ولتوصيل هذه الأفكار، وحرصه على تسهيل قبولها في يسر، وحتى يضمن الجاحظ أن قارئ مؤلفاته نال أكبر قسط من الاستفادة، بعد أن هيأ له جواً نفسياً نشطاً، واستعداداً ذهنياً متجدداً لتلقي جوانب الموضوع، ولذا ومجاراة لهذا المنهج الفذ دأب الجاحظ في إيراد تجاربه ومشاهداته أو بعضاً من مخزون الفكر، كطرفة أو نكتة أو دعابة خفيفة يمسح بها عناء النفس ويجلو بها صدأ العقول، ويخلق بمنهجه إنساناً دائم النشاط، متجدداً بذكائه، قوياً في عقله، صافي الذهن، حديد الإرادة والعزيمة، فتستقر الفكرة في ذهنه أيما استقرار، ولا ينال منه ملل ولا سأم مع استمرار. فهذا الأسلوب الفريد والمنهج البديع، يدلنا من ناحية على عمق معرفة الجاحظ بطبيعة النفس البشرية، كما أنه بنثره تلك النوادر والملح في كتاباته، قد أدى غرضين وحقق هدفين، دون أن يشعر تلميذه وقارئ كتبه إلى ما يهدف إليه:

فأول الغرضين: إبعاد السأم والملل عن القارئ حتى لا يترك الكتاب قبل أن يكمل عرض الفكرة التي يريدها، أو قبل أن تكتمل جوانبها.

والثاني: ترسيخ المعنى الذي ينشد توصيله إلى القارئ من خلال فكرته.

وقد يطول عرض جوانب الفكرة العامة، أو جزئياتها، فإذا أحس بالطول الذي يبعث في النفس الارتداد عن القراءة، لجأ إلى صيدليته ليختار أعظم تركيبة أدبية وعلمية، يقدمها إلى النفس المتعبة يمحو منها السأم، ويعطيها منشطاً لا يضيع أثره ولا تخبو وقدته.

أما عن المأخذ الثاني، الذي درج دارسو شخصية الجاحظ على إلصاقه به، ونقله من كتاب إلى كتاب، ومن فم إلى أذن، حتى كاد يصبح في حكم الحقيقة المسلم بها لكثرة ما تردد، ويأخذ صفة الواقع المطلق، فهو الاستطراد في كتاباته، وقد صار هذا الاتهام شبهة يجب نفيها عنه، وفي محاولة ذلك أقول: إن الفكرة قد يطول عرضها ـ كما سبق ـ ويستلزم إسهاباً في شرحها، وإطناباً في توضيحها، فيحشد الملح والطرائف ذات الصلة الوثيقة بموضوع الفكرة، وقد يستدعي التفصيل حشد قدر كبير منها حسب رؤيته في إقناع القارئ، وتقديره في اكتفائها على ترسيخ المعنى الذي يريد إبلاغه فيظل منغمساً في هذه السياحة الذهنية، متنقلاً بين بستان تجاربه ومشاهداته، يقدم باقة من نتاج عقله المتمكن وفكره الوقاد، بين يدي القارئ، لتمكينه من الفكرة، وعندما تطول هذه السياحة، يعود ليأخذ بيده إلى الموضوع الأصلي والفكرة الأساسية في رفق شديد، مذكراً إياه بداية الفكرة ومبدأها ـ قد يكون ذلك إن لم يستلزمه ـ بذكر الكلمات التي بدأ بها عرض الفكرة، أو بالإشارة نصاً إليها، أو بما يفيد الإيماء إلى ذلك من مثل قوله «كنا قد ذكرنا» وهذا باب من البيان معروف، ولكن هذه الإشارات لا تطول إذ سرعان ما يبدأ في عرض بقية الجوانب، أو الأفكار الجزئية للفكرة العامة، وهذا حتى ينتهي الموضوع وقد استوعب، والقارئ ما زال نشيطاً يطلب المزيد.

وندرك المعنى الذي رمت إليه والتحليل الذي استعرضت به ما اعتبرت مآخذ على الجاحظ، عندما نقرأ قوله يرسم بذلك منهجه «وإنما أكتب لك من كل باب طرفاً، لأن إخراجك من باب إلى باب أبقى لنشاطك، ولو كتبته بكماله

لكان أكمل وأنبل، ولكن أخاف (التطويل) وأنت جدير أن تعرف بالجملة التفصيل والآخر بالأول»[1].

وقد يكون المسعودي في حديثه ـ وهو ممن يعدّ من خصوم الجاحظ ـ قد أوضح منهجه وارتأى هذا الذي ذهبت إليه، نسمعه عندما يقول «وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور، تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوّف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة طريفة»[2].

وعلى هذا لا مجال لاتهام الجاحظ ـ في زعمنا ـ واعتبار مزجه بين الجد والهزل واتباعه أسلوب الاستطراد مآخذ عليه، وخاصة عندما نسلط الضوء على علم الجاحظ وشخصيته فينبوع ثر لا ينضب، وبحر زاخر بألوان الأطايب، مع شخصية قادرة على ترك تأثير مباشر في القارئ، وضوء مستمد من كتاباته يشير إليه، يجذب العقول بأسلوبه الفخم ويأسر النفوس بمخزون فكره الضخم، لم يكن ليزج السقيم المعتل وسط هذا الأيك السليم المخضل، ولكنه صنعة البلاغي المؤلف، وشرعة البياني الناقد، وحتى تكون مؤلفاته فوق الاستواء، وقد ازدانت من أسلوبه ومنهجه بأروع الكساء.

ثالثاً: أهمية مؤلفات الجاحظ

لكي نعرف مدى أهمية كتب الجاحظ وقيمتها لا بد أن نسجل هنا أقوال علماء أفاضل لهم في دنيا التأليف باع طويل، ومن حظ الشهرة قدر كبير، قال أبو القاسم السيرافي «حضرت مجلس الأستاذ أبي الفضل بن العميد، فجرى ذكر الجاحظ، فغض منه بعض الحاضرين وأزرى به، وسكت الوزير عنه فلما خرج الرجل قلت له: سكتّ أيها الأستاذ عن هذا الرجل في قوله، مع عادتك في الرد

(١) الحيوان جـ ٧ ص ٣١٢.
(٢) مروج الذهب جـ ٤ ص ٤٧.

على أمثاله؟ فقال: لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله، ولو وافقته وبينت له، لنظر في كتبه وصار بذلك إنساناً يا أبا القاسم فكتب الجاحظ تعلم العقل أولاً، والأدب ثانياً، ولم أستصلحه لذلك»[1].

ولما لكتب الجاحظ من القيمة العلمية والأدبية والتاريخية، كانت مطلب الخلفاء والأمراء والملوك، والخاصة والعامة على حد سواء، ناهيك عن جلة العلماء والأدباء في كل زمان ومكان، ازدانت بها مكتباتهم وتنافسوا في الحصول عليها، باذلين النفس والنفيس في طلبها، قد عرفوا قيمة الجاحظ في كتبه، وقدر كتبه في علو نفسه وهمته ولذا كان الحرص شديداً لحيازة كتبه لما فيها من خير عميم، مهما أفضى بهم هذا الحرص إلى مكابدة المشاق في طلبها. يذكر أبو حيان «ومن عجيب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح قال: سمعت ابن الأخشاد شيخنا أبا بكر يقول: ذكر أبو عثمان في أول كتاب الحيوان أسماء كتبه، ليكون ذلك كالفهرست، ومرّ في جملتها: الفرق بين النبي والمتنبي، وكتاب دلائل النبوة، وقد ذكرها هكذا على التفرقة، وأعاد ذكر الفرق في الجزء الرابع لشيء دعاه إليه، فأحببت أن أرى الكتابين ولم أقدر على واحد منهما، وهو كتاب دلائل النبوة، وربما لقب بالفرق خطأ، فهمّني ذلك وساءني في سوء ظفري به، فلما شخصت من مصر ودخلت مكة ـ حرسها الله تعالى ـ أقمت منادياً بعرفات ينادي والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم، وتنازح أوطانهم، وتباين قبائلهم وأجناسهم من الشرق إلى الغرب ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب، وهو المنظر الذي لا يشابهه منظر ـ رحم الله من دلنا على كتاب (الفرق بين النبي والمتنبي) لأبي عثمان الجاحظ ـ على أي وجه كان، قال: فطاف المنادي في ترابيع عرفات وعاد بالخيبة، وقال: حجت الناس منى ولم يعرفوا هذا الكتاب، ولا اعترفوا به! قال ابن الأخشاد، « وإنما أردت أن أبلغ نفسي عذرها»[2].

ولا تؤخذ هذه المقالة على اعتبار أنها تنفي نسبة الكتاب إلى الجاحظ لأن

(١) وفيات الأعيان ـ ابن خلكان جـ ١ ص ٣٨٩.
(٢) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٥.

اسم الكتاب قد ورد منسوباً إليه في أكثر من موضع، ولكن كان هم ابن الأخشاد كيفية الحصول عليه، وبالبحث عنه متحيناً فرصة أكبر حشد للخلق فيذهب منادياً ربما يجد هذا الكتاب في حوزة أحد الأشخاص، فإن لم يستطع الحصول عليه يعذر نفسه، فقد طلبه ولم يدخر في ذلك جهداً، وهذا ما فعل، لم تقعد به الهمة حتى يرد الكتاب إليه، أو يمتثل بين يديه حتى يقرأه، بل كان البحث عنه والسعي إليه بدافع الحرص لمعرفة ما يحتويه الكتاب من خير وفير.

أما ياقوت الرومي فيثبت بقوله وجود هذا الكتاب. ونستنتج أيضاً مما قاله ياقوت أن بحث ابن الأخشاد لم يكن على جهة التثبت من وجود الكتاب أو عدم وجوده بل كان للحصول عليه عن طريق التعريف بالنداء وسط ذلك الجمع، يقول ياقوت «وحسبه بها فضيلة لأبي عثمان، أن يكون مثل ابن الأخشاد ـ وهو من هو ـ في معرفة علوم الحكمة، وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهام بكتب الجاحظ ينادي عليها بعرفات والبيت الحرام، وهذا الكتاب موجود في أيدي الناس اليوم لا تكاد تخلو خزانة منه... ولقد رأيت منه نحو مائة نسخة أو أكثر»[1].

وللدلالة على انتشار كتب الجاحظ، وذيوع أمرها نثبت هذا القول «قيل لأبي هفان وقد طال ذكر الجاحظ لأبي هفان، لم لا تهجو الجاحظ وقد ندد بك، وأخذ بمخنقك فقال: أمثلي يخدع عن عقله؟! والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي، لما أمست إلا بالصين شهرة»[2].

على مثل هذا كانت كتبه تغزو الآفاق، وتطير في الدنيا، روى الخطيب البغدادي في كتابه «عن يحيى بن علي أنه قال: حدثني أبي قال: قلت للجاحظ إني قرأت في فصل من كتابك المسمى (كتاب البيان والتبيين): إن مما يستحسن من النساء اللحن في الكلام، واستشهدت ببيتي مالك بن أسماء يعني قوله»[3].

---

(١) معجم الادباء ص ٧٥، وما بعدها.
(٢) معجم الأدباء ـ مرجليوث جـ ٦ ص ٧١.
(٣) تاريخ بغداد ـ البغدادي جـ ١٢ ص ٢١٤.

وحديث ألذه هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحنا

قال: هو كذلك، قلت: أفما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج، حين لحنت في كلامها، فعاب ذلك عليها، فاحتجت ببنت أخيها فقال: إن أخاك أراد ان المرأة فطنة، فهي تلحن بالكلام إلى غير المعنى في الظاهر، لتستر معناه وتوري عنه، وتفهمه من أرادت بالتعريض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ في لحنِ القول﴾[1] ولم يرد الخطأ من الكلام، والخطأ لا يستحسن من أحد، فوجم الجاحظ ساعة، ثم قال: لو سقط إلي هذا الخبر لما قلت ما تقدم، فقلت: أصلحه، فقال: الآن وقد سار الكتاب في الآفاق، هذا لا يصلح.

(١) سورة محمد الآية ٣٠.

الباب الثاني

(ابن منظور)

ويشتمل على:

الفصل الأول: عصر ابن منظور وحياته.

أولاً: عصر ابن منظور.

ثانياً: حياته.

الفصل الثاني: ثقافة ابن منظور.

أولاً: ثقافة ابن منظور.

ثانياً: أساتذته.

ثالثاً: مؤلفاته.

رابعاً: منهجه.

الفصـــل الأول

عصر ابن منظور وحياته

أولاً: عصر ابن منظور

الجانب السياسي:

عاش ابن منظور في العصر السياسي لدولة المماليك البحرية في مصر، هذا العصر الذي يبدأ عام ٦٥٨ هـ، وبدؤه الحقيقي عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م حينما قتل توران شاه ودخلت مصر في نفوذ مماليك هذه الدولة، وينتهي هذا العصر عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م.

وكان أول هؤلاء السلاطين عز الدين أيبك التركماني الذي ولي الحكم عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م، وتزوج شجرة الدر، وقتل عام ٦٥٥ هـ - ١٢٥٧ م، فخلفه ابنه المنصور نور الدين علي بن المعز أيبك، الذي تولى الوصاية عليه (سيف الدين قطز)، ثم أعلن قطز توليه الملك وأطاح المنصور عام ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م، ومن هذا التاريخ تبدأ دولة المماليك البحرية في تاريخ مصر.

وكان قطز هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، تولى الملك عام ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م بعد سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ في أيدي التتار وزحفهم نحو مصر، فالتقى بهم (قطز) في (عين جالوت) سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، ثم في (بيسان) وهزمهم هزيمة ساحقة وزفّت البشرى إلى كل مكان في بلاد العرب وأوروبا نفسها، وابتهجت نفوس الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم، وكان الفضل في ذلك لقائده الأمير (ركن الدين بيبرس) وبهذا النصر العظيم صار نفوذ مصر ودولة المماليك فيها ممتداً إلى كل مكان في العالم الإسلامي.

لقد أفلح المماليك - عامة - في تطهير مصر وبلاد الشام من بقايا الغزو

الأوربي وصدوا إلى الأبد جيوش المغول المخيفة التي قادها (هولاكو) و(تيمورلنك)، ولولا المماليك لكانت هذه الجيوش قد غيرت مجرى التاريخ والثقافة في هذه البلاد، وبذلك وفرت هذه الدولة على مصر الويلات التي نزلت بسورية والعراق.

وعند عودة الجيش المنتصر من عين جالوت إلى مصر قتل (بيبرس) السلطان (قطز)، وتولى مكانه حكم البلاد، وبذلك تقلد الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، حكم مصر (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ) - (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م)، وكان أشهر سلاطين المماليك البحرية، وقد نظم أمور الدولة والجيش، وأنشأ الأساطيل وعني بتحصين الشام.

ولقد كان الملك الظاهر بيبرس ذا دهاء بيّن، فلكي يعزز زعامته للإسلام دعا أحد أولاد الخلفاء العباسيين إلى مصر، وبايعه بالخلافة ولقبه بالمستنصر[١]، واستمد سلطة الملك منه نائباً عنه عام (٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م)، وكان أول من بايع الخليفة العباسي شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام[٢]، وقتل هذا الخليفة قرب دمشق عام (٦٦٠ هـ - ١٢٦٢ م) عند توجهه على رأس جيش مصري لمحاربة التتار، وتولى بعده الخلافة في مصر الخليفة العباسي أحمد ولقب الحاكم بأمر الله[٣].

وكان للسلطان (الظاهر بيبرس) أعمال حربية، وإصلاحات داخلية محمودة، وفي أيامه طيف بالمحمل، وبكسوة الكعبة المشرفة عام (٦٧٥ هـ - ١٢٧٧ م)، وهو أول من فعل ذلك بالديار المصرية.

وبعد وفاة بيبرس خلفه ولدان له أحدهما بعد الآخر لم تطل مدتهما، وانتهى الأمر بتولي السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي (٦٧٨ هـ - ١٢٧٩ م)، فبقي الملك في بيته أكثر من مائة سنة، وساد العدل والسكينة في عهده.

(١) حسن المحاضرة جـ٢ ص ٤٠.
(٢) المرجع السابق ص ٤٤.
(٣) المرجع السابق ص ٤٧.

وخلفه ابنه الأشرف خليل (٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م)، وكان شجاعاً مقداماً مظفراً عادلاً وقتل بعد ثلاث سنوات، ويذكر له أنه قضى على إمارات الصليبيين بالشام، وخلفه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ هـ - ١٢٩٣ م)، وقد هزم التتار قرب دمشق عام ٧٠٢ هـ هزيمة ساحقة أثناء محاولتهم التقدم لفتح مصر، وعني الناصر بشؤون بلاده الداخلية ونشر العلوم والمعارف، وشيد المباني الضخمة. وانتهى الأمر بانقراض هذه الدولة عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م، واستيلاء المماليك الشراكسة على الملك من (٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٦ م).

الحيــاة الاجتماعيـة:

كانت حياة المماليك - عامة - تتسم بالصلاح والتقوى والرغبة في إنشاء أماكن العبادة والاهتمام بأداء الفروض، وقد كان لهذه المظاهر وقعها في قلوب عامة الشعب، فحرصوا أيضاً على احترامهم وطاعتهم في أكثر الأحيان، حيث نزلوا من نفوس الشعب منزلة رفيعة.

فمن خواص هذه الطبقة جمعهم بين الصلاح في نظر الشعب، والاستمساك بقواعد الدين الحنيف، وتشييد العمائر الدينية وغير ذلك، هذا من حيث حياتهم العامة.

فإذا نظرنا إلى الحياة الخاصة التي كانوا يعيشونها فيما بينهم، نجد أنهم كانوا لا يتورعون عن إتيان أشنع المنكرات والتعسف في أذى الخلق، وإهراق الدماء.

لقد كانت لهم شخصيتان، واحدة عامة، وأخرى خاصة. كتب ابن اياس[1] يقول عن ثروة الأمير (سيف الدين سلار) المتوفى عام (٧١٠ هـ - ١٣١٠ م) كان نائب السلطنة في عهد السلطان بيبرس الجاشنكير[2] إنها بلغت

(١) بدائع الزهور - ابن أياس ج ١ ص ١٥٥.
(٢) الأعلام جـ ٢ ص ٥٩.

مئات الملايين من الدنانير الذهبية، ومئات القناطير الفضية، وكميات هائلة من المعادن الكريمة والملابس الرفيعة[1].

ويقف ابن اياس متسائلاً عن مصدر هذه الثروة ومتى جمعها وهو لم يمكث في نيابة السلطان سوى أحد عشر عاماً! ويرد على ذلك بأنه إما ظفر بكنز من كنوز القدماء واما أنه أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال سرقة واغتصاباً[2].

ويظهر جلياً استغلال المماليك لمناصبهم في الثراء الفاحش، فبقدر ما كان يقدم من هدايا غالية للسلطان، كانت الفرصة تسنح للوصول إلى منصب النيابة، وبعد الوصول إلى هذا المنصب يعمل النائب على تعويض ما دفعه بشتى السبل، فيلهب ظهر الفلاح بفرض الضرائب الكبيرة وفرض الاتاوات، واستعمال شتى الحيل في الاستغلال حتى يتمكن من جمع أكبر ثروة في فترة وجيزة، يعلم أنه سيمكثها في منصبه.

وكما كان الأمراء يفرضون الاتاوات ويجبون الضرائب، فيثقلون كاهل الشعب، كان هذا العصر كثير الفتن والزعازع، انقسم فيه الأمراء بعضهم على بعض، وكان لكل أمير فريق يناصره، وينافح دونه، وتفشت الدسائس بين كبار المماليك، وكثرت مصادرة الأموال واعتقال رجال الحكم وقتلهم، وقد كانت أخبار هذه الحوادث تنتشر بين الناس محرفة مبالغاً فيها وكانت العامة تثب على الفريق المغلوب للنهب والسلب، وربما اغتنمت الفرصة وجرتها الفوضى إلى الاندفاع في سبيلها فدهمت الآمنين في بيوتهم.

وقد كان السلب والنهب من سمات الأمراء في هذا العصر، فذلك الذي يذكره ابن اياس عن ثروة الأمير سيف الدين سلار، وكيفية جمعها، في زمن اشتدت فيه الأزمات وكثرت المجاعات، واكتسحت البلاد، فذهب ضحيتها الكثيرون.

---

(١) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني ص٤٣.
(٢) دراسات في تاريخ المماليك البحرية - علي إبراهيم حسن ط ٢ ص ٣٢٢.

لقد كان أكثر الولاة يصلون إلى مراكزهم عن طريق الرشوة، فإذا ما وصلوا إلى الحكم أرادوا أن يعوضوا ما دفعوه من مال، فيفرضون على الناس المغارم، وقد كان لهذا الوضع نتيجة عكسية أثرت في ثروة البلاد الزراعية، فعندما تشتد وطأة المغارم على الناس وتفيض بهم، يهجرون مواطنهم إلى مواطن أخرى، ويقعون من جديد تحت عسف جديد.

وقد حدثت مجاعات متوالية[1]، وأشهرها تلك التي حدثت سنة ٦٩٦ هـ - ١٢٩٦ م حين شح ماء النيل، ونقص نقصاً كبيراً، فجفت الآبار، وفات على الفلاحين أوان الزرع، وندرت المحاصيل، وزاد الحال شدة أن ريحاً سوداء مظلمة هبت على البلاد حاملة تراباً كسا الزرع ففسد كل شيء، وارتفع ثمن القوت ارتفاعاً مريعاً، فعجز عن شرائه الفقراء، وهلك معظم الدواب[2].

وكان هذا العصر كثير الحوادث، فاضطراب في داخل البلاد، وخوف من هجوم التتار، ومجاعات تظهر، ويصف صاحب «مصر الإسلامية» هذا الغلاء فيقول «ثم عاد الغلاء والقحط والوباء يفتك بالشعب بمصر في سنة (٦٩٦ هـ - ١٢٩٦ م)، في عهد الملك العادل (كتبغا)، فعاد بعودها الدمار والموت، وعادت صورها ومناظرها المروعة تبث الفناء والفوضى في مروج مصر النضرة ومجتمعاتها الزاهرة»[3].

وإذا كانت الطبيعة سخية معهم بكوارثها، إلا أننا نجد للمماليك جيشاً قوياً استطاع به دفع التتار عن اقتحام أرض مصر والاستقرار في أرض سورية، وطرد الصليبيين بعد مئات المعارك عن بلاد المشرق، وقد جاءوا مستعمرين طامعين، والمحافظة على استقلال البلاد من المعتدين.

كما يذكر للمماليك تسابقهم في إقامة الأوقاف ورصد الأموال الوفيرة على

(١) بدائع الزهور - ابن أياس جـ ١ ص ٢٠٠، وانظر: مطالعات ص ٤٤.
(٢) راجع: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني - بكري شيخ أمين ص ٤٤، وكتاب السلوك - المقريزي جـ ١ ص ٨١٤ - مطبعة لجنة التأليف - القاهرة ١٩٣٤ م.
(٣) راجع: مصر الإسلامية - محمد عبدالله عنان ص ١٥٢.

دروب البر والإحسان، مما ساعد على إنشاء الأربطة والسبل، والمدارس والمساجد، وترقي العلم وخدمة طلابه، وبجانب هذا كان احتقارهم للشعب، وإهمال حقوقه السياسية، وتسخيره في سبيل مصالحهم الخاصة، وجبي الضرائب منهم.

مع كثرة المؤامرات للوصول إلى الحكم، فقد كان السلطان بيبرس الجاشنكير، من مماليك المنصور قلاوون وتآمر في أيامه، وتسلطن في عهد الناصر محمد بن قلاوون ولقب بالمظفر، وحاول أن يحارب الناصر إلا أن أتباعه تخلوا عنه، فانتهى الأمر إلى خنقه بيد الناصر[1].

وقد كان الأزهر في هذه العصور المضطربة فوق رسالته التي يؤديها للدين واللغة والأدب، ملجأ المظلومين، ومثابة المنكوبين، فطالما التجأ البائسون إلى علمائه يستجيرون بهم من ظلم الحكام، وفداحة الأحكام، فأخذوا بناصرهم، وكشفوا الضر عنهم.

أما عن أمر التعليم، فقد كانت فئة الأمراء تتمتع بعناية خاصة، فينشئونهم تنشئة حربية ممتازة مع تلقينهم في صغرهم قليلاً من مبادئ الكتابة والقراءة وعلوم الدين، أما طبقات الشعب فقد كانت أمامهم أبواب المساجد مفتوحة، يلجها من يشاء بمحض إرادته فيجدون من الشيوخ والمدرسين أصنافاً، يلقون دروسهم على من يشاء من الناس دون أن يتجشم الطالب في سبيل ذلك مالاً يدفعه لقاء تعليمه.

لقد كان النمط الاجتماعي واحداً لا يتغير، فطبقة الولاة لا يختلطون بعامة الناس، ويظلون يعطون الأوامر بواسطة نوابهم إلى الشعب، وتجبى إليهم الضرائب فتمتلئ خزائنهم، والجندية وقف على أبنائهم، بينما طبقة الفلاحين مرهقون بالضرائب، ويعانون من العسف والسخرة، فيهربون من وجه الظلم إلى مواطن أخرى ليواجههم نفس المصير، ثم طبقة العلماء والتجار وهؤلاء

(١) راجع: الأعلام للزركلي جـ٢ ص ٥٩.

يتمتعون بقدر من الثراء، وإن لم يكونوا بمنأى عن السلب والنهب وسطوة الولاة أيضاً.

ومع كثرة العلماء والطلاب الذين هاجروا إلى مصر من أنحاء أخرى إلا أن هذه الهجرة لم تحدث أثراً في النظم الاجتماعية والسياسية، لأنها أخذت اتجاهاً علمياً محضاً وربما كان حكم المماليك في ذلك الوقت يفضل حكم كثير من الممالك حولهم، وربما كانت مصر من الرخاء والعزة بحيث تدفع إلى الرضا بالواقع[1].

أما الأرض فكانت إقطاعات منحها الحاكمون للأمراء أو الوزراء أو ذوي القربى، وهي إقطاعات لا تورث، بل ترد إلى يد السلطان إذا مات صاحبها، ليعود السلطان بدوره فيهبها لمن يشاء، مما جعل الأمراء يستغلون إقطاعاتهم إلى أقصى حدود الاستغلال لمصلحتهم الخاصة، ولم يكن لأفراد الشعب العاملين في الأرض ملكية أو انتفاع إلا ما يصيبهم من أجر على عملهم، أو معونة من إمداد الأوقاف.

لقد كانت الطبقية ظاهرة في الحياة الاجتماعية في هذا العصر، فكل من كان يستطيع استغلال ظروف الوظيفة أو المنصب نفسه لا يتورع في ذلك، ولا ينظر بعين الرحمة إلى ما يقاسيه الذي يتسلط عليه بأوامره ومطالبه. يحدثنا المقريزي[2] وابن اياس[3] عن ضرائب مفروضة على الناس فيها كثير من الظلم والعسف، وكان الجباة يصبون جام غضبهم على الناس لاستخراج الأموال منهم، وإجبارهم على دفع ما يفرضون، والتفنن في تعذيبهم، فمن وعيد إلى مطاردة ومن سجن إلى تشريد.

وهناك ضروب من الظلم تجلت في غير الضرائب، فمن ذلك مثلاً أنه في سنة (٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م)، أنشأ المنصور قلاوون (البيمارستان) المنصوري، وقيل في سبب إنشائه: إنه كان أمر مماليكه بأن يضعوا السيف في رقاب العوام،

---

(١) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٤٩، وراجع: قصة الأدب في مصر لخفاجي ص ١٨٣ وما بعدها.
(٢) راجع: السلوك للمقريزي جـ ١ ص ٨٠٠.
(٣) راجع: بدائع الزهور لابن أياس جـ ٣ ص ٥٩ - ٦٠.

لأنهم خالفوا أمره في بعض ما أمر، فاستعمل السيف في قتلهم ثلاثة أيام، وقتل منهم عدداً لا يحصى، وذهب البريء منهم مع المسيء، والصالح مع الطالح، وما زالوا حتى ضج الناس، وعلا الصراخ، وعمت الشكوى، وطفحت الكأس، ولم يكن لهم ملجأ إلا العلماء لمكانتهم عند الولاة، فإذا ما أصابتهم يد الضراء هرعوا يجتمعون بالعلماء والقضاة فإذا تشفع هؤلاء فيهم عفا عنهم المنصور، ويأخذ المنصور هول ما نزل بالعوام، فيندم على ما فعل، ويتقرب إلى الله بهذا المستشفى[1].

ومما سبق يتبين لنا أن الحياة الاجتماعية في هذا العصر، كانت مزيجاً من التناقضات، فبينما الولاة والحكام يعيشون في رغد يتمتعون بأنواع الطيبات، يتحاشون العامة، لا يندمجون فيهم، ولا يختلطون بهم، ازدراءً واحتقاراً لهم، نجد طبقة الفقراء متمثلة في العوام وزراع الأرض والذين يسامون سوء العذاب من النواب والولاة وممن هم أعلى منهم في المرتبة، تلك الطبقة التي تنحصر في جباة الضرائب وفارضي المكوس، فيهجرون الأرض تحت وطأة التعذيب وقسوة المعاملة، يفضلون الجوع والفرار على البقاء تحت رحمة الجباة، وطبقة أخرى لا هي في ثراء الحكام ولا في فقر العامة واضطهادهم، وهم طبقة العلماء والقضاة الذين كان لهم بعض الاحترام عند الحكام لما لهم من منزلة عند العوام، وربما كانت هذه المنزلة المزدوجة هي التي تجبر الطرفين على احترامهم، فجبابرة الولاة يرضون عنهم مقابل إقناعهم العامة بصلاح الولاة، وتهدئة ثورتهم عليهم، عندما تبدو نذر الاضطراب والشكوى من سوء الحال.

وقد كانت الأنفة المملوكية سبباً في هذه الفجوة الطبقية، ذلك أنهم لم يهملوا في إنشاء العمائر الإسلامية والأوقاف، والسبل وغير ذلك، إلا أنهم أهملوا شؤون الرعية استخفافاً بهم، وامتهاناً لهم، حتى ان أحد العامة إذا بلغ من شأنه رفعة وعلواً ما زالت صفة (فلاح) تلاحقه. يقول ابن أياس يهجو أحد رؤساء عصره المدعو (شمس الدين بن عوض) «لما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء، لم يخرج من طبع الفلاحين الذي ربي عليه، فكانت عمامته

(١) راجع: بدائع الزهور لابن أياس جـ١ ص ١١٦.

عامة الفلاحين، وكلامه كلام الفلاحين، كأنه فلاح قحف جاء من وراء المحراث. . .»[1].

الجانب الثقافي للعصر:

في عصر المماليك وجدت حركة علمية ضخمة، كان من مظهرها كثرة العلماء في كل فرع من فروع الثقافة الإسلامية والعربية، وضخامة ما ألفه هؤلاء العلماء من مؤلفات.

واستمرت هذه الحركة، لأنهم كانوا على الرغم من بعدهم عن العروبة يؤمنون بالإسلام، ويخلصون له، ويتحمسون لعلومه وآدابه ولغته، وقد أبقوا لنا مدارس كثيرة في الشام ومصر والحجاز تدل على حرصهم الشديد على نشر العلم وتعميمه، ولم يخل عصر أحدهم من إشادة مدرسة، أو خزانة كتب، أو تأسيس كتاب للأطفال، أو دار قرآن للأيتام، أو دار حديث للطلاب.

لقد نبغ في هذا العهد كثير من الأفذاذ، فمن رواد الشعر في هذا العصر صفي الدين الحلي عبد العزيز بن علي (٦٧٧ هـ - ٧٥٠ هـ)، والشاب الظريف (٦٢١ - ٧٤٩ هـ)، وجمال الدين بن نباتة (٦٨٦ - ٧٦٨ هـ)، وابن الوردي (٦٨٩ - ٧٤٩ هـ)، وصاحب البردة البوصيري (٦٠٨ - ٦٩٥ هـ)، ومحمد جمال الدين الوطواط المتوفى سنة ٧٤٨ هـ. وقد ساعد على ازدهار الحركة العلمية في مصر تلك الحروب التي أدت بعلماء الشام يتجهون نحو مصر، بعد التقتيل والتشريد اللذين حلاَّ بهم فقد نبا المقام بمن بقي من العلماء على قيد الحياة في العراق والمشرق، فهجروا البلاد بعد النكبة الكبرى التي حلت في الأرض العربية، ورحلوا إلى مصر، حيث الأمن والدعة والسلامة والعيش الرغيد، والرعاية الطيبة، ووجدوا أنفسهم بعد هذه الكارثة العلمية الرهيبة مسؤولين أمام الله والتاريخ عن إنهاض العلم من رقدته، وانتشاله من وهدته، وإقالة عثاره. كما هاجر إلى مصر في هذا العهد كثير من العلماء الذين جددوا شباب

(١) أنظر: بدائع الزهور (حوادث ربيع الثاني عام ٩٢٠ هـ) جـ٢.

النهضة العلمية في العالم الإسلامي. كما كان من السلاطين من هو على جانب طيب من العلم والمعرفة والفضل، فكان طبيعياً جداً أن يشجع العلم وأهله، ويهتم بإشادة وعمارة بيوت العلم أمثال الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ - ١٢٧٩ م)، وابنه الملك الناصر (٦٩٣هـ - ١٢٩٣ م)، وبيبرس (٦٥٨ هـ - ١٣٦٠ م)[١].

وقد كان من العلماء من يعرف كثيراً من العلوم العقلية والطبية وغيرها زيادة على العلوم الدينية والعربية، وهؤلاء لا يحصون، منهم ابن دقيق العيد (٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) وعبد العال خليفة سيد أحمد البدوي المتوفى سنة ٧٣٢ هـ[٢]، وغيرهما.

وكان الأزهر يؤدي مهمته الدينية على أروع الوجوه، وكان كذلك بجوار الأزهر مدارس مشهورة، منها المدرسة الظاهرية القديمة التي بناها (بيبرس) عام ٦٦٢ هـ ورتب فيها للتدريس: تقي الدين بن رزين لتدريس الشافعية، والحافظ شرف الدين الدمياطي لتدريس الحديث، وكمال الدين القرشي لتدريس القراءات.

وأصبح في مصر للعلم دوي النحل في كل مكان وبقعة، تعددت المدارس والمجالس والتف الطلاب حول العلماء في حلقات العلم يتدارسون ويتفهمون شتى نواحي العلم، نجد المنصور قلاوون (٦٧٨ هـ - ١٢٧٩ م) يبني المدرسة المنصورية، ويرتب فيها دروساً للفقه على المذاهب الأربعة والحديث والتفسير، ودروساً كذلك للطب، ثم يأتي الناصر محمد بن قلاوون ليشيد المدرسة الناصرية (٦٩٣ هـ - ١٢٩٣ م)، وعين بها المدرسين للمذاهب الأربعة، ويصح أن نطلق على هذه المدارس أنها كانت جامعات مصغرة، يتلقى فيها العلم في مختلف الفروع والتخصصات، بجانب الجوامع التي كان لها دور في حمل عبء التعليم والتثقيف في جوانب العلم المختلفة، وإن كانت الدراسة تميل فيها - في أكثر الأحيان - إلى الدراسة الدينية والعربية.

---

(١) راجع: حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٣٠، قصة الأدب في مصر جـ٣ ص ٩٠.
(٢) راجع: حسن المحاضرة جـ١ ص ٢٢٥.

لقد تعددت المدارس في هذا العصر، وكان لها الأثر الكبير في نهضة العلم وازدهار الثقافة وكثرة العلماء المفكرين، ولم يكن العلماء على درجة من العلم والفكر فحسب، بل كانوا يجمعون إلى ذلك التقوى والزهد، فيضربون للناس المثل في القول والفعل. نجد - مثلاً - سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)، وكان في غاية الزهد، وبلغ رتبة الاجتهاد، وقدم مصر فأقام بها أكثر من عشرين سنة، ناهياً عن المنكر، آمراً بالمعروف حتى توفاه الله[١].

ونذكر من جملة العلماء في هذا العصر أحمد بن ادريس أحد الأعلام والذي انتهت إليه رياسة المالكية في عصره، وكان تلميذ الشيخ عز الدين بن عبد السلام وتوفي سنة ٦٤٨ هـ[٢].

كما شهد هذا العصر كوكبة من رجال اللغة والأدب وكبار الكتّاب، أمثال جمال الدين بن هشام المصري المتوفى سنة ٧٦١ هـ، وابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ وابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ هـ، ومحيي الدين بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤١ هـ وولده شهاب الدين المتوفى سنة ٧٧٥ هـ، وشهاب الدين محمود الحلبي المتوفى سنة ٧٥٥ هـ.

لقد أبدى المماليك غيرة دينية، فتعصبوا للدين ورجاله، واندفعوا إلى الذود عنهم، والرغبة في إقرار كريم العيش والرعاية لهم، فامتلأت من جديد دور العلم بالطلبة، ورفوف المكتبات بالكتب والمؤلفات.

وقد بلغت المؤلفات التي صدرت في العصر المملوكي، عشرات الآلاف، فبعض العلماء عرف أنه وحده ألف مئات من الكتب، كابن تيمية[٣]، والسيوطي، بل وكابن منظور نفسه.

لقد نبغ العلماء في شتى أنواع المعارف وبخاصة العلوم الدينية والعربية

---

(١) راجع: حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٧.

(٢) راجع: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣) أنظر: الأعلام جـ ١ ص ١٤٠ - مطبعة كونستاتوماس سنة ١٩٥٤ م، الزركلي معجم المؤلفين جـ ١ ص ٢٦١ لمحمد علي كحالة.

وأصبحت مجالسهم وحلقات دروسهم محط الرحال ومهبط الرجال، وغاية الأمل بلوغ دورهم والاستماع إليهم، والانضواء في حلقاتهم، ومن هؤلاء النفر ابن دقيق العيد الشيخ تقي الدين علي بن وهب (٦٢٥ ـ ٧٠٢ هـ)، انتهت إليه الرياسة في عصره وشدت إليه ظهور المطايا، وألقوا عنده عصا التسيار[١].

ومن هؤلاء العلماء ابن الرفعة الإمام أحمد الأنصاري، ولد بالفسطاط سنة ٦٤٥ هـ ومات سنة ٧٠١ هـ[٢]، ومنهم الشيخ السبكي (٥٨٥ ـ ٦٦٩ هـ)، وقاضي القضاة شرف الدين السبكي الذي درس بالصالحية، وولي قضاء القاهرة، ومن جلة العلماء كذلك، شرف الدين الدمياطي شيخ المحدثين (٦١٣ ـ ٧٠٥ هـ)[٣].

لقد كان للخراب الذي أحدثته الجيوش المغيرة على الشام العربي، السبب الأول في انتعاش الحالة الثقافية بمصر، حتى غدت القاهرة مركز إشعاع يؤمها جميع الأجناس من مختلف الأصقاع.

لقد تطلع العلماء في جميع أقطار العالم الإسلامي إلى مهرب يلتجئون إليه بعد أن تحكم التتار في حاضرة الإسلام ودار السلام، وهدموا مدنيتها واعتدوا على آثار مجدها، وقضوا على مظاهر حضارتها، وأعملوا السيف في أهلها أياماً، وقذفوا الكتب في نهر دجلة ، وهي خير ما أنتجته قرائح المسلمين، رأى العلماء ورجال الدين كل ذلك، ورأوا أن الديار نبت بهم فالتمسوا مكاناً يطيب لهم فيه المقام، وتزدهي فيه العربية وتخفق راية الإسلام.

تطلعوا شرقاً وغرباً فلم يجدوا غير مصر خصوصاً بعد أن أصبحت موطن الخلافة ومقر الإسلام، فرحلوا إليها من جميع الأقطار، فكنت ترى القاهرة ومراكز العالم الأخرى بالديار المصرية تموج بهم موجاً، فتجد العراقي والشامي والفارسي والأندلسي والإفريقي والحجازي، وقد وطأ لهم السلاطين أكنافهم، وأنزلوهم منزلاً مباركاً، وأغدقوا عليهم الصلات والإحسان، وأحاطوهم

(١) حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٢٨.
(٢) المرجع السابق ص ١٣٠.
(٣) المرجع السابق ص ١٥٠.

برعايتهم وعطفهم، فوجدوا حرماً آمناً ومكاناً ينبت العز، فأخذوا يؤلفون وينظمون وينثرون.

ويحق لنا أن نسمي هذا العصر بعصر الموسوعات، فقد ألف العلماء والأدباء موسوعات أدبية وثقافية عامة تعد من أهم مصادر الأدب في هذا العصر، وتمتاز هذه الموسوعات بالضخامة والفوائد الغزيرة.

لقد تعددت المراكز الثقافية التي كانت تموج بطلاب العلم، وكانت كثيرة متمثلة في الجامع وغيره من مواطن الثقافة في هذا العصر، وإذا كان المسجد قد وضع لعبادة الله، فإن المسلمين قد توسعوا في مهمته، فجعلوا منه إلى جانب كونه مركزاً للعبادة مكاناً لإدارة شؤون الدولة أو الولاية، كما جعلوا من المنبر أداة سياسية يلقون من فوقه بيان السلطان لسياسة الدولة، كما كانت تذاع فيه القرارات الهامة التي تتصل بشؤون الأمة ومصالحها، وفيه يستقبل الخليفة الشعراء، ويدير شؤون الدولة، وفيه يتخذ علماء التفسير والحديث مكانهم للتدريس، وفيه يجلس القضاة للنظر في شؤون المتقاضين، وفيه تجتمع الجيوش، ومنه تنطلق إلى الجهاد.

ولم يقتصر التدريس ـ في أغلب الأحيان ـ في الجامع على الأمور الدينية بل امتد إلى فروع علمية مختلفة كالشعر والنحو، والأدب، والفلك والحساب وأحياناً كان يدرس فيه الطب كذلك[١].

ومن أشهر مساجد التعليم: مسجد عمرو بن العاص في القاهرة، ويذكر المقريزي[٢] فيه بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم، لا تكاد تبرح منه، وجامع أحمد بن طولون الذي درس فيه الطب إلى جانب العلوم الدينية[٣] والجامع الأزهر ولم يكن الأزهر مقصوراً على أهل مصر وحدها، بل كان المسلمون يقصدونه منذ العصر الأيوبي من كافة أنحاء العالم الإسلامي حتى من بلاد المغرب واليمن والهند وأواسط أفريقية، وأخذت هذه الصلة تقوى بين الأزهر

(١) مبادئ التربية الإسلامية ـ أسماء حسن فهمي ص ٢٨.
(٢) الخطط ـ المقريزي جـ ٢ ص ٢٥٦.
(٣) راجع: المرجع السابق ص ٣٦٣، حسن المحاضرة للسيوطي جـ ٢ ص ١٣٨.

والبلاد الإسلامية، حتى أضحى في العصر العثماني مأوى المسلمين وحصنهم المتين في كافة بقاع الإسلام من بلاد الشركس، وبلاد الهند والأفغان، وقد بلغ عدد طلابه في القرن التاسع للهجرة نحواً من ألف طالب[١].

ومن معاهد الثقافة كذلك الزاوية، وهي مأخوذة من الفعل (انزوى - ينزوي) بمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد، وقد أدرك خلفاء المسلمين الأوائل حاجة المسلمين إلى هذا الانزواء، فأنشأوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد، ثم تطورت الزوايا فيما بعد إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة في شكل دور أو مساجد صغيرة لا تبلغ في حجمها وسعتها حجم وسعة الجوامع، وتقام فيها أيضاً الصلوات الخمس، وتعقد فيها حلقات دراسية في علوم الدين، والعربية والفكرية، كما يعقد فيها مشايخ الصوفية حلقات الذكر، وتطلق الزوايا في وقتنا الحاضر على تلك المساجد الملحقة بدور المصالح، وهي مساجد صغيرة، متناثرة في القرى والكفور التي يقل بها عدد السكان.

ومنذ القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي - انتشرت الزوايا، وأنشئت فيها كتاتيب لتحفيظ القرآن، وتعليم الدين ومبادئ العلوم[٢].

وقد نهضت مصر نهضة علمية مباركة في تلك الأيام بفضل مراكزها الثقافية، وميل سلاطينها إلى العلم والعلماء، وكان في أغلبهم تمسك بالدين وتعظيم لأهله، ثم إنهم من ناحية أخرى رأوا أن الدين والعمل به وتعظيم أهله مما يقربهم إلى قلوب الرعية ويغفر لهم ما تصادفه منهم أحياناً من طغيان.

كما يعد من معاهد الثقافة أيضاً الكتاب: وهو مشتق من الفعل (كتب - يكتب) والمكتب أو المكتّب هو الرجل الذي يعلم التلامذة الكتابة[٣]، كما تعددت المدارس التي أسسوها في ذاك العهد، مثل المدرسة الظاهرية والتي شرع في بنائها السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١ هـ، وتمت سنة ٦٦٢ هـ، وعقدت بها دروس للفقه الشافعي والحنفي والقراءات، ثم المدرسة المنصورية، أنشأها

(١) أنظر: عصر الانحدار ص ١٧٤.
(٢) أنظر: دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - مادة (الزاوية).
(٣) راجع: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني - بكري شيخ ص ٦٠.

هي والبيمارستان، الملك المنصور قلاوون، ورتبت في هذه المدرسة دروس الفقه على المذاهب الأربعة، ودروس التفسير، ودروس الحديث، ودروس الطب.

ثم المدرسة الناصرية، ابتدأها العادل كتبغا، وأتمها الناصر سنة ٧٠٣ هـ، ورتب بها دروساً للمذاهب الأربعة، ثم مدرسة السلطان حسن، والتي شرع في بنائها سنة ٧٥٨ هـ، قال المقريزي «لا يعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذه المدرسة في كبر قالبها، وحسن هندامها، وضخامة شكلها، أقامت العمارة فيها مدة ثلاث سنين لا تبطل يوماً واحداً، وبها أربع مدارس للمذاهب الأربعة»(١).

ثم المدرسة المؤيدية: تمت عمارتها سنة ٨١٩ هـ، وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار، وكان الناظر على عمارتها بهاء الدين بن البرجي(٢).

ثم تأتي المكتبات، ذلك أنه حين نشطت حركة الترجمة والتأليف في العصر العباسي وتقدمت صناعة الورق، أتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين الذين يقومون بنسخ الكتب. واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم، فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية وغيرها، وأصبحت هذه المكتبات فيما بعد من أهم مراكز الثقافة الإسلامية.

ولقد كثرت المؤلفات وظهرت الموسوعات الأدبية والثقافية في هذا العصر، نجد مثلاً (نهاية الأرب في فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد النويري المتوفى سنة ٧٣٢ هـ و(لسان العرب) لابن منظور الأفريقي المتوفى سنة ٧١١ هـ، وغيرهما.

وانكب العلماء فيه على التدوين انكباباً صرفهم عن مشاكل الحياة وشؤونها، وتوجهت نفوسهم إلى سد كل حاجة دينية أو فنية أو كونية بمؤلف أو مؤلفات، وتنافسوا في الإجادة وتسابقوا في كثرة الإنتاج، وابتكر بعضهم مباحث وعلوماً لم يكن للناس عهد بها، ولا غرو فقد كانت مصر والشام في هذا العصر حافلتين بالمدارس ودور العلم، وكانت القاهرة والاسكندرية وغيرها من البلاد

---

(١) راجع: قصة الأدب في مصر جـ ١ ص ١٤٠.
(٢) راجع المرجع السابق ص ١٤٢.

المصرية، ثم دمشق وحلب وغيرها من البلاد الشامية تموج بالعلماء والطلاب، وكان التنافس بين العلماء بمصر والشام بالغاً حده، وكان الاتصال بينهما على بعد المشقة مستمراً، وكان من العقائد الراسخة أن العالم أو الأديب الذي لا يبرز أثراً لا يصح أنّ يدعى عالماً أو أديباً.

لقد احتفظ الشعر بمكانته التقليدية من العناية والدعاية، وظل الناس يتداولونه ويتذاكرونه، ويتسامرون به، ويحفظونه عن ظهر قلب، عدا تلك الهنات التي كانت تلحق به في بعض الأحيان، يضعف عند شاعر ويقوى عند آخر بقدر ما أوتي من آلات الشعر ودوافعه.

كما زخر هذا العصر بشعراء أقوياء، وهناك ظاهرة جديرة بالاهتمام في تاريخ الأدب العربي، وهو أن موكب الشعر لم يتوقف أو ينقطع، على الرغم من تغير الأوضاع السياسية، وتبدل الأحوال الاجتماعية، وتباين الأجواء الفكرية والثقافية بين شتى الأمصار ومختلف العصور.

شهد هذا العصر شعراء كباراً أمثال البوصيري، المشهور ببردته التي أصبحت أساساً من أسس الشعر الديني والمدح النبوي، ونوعاً مميزاً في درجة الشعر عرف بالبديعيات والتي مطلعها:

أمن تذكر جيران بذي سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة   وأومض البرق في الظلماء من أضم

ومن شعراء هذا العصر أيضاً، صفي الدين الحلي عبد العزيز بن سرايا ابن علي المولود بالحلة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ هـ، والمتوفى ببغداد عام ٧٥٠ هـ، مدح السلطان الناصر بن قلاوون بقصيدة عارض فيها المتنبي في قصيدته التي مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا

فابتدأها بقوله:

أسبلن من فوق النهود ذوائبا   فتركن حبات القلوب ذوائبا

وكذلك صلاح الدين الصفدي المولود في صفد عام ٦٩٦ هـ، والمتوفى بدمشق عام ٧٦٤ هـ، له قصيدة في مدح النبي ﷺ ومطلعها:

سلوا الدموع فإن الصب مشغول ... ولا تملوا ففي إملائها طول
واستخبروا صادحات الأيك عن شجني ... هل في الغرام الذي تبديه تبديل

ومنهم ابن الوردي زين الدين عمر، ولد عام ٦٨٩ هـ، ومات بحلب سنة ٧٤٩ هـ له قصيدة مشهورة في الحِكَم منها:

اعتزل ذكر الأغاني والغزل ... وقل الفصل وجانب من هزل
ودع الذكر لأيام الصبا ... فلأيام الصبا نجم أفل
إن أهنا عيشة قضيتها ... ذهبت لذاتها والإثم حل

وكذلك الشاب الظريف، ولد بمصر سنة ٦٦١ هـ، وتوفي عام ٦٨٨ هـ، وسمي بطرفة عصر المماليك، مات في عنفوان شبابه.

ومنهم ابن نباتة المولود سنة ٦٨٦ هـ، وتوفي سنة ٧٦٨ هـ، وهو القائل يصف نفسه:(١)

قلّ عوني على الزمان فأصبحت ... صبوراً على مراد الزمان
حابس اللفظ واليراع عن النا ... س فلا من يدي ولا من لساني

لقد خلفت مصر بغداد في عهد المماليك في حمل مشاعل التقدم السياسي والفكري والأدبي، وصار المماليك أصحاب القوة في العالم الإسلامي، وهزموا التتار هزائم ساحقة.

ولنا أن نتصور أن هذا العصر ـ العصر المملوكي ـ زمن لم ينقطع فيه السعي وراء المعرفة، والتزاحم على الثقافة.

---

(١) أنظر: قصة الأدب في مصر جـ٢ ص ١٧٧.

ثانياً: حياة ابن منظور

نســـبته:

ابن منظور الأفريقي هو اسم الشهرة، أما نسبه واسمه فكما ترجم هو لنفسه نقلاً عن جده الأدنى نجيب الدين في كتابه لسان العرب[١] قال «رويفع ابن ثابت هذا هو جدنا الأعلى من الأنصار، كما رأيته بخط جدي نجيب الدين والد المكرم».

ثم مضى يذكر هذه السلسلة الآتية، والتي سنذكر اسمه في أولها فنقول: هو محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور بن معافى بن خِمِّير بن ريام بن سلطان بن كامل بن قرة بن كامل بن سرحان بن جابر بن رفاعة بن جابر بن رويفع بن ثابت[٢] بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري من بني مالك.

اشتهر بنسبته إلى جده السابع منظور، إذ عنده يقف أكثر من ترجموا له، ثم يرفعونه عند ذلك إلى رويفع جده الأعلى، ولم يذكر هذه السلسلة على ذلك النحو إلا ابن منظور نفسه[٣].

والسيوطي يذكر ترجمة لابن منظور في تسلسل يصل إلى جده منظور، فنجده ينقل «محمد بن مكرم بن علي ـ وقيل رضوان ـ ونجده لا يـذكر بـين

(١) أنظر: لسان العرب لابن منظور مادة (جرب).
(٢) مدفون في مدينة البيضاء في ليبيا ووفاته نحو عام ٨١٩ هـ، راجع: قصة الأدب في ليبيا جـ ١ الخفاجي.
(٣) لسان العرب مادة (جرب).

«حبقة»، و«منظور» محمداً، ولكن السيوطي ينفرد بذكر «وقيل رضوان» من بين المترجمين له، ومهما يكن من اختلاف في إثبات «رضوان» أو عدم إثباته له، فإنه يمكننا أن ننتهي إلى أن ابن منظور قد عرف واشتهر باسمه المنقول عنه من المصادر والمترجم له به في اختصار وهو «محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الأفريقي، ثم المصري جمال الدين أبو الفضل ينسب إلى رويفع بن ثابت الأنصاري»[1].

ومثل هذا التعريف ما أورده صاحب كتاب المعاجم العربية[2]، وكلاهما قد نقل عن الدرر الكامنة[3] نص الترجمة السابقة، وأبو فضل كنيته وجمال الدين لقبه.

ورويفع هذا الذي ذكره ابن منظور في كتابه لسان العرب، وقال انه جده الأعلى أثبته أكثر المترجمين له، بل يرفعون نسبه إليه ويقفون عنده، وتتمة السلسلة ذكرها ابن منظور كما سبق.

نزل رويفع هذا مصر وولاه معاوية طرابلس، وأقرّه عليها سنة ست وأربعين، وفي سنة سبع وأربعين خرج رويفع فغزا أفريقيا ثم عاد من سنته، قال الذهبي «رويفع بن ثابت الأنصاري البخاري المدني المصري ـ الأمير ـ نزل مصر واختط بها، وولي طرابلس المغرب لمعاوية في سنة ست وأربعين، فغزا أفريقيا في سنة سبع وأربعين ودخلها ثم انصرف»[4].

ويذكر ياقوت نقلاً عن الصنعاني، والصنعاني هذا ممن حدث عن رويفع ابن ثابت[5] يقول ياقوت «غزونا مع رويفع بن ثابت قرية بالمغرب يقال لها (جربة)، فقام فينا خطيباً فقال: أيها الناس لا أقول لكم إلا ما سمعته من رسول الله ﷺ بقوله لنا يوم خيبر، فإنه قام فينا خطيباً فقال: لا يحل لامرئ

---

(١) راجع: سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٣ ص ٥٥.
(٢) المعاجم العربية ـ عبدالله درويش ص ١٠٠.
(٣) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٥ ص ٣١ ـ ٣٣.
(٤)، (٥) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي جـ ٣ ص ٢٥.

يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقي ما يزرعه غيره، يعني إتيان الحبالى»[1].

وأثبت الذهبي[2] أن رويفعاً هذا كان ذا صحبة ورواية، حدث عنه بشر ابن عبدالله وحنش الصنعاني، وزياد بن عبيد الله، وأبو الخير مرثد المزني، ووفاء ابن شريح وآخرون.

وينقل عن أحمد بن البرقي: أنه توفي ببرقة وهو أمير عليها، وأضاف: وقد رأيت قبره بها.

وينقل ابن عبد البر عن أبي سعيد بن يونس في كتاب (الاستيعاب)[3]، كما نقل الذهبي عن أبي سعيد بن يونس أنه ـ أعني رويفعًا ـ توفى ببرقة سنة ست وخمسين وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد، قال: وقبره معروف إلى اليوم.

ولابن منظور مثل هذا فيما نقله عن جده: «وقبره بها»، كما يزيد رواية أخرى عن مكان موته فيقول: «إنه مات بالشام فيما يقال».

وقد أجمع المترجمون لابن منظور على أنه ولد سنة ٦٣٠ هـ، إلا أنهم اختلفوا في تحديد هذا التاريخ والاتفاق عليه، فيقول ابن شاكر: إنه ولد في أولها[4]، وابن حجر يقول: ولد سنة ٦٣٠ هـ في المحرم[5]، وكذلك السيوطي في كتابه (البغية).

وقال الصفدي في كتابه (أعيان العصر): ومولده في أول سنة ثلاثين وستمائة ثم زاد فقال نقلاً عن شيخه أثير الدين قال: ولد المذكور يوم الاثنين الثاني والعشرين من المحرم من السنة المذكورة، فذهب في تحديد التاريخ إلى أبعد من غيره ممن ترجموا لابن منظور، ويقتصر الصفدي على هذه الرواية

---

(١) راجع: معجم البلدان لياقوت مادة (جربه).
(٢) سير أعلام النبلاء ـ الذهبي جـ٣ ص ٢٥.
(٣) الاستيعاب ـ ابن عبد البر جـ١ ص ١٧٦.
(٤) فوات الوفيات ـ ابن شاكر جـ٢ ص ٣٣١.
(٥) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ٥ ص ٣١ ـ ٣٣.

الأخيرة في كتابه (نكت الهميان)[1]، وهذا ما ذكره أيضاً ابن تغري بردي في كتابه المنهل الصافي.

إلا أننا نرى أحمد فارس في مقدمته على لسان العرب يذكر أن مولده ـ أعني ابن منظور ـ كان في المحرم سنة ٦٩٠ هـ[2]، وليس هناك مصدر أو مرجع آخر يوافق هذا التاريخ، وقد جانبه الصواب، ويجيء في أثره الدكتور عبدالله درويش في كتابه (المعاجم العربية) فيقول «إنه ولد عام ٦٨٠ هـ»[3].

وهذان التاريخان الأخيران بمقارنتهما بما قاله ابن منظور نفسه في مقدمة كتابه (نثار الأزهار في الليل والنهار)، نجدهما غير مقبولين وغير صحيحين، يقول ابن منظور في كتابه (نثار االأزهار) الذي اختصر به كتاب (فصل الخطاب) للتيفاشي: «وكنت في أيام الوالد ـ رحمه الله ـ أرى تردد الفضلاء إليه، وتهافت الأدباء عليه، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف التيفاشي العبسي في جملتهم، وأنا في سن الطفولة لا أدري ما يقولونه، ولا أشاركهم فيما يلقونه، غير أني كنت أسمعه يذكر للوالد كتاباً صنعه أفنى فيه عمره، واستغرق دهره، وأنه سماه (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب)، وأنه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب، وكنت على صغر السن، أنكر تجاسره على هذا الاسم الذي عدّه الله عز وجل من النعمة، ومنّ على نبيه بأنه أتاه فصل الخطاب مع الحكمة، وكنت شديد الشوق إلى الوقوف عليه، وتوفي الوالد ـ رحمه الله ـ في سنة ٦٤٥ هـ وشغلت عن الكتاب»[4].

ثم يذكر بعد ذلك طلبه له، وحصوله عليه واختصاره له، وبهذا الجزء الذي اقتطعناه من مقدمة كتابه السابق، نستدل به في غير ما إبهام أو تعمية، أن ابن منظور كان على وجه الدنيا قبل هذا التاريخ الذي ذكره لوفاة والده بفترة يعي فيها ما يدور حوله، ويرقى ذهنه إلى فهم ما يقال في مجلس والده، فكيف

---

(١) نكت الهميان ـ الصفدي ص ٢٧٢.
(٢) مقدمة لسان العرب ـ تقديم أحمد فارس ص ٥.
(٣) المعاجم العربية ص ١٠٠.
(٤) نثار الأزهار في الليل والنهار ـ ابن منظور ص ٢ ـ ٣.

تتأتى الصحة للتاريخين السابقين، وبينهما وبين ما ذكره ابن منظور كتاريخ لوفاة والده، ما يقارب الخمسين عاماً، وهذا تناقض واضح وبيّن، ودليل على خطأ التاريخين الأخيرين، إذا نظرنا إلى تاريخ وفاة ابن منظور والمجمع عليه في كل المراجع، وهو سنة ٧١١ هـ، فعلى التاريخ الذي ذكره أحمد فارس في مقدمته[١] يكون عمر ابن منظور واحداً وعشرين عاماً، وعلى التاريخ الذي ذكره الدكتور درويش يكون عمره واحداً وثلاثين عاماً[٢]، وينقضهما ويؤكد خطأهما ما قاله أيضـاً ابن منظور «وتـوفي شرف الدين التيفـاشي بعده ـ يعني بعـد والد ابن منظور ـ بمدّة فلما ذكرته ـ أي الكتاب الذي ألفه التيفاشي ـ بعد سنين، وقد جاوزت الستين فطلبته من كل جهة»[٣]، فيذكر ابن منظور أن سنه كان قد جاوز الستين حينما بدأ يطلب ذلك الكتاب الذي سمع عنه في مجلس والده، وهو ما يزال صغيراً، وبالمقارنة نجد خطأ التاريخين السابقين، كما لا نجد أي أثر يدلنا على مصدرهما، وقد يكون هذا الخطأ عن سهو في النقـل، وبعيداً عن الاختلاف والتعصب للرأي نقول: إن ابن منظور وسعت حياته من السنين تلك الفترة التي امتدت من سنة ٦٣٠ هـ حتى توفاه الله في سنة ٧١١ هـ، وعاش واحداً وثمانين عاماً على أرجح التواريخ المذكورة.

أما عن مكان مولده فلم يعرض لذلك إلا الزركلي في الأعلام حيث قال «ولد بمصر وقيل: بطرابلس المغرب، ثم الدكتور درويش حيث يقول: ولد في تونس حيث نشأ بها».

ويبدو أن كليهما لم ينقل عن مرجع، بل اجتهدا في الوصول إلى ما وصلا إليه إذ المراجع كلها لم تذكر عن هذا البلد الذي ولـد فيه ابن منـظور شيئا صريحاً، غير أن المعتمد منها تقول: «إنه خدم في الإنشاء بمصر، ثم ولي نظر طرابلس»[٤] ومثل هذا «وخدم في ديـوان الإنشاء طـول عمره، وولي قضـاء

(١) مقدمة لسان العرب ـ أحمد فارس ص ٥.
(٢) المعاجم العربية ـ عبدالله درويش ص ١٠٠.
(٣) نثار الأزهار ـ ابن منظور ص ٢.
(٤) فوات الوفيات ـ ابن شاكر جـ ٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٦.

طرابلس»[1]، ومثلها في بقية المراجع، وربما هذه العبارة هي التي أوحت بهذا الاستنباط يرى فيها كل رأيه.

ولكن برجوعنا إلى ما كتبه ابن منظور بنفسه في مقدمة كتابه (نثار الأزهار)، نجده يذكر «كنت أسمعه يذكر - يعني التيفاشي - للوالد كتاباً صنعه أفنى فيه عمره واستغرق دهره، وأنه سماه (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب) وأنه لم يجمع ما جمعه فيه كتاب، وكنت شديد الشوق إلى الوقوف عليه، وتوفي الوالد - رحمه الله - في سنة خمس وأربعين وستمائة، وشغلت عن الكتاب، وتوفي شرف الدين التيفاشي بعده بمدّة»[2].

ولقد كانت وفاة التيفاشي سنة ٦٥١ هـ، ونحن نرى من هذا الذي ذكره ابن منظور، ومما أوردناه له فيما سبق من قوله يشير إلى مراكز أبيه في مصر، ويشير إلى فترة استقراره بها - وقد عرفنا أيضاً أنه ولد سنة ٦٣٠ هـ[3]، ووفاة أبيه كانت سنة ٦٤٥ هـ، ويعني هذا فيما نذهب إليه أن عمر ابن منظور كان يوم مات أبوه نحواً من خمسة عشر عاماً، وإذا كان ابن منظور قد قضى هذه الفترة في كنف والده، يرى ويسمع ما يدور في مجلسه - كما يذكر ذلك بنفسه - نرجح الرأي القائل أنه ولد بمصر، وبعد أن يفع وترعرع وتعلم وأصبح ذا مكانة جليلة في العلم ولي ديوان الإنشاء بمصر، وبعد فترة تولى قضاء طرابلس، ويبدو أنه عاد بعد ذلك إلى ديوان الإنشاء بمصر، حتى قضى بقية عمره يعمل بديوان الإنشاء إلى أن وافته منيته سنة ٧١١ هـ.

أما عن طفولته فيمكننا أن نفهم شيئاً عنها، ونلمح قبساً منها في تلك الكلمة التي قدم بها كتابه (نثار الأزهار)، ولا أصوب من أن يتحدث هو عن نفسه، ويجلي لنا غموض تلك الفترة.

فابن منظور يعرفنا الكثير عن طفولته، فيقول إنها كانت طفولة مشغولة بالعلم والتحصيل، حيث نشأ في بيت ورث العلم، وكان أكبر اهتماماته به،

---

(١) الدرر الكامنة - ابن حجر جـ ٥ ص ٣١ - ٣٣.

(٢)، (٣) مقدمة نثار الأزهار - ابن منظور ص ٢ - ٣.

فكانت تعقد فيه حلقات الدرس، ومجالس العلم، ويلتف حول أبيه سمار الفكر، ويجتمع فيه العلماء والأدباء حيث يلتقون بأبيه في داره، يتدارسون كل جديد - أشبه ما تكون بالندوات تعقد في منتديات الأدباء ودور المفكرين الآن - أو بيوت الأدباء. يقول ابن منظور «وكنت في أيام الوالد - رحمه الله - أرى تردد الفضلاء إليه، وتهافت الأدباء عليه، ورأيت الشيخ شرف الدين أحمد بن يوسف ابن أحمد التيفاشي العبسي في جملتهم، وأنا في سن الطفولة»[1].

فمما لا شك فيه أن ابن منظور قد اغترف من معين العلم منذ نعومة أظفاره، وأنه شبّ على نغم العلم ينساب من شفاه القوم يداعب أذنيه، وحفيف الأوراق يقرع ذهنه وسطور من كنوز العلم ببريقه يخطف ناظريه، فشكل كل ذلك منه شخصا غير عادي، له سماته ومميزاته، كما اكتسب من هدير المناقشات العلمية التي كانت تجذب انتباهه قوة على الكتابة، وصبراً على معالجة الكتب المطولة، والموضوعات المختلفة، كما كان لجلة الشيوخ الذين يتوافدون على بيته فيجلسون فيه فيتربع غير بعيد عنهم، دورٌ في تكوين معلوماته الأولى، فقد كان يقتنص كل شاردة وواردة. فتح عينيه على العلم واكتنفه بيت يضج بحركة علمية، فشرب مما كان يتدفق من غزير العلم من أفواه العلماء الذين يؤمون داره منذ وعى ما يدور حوله، وظل يستمع إلى الأحاديث، يلتقط ذهنه ما شاء الله له أن يلتقط، وتكبر معه الأفكار، ويتسع ذهنه للمعاني، فينصرف بفطرته إلى التحصيل والدراسة، على ما كان عليه الأب، وما كان عليه الجد، كما كان بيته بيت علم وفضل، وقد عرّفنا ابن منظور من هذا البيت جده الأدنى نجيب الدين والد المكرم وقد ذكر لنا أيضاً أنه نقل عنه ما يتصل بسلسلة نسب هذا البيت، ثم جده الأعلى رويفع بن ثابت، الذي كان له صحبة ورواية، وحدث عنه كثيرون، منهم بشر بن عبدالله، وزياد بن عبيد الله، وحنش الصنعاني وآخرون[2]، وكان عالماً بالحديث.

وكما كان منشأ الفتيان في عهده فقد حفظ القرآن الكريم وألم بمبادئ

(١) نثار الأزهار في الليل والنهار - ابن منظور ص ٢ - ٣.
(٢) سير أعلام النبلاء، نقلاً عن الاستيعاب - الذهبي جـ٣ ص ٢٥.

اللغة والفقه والتفسير، وعامة علوم الدين وما كان يدور بحثه في مجلس والده، حتى شب وترعرع في كنف هذا البيت العالم، كلما تقدم به العمر يصبح أكثر طلباً للعلم وشغفاً به، وإذا كانت المراجع لا تذكر بالتحديد تاريخ توليه لديوان الإنشاء وصدارته له، إلا أننا نرجح أن ذلك كان في سن مبكر، بعد أن جاوز العشرين بقليل، حيث أنه كان قد تم نضجه وانجلت فيه علائم عبقريته، عندما بلغ ما بعد العشرين، فقد توفي التيفاشي سنة ٦٥١ هـ وبعد هذا التاريخ بدأ ابن منظور يبحث عن كتابه الذي كان قد سمع عنه في مجلس والده يذكره له التيفاشي، وكان قد أهمله من قبل، ونظن أن إهماله كان لانشغاله في تحصيل العلم وطلبه، فلما استقرت به الأحوال، وهدأت أموره، بدأ البحث عن الكتاب حتى حصل عليه وقام باختصاره بعنوان (نثار الأزهار في الليل والنهار) وكان بحثه عنه على فترتين متباعدتين.

ولم يكن غريباً أن ينشأ ابن منظور محباً للعلم، شغوفاً به، يرتاد مجالس العلماء ويتطلع للتحصيل في أناة وصبر، قلما يتصف بهما دارس أو محصل، ودليلنا على هذا ذلك القدر الضخم من المطولات التي اختصرها، وكتبها وعلقها بخط يده، وإن لم يعثر على أكثرها حتى الآن، إلا أن ذلك الكم الكبير يدلنا على طول نفس في الكتابة وصبر عليها، قال الصفدي «لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره، قال وأخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلد»[1].

نشأ وحرصه على اختصار المطولات كامن في داخله، كما كان حريصاً على أن يتحقق مما يعلق بذاكرته مهما تكبد من مشاق في سبيل الحصول عليه والتحقق منه، يذكر أنه كان قد سمع عن الكتاب الذي ألفه التيفاشي يذكره لأبيه، وبعد وفاة والده ثم التيفاشي يتذكر هذا الكتاب فماذا يفعل؟.

يقول ابن منظور «فلما ذكرته بعد سنين وقد جاوزت الستين - وهذه هي المرة الثانية التي بحث عن الكتاب فيها ووجده - فطلبته من كل جهة، ورمته

(١) الدرر الكامنة - ابن حجر العسقلاني جـ ٥ ص ٣١ - ٣٣.

من كل وجهة فلم أجد من يدلني عليه، ولا من يذكر أنه نظر إليه، فبذلت الجهد في طلبه إلى أن ظفرت به عند شخص من أصحابه، فسعيت إلى بابه، وبذلت له جملة لم تكن في حسابه فلم يسمح لي مع فقره ببيع ولا إعارة، ولا استحسنت تملكه باليد العادية، وعدت إلى طلبه منه، واستعنت عليه بمن لا غنى عنه، فلم يفد فيه سؤال ولا شفاعة، ولم يعط لنا فيه طاعة إلى أن قدر الله تعالى تملكه في سنة تسعين وستمائة»[1].

لهذا الحد كان حرص ابن منظور في الوصول إلى مبتغاه، حتى يعرف ما تضمنه كتاب سمع عنه وهو ما زال غض الإهاب، صغير السن، فلم ينقطع عن التردد على من بيده الكتاب، ولم تكن هذه الفترة بالقصيرة، فلم يدع للإخفاق سبيلاً في سعيه، ولا للملل والسأم طريقاً في بحثه، فلم يتوان عن البحث وقد جاوز الستين، ولم يكل عن السعي والتردد على من بحوزته الكتاب وهو يحمل على كاهله أعباء ستين عاماً، فلم يرأف بنفسه، ولم يذق للراحة طعماً، حتى حصل عليه، ونقحه ما شاء، واختصره في كتاب سماه (نثار الأزهار في الليل والنهار).

وكما تذكر المراجع فقد تنقل من مكان إلى مكان، محفوفاً بالتكريم والاحترام، مبجلاً لعلمه، مطلوباً لمكانته، مقصوداً لعبقريته، فحيث كان بمصر تولى ديوان الإنشاء[2]، ونزح إلى طرابلس فتولى القضاء بها[3]، وعاد إلى مصر ليتولى الصدارة في ديوان الإنشاء إلى أن وافته منيته سنة ٧١١ هـ.

(١) أنظر: مقدمة ابن منظور لكتابه (نثار الأزهار) ص ٢ - ٣.
(٢) فوات الوفيات - ابن شاكر جـ ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٦.
(٣) الدرر الكامنة - ابن حجر جـ ٥ ص ٣١ - ٣٣.

الفصـــل الثـاني

(ثقافة ابن منظور وأساتذته ـ منهجه ومؤلفاته)

ثقافة ابن منظور وأساتذته:

تطلع ابن منظور ـ منذ صغره ـ إلى التحصيل، وشغف بالعلم منذ نعومة أظفاره وقد تعددت المصادر والروافد التي تكونت منها ثقافته، وشكلت عقله، أولى تلك المصادر: البيئة التي نشأ فيها ـ وأعني بها بيته ـ حيث الجو العلمي الذي ترعرع فيه، فما كاد يشب عن الطوق حتى تلقفته مجالس العلم الخاصة متمثلة في تلك الحلقات التي كانت تعقد في مجلس والده، فبذرت أولى بوادر التثقيف في ذهنه، وتشكل عقله البكر، وثاني المصادر: جلوسه إلى جلة من العلماء، يذكرهم لنا الذين حدثونا عنه ـ لا يكادون يختلفون فيهم ـ هم ابن المقير، ومرتضى بن حاتم، وعبد الرحيم بن الطفيل، ويوسف المخيلي[1].

ويجمع كل من ترجم له على هؤلاء الأربعة دون زيادة، ومع هذا لم يعرض ـ ابن منظور ـ لواحد منهم بتعريف أو إشارة وهو يستطرد في سرد المواد اللغوية ـ كما حدثنا عن جده رويفع بن ثابت عندما تحدث عن مادة (جربة) في كتابه لسان العرب ـ كذلك لم يفسح لهم مكاناً في مقدمته التي قدم بها (اللسان)، والتي كانت تتسع لهذا.

وقد يكون جلوس ابن منظور لهؤلاء الشيوخ جلوساً غير منتظم، فيكون مبرراً لإغفاله ذكرهم، وقد يكون هناك شيوخ غيرهم جلس إليهم، ولكن المصادر لم تشر إلى أحد غير هؤلاء.

---

(١) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٥ ص ٣١ ـ ٣٣.

لقد كان الاستماع إلى والده ومن كان يجلس عنده من العلماء والأدباء مرتع فكره وعقله في أول نشأته، ثم يُضم مصدر ثالث إلى المصدرين السابقين وهو: ما أمكنه الاطلاع عليه من الكتب، وما حصل عليه من مكتبة أبيه، فقد كان يهدى لأبيه الكتب الثمينة، مع حبه الحصول عليها بالشراء واقتنائها، ويذكر ابن منظور أنه نقل سلسلة نسبه مما كتبه جده الأدنى نجيب الدين والد المكرم[1]، وهذا يدلنا على أن أباه كان يقتني أيضاً ما كان يكتبه جد ابن منظور، فأمكنه الاطلاع عليه، كما اطلع على ما كتب في عهده، وما كتب قبله ونستدل على ذلك بهذا العدد الضخم من المطولات - المنقول عنه - أنه قام باختصارها كما هو دليل على سعة اطلاعه، وثقافته الجمة، حيث أنه لم يترك مطولاً من المطولات إلا قرأه واختصره في مختلف العلوم، فلم تقتصر مختصراته على كتب الأدب، بل اختصر كتب التواريخ المطولة، أيضاً، قال الصفدي[2] «لا أعرف في الأدب وغيره كتاباً مطولاً إلا وقد اختصره».

وبلغ ابن منظور من العلم مبلغاً جعله يتصدر ديوان الإنشاء بمصر طوال عمره[3]، وتصدر ديوان الإنشاء يعد - وقت ذاك - مقياساً لعبقرية وثقافة من يعمل فيها، وكان لا يتولاها إلا أجلّ كتاب البلاغة، ومن توفرت فيه صفات يجب أن يتحلى بها، من علم وأخلاق وتجربة سياسية، وأن يكون من أعلام الأدب وأمراء البيان الملمين بكثير من العلوم، فإذا ما حلّ بهذا المنصب، أصبح يستضاء برأيه في حل المشكلات التي تواجه الولاية، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب للولايات السلطانية كافة.

وقد تصدر ابن منظور في فترة من فترات حياته للدرس، وحدث عنه من تلاميذه السبكي والذهبي، وتوسط حلقات العلم بمصر ودمشق، وولي القضاء[4].

---

(١) لسان العرب، مادة (جرب) - ابن منظور، (جربة) جزيرة صغيرة في تونس.

(٢) الدرر الكامنة - ابن حجر جـ ٥ ص ٢٣١ - ٢٣٣.

(٣) شذرات الذهب - ابن العماد جـ ٦ ص ٢٦.

(٤) فوات الوفيات - ابن شاكر جـ ٢ ص ٥٢٤ - ٥٢٦.

ويبدو أن ابن منظور كان معتزاً بنفسه، ويظهر لنا ذلك عندما يتناول مطولاً ليختصره فيرسم منهجه ومن خلاله يذكر السبب الذي يحمله على اختصار الكتب، ثم يضيف إلى نفسه صفات التدقيق والإتقان والتفوق والتنقيح. نسمعه يقول عند اختصاره لكتاب التيفاشي «ورأيته قد جمع فيه أشياء لم يقصد بها سوى تكبير حجم الكتاب، ولم يراع فيه التكرار، ولا ما تمجه أسماع ذوي الألباب...» إلى أن يقول «...فأخذت زبده ورميت زبده وأوردت مكرره وتركت مكرره»[1].

وابن منظور الذي أغفل ذكر شيوخه، لم يهمله تلاميذه، فالمؤرخون لابن منظور يذكرون من بين تلاميذه السبكي والذهبي. يقول الصفدي في (أعيان العصر)، (النكت) وكتب عنه شيخنا الذهبي، ويزيد السيوطي واحداً آخر فيقول: وروى عنه السبكي والذهبي.

وقد أفرد الذهبي لشيخه ابن منظور مكاناً في تاريخه، أشار إلى ذلك الصفدي في (أعيان العصر)، والسيوطي في (البغية)[2].

وتكاد تكون ـ نقول ـ المراجع جميعها عن الذهبي، وإن كان بعضها يهمل الإشارة إلى ذلك، ونقرأ في هذا الذي خصّ به الذهبي أستاذه الإنصاف له حين يقول عنه «تفرد في العوالي، وكان عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة»[3].

وبعد هذين التلميذين نجد الصفدي يقول «وأخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلد»[4]، وبذلك يضيف تلميذاً ثالثاً إلى تلاميذ ابن منظور، وهو ولده كاتب الإنشاء بمصر، وذكروا له أنه روى عن أبيه شيئاً.

ويشير ابن تغري بردي إشارة مقتضبة إلى ابن منظور في كتابه (المنهل الصافي)، مع إغفاله في كتابه (النجوم الزاهرة) عند ذكره وفيات سنة ٧١١ هـ.

(١) نثار الأزهار ـ ابن منظور ص ٢ ـ ٣.
(٢) أنظر: مقدمة اللسان ط ١ ص ٤.
(٣) أنظر: مقدمة لسان العرب (أشار إليه أحمد فارس) ط ١ ص ٣.
(٤) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٥ ص ٣١.

وبعد حياة حافلة وزاخرة بخدمة العلم واللغة وافته منيته سنة ٧١١ هـ، وقد حدد البعض تاريخ وفاته بقولهم «في شعبان من السنة نفسها»(١).

والمقريزي يقول «ومات جمال الدين أبو الفضل محمد بن الشيخ جلال الدين المكرم بن علي في ثالث عشر من المحرم عن بضع وثمانين سنة، ودفن بالقرافة، وكان من أعيان الفقهاء الشافعية، ورؤساء القاهرة، وأوائل كتاب الإنشاء، ومن رواة الحديث»(٢).

ومن هذا العرض السابق لأقوال المؤرخين نجد أنهم أجمعوا على أنه توفي سنة ٧١١ هـ، مع اختلاف في تحديد الشهر الذي توفي فيه، وبغض النظر عن هذا الاختلاف الطفيف، نجد أن حياة ابن منظور قد امتدت ـ على أرجح الأقوال ـ إحدى وثمانين سنة، قدّم خلالها للعربية ما تقر به عينه، قدم موسوعة كبرى في اللغة بمفرداتها وشواهدها الكثيرة، مع ما يحمد عليه من جهد عظيم بذله في سبيل تسهيل الاطلاع في المطولات باختصارها وتنقيحها، عدا ما تركه من مؤلفات، عمدتها كتابه (لسان العرب) الذي جمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح والنهاية وحاشية الصحاح، جوّده ما شاء ورتّبه ترتيب الصحاح، تسهيلاً للباحثين والمطلعين.

لقد كان ابن منظور من علماء اللغة والحديث والتاريخ فوق أنه أديب، صاحب نكت ونوادر، متشيعاً بلا رفض(٣)، وله أبيات من الشعر لم يتجاوزها منها قوله:

بالله إن جزت بوادي الأراك وقبلت عيدانه الخضر فاك
فابعث إلى عبدك من بعضها فإنني والله ما لي سواك(٤)

وهناك رواية «فابعث إلى المملوك من فضله» موضع «إلى عبدك من بعضها» في ابن حجر.

---

(١) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٥ ص ٣١.
(٢) السلوك ـ المقريزي جـ ٢ ص ١١٤.
(٣) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٤ ص ٢٦٢.
(٤) المرجع السابق جـ ٥ ص ٣١ ـ ٣٣.

ويكاد شعره الذي روي له والمنقول عنه في مختلف المراجع واحداً، فما روي هنا روي هناك، يقول ابن حجر نقلاً عن أبي حيان أنشدني ابن منظور لنفسه:

ضـع كـتـابي إذا أتـاك إلى الأر ض وقـلبـه في يـديـك لـمامـا
فـعـلى ختـمـه وفي جـانـبـيـه قـبـل قـد وضعـتـهـن تـؤامـا
كـان قـصـدي بهـا مـبـاشرة الأر ض وكفيـل بـالـتشـامي إذا مـا[1]

وينقل ابن حجر أيضاً عن أبي حيان قوله أنشدني ابن منظور لنفسه:

الـنـاس قـد أثمـوا فـينـا بـظنهم وصـدقـوا بـالـذي أدرى وتـدرينـا
مـاذا يضرك في تـصـديـق قـولهـم بـأن نـحقـق مـا فـينـا يـظنـونـا
حمـلي وحملك ذنبـاً واحـداً ثـقـة بـالعفـو أجمل من إثم الـورى فينـا[2]

وإضافة إلى ما سبق يروون له[3]:

تـوهم فينـا النـاس أمـراً وصممت عـلى ذاك فـيـهـم أنـفس وقـلوب
وظنـوا وبعض الـظن إثـم وكـلهـم لأقـوالـه فـيـنـا عـليـه رقـيـب
تـعـالى نـحقـق ظنهـم ونـريحـهـم مـن الإثـم فـيـنـا مـرة ونـتـوب

لا يتعدى شعره هذه الأبيات المروية عنه في كل المصادر التي تحدثت عنه، ونقلتها المراجع كما هي، وقد يكون السبب في قلة إنتاجه الشعري، انشغاله باختصار المؤلفات المطولة، وتكريس وقته وجهده لـذلك، ثم عمله بـديوان الإنشاء الذي استغرق وقته واقتضى حضور ذهنه في كل لحظة لتدبيج المكاتبات وإرسالها وتلقيها والرد عليها، ربما كانت هذه الأسباب قد وقفت عـائقاً دون تفرغه لكتابة الشعر، وربما ـ أيضاً ـ رأى الكفاية في عشرات الأبيات التي ساقها للاستشهاد في موسوعتـه (لسان العـرب)، وترك للشعـراء الذين ازدحم بهم عصره مهنة الشعر، وقد أوحى إلينا ابن منظور أنه كان في إمكانه أن يسلك

(١) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٤ ص ٣١.
(٢) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٥ ص ٣١.
(٣) فوات الوفيات ـ ابن شاكر جـ ٢ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٦.

هذا الطريق، وخير دليل على هذا تلك الأبيات القلائل التي تدل على مقدرته الشعرية، وقد انصرف عن الشعر إلى الكتابة والتأليف، وقد رسم ابن منظور لنفسه منهجاً سار عليه، ودرباً في التأليف والاختصار اختطه لكتاباته، فهو عندما يسمع التيفاشي يذكر لوالده كتابه (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب)، فيؤخذ بجرأة العنوان، وتجاسر التيفاشي على هذا الاسم، فينكره عليه، وتنمو فكرة الحصول على هذا المؤلف واختصاره، وبعد سنوات طويلة يبحث عنه حتى يجده ويختصره في كتاب أسماه «نثار الأزهار في الليل والنهار» بمنهج ينسحب على جميع مؤلفاته.

منهجه ومؤلفاته:

تكاد مؤلفات ابن منظور تملي علينا منهجه وطريقته، وأسلوبه في معالجة الكتب المطولة وكيفية اختصارها والأسباب والدواعي التي أدت إلى ذلك، يقول ابن حجر[1] نقلاً عن الصفدي «واختصر كتباً، وكان كثير النسخ ذا خط حسن، وله أدب ونظم ونثر» ويقول الذهبي «وأتى بعمله بما يخجل النجوم الزاهرة، وله شعر غاص على معانيه وأبهج به نفس من يعانيه، وكان قادراً على الكتابة لا يمل من مواصلتها، ولا يولي عن مناضلتها».

كان ابن منظور مغرماً باختصار الكتب المطولة، يقول ولده قطب الدين «أنه ترك بخطه خمسمائة مجلد»[2]، كما كان كثير الحفظ، واسع الاطلاع، لا يكل من متابعة القراءة. ما من كتاب مطول في الأدب وغيره إلا وقد اختصره وروق عنقوده واعتصره، تفرد بهذه الخاصة البديعة، يقول ابن حجر: وكان مغرماً باختصار كتب الأدب المطولة والتواريخ وكان لا يمل ذلك.

كان نمط ابن منظور في اللسان نمطه في غيره، لم يخرج عن النقل من الكتب التي اعتمد عليها، ثم تبويب ما نقل، وعرضه في صورة ميسرة. يقول

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٥ ص ٣٣.

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٥٢٤.

ابن منظور[1] «فإني لم أزل شغوفاً بمطالعات كتب اللغات والإطلاع على تصانيفها، وعلى تصاريفها، ورأيت علماءها بين رجلين: أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه فإنه لم يجد جمعه، فلم يفد حسن الجمع مع اساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع مع رداءة الجمع».

بتلك الكلمات السابقة يحدد ابن منظور منهجه، ويضع الخطوط الأولى لطريقته في الكتابة، ويوضح الأسباب التي تؤدي به إلى معالجة مؤلفات الآخرين، وفي الكلمة التالية بيان آخر، وتوضيح جلي لتلك الأسباب، يقول في تعليل مسلك الاختصار عنده وتنقيحه المؤلفات وتهذيبها بعد أن ذكر أهمية تهذيب اللغة للأزهري والمحكم لابن سيده يقول[2] «إلا أنه رأى إهمال الناس لهما وانصرافهم عنهما، لسوء الترتيب وتخليط التفصيل والتبويب، فجمعت في اللسان ما تفرق في تلك الكتب من العلوم، وبسطت القول فيه».

والكلمة الأخيرة تعطينا إشارة إلى تلك التعليقات التي كان يدونها ابن منظور على هامش مختصراته، كما أوضح ذلك عندما بدأ اختصاره لكتاب الحيوان للجاحظ قائلاً: «طالعت كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عفا الله عنا وعنه، وعلقت ما لاح تعليقه»[3].

وتكتمل جوانب منهجه الذي اتبعه في كتاباته عندما نضم الى ما سبق أن نقلناه عنه، ما قاله في مقدمة كتابه (نثار الأزهار في الليل والنهار)، مبيناً دواعي اختصاره لكتاب (فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب)، يقول ابن منظور «ورأيته - يعني التيفاشي - قد جمع فيها أشياء لم يقصد بها سوى تكبير حجم الكتاب، ولم يراع فيه التكرار، ولا ما تمجه أسماع ذوي الألباب، فاستخرت الله في تعليق ما يختار منه، ورغبت في إبرازه إلى الوجود. . . .»[4]،

---

(١) مقدمة لسان العرب - أحمد فارس ص ٢ - ٣.

(٢) مقدمة لسان العرب - أحمد فارس ص ٢ - ٣.

(٣) اختصار حيوان الجاحظ - مخطوطة ابن منظور الورقة رقم ١ - اللوحة رقم ١.

(٤) مقدمة (نثار الأزهار في الليل والنهار) ابن منظور ص ٢ - ٣.

ثم يقول «فأخذت زبده ورميت زبده وأوردت مكرره، وتركت مكرره، وبذلت في تنقيحه جهدي. . .»[1].

ففي هذه الكلمة الموجزة، والموجزة دواعي اختصاره للكتب، يرسم ابن منظور أيضاً بها منهجه، الذي لم يحد عنه في كل كتاب أقدم على اختصاره أو تأليفه، فابن منظور يبدأ بقراءة الكتاب الذي يريد اختصاره كما يقول «فاجعله سميري أوقات هزلي وجدي»، فيلازمه ملازمة الممحص، والباحث عن عيوب فيه، ثم يخلص الكتاب من الزوائد والحواشي، ويكمل جوانب النقص الذي يراه، حتى يجعله متكامل المنحى، منقحاً، فيبرزه إلى الوجود في صورة جديدة تحمل سمات الأصل، لكن في شكل ميسر، يسهل تناوله وتداوله، وقراءته واقتناؤه، وقد تكون رداءة النسخ سبباً من الأسباب التي تجعل ابن منظور يعيد نسخ كتاب من الكتب، وقد شهد له بجمال الخط وحسنه، يقول عن كتاب التيفاشي «وقد وجدته في غاية الاختلال لسوء الخط، وعدم الضبط، ولو لم يكن تكرر وقوفي على خطه في زمن الوالد، وعرفت اصطلاحه في تغليفه، لما قدرت على قراءة حرف منه، غير أني عرفت طريقته في خطه واصطلاحه، وتحققت فساده من صلاحه. . .»[2].

فابن منظور يشير إلى أن رداءة الخط سبب من أسباب انغلاق فهم الكتاب ومعرفة ما يحتويه، ولا بد من تنقيح الكتاب وإزالة عجمته، وتوضيح إبهامه، وفتح مغلقه.

وابن منظور يميل إلى السجع في كتاباته وليس هذا بمستغرب منه، فقد وجد في عصر كانت الكتابة فيه حرفة، والبراعة فيها منزلة، ويتصدر المبرز فيها أخطر منصب في الدولة وهو ديوان الإنشاء، لسان حال الوالي، منه ترسل الرسائل، وتعطى الأوامر، ورئيسه هو المشرف على جلّة من الكتاب، جمعوا آلات الإحسان والإتقان في البلاغة، والسبق في العلوم والآداب.

وقد سار كتاب العصر المملوكي على طريقة القاضي الفاضل التي جرت

---

(١)،(٢) مقدمة (نثار الأزهار في الليل والنهار) ص ٢ ـ ٣.

على غرار طريقة ابن العميد، وأربت عليها بالإغراق في التورية والطباق ومراعاة النظير، وغير ذلك من أنواع البديع، وهكذا أولع كتاب المماليك بهذه الطريقة، فأخذوا يحاكونها، ويجهدون جهدهم في بلوغ أوجها.

إلا أن ابن منظور قد أسعفته موهبته وثقافته، وسعة اطلاعه وسلامة فطرته، وآلاته الكثيرة في معالجة الكتابة، مع تمكنه من اللغة فأنقذ كتاباته من السقوط في درك السخف والإسفاف.

أما عن مؤلفاته، فلم يصلنا منها إلا ما نقله لنا المؤرخون من كتب اختصرها، وقد ضاع أكثرها. يقول الصفدي[1]: «وأخبرني ولده قطب الدين أنه ترك بخطه خمسمائة مجلد ويقال: أين الكتب التي علقها بخطه من مختصراته؟!».

والمعروف له من مختصراته نزر يسير من ذلك الكم الضخم وهي كالآتي[2]:

١ ـ زهر الآداب وثمر الألباب لأبي إسحاق ابراهيم بن علي بن تميم الحصري القيرواني (٤٥٣ هـ) في أربعة أجزاء.

٢ ـ يتيمة الدهر في شعراء أهل العصر للثعالبي أبي منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري (٤٢٩ هـ).
وكان عمل ابن منظور عمل تيسير وتذليل لا عمل إضافة، وكان بعد ابن منظور غيره ممن اختصروا اليتيمة.

٣ ـ نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة (جامع التواريخ) للتنوخي أبي علي المحسن بن علي (٣٨٤ هـ).

---

(١) نقلاً عن: الدرر الكامنة جـ ٥ ص ٣١ ـ ٣٣.
(٢) راجع: المقدمة التي كتبها ابراهيم الأنباري في تقديم (مختار الأغاني في الأخبار والتهاني) لابن منظور.

٤ - تاريخ دمشق لابن عساكر[1] أبي القاسم علي بن محمد الحسن بن عبدالله (٥٧١ هـ).

وكما شغل ابن منظور بهذا التاريخ فاختصره إلى ربعه كما يقول (حاجي خليفة) في كتابه (كشف الظنون) شغل العيني بدر الدين محمود (٨٥٥ هـ) فاختصره، وكذلك شغل السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (٩١١ هـ)، فاختصره وسمى اختصاره (تحفة المذاكرة المنتقى من تاريخ ابن عساكر).

٥ - تاريخ بغداد للسمعاني أبي سعد عبد الكريم بن محمد (٢٦٢هـ).

وقد كان هذا الكتاب ذيلاً على كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ) كما جاء بعد السمعاني من ذيل عليه، فكان أبو عبدالله عماد الدين محمد بن محمد (٥٩٧ هـ) ثم أبو عبدالله محمد بن سعيد (٦٣٧ هـ)، ثم ابن القطيفي، ثم ابن النجار البغدادي (٦٤٣ هـ)، ثم الذهبي (٧٤٨ هـ)، ثم ابن رافع (٧٧٤ هـ).

ووسط هذه الجهود المضنية المكملة ظهر قبل ابن منظور مختصرون، منهم أبو اليمن مسعود بن محمد البخاري (٤٦١ هـ) فقد اختصر (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ثم كان ابن منظور الذي اختصر تاريخ بغداد للسمعاني.

٦ - صفوة الصفوة لابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمن بن علي (٥٩٧ هـ)، والكتاب مختصر لحلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني أحمد بن عبدالله (٤٣٠ هـ)، وقد قدم ابن الجوزي مختصره بأسباب عشرة حملته على هذا الاختصار، ومن بعد ابن الجوزي جاء مختصرون لهذا الكتاب - أعني الحلية - منهم أبو المعالي الوراق سعد بن علي (٥٢٨ هـ)، ثم ابن مرزوق المصري (٥٦٤ هـ)، ثم ابن منظور، وليس بين أيدينا اليوم غير الأصل - أعني الحلية - ثم صفوة الصفوة لابن الجوزي.

---

(١) شذرات الذهب - ابن العماد جـ ٦ ص ٢٦.

٧ ـ مفردات ابن البيطار ضياء الدين عبدالله بن أحمد المالكي (٦٤٦ هـ)، وهو كتاب في الطب جامع لمفردات الأدوية والأغذية.

٨ ـ فصل الخطاب للتيفاشي أحمد بن يوسف (٦٥١ هـ)، اختصره ابن منظور في كتاب كبير سماه (سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وجعل الجزء الأول منه في كتاب سماه «نثار الأزهار في الليل والنهار، وأطايب أوقات الأصائل والأسحار، وسائر ما يشتمل عليه من كواكب الفلك الدوار».

٩ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ الأندلس ـ لابن بسام أبي الحسن علي (٣٠٣ هـ) وقد اختصر هذا الكتاب ابن منظور وسمى مختصره (لطائف الذخيرة).

١٠ ـ الحيوان للجاحظ أبي عثمان عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ)، والذي نحن بصدد تحقيقه في هذا البحث، ولقد سبق ابن منظور إلى اختصار هذا الكتاب اثنان: أحدهما هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر، وكانت وفاته سنة ٦٠٨ هـ، والثاني: ابن اللباد البغدادي موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف، وكانت وفاته سنة ٦٢٩ هـ، ولم أعثر على أي منهما.

هذه جملة الكتب الأدبية والتاريخية المختصرة المعروفة لابن منظور، ولم يعثر على غيرها، ونكرر قول القائل: أين المجلدات الخمسمائة التي ذكرها ابنه قطب الدين؟!

١١ ـ لسان العرب، وهو سفر جامع لمفردات اللغة، يجمع فيه بين التهذيب والمحكم والصحاح والجمهرة والنهاية، وحاشية الصحاح جوده ما شاء، ورتبه ترتيب الصحاح.

١٢ ـ ثم مختار الأغاني في الأخبار والتهاني[١].

(١) أنظر: مقدمة مختار الأغاني في الأخبار والتهاني ـ تحقيق وتقديم ابراهيم الأنباري.



الباب الثالث

(كتاب الحيوان للجاحظ)

ويشتمل على:

الفصل الأول: التعريف بالكتاب وأهميته.
مصادره - آراء الدارسين فيه.

الفصل الثاني: طبعاته.
الكتاب بين الاختصار والتهذيب.

الفصل الثالث:
أولاً: أهمية هذا المختصر.
ثانياً: وصف النسخة الخطية.
ثالثاً: منهج التحقيق.

الفصـــل الأول

التعريف بالكتاب وأهميته.

مصادره ـ آراء الدارسين فيه.

التعريف بالكتاب وأهميته

كتاب الحيوان مكتبة وحده، فالكتاب قد حوى ألواناً وأشكالاً من المعارف، لو أفرد لكل علم أو فن بحث خاص به لكان كتاباً كبيراً مستقلاً بنفسه. ويعد الكتاب أيضاً جامعة لمؤلفات الجاحظ، فإذا أفرد من قبل كتاباً خصّه بفن، فإنه جمع في (الحيوان) أنواعاً متعددة وأنماطاً مختلفة من المواد العلمية، فلم يترك الطب ولا التاريخ، ولا الأدب ولا الفلسفة، ناهيك أن الكتاب وثيقة تاريخية تعطينا صورة حقيقية للحياة والثقافات المتعددة في عصر الجاحظ، كما يعد من أشهر وأروع مؤلفات الجاحظ، ومن آثار التجربة والسن، وهو حافل بضروب الآراء وألوان الثقافات والمعارف.

واشتمل هذا السفر الضخم على كثير من ألوان الفكاهات التي نثرت في الكتاب نثراً، فهو البستان الذي ضم من ألوان الطرائف والملح أشكالاً، ومنتدى القوم ينقل لنا صورة واضحة المعالم لمجالسهم ومناقشاتهم وأحاديثهم، ناهيك عن معرفة أنواع الحيوان وأمراضه فذلك صلب المؤلف ولحمته، فالكتاب معلمة واسعة، حوى طائفة صالحة من المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية، كما تحدث في سياسة الأقوام والأفراد، كما تكلم في نزاع أهل الكلام، وسائر الطوائف الدينية، وهو معرض لكل الثقافات من عربية ويونانية وفارسية وهندية، ومن استقراء موضوعات الكتاب تتجلى لنا أهمية الكتاب وقيمته، فقد ضم بين جنبيه من التاريخ وأحوال العرب وثقافاتهم ودياناتهم وعاداتهم، ما

يؤلف مجموعة واسعة من الحقائق التي أعمل فيها الجاحظ عقله وأجهد فكره إجهاداً شديداً.

ونلمس الثراء العلمي لهذا الكتاب، من خلال الفهرس المتنوع الذي يشتمل على أنواع المعارف التي بالكتاب، ويلخص ما حوته الأجزاء السبعة من الكتاب[1].

ففي الجزء الأول والثاني تناول الكلب والديك، وفي الثالث تناول الحمام والذباب والغربان وغيرها، وفي الرابع الذرة والنحل والقرد والخنزير والحيات والظليم واستطرد إلى ذكر الثيران، وأكمل استطراده في الجزء الخامس الذي تناول فيه الفأر أيضاً والجرذان والسنانير، والجزء السادس تضمن تفسيراً لقصيدة البهراني في الحيوان، ولقصيدتي بشر بن المعتمر، إلى ما تناوله فيه من حيوانات، كالهدهد والتمساح والأرانب، وفي السابع تناول أسراراً كثيرة من أسرار خلق الحيوان، كما تناول الفيل والزرافة بخلاف ما ذكره من أشعار تتعلق بصنوف الحيوانات، وأحاديث العرب وغيرهم بها، وهذا التعريف المبسط لما حواه كتابه (الحيوان) خير دليل يقودنا إلى التعرف على أهمية كتابه وما عالجه فيه من موضوعات، وما تناوله من دراسات.

ومما يزيد الكتاب أهمية أنه نتاج سنوات طويلة من الخبرة والعمل الدؤوب في حقل التأليف والقراءة، فقد ذكر الجاحظ أنه صنع هذه المعلمة الخالدة وهو في سن عالية يقول الجاحظ «وقد صادف هذا الكتاب في حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه أول ذلك العلة الشديدة»[2]، وقال الحصري «ومن إحدى عجائبه، أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال»[3].

فقد فلج الجاحظ في أخريات حياته كما تذكر المراجع، وكان هذا السفر نتاج سنوات جافة من المرض عاشها وعانى فيها ومنها الكثير، يقول الجاحظ «أنا

(١) كان الجاحظ يسمي كل جزء من أجزاء الحيوان مصحفاً، وفي النسخة الشنقيطية من الحيوان مكتوب في نهاية كل جزء «تم المصحف من كتاب الحيوان، ويليه المصحف...» أما اصطلاح الأجزاء فكما أشار إليه عبد السلام هارون.

(٢) الحيوان جـ ٤ ص ٢٠.

(٣) جمع الجواهر ـ الحصري ص ١٦٥.

من جانبي الأيسر مفلوج، فلو قرض بالمقاريض ما علمت به ومن جانبي الأيمن منقرس، فلو مرّ به الذباب لألمت»[1].

ويؤكد الجاحظ أن كتابه كتاب علم لا كتاب رأي أو أدب، على أنه لم يذكر فيه شيئاً من الغرائب إلا ومعها شاهد[2]، ولمّ فيه الصدق بالكذب[3]. فقد تحدث الكتاب في كثير من المسائل الجغرافية، وفي خصائص كثير من البلدان، وفي تأثير البيئة في الحيوان والإنسان والشجر، كما تناول الحديث في الأجناس البشرية وتباينها، فيبدو كل أثر الثقافة الجاحظية الواسعة المنوعة، التي أحاطت بسائر ألوان المعرفة الذائعة في عصره، فلم يكن عالماً من علماء الدين فقط، بل كان متكلماً من الطراز الأول للمتكلمين، وبحّاثة في اللغة وبيانها وآدابها، كما خاض بحار العلوم والمعارف، ما كان منها عربياً أصيلاً، وما كان مترجماً منقولاً من الأمم الأخرى وكانت عقليته عميقة الغور، بعيدة المنزع، أفادت من مناهج (النظام)، ومن الحكمة والفلسفة اليونانية، والآداب الفارسية والهندية، والكتاب يمثل هذه العقلية خير تمثيل، كما أنه إشارة واضحة إلى ثقافة العصر العباسي المتشعبة الأطراف، وقد بلغت ترجمة الكتب ذروتها في مختلف العلوم، ووسعت عقلية الجاحظ كل هذه العلوم، بل أصبح رائداً لبعضها، وواضعاً لأسس جديدة في البحث والعلم تعتمد الاستقراء للوصول إلى النتائج.

ويعد الكتاب معلمة في طب الحيوانات، فالجاحظ يذكر أمراضاً ثم يعقبها بالأدوية، كما يذكر أمراض الإنسان وبعض الأدوية لتلك الأمراض.

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن الكتاب يوسم بأنه كتاب أدب، وهو أقرب إلى ذلك من أن يعد كتاباً في طبائع الحيوان، ورد على هذا الرأي (محمد كرد علي)[4] رداً مقنعاً مفحماً لأن ما حققه الجاحظ في صنوف الحيوان قبل غيره

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٤٠ - ١٤٤.

(٢) الحيوان جـ ٦ ص ١٢ - ١٣.

(٣) المرجع السابق جـ ٥ ص ٧.

(٤) راجع: أبو عثمان الجاحظ لخفاجي ص ٣١٩، أمراء البيان - محمد كرد علي جـ ٢ ص ٤٢٦.

من العلماء كاف في عد الجاحظ السابق المبرز في موضوعه وفنه، والشعر الكثير الذي أورده لا ينال من موضوع كتابه، فهو سمة من سمات الكتابات الموسوعية حتى العهد المملوكي أن يستشهد الكاتب بالشعر والحديث والقرآن والأمثال فيما يكتب، وأكثر الشعر الذي أتى به الجاحظ وأثبته في كتابه الحيوان قد استدعاه ذكر نوع من أنواع الحيوان كما فعل في إثبات قصائد كاملة من الطرديات لأبي نواس، وهو في معرض ذكر (الكلب)، فالشعر يرتبط ارتباطاً أصيلاً بموضوع الكتاب.

وإذا كان الجاحظ قد جمع هذه الصفوة المختارة من حر الشعر العربي، فهو مرجع مهم لباحثي الأدب، كما يظهر بجلاء أدب الجاحظ في كتابه الحيوان، فهو أدب واقعي، يتحرى الدقة والواقعية في عرضه، فيعطينا صورة تكاد تكون ملموسة للحياة في عصره أو مرآة تعكس الجانب الثقافي للعصر العباسي، وقبل هذا ثقافته هو، فالكتاب صورة فوتوغرافية دقيقة الملامح محددة الزوايا يظهر عليها ذلك العصر الزاخر بمزيج من العلوم والثقافات، وأبعادها الضاربة في عمق الثقافات المترجمة والمنقولة من غير العربية.

والواقعية في الأدب نلمسها في كتابه الحيوان، حيث لم يلجأ إلى الصور الخيالية في تعبيراته حينما يصف أو يصور، أو إلى عناصر الإثارة عندما يكتب، وإنما كان يعتمد في ذلك على الحس الواقعي، فيعطينا الحقيقة التي يريد بألفاظ حقيقية مباشرة تبرز المعنى في جلاء ووضوح دون أن يجهد نفسه في تلمس التشبيهات والاستعارات والكنايات، وذلك ناتج عن حقيقة إحاطته بأسرار اللغة، وإدراكه الدقيق لقيم الألفاظ ومعانيها ومدلولاتها.

ومن أمثلة واقعية الجاحظ في كتابه (الحيوان)، نقله لنا صورة تكاد أن تحس أو كأنها تحدث الآن أمامنا، نستمع إليه يقول «كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبدالله بن سوار، لم ير الناس حاكماً قط، ولا زميتاً ولا ركيناً ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته، مثل الذي ضبط وملك، كان يصلي الغداة في منزله وهو قريب الدار من مسجده فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو، ولا يلتفت ولا يحل حبوته، ولا يحول رجلاً على

رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه حتى كأنه بناء مبني أو صخرة منصوبة، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعود لمجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب، ثم ربما عاد إلى محله بل كثيراً ما كان يكون كذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشروط والوثائق، ثم يصلي العشاء الأخيرة وينصرف، فالحق يقال: لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ولا احتاج إليه ولا شرب ماء وغيره من الشراب.

كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها وفي صيفها وشتائها، وكان مع ذلك لا يحرك يده، ولا يشير برأسه وليس إلا أن يتكلم.

ثم يوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة، فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السماطين بين يديه، إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، ثم تحول إلى مؤق عينيه فرام الصبر في سقوطه على المؤق، وعلى عضه ونفاذ خرطومه، كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته، أو يغض وجهه، أو يذب بأصبعه، فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل، فلم ينهض فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه، ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى، فغمس خرطومه في مكان كان أوهاه قبل ذلك، فكان احتماله له أضعف، وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده، فلم يجد بداً من أن يذب عن عينيه بيده ففعل وعيون القوم إليه ترمقه، وكأنهم لا يرونه فتنحى عنه بقدر ما رد يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه، ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك، وعلم أن فعله كان بعين من حضره من أمنائه وجلسائه فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألحّ من الخنفساء وأزهى من الغراب، واستغفر الله فما أكثر من أعجبته نفسه فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً، وقد علمت أني عند الناس من أزمت الناس

فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستنقذوهُ منه ضعف الطالب والمطلوب**﴾[1]. وكان بيّن اللسان قليل فضول الكلام، وكان مهيباً في أصحابه وكان أحد منهم لما يطعن في نفسه، ولا في تعريض أصحابه للمنالة»[2].

هكذا نرى تلك القوة الجاحظية البارعة في الوصف والتصوير والإحاطة بدقائق الحركات والهيئات، حتى لكأننا نرى عبدالله بن سوار وهو في هذه المعركة الحامية مع الذباب، ولم يعمل الجاحظ شيئاً إلا أنه صور الواقع كما رآه في أسلوب بديع، استخدم فيه ألفاظ اللغة استخداماً رائعاً، أتت كما يريدها، أو كما أراد المعنى أن تكون ولو أنه عمد في تصويره إلى شيء من الخيال، ربما لم تكن له مثل هذه الدقة أو هذه الروعة.

وإذا كانت غاية الأدب وهدفه في مجمله: الصعود بأذواق المجتمعات الإنسانية بتقديم النماذج الجميلة لتلك المجتمعات في مختلف العصور، وتقديم المتعة في أنماط أدبية رائعة، فواقعية الجاحظ اشتملت على الغرضين، وما زال هدفها وغايتها تقديم النماذج الأدبية في أسلوب رفيع، ومنهج فريد.

وإذا كانت أصول المذهب الواقعي كما يرسمها (بلزاك)[3] هي: الاتجاه بالأدب إلى تصوير الطبقات المختلفة على ضوء ما يحيط بكل طبقة من ظروف وأحوال، والحياد التام حتى تظهر المشاعر على طبيعتها الأصيلة، واتخاذ نظام الحياة وتصرف كل طبقة حياله أساساً في المصائر، وإبراز ما في حياة الناس من خير وشر، وتحليل الطباع والأهواء للوصول إلى نتائج ثابتة خليقة بالقبول والإذعان، إذا كانت هذه هي أصول الواقعية في الأدب الحديث كما رسمها (بلزاك)[4]، فلنا أن نعتبر الجاحظ رائداً في هذا الباب، وأول من سار على هذه

---

(١) سورة الحج، آية ٧٣.

(٢) الحيوان جـ ٣ ص ٣٤٣ - ٣٤٥.

(٣)، (٤) مذاهب النقد وقضاياه - عبد الرحمن عثمان ص ٣٨٣ - ٣٨٤، أنظر: المسرحية لعمر الدسوقي ص ١٦٧، الجاحظ معلم العقل والأدب - شفيق جبري ص ٢٢٨، الأدب المقارن - غنيمي هلال ص ١٨٣.

الأصول، بل قعد لهذا المذهب بكتاباته، وتصويره للحياة التي عايشها، والعصر الذي عاش فيه، فاستقصى كل صغيرة وكبيرة في كتبه. ويعد كتاب (البخلاء) باباً في هذا المذهب ومثالاً من أمثلة الأدب الواقعي عند الجاحظ.

ويجمع كتاب الحيوان للجاحظ ـ إلى جانب ما ذكرناه سابقاً ـ القدر الكبير من الأمثال العربية، أمّا حديثه عن البيان والنقد فمنثور بين صفحات الكتاب، وبجواره أمتع الفوائد الأدبية والمسائل الدينية، وأجمل النوادر والحكايات. وأجمع من هذا كله كلامه على أجناس الحيوان، مما كتبه عن تجربة وعيان، وفيه كلام على الناس والبلاد والأجواء والأمزجة، والعادات مما لا يستطيع كتابته إلا واسع الثقافة، أو بعض من قد مارس الأسفار، وركب البحار وسكن الصحاري واستذرى الهضاب، ودخل في الغياض ومشى في بطون الأودية[1].

كما يعد الكتاب إلى جانب ذلك كله وثيقة اجتماعية تضفي أهمية خاصة عليه، فقد تناول فيه الجاحظ بالحديث، العرب والأعراب والأجناس الأخرى، وعاداتهم ومزاعمهم وعلومهم، كتناوله مثلاً، الرومي وطبيعته واليوناني والهندي والعربي، والنوبي والسوداني وما يعتري كل واحد من هذه الأجناس بعد الخصاء. وتلك الكيفية التي تناول بها تلك الأجناس دليل على تجربته الواسعة، وتقصيه للحقائق وإلمامه الواسع بالثقافة الاجتماعية واستقرائه لأنماط من البشر، وفهمه لطبائعهم وتحليلها والوصول إلى أغوار نفسياتهم ومعادنها.

ويذكر الجاحظ أنواع الحيوان في كتابه كبيان ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله وقدرته الباهرة، فقد رجع إلى آي القرآن، وفيه الكثير عن الحيوان، كما رجع إلى الحديث وكلام الصحابة وإلى الشعر، وينسب للإمام علي وصفاً جميلاً للطاووس، ولبشر بن المعتمر المعتزلي (٢١٠ هـ)، قصيدتان طويلتان في هذا الجانب[2].

وقد استعان الجاحظ ـ كما سبق ـ بالشعر العربي في أكثر المواضع، لأن العرب كما يقول أبو عثمان: قد ثقفوا معرفة الحيوان، وبرعوا في ذلك براعة

(١) الحيوان جـ ٦ ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) الحيوان جـ ٦ ص ٩١.

فائقة، وقلّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة والمتكلمين إلا وهو، أو قريب منه في أشعار العرب[1].

ولآراء الجاحظ ودراسته الشخصية في عالم الحيوان قيمتها وخطرها، وكان يستمدها من كل مصدر، ويأخذها من كل خبير، ويرجع فيها إلى كل عليم، وإلى تجاربه الخاصة.

وفوق هذا، فالكتاب يعد مدرسة وقدوة في تعليم الأسلوب الأدبي العالي، والارتقاء بالفطر السليمة إلى درجة التذوق الطبعي لحلاوة الأدب وطلاوة الأسلوب، ورونق العبارة، وبهاء الصورة الواقعية المبهرة ببلاغتها وجلالها، كما أن الكتاب يؤصّل منهج البحث والكتابة العلمية، متمثلاً في أمانة الجاحظ في نسبة الآراء إلى قائليها ومناقشتها بإيراد الأدلة وسوق البراهين من التجربة أو الواقع حيناً، ومن العقل أو النقل أحياناً أخرى، والتي بها يعضد رأياً دون آخر، كما نلمس كثيراً من الآراء الفلسفية أوردها الجاحظ في كتابه بلغة سهلة ميسرة، ولقد تأثر بقراءاته لكل ما ترجم في عصره من كتب الفلسفة، ولكنه لم يكن تابعاً يردد الآراء، ولم يقف مادحاً لكل فكر فلسفي، بل ناقداً - كما سبق أن ذكرنا في الجزء الخاص بريادته للشك المنهجي - طبق العلوم الاجتماعية والمادية وعلوم الحياة والأحياء على نظرته الفلسفية، واهتم بروح الفلسفة مبتعداً عما قد يكون فيها من خيال ومحال، فقد كانت نزعته الفلسفية نزعة عملية لا نظرية وما تعدى في الإلهيات حد المنطق المتفق الصحيح، والمصادر السليمة[2].

والنصوص التي يأتي بها الجاحظ يذكرها دون شرح إلا القليل، وقد علل ذلك بقوله «وأنا أعلم أني لو فسرت لك معاني هذه الأشعار وغريبها لكان أتمّ للكتاب ولكني أعرف ملالة الناس للكتاب إذا طال»[3].

---

(١) أنظر: أبو عثمان الجاحظ لخفاجي ص ٣٢١، الحيوان جـ٣ ص ٨٣.
(٢) راجع: أمراء البيان - محمد كرد علي جـ٢ ص ٤٠٥.
(٣) الحيوان جـ٧ ص ٢٢٢.

ولا يعرف فضل هذا الكتاب إلا من نظر فيه طويلاً، وتناول بالبحث والدرس جوانبه وبالتبيين والتوضيح نواحيه.

مصادره وآراء الدارسين فيه:

شغل، قبل الجاحظ وفي عصره وبعده، موضوع الحيوان كثيراً من العلماء وألفوا فيه فقبل الجاحظ سبق اليونانيون أسلافنا العرب إلى التأليف في علم الحيوان.

قال صاحب كشف الظنون في حديثه عن علم الحيوان[1] «وفيه كتب قديمة وإسلامية: منها كتاب الحيوان لديمقراطيس، ذكر فيه طبائعه ومنافعه، وكتاب الحيوان لأرسطاطاليس، تسع عشرة مقالة، نقله ابن البطريق من اليونانية إلى العربية وقد يوجد سريانياً نقل قديم، أجود منه العربي، ولأرسطو أيضاً كتاب في نعت الحيوان غير الناطق، وما فيه من المنافع والمضار».

وقد طرق هذا الباب أيضاً - قبل الجاحظ - مؤلفون من أسلافنا العرب - وكذلك في عصره - نذكر منهم: أبا حاتم السجستاني م ٢٤٨، والأصمعي م ٢١٦، وأبو عبيدة م ٢٠٩، والنضر بن شميل م ٢٠٣، فقد ألف هؤلاء كتباً في الإبل، وكذلك ابن قتيبة م ٢٧٦، وابن الإعرابي م ٢٣١، وأبو جعفر محمد ابن حبيب البغدادي م ٢١٠، وهؤلاء ألفوا كتباً في الخيل، وهؤلاء وأولئك وغيرهم ألفوا كذلك في الغنم والشاء والوحوش والطير والحشرات والحمام والحيات والعقارب وغيرها، ولكن هل هذه الكتب ألفت للقصد العلمي الخالص؟!.

يقول عبد السلام هارون[2] «لم تؤلف للقصد العلمي الخالص، وإنما أريد بها أن تكون باحثة في اللغة أولاً: فهي بمثابة معجمات لغوية خالصة لما

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٤٥٦.
(٢) أنظر: تقديم مكتبة الجاحظ ص ١٤، ١٦.

ألفت له فهي لا تبحث في طبع الحيوان وخصائصه، ولا تعنى بدقائقه وغرائزه وأحواله وعاداته، وإنما تجعل همها الأول والثاني هو اللغة، وقد يكون همها أن تبحث البحث العلمي ولكن على سبيل الاستطراد ومشايعة القول».

ولقد أتيح للجاحظ أساتذة أجلاء كانوا غرة دهرهم، وآية عصرهم، تتلمذ عليهم وكان لهم الباع الطويل في التأليف والتدوين في أنواع الحيوان، ويكفي أن يكون من هؤلاء الأساتذة الأصمعي، وأبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو الحسن الأخفش وللثلاثة جهود لا ينكر في التأليف والتصنيف في أنواع الحيوان والطيور والنبات والشجر، وعنهم أخذ ومنهم استفاد، وإن كان كتابه الحيوان. قد اتخذ منحى علمياً في مباحثه، إلا أن بعض المستشرقين قد ذهبوا إلى أن الكتاب كتاب أدب وهو أقرب إلى ذلك من أن يعد كتاباً في طبائع الحيوان، ورد على هذا الرأي محمد كرد علي[1] رداً مقنعاً مفحماً لأن ما حققه الجاحظ في صنوف الحيوان قبل غيره من العلماء كاف في عد الجاحظ السابق المبرز في موضوعه وفنه، وبأن الشعر الكثير الذي نقله لا يزري بما كتب، وهو يملي على الناس روح عصره[2].

وقد اعتمد الجاحظ في تأليفه الحيوان على مصادر عدة، والنظر الطويل في كتابه يدلنا على هذه المصادر، فهو يعتمد على ذلك الينبوع الذي لا ينضب من القرآن الكريم وحديث الرسول ﷺ، نجده في كثير من المواضع يستشهد بآيات من القرآن الكريم والحديث الشريف، فيستند إليهما ليدلل على مدى صحة المعاينة والحكم، ويرجع إليهما لتوضيح ما يذهب إليه من رأي، نجده يذكر في معرض الانتصاف للكلب بمن هجاه بشر الخلق يذكر قوله تعالى: ﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾[3]، ثم يقول «والذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم... الخ»[4].

(١) أمراء البيان جـ٢ ص ٤٢٦.
(٢) راجع: أبو عثمان الجاحظ لخفاجي ص ٣١٩، ٢٢٠.
(٣) سورة الأعراف، آية ١٧٩.
(٤) الحيوان جـ١ ص ٣٥٦ تحقيق عبد السلام هارون.

كما يذكر في معرض النقاش الذي دار بين صاحب الديك والكلب الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ[1] «من اقتنى كلباً فإنه ينقص من عمله كل يوم قيراط»، فيقول معلقاً: فلعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور، وأكثر أهلها من الهراش بها والقمار فيها، فالتمس علة منع اقتنائها قياساً على منع اقتناء الديكة استناداً إلى قول سيدنا عمر، وأمره بقتل الديكة ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء.

يقول صاحب (أبو عثمان الجاحظ): «ولما كان الغرض من تأليف الجاحظ لهذا الكتاب هو بيان ما في الحيوان من الحجج على حكمة الله وقدرته الباهرة، فقد رجع إلى القرآن، وفيه الكثير عن الحيوان، وبعض سوره سميت بأسماء بعض الحيوانات، ومنها: البقرة ـ الأنعام ـ العنكبوت ـ النحل ـ النمل ـ الفيل كما رجع إلى الحديث وكلام الصحابة»[2].

والمرجع الثاني الذي اعتمد عليه الجاحظ في تأليفه كتاب الحيوان ذلك الرصيد الضخم من الشعر العربي ـ وبخاصة البدوي منه ـ فالعرب قد أكثروا في أشعارهم من ذكر الحيوان، فقد تحدثوا عنه حديثاً طويلاً، تحدثوا عن الأنيس منه ولم يهملوا الوحشي، «فالعرب تحدثوا عن الإبل في شعرهم وأطالوا الكلام، تحدثوا في نعتها فلم يذروا دقيقة من دقائقها، وتكلموا في محلها ونتاجها، ورأمها وحنينها وحلبها وألبانها، وألوانها وبحارها واسمها، وأصواتها ودعائها، ورعيها وشربها وسيرها وسراها، ووفوا كذلك لكلابهم وشائهم، ولا تكاد تجد قصيدة معدودة للعرب إلا وللحيوان الأنيس فيها شأن»[3].

فالجاحظ عندما يذكر نوعاً من الحيوان يرجع إلى الشعر العربي يطلب منه الشاهد والدليل، نسمعه يقول «إن العرب ذكروا من حالة الكلب بسبب القرى من البرد، والذي يلقى، وكيف الشأن في ذلك، فيذكر بيتاً لأعشى باهلة»[4]:

---

(١) الحيوان جـ ١ ص ٢٩٤، ٢٩٦.
(٢) أبو عثمان الجاحظ ص ٣٢٠.
(٣) تقديم مكتبة الجاحظ ـ عبد السلام هارون ص ١٤.
(٤) الحيوان جـ ١ ص ٣٨٧.

واجحـر الكلب مبيضّ الصقيـع بـه   والجـأ الحيّ من تـنفـاحـه الحـجـر

وعندما يذكر صاحب الديك أشياء من الحيـوان تضاف إلى نتن الجلود وخبث الرائحة يذكر قول روح بن زنباع الجزامي في امرأته ويضرب بالكلب المثل في ذلك:

ريـح الـكـرائم مـعـروف لـه أرج   وريحـهـا ريـح كـلب مـسّـه مـطر

والجاحظ يرى أن العرب ـ والأعراب منهم خـاصة ـ قـد ثقفوا معـرفة الحيوان، وبرعوا في ذلك البراعة، واستوعبوا حاله وعاده، وهو يقول في ذلك «وكل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة وقرأناه من كتب الأطباء والمتكلمين الا وهو، أو قريب منه، في أشعار العرب»[1].

وقال في الكلام على السباع المشتركة الخلق[2] «وقد ذكرت منها ما كان مثل الضبع والسبع والعسبار، إذ كانت معروفـة عند الأعـراب، مشهورة في الأخبار، منوهاً بها في الأشعار».

ويذكر الجاحظ أسباب جودة معرفة الأعراب للحيوان فيقول[3] «وربما، بـل كثيراً مـا يبتلون بالنـاب والمخلب، واللدغ واللسـع، والعض والأكـل، فخرجت بهم الحال إلى تعرف حال الجاني والجارح والقاتل، وحال المجني عليه والمجروح والمقتول وكيف الطلب والهرب، وكيف الداء والدواء، لطول الحاجة، ولطول وقوع البصر مع ما يتوارثون من معرفة الداء والدواء».

ولا تكاد قصيدة جاهلية تخلو من ذكـر نوع من أنـواع الحيوان فيهـا ـ وبخاصة الإبل والفرس ـ فقـد تقصوا أنـواعها وأوصـافها وسـيرها، وألـوانها وأصلها، حيث كان اعتيادهم عليها في رحلاتهم وأسفارهم، وحلهم وترحالهم، وظعنهم وإقامتهم فمعلقة الأعشى[4] والتي تبدأ بقوله:

---

(١) الحيوان جـ٣ ص٨٣.
(٢) المرجع السابق جـ٦ ص٢٨.
(٣) المرجع السابق ص٢٩.
(٤) أنـظر: معلقة الأعشى لعبـد السلام سرحـان ص٢٧ وما بعـدها ـ ١٩٧٤ م ـ مختـارات من النصوص والنثر الناشر مكتبة لواء الإسلام.

ما بكاء الكبير بالأطلال؟ وسؤالي؟ـ وما ترد سؤالي
دمنة قفرة تعاودها الصيف بريحين من صبا وشمال

قد زخرت بوصف الناقة السريعة التي امتطاها طلباً لرفد «الأسود»، منها هذه الأبيات على سبيل المثال:

وعسير أدماء حادرة العين خنوف عيرانة شملال
من سراة الهجان صلبها العض ورعي الحمى وطول الحيال
لم تعطف على خوار ولم يقطع عبيد عروقها من حمال
قد تعللتها على نكظ الميط وقد خبّ لامعات الآل[1]

فالأعشى في الأبيات السالفة يصف ناقته بالسرعة التي تدفعها إلى رفع رأسها نحو راكبها عند اندفاعها في السير السريع، وأنها من أجود أنواع الإبل الهجان وأقواها جسماً وأكرمها طعاماً، لم تلد ولم ترضع ولم تصب بمرض، ويلزم من هذا كله كونها سريعة قوية على السفر البعيد، ولذا قد استعان بها وبسرعتها على مشقات السير في وقت الحرارة، وسرعتها وقوتها فيها النجاء من لفح الهاجرة.

ثم قصيدة كعب بن زهير الاعتذارية المعروفة في التاريخ الأدبي «بانت سعاد»[2] وقد بلغ حديثه عن الناقة اثنين وعشرين بيتاً، وصف فيها ظاهر

---

(١) العسير: الناقة التي تروض، الأدماء: التي لونها مشرب بالسواد والبياض، والحادرة: التي يتحدر دمعها، الخنوف: الذي يميل برأسه نحو راكبه، العيرانة: الناجية في نشاط، الشملال: السريعة، السراة: جمع سرى أي صار سرياً، الهجان جمع هجن وهو الحمل الأبيض أو الناقة البيضاء، صلّبها: جعلها صلبة قوية، العض: نوع من الأشجار الشوكية، الحمى: الأرض المحمية، الحيال: عدم الحمل، لأن الحائل هي التي لا تلقح، تعطف: أصله تتعطف، والعطف هو الميل والرحمة، الخوار: ولد الناقة في حالة الوضع أو إلى أن ينفصل عن أمه، عبيد، راوية الأعشى، أو رجل كان يعالج الإبل، الحمال: داء يصيب المفاصل أو القوائم، تعللتها: استعنت بها، النكاظ: بالتحريك وبسكون الكاف: الجهد والمشقة والعجلة، الميط: الزجر والحث، خبّ: أسرع، لامعات الآل: أطياف السراب.

(٢) أنظر: قصيدة «بانت سعاد» شرح عبد السلام سرحان ص ١، ٣٦ وما بعدها، الناشر: محمد سعيد هندي، وانظر: ديوان الأعشى، وقصيدة «بانت سعاد» برواية أبي سعيد السكري وشرحه ـ طبعة دار الكتب سنة ١٩٥٠ م.

قوتها، وسمات فتوتها وكرم أصلها، بدأها بقوله:

بـانت سعـاد فقلبي اليـوم متبـول ... متيـم إثـرهـا لم يفـد مكبـول
ومـا سعـاد غـداة البـين إذ رحلوا ... إلا أغنّ غضيض الطرف مكحـول

وبعد أبيات استعرض فيها هواه بمحبوبته وضالته التي ينشدها يدلف إلى الحديث عن الناقة السريعة التي ستبلغه غايته، وتنوله مراده فيقول عنها:

ولـن يـبـلغـهـا إلا عـذافـرة ... فيهـا عـلى الأيـن إرقـال وتبـغيـل
من كـل نضاخـة الذفـرى إذا عـرقت ... عـرضتهـا طـامس الأعـلام مجهـول
تـرمي الغيـوب بعيني مفـرد لهق ... إذا تـوقـدت الحـزان والميـل
ضخم مقلدهـا فعـم مقيـدهـا ... في خلقها عن بنات الفحل تفضيل[1]

والمعنى: أن هذا الناقة «العذافرة» ذات «الأرقال والتبغيل لا بد أن تغذ السير، وتجد الرحيل، لتقطع الجبال وتجتاز السهول، وتطوي الفيافي المظلمة، والبوادي المجهولة، ويسيل عرقها أنهاراً، وهي في سيرها السريع تنعم النظر فيما أمامها، وترسل إلى الفضاء أحداقها، وفيما امتد أمامها من سهول، غير آبهة بالنار المحرقة، والقيظ القاسي الشديد، والناقة بتكوينها صالحة للأسفار البعيدة، وصلاحيتها تجعلها ممتازة على لداتها وأترابها وبنات جنسها، حتى تستطيع قطع هذه المسافات الشاسعة والأبعاد الطويلة.

وبقية الأبيات أوصاف بارعة، وصفات مميزة للناقة السريعة الكريمة، لم

---

(١) العذافرة: القوية والشديدة والغليظة من الإبل والنياق والجمال، الأين: التعب والوصب، الإرقال: أرقل إذا أسرع، التبغيل: توسيع الخطو في السير، النضاخة: يقال نضخ الماء: اشتد فورانه من ينبوعه، الذفرى: قيل هو العظم الشاخص خلف الأذن، العرضة: الهمة، طامس: بعيد، الأعلام: الجبال الطويلة، ترمي: تقذف، الغيوب: جمع غيب وهو ما اطمأن من الأرض، المفرد: المتفرد عن القطيع، والمراد هنا: ثور الوحش الذي تأخر عن قطيعه، اللهق: الشديد البياض، توقدت: اشتعلت، الحزان: جمع حزيز، وهو ما غلظ من الأرض، الميل: جمع ميلاء، وهي الكثيب الضخم من الرمل، المقلد: مكان القلادة بمعنى العنق، الفعم: الممتلئ بالشحم واللحم، مقيدها: موطن القيد فيها، بنات الفحل: أترابها من النوق، تفضيل: زيادة.
وهكذا نجد من معاني الكلمات أن الشعراء لم يتركوا جزءاً في الناقة إلا وذكروه مقروناً بأدق صفاته، والمستحب منها لها، وصفات الكرائم منها، وما كانوا يحبذونها منها.

يترك فيها كعب بن زهير صغيرة أو كبيرة تتصل بالناقة وتجعل لها المكانة المعروفة ـ آنذاك ـ عند العرب، ونكتفي بذلك القدر من الأبيات من باب الإيجاز وعدم التطويل.

وغيرهما كثير ممن طرقوا أنواع الحيوان في أشعارهم، ولا نكاد نتصفح ديواناً من دواوينهم إلا نجدهم قد ذكروا نوعاً أو أنواعاً منه، في مواضع كثيرة، وقلما تخلو قصيدة من قصائدهم من ذكر الناقة أو الفرس.

ويورد الجاحظ في بعض مواضع من كتابه قصائد كاملة تحمل بين طياتها حديثاً عن نوع من أنواع الحيوان، كقصائد الحسن بن هانئ، في الطرديات فأثبتها ولم يحذف شيئاً منها[1].

وكتاب الحيوان لأرسطو يعتبر المادة الثالثة من مواد الكتاب، وقد نقل عنه الجاحظ نصوصاً، لكنه لم يسلم بها بل طرحها للمناقشة، وقلما ترك رأياً مما نقله إلا تكلم فيه بعد عرضه على الحجة والبرهان والدليل.

فمن ذلك ما قال[2] «وقد ذكر صاحب المنطق أنه قد أبصر ثوراً وثب بعد أن خصي فنزا على بقرة فأحبلها»، وعقب على ذلك بقوله «ولم نجد هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل».

وقال أيضاً في الرد على أرسطو[3] «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل وما يليق بمثله أن يخلد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء».

كما استفاد الجاحظ كثيراً مما دار بين فلاسفة الكلام في عهده، تلك المحاولة وذلك الكلام الذي ولده المعتزلة، وقد دفع بهم ذلك التيار العارم، إلى مواطن شتى من نواحي الحجاج والجدل، وكان بين المعتزلة نزاع كلامي في

(١) راجع: كتاب الحيوان تحقيق عبد السلام هارون جـ٢ ص١٧ وما بعدها.
(٢) الحيوان جـ ٥ ص٥٩٢.
(٣) المرجع السابق جـ١ ص١٨٥.

المقايسة بين الكلب والديك، وكان على رأس الفريق الأول النظّام أستاذ الجاحظ، وعلى رأس الثاني معبد وقد رد عليهم الجاحظ طويلاً[١].

وقد بلغ الأمر بين الفريقين بأن صنع بشر بن المعتمر ـ وكان رأسا لفرقة من المعتزلة سميت بالبشرية[٢]ـ قصيدتين ذكر فيهما الحيوان وعجائبه، وقد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفوائد، ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة.

وقد تصدى أبو عثمان لشرح القصيدتين في الجزء السادس من الحيوان[٣]، وتكلم فيهما كلاماً طويلاً استغرق نحو نصف الجزء.

كما كان اعتماد الجاحظ على التجارب الكثيرة لغيره في مجال البحث في الحيوان وأنواعه وسلوكه، وعلى خبرته الشخصية وتجاربه، فقد روى الجاحظ تجارب كثيرة عن معاصريه، كالنظام ومحمد بن الجهم، الذي أجرى تجربة على الذباب لمعرفة ما إذا كان يأكل البعوض أم لا؟[٤].

وكان الجاحظ يذهب إلى التجربة في الإنسان والحيوان، ويعتبرهما من أسس منهجه العلمي في البحث وقد دعا إلى ذلك ـ كما بينا في الفصل الخاص بمنهجه ـ كما يذهب إلى التجربة في النبات ويفضلها على كل نقل، ويأخذ نتائج تجارب غيره ويوازنها مع ما حصل عليه من نتائج. وولوعه بالاستقصاء ومعرفة الحقائق يدفع به إلى السؤال ممن يتوسم فيه، وكان الجاحظ قريباً من الجميع، المستويات الدنيا والطبقات العليا، فهو يسأل الجزارين ويصحح منهم أخباراً كاذبة شاعت عند الناس[٥]، ويسأل الحوائين[٦] ويتهكم بقول من زعم أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى[٧]، كما جالس الحمالين مراراً وسمع من

---

(١) الحيوان جـ ٢ ص ٩٣، ١٠٤.
(٢) مفاتيح العلوم ـ ص ١٩ ـ توفي بشر سنة ٢١٠ هـ.
(٣) الحيوان جـ ٦ ص ٢٨٤.
(٤) المرجع السابق جـ ٣ ص ٣٢٠، ٣٢١.
(٥) المرجع السابق جـ ٦ ص ١٤٩.
(٦) المرجع السابق جـ ٥ ص ٨٠.
(٧) المرجع السابق جـ ٧ ص ١٦٨.

أحاديثهم، فمن ذلك ما يقول[1] «وسمعت حديثاً من شيوخ ملاحي الموصل وأنا هائب له، ورأيت الحديث يدور بينهم...».

وهو يتحدث مع صائد العصافير[2] فيقول «وخبرني من يصيد العصافير...».

وهكذا تنوعت مصادر الكتاب ومنابعه، فلا غرو أن نجد فيه ألواناً عجيبة من المعارف الجمة عن الحيوان، مفصلة وموضحة لسلوكه وطباعه، وأنواعه وأجناسه، وفوائده ومضاره كما استقصى فيه أحاديث القوم، وآراء العلماء في الحيوان مذيّلاً إياها بآرائه العلمية القيمة وببحثه وتجاربه الكثيرة، فالكتاب يعد - بحق - من أروع ما كتب في الحيوان وبحث فيه.

وقد نال هذا المؤلف اهتمام العلماء، كما حاز على إعجاب الخلفاء والأمراء، تلقفته العامة والخاصة على سواء، فقد أودعه الجاحظ خبرة عمره، ونتاج قريحته، وهو من أشهر وأروع مؤلفاته، وهو حافل بضروب الآراء، وألوان الثقافات والمعارف، وكان البصريون يفتخرون به وبكتاب البيان، وقد أهدى كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف دينار، مكافأة له عليه. قال ميمون بن هارون: «قلت للجاحظ: ألك بالبصرة ضيعة؟! فتبسم وقال: إنما أنا وجارية وجارية تخدمها وخادم وحمار، أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاني خمسة آلاف دينار، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى ابراهيم بن العباس الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار، فانصرفت إلى البصرة ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تسميد ولا تجديد»[3].

ولنترك الجاحظ يحدثنا عن رأيه في كتابه الحيوان، فيقول «هذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع

---

(١) الحيوان جـ٢ ص ١٢٦.
(٢) الحيوان جـ٢ ص ٣٢٩.
(٣) معجم الأدباء جـ١٦ ص ١٠٦، طبعة دار المأمون، سلسلة الموسوعات العربية.

وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة وإحساس الغريزة»[1].

ويبين لنا موقع هذا الكتاب بين مؤلفاته، ومدى ما لاقاه في تأليفه عندما يذكر «وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك: العلة الشديدة والثانية: قلة الأعوان، والثالثة: طول الكتاب، والرابعة: أني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب الغرض والجوهر، والطفرة والتوليد والمداخلة، والغرائز والنخاس، لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً»[2]، ثم يقول: إنه كان يلتقط الأشعار ويتتبع الأمثال، ويستخرج الرأي من القرآن، والحجج من الرواية، وما في ذلك من صعوبة مع تفرق هذه الأمور في الكتب.

ويقول الحصري في كتاب الحيوان «ومن إحدى عجائبه، أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال»[3].

ويذكر عبد السلام هارون أن كتاب الحيوان «صورة من صور كتب القوم في الحيوان، والجاحظ كتابه (الحيوان) ينطق بين يديك بالقصد العلمي التفصيلي للحيوان جميعاً ولكل مملكة من ممالكه، ولكل جنس من أجناسه، وهو فضل للجاحظ على جميع من سبقه أو عاصره ممن كتب في الحيوان»[4].

ويقول الدكتور خفاجي «والجاحظ أسبق في التأليف في الحيوان، وكتابه أول كتاب عربي عن الحيوان»[5].

ويذكر لنا صاحب النثر الفني أن «كتاب الحيوان للجاحظ دراسة علمية

---

(١) الحيوان جـ ١ ص ١١.
(٢) الحيوان جـ ٤ ص ٢٠٨، ٢٠٩.
(٣) جمع الجواهر ـ الحصري ص ١٦٥.
(٤) تقديم مكتبة الجاحظ ـ عبد السلام هارون ص ١٨، ١٩.
(٥) أبو عثمان الجاحظ ـ محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٢٠.

واسعة يتناول الكلام عن الحيوانات وأجناسها وفصائلها وطبائعها وعاداتها وبيوتها، وكل ما هو متصل بها من قريب أو بعيد»[1].

ويقول بروكلمان «كتاب الحيوان، وهو من آثار السن والتجربة وأثنى عبد القاهر على مقدمته»[2].

---

(١) النثر الفني عند الجاحظ ـ عبد الحكيم بلبع ص ٢٣٥.
(٢) تاريخ الأدب العربي ـ بروكلمان جـ٣ ص ١١١.

الفصـــل الثـــاني

(كتاب الحيوان بين الطبع والاختصار والتهذيب)

لقد نال كتاب الحيوان للجاحظ من الاهتمام ما لم ينله سفر من قبل، ذلك الاهتمام الذي يبدو واضحاً من إيثار العلماء له بالبحث فيه، وتحليل مواده، وعمل البحوث القيمة عنه، ناهيك عن المخطوطات التي نقلت عنه أجزاء، أو نسخته بأكمله، وهذه المخطوطات متناثرة في مكتبات العالم.

لقد أعد صاحب (تاريخ الأدب العربي) حصراً لمخطوطات الكتاب في مكتبات العالم ذكر فيه «أن مخطوطات الكتاب موجودة في ڤيينا أول تحت رقم ١٤٣٣، وكوبريلي برقم ٩٩٢ - ٩٩٧ مكرر، نور عثمانية تحت رقم ٣٠٣١، كما توجد قطعة من مخطوط مصور للكتاب المذكور في أمبروزيانا، كما يوجد مختارات منه في الأسكوريال ثاني ٨٩٧، ٩٠١»[١].

والمخطوطة التي بيدنا الآن ونقوم بتحقيقها هي المصورة عن النسخة الموجودة بالأسكوريال تحت رقم ٩٠١

وبدار الكتب عدة مخطوطات مصورة عن أصول موجودة بمكتبات العالم، حيث توجد صورة لمخطوطة (كوبريلي) تحت رقم ٤٢٨٥ يرجع تاريخها إلى سنة ٨٥٩ هـ، كما توجد مخطوطة أخرى بدار الكتب أيضاً برقم ٩ ش، وهي نسخة

(١) تاريخ الأدب العربي - بروكلمان جـ٣ ص ١١١.

كاملة في مجلدين، وتوجد نسخة خطية ثالثة برقم ٥٥٦، وتوجد نسخة رابعة خطية برقم ١٠ ش، خطها محمد جاد القماش الأشموني سنة ١٣٠٥ م، ثم نسخة خامسة برقم ٤٥ طبيعيات بدار الكتب أيضاً.

وكتاب الحيوان للجاحظ قد استحوذ على اهتمام علماء الغرب أيضاً، فقد قام (فان فلوتن) بنشر مختارات منه، كما كتب آسين بلاسيوس تحليلاً للكتاب في مجلة ايزيس[1]، وكتب (فيدمان) بحثاً في الصنعة الكيميائية القديمة عند الجاحظ.

أما مطبوعات الكتاب، فقد طبع أول ما طبع سنة ١٣٢٥هـ في سبعة أجزاء، وهي طبعة سقيمة، طبعت في المطبعة الحميدية، قام بها المرحوم (محمد ساسي).

ثم قام بعد ذلك بنشره الأستاذ عبد السلام هارون بمكتبة الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٣٨ م، طبعة أولى ثم تكرر الطبع بعد ذلك في سنة ١٩٦٥ م، استدرك ناشر الكتاب فيها بعض الأخطاء التي وردت في الأولى.

وطبعة ثالثة لكتاب الحيوان سنة ١٩٥٥ م، صادرة عن دار إحياء العلوم ببيروت وهي غفل عن أي تصحيح أو تصويب، كما تغفل ذكر النسخ التي اعتمدت عليها في النقل.

وكتب مصطفى الشهابي تعريفات بمصطلحاته للحيوان، في مجلة المجمع العلمي العربي[2]، وفي مجلة الشرق ٢٩/٦٢٨.

وهناك طائفة من علماء العرب كانوا يقومون باختصار المؤلفات المطولة، فيوجزونها أو يقومون باختيار أجزاء منها، وتهذيبها، فقد قام بدر الدين محمود م ٨٥٥، باختصار تاريخ ابن عساكر م ٥٧١ هـ، واختصره أيضاً السيوطي جلال الدين عبد الرحمن م ٩١١. كما اختصر صفوة الصفوة لابن الجوزي

---

(١) مجلة ايزيس العدد ١٤ ص ٢٠ - ٥٤.
(٢) سنة ١٩٣١ ص ٥٠١.

م ٥٩٧ هـ، أبو المعالي الوراق سعد بن علي م ٥٢٨ هـ وكذلك ابن منظور، وابن الجوزي نفسه، وأبو عبد الله محمد بن سعيد م ٦٣٧ هـ، وابن مرزوق المصري م ٥٦٤ هـ[1].

وقد تصدى لاختصار كتاب الحيوان للجاحظ قبل ابن منظور كل من: هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر م ٦٠٨ هـ، وابن اللباد البغدادي موفق الدين عبد اللطيف ابن يوسف م ٦٢٩ هـ، وليس بين أيدينـا اليوم إلا مختصر ابن منظور م ٧١١ هـ.

وقام ابن سناء الملك بتهذيب الحيوان وسماه (روح الحيوان) وقد أطلع عليه ابن منظور عند اختصاره لكتاب الجاحظ، حيث أورد في مكان من مختصره رأياً لابن سناء الملك عن الجاحظ وكتابه الحيوان.

وعلى منوال الجاحظ، ألف الدميري كتابه (حياة الحيوان الكبرى) ويوجد منه نسخة مطبوعة على جزءين سنة ١٢٧٥ هـ.

---

(١) راجع: تقديم كتاب مختار الأغاني في الأخبار والتهاني جـ ١ ص ٧، تقديم ابراهيم الأنباري.

الفصـــل الثـــالث

أولاً: أهمية المختصر

بجانب ما ذكرناه في الفصل الأول من هذا الباب في قيمة كتاب الحيوان وأهميته وموقعه في تراثنا العربي، فإن المخطوطة مع ما فيها من القيمة والأهمية، إلا أن لها خطورتها العلمية في توثيق كتاب الحيوان، وخاصة عندما نوازن بينها وبين النسخة المتداولة بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون.

كما تعد المخطوطة عملاً مهماً من أعمال ابن منظور - وقد عرفنا أهداف ابن منظور من اختصاره للكتب المطولة حينما تعرضنا لدراسته في الباب الثاني - وهذه المخطوطة قد اختصر بها ابن منظور جزءين من كتاب الحيوان، فقد انتهت المخطوطة في آخر لوحة منها بقصة لدعبل بن علي الخزاعي مع سهل بن هارون، وهي نفس القصة التي انتهى بها الجزء الثاني من كتاب الحيوان، إلا أن الموازنة والمقابلة بينهما تبرزان لنا فروقاً واضحة لها خطورتها في تتميم الكتاب المتداول، وتوثيق الأصل.

وتقصينا للجمل الكثيرة الواردة في المختصر، والتي لم ترد في الكتاب المتداول أو ذلك السقط الذي حدث في الجزءين المطبوعين: الأول، والثاني مقابل المختصر في مواضع كثيرة، تثبت - بلا شك - مدى أهمية هذه النسخة وخطورتها، ووجوب الاستعانة بها عند قراءة كتاب الحيوان، ناهيك من الاختلاف والتباين بين كثير من الكلمات والإشارات التي لها صلة وثيقة بالمعنى، وقد تضمن ذلك التباين والسقط فهرسان مستقلان.

ذلك من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المختصر يعد عملاً من أعمال ابن

منظور الكثيرة المفقودة، نسلط عليه دائرة الضوء، فنقدمه محققاً، نزيل عجمته، حتى نجني ثمرته، ويتضح لنا مدى صدق ما قلناه عن منهجه وطريقته في تناول المطولات واختصارها.

وقد أغفل ذكر هذا المختصر كثير من المؤرخين لابن منظور، وإن كان قد ورد ضمن ما نقلوه على لسان ابنه قطب الدين بين جملة المختصرات المنسوبة إليه والتي بلغت خمسمائة مجلد كما نقلوا[1].

وهذه المختصرات أكثرها مفقودة إلا القليل الذي أثبتناه له في معرض الحديث عن مؤلفاته، أما هذه المخطوطة فقد صورتها بعثة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية من مكتبة الاسكوريال بأسبانيا، وبتقديمه محققاً نبرزه إلى الوجود ونضيف به إلى رصيد مختصرات ابن منظور المعروف كتاباً جديداً[2].

وقد كان جهد ابن منظور جهداً قيماً في اختصاره للجزءين من الحيوان، ونتبين من ذلك العمل الجليل، أمانته التي تطل من خلال سطور مختصره المتقن الدقيق فلم يترك الاختصار أثراً سلبياً على الكتاب كطمس معالمه، أو النيل من حقيقته كما لم يحدث هلهلة في الترتيب أو التناسق، أو تفسخاً في المعاني، أو مسخاً لأصل، بل كان الحريص كل الحرص في أن لا يسلب عمله هذا كتاب الحيوان أو الجزء الذي أقدم على اختصاره قيمته وجلاله، ولا يحس القارئ للمختصر بأن هناك بين الأصل وبين المختصر فرقاً، وهذا دأب ابن منظور، وهو عمل يحتاج إلى حذق وجهد عظيمين، مع وفاء ابن منظور لمنهجه الذي رسمه لنفسه في هذا الاختصار فقد علق ما لاح له من تعليق على هامش اللوحات دون أن يقحم كلامه في كلام الجاحظ ولم يغير أو يبدل في كثير أو قليل من النص إلا بقدر ما رأى من حذف المكرر، كما ترك قصائد بأكملها دون نقلها، فلم ينقل غير الأبيات التي استشهد بها الجاحظ في معرض حديثه عن

---

(١) الدرر الكامنة ـ ابن حجر جـ ٥ ص ٣١.

(٢) أخبار التراث العربي عدد ١٧ ـ معهد المخطوطات ـ جامعة الدول العربية القاهرة تحت رقم ٩٠١، اسكوريال جـ ٤ ص ٢٠٣.

أنواع الحيوانات، واستعاض ابن منظور بتلك الأبيات القلائل عن القصائد المطولة بالأصل، كما ترك التبويب على ما هو بالأصل دون التغيير فيه.

ثم تأتي القيمة التاريخية لهذا المختصر، فإن تاريخه يرجع لسنة ثمان وتسعين وستمائة[1] (آخر القرن السابع الهجري)، فهو أثر من آثار العقلية العربية والمجهود الذهني الجبار في حقبة من الزمن، كما يمثل اتجاهاً معيناً في ذلك الوقت، فقد اتسمت هذه الحقبة من الزمن وتميزت بتأليف المطولات والموسوعات.

ولكن على العكس من ذلك، كرس ابن منظور جهده في تسهيل المطولات وتيسيرها باختصاراته، وإخراجها في ثوب جديد ميسر، يمكن قراءتها وتداولها واقتناءها دون جهد.

وليس سهلاً أن يختصر كتاب أدبي أو تاريخ مطول، ثم يحتفظ بمعالمه الأساسية وتماسك بنيته وموضوعاته، إلا إذا جاء من متخصص في هذا الفن، ومن متمرن السير على هذا الدرب، وحاذق في هذا الباب.

وأخيراً فالمختصر يعد وثيقة نصحح به ما في كتاب الحيوان من أخطاء ونسد به ما فيه من سقط أو خرم.

ثانياً: وصف المخطوطة

يتصدر (عنوان الكتاب) الورقة الأولى من المخطوطة، وكما هو واضح على صدر الغلاف نجد عبارة: «كتاب اختصار الحيوان لابن مكرم»، وقد تكررت هذه العبارة على نفس الورقة - والتي هي كالغلاف للمخطوطة - أكثر من مرة بقلم مغاير للأول، ويذيل العنوان بكلمتين أخريين في مواضع متعددة وحسب تكراره هما «وكثير الفوائد»، والكلمتان مكملتان لما كتب بنفس الخط الكبير

(١) اللوحة «ب» من الورقة ١٦٥ يقول ابن منظور إنه انتهى منها بتاريخ ٦٩٨هـ.

أيضاً فوق العنوان السابق «كتاب الحيوان»، ويحمل هذا الغلاف أكثر من اسم، ويبدو أن هذه الأسماء، أسماء أشخاص انتقل المختصر من ملكية أحدهم إلى الآخر، بدليل تلك الكلمة التي تسبق كل اسم وهي: «ثم صار»، وإن كان الغلاف غفلاً من تواريخ توضح لنا زمان انتقال النسخة من يد إلى أخرى، إلا أن التاريخ وما جهل عنه يمكن معرفته بالترجمة للأسماء المدونة على الورقة، وبإلقاء الضوء عليها، نزيل الإبهام والخفاء اللذين يحيطان بالتاريخ.

وأوضح اسمين كتبا على الغلاف هما: «بدر الدين العراقي المالكي» مذيّلاً بجملة «لطف الله به»، ويتصل هذا بآخر نص للعنوان المكرر «كتاب الحيوان فوايده جليلة» على أسفل يمين اللوحة. وفي أعلى نفس اللوحة ما نصه «جر عوادي الدنيا بين العبد الفقير إلى الله تعالى عثمان بن عمر بن أبي بكر بن أيوب حامداً الله تعالى ومصلياً على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم»، وهذا الأخير هو: «عثمان بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب فخر الدين بن الملك المغيث، المولود بكرك سنة ٦٥٢ هـ، أقدمه الظاهر بيبرس بعد قبضه على المغيث، ثم قبض عليه، وكان قد بلغ الظاهر أن الشهرزورية قد عزموا على القيام معه، ثم أطلقه الأشرف بشفاعة بلال المغيثي، فلزم داره فكان لا يخرج إلا للجمعة والحمام، وأقبل على الاشتغال بالعلم، وكان قد سمع من عمة جده «مؤنسة بنت العادل» وغيرها، وجمع مجاميع حسنة بخطه المليح، وكان ناظر المرستان القديم، ومات في المحرم سنة ٧٣٥ هـ»[1].

ويتضح من هذا الذي نقلناه عن الدرر الكامنة أن ابن أيوب هذا كان معاصراً لابن منظور، وإن كان قد ولد بعده، وتوفي أيضاً بعده في سنة ٧٣٥ هـ، حيث توفي ابن منظور سنة ٧١١ هـ.

ويبدو أن ملكية الكتاب آلت إليه في أخريات حياته، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد هذا التاريخ، ولكن من النص السابق نستطيع أن نزعم، أن الكتاب تحول إلى يد ابن أيوب بعد وفاة ابن منظور بفترة طويلة، ويهمنا أن هذا

(١) أنظر: الدرر الكامنة لابن حجر جـ٣ ص ٦١ ـ مطبعة المدني.

المختصر قد وصل إلينا من دون مختصراته الأخرى، ولم يذهب أدراج الرياح، كما لا ندري حقيقة هذه الملكية أكانت عن هدية أم شراء، وقد ثبت - أيضاً - أن ابن أيوب كان مغرماً بجمع الكتب واقتنائها، وتعليقها بخطه. واسم ثالث على نفس الورقة، ولكنه لا يكاد يظهر منه إلا جزء محي باقيه تحت اسم «ابن عبد العزيز» ثم «محمد» من بين جملة كلمات تداخلت، وكتبت فوق بعضها وتشابكت حتى مسخت بعضها البعض.

نسبة الكتاب لابن منظور:

وأما نسبة المختصر لابن منظور فقد تحققت من وجوه:

أولاً: ما كتب على اللوحة ٢ (ب) في أعلى الزاوية اليسرى ما نصه: «خط ابن مكرم وهو المختصر له»، بنفس القلم الذي علق به المختصر.

ثانياً: ما ثبت في آخر اللوحة ١٦٥ (ب) حيث انتهى المختصر بقول ابن مكرم: «علقه عبدالله محمد بن المكرم بن أبي الحسن الأنصاري الكاتب عفا الله عنه في ثالث جمادي الآخرة سنة ثمان وتسعين وستمائة»، بنفس القلم الذي كتب به نهاية المختصر وخاتمته.

ثالثاً: نسب المختصر لابن منظور كاتب مقدمة «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني»، في جملة المختصرات التي أوردها له، نقلاً عمن ترجموا لابن منظور، وإن كان يشك في حقيقة وجود هذا المختصر أصلاً حيث يقول «ويقال أن ابن منظور اختصر كتاب الحيوان للجاحظ»[1].

ثم المنهج المتبع والطريقة والأسلوب في الاختصار - كما بينا - فوق ما سبق هو منهج وطريقة وأسلوب ابن منظور في مختصراته الأخرى والذي بينه ابن منظور ووضحه في كتاباته وإظهاره لدواعيه وأسبابه في مقدمة «لسان العرب» وفيما كتبه في مقدمة كتابه «نثار الأزهار في الليل والنهار»، مما لا يدع مجالاً للشك

(١) مقدمة تحقيق «مختار الأغاني في الأخبار والتهاني» جـ١ ص ٦ - الدار المصرية للتأليف والنشر، وتحت رقم (ز) ٥٠٧٥٤ بدار الكتب المصرية.

في نسبة الكتاب إليه، وقيامه باختصار «الحيوان» وتقديمه على الصورة التي حاول إخراجها عليه محققة بعيدة عن المآخذ والضعف والوهن.

اللوحة الأولى للمخطوطة ٢ «أ، ب»:

تبدأ المخطوطة بعد البسملة بقول ابن منظور: «طالعت كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ عفا الله عنا وعنه، وعلقت ما لاح تعليقه مستغفراً الله عز وجل، راغباً إليه في عفوه»، ثم بعد ذلك: «قال بعد خطبته وعتاب من عاتبه في عيب مصنفاته»، وبهذه العبارة الأخيرة تنتهي جملة ابن منظور وكلامه، ليبدأ الاختصار من قول الجاحظ: «وهذا كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه».

والمخطوطة في ١٦٥ ورقة (أو لوحة)، كل ورقة تحمل صفحتين، كل صفحة بها خمسة عشر سطراً، فيبلغ مجموع صفحاتها ثلاثمائة وثلاثين صفحة.

ويلتزم ابن منظور بما أورده في أول المختصر بقوله: «وعلقت ما لاح تعليقه»، والتزم هذه المقولة كمنهج في اختصاره لكتاب الحيوان، ففي اللوحة ١٥ (ب) نجده يثبت على النصف الأسفل منها شرحاً لكلمة وردت في نص الجاحظ هي «الحماطة» فيقول ابن منظور في الهامش: «الحماطة: شجرة تأوي الحيات إليها».

وعلى هامش اللوحة ٧٩ (ب) يكتب تعليقاً على نص الجاحظ: «قالوا: الفلق واد في جهنم وقعدوا يصفونه».

يعلق ابن منظور بقوله: «في الجاهلية قبل الإسلام وهو من أشهر كلامهم»

وفي اللوحة ١٤٧ (ب) يثبت تفسيراً لكلمة «قشب» التي وردت في بيت شعر نصه:

وفي شيعة الأعمى زياد وغيلة   وقشب وأعمال مجندلة القذف

فيقـول ابن منظور: «القشب»: خلط السم بـالطعـام، والقشب اسم للسم».

وعلى هامش اللوحة ١١٧ (ب) يفسر قول الجاحظ: «حتى يتفرغ لذكر محاسنها شيخان «بقوله» الشيخان هما النظّام ومعبد».

تشويه طفيف:

وفي اللوحة ١٦٠ (أ، ب) نجد تشـويهاً طفيفـاً قد حـدث في منتصف اللوحة من منتصف السطر الثـالث حتى السطر الثـامن، وامتد التشـويه من الصفحة (أ) إلى الصفحة المواجهة (ب) على امتداد الأسطر من الصفحة (أ)، وأتى التشويه على نصف الكلمات في كل سطر، أما الكلمات التي لم تشوه فقد بقيت واضحة المعالم، ويمكن أن نحدد الرقعة التي وقع فيها التشويه على شكل دائرة نصف قطرها ٦ سنتيمترات في منتصف اللوحة ١٦٠ (أ، ب)، وقد أثبت الكلمات التي ضاعت معالمها من مقابلة هذه النسخة بالنسخ الأخرى، وجملة المسطرات التي وقع فيها التشوية سبعة أسطر.

تداخل واضطراب:

وقد حدث تداخل واضطراب في ترتيب اللوحات، أدى إلى اضطراب الترابط في الكلام والإخلال بتناسقه ـ وربما كان ذلك الخلل الذي وقع، من جراء نقل المخطوطة مصورة عن الأصل من مكتبة الاسكوريال برقم ٤/٢٠٣ ـ مما في أول اللوحة ١٧ (أ) من قول الجاحظ «ما يجيء منها كما أعطي العنكبوت وكـما أعطيت السرفـة» تكملة الكلام الـذي في نهاية اللوحـة ٩ (أ) من قول الجـاحظ «فصار جهـد الإنسان الشـاقب الحد، الجـامع للقـوى، المتصرف في الوجود، يعجز عن عفو كثير منها وينظر إذا نظر إلى ضروب».

وما في نهاية اللوحة ٣٨ (ب)، من قول الجاحظ «لأن الحبشي متى خصي سقطت نفسه، وثقلت حـركته، وذهب نشـاطه، ويحضر لـه فساد لأنـه متى»

تكملته ما في أول اللوحة ٩ (ب) من كلام الجاحظ «استقصي جبابه لم يتمالك بوله، وسلس مخرجه»، وبعد هذا التعديل يستقيم الكلام ويتناسق، وقمت بتقويم هذا الخلل وضبط هذا الاضطراب بالاعتماد على النسخ المتعددة الأخرى والتي تمت المقابلة عليها والرجوع إليها.

النسخ التي اعتمدنا عليها في التحقيق:

الأولى: نسخة مصورة من كتاب الحيوان للجاحظ بدار الكتب المصرية برقم ٤٢٨٥، عن مخطوطة مكتبة (كوبريلي) وهي نسخة جيدة الخط، ويرجع تاريخها إلى سنة تسع وخمسين وثمانمائة، والموجود منها أربعة مجلدات هي: الأول والثالث والخامس والسابع، ورمزنا لها بـ (ل).

الثانية: النسخة المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية برقم ٩ ش، وهي نسخة كاملة في مجلدين، مكتوبة بخطوط مختلفة، وهي جيدة، ورمزها (ش).

الثالثة: نسخة خطية تحمل رقم ٥٥٦ في دار الكتب المصرية وتبتدئ بأول الكتاب وتنتهي بالصفحة الثمانين من الجزء الثاني من النسخة المطبوعة، وكتب في صدرها «مشترى من قومسيون حصر الأملاك بالضبطية في ٢٣ يونيو سنة ٨٨٣، ورمزها (م).

الرابعة: النسخة المخطوطة المحفوظة برقم ١٠ ش بدار الكتب المصرية، يرجع تاريخها إلى سنة ألف وثلاثمائة وخمسة، خطها «محمد جاد القماش الأشموني» وهي كالنسخة الثالثة، وتوافقها، واكتفينا بالرمز المشار به إلى الثالثة.

الخامسة: النسخة التيمورية، برقم ٤٥ طبيعيات على صدرها كلام طويل فحواه أنها مشترى من تركة المرحوم عبد الحميد بك، مصر سنة ١٢٨٠، وتحولت إلى ملكية سعادتلو حسن باشا سري يكن زادة، وهي توافق الرابعة، وعند تطابق النسخ نكتفي بالرمز لأحدهما.

السادسة: نسخة مطبوعة في المطبعة الحميدية ثم مطبعة التقدم من سنة ١٣٢٣ إلى سنة ١٣٢٥، وقام بطبعها المرحوم «أحمد ساسي» وهي في سبعة أجزاء ورمزها (ط).

السابعة: نسخة مطبوعة محققة على سبعة أجزاء قام بتحقيقها عبد السلام هارون على طبعتين أولى وثانية ورمزها (هـ).

الثامنة: نسخة مطبوعة على ثلاثة أجزاء غير محققة، منقولة عن نسخة مطبوعة سنة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م، صادرة عن دار إحياء العلوم ببيروت، مكتبة الأوقاف بدولة الكويت ورمزها (ببروت).

التاسعة: نسخة مخطوطة بمكتبة (امبروزيانا)، ورمزها (مب).

الصفحة الأخيرة من المختصر:

اللوحة ١٦٥ (ب) وهي آخر ورقة من المخطوطة وتحمل آخر صفحتين، وتنتهي بقول لسهل بن هارون لخادمه في قصة مع دعبل بن علي: «لكني أدري أنك رميت به في بطنك، والله حسيبك»، وبعد هذا: «نجز الجزء» وبعدها: «وكمل بحمد الله وعونه» ولكن كلمة «كمل» كتبت بقلم مغاير فوق كلمة أخرى هي «الأول». وبعدها «وصلواتي على محمد عليه السلام» ثم تاريخ الانتهاء والفراغ من المختصر وقد كتب بخط معلقه بهذا النص: «علقه عبدالله محمد بن المكرم ابي الحسن الأنصاري الكاتب عفا الله عنه في ثالث جمادي الآخرة سنة ثمان وتسعين وستمائة»، «وحامداً لله عز وجل رب العالمين، ومصلياً على سيدنا محمد وآله ومسلماً»، وفي ذيل الصفحة نفسها: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

ثالثاً: منهج التحقيق

لقد سلكت في تحقيق هذا المختصر منهجاً حازماً التزمت به، وسرت وفق خطواته، حتى يخرج هذا المختصر في صورة تشبه ملامحها ملامح الأصل مع الإتقان والوفاء بالغرض، وقد كانت هذه الخطوات كما يلي:

١ - مقابلة هذه النسخة بالنسخ المتعددة لكتاب الحيوان المخطوطة منها والمطبوعة، مع وضع رمز لكل نسخة حتى يسهل تمييزها عن غيرها، وقد بينا ذلك عند حديثنا عن النسخ التي اعتمدنا عليها في التحقيق.

٢ - التدقيق في كل لفظة والتحقيق من صحتها قبل إثباتها، وذلك بمعارضتها بما ورد في المراجع إن وجدت، أو ملاءمتها لسياق المعنى في حالة فقدان مثيلة لها في موقعها، على أنني لم أبدل لفظة في الكتاب، لم تكن خطأ محضاً نحوياً أو لغوياً أو واضحة التحريف، أما إذا كانت واضحة الحروف فإنني أثبتها كما هي مع الإشارة في الهامش إلى اختلاف الرواية والنقل في المراجع الأخرى.

٣ - معارضة النصوص بالنصوص الواردة في كتب التراث الأخرى التي نقلت عن الجاحظ، وأثبت ما وقع فيها اختلاف أو تغيير مع الإشارة إليها في الهامش، كما أفادتني هذه النقولات في تصويب تحريفات وقعت في بعض العبارات المشابهة لما في المخطوطة.

٤ - الإشارة إلى تعليقات ابن منظور على كلام الجاحظ وتفسيره لبعض الألفاظ في الهامش.

٥ - وضع الرموز المعينة التي تعين على معرفة السقط الذي حدث في النسخة المطبوعة المتداولة، مع الإشارة إلى هذا السقط وموقعه بأرقام الصفحات والأسطر في كل من النسختين المطبوعة والمخطوطة.

٦ - التعريف بالأعلام الواردة في الكتاب إلا القليل النادر الذي لم أعثر له على

ترجمة فيها رجعت إليه من مراجع، إما لأنه من غير المشاهير من معاصري الجاحظ، أو لأن في الاسم تحريفاً لم أهتد لصحته.

٧ ـ شرح ما يحتاج إلى شرح وتفصيل وتوضيح عن الألفاظ الـواردة في نص الجاحظ.

٨ ـ التعريف بأنواع الحيوانات التي تحتاج معرفتها إلى توضيح وتفسير بالرجوع إلى المراجع التي تحدثت في الحيوان وطباعه وحياته.

٩ ـ الرجوع إلى كتب التراث كـ (البيان والتبيين) و(عيون الأخبار) و(المعارف) و(تأويل مختلف الحـديث) حيث كانت بهـا تصحيحات كثيرة في الشعر والنصوص، وتحقيقات للأخبار والأعلام، وما قيل في الحيوان.

بالإضافة إلى الجهد العادي الذي يقـوم به المحقق في تخـريج الآيـات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، والأبيات الشعرية، والشواهد النثرية، التي بذلت في تخريجها جهد الطاقة، بالإضافة إلى عمل فهارس تشتمل على ما يحتويه البحث عامة والتحقيق بصفة خاصة، مع فهرسين هامين هما:

١ ـ فهـرس (السقط) الذي حـدث في النسخة المتـداولـة المـطبـوعـة، وثبت بالمخطوطة.

٢ ـ فهرس (الكلمات المتباينة)، ونقلت الكلمة في الفهرس مع الجملة التي هي تفيد بها معنى، حتى نعرف مدى الاختلاف بينها وبين شبيهتها في النسخة المتداولة.

وقد أشرت إلى تلك الفهارس في مقدمة البحث فاكتفيت بذكرها هناك، حتى لا يكون هنا تكرار لما سبق ذكره.

الجانـــب التحقيـــقي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

[باب المقدمة]

«طالعت كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، عفا الله عنا وعنه وعلّقت ما لاح تعليقه، مستغفراً الله عز وجل راغباً إليه في عفوه»[1].

قال بعد خطبته وعتاب من عاتبه في عيب مصنفاته:

«[2]وهذا كتاب معناه أنبه من اسمه، وحقيقته آنق من لفظه، يحتاج إليه المتوسط العامي، كما يحتاج إليه العالم الخاصي[3]، ويحتاج إليه الريّض كما يحتاج إليه الحاذق: أمّا الريّض فللتعلم والدّربة، وللترتيب والرّياضة وللتمرين، وتمكين العادة، وأمّا الحاذق فلكفاية المؤونة، ولأن كل من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمّهات العلم مجموعاً، كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، مع تعرضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، مع عرضه عقله المكدود، على العقول الفارغة[4]، ومعانيه على الجهابذة، وتحكمه

---

(١) هذا ما بدأ به ابن منظور كتابه المختصر.

(٢) بداية المختصر من كلام الجاحظ ويعني بالكتاب كتاب «الحيوان» لإشارته من قبل إليه بقوله «ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير لقدره والتهجين لنظمه» إلى أن أتى إلى قوله «على أنه كتاب معناه أنبه من اسمه... الخ» حيث لم يذكر ابن منظور في مختصره خطبة الجاحظ وعتابه. راجع هـ ص ١٠، ١١.

(٣) في ط «كما يحتاج إليه الخاص»، وفي ل «كما يحتاج إليه العالم الخاص» موافقاً لما في المخطوطة.

(٤) دأب الجاحظ أن يقدم لكتبه قبل الشروع في موضوع الكتاب، ومثل هذا نجده في كتابه «البرصان والعرجان والعميان والحولان» إذ يقدم له بقوله «وهب الله لك حسن الاستماع، وأشعر قلبك حب التثبت، وجعل أحسن الأمور في عينيك، وأحلاها في صدرك وأبقاها أثراً عليك في دينك ودنياك علماً تفيده وضالاً ترشده، وباباً من الخير تفتحه وأعاذك من التكلف، وعصمك من التلون، وبغض إليك اللجاج، وكره إليك الاستبداد، ونزهك عن الفضول... الخ»، وبمثل هذه المقدمة الرائعة يبتدئ الجاحظ كتابه، وينبه قارئه إلى الكيفية الصحيحة التي =

فيه المتأوّلين والحسدة، ومتى ظفر بمثله صاحب علم، أو هجم عليه طالب فقه، وهو وادع رافه، ونشيط جام، ومؤلفه متعب مكدود، فقد كفي مؤونة جمعه، وأغناه ذلك عن طول التفكير، وأدرك أقصى حاجته، وهو مجتمع القوّة، وعلى أن له عند ذلك أن يجعل هجومه عليه من التوفيق، وظفره به باباً من التسديد.

وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنّة، وبين وجدان الحاسّة، وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب[1] ذو اللّهو، كما يشتهيه المجدّ[2] ذو الحزم، ويشتهيه الغبيّ كما يشتهيه الفطن.

[وأنشد في أثناء عتابه لأبي كبير][3]:

إن كنت لا ترهب ذمي لما ... تعرف من صفحي عن الجاهل
فاخش سكوتي آذناً منصتا ... فيك لمسموع خنا القائل[4]

= يقبل بها الأشياء أو يرفضها بصرف النظر عما يقال في الدافع إليها فإن ذلك قد يلهيه عن إصدار الحكم الصحيح على الأشياء.
راجع «البرصان والعميان» ص ١ تحقيق محمد مرسي الخولي.

(١) في المختصر «الملعاب» وأثبت ما في «هـ» «اللاعب».

(٢) ما هنا وافق ما في الأصل. وفي (ل) «الجدي» نسبة إلى الجد ضد الهزل.

(٣) زيادة لابن منظور، والشعر لكعب بن زهير، ونسب إلى العتابي في الأغاني ١٢ : ١٠ ولباب الآداب ٣٦٠، ورسالة فصل ما بين العداوة والحسد، ونسب في الخزانة ٤ : ١٢ إلى كعب بن زهير.
وأبو كبير هو: عامر بن الحليس، جاهلي، وفي الإصابة: أنه ذكره أبو موسى للصحابة وقال: «ذكر عن أبي اليقظان أنه أسلم، ثم أتى النبي ﷺ فقال: أحل لي الربا، قال: أتحب أن يؤتى إليك مثل ذلك؟ قال: لا، قال: فارض لأخيك ما ترضى لنفسك، قال: فادع الله أن يذهب عني».
أنظر: الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦٧٠، الإصابة جـ ٧ ص ١٦٢، اللآلئ ص ٣٨٧ الخزانة جـ ٣ ص ٤٦٦ - ٤٧٣.

(٤) «فاخش سكوتي آذناً منصتاً» كما في (ل)، (ش)، وآذنا: مصغياً، وفي الخزانة وجمع الجواهر ٣ وشرح بانت سعاد ٣ والشريشي ٢ : ١٥٠ «فاخش سكوتي إذا أنا منصت» كما في (هـ).

والسامع الذمّ شريك له ... ومطعمُ المأكول كالآكل
مقالة السّوء إلى أهلها ... أسرع من منحدر سائل
ومن دعا النّاس إلى ذمه ... ذمّوه بالحقّ وبالباطل
فلا تهج إن كنت ذا إربة ... حرب أخي التّجربة العاقل
فإنّ ذا العقل إذا هجته ... هجت به ذا خبل خابل
تبصر في عاجل شدّاته ... عليك غبّ الضّرر الآجل

قال النابغة[1]:

وكلفتني ذنب امرئ وتركته ... كذي العرّ يكوي غيره وهو راتعُ

وكانوا إذا أصاب إبلهم العرّ كووا السليم ليذهب العرّ عن السقيم[2]، فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم.

وكانوا إذا كثرت إبل أحدهم فبلغ له الألف[3]، فقؤوا عين الفحل، فإن زادت الإبل على الألف فقؤوا العين الأخرى، فذلك المفقّأ والمعمّى اللذان سمعت في أشعارهم[4].

وكانوا يزعمون أن الفقو يطرد عنها العين والسواف[5] والغارة، قال الشاعر:

---

(١) اسمه: زياد بن معاوية أحد بني ذبيان، ويكنى أبا أمامة، وأمه عاتكة بنت أنيس الأشجعي، وهو أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم، ووضع من قدرهم، وهو من الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية المقدمين على سائر الشعراء، وشهد له عمر بن الخطاب بأنه أشعر العرب، وكان النابغة خاصاً بالنعمان بن المنذر كبيراً عنده وكان من ندمائه، وأهل أنسه، فرأى المتجردة ذات يوم فجأة ـ وكانت زوج النعمان ـ فسقط نصيفها واستترت بيدها فكادت ذراعها تستر وجهها لغلظها فقال قصيدته الدالية التي أولها:

أمن آل ميّة رائح أو مغتدي ... عجلان ذا زاد وغير مرود

أنظر ديوان الحماسة جـ١ ص ٣٢٥، جـ٢ ص ٢٨٤، أنظر ديوانه ص ٤٨، والرواية فيه: حملت على ذنبه وتركته.

(٢) وردت العبارة في (هـ): «كووا السليم ليدفعه عن السقيم.

(٣) وردت العبارة في (هـ) «فبلغت الألف».

(٤) كما في (هـ)، أما في المختصر «اللذان سمعت بهما» وأثبت ما في (هـ) موافقاً باقي النسخ.

(٥) السواف: الموتان في الإبل، يقال بالفتح وبالضم.

فكان شكر القوم عند المنن   كيّ الصحيحات وفقأ الأعين

وقال الفرزدق(١):

غلبتك بالمفقأ والمعمّى   وبيت المحتبي والخافقات

[جاء في بعض نسخ الحيوان «قال غلط أبو عثمان في معنى هذا البيت، فإنما أشار إليه الفرزدق أن غلب جريراً(٢) إبان فخر عليه بأربعة أبيات من أربع قصائد من شعره.

الأول(٣):

وإنّك لو فقّأت عينك لم تجد   أباً عن كليب أو أباً مثل دارم

---

(١) الفرزدق: لقبه، وكنيته أبو فراس واسمه همام بن غالب من صعصعة، ينتهي نسبه إلى زيد بن مناة بن تميم، وهو وجرير والأخطل في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين، قال عنه يونس النحوي: لولا الفرزدق لذهب شعر العرب، قال أبو عمرو بن العلاء: لم أر بدوياً أقام في الحضر إلاّ فسد لسانه، غير رؤبة والفرزدق، وكان الفرزدق يشبّه بزهير من شعراء الجاهلية. ديوان الحماسة جـ ١ ص ٢٣٨.

(٢) هو ابن عطية بن الخطفي، واسمه حذيفة بن بدر، ينتهي نسبه إلى يربوع بن حنظلة ابن مالك ابن زيد بن مناة بن تميم، شاعر مفلق، مكثر مجيد، وهو والفرزدق والأخطل المقدمون على شعراء الإسلام، الذين لم يدركوا الجاهلية، وقد اختلف في أيهم المقدم، ولم يبق أحد من شعراء عصرهم إلا تعرض لهم، فافتضح وسقط، وكان جرير يناضله ثلاثة وأربعون شاعراً، فينبذهم وراء ظهره، ويرمي بهم واحداً واحداً، وثبت له الفرزدق والأخطل، قال ابن سلام: سألت بشاراً: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: لم يكن الأخطل مثلهما، ولكن ربيعة تعصبت له، فأفرطت فيه، وقال: وكان لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق.
ديوان الحماسة جـ ١ ص ٤٠٨، والبيت الأول ورد أيضاً:

ولست وإن فقأت عينك واجداً   أبا لك إن عدّ المساعي كدارم

(٣) ذكره ابن منظور في لسان العرب جـ ١ ص ١٢٣ مادة (فقأ)

غلبتك بالمفقأ والمعمى   وبيت المحتبي والخافقات

عن الليث في معرض الاستشهاد: انفقأت العين وانفقأت البثرة، وبكى حتى كاد ينفقئ بطنه: ينشق، وكانت العرب في الجاهلية إذا بلغ إبل الرجل منهم ألفاً فقأ عين بعير منها، وسرحه حتى لا ينتفع به وأنشد البيت السابق، قال الأزهري: ليس المفقأ في هذا البيت، ما ذهب إليه الليث، وإنما أراد به الفرزدق قوله لجرير:

ولست ولو فقأت عينك واجداً   أبا لك، ان عدّ المساعي كدارم

لسان العرب مادة (فقأ) جـ ١ ص ١٢٣، والبيت في ديوان الفرزدق ص ١٣١.

الثاني:

بيتا زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

الثالث:

وإنّك إذ تسعى لتدرك دارما لأنت المعمّى يا جرير المكلّف

الرابع:

وأين تقضي المالكان أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

وذكره المعمّى، وإنما هو المعنّى بالنون][1].

وكانوا يقولون في موضع الكفارة والأمنيّة، كقول الرجل: إن بلغت[2] إبلي كذا وكذا وكذلك غنمي، ذبحت عند الاوثان كذا وكذا عتيرة. والعتيرة من نسك الرجبيّة - والعتائر من الظباء - فإذا بلغت إبل أحدهم وغنمه العدد استعمل التأويل وقال: إنما قلت أني أذبح كذا وكذا شاة، والظباء شاء، كما أنّ الغنم شاء، فيجعل ذلك القربان كله مما يصيد من الظباء، فلذلك يقول الحارث بن حلّزة اليشكري[3]:

عنتا باطلاً شدوخاً[4] كما تعتر عن حجرة الرّبيض الظبّاء

[العنت: الاعتراض، يقول: اعترضتني بالباطل لتشدخني به ظلماً،

---

(١) هذا كلام لابن منظور، ويبدو أن هذه الأبيات لم يستشهد بها الجاحظ، وإنما أشار الفرزدق بكلمة (المفقأ) إلى قصيدته التي يقول فيها:

ولست وإن فقأت عينك واجداً أبا لك ان عدّ المساعي كدارم

(٢) (هـ) «إذا بلغت».

(٣) هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد اليشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق، وهو أحد أصحاب المعلقات، كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك، بالحيرة ومطلعها: «آذنتنا ببنيها أسماء» جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم. وتوفي نحو سنة ٥٠ ق.هـ.

الاعلام جـ٢ ص ١٥٥، الأغاني جـ ١١ ص ٤٢ طبعة الدار.

سمط اللآلئ ص ٦٣٨، الشعر والشعراء ص ٥٣.

خزانة البغدادي جـ ١ ص ١٥٨.

(٤) العنت: الاعتراض، تعتر: تذبح، الربيض: الغنم.

وتعتر: تذبح، والربيض: الغنم][1]، وذلك بعد أن قال:

أم علينا جناح كندة أن يغـ ـنم غازيهم ومنّا الجزاء

وكانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب لكدر الماء، وامّا لقلة العطش، ضربوا الثور ليقتحم الماء، لأنّ البقر تتبعه كما تتبع الشّول الفحل، وكما تتبع أتن الوحش الحمار. قال أنس بن مدرك[2] في قتله سليك بن السلكة[3]:

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر[4]

وقال الهيّبان الفقمي[5]:

كما ضرب اليعسوب[6] أن عاف باقر وما ذنبه أن عافت الماء باقر

ولما كان الثور أمير البقر، وهي تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب[7]، سماه باسم أمير النحل.

وكانوا يزعمون أنّ الجنّ هي التي تصدّ الثّيران عن الماء حتى تمسك البقر عن الشرب حتى تهلك، قال الأعشى:

---

(١) شرح وتعليق لابن منظور، وورد البيت في (هـ):
عننا باطلاً وظلماً كما تعتر عن حجرة الربيض الظباء

(٢) أنس بن مدرك بن كعب الكلابي الخثعمي، أبو سفيان: شاعر فارس من المعمرين، كان سيد خثعم في الجاهلية وفارسها، أدرك الإسلام وأسلم، ثم أقام بالكوفة وانحاز إلى علي بن أبي طالب، وقتل في إحدى المعارك، قيل عاش ١٤٥ عاماً.
الأعلام جـ ١ ص ٣٦٦، الإصابة جـ ١ ص ٧٣، خزانة البغدادي جـ ٣ ص ٣٦٦.

(٣) السلكة أم السليك: وهي أمة سوداء، وكان السليك أحد صعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يلحقون، ولا تدركهم الخيل إذا عدوا.
ديوان الحماسة جـ ١ ص ٣٣٦.

(٤) عافت: امتنعت عن شرب الماء.

(٥) في الأصل «الهيتان» وانظر: الإصابة جـ ٣ ص ٩، والقاموس «هيب»، وفي (ط)، (ش) «الفقمي» كما في المختصر، وفي (ل) «الفهمي» وعلى منواله جاء في (هـ).

(٦)، (٧) اليعسوب: اسم مشترك يقع على طائر نحو الجرادة، له أربعة أجنحة لا يقبض له جناح أبداً، ولا يرى أبداً يمشي إنما يرى واقفاً على رأس عود أو طائراً، وقال الجوهري: هو أطول من الجرادة لا يضم جناحه إذا وقع شبهت به الخيل المضمرة.
حياة الحيوان ـ الدميري ـ جـ ٢ ص ٤٨٣.

فـإني ومـا كـلفتمـوني ـ وربكـم ـ لأعـلم مـن أمسى أعـقّ وأحـوبـا[1]
لـكـالـثـور والجـني يضرب ظهـره ومـا ذنبـه أن عـافت المـاء مشربـا
ومـا ذنبـه أن عـافت المـاء بـاقـر ومـا إن تعـاف المـاء إلا ليضربـا[2]

كأنه قال: إذا كان يضرب أبداً لأنها عافت الماء، فكأنها عافته ليضرب.

وقال يحيى بن منصور الذّهلي:

لـكـالـثّـور والجـني يضرب وجـهـه وما ذنبه إن كانت الجنّ ظالمه

ولّما وجد اليهودي أخا حنبض[3] الضبابي في منزله فخصاه فمات، وأخذ حنبض بني عبس بجناية اليهودي، قال قيس بن زهير[4]: أتأخذنا بذنب غيرنا، وتسألنا حنبض بني عبس بجناية اليهودي، قال قيس بن زهير: أتأخذنا بذنب غيرنا، وتسألنا العقل والقاتل يهودي من أهل تيماء؟ قال: والله لو قتلته هيف الريح، لوديتموه!ـ [الهيف: الريح الحارة][5]ـ فقال قيس لبني عبس: الموت في بني ذبيان خير من الحياة في بني عامر!

ولما قتل لقمان بن عاد[6] ابنته ـ وهي صحر بنت لقمان ـ وقال حين قتلها:

---

(١) «أحوب» في (ط)، (ش): «أحربا» بالراء، وما في المختصر وافق ما في (ل) يقال حاب بكذا: أثم، والمصدر الحوب بفتح الحاء وتضم، وفي القرآن الكريم ﴿إنه كان حوباً كبيراً﴾ سورة النساء الآية رقم ٢ مدنية.

(٢) باقر: اسم جمع للبقر.

(٣) ما عدا (ل) «أبا حنبض» وما في المختصر وافقه، وكذلك في الميداني جـ٢ ص ٥٩ وهو الصواب.

(٤) قيس بن زهير: شاعر جاهلي مقل، وبسببه كانت حرب داحس والغبراء، وهو أخو مالك والحارث ابني زهير، وكانوا من أشراف بني عبس، وكان من حديثه مع حمل بن بدر في قصة سباق داحس والغبراء، ما ذكره أهل العلم بأيام العرب.
راجع الأغاني والحماسة جـ١ ص ٥٦، ص ١٤٠.

(٥) زيادة لابن منظور.

(٦) لقمان بن عاد بن ملطاط، من بني وائل بن حمير: معمر جاهلي قديم، من ملوك «حمير» في اليمن، يلقب بالرائش الأكبر، زعم أصحاب الأساطير أنه عاش عمر سبعة نسور، مبالغة في طول حياته، وهو غير «لقمان الحكيم» المذكور في القرآن الكريم.
ترجمته في: الروض الأنف جـ١ ص ٢٦٦ ، التيجان ص ٦٩ ـ ٧٨،
التاج جـ٩ ص ٦٣ ، وشرح ديوان زهير ص ٢٢٧٨.

ألست امرأة! وذلك أنه تزوج عدّة نساء، كلهن خن في أنفسهن، فلما قتل أخراهن ونزل من الجبل كان أول من تلقاه صحر ابنته، فوثب عليها فقتلها وقال: وأنت امرأة! وكان قد بلي[1] أيضاً بأن أخته محمقة[2] وكذلك كان زوجها، فقالت لإحدى نساء لقمان: هذه ليلة طهري وهي ليلتك، فدعيني أنام في مضجعك، فإن لقمان رجل منجب، فعسى أن يقع علي فأنجب، فوقع على أخته فحملت بلقيم، قال خفاف بن ندبة[3]:

وعـيــاش يــدبّ لـنــا[4] المــنــايــا ومــا أذنــبــت إلاّ ذنــب صــحــر

وقال ابن أذينة[5]:

أتجـمــع تهـيــامــاً بـلـيــلى إذا نــأت وهجــرانها ظلماً كــما ظلمت صحــر

[تهيام بالفتح لا غير، وكذلك جميع ما في كلام العرب من المصادر على

---

(١) في (هـ) «وكان قد ابتلى بأن أخته» موضع «وكان قد بلى أيضاً» في المختصر.

(٢) المحمقة والمحمق أيضاً: المرأة التي تلد الحمقى، قال السيوطي في شرح شواهد المغني ص ٦٧: وكانت تحت رجل أحمق، والحمق: قلة العقل، ويقال: قوم ونسوة حمق وحمقى وحماقى. المختار ص ١٥٤.

(٣) هو ابن عمير بن الحارث بن الشريد بن رياح، ينتهي نسبه إلى سليم بن منصور، شاعر مخضرم، كنيته أبو خراشة، وندبة بفتح النون اسم أمه اشتهر بها، وهو صحابي جليل شهد فتح مكة مع النبي ﷺ ومعه لواء بني سليم، وشهد حنيناً والطائف، وهو ممن ثبت على اسلامه في الردّة، وأحد فرسان قيس وشعرائها، وأحد أغربة العرب لأنه كان أسود حالكاً، وابن عم الخنساء الشاعرة، وجعله ابن سلام في الطبقة الخامسة من الفرسان مع مالك بن نويرة ومع ابني عمه صخر ومعاوية. ديوان الحماسة جـ١ ص ٢١٤ والأغاني.

(٤) في ثمار القلوب ص ٢٤٥ «وعباس يمهد لي المنايا» وفي (ل) «وعياش يدب إلى» و(هـ) «وعياش يدب لي المنايا»، وأدبها: جعلها تدب.

(٥) هو عروة بن أذينة، وأذينة لقبه، واسمه يحيى بن مالك أحد بني ليث بن بكر بن عبد مناة يكنى أبا عامر، وهو شاعر غزل مقدم من شعراء المدينة، ومعدود في الفقهاء والمحدثين روى عنه مالك بن أنس وهو القائل:

لقــد علمت ومــا الإسراف من خـلقي إن الــذي هــو رزقي ســوف يــأتيني
أســعى إلــيــه فـيــعـيــيني تــطلبــه ولــو جــلســت أتــاني لا يــعـيــيــني

في أبيات طويلة، ولها حكاية بينه وبين هشام بن عبد الملك ذكرها السيد المرتضى في أماليه. ديوان الحماسة جـ٢ ص ٥٩، الأغاني جـ٢١ ص ١٠٥ - ١١١.

وزن تفعال بفتح التاء، إلاّ حرفين بالكسر: تلقاء وتبيان][1].

وقالت العرب في قتل سنّمار الرومي[2]، فإنّ الملك لّما علا الخورنق ورأى بنياناً لم ير مثله، ورأى ذلك المستشرف، وخاف أن يموت ويبني سنّمار مثل ذلك البنيان لملك[3] آخر، فأمر به فرمي به من فوق القصر، فقال في ذلك الكلبي[4] في شيء كان بينه وبين بعض الملوك:

جـزاني جـزاه الله شر جـزائـه ... جـزاء سـنّـمار ومـا كـان ذا ذنـب
سـوى رصفه[5] البنيـان سبعين حجّـة ... يعـلى عليها[6] بـالقراميـد والسّكب[7]
فـلمّا رأى الـبـنـيـان تـم سـحـوقـه ... وآض كمثل الطّود ذي البازخ الصّلب[8]
وظـنّ سـنـمار بـه كـل حـبـوة ... وفـاز لـديـه بـالمـودّة والقـرب[9]
فقـال اقذفـوا بالعلج من رأس شـاهق ... فـذاك لعمر الله من أعـظم الخطب[10]

---

(١) هذه العبارة من أول «تهيام بالفتح» إلى «تلقاء وتبيان» شرح وتعليق لابن منظور.

(٢) سنّمار: بناء رومي الأصل، قال أصحاب الأخبار: إنه بنى للنعمان بن امرئ القيس قصر «الخورنق» بقرب الكوفة، وصعد إليه النعمان، فقال: ما رأيت مثل هذا البناء قط، فقال له سنّمار: إني أعلم موضع آجرة لو زالت لسقط القصر كله، فقال النعمان: أيعرفها أحد غيرك؟ قال: لا، فقال لا لأدعنها وما يعرفها أحد، وأمر به فقذف من أعلى القصر، فتقطع، وضربت العرب به المثل «جزاه جزاء سنّمار» ونظم شرحبيل الكلبي هذه القصة أبياتاً أولها:
جـزاني جـزاه الله شر جـزائـه ... جـزاء سـنّـمار ومـا كـان ذا ذنـب
الأعلام جـ٣ ص ٢٠٨ ، ثمار القلوب ص ١٠٩.
معجم الأمثال جـ١ ص ١٠٧ ، معجم البلدان جـ٣ ص ٤٨٣.

(٣) في (هـ) «لرجل» موضع «لملك».

(٤) في ثمار القلوب ص ١٠٩ أنه شراحيل الكلبي - كما سبق - وفي أمثال ابن الشجري جـ١ ص ١٠٢ أنه عبد العزى بن امرئ القيس.

(٥) في (هـ) «رصه» موضع «رصفه».

(٦) في (هـ) «عليه» موضع «عليها».

(٧) القراميد: مفرده قرمد كجعفر وهو الآجر، والسكب: النحاس أو الرصاص، ويحرك، وفي ثمار القلوب «عشرين حجة»، وفي معجم البلدان «ستين حجة».

(٨) في معجم البلدان «كمثل الطود والشامخ الصلب».

(٩) ما هنا وافق ما في (ل) «حبرة» بمعنى السرور، وفي الأصل: «حبوة وكذلك في (هـ).

(١٠) هذا جزاء سنمار الذي صار مثلاً يضرب، فقد أكمل بناء القصر، ووافى به على التمام وحتى لا يكون لآخر مثل هذا القصر، أمر النعمان بأن يرمى سنمار من أعلى القصر فمات تلك الميتة البشعة، ويبدو أن تسرعه بالرد على الملك بالنفي شد حبل مصرعه.

وجاء المسلمون، يروي خلف عن سلف، وتابع عن سابق، وآخر عن أول، أنهم لم يختلفوا في قول زياد[١]: «لآخذنّ السّميّ بالسّمي، والولي بالولي، والجار بالجار» ولم يختلفوا في قول[٢] شاعرهم حيث قال:

إذا أخـذ الـبريء بـغـير ذنـب تجـنـب مـا يحـاذره الـسـقـيـم

وقيل لعمرو بن عبيد[٣]: إن فلاناً لما قدّم رجلاً ليضرب عنقه، قيل له: إنه مجنون! قال: لولا أن المجنون يلد عاقلاً لخلّيت سبيله، فقال عمرو: ما خلق الله النار إلاّ بالحق!

ولما قالت التّغلبية للجحّاف بن حكيم[٤]، في وقعة البشر[٥]: فض الله فاك

(١) كما في (هـ)، أما في المختصر: «في قول الحجاج»، وزياد هو ابن أبيه، والكلام في خطبته البتراء المعروفة. أنظر البيان جـ ٢ ص ٦٣.
زياد بن أبيه: أمير الدهاة، القادة الفاتحين، الولاة من أهل الطائف، ولدته أمه (سمية) واختلف في اسم أبيه، أسلم في عهد أبي بكر، وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة ثم لأبي موسى الأشعري، ألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ هـ، فكان عضده الأقوى، وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق، فلم يزل في ولايته إلى أن توفي، له أقوال سائرة.
أنظر الأعلام جـ ٣ ص ٨٩ — ابن خلدون جـ ٣ ص ٥ ـ ١٥.
الطبري جـ ٦ ص ١٢٦ — لسان الميزان جـ ٢ ص ٤٩٣.
خزانة البغدادي جـ ٢ ص ٥١٧.

(٢) موضعها في (هـ) «في لعن» وما أثبت في المختصر هو الصحيح.

(٣) عمرو بن عبيد ـ (٨٠ ـ ١٤٤ هـ) ـ ابن باب التميمي بالولاء، أبو عثمان البصري: شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين، كان جده من سبي فارس، وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة، اشتهر بعلمه وزهده، وأخباره مع المنصور العباسي وغيره كثيرة، له رسائل وخطب وكتب، منها «التفسير»، «الرد على القدرية» توفي بحران «قرب مكة» ورثاه المنصور، قال يحيى بن معين: كان من الدهرية الذين يقولون: إنما الناس مثل الزرع.
وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٨٤ — البدايه والنهاية جـ ١٠ ص ٧٨.
المسعودي جـ ٢ ص ١٩٢ — الأعلام جـ ٥ ص ٢٥٢.
تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١٦٦ ـ ١٨٨.

(٤) الجحّاف بن حكيم ـ (م. نحو ٩٠ هـ) ـ ثائر، شاعر، كان معاصراً لعبد الملك بن مروان، وغزا تغلب بقومه فقتل منهم كثيرون، فاستجاروا بعبد الملك، فأهدر دم الجحاف، فهرب إلى الروم، فأقام سبع سنين، ومات عبد الملك، فأمنه الوليد بن عبد الملك، فرجع.
الأعلام جـ ٢ ص ١٠٣ — أمثال الميداني جـ ٢ ص ٢٣. — الآمدي ص ٧٦.

(٥) في (ط) «البسر» وهو تصحيف، والبشر: جبل يمتد من الشام إلى الفرات. أنظر المعجم والأغاني جـ ١٩ ص ١٣٠.

وأعماك[١]، وأطال سهادك، وأقلّ رقادك، فوالله إن قتلت إلا نساء أسافلهن دمى وأعاليهن ثديّ[٢]! قال لمن حوله: لولا أن تلد هذه مثلها لخلّيت سبيلها! فبلغ ذلك الحسن فقال: إنّما[٣] الجحّاف جذوة من نار جهنّم.

وذمّ رجل الكمأة بالسِّمن عند الأحنف[٤]، فقال الأحنف: «ربّ ملوم ولا ذنب له»[٥].

قال الخليل بن أحمد[٦]: لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه، حتى يتعلم ما لا يحتاج إليه، فقال: أو ثمّ إذا كان لا يوصله إلى ما يحتاج إليه، إلاّ بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه.

قال: العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متفق، ومختلف، ومتضاد، وكلها في جملة القول جماد ونام. وكان حقيقة القول في هذه القسمة أن يقال: نام وغير نام، ولو كانوا وضعوا لكل ما ليس بنام اسماً، كما وضعوا

---

(١) في المختصر «فض الله عماك»، وأثبت ما في (هـ) موافقاً لما في باقي النسخ.
(٢) في (هـ) «أعاليهن ثدى، وأسافلهن دميّ» على عكس ما ورد هنا.
(٣) في غير المختصر «أمّا» موضع «إنّما».
(٤) هو الأحنف بن قيس - (٣ ق. هـ - ٧٢ هـ) - ابن معاوية بن حصين المري السعدي المنقري التميمي، أبو بحر: سيد تميم، يضرب به المثل في الحلم، أدرك النبي ولم يره ووفد على عمر وشهد الفتوح في خراسان، واعتزل الفتنة يوم «الجمل»، ثم شهد «صفين» مع علي، أخباره كثيرة، وخطبه وكلماته متفرقة في كتب التاريخ.
الأعلام جـ ١ ص ٢٦٢ ابن خلكان جـ ١ ص ٢٣٠.
تهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ١٠ ذكر أخبار أصبهان جـ ١ ص ٢٢٤.
والكمأة جمع المتكمي في سلاحه أي المتغطي المتستر بالدرع والبيضة.
(٥) هكذا ووردت في (هـ) «ربّ مذموم».
(٦) هو الخليل بن أحمد بن عمر بن تميم، أبو عبد الرحمن الفراهيدي، ويقال الفرهودي، نسبة إلى فراهيد بن مالك بن فهم الأزدي البصري، وهو أول من استخرج العروض وضبط اللغة، وحصر أشعار العرب، قال السيرافي: كان الغاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء كما أخذ عن سيبويه، توفي سنة ١٦٠ هـ أو ١٧٠ هـ، له ترجمة في بغية الوعاة، وقيل في سبب موته إنه قال: أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى القاضي فلا يمكنه أن يظلمها فدخل المسجد وهو يعمل فكره، فصدمته سارية وهو غافل، فانصدع ومات.
الأعلام، الوفيات جـ ١ معجم الأدباء جـ ١١ ص ٧٢ - ٧٧.

للنامي، لاتّبعنا أثرهم، وإنما ننتهي إلى حيث انتهوا، وما أكثر ما تكون دلالة قولهم جماد، كدلالة قولهم موات، وقد يفترقان في بعض المواقع، وإذا أخرجت[1] من العالم الأفلاك والبروج والنجوم والشمس والقمر، وجدتها غير نامية، ولم تجدهم يسمّون شيئاً منها جماداً ولا مواتاً.

وناس يجعلونها مدبّرة غير مدبّرة[2]، ويجعلونها مسخّرة غير مسخّرة، ويجعلونها أحيا من الحيوان، إذ كان الحيوان إنما يحيا بإحيائها له، وبما تعطيه وتعيره، وإنما هذا منهم رأي، والأمم كلها على[3] خلافهم.

والناس يسمّون الأرض جماداً، وربما جعلوها مواتاً إذا كانت أنبتت قديماً[4]، وهي موتان الأرض، ومن هذا قولهم: من أحيا أرضاً مواتاً فهي له.

وهم لا يجعلون الماء والهواء جماداً ولا مواتاً، ولا يسمّونها حيواناً ما دامت كذلك، وإن كانت لا تضاف إلى النمو[5] والحس.

والأرض أحد الأركان الأربعة، التي هي الماء والهواء والنار والأرض، فهذان الاسمان لا يتعاوران عندهم إلاّ الأرض.

ثمّ النامي على قسمين: حيوان ونبات، ثم الحيوان على أربعة أقسام: شيء يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح[6]، إلاّ أن كل طائر يمشي، وليس كل من يمشي فهو طائر، والنوع الذي يمشي على أربعة أقسام: ناس، وبهائم، وسباع، وحشرات على أن الحشرات راجعة في المعنى والحقيقة إلى مشاكلة طباع البهائم والسباع، إلاّ أننا في هذا كله إنما نتبع الأسماء

---

(١) في (ط) «خرجت».

(٢) كذا في (ل)، (ش) وفي النسخ الأخرى: «وناس يجعلونها مدبرة وناس غير مدبرة» بزيادة «ناس».

(٣) في (هـ) «والأمم في هذا كله».

(٤) وردت العبارة في باقي النسخ «إذا كانت لم تنبت قديماً» هكذا.

(٥) في (هـ) «والنماء» موضع «النمو».

(٦) ينساح: يمشي على بطنه.

القائمة[1] المعروفة، الثابتات[2] بأنفسها، المتميزات عند سامعيها، من[3] أهل هذه اللغة، وإنما نفرد ما أفردوا، ونجمع ما جمعوا[4].

والطير كل سبع وبهيمة وهمج، والسباع من الطير على ضربين: فمنها العتاق والأحرار والجوارح، ومنها البغاث[5] وهو كل ما عظم من الطير: سبعاً كان أو بهيمة، إذا لم يكن من ذوات السلاح والمخالب المعقفة، كالنسور والرّخم والغربان، وأشباهها[6].

ثم الخشاش، وهو ما لطف جرمه وصغر شخصه، وكان عديم السلاح ولا يكون[7] كالزُّرَق[8] واليؤيؤ[9] والباذنجان[10].

فأما الهمج فليس من الطير، ولكنه مما يطير، قال: والهمج فيما يطير، كالحشرات فيما تمشي.

والحيّات من الحشرات، وأيّ سبع أدخل في معنى السّبعية من الأفاعي والثعابين؟ ولكن ليس ذلك من أسمائها، وإن كانت من ذوات الأنياب وآكلة[11]

---

(١) في (ط) «الفارقة».

(٢) في (هـ) «البائنات» موضع «الثابتات».

(٣) في المختصر «عند» موضع «من» والسياق يقتضي «من».

(٤) في (ط) «وإنما يفرد ما أفردوا ويجمع ما جمعوا».

(٥) في القاموس، البغاث مثلثة: طائر أغبر جمعه كغزلان، وشرار الطير.
البغث والبغثة: بياض يضرب إلى الخضرة، وقيل: بياض يضرب إلى الحمرة، الذكر أبغث والأنثى بغثاء، والأبغث طائر غلب عليه غلبة الأسماء، وأصله الصفة للونه، التهذيب: البغاث والأبغث من طير الماء كلون الرماد، طويل العنق، والجمع: البغث والأباغث، قال عباس بن مرداس:
بغاث الطير أكثرها فراخاً وأمّ الصقر مقلاة نزور
أنظر لسان العرب جـ ٢ ص ١١٨ مادة (بغث).

(٦) في (هـ) «وما أشبهها» موضع «وما أشبهه».

(٧) هذه الكلمة موجودة في المختصر بينما أزيدت في (هـ).

(٨) الزرق: طائر يصاد به، بين البازي والباشق، وفيه ختل وخبث.

(٩) البؤبؤ: من جوارح الطير يشبه الباشق.

(١٠) هنا وفي(ل) «الباذنجان» وفي(ط)، (ش)، (هـ) «البادنجار».
أنظر الحيوان جـ ٢ ص ١٨٨.

(١١) في (هـ) «وأكالة» موضع «آكلة».

اللحوم وأعداء الأنس وجميع البهائم، ولذلك تأكلها الأوعال[1] والخنازير والقنافذ والعقبان[2] والشاهمرك[3] والسنانير فمن جعل الحيّات سباعاً، وسماها بذلك عند بعض القول والسبب فقد أصاب، ومن جعل ذلك لها كالاسم الذي هو العلامة كالكلب والفهد[4] والذئب والأسد فقد أخطأ.

ومن سباع الطير شكل يكون سلاحه المخالب كالعقاب وما أشبهه[5]، وشكل[6] يكون سلاحه المناقر (كالنسور)[7] والكراكي وما أشبهه، ومنه ما يكون سلاحه الأسنان كالبوم والوطواط وما أشبهه[8]، ومنه ما يكون سلاحه الصياصي كالديكة، ومنه ما يكون سلاحه سلاح[9] كالحباري[10]والثعلب.

والسبع من الطير: ما أكل اللحم خالصاً، والبهيمة ما أكلت الحرث (وهو[11]الحب خالصاً)، وفي الفن الذي يجمعها من الخلق المركب والطبع المشترك سيأتي ذكره.

والمشترك عندهم كالعصفور، فإنه ليس بذي مخلب معقّف ولا منسر[12] وهو يلقط الحب، ومع هذا يصيد النمل[13] إذا طار، ويصيد الجراد، ويأكل

---

(١) في (ط) «الأوغال» وتصحيحه من (ل) موافقاً لما في المختصر ومن الحيوان للجاحظ.

(٢) في (ط) «الغربان».

(٣) الشاهمرك: الفتي من الدجاج قبل أن يبيض بأيام قلائل، وهو معرب شاه مرغ، ومعناه ملك الطير. الدميري جـ٢ ص٥٧

(٤) هذه الكلمة فقط من هذا الموضع في (ل) والمختصر.

(٥) في (هـ) «وما أشبهها».

(٦) في(هـ) «وشي» موضع «وشكل».

(٧) زدتها وليست في المختصر، كما في (هـ) وباقي النسخ.

(٨) في (هـ) وما أشبهها».

(٩) في(هـ) «السّلح» موضع «سلاح» والسلح والسلاح: النجو.

(١٠) في (ط) «كالجاري» والصواب «كالحباري» كما هنا و(ل)، وهي من الطيور التي سلاحها سلاحها.

(١١) في (هـ) «ما أكلت الحب خالصاً» والاختلاف بالزيادة بين العبارتين واضح.

(١٢) المنسر: كمنبر: منقار الطير.

(١٣) في (ط) «النحل» والصواب «النمل» كما في (ل) فإن النحل طائر بطبعه، وأما النمل فيعرض له الطيران حين الكبر، و«النحل» بالحاء وافق ما في المختصر.

اللحم، ولا يزق فراخه كما تزق الحمام، بل يلقمها كما تلقم[1] سباع الطير فراخها، وأشباه العصافير من المشترك كثير، سنذكره.

وليس كل ما طار بجناحين من الطير، قد يطير الجعلان والجحل واليعاسيب والذباب والعقارب[2] والجراد والنمل والفراش والبعوض والأرضة والنحل وغير ذلك ولا يسمّى بالطير، وقد يقال لها ذلك[3] عند بعض الذكر والسبب، وقد يسمون الدجاج (طيراً) ولا يسمون بذلك الجراد، والجراد أطير[4]، والمثل المضروب به أشهر، والملائكة تطير، ولها أجنحة وليست من الطير، وجعفر[5] بن أبي طالب ذو جناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء[6]، وليس جعفر من الطير.

واسم طائر يقع على ثلاثة أشياء: صورة، وطبيعة، وجناح، وليس بالريش والقوادم[7] والأباهر[8] والخوافي[9]، يسمى طائراً، ولا بعدمه يسقط ذلك عنه.

ألا ترى أن الخفّاش والوطواط من الطير، وإن كانا أمرطين ليس لهما

---

(١) في (هـ) «السباع من الطير «موضع» سباع الطير.

(٢) في(هـ) «الزنابير» موضع «العقارب».

(٣) في(هـ) «وقد يقال ذلك لها».

(٤) في (ط) «طير» والصواب ما ثبت هنا كما في (ل)، وأطير: أشد طيراناً.

(٥) هو جعفر بن أبي طالب (عبد مناف) بن عبد المطلب بن هاشم: صحابي هاشمي وهو أخو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من السابقين في الإسلام، هاجر إلى الحبشة في الهجرة الثانية، وحضر وقعة مؤتة بالبلقاء فنزل عن فرسه وقاتل ثم حمل الراية وتقدم صفوف المسلمين فقطعت يمناه ثم يسراه، فاحتضن الراية إلى صدره وصبر، حتى وقع شهيداً فقيل: إن الله عوضه عن يديه جناحين في الجنة.

الإصابة جـ ١ ص ٢٣٧ — الأعلام جـ ٢ ص ١١٨.

حلية الأولياء جـ ١ ص ١١٤ — طبقات ابن سعد جـ ٤ ص ٣٢.

(٦) في (هـ) «شاء» بلفظ الماضي.

(٧) القوادم والقدامى - كحبارى - أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح، الواحدة قادمة.

(٨) الأبهر: الجانب الأقصر من الريش، وأباهر جمعه.

(٩) الخوافي: ريشات إذا ضم الطائر جناحيه خفيت.

ريش ولا زغب ولا شكير[1] ولا قصب وهما مشهوران بالحبل[2] والولادة، وبالرضاع، وبظهور حجم الآذان وبكثرة الأسنان، والنعامة ذات ريش ومنقار وبيض وجناحين، وليست من الطير.

وليس أيضاً كل عائم سمكة، وإن كان مناسباً للسمك في كثير من معانيه، ألا ترى في الماء كلب الماء، وعنز الماء، وخنزير الماء، وفيه الرق[3] والسلحفاة، والضفادع والسرطان والبينيب[4]، والتمساح والدخس والدّلفين واللخم والبنبك[5]، وغير ذلك.

والكوسج[6] والد اللخم، وليس للكوسج أب يعرف، وعامتها يعيش في الماء ويبيت خارجاً من الماء، ويبيض في الشط، ويبيض بيضاً له صفرة، وقيض وغِرقِئٌ، وهو مع ذلك مما يكون في الماء مع السمك.

كذلك يقال في الجملة، كما يقال الصامت لما لم يصنع صمتاً قط ولا يجوز عليه خلافه والناطق لما لم يتكلم قط فيحملون ما يرغو، ويثغو، وينهق، ويصهل، ويشحج، ويخور ويبغم، ويعوي، وينبح، ويزقو، ويضغو، ويهدر،

---

(١) الزغب: الريش القصير، والشكير: صغار الريش من كبارها، والقصب: ضرب من صغار الريش.

(٢) في (هـ) «بالحمل» موضع «الحبل».

(٣) قال الدميري: بكسر الراء وبالقاف ضرب من دواب الماء يشبه التمساح، والرّقّ أيضاً العظيم من السلاحف وجمعه رقوق. أنظر جـ١.

(٤) ورد هذا الاسم محرفاً في جميع النسخ فهو في (ط) «التبتل» وفي (ل) «النبيل» وفي (ش) الثبتل» وصوابه في الدميري قال على وزن (فيعيل) سمك بحري معروف عند أهل البحر.
أنظر معجم المعلوف ص ٢٥١.

(٥) في الأصل «البلبل» والصواب في القاموس ومعجم المعلوف بالرسم «البنبك» ص٢٢٥. قال الفيروز آبادي والبنبك كقنفذ وجندل: دابة كالدلفين أو سمك يقطع الرجل نصفين فيبلعه.

(٦) الكوسج: سمكة البحر لها خرطوم كالمنشار تفترس وربما التقمت ابن آدم وقصمته نصفين وهي القرش، ويقال لها اللخم، ويقال إنها إذا صيدت بالليل وجدوا في جوفها شحمة طيبة وإن صيدت بالنهار لم يجدوها.
أنظر الدميري جـ٢ ص ٣٦٨.

ويصفر، ويُصوصي، ويقوقي وينعب، ويزأر، وينـزب[1] ويكش[2]، ويفح، على نطق الإنسان إذا جمع بعضه إلى بعض، ولذلك أشباه، كالذكور والإناث إذا اجتمعوا، وكالعير التي تسمى لطيمة وكالظعن، فإن هذه الأشياء إذا جمع بعضها إلى بعض[3]، سميت بأنبه النوعين ذكراً، وبـأقواهمـا، والفصيح هـو الإنسان، والأعجم كل ذي صـوت لا يفهم إرادته إلاّ مـا كان من جنسـه، ولعمري إنا لنفهم[4] عن الفرس والحمار والفحل[5] والسّنور والبعير، كثيراً من إرادته وقصده[6]، كـما نفهم إرادة الصبي في مهده ونعلم[7]ـ وهـو في جليل الحكم[8]ـ أن بكاءه يدل على خلاف ما يدل عليه ضحكه، وحمحمة الفرس عند رؤية المخلاة[9]، خلاف حمحمته عند رؤية الحجر، ودعاء الهرة الهر خلاف دعائها لولدها، وهذا كثير.

والإنسان فصيح، وإن عبّر عن نفسه بالفارسية أو بالهندية أو بالرومية، وليس العربي أسوأ منهما لطمطمة الرومي من الرومي لبيان العربي، فكل إنسان من هذا الوجه يقال له فصيح، فإذا قالوا: فصيح وأعجم، فليس هذا المعنى يريدون، إنما يعنون أنه لا يتكلم بالعربية، وأن العرب لا تفهم عنه.

---

(١) في (ط) «يترب» وفي (هـ) «يتزب» موافقاً لما في المختصر وهو تصحيح ما في (ل) و(ط).

(٢) الرغاء للإبل، والثغاة للشاة، والنهيق للحمير، والصهيل للخيل، والشحيج للبغال، والخوار للثيران، والبغام للظباء، والعواء للذئاب، والنباح للكلاب، والزقاء للديكة، والضغاء للسنانير، والهدير للفحول، والصفير للنسور، والصوصأة للجراء، والقوقأة للدجاج، والنعيب للغربان والبوم، والزئير للأسد، والنزيب للظباء، أو ذكورها خاصة، والكشيش للأفاعي، والعجيج: الصياح، «يفح» في (هـ) «يعج».

(٣) في (هـ) «على» موضع «إلى».

(٤) في (هـ) «انا نفهم» بدون لام موضع «إنا لنفهم».

(٥) في (هـ) «الكلب» موضع «الفحل».

(٦) في (هـ) «قصودة».

(٧) في (ط) «ونفهمه».

(٨) في (هـ) «وهو من جليل العلم» موضع «وهو في جليل الحكم».

(٩) في (ط) «الفحل» وليس بالوجه، والوجه ما في (ل) ووافق ما في المختصر وورد في (ط) زيادة «من» قبل «حمحمة».

ويقال «جاء بما صأى[١] وصمت» فالصامت مثل الذهب والفضة، وقوله صأى يعني الحيوان كله، ومعناه نطق وسكت، والصامت كل شيء[٢] سوى الحيوان.

ووجدنا كون العالم بما فيه حكمة، ووجدنا الحكمة على ضربين: شيء جعل حكمة وهو لا يعقل الحكمة ولا عاقبة الحكمة، وشيء جعل حكمة وهو يعقل الحكمة، فاستوى بذاك الشيء العاقل وغير العاقل في جهة الدلالة على أنه حكمة، واختلفا من جهة أن أحدهما دليل لا يستدل، والآخر دليل يستدل، فكل مستدل دليل وليس كل دليل مستدلاً، فشارك كل حيوان سوى الإنسان، جميع الجماد في الدلالة، وفي عدم الاستدلال[٣]، واجتمع للإنسان ان كان دليلاً مستدلاً.

ثم جعل للمستدل سبب يدلّ به على وجوه استدلاله، ووجوه ما نتج له الاستدلال وسموا ذلك بياناً.

وجعل الله[٤] البيان على أربعة أقسام: لفظ، وخط، وعقد[٥]، وإشارة وجعل بيان الدليل الذي لا يستدل تمكينه المستدل من نفسه، واقتياده كل[٦] من فكّر فيه إلى معرفة ما استخزن من البرهان، وحشي من الدلالة، وأودع من عجيب الحكمة، فالأجسام الخرس الصامتة، ناطقة من جهة الدلالة، ومعربة

---

(١) في (ط) «ضأى» بالضاد، وهو تصحيف صوابه ما في (ل)، (ش) والمختصر.

(٢) في (هـ) «فالصامت في كل شيء سوى الحيوان»، الفاء موضع الواو، وزيادة «في» قبل «كل».

(٣) في (ط) «وفي عدم الاستدلال وسموا ذلك بياناً».

(٤) في (هـ) «وجعل البيان» بالبناء للمجهول.

(٥) ذكر الجاحظ في البيان جـ ١ ص ٢٧، ٧٦، العقد وقال: إنه الحساب دون اللفظ والخط، وقد علق الجاحظ عليه أهمية كبرى إذ يقول «وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم، وفقدان جمهور المنافع»، وذلك ضرب من الحساب ربما كان شائعاً في عصره، وللبغدادي كلام في (العقد) جـ ٣ ص ١٤٧ بولاق، قال «واعلم أن العقود والعقد نوع من الحساب يكون بأصابع اليدين يقال له: حساب اليد وقد ورد منه في الحديث: وعقد عقد تسعين، وقد ألفوا فيه كتباً وأراجيز» وانظر الخزانة.

(٦) في (ط) «واقتياده فكل» وصحة العبارة هنا وما في (ل).

من جهة صحة الشهادة، على أن الذي فيها من التدبير والحكمة، مخبر لمن[1] استخبرهما، وناطق لمن استنطقهما، كما يخبر الهزال وكسوف اللون، عن سوء الحال، وكما ينطق السّمن والنضرة عن حسن الحال، قال الشاعر:

متى تك في عدوّ أو صديق   تخبرك العيون عن القلوب

وقال عنترة بن شداد[2] العبسي، يصف نعيب غراب:

حرق الجناح كأن لحييْ رأسه   جلمان بالأخبار هش مولع[3]

وقال الفضل بن عيسى بن آبان[4] في قصصه: سل الأرض، فقل: من شقّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً.

فموضوع الجسم ونصبته دليل على ما فيه وداعية إليه، ومنبهة[5] عليه، فالجماد الأبكم الأخرس من هذا الوجه، قد شارك في البيان الإنسان الحي الناطق، فمن جعل أقسام البيان خمسة، فقد ذهب أيضاً مذهباً له جواز في اللغة، وشاهد في العقل، فهذا أحد قسمي الحكمة، وأحد معنيي[6] ما استخزنها[7] الله عز[8] وجل من الوديعة.

(١) هذه الجملة وردت في المختصر مضطربة هكذا «على أن الذي فيها من التدبير والحكمة فلو كان مخبراً لمن استخبرها..... الخ» وآخر الجمل بلا جواب للشرط أثبت ما ورد في (هـ) مناسباً لسياق الحديث.

(٢) هو ابن شداد بن عمرو بن معاوية، ينتهي نسبه إلى عبس بن بغيض، شاعر جاهلي، فارس مذكور، وهو أحد أغربة العرب، وقد حمل على عنترة أشعارٌ كثيرة ليست له، ديوان الحماسة جـ ١ ص ١٣٦.

(٣) في (ط) «خرق» بالخاء وهو تصحيف، صوابه ما هنا موافقاً لما في (ل) والبيان، قال الجاحظ في البيان جـ ١ ص ٨٢: «الحرق: الأسود، شبه لحييه بالجلمين لأن الغراب يخبر بالغربة والفرقة، ويقطع كما يقطع الجلمان»، وقد ذكر ابن رشيق هذا البيت في العمدة جـ ١ ص ٢٠٢ وجعله من التشبيهات العقم، التي لم يسبق أصحابه إليها ولا تعدى أحد بعدهم عليها.

(٤) أنظر البيان جـ ١ ص ٨١.

(٥) في (ط) ومهيمنة «والوجه ما هنا وما في (ل).

(٦) في الأصل «معنى» والصواب التثنية.

(٧) في الأصل «استخزنها» والضمير راجع إلى الحكمة.

(٨) في (هـ) «تعالى» موضع «عز وجل».

والقسمة الأخرى ما أودع الله جل بناؤه صدور[1] أصناف[2] الحيوان، من ضروب المعارف، وفطرها على[3] غريب[4] الهدايات، وسخر[5] حناجرها لضروب النّغم الموزونة، والأصوات الملحّنة، والأغاني المطربة، فقد يقال إن جميع أصواتها معتدلة[6] وموزونة، ثمّ الذي سهّل لها من الرفق العجيب في الصنعة، مما ذلله لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الآلة، وكيف أعطى كثيراً منها من الحسّ اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تأديب وتثقيف، وعن غير تدريج وتمرين، فبلغت بعفوها وبمقدار قوى فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذّاق الرجال[7] وفلاسفة العلماء، بيد ولا آلة. بل لا يبلغ ذلك أكمل الناس خصالاً، لا من جهة الاقتضاب والارتجال، ولا من جهة التعسّف والاقتدار، ولا من جهة التقدم فيه، والتأني له[8]، والترتيب لمقدماته وتمكين الأسباب المعينة عليه، فصار جهد[9] الإنسان الثاقب الحسّ، الجامع القوى المتصرف في الوجوه، يعجز عن عفو كثير منها، وينظر إذا نظر إلى ضروب ما يجيء منها كما أعطيت العنكبوت، وكما أعطيت السّرفة[10]، وكما علم النحل،

(١) خلت نسخة (هـ) من هذه الجملة «الله جلّ بناؤه».
(٢) في (هـ) «صنوف» موضع «أصناف».
(٣) في (هـ) «عليها».
(٤) في (ط) «غيريب» وهو تصحيف.
(٥) سخرها: خلقها لذلك.
(٦) في (هـ) «معدّلة» موضع «معتدلة».
(٧) في (هـ) «رجال» من غير «ال».
(٨) في (هـ) «فيه» موضع «له».
(٩) في (ط) «جملة» وصوابه ما هنا و(ل).
(١٠) السرفة: بضم السين، وإسكان الراء المهملتين وبالفاء: الأرضة، قال ابن السكيت: إنها دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر، تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقاق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناموس ثم تدخل فيه وتموت، ويقال سرفت السرفة الشجرة تسرفها بالكسر سرفاً إذا أكلت ورقها فهي شجرة مسروفة.
حياة الحيوان جـ ٢ ص ٢٤ الدميري.
كتب ابن منظور في الهامش: «السرفة تأكل الشجر فإذا قرب موتها بنت لنفسها بيتاً حسناً ثم تموت فيه، وإذا أرادت أن تبيض نسجت خيوطاً من الشجرة وتبيض فيها.
اللوحة ٢/١٧.

وعرف التنوط من بديع المعرفة، ومن غريب الصنعة، في غير ذلك من أصناف الخلق، ثم لم يوجب[1] لهم العجز في أنفسهم في أكثر ذلك، إلاّ ما قوي عليه الهمج والخشاش وصغار الحشرات، [الهمج: البعوض، وبه سمي السفلة من الناس، والهمج في غير هذا: الجوع، قال الشاعر:

قـد هـلكت جـارتـنـا من الـهـمـج   وإن تجـع تـأكـل عـتـوداً أو يـدج][2]

ثم جعـل الإنسـان ذا العقـل والتمكـين[3]، والاستـطاعـة والتصريف والتجربة وصاحب الادخار[4] والمتبصّر بشأن العاقبة، متى أحسن شيئاً، كان كل شيء دونه في الغموض عليه أسهل، وجعل سائر الحيوان، وإن كان يحسن أحدها ما لا يحسن أحذق الناس متى أحسن شيئاً عجيباً، لم يمكنه أن يحسن ما هو أقرب منه في الظن، وأسهل منه في الرأي، بل لا يحسن ما هو أقرب منه في الحقيقة، فلا الإنسان جعل نفسه كذلك ولا شيء من الحيوان اختـار ذلك، فأحسنت هذه الأجناس بلا تعلم، فصار لا يحاوله إذا كان لا يطمع فيه، ولا يحسدها، إذا[5] كان لا يأمل[6] اللحاق بهـا، ثم جعل عـز وجل[7] هـاتين الحكمتين بإزاء عيون الناظرين وتجاه أسماع المعتبرين، ثم حثّ عـلى التفكير والاعتبار، والاتّعاظ والازدجار، فجعلها مذكرة ومنبهة، وجعل الفطر تنشئ الخواطر، وتجول بأهلها في المذاهب، ذلك رب العالمين سبحانه وتعالى[8].

المزاح جد إذا اجتلب لأن يكون علة للجد، والبطالة وقار، إذا تكلفت

---

(١) في (ط) و(ل) وهنا «يوجدهم» موضع «يوجب لهم» وأثبت ما في (هـ) لأنه الوجه.

(٢) هذا الجزء في هذا المكان من المختصر فقط، والعتود: الجدي بلغ السفاد، ففي (هـ) «عنوز» محرف، «واليذج» محرف فيما عدا (ل) ففي (ط) «بذخ»، (ش) «أبدح»، (هـ) «أدح».

(٣) في (ط) «ليعلم الإنسان أن ذا العقل والتمكين» ووجهه ما في (ل) لتتم المقارنة بقوله بعد «وجعل سائر الحيوان. . . . . الخ».

(٤) في (هـ) «الفهم» موضع «الادخار».

(٥) في (هـ) «إذ» موضع «إذا».

(٦) بقية النسخ «لا يؤمل».

(٧) في (هـ) «ثم جعل تعالى وعز» موضع «ثم جعل عز وجل».

(٨) في (هـ) «ذلك الله رب العالمين».

لتكون داعية للوقار، قال: ولم أرك رضيت بالطعن على كتاب لي بعينه، حتى تجاوزت ذلك وعبت وضع الكتب كيفما دارت، وكيف تصرفت[1]، وقد كنت أعجب من عيبك بعضاً بلا علم، حتى عبت كلاً بلا علم، فعبت الكتاب، وهو نعم الذخر والعقدة[2]، ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم القرين والدخيل، ونعم الوزير والنزيل، والكتاب وعاء ملئ علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً، إن شئت كان أبين من سحبان وائل[3]، وإن شئت كان أعيا من باقل[4] وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائبه[5]، وإن شئت ألهتك نوادره[6]، وإن شئت شجتك مواعظه[7]، ومن لك بواعظ مثله، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار، ومن لك بطبيب[8] أعرابي، ورومي[9] هندي، وبفارسي[10] يوناني، وبقديم

---

(١) في الأصل «تصرف».
(٢) العقدة: بضم العين: ما فيه بلاغ الرجل وكفايته.
(٣) هو سحبان بن زفر بن أياس الوائلي، من باهلة: خطيب يضرب به المثل في البيان يقال: «أخطب من سحبان» و«أنصح من سحبان» اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام، وكان إذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة، أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يجتمع به، وله شعر قليل، توفي عام ٥٤ هـ، ترجمته وأخباره في:
الأعلام جـ ٣ ص ١٢٣
تهذيب ابن عساكر جـ ٦ ص ٦٥
بلوغ الأرب للألوسي جـ ٣ ص ١٥٦.
خزانة الأدب للبغدادي جـ ٤ ص ٣٤٧.
(٤) باقل الأيادي: جاهلي، يضرب بعيه المثل، قيل: اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً فمر بقوم، فسألوه بكم اشتريته، فمد لسانه ومد يديه (يريد أحد عشر) فشرد الظبي، وكان تحت إبطه، والمثل «أعيا من باقل».
الأعلام جـ ٢ ص ٧ — مجمع الأمثال جـ ١ ص ٣٣٩.
(٥) في (هـ) «من غرائب فرائده».
(٦) في (هـ) «وإن شئت ألهتك طرائفه».
(٧) في (هـ) «أشجتك» موضع «شجتك» في المختصر.
(٨) في (ط) «يطيب» وصححته في (ل) وما هنا.
(٩) في (هـ) بتكرار «ومن لك» أول كل جملة معطوفة.
(١٠) «بفارسي» كما في (هـ)، أما المختصر فبدون باء «وفارسي يوناني».

مولد، وبميّت ممتع[١]، ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والشاهد والغائب والرفيع والوضيع، والغثّ والسمين، والشكل وخلافه والجنس وضده.

وبعد: فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن[٢]، وروضة تتقلب[٣] (في) حجر وينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء!! ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى، آمن من الأرض، واكتم للسر من صاحب السر، واضبط لحفظ الوديعة من رب الوديعة[٤]، وأحصن[٥] لما استحفظ من الآدميين، ومن الأعراب المعربين[٦]، بل من الصبيان قبل أعراض الأشغال[٧]، ومن العميان قبل التمتع بتمييز الأشخاص حين العناية تامة لم تنقص، والأذهان فارغة لم تنقسم، والإرادات[٨] وافرة لم تتشعب، والطينة لينة، فهي أقبل ما تكون للطابع[٩]، والقضيب رطب، فهو أقرب ما يكون من العلوق حين هذه الخصال لم يلبس[١٠] جديدها، ولم يفل[١١] غربها، ولم تفرق قواها، وكانت كما قال الشاعر[١٢]:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

هذا مع قولهم: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر، وقال آخر[١٣]:

---

(١) في(ط) «ممتنع» وفي المحاسن «ونجيب ممتع».
(٢) الردن: أصل الكم، ويظهر أنهم يستعملونه كذلك في الكم نفسه.
(٣) في (ط) «تقلب» وهنا «تتقلب» وفي المحاسن «تنقل» وفي (هـ) «تقل» وكلها يصح.
(٤) وردت العبارة في (هـ) هكذا «واحفظ للوديعة من أرباب الوديعة».
(٥) في (هـ) «واحفظ» موضع «واحصن» هنا.
(٦) في (ط) «المتعربين» وإنما يتعرب الأعاجم، وهو تحريف صوابه ما هنا، وفي (ل).
(٧) في (هـ) «قبل اعتراض الاشتغال».
(٨) في (هـ) «والإرادة» مفردة.
(٩) في (هـ) «الطبائع» جمع موضع «الطابع».
(١٠) في الأصل وفي (هـ) «لم يخلق» موضع «لم يلبس».
(١١) في (هـ) «يوهن» موضع «يفل».
(١٢) هو مجنون بن عامر كما في بيان الجاحظ جـ٢ ص٤٢.
(١٣) هو صالح عبد القدوس أنظر (هـ) جـ١ ص ٤٠.

وإن من أدبته في الصبى كالعود يسقى الماء في غرسه
حتى تراه مونقاً ناضراً بعد الذي قد كان في يبسه[1]

وقال ذو الرمة[2] لعيسى بن عمر[3]: أكتب شعري، فالكتاب أحب إليَّ من الحفظ لأن الأعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته، فيضع موضعها كلمة في وزنها في اللفظ[4] لا في وزنها في المعنى، ثم ينشدها[5] الناس، والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام.

قال: ولا أعلم جاراً أبر، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من عضيهة[6]، ولا أعلم قريناً أحسن موافاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر معونة، ولا أخفَّ مؤونة، ولا شجرة أطول عمراً، ولا أطيب ثمرة، ولا أحلى[7] مجتنى، ولا أسرع إدراكاً، ولا أوجد في كل إبّان، من كتاب، ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من العلوم، وآثار العقول والحكم الرفيعة، والمذاهب القديمة[8]، والتجارب، ومن الأخبار عن القرون الماضية، والأمثال السائرة، ما يجمع الكتاب، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم**

---

(١) في (هـ) «مؤرقاً» موضع «مونقاً».

(٢) في (ط) «ذو الروومة» وهذا تحريف.

(٣) عيسى بن عمر الثقفي: أبو عمر، مولى خالد بن الوليد، نزل في ثقيف فنسب إليهم، أما في النحو والعربية، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء وعبدالله بن أبي اسحاق، وروى عن الحسن البصري والعجاج ورؤبة، وعنه روى الأصمعي، ويقال إنَّ له نيفاً وسبعين مصنفاً ذهبت كلها، وكان يتقعر في كلامه، حكى عنه الجوهري في الصحاح وغيره، أنه سقط عن حمار فاجتمع إليه الناس فقال: «ما لي أراكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة؟! افرنقعوا عني».
بغية الوعاة ص ٢٧٠
الأعلام جـ ٥ ص ٢٩١.

(٤) وردت العبارة في (هـ) «فيضع في موضعها كلمة في وزنها» موضع العبارة الطويلة التي تبدأ بقوله «فيضع موضعها» إلى «في المعنى».

(٥) هنا «ينشده» بضمير المذكر الغائب وأثبت ما في (هـ) «ينشدها» للمقايسة.

(٦) العضيهة: الكذب والإفك والبهتان.

(٧) في (هـ) «أقرب» موضع «أحلى».

(٨) كما في الأصل بالدال، وفي (هـ) «القويمة» بالواو.

بالقلم﴾[1]، فوصف نفسه تعالى وعز[2]، بأن علم بالقلم، كما وصف نفسه بالكرم، واعتد بذلك في[3] نعمه العظام، وقد قالوا: القلم أحد اللسانين، وقالوا: كل من عرف النعمة في بيان اللسان، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف، ثم جعل هذا الأمر قرآناً وجعله في أول التنزيل ومستفتح الكتاب.

وأضاف: البيان التي يتعارف المعاني في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة، وإن نقصت عن بلوغ هذه الأربعة في جهاتها، فقد تبدل بالخمسة، والخصال الأربع هي: اللفظ، والخط، والإشارة، والعقد، والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة وصدق الشهادة، ووضوح البرهان، في الأجرام الجامدة، وجعل اللفظ للسامع، والإشارة للناظر، وأشرك بين الناظر واللامس في معرفة العقد، إلا بما فضل الله به نصيب الناظر في ذلك على نصيب اللامس، وجعل الخط دليلاً [له][4] على ما غاب من حوائجه عنه وسبباً موصلاً[5] بينه وبين أعوانه، وجعله خازناً لما لا يأمن نسيانه، مما قد أحصاه وحفظه، وجمعه، ولم يجعل للشام والذائق نصيباً.

وجعل الله اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً، والكتاب للنازح من الحاجات، فأما الإشارة فأقرب المفهوم منها: رفع الحواجب وكسر الأجفان وليّ الشفاه وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل، تجاه عين الناظر، ثم ينقطع عملها، وليس للعقد حظ الإشارة في بعد الغاية.

فلذلك وضع الله عز وجل القلم في المكان الرفيع، ونوّه بذكره حين قال: **﴿ن والقلم وما يسطرون﴾**[6] فأقسم بالقلم كما أقسم بما يخط القلم، إذ كان اللسان لا يتعاطى شأوه، ولا يشق غباره ولا يجري في حلبته، ولا يتكلف بعد

---

(١) سورة العلق الآيتان ٣، ٤، مكية.

(٢) في (هـ) «تبارك وتعالى» موضع «تعالى وعز» هنا.

(٣) في (هـ) «من» موضع «في».

(٤) هذه اللفظة غير موجودة في هذا الموضع في (هـ).

(٥) في (هـ) «موصولاً» موضع «موصلاً» هنا.

(٦) سورة القلم، الآية ١ ـ مكية.

غايته، ولكن[1] كما كانت حاجات الناس بالحضرة[2] أكثر من حاجتهم في سائر الأماكن، وكانت الحاجة إلى البيان باللسان حاجة دائمة، وكانت الحاجة إلى بيان القلم أمراً يكون في الغيبة وعند النائبة، إلاّ ما خصت به الدواوين، فإن لسان القلم هناك أبسط، وأثره أعم فلذلك قدموا اللسان على القلم، فاللسان الآن إنما هو في منافع اليد[3] والمرافق التي فيها، والحاجات التي تبلغها.

فمن ذلك حظها وقسطها من منافع الإشارة، ثم نصيبها في تقويم القلم، وحظها[4] في التصوير، والصناعات، والعقد، والدفع عن النفس، وإيصال الطعام والشراب إلى الفم، والمتوضئ [5] والامتساح، وانتقاد الدرهم والدنانير، ولبس الثياب، وفي الدفع عن النفس، وأصناف الرمي، والضرب، والطعن، ثم النقر بالعود وتحريك الوتر ولولا ذلك لبطل الضرب كله أو عامته، ولها ضرب الطبل والدفّ، وتحريك الصفاقتين[6] وتحريك مخارق خروق المزامير، وما في ذلك من الإطلاق والحبس، ولو لم يكن اليد[7] إلاّ إمساك العنان والزمام[8] والخطام[9]، لكان من أعظم الحظوظ.

والكتاب هو الذي قيد[10]على الناس كتب الدين، وحساب الدواوين، وهو مع خفّة نقله، وصغر حجمه، صامت ما أسكنه، وبليغ ما استنطقه، ومن لك بسامر لا يبتديك في حال شغلك، ويدعوك في أوقات نشاطك، ولا يحوجك

(١) عدا المختصر و(هـ) بدونها.

(٢) الحضر: بالتحريك والحضرة والحاضرة والحضارة بالكسر ويفتح: خلاف البادية. وحضرة الرجل: قربه وفناؤه، وكلمة بحضرة فلان وبمحضر فلان أي بمشهد منه. المختار أنظر ص ١٤١.

(٣) في (ل) «وإنما يوفي منافع اليد».

(٤) هذه الكلمة ومكرراتها هي في (ط) «خطها» وهو تصحيف أصلحت من (ل) موافقاً لما هنا.

(٥) في (هـ) «ثم التوضؤ» وفي (ط) «والتمسح».

(٦) آلة موسيقية تشبه تلك التي يستعملها أصحاب الموسيقى النحاسية: قرصين نحاسيين يضرب أحدهما بالآخر.

(٧) وردت العبارة في (هـ) هكذا «ولو لم يكن في اليد إلاّ إمساك العنان».

(٨) الزمام: الخيط الذي يشد في طرفه المقود، وقد يسمى المقود زماماً. مختار الصحاح ص ٢٧٥.

(٩) الخطام: الزمام.

(١٠)في (هـ) «يؤدي إلى» موضع «قيد على».

إلى التجمل له والتذمم منه، ومن لك بزائر إن شئت جعلت زيارته[1] غباً، ووروده خمساً، وإن شئت لزمك لزوم ظلك، وكان منك مكان بعضك.

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يغريك، والرفيق الذي لا يملك، والمستمع الذي لا يستزيدك[2]، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، ولا يحتال لك بالكذب، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجوّد بنانك، وفخّم ألفاظك، وبجّح نفسك[3]، وعمر صدرك، ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك، وعرفت به في شهر، ما لا تعرفه من أفواه الرجال في دهر، مع السلامة من الغرم، ومن كد الطلب، ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم وبالجلوس بين يدي من أنت أفضل منه خلقاً، وأكرم عرقاً، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارفة الأغبياء[4]، والكتاب هو الذي يطيعك بالليل طاعته بالنهار، ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر، ولا يعتل بنوم، ولا يعتريه كلال السهر، وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يخفرك، وإن قطعت عنه المال[5] لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت ريح أعدائك[6] لم ينقلب عليك، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب أو معتصماً بأدنى حبل، لم تضطرك معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء، ولو لم يكن من فضله عليك، إلاّ منعه لك من الجلوس على بابك، والنظر إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، ومن عادة الخوض، ومن ملابسة صغار الناس، ومن حضور ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأخلاقهم الرديّة لكان في ذلك السلامة والغنيمة، ولو لم يكن في ذلك إلاّ أنه يشغلك عن سخف

---

(١) في (هـ) «جعل» موضع «جعلت» بدون تاء المخاطب.

(٢) في (هـ) «والمستميح الذي لا يستريثك» والمستميح: طالب العرف، واستراثه: استبطاه.

(٣) البجح محركة: الفرح، وبجح به كفرح، وبجحته تبجيحاً فتبجح: أي أفرحته ففرح.

(٤) في (هـ) «ومقارنة» بالنون موضع «مقارفة» بالفا.

(٥) في (هـ) «المادّة» موضع «المال».

(٦) في (هـ) «ريح أعاديك» موضع «ريح أعدائك».

المنى واعتياد الراحة، وعن اللعب، وما أشبه اللعب، لقد كان في ذلك على صاحبه أسبغ النعمة.

وأوصى المهلب[1] بنيه فقال: يا بني لا تقوموا في الأسواق إلاّ على زرّاد أو ورّاق[2].

قال بعضهم: قرأت على شيخ كتاباً فيه مآثر غطفان فقال لي: ذهبت المكارم إلاّ من الكتب.

قال الحسن اللؤلؤي[3] غبرت أربعين عاماً ما قلت ولا بتّ، إلاّ والكتاب موضوع على صدري[4].

قال محمد بن الجهم: إذا غشيني النعاس في غير وقت النوم - وبئس الشيء النوم الفاضل[5] عن الحاجة - قال: فإذا اعتراني ذلك تناولت كتاباً من كتب الحكم، فأجد اهتزازي للفوائد، والأريحية[6] التي تعتريني عند الظفر

---

(١) المهلب بن أبي صفرة: ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد: أمير، بطاش، جواد، قال فيه عبدالله بن الزبير: هذا سيد أهل العراق، ولي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير، وفقئت عينه بسمرقند، ظفر بالأزارقة بعد قتال دام معهم تسعة عشر عاماً، شردهم في البلاد وقتل منهم الكثير، ولي خراسان ثم مات فيها، وأخباره كثيرة.

الأعلام جـ ٨ ص ٢٦٠ — الوفيات ج ٢ ص ١٤٥.

ابن الأثير جـ ٤ ص ١٨٣ — الطبري جـ ٨ ص ١٩.

(٢) الزرّاد: صانع الدروع، وهذه توصية لاستكمال أسباب الفروسية والعلم.

(٣) في (ط) «أبا الحسن اللؤلؤي» والصواب ما هنا، والحسن هذا هو ابن زياد اللؤلؤي قاض فقيه من أصحاب أبي حنيفة، أخذ عنه وسمع منه، وكان عالماً بمذهبه بالرأي وله عدة كتب في الفقه، توفي عام ٢٠٤ هـ. الأعلام جـ ٢ ص ٢٠٥.

وقد روى الجاحظ في البيان جـ ٢ ص ٣٣٠، جـ ٣ ص ٣٧٨ أن الحسن اللؤلؤي كان في بعض الليالي بالرقة يحدث المأمون، والمأمون يومئذ أمير، إذ نعس المأمون، فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ ففتح المأمون عينه وقال: سرقني والله! خذ يا غلام بيده!!

(٤) هذه العبارة إشارة على التزامه القراءة وعدم هجرها إلا وقت النعاس، وغبرت: مكثت وقال يقيل: نام وقت الظهيرة.

(٥) في (ط) «الفاصل» والصواب ما في (ل).

(٦) في الأصل «الأريحة» والوجه ما أثبت.

ببعض الحاجة، والذي يغشى قلبي من سرور الاستبانة وعز التبيين[1] أشد إيقاظاً من نهيق الحمير وهدّة الهدم.

وقال ابن الجهم: إذا استحسنت الكتاب واستجدته، ورجوت منه الفائدة، ورأيت ذلك فيه ـ فلو تراني وأنا ساعة أنظر كم بقي من ورقه مخافة استنفاده، وانقطاع المادة من قلبه، وإن كان الكتاب[2] عظيم الحجم، وكان الورق كثير العدد[3].

وقال العتبي[4] ذات يوم لابن جهم: ألا تتعجب من فلان!! نظر في كتاب الاقليدس مع جارية سلمويه[5] في يوم واحد، وساعة واحدة، فقد فرغت الجارية من الكتاب وهو بعد لم يحكم مقالة واحدة، وعلى أنه حر مخير، وتلك أمة مقصورة، وهو أحرص على قراءة الكتاب من سلمويه على تعليم

(١) كذا.
(٢) في (هـ) «المصحف» موضع «الكتاب».
(٣) موضع هذه العبارة نجد في (هـ) «وإن كان المصحف عظيم الحجم كثير الورق، كثير العدد».
(٤) في (ل) «القيني» وهو تصحيف ما في (ط) موافقاً لما هنا، وقد اشتهر بهذا اللقب ثلاثة رجال أحدهم محمد بن أحمد بن عبد العزيز الأموي القرطبي الأندلسي وكان قاضياً وتوفي سنة ٢٥٤ هـ، وثانيهم محمد بن عبد الجبار العتبي أبو نصر، مؤرخ من الكتاب الشعراء، أصله من الري ونشأ في خراسان ثم استوطن نيسابور وانتهت إليه رياسة الإنشاء في خراسان والعراق وتوفي سنة ٤٢٧ هـ، وثالثهم هذا الذي يعنيه الجاحظ وهو محمد بن عبدالله من بني عتبة بن أبي سفيان: أديب كثير الأخبار، حسن الشعر من أهل البصرة، ووفاته فيها سنة ٢٢٨ هـ، له تصانيف، منها «أشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن» و «الأخلاق»، قال ابن النديم: كان العتبي وأبوه سيدين أديبين فصيحين.
الأعلام جـ ٧ ص ١٣٩، الفهرست لابن النديم جـ ١ ص ١٢١
وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٢٢ شذرات الذهب جـ ٢ ص ٦٥.
تاريخ بغداد جـ ٢ ص ٣٢٤.
(٥) هو سلمويه بن بنان طبيب فاضل، خدم المعتصم واختص به حتى أن المعتصم لما مات سلمويه قال «سألحق به، لأنه كان يمسك حياتي ويدير جسمي» وكان سلمويه قد اكتسب من خدمة الخلفاء سياسة اقترنت بعقله، فحدث له منها حسن الرأي والنظر في العواقب لنفسه ولغيره ممن يستنصحه، وتوفي سنة ٢٢٥ هـ.
الأعلام جـ ٣ ص ١٧٣ القفطي ص ١٤١.

جارية، قال ابن الجهم: قد كنت أظن أنه لا يفهم شكلاً واحداً وأراك تزعم أنه قد فرغ من مقالة!! قال العتبي: كيف ظننت به هذا الظن، وهو رجل ذو لسان؟ قال: لأني سمعته يقول لابنه: كم أنفقت على كتاب كذا وكذا؟ قال: أنفقت عليه كذا وكذا[١]، قال: أنا[٢] إنما رغبتي[٣] في العلم أني ظننت أني أنفق قليلاً وأكتسب كثيراً، فأما إذ صرت أنفق الكثير، وليس في يدي إلاّ المواعيد، فإني لا أريد العلم.

والإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه، ولا بد من أن تصير[٤] كتبه أكثر من سماعه ولا يعلم، ولا يجمع العلم، ولا يختلف حتى يكون الإنفاق عليه من ماله، ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوه، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب، ألذّ عنده من إنفاق العشاق على[٥] القيان، والمستهترين بالشراب[٦]، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضياً، وليس ينتفع بإنفاقه، حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله، وحتى يؤمّل في العلم ما يؤمّل الأعرابي من فرسه.

قال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، فكنت أكتب بعضاً وأدع بعضاً، فقال لي: أكتب كل ما تسمع، فإن أخسّ ما تسمع خير من مكانه أبيض[٧].

وقال الخليل بن أحمد: تكثّر من العلم لتعرف، وتقلل منه لتحفظ، وقال أبو إسحاق: القليل والكثير للكتب، والقليل وحده للصدر.

---

(١) في (هـ) «كذا» بدون تكرار اللفظ «كذا».

(٢) «أنا» غير مذكورة في (هـ) ثابتة في المختصر.

(٣) في الأصل «رغبتني».

(٤) في (هـ) «تكون» موضع «تصير».

(٥) وردت العبارة في (هـ) هكذا «من إنفاق عشاق القيان».

(٦) موضع «بالشراب» في (هـ) «بالبنيان» والمستهتر: المولع بالشيء المنهمك فيه، وفي(ط) «ألذ عنده من عشق القيان، وإنفاق المستهزئين بالبيان» وهي عبارة مضطربة.

(٧) هذا ما في (ل)، ويطابقه ما هنا وما في المحاسن والمساوئ جـ ١ ص ٩، وفي سائر النسخ «فإن مكان ما تسمع أسود خير من مكانه أبيض»، لكن في (ط) «من مكان».

قال ابن يسير[١]:

أما لو أعي كلّ ما أسمع وأحفظ من ذاك ما أجمع
ولم أستفد غير ما قد جمعت لقيل هو العالم المصقع[٢]
ولكنّ نفسي إلى كلّ نوع من العلم تسمعه تنزع
فلا أنا أحفظ ما قد جمعت ولا أنا من جمعه أشبع
فمن يك في علمه هكذا يكن دهره القهقرى يرجع
إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك للكتب لا ينفع

قال أبو إسحاق: كلّف ابن يسير الكتب ما ليس عليها، إن الكتب لا تحيي الموتى، ولا تحوّل الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً، ولكنّ الطبيعة إذا كان فيها أدنى قبول، فالكتب تشحذ وتفتق، وترهف وتشفي، فينبغي لأهله أن يداووه! فإن ذلك إنما تصوّر له بشيء اعتراه!! ومن[٣] كان ذكياً حافظاً فليقصد إلى شيئين أو[٤] ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على مسامعه[٥] وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف، فيكون عالماً بخواصّ، ويكون غير غفل من سائر ما يجري فيه الناس ويخوضون فيه، ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئاً، إلاّ نسي ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد.

---

(١) هو محمد بن يسير الرياشي: يقال إنه مولى لبني رياش، الذين منهم العباس بن الفرج الرياشي الأخباري الأديب، وكان شاعراً ظريفاً من شعراء المحدثين، متقللاً لم يفارق البصرة، ولا رفد إلى خليفة ولا شريف منتجعاً، ولا تجاوز بلده، وكان ماجناً هجاء خبيثاً، وكان من بخلاء الناس.
الأغاني جـ ١٢ ص ١٢٤ ـ ١٢٦، والشعر نسبه الجاحظ في المحاسن ص ٨ إلى الأصمعي ولكنه هنا يؤكد ـ بتعقيبه للشعر ـ أنه لابن يسير، وهو بدون نسبة في المحاسن والمساوئ جـ ١ ص ٩.

(٢) في الأصل «خير ما قد جمعت» والصواب ما هنا.

(٣) في (هـ) «فمن» بالفاء بدلاً من «ومن» بالواو.

(٤) في (هـ) «إلى» موضع «أو».

(٥) في (هـ) «على مسمعه» بالإفراد.

قال موسى بن يحيى: ما كان في خزانة كتب يحيى، وفي بيت مدارسه[١] كتاب إلاّ وله ثلاث نسخ.

قال أبو عمرو بن العلاء: قيل لنا انّ في دار فلان جماعة[٢] قد اشتركوا على سوءة، وهم جلوس على خميرة لهم[٣]، وعندهم طنبور، فدمرنا[٤] عليهم في جماعة من رجال الحي، وإذا[٥] فتى جالس في وسط الدار، وأصحابه حوله، وإذا هم بيض اللحى، وهو يقرأ عليهم دفتر شعر، فقال الذي سعى بهم: السوءة في ذلك البيت، وإن دخلتموه عثرتم بها[٦]! قال: قلت: والله لا أكشف[٧] فتى أصحابه شيوخ، وفي يده دفتر علم، ولو كان في ثوبه دم قتيل[٨].

أنشد رجل يونس[٩] النحوي قوله:

استودع العلم قرطاساً فضيّعه   فبئس مستودع العلم القراطيس

---

(١) في (ل) «مدراسه» وكذلك هنا في المختصر وهو تحريف صوابه في (ط)، والمدارس: جمع مدرس كمنبر، وهو الكتاب، وأما المدراس فهو الموضع الذي يقرأ فيه القرآن ومنه قالوا: مدراس اليهود، فالوجه ما أثبته من (ط).

(٢) في (هـ) «ناساً» موضع «جماعة».

(٣) في (ط) «على خيرة» وما هنا مطابق لما في (ل)، (س)، فإن ضبطت بضم الخاء كان معناها الخمر (بعد تصغيرها) وإن ضبطت بفتح الخاء كان المراد بها. الحصيرة الصغيرة من السعف، ولكل وجه.
أنظر ثمار القلوب ص ٤٧   الأغاني جـ ٧ ص ١٧٥.

(٤) هذا صواب «فذمرنا عليهم» الثابتة في (ل) والمختصر، أي دخلنا بغير إذن. وفي (هـ) «فتسورنا عليهم. أنظر اللسان (دمر).

(٥) في (هـ) «فإذا» بالفاء.

(٦) في (هـ) «عليها» موضع «بها»، والأنسب ما في المختصر.

(٧) أثبت ما في (هـ) موضع «كشفت» التي كانت بالمختصر.

(٨) العبارة في (هـ) «ولو كان في ثوبه دم يحيى بن زكريا».

(٩) هو يونس بن حبيب، أبو عبد الرحمن الضبي وقيل: الليثي بالولاء، امام نحاة البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات، سمع من العرب كما سمع من قبله، أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عنه سيبويه وأبو الحسن الكسائي، والفراء، وأبو عبيدة، وخلف الأحمر، وكان له في العربية مذاهب راقية ينفرد بها، ترجم له في طبقات المفسرين وفي كتاب بغية الوعاة، كان مولده سنة ٨٠ هـ ومات سنة ١٨٢ هـ عن ١٠٢ سنة.
معجم الأدباء جـ ٢٠ ص ٦٢.

قال يونس: قاتله الله، ما أشد فطانته بالعلم، وأحسن صيانته له، إن علمك من روحك، ومالك من بدنك، فضعه منك مكان الروح، وضع مالك بمكان البدن!!

قيل لابن داحة - واخرج كتاب أبي الشمقمق، فإذا هو في جلود كوفيّة ودفّتين طائفيّتين[١]، وبخط[٢] عجيب - فقيل له: لقد ضيّع من تجرّد بشعر أبي الشمقمق[٣]! قال: لا جرم!! إن العلم ليعطيكم على حساب ما تعطونه ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي، وأجعله مخطوطاً[٤] على ناظري، لفعلت.

كان عبدالله بن عبد العزيز بن عبدالله بن عمر بن الخطاب، لا يجالس الناس، ونزل[٥] في مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلاّ وفي يده كتاب يقرأه فسئل عن ذلك، وعن نزوله في[٦] المقبرة فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أمتع[٧] من كتاب، ولا أسلم من الوحدة، قيل له: فقد جاء في الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل.

وضروب من الخطوط تدلّ على قدر منفعة الخط، قال الله عزّ وجل: **﴿كراماً كاتبين، يعلمون ما تفعلون﴾**[٨]، وقال تبارك وتعالى **﴿في صحف مكرمة، مرفوعة مطهّرة﴾**[٩]، وقال عز وجل **﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾**[١٠].

ولو لم تكتب أعمالهم لكانت محفوظة لا يدخل ذلك الحفظ نسيان، ولكنه

---

(١) في (ط) «طائفيين» والصواب ما في (ل)، نسبة إلى الطائف.
(٢) في (هـ) «بخط» بدون واو، وهنا «وبخط».
(٣) العبارة في (هـ) «لقد أضيع من تجود بشعر أبي الشمقمق!»، وفي (ل) «لشعر» باللام بدل الباء.
(٤) في (هـ) «محفوظاً» بدلاً من «مخطوطاً».
(٥) في (هـ) «وينزل» موضع «ونزل» هنا.
(٦) في (هـ) «ينزل المقبرة» موضع نزوله في المقبرة».
(٧) في (ط)، (هـ) «أمنع» بالنون وصوابه «أمتع» بالتاء كما أثبت.
(٨) سورة الانفطار الأيتان ١١، ١٢ مكية.
(٩) سورة عبس الأيتان ١٣، ١٤ مكية.
(١٠) سورة الإسراء، الآية ١٤

علم سبحانه وتعالى أن كتاب المحفوظ ونسخة، أوكد وأبلغ من الإنذار والتحذير، وأهيب في الصدور.

وخط الحازي والعرّاف[1] والزاجر، وكان فيهم حليس[2] الخطاط الأسدي قال الشاعر يهجوهم:

فأنتم عضاريط الخميس إذا غزوا   غناؤكم تلك الأخاطيط في الترب[3]

وخطوط أخر، تكون مستراحاً للأسير والمهموم، كما يعتري المنادم من قرع السن، والغضبان من تصفيق اليد وتجحيظ العين، قال تأبّط شراً:[4]

لتقرعنّ عليّ السنّ من ندم   إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

وفي خط الحزين في الأرض قول ذي الرّمّة[5]:

عشية مالي حيلة غير أنني   بلقط الحصى والخط في الدار مولع[6]
أخط وأمحو الخط ثم أعيده   بكفّي والغربان في الدار وقّع

(١) في (ط) «الحادي والقراف» وتحقيقه من (ل)، والحازي: صاحب الكهانة في العرب، والعراف: الكاهن أو الطبيب.

(٢) كذا في (ش): ورسائل الجاحظ طبع الساسي ص ١٣٠، وورد في (ل) برسم «حليس»، وفي (ط) برسم «جلس».

(٣) العضاريط: جمع عضرط كقنفذ، وعضارط كعلابط، وعضروط كعصفور، قال في القاموس «هو الخادم على طعام بطنه، والأجير، واللئيم»، والشعر لأبي نواس في ديوانه ص ١٥٩ يهجو به تميماً وأسداً.

(٤) هو ثابت وكنيته أبو زهير، وهو من بني فهم، وفهم وعدوان أخوان، وكان أحد العدائين، وإنما لقب بهذا اللقب، لأنه تأبط سكيناً ذات يوم وخرج، فسئلت عنه أمه فقالت: لا أدري إنه تأبط شراً وخرج، وقيل غير ذلك، وله قصة مع بني لحيان بن هزيل
ديوان الحماسة جـ ١ ص ١٧ تعليق التبريزي.

(٥) قال الثعالبي في الثمار ص ٢١٤ «أبنا عيان ضرب من الزجر» وهو أن يخط الناظر في أمر بأصبعه، ثم بأصبع أخرى ويقول: أبنا عيان! أسرعا البيان!! ثم يخبر بما يرى وهو مشتق من قولك: أرياني ما أريد عياناً، هذا معنى قول ذي الرمة:
عشية ما لي حيلة غير أنني   بلقط الحصى والخط في الدار مولع
أنظر العقد جـ ٦ ص ١٤٩.

(٦) في الثمار كما هنا «بلقط» وكذلك في (هـ) «بالقاف» بدل «الفاء»، وفي الأصل «بلفظ» وانظر تفسير الجاحظ الآتي ص ٤٢ من التحقيق.

وذكر النابغة صنيع النساء، وفزعهن إلى ذلك، إذا سبين واغترين وفكّرن فقال:

ويخططن بـالعيـدان في كـل منـزل ويخبـأن رمّـان الثـدي النـواهـد

وقد يفزع إلى ذلك المخجل والمتعلل، كما يفزع إليه المهموم قال القاسم ابن أمية بن أبي الصّلت:

لا ينقـرون الأرض عنـد سؤالهـم لتـلمس العـلات بـالعيـدان[1]

وذكر الحزين[2] الكناني، وذكر رجلاً سألوه[3] حاجة فاعتراه العبث بأسنانه فقال:

وآض بـكـفّـه يحـتـك ضرسـا يـريـنـا أنـه وجـع بضرس

وربما اعترى هؤلاء عدّ الحصى، إذا كانوا في موضع حصى، ولم يكونوا في موضع تراب، وهو قول امرىء القيس[4]:

ظللت بـردائي فـوق رأسي قـاعـداً أعـد الحصى مـا تـنـقضي حسراتي

وقال الآخر، يصف امرأة قتل زوجها، فهي محزونة تلقط الحصى:

وبيضـاء مكسـال كـأنّ وشـاحهـا عـلى أمّ أحـوى المقلتـين خـذول[5]

---

(١) في (ط) «ينكثون» وهو تصحيف، وفي (ش) «ينكتون» وفي (ل) وكذلك عيون الأخبار جـ ٣ ص ١٥٢ ومعجم المرزباني ص ٣٣٢، «لا ينقرون» وفي (هـ) كذلك موافقاً لما هنا، وانظر مجالس ثعلب ص ١٧٣، والعمدة جـ ٢ ص ٢٣٦، لباب الآداب ص ٢٥٧.

(٢) في (هـ) نسب البيت إلى «الحارث بن الكندي».

(٣) في (هـ) «سأله» موضع «سألوه».

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، وكان أبوه ملك أسد وغطفان، قتل أبوه وبلغه الخبر وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبي! ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر غداً! اليوم خمر وغداً أمر! وثأر لأبيه بعد، ثم طورد ولجأ إلى السموأل فأجاره، ويعرف بالملك الضليل، وذي القروح، وأخباره في الكتب كثيرة.

الأعلام جـ ١ ص ٣٥١ — تهذيب ابن عساكر جـ ٣ ص ١٠٤.

الشعر والشعراء ص ٣٦ — خزانة الأدب للبغدادي جـ ١ ص ١٦٠.

(٥) في (ط) «المقتلين» وهو تصحيف، وأحوى المقلتين يعني به الظبي، والخذول من وصف أمه، =

عقلت لهـا من زوجهـا عـدد الحصى   مـع الصبح أو في جنح كـل أصيـل

يقول: لم أعطها عقلاً، ولم أورثها إلاّ الهمّ الذي دعاها إلى لقط الحصى يخبر أنه لمنعته، لا يوصل منه إلى عقل ولا قود.

ومما قيل في الخط، قول «المقنع الكندي»[1]، يمدح الوليد بن يزيد:

كـالخط في كتب الـغـلام أجـاده[2]   بمـداده، وأسـدَّ من اقـلامـه[3]
قـلم كخـرطـوم الحـمامـة مـائـل   مـسـتـحـفظ لـلعـلم مـن عـلامـه
يـسم الحـروف إذا يـشـاء بنـاءهـا   لـبـيـانها بـالـنقط مـن أرسـامـه
من صـوفـة نفث المـداد سخـامـه   فـيهـا فـغـيّر لـونها بسـخـامـه[4]
يحفى فـيقـصم مـن شعيـرة أنفـه[5]   كقـلامـة الأظفـور من أقـلامـه[6]
وبـأنفـه شق تـلاءم فـاسـتـوى   سـقـى المـداد، فـزاد في تـلآمـه
مستعجم وهـو الفصيـح بكـل مـا[7]   نـطق اللسـان بـه عـلى استعجـامه
ولـه تـراجـمـة بـألـسـنـة لهـم   تـبيـان مـا يـتلون مـن تـرجـامـه

= وهي التي خذلت أصحابها فانفردت عنهم قائمة على ولدها، فهي ولهة فزعة على خشفها، وهي تمد عنقها وترتاع، وذلك أحسن لها.

(١) المقنّع لقب غلب عليه، واسمه محمد بن ظفر بن عمير ينتهي نسبه إلى كندة بن عفير وإنما لقب بالمقنع لأنه كان أجمل الناس وجهاً، وكان إذا حسر اللثام عن وجهه أصابته العين ويلحقه عنت ومشقة، فكان لا يمشي إلا مقنعاً، وهو شاعر مقل من شعراء الإسلام في عهد بني أمية، وكان له محل وشرف ومروءة في عشيرته، وكان سمح اليد بماله، ذكروا أن عبد الملك بن مروان قال ذات يوم: أي الشعراء أفضل؟ فقال: كثير بن هراسة، يعرض ببخل عبد الملك: أفضلهم المقنع الكندي حيث يقول:

إني أحـرض أهـل الـبـخـل كـلهـم   لـو كـان ينفـع أهـل البخـل تحـريضي
مـا قـلّ مـالي إلاّ زادني كـرمـاً   حـتى يـكـون بـرزق الله تـعـويضي

راجع الأغاني وديوان الحماسة جـ٢ ص ٣٠، الشعر والشعراء جـ٢ ص ٧٣٩.

(٢) في (ط) «كتف» وفي (ل) «كف» والوجه ما ثبت هنا موافقاً لما في (ش).

(٣) في (ط) «بمراده» وهو تصحيف.

(٤) في (هـ) «حتى تغير» موضع «فيها فغيّر».

(٥) في (ط) «يخفى» وإنما هو «يحفى» بالحاء كما هنا و(ل)، أي يرق سنه وهو مأخوذ من حفا القدم والخف والحافر.

(٦) في (هـ) «قلامه» موضع «أقلامه».

(٧) في (ط) «متعجم» وأثبت الوجه موافقاً لما في (ل)، واستعجم: سكت.

مـا خطّ مــن شيء بــه كـتـابــه ... مـا أن يبـوح بــه عــلى استكتــامــه
وهــجــاؤه قــاف ولام بــعــدهــا ... مــيـم مــعــلـقــة بــأســفــل لامــه

وقال الحسن بن جماعة الجذامي[١] في الخط:

إلــيــك بسري بــات يــرقــل عــالم ... أصم الصدى محروف السّن طائع[٢]
بصـــير بمــا يــوحى إليــه ومــا لــه ... لـســان ولا أذن بهــا ســامــع[٣]
كــأن ضـــمــير الـقــلب بــاح بسرّه ... لــديه، إذا مــا حثحثتـه الأصــابـع
لــه ريـــقــة مــن غــير فــرث تمــدّه ... ولا من ضلوع ضمنتهـا الأضـالــع[٤]

وكانوا يجعلون الكتاب نقراً في الصخور[٥] ونقشاً في الحجـارة، وخلقة مركبة في البنيان، فربما كان الكتاب هو النـاتئ، وربما كان الكتاب هو الحفر، إذا كان تاريخاً لأمر جسيم، أو عهداً لأمر عظيم، أو موعظة يرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان[٦]، وعـلى عمود مأرب[٧]، وعلى ركن المشقّر[٨]، وعلى أبلق الفرد[٩]، وعلى غيرها، يعمدون إلى المواضع المشهورة ويضعون الخط في أبعد المواضـع من الدّثـور، وأمنعها من الدروس، وأجدر أن يراها من مرّ بها، ولا تنسى على وجه الدهر.

ولولا الخطوط لبطلت العهود والشروط والسجلات، وكلّ إقطاع، وكلّ

---

(١) كذا في (ل)، (ش)، (هـ)، وقد ورد «جماعة» بالخاء في (ط).
(٢) في (ط) إليك سري» وتصحيحه من (ش)، الصدى: جسد الآدمي بعد موته فهو بذلك يعني أن القلم عجيب في وعيه للسر مع صممه، والصدى أيضاً: رجع الصوت فكأن القلم ينطق في القرطاس، دون أن يبين صدى صوته.
(٣) وردت العبارة في (هـ) «ولا أذن بها هو سامع» وأثبتها موضع «ولا أذن بما هو سامع».
(٤) هنا كما في (ل)، (ش) «ضمنتها» وفي (هـ) «صفّقتها».
(٥) في (هـ) «حفرا» موضع «نقرا»، ونقر الشيء: ثقبه بالمنقار، وبابه نصر.
(٦) غمدان: قصر بين صنعاء وطيوة، واختلف في اسم بانيه، أنظر معجم البلدان.
(٧) مأرب: بين صنعاء وحضرموت من بلاد اليمن.
(٨) المشقّر: حصن كان بالبحرين، وفي (ط) «الركن المشقر» والوجه ما هنا كما في (ل).
(٩) قال ياقوت: هو حصن السموءل بين عادياء، مشرف على تيماء، بين الحجاز والشام على رابية من تراب، فيه آثار أبنية من لبن، لا تدل على ما يحكى عنها من العظمة والحصانة، وهو خراب وفي (هـ) «الأبلق الفرد».

أمان، وكلّ عهد، وكلّ جوار وحلف، ولتعظيم ذلك، وللثقة به، كانوا في الجاهلية يدعون من يكتب لهم ذكر حق الحلف والهدنة[١]، تبعيداً لـه من النسيان، ولذلك قال الحارث بن حلزة[٢] في شأن بكر وتغلب:

واذكروا حلف ذي المجاز وما قـ ـدم فيه العهود والكفلاء[٣]
حذر الجور والتعدي، ولا ينـ ـقض ما في المهارق الأهواء[٤]!

والمهارق: ليس يراد بها الصحف والكتب، ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كتب دين أو كتب عهود، وميثاق، وأمان.

وليس بين الرقوم والخطوط فرق، ولولا الرقوم لهلك أصحاب الساج والبز والغزول وعامة المتاجر، وليس بين الوسوم[٥] التي تكون على الحافر كله والخف كله والظلف كله وبين الرقوم فرق، ولا بين العقود والخطوط[٦] كلها فرق، وكلها كتاب، أو في معنى الخط والكتاب، ولا بين الحروف المجموعة والمصورة من الصوت المقطع في الهواء ومن الحروف المجموعة المصورة من السواد في القرطاس فرق.

واللسان: يصنع في جوفة[٧] الفم وخارجه، وفي لهاته، وباطن أسنانه مثل ما يصنع القلم في المداد والليقة والهواء والقرطاس، وكلها صور، وعلامات وخلق مواثل ودلالات، فيعرف ما كان منها مصوراً من تلك الصور لكثرة ترادها على الأسماع[٨] ويعرف ما كان منها صورة من الألوان لطول

(١) العبارة في المختصر بزيادة «حق» قبل كلمة «الحلف»، و(هـ) خالية منها.
(٢) سبقت ترجمته، م. سنة ٥٠ ق.هـ الأعلام جـ٢ ص ١٥٥.
(٣) البيتان من معلقة الحارث المشهورة، التي مطلعها:
آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء
سبق الحديث عنه في ترجمة سابقة، وقد رواهما الجاحظ في البيان جـ٣ ص ٧.
(٤) في (هـ) «وهل» موضع «ولا».
(٥) في الأصل «الرسوم» بالراء وهنا «الوشوم» بالشين وأثبت ما في (هـ) «الوسوم» جمع وسم.
(٦) اختصار العبارة الواردة في بقية النسخ «ولا بين العقود والرقوم فرق، ولا بين الخطوط والرقوم كلها فرق».
(٧) في (هـ) «جوبة» وبقية النسخ ما عدا (ل) «جوية» وأثبت ما في المختصر «جوفة».
(٨) كذا في (ل) ووردت محرفة في (ط) برسم «الأسماء».

تكرارها على الأبصار، كما استدلوا بالضحك على السرور، وبالبكاء على الألم، وعلى مثل ذلك عرفوا معاني ضروب صور الإشارات وصور جميع الهيئات، كما عرف المجنون لقبه، والكلب اسمه، وعلى مثل ذلك فهم الصبي الزجر والإغراء، وردع[1] المجنون الوعيد والتهديد، ومثل[2] ذلك إذا اشتدّ حضر الدابة من[3] رفع الصوت، (نعم)[4] إذا رأى سائسه حمحم، وإذا رأى الحمام القيم عليه انحطّ للقط الحب، قبل أن يلقى له ما يلقطه، ولولا الرسوم[5] ونقوش الخواتم، لدخل على الأموال الخلل، وعلى خزائن الناس الضرر.

وليس في الأرض أمة بها طرق[6] أو لها مسكة، ولا جيل لهم قبض وبسط إلاّ ولهم خط، فأمّا أصحاب الملك والمملكة، والسلطان والجباية، والديانة والعبادة فهناك الكتاب المتقن، والحساب المحكم، ولا يخرج الخط من الجزم والمسند[7]، ويقال: [و] السمون[8] كيف كان ذلك.

قال أبو عبيدة: كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها، وحصر[9] مناقبها، على ضرب من الضروب.

فكانت العرب في جاهليتها تحتال في خليدها، بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون، والكلام المقفّى، وكان ذلك هو ديوانها، وعلى أن الشعر يفيد

---

(١) في (ل) «وودع المخفوق الوعيد والتهدد» وفي (ط) «وردع المجنون الوعيد والتهدد»، أما كلمة «المخفوق» فواضحة التحريف وكذلك «ودّع» كما في (ط)، والمجنون يردع ولا يعي.

(٢) في (هـ) «وبمثل ذلك».

(٣) في (هـ) «مع» موضع «من» هنا.

(٤) «نعم» في المختصر زائدة.

(٥) هنا كما في الأصل «الرسوم» وفي (هـ) «الوسوم» بالواو وكلاهما صحيح فكما يكون الوسم على الخاتم، كذلك يكون الرسم، والرسم وسم، والوسم: العلامة.

(٦) الطرق: القوة هنا.

(٧) «كتابة بالحميرية» تعليق ابن منظور في الهامش وجه ٢ ورقة ٢٥.

(٨) بدله في (ط)، (ش) «كذا» ويبدو أنها من النساخ، وأتيت بالواو لحاجة الكلام إليها. أنظر رسائل الجاحظ ص ١٣٨ ساسي.

(٩) في (هـ) «وتحصين» موقع «حصر» والثانية هي الوجه، لأن استبقاء المآثر يقتضي التحصين وهذا من ناحية الكيف، أما الحصر فمن ناحية الكم وليس بعد الاستبقاء إلاّ حصرها أي إحاطتها حتى لا تندثر.

فضيلة البيان، على الشاعر والراغب والمادح، وفضيلة المأثرة، وعلى السيّد المرغوب إليه، الممدوح، وذهبت العجم على أن تقيّد مآثرها بالبنيان، فبنوا مثل بيضاء اصطخر، وحضر[1] المدائن، والمدن والحضور[2]، والقناطر والجسور، والنواويس ثم أن العرب أحبّت أن تشارك العجم في البنيان[3]، فتنفرد بالشعر، فبنوا غمدان، وقصر شعوب[4]، وكعبة نجران، وقصر مارد، وقصر مأرب، والأبلق الفرد، وفي الأبلق[5] ومارد، قالوا: «تمرّد مارد وعزّ الأبلق».

قالوا: وكتب الحكماء وما دوّنت العلماء من صنوف البلاغات والصناعات، والآداب أبقى ذكراً وأرفع قدراً وأكثر ردًّا، لأن الحكمة أنفع لمن ورثها، من جهة الانتفاع بها وأحسن من الأحدوثة، لمن أحب الذكر الجميل.

والكتب بذلك أولى من البنيان بالحجارة وحيطان المدر، لأن من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم، وأن يميتوا ذكر أعدائهم، وقد هدموا بهذا السبب أكثر المدن وأكثر الحصون، وكذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام، كما هدم عثمان صومعة غمدان، والآطام[6] التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر[7]، وكما هدم أصحابنا بناء مدن الشام[8] لبني مروان.

---

(١) في (هـ) «وبيضاء المدائن» موضع «حضر المدائن».

(٢) في (هـ) «والحصون» موضع «الحضور»، والحضور: جمع حضر خلاف البدو.

(٣) في (هـ) «البناء» موضع «البنيان».

(٤) شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع، كذا قال ياقوت.

(٥) صاحبة هذا القول هي الزباء، فيما روى ياقوت في رسم «مارد»، قال في مارد «حصن بدومة الجندل، وفيه وفي الأبلق قالت الزباء، وقد غزتهما، فامتنعا عليها: تمرد مارد وعز الأبلق. فصارت مثلاً لكل عزيز ممتنع.

(٦) الآطام: جمع أطم بضمة وبضمتين وهو القصر، أو الحصن المبني بالحجارة، أو كل بيت مربع مسطح.

(٧) هو عبدالله بن عامر بن كرز بن حبيب بن ربيعة، أمير فاتح، ولد بمكة وولي البصرة في أيام عثمان، وافتتح سجستان صلحا ومدناً كثيرة في الشرق، وكان شجاعاً سخياً، وصولاً لقومه، رحيماً محباً للعمران، وتوفي سنة ٥٩ هـ، ولما بلغ نبأ وفاته معاوية قال: يرحم الله أبا عبد الرحمن، بمن نفاخر ونباهي؟.
أنظر الجهشياري ص١٤٨.

(٨) في (هـ) «الشامات» موضع «الشام» والشامات فسرها ابن عبد ربه في العقد جـ٦ ص ٢٥١ - =

وأما الشعر فحديث الميلاد، قريب[١] السّن، أول من سهّل طريقه[٢] امرؤ القيس[٣] بن حجر، ومهلهل بن ربيعة، وكتب أرسطاطاليس، ومعلمه أفلاطون ثم بطليموس، وديمقراط[٤]، وغيرهم قبل بدء الشعر بالدهور قبل الدهور[٥] والأحقاب قبل الأحقاب، ويدل على حداثة الشعر، قول امرئ القيس ابن حجر:

إن بني عوف ابتنوا حسناً ... ضيّعه الدّخللون إذ غدروا[٦]
أدّوا إلى جارهم خفارته ... ولم يضع بالمغيب من نصروا[٧]
لا حميري وفى ولا عدس ... ولا است عير يحكها الثّفر[٨]
لكن عوير وفى بذمّته ... لا قصر عابه ولا عور[٩]

فانظر: كم كان بين ذلك وبين مولد النبي ﷺ[١٠]؟ فإذا استظهرنا الشعر، وجدنا له ـ إلى أن جاء الله بالإسلام ـ خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام[١١].

= ٢٥٢ بأنها خمس: فلسطين ومدينتها بيت المقدس، والأردن ومدينتها طبرية، والغوطة ومدينتها دمشق، وحمص، وقنسرين ومدينتها حلب.

(١) في (هـ) «صغير» موضع «قريب» وكلاهما يدل على أنه متأخر في الظهور.

(٢) في (هـ) «وسهل الطريق إليه».

(٣) سبقت ترجمته ص ٣٩.

(٤) في (ط) «ذي بقراط»، (هـ) «ديمقراطس» كما في (ل)، وهنا «ديمقراط» اختصار الاسم. أنظر القفطي (حرف الدال المهملة ثم حرف الذال المعجمة).

(٥) في الأصل «وقبل الدهور».

(٦) جاءت «حسناً» بالنون في الأصل، ويظهر أنه تصحيح ما في الديوان ص ١٥٩، والمراد به المعروف والجميل، والدّخلل، كما قال أبو بكر: الذي يداخل الرجل في أمره ويصاحبه عليه.

(٧) الخفارة: الذمّة والعهد.

(٨) حميري وعدس: رجلان من بني حنظلة.

(٩) قال أبو بكر شارح الديوان: كان عوير قد أجار هنداً بنت حجر أخت امرئ القيس فوفّى لها حتى أتى بها نجران، فمدحه بوفاء الذمة، ونزهه من كل عيب يشين غيره.

(١٠) في (هـ) «ومولد النبي عليه الصلاة والسلام».

(١١) يقال: إن امرأ القيس، وهو من أقدم شعراء العرب، قد ذكر «عدساً» و«عدس» هو والد «زرارة»، وزرارة كان قريب العهد من مولد الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ أنه مات يوم «أوارة الثاني» وكان ذلك في أيام عمرو بن هند اللخمي، الذي ولد الرسول عليه الصلاة =

قـال: وفضيلة الشعر مقصـورة على العـرب، وعـلى من تكلّم بلسـان العرب، والشعر لا يستطاع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حوّل تقطع نظمه وبطل وزنه، وسقط موضع التعجب منه، وصار كالكلام المنثور، الذي حوّل عن موزون.

وقد نقلت كتب الهند، وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسناً، وبعضها انتقص شيئاً[1]، ولـو حولت حكمـة العرب، لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن، مع أنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيهم[2] شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم، التي وضعت لمعانيهم وحكمهم، وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان، حتى انتهت إلينا، فصحّ أن الكتب أبلغ في تقييد المآثر، من البنيان والشعر.

وقد قال بعض المعترضين: إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قاله الحكيم، على خصائص معانيه، وحقائق مذاهبه، وخفيّات حدوده، لا يقدر أن يوفيها حقوقها ويؤدي الأمانة فيها، ويقوم بما يلزم الوكيل، ويجب على الجري[3]، وكيف يقدر على أدائها، والإخبار عنها على حقها وصدقها، إلاّ أن يكون في العلم بمعانيها، واحتمال تصاريف ألفاظها، وتأويلات مخارجها، مثل مؤلف الكتاب وواضعه، فمتى كان ابن البطريق، وأبو قرّة، وابن المقفّع، مثل أرسطاطاليس؟! ومتى كان خالد[4] مثل أفلاطون؟!

= والسلام في أيامه، وعلى هذا نقول ونذهب إلى أن أقدم شعر عربي لا يبعد عهده عن الإسلام كثيراً.

أنظر: مجمع الأمثال جـ ٢ ص ٣٥٨ — كامل ابن الأثير جـ ١ ص ٣٥٥.
العمدة لابن رشيق جـ ٢ ص ١٦٨ — معجم البلدان (أوارة).

(١) في (هـ) «وبعضها ما انتقص شيئاً» والوجه ما أثبت في مقابل الجملة السابقة.

(٢) في (هـ) «معانيها» موضع «معانيهم».

(٣) في الأصل «المجرى» وإنما هو «الجري» كما هنا، وهو في معنى الوكيل وكما في القاموس.

(٤) هو خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، ولي الخلافة ثلاثة أشهر، وقد قام بأول نقل في الإسلام، قال الجاحظ في البيان جـ ١ ص ٣٢٨: «وكان خالد بن يزيـد بن معاويـة خطيباً شاعراً، وفصيحاً جامعاً، وجيد الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء»، توفي خالد سنة ٨٥ هـ.

وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها، ومتى وجدناه قد تكلم بلسانين، [ثم أخطأ][1] علمنا أنه قد أدخل الضّيم عليها، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكين اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغتين انقسمت القوة عليهما. وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، وعلى حساب ذلك يكون [كذلك][2] الترجمة لجميع اللغات، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق، والعلماء به أقلّ، كان أشدّ على المترجم، وأجدر أن يخطئ فيه، ولن تجد البتّة مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء.

هذا قولنا في كتب الهندسة، والتنجيم، والحساب، واللحون، فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وأخبار عن الله ـ عز وجل ـ بما يجوز عليه مما لا يجوز حتى يريد أن يتكلم على تصحيح الطبائع، ويكون ذلك معقوداً بالتوحيد، ويتكلم في وجوه الأخبار واحتمالاته للوجوه، ويكون ذلك متضمناً بما يجوز على الله عز وجل مما لا يجوز ويجوز على الناس، وحتى يعرف مستقر العام والخاص، والمقابلات التي تلقى الأخبار العامية المخرج فيجعلها خاصية، حتى يعرف من الخبر ما يخصّه الخبر الذي هو أثر، مما يخصه الخبر الذي هو قرآن، مما يخصه العقل، مما يخصه العادة أو الحال الرادّة له عن العموم، وحتى يعرف ما يكون من الخبر صدقاً أو كذباً [أو][3] ما لا يجوز أن يسمى بصدق ولا كذب، وحتى يعرف اسم الكذب والصدق على كم معنى يشتمل، وعند فقد أي معنى ينقلب ذلك الاسم، وكذلك معرفة المحال من الصحيح، وأي شيء تأويل المحال، وهل يسمى المحال كذباً، أم لا يجوز ذلك، وأي القولين أفحش: المحال أم الكذب، وفي أي موضع يكون المحال أفظع[4]، والكذب أشنع، وحتى يعرف المثل والبديع، والصريح[5] والكناية وفصل ما بين الخطل والهذر، والمقصور

(١) زائدة في المختصر.
(٢) كلمة خلت منها (هـ) من هذا الموضع، أنظر جـ ٢ ص ٧٧ س ٣ ط ٢.
(٣) «أو» زائدة هنا، سقطت من (هـ)، أنظر جـ ٢ ص ٧٧ س ١٥ ط ٢.
(٤) في الأصل «أقطع».
(٥) في (هـ) «والوحي والكناية» موضع «الصريح والكناية».

والمبسـوط والاختصار، وحتى يعـرف أبنية الكـلام وعادات القـوم، وأسباب تفاهمهم، والذي ذكرنا قليل من كثير، ومتى لم يعرف ذلك المترجم أخطأ في تأويل الكلام، كلام الدّين، والخطأ في الدين أضرّ من الخطأ في بعض الصناعة والرياضة والفلسفة، وفي بعض المعيشة التي يعيش بها بنو آدم.

وإذا كان المترجم لا يكمل لذلك، أخطأ على قدر نقصانه من الكمال، وما علم المترجم بالدليل من شبه الدليل، وما علمه بالأخبار النجومية؟ وما علمه بالحدود الخفية؟ وما علمه بإصلاح سقطات الكلام؟ وإسقاط الناسخين للكتب؟ وما علمه ببعض الخطرفة لبعض المقدمات؟ وقد علمنا أن المقدمات لا بد من أن تكون اضطرارية، ولا بد من أن تكون مرتّبة وكالخيط الممدود[1]، وابن البطريق وابن قرّة[2] لا يفهمان هذا موصوفاً منزّلاً، ومرتباً مفصلاً، من معلم رفيق، ومن حاذق صبور[3]، فكيف بكتاب قد تداولته اللغات واختلاف الأقلام، وأجناس خطوط الملل والأمم؟!

ولو كان الحاذق بلسان اليونانيين يرمي بذلك إلى الحاذق بلسان العربية ثم كان العربي مقصراً عن مقدار بلاغة اليوناني، لم[4] يجد المعنى والرافد بدّاً من التقصير، ولم يجد اليوناني الذي لم يرض بمقدار بلاغته في لسان العربية بدّاً من الاغتفار والتجوز، ثم يصير إلى ما يعرض من الأصناف ولا يعاب من الناسخين وذلك أن نسخته لا يعدمها الخطأ، ثم ينسخ له تلك النسخة من يزيده في الخطأ ولا ينقص منه، ثم يعارض به من يترك ذلك المقدار من الخطأ على حاله، إذا كان ليس في طاقته إصلاح السقط الذي لا يجده في نسخته.

ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً، أو كلمة ساقطة، فيكون

---

(١) في (ط) «كالخط المندور» وما هنا هو الصحيح موافقاً لما في (ل).
(٢) في الأصل «وأبو قرّة»،
(٣) في (هـ) «ومن حاذق طبّ» موضع «ومن حاذق صبور».
(٤) وردت العبارة في (هـ) هكذا «لم يجد المعنى والناقل التقصير».

إنشاء [مقدار][1] عشر ورقات من حرّ اللفظ وشريف المعاني، أسهل[2] عليه من إتمام ذلك النقص، حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام، فكيف يطيق ذلك المعارض المستأجر، والحكيم نفسه قد أعجزه هذا الباب! ثم يصير هذا الكتاب بعد ذلك نسخة لإنسان آخر، فيسير فيه الورّاق الثاني سيرة الورّاق الأول، ولا يزال الكتاب تتداوله الأيدي الجانية، والأغراض المفسدة[3]، حتى يصير غلطاً صرفاً، فما ظنك بكتاب تتعاقبه المترجمون بالإفساد، وتتعاوره الخطّاط بشّر من ذلك أو مثله وهو كتاب متقادم التوليد[4]، دهري الصنعة!

فكيف تكون هذه الكتب أنفع لأهلها من الشعر المقفى؟ وقال الآخر: احسبوا الأمر على ما قلتم، أليس معلوماً أن شيئاً هذه بقيّته وفضلته، وهذا مبلغ صبره على شدة الضيم[5]، وثبات قوته على ذلك الفساد، وتداول النقص، حقيق بالتفضيل على البنيان[6]، وعلى شعر ان حرّك تهافت، ونفعه مقصور على أهله، وهو يعد من الأدب المقصور، ليس المبسوط، ومن المنافع الإصطلاحية وليست بحقيقته[7] وها هنا كتب هي بيننا وبينكم، مثل كتاب أقليدس، ومثل كتاب جالينوس، ومثل كتاب المجسطي[8] مما تولاه الحجاج[9]، وكتب كثيرة فيها بلاغ للناس، وإن كانت مختلفة منقوصة، والباقي

---

(١) في (ط) «أنشأ عشر ورقات» وفي (هـ) «إنشاء عشر ورقات» و«مقدار» زائدة في المختصر وسقطت من (هـ).
أنظر ص ٧٩ جـ ٢ ط ٢ س ٦.

(٢) في (هـ) «أيسر» موضع «أسهل».

(٣) في (ط) «الأغراض المفسدة» وما هنا توجيهه.

(٤) في (هـ) «الميلاد» موضع «التوليد».

(٥) في (هـ) وردت العبارة هكذا «وهذا مظهر حاله على شدة الضيم».

(٦) في (ط) «على البيان» وإنما هو «البنيان» كما ثبتها هنا، وكما يفهم من سياق الكلام وكما في (ل).

(٧) في (ط) «وليست بحقيقته بينة» وفي (هـ) «وليست بحقيقة بينة» كما في (ل)، وهنا «وليست بحقيقته».

(٨) في (ط) «المجشطي» بالشين» وإنما هو «المجسطي» كتاب بطليموس، وقد قام بترجمته كثير من النقلة قالوا: وصحح المأمون كثيراً من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجة الأرضية، فكان أرصاد علمائه أول أرصاد في الإسلام، وسموا مجموع أرصادهم «الرصد المأموني».

(٩) هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، أبو محمد: قائد داهية، سفاك، خطيب، ولد ونشأ =

كاف [و][1] شاف، والغائب منها كان تكميلاً لتلك الطبائع الكاملة.

وفي أيدي الناس من كتب الحساب، والطب، والمنطق، والهندسة، ومعرفة اللحون، والفلاحة، والتجارة، وأنواع الأصباغ[2]، والعطر والأطعمة، والآلات وهم أتوكم بالحكمة، وبالمنفعة التي في الحمّامات والاصطرلابات، والقرسطونات[3] وآلات معرفة الساعات، وصنعة الزجاج والفسيفساء[4]، والزنجفور[5]، واللازورد[6] والأشربة، والأنبجات[7]، والفاشارجات[8]،

= بالطائف، ثم انتقل إلى الشام، قاتل عبدالله بن الزبير فقتله وفرق جموعه، ولي مكة والمدينة والطائف ثم العراق، وبنى مدينة واسط، قال عبد بن شوذب: ما رؤي مثل الحجاج لمن أطاعه، ولا مثله لمن عصاه! وكان فصيحاً مات بواسط، وأجري على قبره الماء فاندرس.

الأعلام جـ ٢ ص ١٧٥ — معجم البلدان جـ ٨ ص ٣٨٢.
وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٢٣ — المسعودي جـ ٢ ص ١٠٣.
فهرست التهذيب جـ ٢ ص ٢١٠ — ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٢٢.

(١) هذا الحرف زائد من هذا الموضع في المختصر.

(٢) في (هـ) «أبواب الأصباغ» بدلاً من «أنواع الأصباغ».

(٣) هذا اللفظ في رسالة الجاحظ في مناقب الترك (هامش الكامل جـ ١ ص ٢٦٢) قال: «وصاغوا من المنافع كالقرسطونات والقبانات... الخ» وكذلك في كتاب التربيع والتدوير له أيضاً ص ١٣٨ طبع الساسي قال: «وخبرني عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص، ووزن جميعه ثلاثون رطلاً زاد ذلك أم نقص» ويفهم من قرنه بكلمة «القبان» وهي الميزان ومن وصفه في العبارة الثانية، أنه ضرب من الموازين، وهو الذي يسميه العامة هنا في مصر (القباني).

(٤) الفسيفساء: أنواع من الخرز تركب في حيطان البيوت من داخل.

(٥) رسمت هذه الكلمة في القاموس وفي مفاتيح العلوم برسم «الزنجفر» جاء في الأول: صبغ معروف، وجاء في الثاني: أنه يتخذ من الزئبق والكبريت، يجمعان في قوارير، ويوقد عليهما، فيصير زنجفراً، قال الخوارزمي: والوزن أن تأخذ واحداً من زئبق، وواحداً من كبريت.

(٦) الخوارزمي ص ١٤٨: هو حجر فيه عيون براقة يتخذ منها خرز.

(٧) الأنبجات: جمع أنبج، قال الخليل: حمل شجرة بالهند، يربب بالعسل على خلقة الخوخ، محرف الرأس، في جوفه نواة كنواة الخوخ، وقال الخوارزمي في مفاتيح العلوم ص ١٠٤: فمن هنا تسمى الأنبجات، وهي التي ربت بالعسل من الأترج والأهليلج، ونحو ذلك. أهـ، وهي في (ط) «الأنبجاث» بالثاء وهو تصحيف.

(٨) هنا كما في الأصل «الفاشارجات» وفي (هـ) «الأبارجات» ويجوز أن يكون اللفظان لشيء واحد، قال في القاموس: والأبارجة بالكسر وفتح الراء، معجون سهل معروف، جمعه أبارج معرب ابارة، وتفسيره الدواء الإلهي، أنظر مفاتيح العلوم للخوارزمي ص ١٠٤.

ولكم المينا، والنوشادر والشّبة[١] وتعليق الحيطان والأساطين، وردّ ما مال منها إلى التقويم، ولكم[٢] صبّ الزردج، واستخراج النشاشتج[٣]، وتعليق الخيش، واتخاذ الجمّازات[٤] واستخراج شراب الداذي[٥]، وعمل الزرياب[٦].

وكان الحجاج أول من أجرى في البحر السفن المقيّرة المسمّرة غير المخرّزة[٧] المدهونة والمسطحة، وغير ذوات الجآجي[٨]، وكان أول من عمل المحامل ولولا ما عرفوكم من ألوان الحملانات[٩]، لم تعرفوا صنعة الشبه، ولولا غضار الصين، لم تعرفوا الغضار على أن الذي علمتم[١٠] ظاهر في التوليد منقوص المنفعة عن تمام الصّيني، وعلى أن الشبه لم تستخرجوه، وإنما ذلك من الأمور التي وقعت اتفاقاً، لسقوط الناطق[١١]، من يد الأجير في الصّفر المذاب[١٢]، فخفتم إفساده، فلما رأيتم ما أعطاه من اللون عملتم[١٣] في الزيادة والنقصان، وكذلك جميع ما تهيأ لكم، ولستم تخرجون في ذلك من أحد أمرين:

---

(١) في (ط) «الشب» وتصحيحه من (ل) كما هنا، والشبه والشبهان محركتين: النحاس الأصفر، هذا قول الفيروزآبادي.
(٢) في (هـ) «ولهم» موضع «ولكم».
(٣) في (ط) «النستاسنج» وهو تحريف ما هنا وما في (ل)، قال في القاموس «والنشا وقد يمد: النشاسنج معرب حذف شطره» والنشا معروف.
(٤) سيفسرها الجاحظ.
(٥) قال الفيروزآبادي، الداذي: شراب للفساق.
(٦) هنا كما في (ل) «الزرياب» والزرياب: الذهب أو ماؤه معرب، وفي (هـ) «الدبابات» وهي جمع «دبابة» آلة تتخذ في الحروب.
(٧) كما في (هـ) «المحرّزة» وهو تصحيح ما في المختصر «المحرورة» ومقيرة: ذات القار.
(٨) في (هـ) «الجؤجؤ» بالإفراد.
(٩) في القاموس: الحملان في اصطلاح الصاغة: ما يحمل على الدراهم من الغش.
(١٠) في (ط) «علمتم» وهو تحريف.
(١١) في (هـ) «الناطف» بالفاء موضع «الناطق» بالقاف، والناطف: ضرب من الحلوى.
(١٢) في (هـ) «الصفر الذائب».
(١٣) في (ط) «علمتم».

امّا أن تكونوا استعملتم الاشتقاق [و][1] من علم ما أورثوكم، واما أن يكون ذلك تهيأ لكم من طريق الاتفاق!!

وقد علمتم أن أول شأن الجمازات، أن أمّ جعفر[2] أمرت الرّحالين أن يزيدوا في سير البختّية [3] التي كانت عليها، وخافت فوت الرشيد، فلما حرّكت مشت ضروباً من المشي، وضروباً من المرفوع[4]، فجمزت في خلال ذلك، ووافقت امرأة تحسن الاختبار، وتفهم الأمور، فوجدت لذلك الجمز راحة، ومع الراحة لذّة، فأمرتهم أن يسيروها[5]، تلك السيرة، فما زالوا يقرّبون ويبعّدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في ذلك تصوبهم وتخطئهم على قدر ما عرفت، حتى حصلوا معرفة ذلك ما عملوا[6] ونسوا أمره، وكذلك جميع أمركم، لا يخلو من أن يكون اتفاقاً أو اتباع أثر.

ومن شكر المعرفة، أن تحتمل ثقل مؤونة الناس في تعريفهم[7]، وأن يتوخى إرشادهم، وان جهلوا فضل ما يسدى اليهم، ولن يصان العلم بمثل بذله، ولن تستبقى النعمة فيه بمثل نشره، على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم إذ كان مع التلاقي يشتدّ التصنّع، ويكثر التظالم، وتفرط العصبيّة، وتقوى الحميّة وعند المواجهة والمقابلة، يشتدّ حبّ الغلبة، وشهوة المباهاة والرياسة، مع الاستحياء من الرجوع، والأنفة من الخضوع، وعن جميع ذلك تحدث الضغائن ويظهر التباين.

وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وعلى هذه الهيئة، امتنعت من

---

(١) الواو هنا فقط في المختصر.

(٢) أم جعفر: هي زبيدة بنت جعفر أم الأمين بن هارون الرشيد، أعرس بها هارون الرشيد في سنة ١٦٥ هـ وكانت وفاتها سنة ٢١٦ هـ في جمادى الأولى ببغداد. الوفيات ج ـ٢ ص ٧٠.

(٣) هنا كما في (ل) «البختية»، وفي (هـ) «البخيية» والبختية من الإبل وجمعها «بخاتي» ويجوز تخفيف الياء في الجمع والأنثى.
مختار الصحاح (بخت).

(٤) هنا كما في (ل)، وفي (هـ) «وصنوفاً من السير».

(٥) في (هـ) «أن يسيروا بها».

(٦) وردت العبارة في (هـ) هكذا «حتى شدوا من معرفة ذلك ما شدوا».

(٧) في (هـ) «تقويمهم» بدلاً من «تعريفهم».

التعرّف، وعميت عن موضع[١] الدلالة، وليست في الكتب علّة تمنع من درك البغية، وإصابة الحجّة، لأن المتوحّد بدرسها[٢]، وفهم معانيها، لا يباهي نفسه، ولا يغالب عقله، وقد عدم من له يباهي ومن أجله يغالب.

والكتاب فقد يفضل صاحبه، ويتقدم مؤلفه، ويرجح قلمه على لسانه بأمور: منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان على تفاوت ما بين الأعصار، وتباعد ما بين الأمصار، وذلك أمر يستحيل في واضع الكتاب، والمنازع[٣] في المسألة والجواب، ومناقلة اللسان، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويفنى[٤] العقل ويبقى أثره، ولولا ما رسمت[٥] لنا الأوائل في كتبهم من حكمتها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنّا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلاّ بهم، لقد خسّ[٦] حظنا من الحكمة، وضعف سببنا إلى المعرفة، ولو ألجئنا[٧] إلى قدر قوتنا، ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا، لقد قلّت المعرفة، وسقطت الهمّة، وعاد الرأي عقيماً، وتبلّد العقل.

وأكثر الكتب نفعاً، وأشرف خطراً، وأحسن موقعاً، كتب الله عز وجل[٨]، التي فيها الهدى والرّحمة، والأخبار عن كل حكمة[٩]، وتعريف كل سيئة وحسنة وما زالت كتب الله تبارك وتعالى في الألواح والصحف، والمهارق[١٠]

---

(١) هنا «موضع» بالإفراد، وفي (هـ) «مواضع» بالجمع.
(٢) في(ط) «يدرسها» و«يفهم» والوجه ما في (ل) كما هنا.
(٣) في (ط) «والمتنازع».
(٤) في (هـ) «ويذهب» موضع «ويفنى».
(٥) في(هـ) «ما أودعت» بدلاً من «رسمت».
(٦) في(ط) «لما حسن» والعبارتان صحيحتان، ولعل أفضلهما ما أثبته من (ل).
(٧) في (هـ) «ولو لجأنا» بالبناء لمعلوم موضع «ألجئنا».
(٨) في (هـ) «كتب الله تعالى».
(٩) كما في (هـ) مكان «عبرة» التي كانت بالمختصر.
(١٠)في (ط) «المحار» وهو تحريف صوابه ما أثبت هنا موافقاً لما في (ل).

والمصاحف وقال الله جل وعز: ﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾[١] ويقال لأهل التوراة والإنجيل أهل الكتاب.

وينبغي أن يكون سبيلنا فيمن[٢] بعدنا، كسبيل من قبلنا فينا، على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا فما ينتظر العالم بإظهار ما عنده، وما يمنع النّاصر للحق من القيام بما يلزمه، وقد أمكن القول وصلح الدهر، وهوى[٣] نجم التّقية[٤]، وهبّت ريح العلماء وكسد العي والجهل، وقامت سوق البيان والعلم؟!

والإنسان ليس يجد في كل حين إنساناً يدرسه[٥]، ومقوماً يثقفه، والصبر على إفهام الريّض شديد، وصرف النفس عن مغالبة العالم أشدّ منه، والمتعلم يجد في كل مكان الكتاب عتيداً، وبما يحتاج إليه قائماً، وما أكثر من فرّط في التعليم أيام خمول ذكره، وأيام حداثة سنة!، فلولا جياد الكتب وحسنها، ومبينها ومختصرها لما[٦] تحرّكت همم هؤلاء لطلب العلم، ونازعت إلى حبّ الأدب وأنفت من حال الجهل، وأن تكون في غمار الجهل الحشو[٧]، لدخل عليهم من الضرر[٨] والمضرّة، والجهل وسوء الحال، ما لا يمكن الإخبار عن مقداره، ولذلك قال عمر[٩]: تفقّهوا قبل أن تسوّدوا».

---

(١) سورة الأنعام الآية ٣٨ مكية.

(٢) في (هـ) «لمن» موضع «فيمن» هنا.

(٣)، (٤) في (ل) «حوى نجم التقية» وفي (ط) «خوى نجم التقيد» وفي (هـ) «وخوى نجم التقية» وهنا «وهوى نجم التقية» وهي أوجهها، خوى النجم: اختفى وذهب، وأصله من خوت الدار: تهدمت، والتقية: الحذر والخوف، وهوى: سقط.

(٥) في (هـ) «يدرّبه» موضع «يدرسه» وهذا أليق.

(٦) كان اللفظ الثابت هنا «لم» وأبدلته بما في (هـ) «لما» لمناسبة المكان.

(٧) وردت العبارة في (هـ) «وان تكون في غمار الحشو» والمعنى على العبارة الثابتة لو لم تتحرك همم هؤلاء حباً للعلم، ونزوعاً إلى الأدب، لبقيت نفوسهم أسيرة الجهل، ولبقوا حشواً في غمار الجهل، أي بين كثرتهم.

(٨) في (هـ) «من الخلل والمضرّة».

(٩) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص: ثاني الخلفاء الراشدين وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات يضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، وله السفارة فيهم وهو أحد العمرين اللذين كان =

وقد تجد الرجل يطلب الآثار، وتأويل القرآن، ويجالس الفقهاء خمسين سنة[١]، وهو لا يعدّ فقيهاً، ولا يجعل قاضياً، فما هو إلاّ أن ينظر كتب أبي حنيفة وأشباهه، ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمرّ ببابه فتظن أنه باب بعض العمال[٢]، ولا يمرّ عليه من الأيام إلاّ اليسير، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار.

وينبغي لمن كتب كتاباً ألاّ يكتبه إلا على أن الناس كلهم أعداء، وكلهم متفرغ له، ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً[٣]، ولا يثق[٤] بالرأي الفطير فإن لابتداء الكلام فتنة وعجباً، فإذا سكنت الطبيعة وهدأت الحركة، وتراجعت الأخلاط وعادت النفس وافرة، أعاد النظر فيه، وتوقف عند فصوله توقف من يكون وزن طبعه[٥] في السلامة أنقص من وزن خوفه من العيب، ويقف عند قولهم في المثل «كل مجر في الخلاء يسرّ»[٦] فيخاف أن يعتريه ما يعتري من أجرى فرسه وحده، أو خلا بعلمه عند فقد خصومه، وأهل المزيّة[٧] من أهل صناعته.

وليعلم أن صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه، فما

= النبي ﷺ يدعو ربه أن يعز الإسلام بأحدهما، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع، كانت له تجارة بين الشام والحجاز، بويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر (سنة ١١ هـ) وهو أول من وضع التاريخ الهجري، وأول من دوّن الدواوين، لقبه النبي ﷺ (بالفاروق) وكناه (بأبي حفص)، قتله أبو لؤلؤة فيروز الفارسي (غلام المغيرة بن شعبة) غيلة بخنجر في خاصرته، وهو في صلاة الصبح وعاش بعد القصة ثلاث ليال، ولد سنة ٤٠ قبل الهجرة وتوفي سنة ٢٣ هـ.
الأعلام جـ ٥ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ وانظر أسد الغابة والإصابة.

(١) في (هـ) «خمسين عاماً».
(٢) وردت العبارة في المختصر «فنظن أن باب بعض العمال» ونلمس نقصاً، وأصلحتها كما في (هـ)، وفي (ل) «أنه باب بعض العمال» أصلحت من (هـ) «ان» وبقية العبارة وافقت ما في (ل).
(٣) في المختصر كلمتان موضع «غفلا» هما «تعب ومختمر» وأثبت بدلهما «غفلا» كما في بقية النسخ.
(٤) في (هـ) «ولا يرضى».
(٥) هنا كما في الأصل «طبعه» وفي (هـ) «طمعه».
(٦) جاء في البيان جـ ١ ص ٢٠٣ «وفي المثل المضروب كل مجر في الخلاء مسر، ولم يقولوا مسرور، وكل صواب»، والوجه في المثل «يسر» كما هو هنا وكما في الميداني جـ ٢ ص ٧٣.
(٧) في (هـ) «أهل المنزلة».

أكثر من يعزم على عشرة[1] أسواط فيضرب مائة؟! لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع فأراه السكون أن الصواب في الإقلال، فلما ضرب تحرك دمه، فأشاع من الحرارة، وزاد في غضبه، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار، وكذلك صاحب القلم، فما أكثر من يبتدئ الكتاب وهو يريد مقدار سطرين، فيكتب عشرة! [ومقدار جلدين فيكتب عشرة][2]! والحفظ[3] مع الإقلال أمكن، وهو مع الإكثار أبعد.

وإذا علم أن العاقل ما لم يكن بالمتبع، فكثيراً ما يعتريه ما يعتريه من[4] ولده، ويحسن في عينه منه المقبّح في عين غيره، فليعلم أن لفظه أقرب إليه نسباً من ابنه، وكذلك حركته أمسّ به رحماً من ولده، لأن حركته شيء أحدثه من نفسه وبذاته، ومن عين جوهره فصلت[5]، ومن نفسه كانت، وإنما الولد كالمخطّة يتمخطّها، وكالنخامة يقذفها، ولا سواء إخراجك من جزئك شيئاً لم يكن منك، وإظهارك حركة لم تكن حتّى كانت منك، ولذلك تجد فتنة الرجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته.

وليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الرويّة فيه، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السّفلة والحشو[6] ويحطّه عن غريب الأعراب ووحشي الكلام، وليس له أن يهذبه جداً، أو ينقحه ويصفيه ويروّقه، حتى لا ينطق إلاّ باللبّ، وباللفظ الذي قد حذف فضوله، وتفرق زوائده[7] حتى عاد خالصاً لا شوب فيه، فإنه إن فعل

(١) في (هـ) «خمسة» موضع «عشرة»، والمقصود مطلق العدد لا الحصر.
(٢) عبارة غير موجودة في (هـ).
(٣) كانت الكلمة في المختصر «والتحفظ» وأثبت الوجه من (هـ).
(٤) كانت العبارة في المختصر: «فكثيراً ما يعتر من ولده» وفيها اضطراب أثبت ما في (هـ) «فكثيراً ما يعتريه ما يعتريه من ولده».
(٥) في (ط) «وبراءته من عين جوهره فصلت» والعبارة صحيحة بالمختصر فأثبتها موافقة لما في (ل)، وكذلك ما في (هـ).
(٦) في (ط) «الحشوة» وكلاهما صحيح ومعناهما: صغار الناس وإسقاطهم.
(٧) هنا «وتفرق زوائده» وفي (هـ) «وأسقط زوائده» وفي (ل) «وتعرف زوائده» وهي تؤدي معنى واحداً.

ذلك، لم يفهم عنه إلاّ بأن يجدد لهم إفهاماً وتكراراً، لأن الناس تعوّدوا المبسوط من الكلام، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم، إلاّ بأن يعكس عليها ويؤخذ بها.

ألا ترى أن كتاب المنطق لو قرأته على الخطباء لما فهموا أكثره، وفي أقليدس[١] كلام يدور، وهو عربي، لو سمعه بعض الخطباء لما فهموه، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعليمه، لأنه يحتاج أن يكون قد عرف جهة الأمر، وتعوّد اللفظ المنطقي[٢] الذي استخرج من جميع الكلام.

قال معاوية[٣] لصحار العبدي[٤]: ما الإيجاز؟ قال: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ، قال معاوية: أو كذلك تقول!! قال صحار: أقلني يا أمير المؤمنين! لا تخطئ ولا تبطئ.

فلو أن سائلاً سأل عن الإيجاز، فقلت: لا تخطئ ولا تبطئ وبحضرتك، خالد بن صفوان[٥]، لما عرف بالبديهة وعند أوّل وهلة، أن قولك

(١) يعني كتاب اقليدس.

(٢) في (ط) «وتعوّد للفظ المنطقي» وهو تحريف.

(٣) هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب، ينتهي نسبه إلى قصي بن كلاب، وأمه هند بنت عتبة ابن ربيعة، قيل إنه أسلم قبل أبيه وقت عمرة القضاء، وبقي يخاف من اللحاق بالنبي ﷺ من أبيه، ولكن ما ظهر إسلامه إلاّ يوم الفتح، حدث عن النبي ﷺ، وكتب له مرات كثيرة، وحدث أيضاً عن أخته أم المؤمنين أم حبيبة، وعن أبي بكر، وعمر، وروى عنه: ابن عباس وغيره من الصحابة، أخباره وترجمته في: (الفهرس للطبري جـ١ ص ٥٥٧، سير أعلام النبلاء جـ٣ ص ٧٩ ـ ١٠٨، الإصابة جـ٦ ص ١١٢، تاريخ الإسلام جـ٢ ص ٣١٨)، وهو أول من أسس الدولة الأموية، وصار نظام الخلافة بعد معاوية ملكاً يتوارثه أبناؤه من بعده. قال الليث وأبو معشر: مات معاوية في رجب سنة ٦٠ هـ، في نصف رجب أو لثمان بقين منه وعاش ٧٧ سنة.

(٤) هو صحار بن عياش ـ وقيل ابن عباس ـ بن شراحيل بن منقذ العبدي من بني عبد القدوس، خطيب مفوه كان من شيعة عثمان، له صحبة وأخبار حسنة، وكان نسّابة، توفي نحو سنة ٤٠ هـ، الإصابة والاشتقاق ص ٢٠١.

(٥) هو خالد بن صفوان بن عبدالله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري، كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، نشأ بالبصرة، وكان أكثر أهلها مالاً، ولم يتزوج، توفي نحو سنة ١١٥ هـ.

«لا تخطئ» متضمن بالقول «لا تبطئ» متضمن بالجواب، وهذا حديث كما ترى [قد][1] أثروه، [ورووه ودوّنوه][2]، ولو أن قائلاً قال لبعضنا: ما الإيجاز؟ لظننت أنه [كان][3] يقول الاختصار.

والإيجاز ليس يعنى به قلّة عدد الحروف والألفاظ[4]، وإنما هو حذف ما لا يكون سبباً لإغلاقه في الإفهام.

وقيل لأبي الحسن الأخفش: أنت أعلم الناس بالنّحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها، فقال: أنا رجل لم أضع كتبي لله عز وجل، وليست هي من كتب الدين ولو وضعتها كما قلت، قلّت حاجتهم لي[5]، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضعه هذا الموضع، لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس ما لم يفهموا.

ووجدنا الناس إذا خطبوا في صلح بين العشائر، أطالوا، وإذا أنشدوا الشعر بين السّماطين في مديح الملوك أطالوا، فللإطالة موضع وليس ذلك بخطل وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز.

وأنا أتكل على أنك لا تمل القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرّة [6] حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحيّة، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبّان[7] والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى الضبع وفي الظلف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخفّ، وفي الخفّ حتى تخرج إلى البرثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المخلب، وكذلك القول في

---

(١) «قد» زائدة في موضعها من المختصر.

(٢) في المخطوطة فقط وخلت منها (هـ).

(٣) «كان» هنا في المختصر.

(٤) في (هـ) «واللفظ» بالإفراد، والوجه الجمع مناسبة للحروف كما هنا.

(٥) في (هـ) «إليّ» موضع «لي».

(٦) في (ط) «الدرة» بالدال وإنماهي «الذرة» بالذال كما هنا و(ل)، والذرّ ضرب من النمل صغار.

(٧) كذا في (ل) وفي (ط) «وفي الذباب» فقط، وفي (هـ) كما في (ل).

الطير وعامّة الأصناف، فرأيت أن جملة الكتاب[1]. وإن كثر ورقه، ليس يمل، لأنه وإن كان كتاباً واحداً، فإنه كتب كثيرة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب، حتى يهجم على الثاني، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً. ومتى خرج من آي القرآن صار إلى أثر[2]، أو خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى الشعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية، ومقاييس سداد[3] ثم لا يترك هذا الباب، فلعله يكون أثقل، والملال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى فرح وفكاهة، وسخف وخرافة، ولست أراه سخفاً، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء، وآداب العلماء.

وكانت فلاسفة اليونان، تورث البنات العين، وتورث البنين الدّين، وكانت تصل العجز بالكفاية، والمؤونة بالكلفة، وكانت تقول: لا تورثوا الإبن من المال إلاّ ما يكون له عوناً على طلب المال، واغذوه بحلاوة العلم، واطبعوه على تعظيم الحكمة، ليصير جمع العلم أغلب عليه من جمع المال، وكانوا يقولون: لا تورّثوا الإبن من المال إلاّ ما يسد الخلة، ويكون له عوناً على درك الفضول، إن كان لا بد من الفضول، فإنه إن كان فاسداً زادت تلك الفضول في فساده، وإن كان صالحاً كان فيما أورثتموه من العلم وبقيتموه له من الكفاية، ما يكسبه الحال، فإن الحال أفضل من المال، وإن المال لم يزل تابعاً للحال، وقد لا يتبع الحال المال، وصاحب الفضول بعرض فساد، وعلى شفا إضاعة، مع تمام الحنكة، واجتماع القوة، فما ظنّكم بها مع غرارة الحداثة[4]، وسوء الاعتبار، وقلة التجربة.

وسواء أفدته علماً، أو ورّثته آلة علم، وسواء دفعك إليه الكفاية، أو ما يجلب الكفاية، وإنما تجري الأمور، وتتصرف الأفعال، فمن لم يقدر إلاّ على دفع

---

(١) في (هـ) «لرأيت أن جملة الكتاب» وفي (ط) كما هنا «فرأيت أن جملة الكتاب».

(٢) في (هـ) «إلى الأثر» موضع «إلى أثر».

(٣) في الأصل «شداد» والمقياس ينعت بالسداد لا بالشدّة.

(٤) الغرارة: الغفلة وقلة التجريب، وفي الأصل «الغرارة» وهو تحريف.

السبب لم يجب عليه إحضار المسبّب، فكتب الآباء، (حسب الأبناء)[1]، تحبيب للأحياء، ومحي لذكر الموتى.

ومتى كان الأديب[2] جامعاً بارعاً، وكانت مواريثه كتباً بارعة، كان الولد أجدر أن يسرع التعليم إليه، وأجدر أن يجري من الأدب على طريق قد أنهج له ومنهاج قد وطئ، وأجدر أن يجعل بدل الطلب للكتب[3] النظر في الكتب فلا يأتي عليه من الأيام مقدار الشغل بجمع الكتب، والاختلاف في سماع العلم إلاّ وقد بلغ بالكفاية غاية الحاجة.

وقلت: وما بلغ من قدر الكلب مع لؤم أصله، وخبث طبعه، وسقوط قدره ومهانة نفسه، وقلّة خيره وكثرة شرّه، واجتماع الأمم على استسقاطه، ومع ضربهم المثل بلؤمه[4]، ومع الحالة التي يعرف بها، من العجز عن صولة السّباع واقتدارها، ومن[5] تمنّعها وتشرّفها، وتوحّشها وقلة إسماحها، وعن مسالمة البهائم، ودعتها وموادعتها، والتمكين من إقامة مصلحتها والانتفاع بها، إذ لم يكن في طبعها دفع السباع عن أنفسها، ولا الاحتيال لمعاشها، والكلب ليس بسبع تام ولا بهيمة تامة، حتى كأنه من الخلق المركب والطبائع الملفقة، والأخلاط المجتلبة كالبغل المتلوّن في أخلاقه، الكثير العيوب المتولّدة من[6] مزاجه.

وشرّ الطبائع ما تجاذبته الأعراق المتضادّة، والأخلاق المتفاوتة[7]، والعناصر المتباعدة، كالراعبي من الحمام، الذي قد ذهبت عنه هداية الحمام، وشكل هديره وسرعة طيرانه، وبطل عمر الورشان، وقوة جناحه وشدّة عصبه،

---

(١) زيادة من هذا الموضع في المخطوطة.

(٢) في الأصل «الأدب».

(٣) هنا كما جاء في الأصل «الكتب» وفي (هـ) «الكسب».

(٤) وردت العبارة في (هـ) «ومع ضربهم المثل في ذلك كله به».

(٥) في الأصل «ومن» كما ثبت هنا، وفي (هـ) «وعن».

(٦) في (هـ) «عن» موضع «من».

(٧) في الأصل «المتفاوة».

وحسن صوته وشحو حلقه، وشكل لحونه، وحول[1] اطرابه، واحتماله لوقع البنادق وجرح المخالب، وفي الراعبي أنه مسرول مثقل، وحدث له عظم بدن، وثقل وزن لم يكن لأبيه ولا لأمّه.

وكذلك البغل، خرج من بين حيوانين يلدان حيواناً مثلهما، ويعيش نتاجهما ويبقى بقاؤهما، وهو لا يعيش له ولد وليس بعقيم، ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر ولو كان البغل عقيماً، والبغلة عاقراً، لكان ذلك أزيد في قوتهما، وأتم لشدتهما فمع البغل من الشّبق والنعظ ما ليس لأبيه، ومع البغلة من السّوس[2]، وطلب السفاد، ما ليس مع أمها، وذلك قدح في القوّة، وخرج غرموله أعظم من غراميل أعمامه وأخواله، فترك شبهها، ونزع إلى شيء ليس له أصل في الأرض[3]، وخرج أطول عمراً من أبويه، وأصبر على الأثقال من طرفيه[4].

أو كابن المذكرة في النساء والمؤنثة من الرجال، فإنه يكون أخبث نتاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السّمع[5]، وأكثر عيوباً من العسبار[6]، ومن كلّ

---

(١) في(هـ) «وحول» بدلها «وشدّة».
والورشان هو ساق حر، وهو ذكر القماري والجمع وراشين ويجمع أيضاً على ورشان وقيل إنه طائر يتولد بين الفاختة والحمامة، وكنيته أبو الأخضر وأبو عمران، وأبو النائحة وهو أصناف.
أنظر: حياة الحيوان جـ ٢ ص ٤٦٣.

(٢) كانت بالمختصر «الشوس» كما في الأصل وهذا تصحيف وأصلحتها من (هـ) «السوس»، يقال سوست الدابة سوساً، بمعنى اغتلمت، كما في كتاب البغال للجاحظ ص ٣٢٠.

(٣) العبارة في (هـ) «ونزع إلى شيء ليس له أصل في الأرض» وهذا هو الوجه وأصلحت العبارة في المخطوطة عليها وكانت قد وردت «ونزع إلى شيء له أصل في الأرض» فأزدت «ليس» قبل «له» وهو الوجه.

(٤) في (هـ) «أبويه» موضع «طرفيه».

(٥) السمع، بكسر السين وإسكان الميم: ولد الذئب من الضبع، وهو سبع مركب فيه شدة الضبع وقوتها وجراءة الذئب وخفته، ويزعمون أنه كالحية لا يعرف العلل ولا يموت حتف أنفه وأنه أسرع عدواً من الريح.
حياة الحيوان جـ ٢ ص ٣٢ ـ الدميري.

(٦) العسبار، بكسر العين وبالسين الساكنة، والأنثى عسبارة: ولد الضبع من الذئب. حياة الحيوان ـ الدميري جـ ٢ ص ١٣٩.

خلق إذا تركّب من ضده، ومن كل شجرة مطعّمة بخلاف [جنسها][1]، وليس يعتري ذلك الخلاسي من الدجاج، ولا الورداني[2] من الحمام، وكل ضعف دخل على الخلقة، وكل رقة عرضت للحيوان، فعلى قدر جنسه، وعلى وزن مقداره وتمكنه، يظهر العجز والعيب.

وزعم الأصمعي[3]: أنه لم يسبق في الحلبة فرس أهضم قط، ولا أبلق ولا بلقاء.

والهداية في الحمام، والقوّة على بعد الغاية[4]، إنما هي للمصمتة من الخضر[5].

والشّيات كلها ضعف ونقص ـ والشيّة: كل لون دخل على لون ـ قال الله تبارك وتعالى **﴿مسلمة لا شية فيها﴾**[6]

وزعم عثمان بن الحكم[7]: أن ابن المذكّرة من المؤنث، يأخذ أسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه عظام الدواهي، وأعيان المساوئ وإذا خرج كذلك، لم ينجع فيه أدب، ولم يطمع في علاجه طبيب وأنه رأى في دور ثقيف، فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم، إلاّ وهم يتحدثون عنه بشيء، يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه!

وزعمت أن الكلب في ذلك كالخنثى، الذي هو لا ذكر ولا أنثى، أو كالخصي الذي لما قطع منه ما صار به الذكر فحلاً، خرج من حد كمال الذكر بفقدان الذكر ولم يكمل لأن يصير أنثى، للغريزة الأصلية، وزعمت أنه يصير

---

(١) في (هـ) تنتهي العبارة بكلمة «بخلاف» وذكرت هنا بعدها «جنسها».

(٢) الدميري: طائر متولد بين الورشان والحمام، وله غرابة لون.

(٣) أنظر: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٤٤.

(٤) الغاية: المدى الذي يرسل إليه الحمام الزاجل.

(٥) المصمتة: التي لا يخالط لونها لون آخر.

(٦) سورة البقرة الآية ٧١، مدنية.

(٧) هو عثمان بن الحكم بن صخر الثقفي، له خبران في: الأغاني جـ ٩ ص ٢٣، جـ ١٧ ص ١٧، معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٧٤ ـ ١١٤.

كالنبيذ الذي يفسده إفراط الحرّ، [فيخرجه من حدّ النبيذ، ولا يدخله في حدّ الخل، وكالخل الذي يفسده إفراط الحرّ][1]، فيخرجه من حد الخل، ولا يدخله في حد النبيذ.

وقال مرداس بن خذام[2]:

سقينا عقالاً بالثّويّة[3] شربة ... فمالت بلبّ الكاهليّ عقال
فقلت اصطبحها يا عقال فإنما ... هي الخمر خيّلنا لها بخيال
رميت بأم الخلّ حبّة قلبه ... فلم ينتعش منها ثلاث ليال

فجعل الخمر أمّ الخلّ [لأن][4] الخلّ قد يتولد عنها، وقد يتولد عن الخل - إذا كان خمراً مرة - الخمر.

وقال سعيد بن وهب[5]:

هلاّ وأنت بماء وجهك تشتهى ... رود الشباب قليل شعر العارض!
فالآن حين بدت بخدّك لحية ... ذهبت بملحك مثل كفّ القابض
مثل السلافة عاد خمر عصيرها ... بعد اللّذاذة خلّ خمر حامض

ويصير أيضاً كالشعر الوسط، والغناء الوسط، والنادرة الفاترة، التي لم تخرج من الحرّ إلى البرد، ولا من البرد إلى الحرّ فتضحك السّن.

---

(١) هذا الجزء خلا منه (هـ).

(٢) في الأغاني جـ ١٠ ص ٨٧ «جذام»، وفي ثمار القلوب ص ٢٠٧ «جزام» وانظر قصة الشعر في المخصّص جـ ١٢ ص ١٨٩، والمؤتلف والمختلف ص ١٠٩، معجم المرزباني ص ٣٧٠.

(٣) الثويّة موضع بالكوفة أو قريب منها، وانظر نسبة البيت في معجم البلدان.

(٤) في المختصر من هذا الموضع مع الكلمة الثانية «لأن الخلّ» غير موجودتان في (هـ).

(٥) سعيد بن وهب، هو أبو عثمان مولى بني سامة بن لؤي، شاعر مطبوع، أكثر شعره في الغزل والتشبيب بالمذكر، وكان من كتاب البرامكة، متقدماً عندهم، قالوا: وكان ذا فجور ومجون، ثم تاب وأقلع، وكانت وفاته في أيام المأمون.
أنظر: الأغاني جـ ٢ ص ٦٩ - ٧٢، فهرس ابن النديم ص ١٧٨ - ٢٣٦ مصر.

بـــاب

ذكر ما يعتري الإنسان بعد الخصاء وكيف كان قبله

كل ذي ريح منتنـة، وكل ذي دفـر وصنان كـريه المشمّـة[١]، كالنسر وأشباهه، فإنه متى خصي نقص نتنه وذهب صنانه، غير الإنسان، متى خصي عـاد أنتن، وصنانـه أحد، ويعمّ خبث العـرق سائـر جسـده، حتى تـوجـد لأجسادهم رائحة لا تكون لغيرهم، [لكن خصالهم خلاف خصال غيرهم][٢].

وكل شيء يخصى من الحيوان فإن عظمه يدق، فإذا دقّ عظمه استرخى لحمه وتبرأ من عظمه، وعاد رخصاً رطباً، بعدما كان عضلاً[٣] صلباً، والإنسان إذا خصي طال عظمه وعرض، فخالف جميع الحيوان من هذا الوجه.

وتعرض لهم أيضاً طول أقدام، واعوجاج في أصابع اليـد، والتواء في أصابع الرجل، وذلـك من أول طعنهم في السّن، وتعرض لهم سرعـة التغيّر والتبدل، والانقلاب من حدّ الرطوبة[٤]، والبضاضة وملاسة الجلد، وصفـاء اللون ورقته، وكثرة الماء وبريقـه، إلى التكرش والكمـد، والتقبض والهزال، وسوء الحال.

فهـذا الباب يعـرض للخصيان، ويعـرض أيضـاً لمعـالجي النبـات من

(١) في (ط) «وقيل ذي ذفر وصنان وكريه الشمة» وهو كلام محرف.
(٢) خلت نسخة (هـ) من هذا الجزء.
(٣) في (ل) «عصلاً» والوجه ما هنا مطابقاً لما في (ط)، وفي (ط) «ان» موضع «ما».
(٤) هنا كما جاء في (ل)، وفي الأصل كما في (هـ) «وانقلاب من حد الرطوبة».

الأكرة[1] من أهل الزرع والنخل، لأنك ترى الخصيّ وكأن السيوف تلمع في لونه[2]، وكأنه مرآة صينية، وكأنه جمّارة، وكأنه قضيب فضة، وكأنه في وجناته الورد، ثم لا يلبث كذلك إلاّ نسيئات يسيرة[3]، حتى يذهب ذلك ذهاباً لا يعود، وإن كان ذا خصب وفي عيش رغد، مع[4] فراغ بال، وقلّة نصب.

قالوا: والخصي إذا قطعت خصيته قويت شهوته، وسخنت معدته، ولانت جلدته، وانجردت شعرته، وكثرت دمعته!!

قالوا: والخصي لا يصلع، كما لا تصلع المرأة، وإذا قطع من العضو الذي كان به فحلاً تاماً، أخرجه أكثر ذلك من أكثر معاني الفحول وصفاتهم، وإذا أخرجه من ذلك الكمال، صيّره كالبغل الذي ليس هو حماراً ولا فرساً، وتصير أخلاقه[5] مقسومة، على طباع الذكر والأنثى، وربما لم يخلص له الخلق حتى يصير من أخلاق الرجال، أو يلحق بمثله من أخلاق النساء، ولكنه يقع ممزوجاً مركباً، فيخرج إلى أن يكون مذبذباً، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

قالوا[6]: وللإنسان قوى معروفة المقدار، وشهوات مصروفة في وجوه حاجات النفوس، قائمة بطبائعها، مقسومة عليها، لا يجوز تعطيلها وترك استعمالها ما كانت النفوس قائمة بطبائعها، وباب المنكح من أكبرها، وأعمّها.

ويدخل في باب المنكح ما في طبائعهم من طلب الولد، فمنه من يطلبه للكثرة والنصرة، والقوّة، ولذلك استلاطت العرب الرجال، وأغضت[7] على نسب المولود على فراشه، وقد أحاط علمه بأنه من الزوج الأول.

---

(١) في (ط) «ويعرض أيضاً لنبات الأكرة» وأثبت بعد التصحيح ما في (ل).
(٢) في مفاخرة الجواري والغلمان «تلمع في وجهه».
(٣) النسأة بالضم والنسيئة بمعنى النظرة ـ بكسر الظاء ـ وتصغر النسأة وتجمع، فتكون، نسيئات، والمراد بها الوقت القليل.
(٤) في (هـ) «في» موضع «مع».
(٥) في (هـ) «طبائعه».
(٦) في (ط) «قال» والوجه ما هنا موافقاً ما في (ل).
(٧) أغضى على الشيء: سكت، وفي (ط) «وأغضبت» والوجه ما ثبت هنا كما في (ل).

وما أكثر ما يطلب الرجل الولد نفاسة بماله على بني عمّه، أو لإشفاقه أن تليه القضاة وترتع فيه الأمناء، فيصير ملكاً للأوصياء[١]، ويقضي به القاضي الذّمام ويصطنع به الرجال.

وربما همّ الرجل يطلب الولد لبقاء الذكر، وللرغبة في العقب، أو على جهة طلب الثواب[٢] في مباهاة المشركين، والزيادة في عدد المسلمين، بل لما طبع الله عز وجل عليه بني آدم من حب الذريّة، وكثرة النسل، كما طبع السنانير والحمام وإن كان إذا جاءه الولد زاد في همّه ونصبه، وبخله وجبنه، وقال النبي ﷺ «الولد مجبنة مبخلة مجهلة» فيحتمل في الولد المؤن المعروفة والهموم الموجودة، لغير قصد له، وليس في ذلك أكثر من طلب الطباع، ونزوع[٣] النفس إلى ذلك.

وذكر أبو الأخزر الحمّاني عير العانة[٤] بخلاف ما عليه أصحاب الزّواج من الحيوان، فقال عند ذكر سفاده:

لا مبتغي الضنء ولا بالعـــازل[٥]

[والضنء: كثرة الولد، يقال: ضنأت المرأة وأضنأت إذا كثر ولدها][٦].

والإنسان من بين الحيوان المزاوج، إذا كره الولد عزل، والمزاوج من أصناف الحيوانات إنما غايتها طلب الذرء[٧] والولد، لذلك سخّرت، وله هيئت، والحمار لا يطلب الولد، فيكون إفراغه في الأتان لذلك، ولا إذا كان لا يريد

---

(١) في (هـ) «الأولياء» موضع «الأوصياء».
(٢) في (ط) «الصواب» وهو تحريف ظاهر.
(٣) أثبت ما في (هـ) موضع «نزاع» بالمخطوطة.
(٤) في (ط) «وذكر أبو الأخزر الحمام غير العافة» وهو تحريف شنيع.
(٥) في (ط) «لا مبتغي الذر ولا بالعازل»، وفي (ل) «الذرء ولا العازل» وبالمخطوطة «لا مبتغي الضنء ولا بالعازل»، وأثبت ما في (هـ) كذلك «الذرء».
(٦) سقط لم يرد في (هـ) وبقية النسخ.
(٧) في (ط) «الذر».

الولد عزل كما يعزل الإنسان، غير أن غايته قضاء فقط، ليس يخطر[١] أن ذلك الماء يخلق منه شيء.

وروي أن ليس في البهائم شيء يعمل على قوم لوط إلاّ الحمار.

وعامّة اكتساب الرجال وإنفاقهم[٢]، وهمتهم وتصنعهم، وتحسينهم لما يملكون، إنما هو مصروف إلى النساء وإلى الأسباب المتعلقة بالنساء، ولو لم يكن إلاّ التنمُّص والتنطيف والتخضب، والذي يعدّ لها من الطيب والصّبغ، والحلي والكساء[٣]، والفرش، والآنية، لكان في ذلك ما كفى، ولو لم يكن له إلاّ الاهتمام بحفظها وحراستها، وخوف العار من جنايتها والجناية عليها، لكان في ذلك المؤنة الغليظة[٤].

فإذا بطل العضو الذي من أجله يكون اشتغال النفس بالأصناف الكثيرة، من اللذّة والألم، فباضطرار أن تعلم أن تلك القوى لم تبطل من التركيب، ولم يعدمها الخلقة، وإنما سدّ دونها جسد، وأدخل عليها حجاب، فلا بدّ لها إذا كانت موجودة من عمل، لأن عمل كل جوهر لا يعدم إلاّ بعدم ذاته، فإذا صرفت من وجه غاضت[٥] في وجه، ولا سيما إذا جمّت، فلا بدّ لها إذا عدت وطغت[٦]، من أن تفيض أو تفتح لنفسها باباً، وليس بعد المنكح باب له موقع كموقع المطعم، فاجتمعت القوى التي كانت للمنكح إلى القوة التي كانت عنده للمطعم، فإذا اجتمعت القوتان في معنى[٧] واحد، صار الخصي آكل من أخيه لأمه وأبيه، وعلى قدر شهوته يكون هضمه، وعلى قدر حاجة طبعه وحركة

---

(١) في الأصل «يذكر».
(٢) أثبت ما في (هـ)، وكانت العبارة في المخطوطة «وعامة انفاق الرجال وكسبهم».
(٣) وردت بالمخطوطة «الكسيّ» وأثبت ما في (هـ).
(٤) في (هـ) «العظيمة» موضع «الغليظة».
(٥) هنا كما بالأصل «غاضت»، وفي (هـ) و(ل) «فاضت».
(٦) في (هـ) «وطفت وطمت».
(٧) في (هـ): «باب» موضع «معنى».

نفسه[١] والحرارة المتولدة عن الحركة يكون الاستمراء، لأن الشهوة من أمتن أسباب الاستمراء، والحركة من أعظم أبواب الحرارة.

ودوام الأكل في الإناث أعم منه في الذكور، وما أشك أن الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكله المرأة، ولكنها تستوفي ذلك المقدار مقطعاً غير منظوم، وهي بدوام منها، يكون حاصل طعامها أكثر، فيصير للخصي نصيبان، نصيبه من شبه النساء، [ونصيبه من شبه الرجال][٢] ثم اجتماع قوى شهوتيه في باب واحد، أعني شهوة المنكح التي تحولت إلى شهوة المطعم.

ولشدة نهم الإناث، صارت اللبوءة أشد غراماً وأنزق، إذا طالبت[٣] الإنسان لتأكله، وعلى[٤] ذلك المعنى صارت إناث الأجناس الصائدة أصيد، كإناث[٥] البزاة. وما أشبه ذلك.

ويعرض له عند قطع ذلك العضو تغير الصوت، حتى لا يخفى على من سمعه، من غير أن يرى صاحبه أنه خصي، ومتى خصي قبل الإنبات لم ينبت، ومتى[٦] خصي بعد استحكام نبات الشعر في مواضع الشعر[٧] تساقط كله إلا شعر العانة، فإنه وإن نقص من غلظه ومقدار عدده فإن الباقي كثير، ولا يعرض لشعر الرأس، فإن شعر الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة، وإنما يتعرض لما يتولد من فضول البدن.

وقد توجد المرأة ذات لحية. وأكثر ما رأيته في عجائز الدهاقين، وكذلك الغبب والشارب[٨]، [ولا يعرض اللحى في النساء إلا عند ارتفاع

---

(١) في (ط): «على قدر حاجة طبعه وحاجة الحرارة المتولدة عن الحركة» والوجه ما هنا كما في (ل).
(٢) سقط في (هـ) من هذا الموضع.
(٣) في (هـ): «طلبت».
(٤) في الأصل: «ولذلك». وفي (هـ) «وكذلك».
(٥) في (هـ): «كالإناث».
(٦) في (هـ): «وإذ» موضع «متى».
(٧) في (هـ): «في مواضعه».
(٨) أثبت ما في (هـ) بدلاً من «السنام» بالمخطوطة.

الحيض] (1)، ويفضل الخصي المرأة في الإنجراد، بأن تجد المرأة زباء الذراعين والساقين، وتجد ركب(2) المرأة في الشعر كأنه الرجل، ويعرض لها الشعر في إبطيها وفي غير ذلك.

ولا يعرض ذلك للخصي، فيعرض للديك إذا خصي: ان يزيل غضروف عرفه ولحيته.

والخصاء ينقص من شدة الأسر، وينقص مبرم(3) القوى، ويرخي معاقد العصب، ويقرب من الهرم والبلى.

ويعرض للخصي أن يشتد وقع رجله على أرض السطح، حتى لو تفقدت وقع قدمه وقدم أخيه الفحل الذي هو أعبل منه لوجدت لوقعه ووطئه شيئاً لا تجده لصاحبه. فكأن العضو الذي كان به يشتد توتير النسا(4)، ومعاقد الوركين(5) ومعاليق العصب، كما بطل وذهب الذي كان يمسكه ويرفعه، فيخف لذلك وقع رجليه، فصار كالذي لا يتماسك ولا يحمل بعضه بعضاً.

وعدد أصناف الخصيان فقال: فاما الخصيان من الحبشان والنوبة، وأصناف أولئك السودان فإن الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم، ويحطهم عن مقادير إخوتهم، كما يزيد الصقالية على مقادير إخوتهم، لأن الحبشي متى خصي، سقطت نفسه، وثقلت حركته، وذهب نشاطه، ويحضر(6) له فساد، لأنه متى(7) استقصى جبابه لم يتمالك بوله(8)، وسلس مخرجه، واسترخى [قوى](9) الممسك

(1) سقط من هذا الموضع في (هـ).
(2) الركب بالتحريك: العانة أو منبتها أو الفرج أو ظاهره.
(3) في (ط): «وينقص» بالصاد. وصوابه في (ل) وما ثبت هنا.
(4) في (ط): «وكأن العضو الذي به يشتد توتير النساء وفي (ل): «وكأن العضو الذي كان يشد توتير عرق النساء» وصحة العبارة ما هنا كما أصلحها في (هـ).
(5) في (ط): «ومعاليق الوركين» وليس بشيء.
(6) في (هـ): «ويعرض» موضع «ويحضر».
(7) نهاية الوجه الأول من الورقة ٣٨ وتكملة الكلام ما في الوجه الثاني من الورقة ٩. وثم ترتيب الصفحات بالمقابلة مع النسخ الأخرى.
(8) في (ط): «ولم يتماسك بوله» والوجه حذف الواو وفي (ل): «لم يتماسك بوله» وكذلك (هـ).
(9) سقطت هذه الكلمة من (هـ).

له، فإن هم لم يستقصوا جبابه، فإنما يدخل الرجل منزله من له نصف ذلك العضو(١)، وما أكثر ما تجد فيه الألطع (٢) وذلك فاش في باطن شفاههم.

ومتى كانت الشفاه هدلاً، والمشافر منقلبة، كانت أظهر للَّطع، وهو ضرب من البرص، وربما عرض مثل ذلك لحشفة قضيب المختون، اما لطبع الحديد، وأما لقرب(٣) عهده بالإحداد، وسقي الماء، إلا أن ذلك لا يعدو مكانه.

وكلما عظمت الشفة انبسط ذلك البياض على قدر الزيادة فيها، وإنما ذلك كالبياض الذي يعرض من حرق النار وتشييطه(٤).

ثم الخصاء يكون على ضروب، فمن ذلك ما يعرض بعد الكبر للأحرار، كما خصي بعض عباهلة اليمن(٥) علقمة بن سهل الخصي.

وإنما قيل لعلقمة بن عبدة الفحل(٦) حين وقع على هذا الاسم الخصي. وكان عبداً صالحاً، وهو كان جلب الجديل(٧) وداعراً، الفحلين الكريمين إلى

---

(١) يقول (هـ) في الكلام نقص وتحريف ولعل صواب العبارة: «فأما من لم يستقص جبابه فقلما يدخل الرجل منزله منهم... الخ».
(٢) اللطع: بياض في باطن الشفة، وأكثر ما يعتري ذلك السودان.
(٣) في (ط) و(ش): «لقدم» وهو خطأ صوابه ما هنا كما في (ل). ويؤيده ما كتبه الجاحظ أيضاً في الحيوان ٧: ٢٦. «ومن أن تكون الموسى حديثة العهد بالأحداد». وطبع الحديد: رداءته.
(٤) هنا كما في (ط) وفي(هـ): «وتشييطها».
(٥) عباهلة اليمن: أقيالهم.
(٦) هو علقمة بن عبدة بن ناشرة بن قيس، من بني تميم: شاعر جاهلي من الطبقة الأولى، كان معاصراً لامرئ القيس، وله معه مساجلات، وأسر «الحارث بن أبي شمر الغسانيّ أخا له اسمه «شأس» فشفع به علقمة، ومدح الحارث بأبيات، فأطلقه. له ديوان شعر مطبوع، توفي نحو سنة ٣٠ ق.هـ، شرح ديوانه الأعلم الشنتمري ترجمته (الأعلام ٥/٤٨، خزانة البغدادي ١/٥٦٥-٥٦٦، معاهد التنصيص ١/١٧٥، الشعر والشعراء ٥٨ سمط اللآلئ ٤٣٣).
(٧) في (ط): «الجزيل» وصوابه «الجديل» كما في (ل) وهنا والقاموس. قال فحل للنعمان بن المنذر. وأما داعر فهو فحل منجب. وفي (هـ): «جنب» موضع «جلب» وجنب البعير: قاده إلى جنبه.

عيان، وكان أحد الشهود على قدامة بن مظعون[١] في شرب الخمر، وهو الذي قال لعمر: أتقبل شهادة الخصي؟ قال: أما شهادتك فأقبل.

وكما عرض للدلال ونومة الضحى، وخصاء[٢] عثمان بن حيان المري والي المدينة لهما، فإن هشام بن عبد الملك كتب إليه: «أحص من قبلك من المخنثين» فقرأها: «أخص من قبلك من المخنثين» ومن بني مروان من يدعي أن والي المدينة صحف، وذكر الهيثم عن الكاتب الذي تولى قراءة الكتاب، أنه قال: كيف يقولون ذلك!! ولقد كانت الخاء معجمة بنقطة، كأنها سهيل، ويروى كأنها صيحانية[٣]؟ فقال اليقطري[٤]: وما وجه كتاب هشام في إحصاء عدد المخنثين؟ هذا ما لا وجه له[٥]، وما كان الكتاب إلا بالخصاء دون الإحصاء[٦] وذكر عنهما أنهما قالا: الآن صرنا نساء بالحق!! كأن الأمر لو كان إليهما لاختارا أن يكونا امرأتين!.

وكما عرض لأبي همام السنوط من امتلاخ اللخم مذاكيره[٧] وخصيتيه، أصابه ذلك في البحر في بعض المغازي[٨]، فسقطت لحيته، ولقب بالسَّنوط، [اللخم: ضرب من سمك البحر، وامتلاخه اقتلاعه]

وقال ذات يوم: لو كنا متى تناولنا من الشمراخ بسرة، خلى الله مكانها

---

(١) هو قدامة بن مظعون بن حبيب الجمحي القرشي: صحابي، من مهاجرة الحبشة شهد بدراً وأحداً والخندق، وسائر المشاهد مع رسول الله (ﷺ) واستعمله عمر على البحرين، ثم عزله لشربه الخمر، أقام عليه الحد في المدينة، توفي سنة ٣٦ هـ. ترجمته (الأعلام ٦/٣١ - ٣٢، النويري ٢/٦٠، البلازري ٨٩).

(٢) في (هـ): «ومن خصاء».

(٣) الصيحاني: ضرب من التمر أسود صلب الممضغة، وسمي صيحانياً لأن صيحان اسم كبش كان ربط إلى نخلة بالمدينة فأثمرت تمراً فنسب إلى صيحان.

(٤) في (ط) و(ل) و(ش) «البقطري» بالباء، وقد كتب بالياء في مواضع متعددة من الحيوان والبيان.

(٥) في (هـ): «وهذا لا معنى له» بدلاً من «هذا ما لا وجه له».

(٦) وردت العبارة في (هـ) هكذا: «وما كان الكتاب إلا بالخاء المعجمة دون الحاء المهملة».

(٧) في (ط) «من امتلاخ لحم مذاكيره وخصييه» وهو تحريف صوابه في (ل). ووردت بالمخطوطة «من امتلاخ اللخم من مذاكيره وخصييه» بزيادة «من» واللخم بالضم: سمك بحري، وقد ضبط في معجم المعلوف، ص ٢٢٥ بالفتح سهواً، قال: «وهو يعرف بالقرش في سواحل البحر الأحمر».

(٨) شرح لابن منظور.

بسرتين، لما كان بذلك بأس إثم قال: استغفر الله! لو كنت تمنيت أن يكون بدل نواة التمر زبدة كان أصوب!!

ومنه ما يعرض من جهة الأوجاع التي تعرض للمذاكير والخصيتين[1]، حتى ربما امتلخهما طبيب، وربما قطع إحداهما، وربما سقطتا جميعاً من أنفسهما.

والعوام يزعمون أن الولد إنما يكون من البيضة اليسرى، وقد زعم ناس من آل سليمان بن علي[2] ومواليهم، أن ولد داود بن جعفر الخطيب المعتزلي، إنما ولد بعد أن نزعت بيضته اليسرى لأمر كان عرض له.

والخصي الطيان، الذي كان في مسجد ابن رغبان[3]، ولد له غلام وليس له إلا البيضة اليمنى، فجاء أشبه به من الغراب بالغراب.

ومن أهل الملل من يخصي ابنه ويقفه على بيت العبادة، ويجعله سادناً كصنيع الروم إلا أنهم لا يحدثون في القضيب حدثاً، ولا يتعرضون إلا للأنثيين، كأنهم إنما كرهوا لأولادهم أحبال نسائهم ورواهبهم[4]، فأما قضاء الوطر وبلوغ اللذة، فقد يزعمون[5] أنهم يبلغون من ذلك مبلغاً لا يبلغه الفحل، كأنهم يذهبون[6] إلى أنه يستقصي جميع ما عندها ويستجلبه، لفرط قوته على المطاولة.

وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قبل الروم، وأما الصائبون، فإن

---

(١) أبدلت «الخصى» بـ «الخصيتين» التي في (هـ).

(٢) هو سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس: أمير عباسي من الأجواد الممدوحين، ولاه ابن أخيه (السفاح) إمارة البصرة وأعمالها، وكور دجلة والفرات والبحرين وعمان، وأقام فيها إلى أن عزله المنصور، ولم يزل بالبصرة إلى أن توفي عام ١٤٢ هـ (الأعلام ٣/١٩٣، الطبري ٩/١٧٩، فوات الوفيات ١/١٧٧، تهذيب ابن عساكر ٦/٢٨١).

(٣) في (ط): «ابن زغبان» بالزاي وأثبت ما في (ل) موافقاً لما هنا، وما في معجم البلدان وقال ابن قتيبة في المعارف ٣٦٦: «ابن رغبان الذي ينسب إليه المسجد ببغداد، وهو مولى حبيب بن سلمة. وكان حبيب عظيم القدر، يلي الولايات زمن عثمان ومعاوية».

(٤) في (ط): «ودواهيهم» وتصحيحه من (ل) كما هنا. والرواهب جمع راهبة.

(٥) في (هـ): «زعموا» بلفظ الماضي.

(٦) في (هـ): «يزعمون» بدلاً من «يذهبون».

العابد منهم، ربما خصى نفسه ترهباً، فمنهم أبو المبارك الصابي. وما زال الملوك والخلفاء ينصتون إليه، ويسمعون منه، ويسمر عندهم، إلا وجدوا عنده الفهم والإفهام، وطرف الأخبار، ونوادر الكتب، وكان قد أربى على المائة، فينبغي لمن كان كذلك أن يكون وهن الكبر، ونفاد الذكر[١]، وموت الشهوة، وانقطاع ينبوع النطفة، أن يكون قد أمات حنينه إلى النساء وتفكيره في الغزل! قال: قلنا: صدقت، قال: وينبغي أن يكون من عود نفسه تركهن زهداً[٢]، وتخلى منهن دهراً، أن تكون العادة وتمرين الطبيعة، قد حط من ثقل منازعة الشهوة، ودواعي الباءة، وقد علمتم أن العادة التي هي الطبيعة الثانية، قد تستحكم ببعض هجران[٣] ملامسة النساء. قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون من لم يذق طعم الخلوة بهن ولم يجالسهن متبذلات، ولم يسمع خلابتهن للقلوب، واستمالتهن للأهواء، ولم يرهن متكشفات عاريات، (أن يكون)[٤] إذا تقدم له ذلك مع طول الترك، ألا يكون بقي معه من دواعيهن شيء؟! قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون من قد علم أنه مجبوب، وأن سببه إلى خلاطهن محسوم، أن يكون اليأس من أمتن أسبابه إلى الزهد، وإلى موت الخواطر. قلنا: صدقت. قال: وينبغي أن يكون من دعاه الزهد في الدنيا، وفيما يحتويه النساء مع جمالهن وفتنة النساك بهن، إلى أن خصى نفسه، ولم يكرهه عليه أب أو عدو، ولا سباه ساب، أن يكون مقدار ذلك الزهد هو المقدار الذي يميت الذكر، ويستوي[٥] عنده فقدهن ووجودهن، وينبغي لمن كان في مكانه أن ينشئ[٦] الغرم ويختار الإرادة التي يصير بها إلى قطع ذلك العضو الجامع لكبار اللذات،

---

(١) الذكر هنا في معنى التذكار.

(٢) في (هـ): «مدوا» موضع «زهدا» التي هنا و(ل)، «ومنهن» كما في (ط) موضع «عنهن» في (هـ).

(٣) وردت العبارة في (هـ): «قد تستحكم ببعض عمد هجر لملامسة النساء» وفي (ل): «عمر» موضع «عمد» و«هجراني» موضع «هجر».

(٤) محذوفة من (هـ).

(٥) هنا كما في (ل): «ويستوي عنده فقدهن ووجودهن» وفي (هـ): «ويسري عنه ألم فقد وجودهن».

(٦) في (ط): «وينبغي لمن كان في مكانه ألا ينسى الغرم». وأصلحت العبارة من (هـ) وكانت قد وردت: «في إمكانه أن ينسى الغرم».

وإلى ما فيه من الألم، ومع ما فيه من الخطر[١] وإلى ما فيه من المثلة والنقص الداخل على الخلقة، أن تكون الوساوس في هذا الباب لا تعروه، والدواعي لا تعوده[٢]، قلنا: صدقت. قال: وينبغي لمن سخت نفسه عن السكن وعن الولد، وعن أن يكون مذكوراً بالعقب الصالح، أن يكون قد نسي هذا الباب، إن كان مرة منه على ذكر. هذا وأنتم تعلمون أني سملت عيني يوم خصيت نفسي، فقد نسيت كيفية الصور، وجهلت المراد منها، أفما كان[٣] من كان كذلك حرياً أن تكون نفسه ساهية مشغولة بالباب الذي له[٤] احتمل هذه المكاره؟! قلنا: صدقت. قال: ألو لم أكن هرماً[٥] ولم يكن هاهنا طول اجتناب، وكانت الآلة قائمة إلا[٦] أني لم أذق حيواناً منذ ثمانين سنة ولم تمتل عروقي[٧] من الشراب مخافة الزيادة في الشهوة، والنقصان من العزم، لكان[٨] في ذلك ما يقطع الدواعي، ويسكن حركة إن هاجت؟! قلنا: صدقت. قال: فإني بعد جميع ما وصفت لكم، لأسمع نغمة المرأة فأظن مرة أن كبدي قد انصدعت[٩]، ومكان عقلي قد اختلس ولربما نزا فؤادي[١٠]عند ضحك إحداهن، حتى أظن أنه قد خرج من فمي، فكيف ألوم عليهن غيري؟!

فما ظنك بهذا الرجل قبل هذا الوقت بسبعين سنة؟! وما ظنك به قبل الخصاء بساعة؟! وليس في الاستطاعة ولا صفة الإمكان، أن يحتجز عن إرادة النساء، ومعه من الحاجة إليهن والشهوة لهن هذا المقدار! الله أرحم بخلقه وأعدل على عباده، من أن يكلفهم هجران شيء، وقد وصله بقلوبهم هذا الوصل، وأكده هذا التأكيد.

---

(١) أثبت ما في (هـ) «الخطر» موضع «الخطارة».
(٢) في (هـ): «لا تقروه» قراه يقروه: قصده. وفي الأصل: «تطروه».
(٣) في (ط): «فما كان ذلك» وتصحيحه ما ثبت هنا كما في (ل)، وكذلك (هـ).
(٤) في (هـ): «له» مذكور بعد «احتمل».
(٥) في الأصل: «أوليس لو لم أكن هرماً». وفي (هـ) «أولم أكن هرماً».
(٦) هنا كما جاء في الأصل. وفي (هـ): «أليس في أني».
(٧) في (ط): «تثمل» وما اثبته موافق لما في (ل).
(٨) في المخطوطة كما بالأصل «لكان» وفي (هـ): «أليس في ذلك».
(٩) في (هـ): «كبدي قد دأبت «موضع» كبدي قد انصدعت».
(١٠) وردت العبارة في (هـ): «ولربما اضطرب فؤادي» ونزا: وثب وبابه عدا.

وقد خصى نفسه جماعة من الصابئين.

وكان عثمان بن مظعون[1]، استأذن النبي ﷺ في السياحة فقال: «سياحة أمتي الجماعة». واستأذنه في الخصاء فقال: «خصاء أمتي الصوم» وقال: «الصوم وجاء». فهذا خصاء الديانة.

وأما من خصي الجلب[2] على جهة التجارة، فإنه يجب القضيب، ويمتلخ الانثيين، إلا أن تقلصت إحداهما إفراط الفزع[3] فتصير إلى موضع لا يمكن ردها إلى مكانها إلا بعلاج طويل، فللخاصي عند ذلك ظلم لا يفي به ظلم، لأنه عند ذلك لا يحفل بفوت المتقلص[4]، ويقطع ما ظهر له، فإن برئ مجبوب القضيب أو ذا بيضة واحدة[5]، فقد تركه لا امرأة ولا رجلاً ولا خصياً، وهو حينئذ ممن تخرج لحيته، وممن لا يدعهم الناس في دورهم وبيوتهم، فلا يكون مع الخصيان مقرباً، ولا هو إذا رمى يتبع الفحول لما للفحول من لذة غشيان النساء، ولذة الأنساب[6] والتمتع بشم الاولاد، فلا[7] يزال عند الفحول مستضعفاً وعند الخصيان مجرحاً، فهو أسوأ حالاً من السدم المعنى[8] فلا أعلم قتله - إذا كان القتل سريحة مريحة[9]- إلا أصغر عند الله، وأسهل على هذا المظلوم.

وأما خصاء البهائم، فمنه الوجاء، وهو أن يشد عصب مجامع [جلد][10]

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) الجلب: ما جلب من خيل وغيره.

(٣) (ط): «القرع» والصو اب ما هنا وما في (ل).

(٤) (ط): «بموت المقلص» وصوابه ما أثبت» كما في (ل).

(٥) أصلحت العبارة من (هـ) وقد وردت هكذا «فان ابرأ وهو مجبوب القضيب، وبيضة واحدة».

(٦) في (هـ): «النسل» موضع «الأنساب».

(٧) في (هـ): «فلم يزل» بدلاً من «فلا يزال».

(٨) اللسان: السدم: الذي يرغب عن فعلته فيحال بينه وبين ألافه، ويقيد إذا هاج، فيرعى حوالى الدار، وإن صال جعل له لجام يمنعه عن فتح فمه، قال الوليد بن عقبة:

قطعت الدهر كالسدم المعنى ... تهدر في دمشق وما تريم.

(٩) هنا كما في (ل). وفي (هـ): «صريحة مريحة».

(١٠) هنا بوضع كلمة «جلد» بين كلمتي «مجامع» و«الخصية» وفي (هـ) بدونها.

الخصية من أصل القضيب، حتى إذا ندرت البيضة، وجحظت الخصية، وجأها حتى يرضها، فهي عند ذلك تذبل وتنخسف، وتذوي وتستدق، حتى تذهب قواها، وتنسد المخارق [1]إليها، ويسري ذلك الفساد إلى موضع تربية النطفة، فيمنعها من أن تكثر أو تعذب أو تخثر.

ومنها ما يكون بالشد والعصب، وشدة التخريق، والعقد بالخيط الشديد التوتير[2] فإذا تركه على ذلك عمل فيه وحزَّ، وأكلَّ ومنعه من أن يجري إليه الغذاء، فلا يلبث أن ينقطع ويسقط.

ومنه الامتلاخ، وهو امتلاخ البيضتين.

فأما خصاء الناس، فإن للخاصي حديدة مرهفة محماة، وهي الحاسمة، وهي القاطعة. ويقال: خصيت الدابة أخصيها خصاء، ويقال: برئت إليك من الخصاء[3] والوجاء، ولا يقال ذلك إلا لما كان قريب العهد لم يبرأ منه، فإذا برئ لم يقل له[4].

أما الخصاء فهو سل الخصيتين، والوجاء أن توجأ العروق والخصيتان على حالها. والمعصوب من التيوس الذي تعصب خصيتاه حتى تسقطا[5].

والخصاء في أحداث البهائم، وفي الغنم خاصة، يدع اللحم رخصاً ونديأ عذباً، فان خصاه بعد الكبر، لم يقو خصاؤه ـ بعد استحكام القوة ـ على قلب طباعه. وأجود الخصاء ما كان في الصغر، وهو الذي يسمى بالفارسية تربخت[6] بمعنى أنه خصي رطباً. والخصي أحمل للشحم، لعدم الهيج والنعظ،

---

(١) في (هـ): «المجاري» موضع «المخارق».

(٢) وردت العبارة في (هـ): «والعقد بالخيط الشديد الوتير».

(٣) في(هـ): «من الخصاء أو الوجاء» موضع «الخصاء والوجاء».

(٤) كتبت الوجه من (هـ) وكان كما في الأصل: «لم يقله» وهو خطأ في الرسم أوجبه تكرار اللام.

(٥) كتبت كما جاء في (هـ). وكانت العبارة «الذي تعصب خصيتاه حتى تسقط خصيتاه».

(٦) (ط): «بربخت».

وخروج قواه مع ماء الفحلة[١]. وإكثار[٢] السفاد يورث الضعف والهزال في جميع الحيوان.

والديك يخصى ليرطب لحمه ويطيب ويحمل الشحم.

وكانت العرب تخصي فحولة الإبل لئلا يأكل بعضها بعضاً، وتستبقي ما كان أكثر[٣] ضراباً، وأكثر نسلاً، وكل ما كان مئناثاً[٤] وكان شاباً ولم يكن مذكاراً، وإذا كان الفحل لا يتخذ للضراب، شدوا ثيله شداً، وتركوه يهدر ويقبقب في الهجمة، وإن أردن[٥] الفحل جيء بفحل قبيس[٦] ويقولون: «لقوة لاقت قبيساً!». والقبيس من الجمال: السريع الإلقاح، واللقوة[٧] الناقة السريعة القبول.

وشكت امرأة زوجها، وخبرت[٨] عن جهله بإتيان النساء، وعجزه[٩] وعيه، وأنه إذا سقط عليها أطبق[١٠]والنساء يكرهن وقوع صدور الرجال على صدورهن ـ فقالت: زوجي عياياء طباقاء، وكل داء له دواء!!

وكانوا يخصون الخيل لشبيه[١١]بذلك، ولعلة صهيلها ليلة البيات، وإذا أكمنوا الكمناء أو كانوا هراباً.

---

(١) (ط): «عما يجامع الفحلة» وهو تحريف.
(٢) في(هـ): «وكثرة» موضع «وإكثار».
(٣) في (هـ): «أجود» موضع «أكثر» وما بالمخطوطة هو الوجه لأن الغراب يوصف بالكثرة والنسل بالجودة.
(٤) (ط): «ماساً». وهو تحريف صوابه ما ثبت هنا كما في (ل).
(٥) (هـ)؛ «فإذا طلبن» موضع «وإن أردن».
(٦) (هـ): «بفحل قعسري» موضع «بفحل قبيس» والقعسري: الضخم الشديد.
(٧) موضعها في (هـ): «واللقوة: السريعة القبول لماء الفحل».
(٨) (هـ): «وأخبرت» بالهمزة موضع التضعيف.
(٩) (هـ): «وعيه وعجزه».
(١٠)أبدلت كلمة «انطلق» التي كانت بالمخطوطة بما في (هـ) «أطبق» لأنها الوجه.
(١١)(ط): «للتشبه بذلك».

ويزعم من لا علم له، أن الخنذيذ[1] في الخيل هو الخصي. وكيف يكون ذلك، مع قول خفاف بن ندبة[2]:

وخناذيذ خصية وفحولا[3]

والخنذيذ الكريم التام، وربما وصفوا به الرجل.

وتعرض للخصي سرعة الدمعة وذلك من عادات[4] طبائع الصبيان والنساء.

ويعرض له العبث واللعب بالطير، والشره عند الطعام، والبخل عليه، والشح العام في كل شيء.

ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضاء ويعرض له حب النميمة، وضيق الصدر بما أودع من السر. ويعرض له البصر بالرفع والوضع، والكنس والرش، ويعرض له الصبر على طول الركوب، والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك وفرسان الخوارج.

ويعرض له حب الرمي بالنشاب، ويعرض له حب أن تملكه الملوك، على ألا يقيم له إلا القوت، ويكون ذلك أحب إليه من أن تملكه السوقة، وإن ألحقته بعيش الملوك.

ومن العجب أنهم مع خروجهم من شطر طبائع الرجال، إلى طبائع

---

(١) يتكرر في (ط) رسم هذه الكلمة ومشابهاتها برسم «خنزير» و«خنازير» وهو تصحيف صحته ما في (ل) كما هنا، ومن اللسان، ومن البيان ٢: ١١ - ١٢، وأدب الكاتب ١٦٣، وصحاح الجوهري.

(٢) سبقت ترجمته ص ١٦٦.

(٣) البيت منسوب في البيان ٢/ ١١ إلى البرجمي، وهو في اللسان خفاف بن عبد قيس من البراجم وفي الصحاح خفاف بن قيس، فيكون غير خفاف بن ندبة، إذ أن ابن ندبة من بني الشريد وهو ابن عم الخنساء، وليس بنو الشريد من البراجم. وصدر البيت المذكور هو كما في اللسان:

«وبراذين كابيات وأتنا»

(٤) (هـ): «عادة» موضع «عادات».

النساء، لا يعرض لهم التخنيث. وقد رأيت غير واحد من الأعراب مخنثاً متفككاً، ولم أر خصياً قط مخنثاً[١].

وزعم كثير من الشيوخ المعمّرين، أنهم اختبروا أعمار ضروب الناس، فوجدوا طول الأعمار[٢] في الخصيان، وليس لذلك علة إلا عدم النكاح، وقلة استخراج[٣] النطف أقوى أصلابهم[٤].

ولذلك لم نجد في الخيل، والحمير، وسائر أصناف الحيوانات، أطول أعماراً من البغال ولا أقل أعماراً من العصافير، وليس ذلك إلا لقلة سفاد البغال، وكثرة سفاد العصافير، ويقال إن الحمر الوحشية، وبخاصة الأخدرية، (انها) أطول الحمير أعماراً[٥] وإنما هي من نتاج الأخدر، فرس كان لأردشير ابن بابك صار وحشياً[٦] فحمى عدة عانات فضرب فيها، فجاء أولاده منها أعظم من سائر الحمر وأحسن، وخرجت أعمارها على[٧] أعمار الخيل وسائر حمر الوحش، فإن أعمارها تزيد على الحمر الأهلية مرات عدة[٨].

ولا يعرفون حماراً أهلياً[٩] عاش أكثر وعمر أطول من عير أبي سيارة عميلة ابن الأعزل[١٠]، فإنهم لا يشكون أنه دفع عليه بأهل الموسم أربعين عاماً!!

قال الأصمعي: لم يكن عيراً وإنما كان أتاناً.

---

(١) هذه الجملة ساقطة من (ل).
(٢) (ط): «أطول» وتصحيحه ما هنا كما في (ل). وانظر مفاخرة الجواري والغلمان ١٢٤.
(٣) في (هـ): «استفراع» موضع «استخراج».
(٤) في (هـ): «استفراغ النطف لقوى أصلابهم» وما هنا هو الوجه.
(٥) «إنها» سقط من (هـ).
(٦) (ط): «صار حماراً وحشياً» والصواب ما هنا كما في (ل)، (ش)و (هـ).
(٧) (هـ): «عن» موضع «على».
(٨) (هـ): «مراراً عدة».
(٩) (هـ): «وحشياً» بدلاً من «أهلياً».
(١٠)(ط): «غميلة بن أعزل» وهنا بالمخطوطة كانت» عميرة بن الأعزل «وإنما هو عميلة» بالعين كما في (ل) والبيان ١/٣٠٧، وفيه قال عيسى بن حاضر: لو أراد أبو سيارة عميلة بن أعزل أن يدفع بالموسم على فرس عربي أو جمل مهري لفعل، ولكنه ركب عيراً أربعين عاماً، لأنه كان يتأله (اهـ). أنظر ثمار القلوب صفحة ٢٩٥ للثعالبي.

وزعموا - وكذلك هو في كتبهم - أن ملوك فارس، كانت لهجة بالصيد، وكان بهرام جور هو المشهور بذلك.

وزعموا أن فيروز بن قباذ[1]، ألح في طلب حمار أخدري، فطاوله، فلج به الاغترام، إلى أن آلى أن لا يأخذه إلا أسراً، ولا يطارده إلا فرداً، فحمل فرسه عليه[2] فحطه في خبار[3] فجمع جراميزه وهو على فرسه ووثب، فإذا هو على ظهره، فقمص به، فضم فخذيه، فحطم بعض أضلاعه، ثم أقبل به إلى معظم الناس وهو راكبه.

فكان الملك منهم إذا أخذ عيراً أخدرياً أو غير أخدري، فوجده فتياً[4] وسمه باسمه[5] وأرخ في وسمه يوم صيده وخلى سبيله، فكان كثيراً إذا ما صاده الملك الذي يقوم بعده سار فيه تلك السيرة وخلى سبيله، فعرف آخرهم صنيع أولهم، وعرفوا مقادير أعمارها.

قال أبو اسحق: قال لي أبو العباس: أتعرف موضع الحظوة في خلوة النساء من جميع الأجناس؟ قلت ما أعرفه. قال: اعلم أن لا يكون الحظ إلا في نتاج شكلين متباينين، فالتقاؤهما هو الأكسير المؤدي إلى الخلاص: وهو أن تزاوج بين هندية: وخراساني، فإنها لا تلد إلا الذهب الإبريز ولكن احرس ولدها، إن كان الولد أنثى وأحذر عليها من شدة لواط رجال خراسان وزناء نساء الهند، واعلم أن شهوتها للرجال على قدر حظوتها عندهم، واعلم أنها ستساحق النساء على أعراق الخراسانية، وتزني بالرجال على أعراق الهند، واعلم

---

(١) (ط): «فيروز بن قبار» وصوابه ما هنا.

(٢) (ط) «إلا فرداً (اقتداراً لخيار الأرض الرخوة) فحمل عليه «بإقحام الجملة الموضوعة بين قوسين كبيرين، وربما يكون تعليقاً لأحد الكتاب، حيث فسر الخبار بأنه الأرض الرخوة. وصحفها آخر فجعلها «لخيار».

(٣) (ط): «خيار» وصوابه ما هنا كما في (ل).

(٤) (ط): «متيناً».

(٥) (ط): «وسمه باسم».

أنه مما يزيد في زناها وسحقها معرفتها بالحظوة عند الزناة، والحظوة[١] عند السحاقات[٢].

وقال الناس في الخلق المركب بضروب من الحق والباطل، ومن الباطل زعمهم أن الشبوط ولد الزجر[٣] من البني، وإن الشبوط لا يخلق من الشبوط، وإنه كالبغل في تركيبه وانساله.

وزعموا أن أم جعفر بنت جعفر بن المنصور، حصرت[٤] في حوض لها أو بركة عظيمة[٥] عدداً كثيراً من الزجر والبنى، ولم تخلط معهما غيرهما، فمات أكثره وبقيت بقية، فلم تحمل البيض حيناً، ثم أنها[٦] حملت بالشبابيط.

وزعم حريث أنه كان بايذج[٧]، فإذا سحابة دلماء طخياء[٨] تكاد تمس قمم رؤوسهم، وأنهم سمعوا فيها كأصوات المجانيق[٩]، وكهدير الفحول في الأشوال، ثم انها دفعت بأشد مطر رئي أو سمع به حتى استسلموا للغرق، ثم اندفعت بالضفادع العظام، ثم دفعت بالشبابيط السمان، فاشتووا، وملحوا وادخروا.

قال أبو واثلة: ومن الدليل على أن الشبوط كالبغل، أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بيضاً قط. فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بالعقل، ونعوت الفراسة ودقة الفطنة صحيحاً، فما أعظم المصيبة علينا فيه، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً، وذلك أني سمعت له كلاماً كثيراً من تصنيف الحيوان وأقسام الأجناس، يدل على أن الرجل حين أحسن في

---

(١) (هـ): «الحظ» موضع «الحظوة»، وما بالمختصر هو الوجه بمعنى الإيثار.
(٢) (ل): «عند النساء».
(٣) (ط): «الزخر» بالخاء وإنما هو الزجر كما في (ل) وهنا. قال الفيروزبادي: سمك عظام.
(٤) (ط): «حضرت». وليس بشيء.
(٥) (هـ): «كبيرة».
(٦) (ط): «فلم تحمل البيض حمائم إنما» وتصحيحه ما ثبت هنا و(ل).
(٧) في القاموس «ايذج» كأحمد بلدة من كور الأهواز، وقرية بسمرقند.
(٨) (هـ): «دهماء» موضع «دلماء»، (ط): «ضحياء» وصوابه ما أثبت، والطخياء: الشديدة السواد.
(٩) (ل): «المجاش» وهي جمع مجش أو مجشة، وهي الرحى.

أشياء وهمه العجب بنفسه أنه لا يروم شيئاً فيمتنع عليه، وغره في نفسه الذي غر الخليل بن أحمد، حين أحسن في النحو والعروض، فظن أنه يحسن الكلام وتأليف اللحون، فكتب فيهما كتابين لا يشير بهما ولا يدل عليهما إلا المرة المحترقة، ولا يؤدي إلى ذلك إلا خذلان من الله عز وجل[1] فإن الله عز وجل لا يعجزه شيء.

والشبوط[2] جنس كثير الذكور قليل الإناث، فلا يكون [إناثه] أيضاً يجمعن البيض، ولو جمعت بيض عشر منهن لما كان كشطر بيض بُنِّيَّة واحدة، قال: وقد رأيت[3] بيض الشبوط وذقته للتعرف فوجدته غير طائل، ولا معجب وكل صياد تسأله فهو ينبيك أن له بيضاً، ولكنه إذا كان كان ضئيلاً قليلاً، لأن الشبابيط في أصل العدد من أقل السمك، والشبوط لا يتربى في البحار، ولا يسكن إلا في الأودية والأنهار، ويكره الماء المالح ويطلب الاعذب، فيكون في الماء الجاري، ولا يكون في [الماء][4] الساكن.

وكذبوا على أم جعفر، والفرس تزعم أن الحيوان كله الذي يلد حيواناً مثله مما يمشي على أربع قوائم لا تخلو أجناسها من المعز والضأن، والجواميس عندهم ضأن البقر، والبخت عندهم[5] ضأن الإبل، والبراذين ضأن الخيل.

والناس يقولون في الإبل أقاويل عجيبة: فمنهم من يزعم أن فيها عرقاً من سفاد الجن، وذهبوا إلى الحديث: إنهم كرهوا الصلاة في أعطان الإبل لأنها

---

(١) (هـ): «من الله تعالى».
(٢) الشبوط، كسفود، ضرب من السمك. قال الليث: والسبوط بالسين المهملة، لغة فيه وهو دقيق الذنب عريض الوسط لين المس وهذا النوع قليل الإناث كثير الذكور فهو قليل البيض بسبب ذلك، وقيل إنه يثب في الهواء أكثر من عشرة أذرع (٢/٥٩ حياة الحيوان للدميري).
(٣) في الأصل: «فقد» والوجه ما ثبت. ما عدا (ل) وهنا «بعض».
(٤) سقطت من (هـ).
(٥) زيادة من (هـ) بين «والبخت» وضأن». أثبتها هنا.

خلقت من أعنان[1] الشياطين فجعلوا المثل والمجاز، [وجعلوا الكلام] على غير جهته. قال ابن ميادة[2]:

فلما أتاني ما تقول محارب   تغنت شياطين وجن جنونها

قال الأصمعي: المأثور من السيوف الذي يقال: إن الجن عملته.

وهم يسمون الكبر والخنزوانة والنعرة التي تضاف إلى أنف المتكبر شيطاناً، قال عمر: حتى أنزع شيطانه، كما قال: حتى أنزع النعرة التي في أنفه[3]، ويسمون الحية إذا كانت داهية منها شيطاناً، وهو قولهم: شيطان الحماطة[4].

وقد نهى عن الصلاة عند غيبوبة القرص[5]، وعند طلوع القرص.

وللعرب أمثال واشتقاقات، وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم، ولتلك الألفاظ مواضع أخرى، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة، والشاهد والمثل، فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم، وليس هو من أهل هذا الشأن، هلك وأهلك.

---

(١) (ط): «أعناق» وهو تحريف صوابه بالمخطوطة و(ل) واللسان وابن الأثير. ذكر ابن منظور أن النبي ﷺ سئل عن الإبل فقال: «أعنان الشياطين لا تقبل إلا مولية ولا تدبر إلا مولية». قال ابن منظور: فإنه أرادَ أنها على أخلاق الشياطين، وحقيقة الأعنان النواحي. قال ابن الأثير: كأنه قال كأنها لكثرة آفاتها من نواحي الشيطان في أخلاقها وطبائعها. وفي حديث آخر: «لا تصلوا في أعطان الإبل لأنها خلقت من أعنان الشياطين».

(٢) هوالرماح بن يزيد، وميادة أمه، وكانت أم ولد، ويكنى أبا شراحيل، وهو من بني مرّة بن عوف ابن سعد بن ذبيان، وكان يضرب جنبي أمه ويقول لها:
«اعرنزمي مياد للقوافي» واعرنزم الشيء اذا اشتدّ وصلب.
«يريد أنه يهجو الناس، فهم يهجونه ويذكرون أمه. وأبوه من ولد ظالم أبي الحرث بن ظالم المريّ» ترجمته (الأعلام ٢/٧٧١، الاشتقاق ١٧٥، المؤتلف ١٧٤، الأغاني ٢/٨٥-١١٦، الخزانة ١/٧٦-٧٧).

(٣) ابن الأثير: النعرة بالتحريك: ذباب أزرق له إبرة يلسع بها ويتولع بالبعير ويدخل أنفه فيركب رأسه. سميت بذلك لنعيرها. ثم استعيرت للنخوة والكبر. وصاحب القاموس يضبط الكلمة إذا كانت بمعنى الكبر كهمزة وبالتحريك. وإذا كانت بمعنى الذباب كهمزة فقط.

(٤) الحماطة: شجر شبيه بالتين أحب شجر إلى الحيات، أو التين الجبلي أو الأسود الصغير أو الجميز، عن القاموس. قال ابن منظور في الهامش: الحماطة: شجرة تأوي الحيات إليها. ورقة ٢/١٥.

(٥) (هـ): «الشمس» موضع «القرص». وما هنا هو الوجه لأن الشمس توصف بالقرص عند المغيب، ولم تعد بعد كما كانت شمساً.

وزعم قوم أن من الإبل وحشياً وكذلك الخيل، وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك(١)، فزعموا أن تلك الإبل تسكن أرض وبار، لأنها غير مسكونة، ولأن الحيوان كلما اشتدت وحشيته كان للخلاء أطلب. قالوا: وربما خرج الجمل منها لبعض ما يعرض، فيضرب في أدنى هجمة من الإبل الأهلية، فالإبل المهريّة من ذلك النتاج.

وقال آخرون: هذه الإبل الوحشية هي الحوش، وهي من بقايا إبل وبار، فلما أهلكهم [الله تعالى] كما أهلك عاداً وثموداً، والعمالقة وطسم وجديساً وجاسم، بقيت إبلهم في الأماكن التي لا يطورها أنسي فإن سقط(٢) إلى تلك الجيزة بعض الخلعاء(٣)، أو بعض من أضل الطريق حثت(٤) الجن في وجهه [التراب](٥) فإن ألح خبلته، فضربت هذه الحوش(٦) في العمانية، فجاءت هذه المهريّة، وهذه العسجدية التي تسمى الذهبية.

وأما الذي زعم أنهم مطروا الشبابيط(٧)، فإنه لما ظن أن الضفادع التي تصاب بعقب المطر، بحيث لا ماء ولا وحل ولا عين ولا شريعة - فإنهم ربما رأوها وسط الدو والدهناء والصمان(٨)- ولم يشك أنها كانت في السحاب وعلم أنها تكون في الأنهار ومنابع المياه وليس ذلك من الذكر والأنثى، قاس على ذلك الظن السمك، ثم جسر فجعل السمك شبوطاً، وتلك الضفادع إنما هي شيء

---

(١) (ط): «وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير وما سوى ذلك من الحمير والسنانير والحمام وغير ذلك». وفي (ل): «وقاسوا ذلك على الحمير والسنانير وغير ذلك». وقد أثبت ما بالمخطوطة.

(٢) كذا في (ل). وطار المكان يطوره طوراً وطوراناً: حام حوله. وفي (ط): «ألا يطردها أحد». قال في القاموس: «وطردتهم: اتيتهم وجزتهم» فالعبارتان سليمتان.

(٣) (ط): «الجزيرة» موضع «الجيزة» و«الخلفاء» موضع «الخلعاء». وما في (ط): تصحيف. والجيزة: الناحية.

(٤) (ط): «حثا».

(٥) سقطت هذه ـ الكلمة من (هـ).

(٦) (ط): «الوحوش».

(٧) (هـ): «الشبوط» موضع «الشبابيط».

(٨) (ط): «الدور» موضع «الدو»، «السنان» موضع «الصمان» والصواب ما هنا كما في (ل). والدو: الفلاة، والدهناء: الفلاة أيضاً. والصمان: كل أرض صلبة ذات حجارة إلى جنب رمل.

يخلق تلك الساعة، من طباع المطر[1] والهواء والزمان وتلك التربة، على مقادير ومقابلات، وعلى ما أجرى عليه عز وجل نشأة الخلق.

والخلاسي من الدجاج والديكة، هو الذي تخلق من بين المولدات والهنديات، وهي تحمل اللحم والشحم.

وزعم مسعود بن عثمان أنه أهدى إلى عمرو بن مسعدة، [دجاجة][2] ووزن فيها سبعة عشر رطلاً بعد طرح الأسقاط وإخراج الحشوة.

والخلاسي من الناس، هو الذي تخلق من الحبشي والبيضاء، والعادة من هذا التركيب أنه يخرج أعظم من أبويه، وأقوى من أصليه، ورأينا البيسري[3] من الناس، وهو الذي يخلق بين البيض والهنديات، ولا يخرج ذلك النتاج على[4] مقدار ضخم الأبوين وقوتهما، ولكنه يجيء أحسن، وهم يسمون[5] الماء إذا خالطته الملوحة بيسراً[6]، قياساً على هذا التركيب من البيض والهنديات. ورأينا الخلاسي من الكلاب، وهو الذي يخلق بين السلوقي وكلب الراعي ولا يكون ذلك من الزئني والقلطي، ومن كلاب الدور والحراس.

وذكروا في طول الأعمار: إن الهند تربي[7] على العرب في هذا المعنى، وذكروا أنهم عدوا أربعين فتى من شباب ثقيف وقريش أعذار عام واحد فأحصوا عشرين من قريش، وعشرين من ثقيف، وتوخوا المتجاورين في المحلة والمتقاربين في الدور من الموفرين على النبيذ، والمقصورين على التنادم، وأنهم أحصوا مثل ذلك العدد وأشباه أولئك في السن ممن لا يذوق النبيذ، ولا يعرف شراباً إلا الماء، فذكروا أنهم وجدوا بعد مرور دهر عامة من يشرب النبيذ حياً

---

(١) (هـ): «الماء» موضع «المطر».
(٢) زدتها في هذا المكان ليستقيم الكلام.
(٣) البياسرة: جيل بالسند تستأجرهم النواخذة لمحاربة العدو، والواحد بيسري.
(٤) أبدلت «مع» بـ «على» لحاجة الكلام إليه.
(٥) (ط): «يسمونه».
(٦) كذا في (ل)، ولعل صوابه «بيسرياً» وفي (ط): «يسراً».
(٧) (ط): «تزري».

وعامة من كان لا يشرب النبيذ فقد ماتوا[1]، وكانوا قد بلغوا في السن.

وما أكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش وغير ذلك، ولا سيما إذا بات أحدهم ممتلئاً من النبيذ.

ويعرض لهم أيضاً حب الشراب والإفراط في شهوته وشدة النهم. ويعرض لهم حب الصرف، وإيثار ما لا يكون طيباً من الشراب[2]، وذلك مما يعرض للنساء، ويحتملون، ويجنبون ويغتسلون، ويرون الماء غير الرائق ولا الغليظ، الذي له ريح طلع الفحال[3].

ويعرض للخصي شدة الاستخفاف بمن لم يكن له سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض. وقد حرم بعضهم خصاء الخيل خاصة، وزاد بعضهم[4] حتى حرم خصاء البهائم، وقال بعضهم: إذا كان الخصاء إثماً اجتلبه فاعله وتكلفه صاحبه على جهة التماس المنفعة، أو على طريق التجارة فذلك جائز، وسبيله سبيل الميسم، فإن الميسم نار، وألمه يجوز كل ألم. وقد كانت إبل الصدقة موسومة، ووشمت العرب الخيل وجميع أصناف النعم في الإسلام، على مثل صنيعها في الجاهلية. وكانت القصواء ناقة النبي ﷺ موسومة، وكذلك العضباء»[5].

وقيل: الخصاء غير شبيه بالميسم، لأن في الخصاء من شدة الألم، والمثلة، وقطع النسل، وإدخال النقص على الأعضاء، والنقص لمواد القوى، ما ليس في الميسم، وهو بقطع الألية أشبه والسمة إنما هي لذعة والخصاء مجاوز لكل شدة[6].

---

(١) وردت العبارة في (هـ): «من كان يشرب النبيذ حياً، ومن لا يشربه قد مات عامتهم».

(٢) هذا الجزء سقط من(هـ).

(٣) (ط): «النخل».

(٤) (هـ): «وبعضهم زاد» موضع «وزاد بعضهم» هنا.

(٥) هنا نهاية الواجهة الأولى من الورقة ١٧ بالمخطوطة، وتكملة الكلام الذي بهذه الصفحة هي بداية الواجهة الثانية من الورقة ٣٨ بالمخطوطة.

(٦) هنا كما في (ط): «شدة» و(هـ): «شديدة».

قال القوم: فلا بأس بقطع الألية إذا منعت بثقلها اللحاق بالقطيع وخيف عليها من الذئب. وقطع الألية في جواز العقول[1] أشبه من الميسم لأن الميسم ليس للبعير فيه حظ، وإنما الحظ فيه لرب المال، وقطع الألية من شكل الختان، ومن جنس البط[2] والفصد، والوجور والبيطرة، ومن جنس الكي عند الحاجة، وقطع الجارحة إذا خيف عليها الأكلة.

قالوا: بل للإبل في السمات أعظم المنافع لأنها تشرف[3] بسماتها ولا تزاد عن الحوض[4] إكراماً لأربابها، وقد تضل فتؤوى، وتصاب في الهواشة[5] فترد.

والمياسم في النعم السائمة كالرقوم في ثياب البزّاز، ومتى ارتفعت الرقوم ومنعت المياسم اختلطت الأموال وإذا اختلطت أمكن فيها الظلم، والمظلوم باذل نفسه دون المعيشة والهضيمة.

وقال آخرون: ليس لك أن تحدث في جميع الحيوان حدثاً من نقص أو إيلام، لأنك لا تملك النشأة[6]، ولا يمكنك التعويض له، فإذا أذن لك مالك العين، بل مخترعه ومنشئ ذاته والقادر على تعويضه جل وعز[7] حل لك من ذلك ما كان لا يحل، وليس ذلك في حجة العقل أن تصنع بها إلا ما كان لها مصلحة: كعلاج الدبر[8] وكالبيطرة.

ولا يزال بعض الملحدين، أو بعض الأغبيـاء، يطعن في ملك الخصي وبيعه وابتياعه، ويذكرون الخصي الذي كان المقوقس عظيم القبط أهداه إلى

---

(١) (ط): «القول».
(٢) البط: الجرح. والبطة: البضع.
(٣) في (هـ): «تشرب» موضع «تشرف» والأليق الثانية مناسبة لسياق الكلام بعدها حيث انها شرفت بهذه العلامات المميزة الدالة على أصحابها، ولذلك لا تزاد عن الحياض إكراماً لأربابها.
(٤) أثبت ما في (هـ)، موضع «الحياض» التي كانت بالمخطوطة.
(٥) الهواشة بالضم: الجماعة من الناس والإبل.
(٦) كانت الكلمة «الشيء» كما في (ل)، وأبدلتها بما في (هـ).
(٧) «جل وعز» موضع «وهو الله عز وجل» في (هـ).
(٨) (ط): «كصلاح الدين» وهو تحريف عجيب صوابه ما أثبت. كما في (ل).

سيدنا[1] رسول الله ﷺ، مع مارية القبطية[2] أم إبراهيم عليه السلام. قالوا: فقد ملك النبي ﷺ خصياً بعد أن عرفه وأحاط علمه بأنه خصي، وأنتم تزعمون أن الخصاء حرام، وأن من اشترى من الخاصي خصياً ثم زاد على قيمته وهو فحل، فقد أعان على الخصاء ورغب فيه، وأنه من أفحش الظلم [وأشد القسوة][3] وإن من فعل ذلك فهو شريك الخاصي في الإثم، وإن حاله كحال المعروفين بابتياع متاع اللصوص. وقلتم: وكذلك من شهد [الثعابين][4] وهراش الكلاب، ونطاح الكباش وقتال الديوك، وأصحاب المجارحات[5] وحرب الفئتين الضالتين. وقلتم: لأن هذه المواضع لو لم [يكن][6] يحضرها النظارة لما عملوا تلك الأعمال، ولو فعلوها لما بلغوا مقدار الشطر، لغلبة الرياء والسمعة على قلوب الناس، فكذلك الخاصي، والمشتري، والمبتاع من المشتري، شركاء متعاونون، وخلطاء مترادفون، إذا كان المبتاع يزيد في السلعة لهذه العلة، والبائع يزيد في السوق لهذا السبب، وقد أقررتم بأن النبي ﷺ قبل الخصي من[7] المقوقس، كما قبل مارية، وأنه استخدمه، وجرى ملكه عليه واتخذه[8]، فافهم ما أنا مجيب [به][9] في هذه المسألة.

أقول: قبل كل شيء لا يخلو هذا الحديث الذي رويتموه من أن يكون مرضي الإسناد، صحيح المخرج، أو مسخوط الإسناد، فاسد المخرج. فإن كان

(١) (هـ): «النبي» موضع «سيدنا رسول الله ﷺ».

(٢) هي مارية بنت شمعون القبطية أم ابراهيم: من سراري النبي ﷺ مصرية الأصل بيضاء، ولدت في قرية (حفن) من كورة «انصنا» بمصر، وأهداها المقوقس القبطي سنة ٧ هـ إلى النبي ﷺ ماتت في خلافة عمر سنة ١٦ هـ ودفنت بالبقيع. (الأعلام ١٢٣/٦، معجم البلدان (حفن)، أسد الغابة ٥٤٣/٥.

(٣) زدتها في هذا الموضع من (هـ).

(٤) سقطت من (هـ)، وربما المقصود بالثعابين، الحواة الذين يؤدون بعض ألعابهم بالثعابين.

(٥) (ط): «المخارجات».

(٦) هذه الكلمة سقطت من (هـ).

(٧) وردت العبارة في (هـ) هكذا وفيها اضطراب «وقد أقررتم بأن النبي ﷺ قد قبل له من المقوقس».

(٨) (هـ): «وجرى عليه ملكه وأمره».

(٩) يحتاج إليه الكلام فأثبته كما في (هـ).

مسخوطاً، فقد بطلت المسألة، وإن كان مرضياً، فقد علمت[1] أنه ليس في الحديث أنه قبله منه بعد أن علم أنه خصي، وعلى أن قبول الهدية خلاف الابتياع، لأن بائع الخصي يحرم عليه التماس الزيادة وكذلك المبتاع محرم عليه دفع الزيادة، وقبول الهدية، وقبول الهبة، وسبيل البيع والابتياع لا بأس به إذا كان على ما وصفناه، وهدية الخصي كهدية الثوب والعطر، والدابة والفاكهة والخصي لا يحرم ملكه ولا استخدامه، بل يحل اطراده ونفيه[1]، وعتقه جائز، وجواز العتق يوجب الملك، ولو باعه المالك على غير طلب الزيادة، أو لو تاب من الخصاء واستحله مما أتى إليه، لما حرم على الخاصي نفسه استخدامه، والخصي مال وملك، واستخدامه حسن جميل، ولأن خصاءه إياه لا يعتقه عليه، ولا يزيل عنه ملكه إلا بمثل ما أوجب له ملكه[2].

وأخرى: أن في قبول هدية ذلك الملك، وتلقي كرامته بالإكرام تدبراً وحكمة. فقد بطلت المسألة.

ورووا مع ذلك: أن زنباعاً الجذامي، خصى عبداً له، وإن النبي ﷺ أعتقه عليه.

والخصي ينكح ويتخذ الجواري ويشتد شغفه بالنساء، وشغفهن به، وهو وإن كان مجبوب العضو، فإنه قد بقي له ما عسى أن يكون فيه من ذلك أعجب إليهن. وقد يحتلم ويخرج منه عند الوطء ماء، ولكنه قليل، متغير الريح، رقيق ضعيف. [ولكن ذلك الماء لا يخرج منه إلا بعد جهد شديد، وعلاج طويل][3]، ثم لا يمنعه من المعاودة الماء الذي يخرج منه إذا كان قليل المقدار[4] لا يخرجه من القوة إلى الضعف، مثل الذي يعتري من يخرج منه شيء يكون من إنسان، وهو أكثر، وأختر[5]، وأحد ريحاً، وأصح جوهراً.

---

(١) (هـ): «بل لا يحل طرده ونفيه».

(٢) (ل): «إلا مثل ما يوجب له: ملكه» (هـ) «إلا بمثل ما وجب به ملكه».

(٣) هذا الجزء سقط من (هـ).

(٤) في الأصل: «إذا كان قليل المقدار» موافقاً لما هنا، وفي (هـ) «إذا كان قليل المقدار».

(٥) (هـ): «وهو اختر، وأكثر».

والخصي يجتمع فيه أمنية المرأة، وذلك انها تبغض كل سريع الإراقة بطيء الإفاقة، كما تكره كل ثقيل الصدر، خفيف العجز، والخصي هو السريع الإفاقة، البطيء الإراقة، المأمون الإلقاح، فتقيم المرأة معه. وهي آمنة من العار الأكبر، فهو أشد لتوفير شهوتها. وإذا ابتذلن الخصيان، وحقرن العبيد، وذهبت الهيبة من قلوبهم، وتعظيم البعول، والتصنع لذوي الأقدار باجتلاب الحياء وتكلف الخجل، ظهر كل شيء في قوى طبائعهن وشهواتهن، فأمكنها النخير[1] والصياح، وأن تكون مرة فوق ومرة أسفل، ولسمحت للنفس بسكونها[2]، وأظهرت أقصى ما عندها.

وقد تجد في النساء من تؤثر النساء، [وتجد][3] فيهن من تؤثر الرجال، وفيهن من تؤثر الخصيان، وفيهن من تعم وتجمع، ولا تفرق، وكذلك شأن الرجال في الرجال، وفي الخصيان وفي النساء[4]، والمرأة تنازع إلى الخصي لأن أمره أستر وعاقبته أسلم، وتحرص عليه لأنه ممنوع منها، ولأن ذلك حرام عليها، فلها جاذبان: جاذب حرص كما يحرص[5] على الممنوع، وجاذب أمن كما يرغب في السلامة. قال الشاعر:

وزادها كلفا بالحب أن منعَتْ   وحَبُّ شيء الى الإنسان ما منعا[6]

وبكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوا ما يصنعه الخبر السابق إلى السمع، ولا سيما إذا صادق من السامع قلة تجربة، فإن قرن بين قلة التجربة وبين قلة

---

(١) (ط): «الشخير».

(٢) في (هـ): «وسمحت النفس بمكنونها».

(٣) أثبت «تجد» كما في (هـ).

(٤) في (هـ): «وفي النساء والخصيان».

(٥) أبدلت ما كانت ثابتة بالمخطوطة «يخرج» بـ «يحرص» كما في بقية النسخ.

(٦) (ط): «أحب» ومشهور الرواية وما في (ل) موافقاً لما في المختصر هو ما أثبت. وفي عيون الأخبار ٣/٢: «وزاده» موضع «وزادها» وصواب الرواية «وزادني». فإن القول للأحوص كما في الأغاني ١١/٣٢. وقبله:

كم من دنى لها قد صرت أتبعه   ولو صحا القلب عنها كان لي تبعا

وورد البيت في مادة (حبب) لسان العرب ١/٢٩٢ أنشده الغراء:

وزاده كلفاً في الحب ان منعت   وحب شيء إلى الإنسان ما منعا

التحفظ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دخولاً سهلاً، وصادف طبيعة قابلة ونفساً ساكنة، ومتى صادف القلب كذلك، رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته، ومتى ألقي إلى الفتيان شيء من أمور النساء[1]، وفي وقت الغرارة، وغلبة الطبيعة، وقلة الشواغل[2]، وكذلك متى ألقي إلى الفتيان من أمور الغلمان، وهناك سكر الشباب، فكذلك تكون حالهم، وإن الشطار ليخلو أحدهم بالغلام الغرير فيقول له: لا يكون الغلام فتى أبداً حتى يصادق فتى وإلا فهو تكش والتكش عندهم الذي لم يؤدبه فتى ولم يخرجه، فما الماء العذب البارد، بأسرع في طباع العطشان، من كلمته، إذا كان للغلام أدنى هوى في الفتوة[3]، وأدنى دواعيه إلى المنالة[4]، وكذلك إذا خلت العجوز المدربة[5] بالجارية الحدثة، كيف تخلبها. وأنشد:

فأتتها طبة عالمة تخلط الجد بأصناف اللعب
ترفع الصوت إذا لانت لها وتراخي عند سورات الغضب[6]

وباب آخر مما يدعو إلى الفساد، وهو طول وقوع البصر على الإنسان الذي في طبعه أدنى قابل[7]، وطول التداني، وكثرة الرؤية هما أصل البلاء، كما قيل لابنة الخس: لم زنيت بعبدك ولم تزني بحر[8]، وما أغواك به؟

قالت: طول السواد، وقرب الوساد.

ولو أن أقبح الناس وجهاً، وأنتنهم ريحاً، وأظهرهم فقراً، وأسقطهم نفساً، وأوضعهم حسباً، تمكن من كلام امرأة ومكنته من سمعها، ووصف لها غرامه بها، وسهر عينه، وشغله بأمرها، لنقض طباعها، وفسخ عقدها، ولو

(١) (هـ): «الفتيات» موضع «النساء».
(٢) (هـ): «التشاغل» موضع «الشواغل».
(٣) (ط): «الفتنة».
(٤) (ط): «الشطارة».
(٥) (ط): «المذربة».
(٦) ورد الشطر الثاني من البيت الثاني في (هـ) هكذا: «وتناهى عن سورات الغضب».
(٧) العبارة كما ثبتت في (هـ) وأبدلتها بما ثبت في المخطوطة «الذي له في طبعه أو في قابل له».
(٨) في الأصل: «ولم تزن بحر» والوجه ما كتبته.. وابنة الخس هي هند. ولها أخبار كثيرة في البيان.

كانت أبرع الخلق جمالاً، وأكملهم كمالاً، فإن تهيأ مع ذلك من هذا المتعشق، أن تدمع عينه، احتاجت هذه المرأة أن يكون معها ورع أم الدرداء ومعاذة العدوية[1].

وإنما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اضربوهن بالعري» لأن الثياب هي المدعاة إلى الخروج في الأعراس، والقيام في المناحات، والظهور في الأعياد، ومتى كثر خروجها لم يعدمها أن ترى بعض ما هو من شكل طبعها.

ولو كان بعلها أتم حسناً، والذي رأت أنقص حسناً، لكان ما لا تملكه أطرف مما تملكه.

قال سعيد بن مسلم: لأن[2] يرى حرمتي ألف رجل على حال تكشف منها وهي لا تراهم أحب إلي من أن ترى حرمتي رجلاً واحداً غير منكشف.

وقيل لعقيل بن علفة[3]: لو زوجت بناتك! فإن النساء لحم على وضم إذا لم يكن غانيات!! قال: كلا، إني أجيعهن فلا يأشرن، وأعريهن فلا يظهرن.

وقد رأيت من الخصيان من يتلوط، ويطلب الغلمان، على جهة المصادقة[4]، ويحمل في ذلك الحديد، ويقاتل دون السخول[5]، ويتمشى مع الشطار، والسخل: الولد، قال النبي ﷺ وقد ذكر الخلفاء بعده، فلما انتهوا إلى يزيد قال: ما له لعنه الله تعمد إلى سخلي فيقتله[6].

ولكل فن من الناس ضرب من النسك، فنسك الخصي غزو الروم،

---

(١) (هـ)معاذة بنت عبدالله، أم الصهباء العدوية: فاضلة، من العالمات بالحديث، من أهل البصرة، روت عن علي وعائشة، وروى عنها عاصم وجماعة. قال ابن معين: هي ثقة حجة (الاعلام ٨/١٦٨، رغبة الأمل ٨/١٨٤).

(٢) (ط): «لئن».

(٣) (ط): «علقمة» وهي على الصواب هنا و(ل). ولعقيل أخبار طريفة في الأغاني ١١/٨١ - ٨٩.

(٤) (هـ) «الصداقة».

(٥) (ط): «السجون».

(٦) سقط هذا الجزء من (هـ).

والرباط بطرسوس، ولزوم أذنة، ونسك الخراساني الحج، ونسك البنوي[1] أن يدع الديوان.

ونسك المغني: أن يكثر التسبيح وهو يشرب النبيذ، والصلاة في الجماعة، ونسك الرافضي: إظهار ترك النبيذ، ونسك السوادي ترك شرب المطبوخ فقط. ونسك اليهودي: إقامة السبت. ونسك المتكلم: إكفار أهل المعاصي، ورمي[2] الناس بالجبر، والتعطيل، والزندقة، يريد أن يوهم أموراً:

منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه الدين، ومنها أن يقال: لو كان مرتاباً لما رمى الناس، ولرضي منهم بالسلامة، وما كان ليرميهم إلا للعز الذي في قلبه، ولو كان هناك من ذل الريبة شيء لقطعه ذلك عن التعرض لهم، ولم ير في المتكلمين أكثر عيوباً ممن رمى خصومه بالكفر.

كان الجماز[3]، يتعشق جارية لآل سلمى يقال لها طغيان، وكان لهم خصي يحفظها إذا أرادت بيوت المغنين، وكان الخصي أشد عشقاً لها من الجماز، وكان حال بينه وبين كلامها، والدنو منها، فقال الجماز:

نفسي الفداءُ لظبي يحبني وأحبه
من أجل ذاك سنان إذا رآني يسبه
هبه أجاب سنانا ينيكه أين زبه

وقال أيضاً فيهما:

ظبي سنان شريكي فيه فبئس الشريك
فلا ينيك سنان ولا يدعنا نُنيك

---

(١) في القاموس: «الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة أبناوي وبنوي محركة» وفي رسائل الجاحظ ١٥ ساسي ما يفيد أنهم من خراسان.. وهي في (ط): «الجندي» تحريف وانظر حواشي البيان ١١٤/٣ وفيها تفصيل.

(٢) (هـ): «وأن يرمي».

(٣) هو محمد بن عمرو من أهل البصرة شاعر أديب، كان ماجناً خبيث اللسان، دخل بغداد أيام الرشيد وفي أيام المتوكل. وأعجب به المتوكل وأمر له بعشرة آلاف درهم، فأخذها وانحدر ومات فرحاً بها، تاريخ بغداد ١١٤٣.

وقال الباخرزي[1] في الخصيان:

ونساء لمطمئن مقيم ... ورجال إن كانت الأسفار

وقال آخر[2]:

رماك الله من أير بأفعى ... ولا عافاك من جهد البلاء
جزاك الله شرًّا من رفيقٍ ... اذا بلغت بي ركب النساء
فلا والله ما امسى رفيقي ... ولولا البول عُوجل بالخصاء
أجُبْناً في الكريهة حين نلقى ... وما تنفك تنعظ في الخلاء[3]

خرج معاوية ذات يوم يمشي، ومعه خصي له، إذ دخل على ميسون بنت بحدل[4] وهي أم يزيد، فاستترت منه فقال: أتستترين منه، وإنما هو مثل المرأة؟ فقالت: أترى أن المثلة به تحل [له][5] ما حرم عليه؟!

وكان عمر[6] رضي الله عنه ينهي عن خصاء البهائم ويقول: هل إلا نماء

---

(١) هناك أكثر من واحد سمي بهذا الاسم فمنهم: أبو منصور الباخرزي من أهل خراسان، نزل بغداد كان يتشيع وعمي آخر عمره، وكان يهاجي مثقالاً الواسطي، قال الباخرزي:

صبت علي مصائب لو أنها ... صبت على الأيام عدن لياليا

وأحمد بن الحسين الباخرزي، أبو نصر أديب وجيه. قال فيه صاحب الدمية: من مفاخر باخرز، له شعر رقيق، وأدب غض. استوزره الأمير (بيغوا) الحسن بن موسى في خراسان، ومات قتيلاً في قرية (بنداشير) وهو صاحب البيت (الاعلام ١/١١٢، الوافي بالوفيات جـ١).

(٢) الأبيات في المحاسن للجاحظ ١٧٥.

(٣) في (هـ) ذكر البيت الأخير هنا قبل سابقه، وورد الشطر الثاني من البيت الأخير في (هـ) هكذا: وما تنفك تنعظ في الخلاء».

(٤) هي ميسون بنت بحدل بن أنيف، من بني حارثة بن جناب الكلبي: أم يزيد من معاوية شاعرة وكانت بدوية تزوجها معاوية ثم طلقها وأعادها إلى أهلها، وكانت حاملاً بيزيد، فنشأ في البرية فصيحاً، ونقل البغدادي أن معاوية لما طلقها قال لها: كنت فبنت، فأجابته: ما سررنا إذ كنا ولا أسفنا إذا بنا! (الاعلام ٨/٢٩٨، الكامل لابن الأثير ٤/٤ خزانة الأدب للبغدادي ٣/٢٩٣) توفيت نحو سنة ٨٠ هـ.

وفي (ط): «بجدل» وإنما هو «بحدل» بالحاء كما أثبت.

(٥) سقط هذا اللفظ من (هـ).

(٦) سبقت ترجمته ص ٥٧ وهو عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين.

إلا في الذكور. ونهى عمر رضي الله عنه، عن خصاء الخيل، وكان يكره الخصاء ويقول: لا تقطعوا نامية خلق الله تعالى.

قال ابن عمر[1] نهى رسول الله ﷺ، أن تخصى ذكور الخيل، والإبل، والبقر والغنم، ويقول: فيها نشأة الخلق، ولا تصلح الإناث إلا بالذكور.

وسئل الزهري[2]: هل بخصاء البهائم بأس؟ فروى بسنده أن الرسول ﷺ، نهى عن صبر الروح. قال: والخصاء صبر شديد.

وعن أنس بن مالك[3] في قوله تعالى: ﴿**ولآمرنهم، فليغيرن خلق الله**﴾[4] قال: هو الخصاء.

---

(١) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، كنيته أبو عبد الرحمن، أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهاجر مع أبيه إلى المدينة، رد يوم أحد، وأجيز يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، كان ورعاً عالماً، شديد التحري والاحتياط، توفي بمكة سنة ٦٣ هـ. وفيات الأعيان ٢/٢٣٤.

(٢) هناك ثلاثة رجال، سموا بهذا اللقب من رجال الحديث. أولهم: محمد بن عبدالله بن عبد الرحيم الزهري مولاهم، أبو عبدالله المصري من حفاظ الحديث، وكان عالماً بأخبار المغازي (الاعلام ١٢/٧، تذكرة الحفاظ ١٤٤/٢)، ومحمد بن سعد بن منيع الزهري مؤرخ ثقة، من حفاظ الحديث، صحب الواقدي المؤرّخ زماناً وعرف به، وله كتاب (طبقات الصحابة) توفي سنة ٢٣٠ هـ (الاعلام ٦/٧ الوفيات ٥٠٧/١، تاريخ بغداد ٣٢١/٥) ثم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري: من بني زهرة بن كلاب من قريش. أبو بكر: أول من دون الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومائتي حديث نصفها مسند، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنّكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه. قال ابن الجوزي مات بشعب، آخر حد الحجاز وأول حد فلسطين «ولد سنة ٨ هـ وتوفي سنة ١٢٤ هـ» وهو المقصود هنا (الاعلام ٣١٧/٧، وفيات الأعيان ٤٥١/١، تهذيب التهذيب ٤٤٥/٩، المرزباني ٤١٣).

(٣) هو أنس بن مالك بن النصر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب، الإمام المفتي، المقرئ المحدث راوية الإسلام، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي البخاري المدني، خادم رسول الله ﷺ وتلميذه وتبعه وآخر أصحابه موتاً، روى عنه نحو مائتي نفس، كما قال صاحب التهذيب، قال أنس: قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر ومات وأنا ابن عشرين. ترجمته في (سير أعلام النبلاء ٢٦٥/٣ ـ ٢٧٢، الفهرس ٥٢/١، الإصابة ٧١/١)، واختلف في سنه قال الأنصاري قال بعضهم: بلغ مائة وثلاث سنين. وقال بعضهم: بلغ مائة وسبع سنين، واختلف في سنة وفاته: ٩١ هـ وقيل: ٩٢ أو ٩٣ هـ.

(٤) سورة النساء، الآية ١١٩ ـ مدنية.

وعن عكرمة[١]: هو خصاء الدواب.

وقال سعد بن جبير[٢]: أخطأ [عكرمة]، هو دين الله.

ومن العجب أن الذي قال عكرمة هو الصواب، ولو كان هو الخطأ لما جاز لأحد أن يقول: كذبت. والناس لا يضعون هذه الكلمة في موضع خطأ الرأي ممن يظن به الاجتهاد، وكان ممن له أن يقول: وسئل الحسن عن خصاء الدواب فقال: تسألني عن هذا؟ لعن الله من خصى الرجال

وعن محيريز[٣] قال: كان أحب [الخيل][٤] إلى سلف المسلمين في عهد عمر، وعثمان. ومعاوية، الخصيان، فإنها أخفى للكمين والطلائع، وأبقى على الجهد.

وكان عطاء وأيوب بن سيرين، والحسن، لا يرون بالخصاء بأساً، قال ابن سيرين: لو تركت الفحول [والفحولة][٥] لأكل بعضها بعضاً.

سئل عطاء عن خصاء البغل فقال: إذا خفت عضاضه.

---

(١) يكنى أبا عبدالله، سمع عبدالله بن عباس، وهو مولاه، وشجع عائشة وأبا هريرة، وعبدالله بن عمر، وروى عنه جماعة من التابعين، منهم الشعبي وإبراهيم النخعي ومحمد بن سيرين وجابر ابن زيد، ومات سنة ١٠٥ هـ وقيل ١٠٦ هـ وهو ابن ثمانين سنة، وكان موته وموت كثير عزة في يوم واحد فوضعا جميعاً وصلي عليهما. (طبقات المفسرين ص ١١٦٢، ومعجم الأدباء ١٢/١٨١ - ١٩٠).

(٢) هو أبو عبدالله، وقيل: أبو محمد، سعيد بن جبير بن هشام، الأسدي بالولاء، مولى بني والبة ابن الحارث بطن من أسد بن خزيمة «كوفي» أحد أعلام التابعين، وكان أسود أخذ العلم عن عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، كان كاتباً لعبدالله بن عتبة بن مسعود، ثم كتب لأبي بردة ابن أبي موسى الأشعري. قال الأصبهاني: دخل أصبهان وأقام بها فترة، ثم ارتحل منها إلى العراق، وسكن قرية (ستيلان). قتل بأمر الحجاج في شعبان سنة ٩٥ هـ بواسط، ومات الحجاج بعده في شهر رمضان من السنة نفسها. (وفيات الأعيان ٢/١١٢ - ١١٦).

(٣) هو ابراهيم بن محيريز كما في (هـ).

(٤) زدته في هذا المكان ليستقيم الكلام - كما في (هـ) وبقية النسخ.

(٥) زيادة في المخطوطة في هذا الموضع.

العسبار ولد السبع من الذئب، وجمعه عسابر، والفرعل[1] ولد الذئب من الضبع، وجمعه فراعل. قال الكميت[2]:

وتجـمـع المـتـفـرقـو ن من الفـراعـل والعسـابـر[3]

يرميهم بأنهم أخلاط ومعلهجون.

والسمع ولد الذئب من الضبع، وزعموا أن السبع كالحية لا تعرف العلل، ولا تموت حتف أنفها، ولا تموت إلا بعرض يعرض لها. وليس شيء له عدو كعدو السبع، وإنه أسرع من الريح والطير. وولد الذئب من الكلبة يقال له: الديسم، ورووا لبشار بن برد[4] في ديسم الغنوي:

أديسم يا ابن الذئب من نجل[5] زارع أتـروي هجائي سـادراً غـير مقصر

وزارع: اسم الكلب، يقال للكلاب أولاد زارع.

وزعم صاحب المنطق أن أصنافاً من السباع المتزاوجات المتلاقحات مع اختلاف الجنس والصورة، معروفة النتاج مثل الذئاب التي تسفد الكلاب في

---

(١) (هـ): «السمع» موضع «الفرعل» وعلى الصواب ما ثبت هنا بدليل بيت الشعر بعده.

(٢) هو الكميت بن زيد، من بني أسد، ويكنى أبا المستهل، وكان معلماً، وكان الكميت شديد التكلف في الشعر كثير السرقة وكان أصم أطلح لا يسمع شيئاً، وكان في أيام بني أمية، ولم يدرك بني العباس، وكان يتشيع لبني هاشم مشهوراً بذلك، وقصائده فيهم، من جيد شعره (الشعر والشعراء ٢/٥٨١، الأغاني ٢٥/١٠٨ـ ١٢٤، الخزانة ١/٦٩ ـ ٧١، الحماسة ٢/٣١٧).

(٣) يروي صاحب اللسان هذا البيت وقال: «فقد يكون ـ يعني العسابر ـ جمع العسبر (كقنفذ) وقد يكون مع عسبار وحذف الياء للضرورة. والفرعل ولد الضبع من الضبعان» يعني الذكر من الضباع.

(٤) بشار بن برد، مولى لبني عقيل، ويقال مولى لبني سدوس، ويكنى أبا معاذ ويلقب المرعث، والمرعث: الذي جعل في أذنيه الرعاث، وهي القرطة، ورمي بالزندقة وهو أحد المطبوعين الذين كانوا لا يتكلفون الشعر، ولا يتعبون فيه، وهو من أشعر المحدثين. ترجمته مفصلة في الشعر والشعراء ٢/٧٥٧، الأغاني ١/١١٠ ـ ١١٢، ولسان الميزان ٢/١٥ ـ ١٦). هجاه حماد عجرد ولم يكن عليه شيء أشد من قوله فيه:

ويا أقبح من قرد إذا ما عمي القرد

(٥) في (هـ): «ديسم العنزي» و«نسل» موضع «نجل».

[أرض][1] رومية - وتتولد أيضاً كلاب سلوقية من ثعالب وكلاب. قال: ومن الحيوان الذي يسمى باليونانية «طاغريس»[2] وبين الكلب، تحدث هذه الكلاب الهندية. قال: وليس يكون ذلك من الولادة الأولى - ونتاج الأول يخرج صعباً وحشياً لا يلقن ولا يألف[3].

وزعموا أن الكلبة تعرض لهذا السبع حتى تلقح، ثم تعرض لمثله مراراً حتى يكون جرو البطن الثالث قليل الصعوبة يقبل التلقين، وإنهم يأخذون إناث الكلاب، ويربطونها في تلك البراري فتجيء السباع وتسفدها وليس في الأرض أنثى يجتمع على حب سفادها، ولا ذكر يجتمع له من النزوع إلى[4] سفاد الأجناس المختلفة، أكثر من ذلك من الكلب والكلبة.

قالوا: وإذا ربطوا هذه الكلاب الإناث في تلك البراري، فإن كانت هذه السباع هائجة سفدتها، وإن لم تكن[5] هائجة فالكلبة مأكولة.

وللناس في هذه الضروب[6] ضروب من الدعوى، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها، كالذين يدعون من أولاد السعالي من الناس، كما ذكروا ذلك عن عمرو بن يربوع، وكما يروي أبو زيد عن السعلاة التي أقامت في بني تميم حتى ولدت فيهم، فلما رأت برقاً يلمع من شق بلاد السعالي، حنت وطارت إليهم، فقال شاعرهم[7]:

رأى برقاً فأوضع فوق بكر ... فلا بك ما أسأل وما أغاما[8]

---

(١) زدتها ليستقيم الكلام.
(٢) كذا في نهاية الأرب ٢٥٦/٩ و(ل). وفي (ط): «طاعويس».
(٣) كذا في (ط)، وفي (ل) ونهاية الأرب و(هـ): «ولا يؤلف».
(٤) أبدلتها بما في (هـ). وكانت الثابتة هنا «النزاع».
(٥) العبارة في (هـ): «وإن لم يكن السبع هائجاً».
(٦) (هـ): «««وللناس في هذا الضرب».
(٧) هو عمرو بن يربوع بن حنظلة، كما في نوادر أبي زيد ١٤٦.
(٨) (ط): «فلأيا» موضع «فلابك» وما أثبته من (ل) والنوادر.

وأنشدني أن الجن طرقوا بعضهم فقال[1]:

أتـوا نـاري فـقـلـت مـنـون أنـتـم   فقـالـوا الجن قلت عمـوا ظـلامـا
فـقـلـت إلى الـطعـام فـقـال مـنهـم   زعـيم نـحـسـد الأنس الـطعـامـا

قال: ولم أعب الرواية، وإنما عبت الإيمان بها، والتوكيد لمعانيها. فما أكثر من يروي هذا الضرب على التعجب منه، وعلى أن يجعل الرواية له سبباً لتعريف الناس حق ذلك من باطله.

وذكروا أن جرهما من نتاج الملائكة وبنات آدم [عليه السلام][2]، وكان الملك من الملائكة إذا عصى ربه في السماء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل. وفي طبيعته، كما صنع بهاروت وماروت، حتى كان من شأنهما وشأن الزهرة، وهي أناهيد[3] ما كان، فلما عصى الله تعالى بعض الملائكة وأهبطه إلى الأرض في صورة رجل، تزوج أم جرهم فولدت منه[4] جرهماً، ولذلك قال شاعرهم[5].

لا هـم إن جـرهـمـاً عـبـادكـا   الـنـاس طـرف وهـم تـلادكـا

ومن هذا النسل [وهذا الضرب][6] من النجل والتركيب كانت بلقيس ملكة سبأ، وكذلك كان ذو القرنين كانت أمه فيرى آدمية وأبوه عبري[7] من الملائكة.

---

(١) الشعر لشمير «أو سمير» بن الحارث الضبي كما في النوادر ١٢٣ وخزانة الأدب ٣/٣ بولاق، وانظر الخزانة ٦١٣.
(٢) زيادة في المخطوطة.
(٣) هذه الكلمة وما قبلها ساقطتان من (ل). وقد ذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم ١٢٢ أسماء الكواكب بالفارسية: فقال: «كيوان، هرمز، بهرام، خور، ناهيد، ثير، ماه» بمعنى زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، القمر.
(٤) (هـ): «له» موضع «منه».
(٥) هو عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي، كما في شرح الأنباري للقصائد السبع ص ٢٥٥.
(٦) سقط من (هـ) هذه الجملة التي بين قوسين كبيرين.
(٧) في (ل): «قبري» بدل فيرى» وهي في رسائل الجاحظ ٩٧ ساسي «قيري».
(و) «عبري» بدلها في الرسائل: «عيري».

ولذلك لما سمع عمر بن الخطاب رجلاً ينادي رجلاً ويقول: يا ذا القرنين، فقال: أفرغتم من أسماء الأنبياء فارتفعتم إلى أسماء الملائكة؟

وروى المختار بن أبي عبيد[1] أن علياً كان إذا ذكر ذا القرنين قال: ذلك الملك الأمرط.

وزعموا أن التلاقح والتناكح قد يقع بين الجن والأنس، لقوله عز وجل: **﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾**[2]. ولأن الجنيات إنما يعرضن لصرع رجال الانس على جهة العشق[3] وطلب السفاد[4]، وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم، ولولا ذلك لعرض الرجال للرجال والنساء للنساء، ونساؤهم للرجال والنساء.

قال: ومن زعم أن الصرع من المرة، لم يدر[5] معنى قوله عز وجل[6]: **﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾**[7] وقال تبارك وتعالى: **﴿لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان﴾**[8] فلو كان الجان لا يفتض الآدميات، ولم يكن ذلك قط، وليس ذلك في تركيبه لما قال الله تعالى[9].

وزعموا أن النسناس تركيب ما بين الشق والإنسان، ويزعمون أن خلقاً من وراء السد تركيب من الناس، والنسناس، والشق، ويأجوج ومأجوج. وذكروا الواق واق والدوال باي[10] انه نتاج ما بين بعض النبات والحيوان.

---

(١) هو المختار الثقفي من زعماء الثائرين على بني أمية، وكان يقال له كيسان، وإليه تنسب الطائفة الكيسانية. توفي سنة ٦٧ هـ.
(٢) سورة الإسراء، الآية ٦٤ ـ مكية
(٣) (هـ): «على جهة التعشق».
(٤) (ل): «والفساد» وكذلك المخطوطة، وأثبت ما في (هـ) لأنه الوجه.
(٥) وردت العبارة في (هـ): «ومن زعم أن الصرع من المرة، رد قوله تعالى... الخ».
(٦) (هـ): «وقال تعالى».
(٧) سورة البقرة، الآية ٢٧٥ ـ مدنية
(٨) سورة الرحمن، الآية ٧٤.
(٩) كانت الجملة: «لما قال الله عز وجل» وأثبت ما في (هـ).
(١٠) (ط): «والدوال» (ل): «والدوال بأي» وانظر حواشي البغال ص ٣٧٤.

وذكروا أن أمة كانت في الأرض، أمر الله عز وجل الملائكة فأجلوهم، وإياهم عنوا بقولهم: **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾**[1]. ولذلك قال عز وجل لآدم وحواء: **﴿ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾**[2]. فهذا يدل أن ظالماً قد كان.

وزعم المجوس أن الناس من ولد مهنة ومهنينة، وأنهما تولدا فيما بين أرحام الأرضين، ونطفتين ابتدرتا[3] من عيني ابن هرمز حين قتله هرمز. والحماقات كثيرة في هذا الباب.

وزعم ابن هيثم أنه رأى بالكوفة فتى من ولد عبدالله بن هلال الحميري[4]، صديق إبليس وختنه، وأنهم كانوا لا يشكون أن إبليس جده من قبل أمهاته.

وقلت: ولو تم للكلب معنى السبع وطباعه لما ألف الإنسان، واستوحش من البراري وجانب القفار، وألف المجالس والديار. ولو تم له معنى البهيمة في الطبع والخلق والغذاء، لما أكل الحيوان، ويكلب على الناس. نعم حتى ربما وثب على صاحبه وكلب على أهله. وفي المثل: «سمن كلبك يأكلك».

وكان رجل من أهل الشام مع الحجاج بن يوسف، وكان يحضر طعامه، فكتب إلى أهله يخبرهم بما هو فيه من الخصب، وأنه قد سمن فكتبت إليه امرأته[5]:

أتهدي لي القرطاس والخبز حاجتي ... وأنت على باب الأمير بطين
إذا غبت لم تذكر صديقاً وإن تقم ... فأنت على ما في يديك ضنين
فأنت ككلب السوء في جوع أهله ... فيهزل أهل الكلب وهو سمين

(١) سورة البقرة، الآية ٣٠ - مدنية.
(٢) سورة البقرة، الآية ٣٥ - مدنية.
(٣) (ط): «انتدرتا».
(٤) كان في زمن الحجاج، وكان صاحب شعبذة ونيرنجات، يدعي أن إبليس يتراءى له ويصادقه ويكاتبه ويطلعه على أسراره. ثمار القلوب ٥٧.
(٥) الخبر والأبيات في أمالي القالي ٢/١٣٦ مع اختلاف في الرواية.

وفي المثل: «سمن كلب في جوع أهله»، وذلك عند السواف[١] يصيب المال، والإخداج[٢] يعرض للنوق، والكلب حارس محروس[٣]، ومؤنس شديد الإيحاش من نفسه، وأليف كثير الخيانة على آله ـ وإنما قبلوه[٤] على أن ينذرهم بموضع السارق، وتركوا اطراده لينبههم على مكان المبيت. وهو أسرق من كل سارق، وأشد خيانة[٥] من ذلك المبيت. وهو سراق، وصاحب بيات، وهو نبّاش، وأكال للحوم الناس. إلا أنه يجمع سرقة الليل مع سرقة النهار، ثم لا تجده أبداً يمشي في خزانة، أو مطبخ، أو عرضة دار، أو في طريق، أو في براري، أو في ظهر جبل، أو في بطن واد، إلا وخطمه [أبداً][٦] في الأرض يتشمم ويستروح، وإن كانت الأرض أيضاً حصاء[٧]، أو صخرة خلقاء، حرصاً وجشعاً وطمعاً.

نعم حتى لا تجده أيضاً يرى كلباً ألا اشتم استه، ولا يشتم[٨] غيرها منه، ولا تراه يرمى بحجر إلا رجع إليه فيعض عليه، لأنه لما كان لا يكاد يأكل إلا شيئاً رموا به إليه صار ينسى لفرط شرهه وغلبة الجشع على طبعه، أن الرامي إنما أراد عقره أو قتله، فيظن لذلك أنه إنما أراد إطعامه والإحسان إليه، كذلك يخيل إليه فرط النهم وتوهمه غلبة الشره [عليه][٩] أن يرمي بنفسه على الناس عجزاً ولوماً، وفسولة ونقصاً وخاف السباع واستوحش من الصحاري.

وسمعوا أحد المفسرين يقول في قوله عز وجل[١٠]: ﴿**في أموالهم حق**

---

(١) (ط): «الصواف» وإنما هو «السواف» كما هنا و(ل). والسواف كغراب: الموتان في الإبل.

(٢) أخدجت الناقة: أتت بولد ناقص.

(٣) (هـ): «حارس محترس منه».

(٤) (هـ): «اقتنوه» موضع «قبلوه».

(٥) (هـ) وردت العبارة هكذا «وأدوم جناية من ذلك المبيت».

(٦) هذه الكلمة غير موجودة في (هـ).

(٧) (ط): «وحصباء» والوجه ما أثبت من (ل)، كما في نهاية الأرب ٥٧/٩ نقلاً عن الحيوان. والحصاء: الجرداء.

(٨) (هـ): «ولا يتشمم» موضع «ولا يشتم».

(٩) سقط هذا الحرف من (هـ) في هذا الموضع.

(١٠) (هـ): «قوله تعالى» موضع «قوله عز وجل» ويتكرر هذا الاختلاف في المواضع المتشابهة. بينما يورد (هـ): بعد لفظ الجلالة «تعالى» يورد ابن منظور «عز وجل».

معلوم* للسائل والمحروم﴾[1] إن المحروم، هو الكلب وسمعوا في المثل: اصنع المعروف ولو إلى كلب»[2] فلذلك[3] عطفوا واتخذوه في الدور. وعلى أن ذلك لا يكون إلا من سفلتهم، وممن قل تعززه[4] وكثر جهله.

وأما الديك فمن بهائم الطير وبغاثها، ومن كلولها والعيال على أربابها، وليس من أحرارها [وكواسبها][5] ولا من عتاقها وجوارحها، ولا مما[6] يطرب بصوته ويشجي بلحنه، ولا مما يونق بمنظره، ويمتع الأبصار حسناً، ولا مما يعجب بهدايته ويعقد الذمام بألفه، وشدة أنسه وحنينه، ولا هو من ذوات الطيران[7] منها، فهو طائر لا يطير، وبهيمة لا تصيد، ولا هو أيضاً مما يكون صيداً فيمتع من هذه الجهة ويراد لهذه اللذة.

والخفاش أمرط، وهو جيد الطيران، والديك كاس وهو لا يطير. وأي شيء أعجب من ذي ريش أرضي ومن ذي جلدة هوائي.

وأجمع الخلق لخصال الخير الإنسان، وليس الزواج إلا في الإنسان وفي الطير، فلو كان الديك من غير الطير ثم كان ممن لا يزاوج، لقد كان قد منع هذه الفضيلة وعدم هذه المشاكلة الغريبة، وحرم هذا السبب والشبه المحمود. فكيف وهو لا يزاوج، وهو ليس من الطير الذي ليس الزواج والألف وثبات العهد، وطلب الذرء، وحب النسل، والرجوع إلى السكن والحنين إلى الوطن إلا له وللإنسان. فكل شيء لا يزاوج فإنما دخله النقص وخسر هذه الفضيلة من جهة واحدة، وقد دخل الديك النقص من جهتين. والديك لا يألف منزله

---

(١) سورة المعارج، الآيتان ٢٤ و٢٥ ـ مكية.

(٢) ورد المثل في (هـ): «اصنعوا المعروف ولو إلى الكلب».

(٣) سقط هذا اللفظ من (هـ).

(٤) (ط): «تقذره».

(٥) سقط هذا الجزء الذي بين معكفين من بقية النسخ.

(٦) (ط): «مسن» كما كان بالمخطوطة وكذلك يتكرر هذا الخطأ في موضع أتت فيه «مما». وقد جاء على الصواب الذي أثبته من (هـ) و(ل).

(٧) في الأصل كما كان بالمخطوطة: «ذوي» ولا يكون ذلك إلا للعاقلين. وأثبت ما هنا موافقاً لما في (هـ). وهو الوجه.

ولا ربْعه ولا ينازع[١] إلى دجاجته، ولا يحن إلى ولده، بل لم يدر قط أن له ولداً، ولو درى لكان على درايته دليل، وهو مع ذلك أبله لا يعرف أهل داره، ومبهوت لا يعرف[٢] وجه صاحبه. والكلب على ما فيه يعرف صاحبه، وهو والسنور يعرفان اسماهما[٣] ويألفان موضعهما، وإن طردا رجعا، وإن أجيعا صبرا، وإن أهينا احتملا.

والديك يكون في الدار من لدن كان فروجاً صغيراً إلى أن صار ديكاً كبيراً، وهو إن خرج من باب الدار، أو سقط على حائط الجار، لم يعرف كيف الرجوع، وإن كان يرمي منزله قريباً، ولا يذكر ولا يتذكر، ولا يهتدي ولا يتصور له كيف يكون الاهتداء، ولو حن لطلب، ولو احتاج لالتمس.

ولو كان هذا في طباعه لظهر، ولكنها طبيعة بلهاء مستبهمة، ثم يسفد الدجاجة ولا يعرفها، هذا مع شدة حاجته إليهن وحرصه عليهن للسفاد، والحاجة تفتق الحيلة، وتدل على المعرفة، إلا ما عليه الديك، فإنه مع حرصه على السفاد، لا يعرف التي يسفد، ولا يقصد إلى ولد، ولا يحضن بيضاً[٤] ولا يعطفه رحم، فهو أحمق من الحبارى وأعق من الضب.

قال عثمان بن عفان رحمه الله[٥]: «كل شيء يحب ولده حتى الحبارى». فضرب بها مثلاً في الموق والغفلة، وفي الجهل والبله. وتقول العرب: «أعق من الضبّ، لأنه يأكل حسوله».

وتقول: «أبر من هرة، وأعق من ضب»، فوجهوا أكل الهرة أولادها على شدة الحب لها، وأكل الضب لولدها على شدة البغض لها، وليس ينجو منه شيء منها إلا لشغله بأكل إخوته عنه، وليس يحرسها مما يأكلها إلا ليأكلها.

---

(١) كذا في (ل) وفي (ط): «يحن» فنضعف العبارة بتكرارها.
(٢) (هـ): «لا يثبت» موضع «ولا يعرف» الثانية.
(٣) (هـ): «أسماءهما» موضع «اسماهما».
(٤) أبدلتها من «بيضة» التي كانت بالمخطوطة.
(٥) (هـ): «رضي الله تعالى عنه» موضع «رحمه الله».

وتقول العرب أيضاً: «أحمق من جهيزة» [قالوا][(١)]: وهي عرس الذئب، لأنها تدع أولادها وترضع ولد الضبع.

وهذا معنى قول ابن جذل الطعان[(٢)]:

كمرضعة أولاد أخرى وضيعت   بنيها فلم ترقع بذلك مرقعا

ويقولون: إن الضبع إذا صيدت أو قتلت، فإن الذئب يأتي أولادها باللحم. وأنشدوا قول الكميت[(٣)]:

كما خامرت في حضنها أم عامر   لذي الحبل حتى عال أوس عيالها[(٤)]

وأوس هو الذئب.

ويقولون: «أحمق من نعامة» كما يقولون «أشرد من نعامة» قالوا ذلك لأنها تدع الحضن على بيضها ساعة الحاجة إلى الطعم، فإن هي في خروجها ذلك رأت بيض نعامة أخرى قد خرجت للطعم، حضنت بيضها ونسيت بيض نفسها، ولعل تلك أن تصاد فلا ترجع إلى بيضها حتى تهلك.

قال ابن هرمة[(٥)]:

فإني وتركي ندى الأكرمين   وقدحي بكفي زنداً شحاحا
كتاركة بيضها بالعراء   وملبسة بيض أخرى جناحا

وقد تحضن الحمام على بيض الدجاج، وتحضن الدجاجة بيض الطاوس، أما أن تدع الدجاجة بيضها وتحضن بيض الطاوس فلا. فأما فروج الدجاجة إذا

---

(١) سقط هذا اللفظ من (هـ).

(٢) (ط): «ابن جزل الطعان» وصوابه ما هنا كما في (ل). والبيت في الثمار ٣١٣ والرواية فيه: «فلم تحسن بما فعلت صنعاً». وانظر حماسة البحتري ١٧٠.

(٣) سبقت ترجمته ص ٧٠.

(٤) (ل): «لدى الحبل» وهي رواية ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/٧٩. وبرواية ابن منظور للبيت في مادة (أوس) «غال أوس»، وتفسيرها بقوله: «أكل جراءها.

(٥) من الشعراء الذين يحتج بقولهم، قال الأصمعي: ساقة الشعراء ابن ميادة، وابن هرمة ورؤبة وكان ابن هرمة من مخضرمي الدولتين، مدح الوليد بن يزيد ثم أبا جعفر المنصور، وكان مولعاً بالشراب، ديوان الحماسة ٢/٦٤، ٢٣٠.

خرج من تحت الحمام، فإنه يكون أكيس. وأما الطاوس الذي يخرج من تحت الدجاج[١] فيكون أقل حسناً، وأبغض صوتاً.

وكل بيضة في الأرض فإن اسم الذي فيها والذي يخرج منها تسمى فرخاً، إلا بيض الدجاج فإنه يسمى فروجاً، ولا يسمى فرخاً، إلا أن الشعراء يجعلون الفروج فرخاً على التوسع في الكلام، ويجوزون في الشعر أشياء لا يجوزونها في غير الشعر. قال الشاعر:

لعمري لأصوات المكاكي بالضحى وسود تداعى بالعشى نواعبه[٢]
أحب إلينا من فراخ دجاجة ومن ديك أنباط تنوس غباغبه[٣]

وقلت: وأي شيء بلغ من قدر الكلب وفضيلة الديك، حتى يتفرغ لذكر محاسنها، شيخان من علية المتكلمين على أنهما متى أبرما[٤] هذا الحكم، صار هذا التدبير بهما حظ وحكمة، وقلدهما كل من هو دونهما، وسيعود ذلك عذراً لهما إذا رأيناهم[٥] يوازنون بين الذبان[٦] وبنات وردان، وبين الخنافس والجعلان، وبين جميع أجناس الهمج وأصناف الحشرات حتى البعوض والفراش والديدان والقردان[٧] فإن جاز هذا في الرأي وتم عليه العمل، صار هذا الضرب من النظر عوضاً من النظر في التوحيد، وصار هذا الشكل من التمييز خلفاً من التعديل والتجوير. وسقط القول في الوعد والوعيد. ونسي القياس في الاسم والحكم، وبطل الرد على أهل الملل، والموازنة بين جميع النحل، والنظر في مراشد الناس ومصالحهم، ومنافعهم ومرافقهم، لأن قلوبهم لا تتسع

---

(١) (هـ): «الدجاجة».
(٢) السود، بالفتح: سفح مستو كثير الحجارة السود، وفي (ط): «وسوء» وصوابه ما هنا كما في (ل)،
(٣) (ل) وكذا في المخصص ١٦٧: «صغار ومن ديك تنوس غباغبه».
(٤) (ط): «مدعا». علق ابن منظور في الهامش لوحة ٢/٤٧ بقوله: الشيخان هما: النظام ومعبد.
(٥) (هـ): «رأيتهما يوازنان» وهنا كما في (ل): «رأيناهم يوازنون.. الخ».
(٦) (ط): «الذباب» موضع «الذبان».
(٧) القردان: جمع قراد، وهو دويبة تنتشر في أعطان الإبل.

للجميع، وألسنتهم لا تنطق[1] بالكل. والرأي أن تبدأ من الفتق بالأعظم والأخوف فالأخوف.

وهذا باب من أبواب الفراغ وشكل من أشكال التطرف[2] وطريق من طرق المزاح، وسبيل من سبل المضاحك، ورجال الجد غير رجال الهزل، وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ[3]، ولولا التحصيل والموازنة، والإبقاء على الأدب، والديانة بشدة المحاسبة، لما قالوا: لكل مقام مقال، ولكل زمان رجال.

وقد زعموا أن كل إنسان فيه آلة لمرفق من المرافق، وأداة لمنفعة[4] من المنافع، ولا بد لتلك الطبيعة من حركة وإن أبطأت، ولا بد لذلك الكامن من ظهور، فإن أمكنه ذلك بعثه، وإلا سرى كما يسري السم، وكما ينمي العرق، كما أن البذور البرية، والحبة الوحشية الكامنة في أرحام الأرضين، لا بد لها من الحركة عند زمان الحركة، ومن التفتق والانتشار في إبان الانتشار. وإذا صارت الأمطار لتلك الأرحام كالنطفة وصار بطن الأرض[5] كالأم الغازية ولا بد لكل [فتى] قوي من أن يظهر قوته، كما قال الأول:

ولا بد للمصـــدور من النفـــث[6]

ولذلك صار طلب الحساب أخف على بعضهم، وطلب الطب أحب إلى بعضهم، وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف بعض النفوس بالتنجيم[7].

وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور،

(١) (هـ): «لا تنطلق» موضع «لا تنطق».
(٢) (ط): «التطرق».
(٣) أثبت ما في (هـ) وكانت الكلمة بالمخطوطة بالإفراد «شيخ».
(٤) (ط): «آله المرفق من المرافق وأداة المنفعة» وهو تحريف ما هنا و(ل).
(٥) العبارة في (هـ): «وكان بعض الأرض كالأم الغازية فلا بد لكل ثدي. «الخ» وما أثبت هو الوجه.
(٦) ما هنا وافق ما في (ل) وفي (هـ): «ولا بد للمصدور يوماً من النفث».
(٧) الجملة في (هـ): «وشغف أهل النجوم بالتنجوم».

ولكن العجب ممن يموت مغنياً وهو لا طبع له في معرفة الوزن، وليس له جرم حسن[1]، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغني خاصة أن يكون مطرباً ومغني عامة، وآخر مات على أن يذكر بالجود، وأن يسخى على الطعام، وهو أبخل الخلق طبعاً، فتراه كلفاً باتخاذ الطيبات ومستهتراً بالتكثير منها[2]، ثم هو أبداً مفتضح منتقض الطباع، ظاهر الخطأ، سيِّئ الجزع عند مؤاكلة من كان هو الداعي له، والمرسل إليه، والعارف بمقدار نهاية أكله.

فإن زعمتم أن كل واحد من هؤلاء إنما هو رهن بأسبابه، وأسير في أيدي تملكه، عذرتم جميع اللئام [وجميع المقصرين][3] وجميع الفاسقين، وإن كان الأمر إلى التمكين دون التخير[4] أفليس من أعجب العجب ومن أسوأ التقدير التمثيل[5] بين الديكة والكلاب.

فأما قولك: «وما بلغ من خطر الديك وقدر الكلب» فإن هذا ونحوه كلام عبد لم يفهم عن ربه، ولم يغفل عن سيده، إلا بقدر فهم العامة أو الطبقة التي تلي العامة. وكأنك تظن، أن خلق العقرب والحية[6] والتدبير في خلق الفراش والذباب، والحكمة في خلق الذئاب، والأسد وكل مبغض إليك أو محقر عندك، أو مسخر لك أو واثب عليك، أن التدبير فيه مختلف أو ناقص، وأن الحكمة فيه صغيرة أو ممزوجة.

واعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالمحبوب[7]، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة. ولو كان الشر صرفاً لهلك الخلق، ولو[8] كان الخير محضاً سقطت المحنة

---

(١) الجرم، بالكسر: الصوت، والحلق.
(٢) «منها» موضع «منه» بالمخطوطة.
(٣) زيادة من (هـ).
(٤) (هـ): «التسخير» موضع «التخير». وعلى الوجه ما هنا.
(٥) (ط): «والتمثيل» والواو هنا لا موضع لها.
(٦) (هـ): «إن خلق الحية والعقرب».
(٧) (هـ): «بالسار» مكان «بالمحبوب». والمقابلة تقتضي ما بالمخطوطة.
(٨) (هـ): «أو» بدلاً من «ولو».

وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى بطل[١] التخيير وذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، لم يكن علم، ولا يعرف باب التبين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة[٢] ولا صبر على مكروه ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق يجد[٣] عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل[٤]، وموقن يجد برد اليقين[٥]، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال ولم تتشعبها الأطماع.

ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء، إلى حال السبع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السخرة، فإنها أنقص من حال البهائم في الرتعة، ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس أو القمر أو النار أو الثلج، أو برجاً من البروج، أو قطعة من الغيم أو يكون المجرة بأسرها، أو مكيالاً من الماء أو مقداراً من الهواء؟! وكل شيء في العالم فإنما هو للإنسان ولكل مختبر ومختار، ولأصحاب العقول[٦] والاستطاعة، ولأهل التمييز والروية[٧].

وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة، والسبع من لطع الدم وأكل اللحم من سرور الظفر بالأعداء، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع؟ وأين ذلك من سرور السؤدد ومن عز الرياسة؟ وأين ذلك من حال النبوة والخلافة، ومن عزهما وساطع نورهما. وأين تقع لذة درك الحواس الذي هو ملاقاة المطعم والمشرب، والصوت المطرب، واللون المونق، واللمسة[٨] اللينة ـ من السرور بنفاذ الأمر

(١) (هـ): تكرر فيها «ذهب» وما هنا الأصوب حيث تكرار اللفظ يضعف العبارة قوة.
(٢) (ط): «التدبير» موضع «التبين»، «المضرة» موضع «مضرة»، «المنفعة» موضع «منفعة».
(٣) (ط): «بحد» وهو تصحيف.
(٤) (ط): «بحد ذل» وهو تحريف، وبالمخطوطة «ذل» أبدلتها بما في (هـ).
(٥) (ط): «وموفق بحد» وهو تحريف.
(٦) (هـ): «ولأهل العقل».
(٧) (ط): «التبين» (هـ) «التبين» وهنا «التمييز».
(٨) (ط): «واللبسة».

والنهي، وبجواز التوقيع، وبما يوجب الخاتم من الطاعة ويلزم من الحجة؟!. ولو استوت الأمور لبطل[1] التمييز، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكل على الله عز وجل[2] واليقين بأنه الموزر[3] والحافظ والكالئ[4]، وأن الذي يحاسبك أجود الأجودين، وأرحم الراحمين، وأنه الذي يقبل اليسير ويهب الكثير، ولا يهلك عليه إلا هالك. ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير الجاهل بعواقب الأمور، لبطل النظر وما يدعو إليه[5]، ولتعطلت الأرواح من معانيها، والعقول من ثمارها، ولعدمتْ الأشياء حقوقها وحظوظها[6] فسبحان من جعل منافعها هينة[7]، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسمها بين ملذ ومؤلم، ومؤنس وموحش، وصغير حقير وجليل كبير، وعدو يرصدك وعقل يحرسك، ومسالم يمنعك، ومعين يعضدك، وجعل في الجميع تمام المصلحة، وباجتماعها تتم النعمة، وفي نقصان[8] واحد منها بطلان الجميع [قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً. لأن الجميع][9] إنما هو واحد ضم إلى واحد وواحد ضم إليهما، ولأن الكل أبعاض ولأن كل جثة من أجزاء، فإذا جوزت رفع واحد والآخر مثله في الوزن وله مثل علته وحصته ونصيبه، فقد جوزت رفع الجميع، لأنه ليس الأول بأحق من الثاني في الوقت[10] الذي رجوت فيه إبطال الأول، وكذلك الثالث والرابع، حتى تأتي على الكل وتستفرغ الجميع. كذلك الأمور المضمنة والأسباب المقيدة[11]، ألا ترى أن الجبل ليس

---

(١) (هـ): «بطل».

(٢) (هـ): «على الله تعالى» ويتكرر في (هـ) موقع «عز وجل» هنا وصف لفظ الجلالة بـ«تبارك وتعالى».

(٣) (هـ): «الوزر».

(٤) (هـ): «الكالئ» أيضاً وفي (ط): «الكافي».

(٥) (هـ): «وما يشحذ عليه» مكان «وما يدعو إليه». والشحذ: السوق العنيف.

(٦) (هـ): «حظوظها وحقوقها».

(٧) (هـ): «نعمة» موضع «هينة».

(٨) (هـ): «بطلان» مكان «نقصان».

(٩) سقط هذا الجزء من الكلام في (ل).

(١٠) (ط) والمخطوطة: «فالحق» وهو تحريف وأثبت ما في (هـ).

(١١) (ط): «المطمئنة» مكان «المضمنة» و«المفيدة» مكان «المقيدة» وهو تحريف.

بأدلَّ على الله عز وجل من الحصاة، وليس الطاوس المستحسن بأدلَّ عليه من الخنزير المستقبح. والنار والثلج وإن اختلفا في الحرارة والبرودة، فإنهما لم يختلفا من جهة البرهان والدلالة. وأظنك ممن يرى أن الطاوس أكرم على الله عز وجل من الغراب، والتدرج[1] أعز عليه من الحدأة، والغزال أحب إليه من الذئب. وإنما هذه أمور فرقها عز وجل في عيون الناس وميزها في طبائع العباد، فجعل بعضها بهم أقرب شبهاً، وبعضها أنسياً، وبعضها وحشياً، وبعضها غاذياً، وبعضها قاتلاً، وكذلك الدرّة والخرزة والجمرة والثمرة[2]. فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك العقل.

وللأمور حكمان: حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول. والعقل هو الحجة. وقد علمنا أن خزنة النار من الملائكة ليسوا[3] بدون خزنة الجنة، وان ملك الموت ليس بدون ملك السحاب وإن أتانا بالغيث. وجبريل عليه السلام الذي ينزل بالعذاب ليس بدون ميكائيل عليه السلام الذي ينزل بالرحمة، وإنما الاختلاف في المطيع والعاصي، وفي طبقات ذلك ومواضعه.

والاختلاف بين أصحابنا أنهم إذا استووا في المعاصي استووا في العقاب، وإذا استووا في الطاعة استووا في الثواب، وإذا استووا في عدم الطاعة والمعصية استووا في التفصيل. هذا هو أصل [هذه][4] المقالة.

قال الله عز وجل: **﴿والتين والزيتون﴾**[5] فزعم زيد بن أسلم[6] أن التين دمشق، والزيتون فلسطين. وللغالية في هذا تأويل. وقد أخرج الله عز

---

(١) أنظر معجم المعلوف ص ١٨٧.
(٢) (هـ): «الثمرة والجمرة»، وفي الأصل: «الثمرة» والوجه ما هنا.
(٣) المخطوطة: «وليس» وأثبت ما في (هـ). للمناسبة.
(٤) سقطت من (هـ).
(٥) سورة التين، الآية ١
(٦) زيد بن أسلم العدوي العمري ـ مولاهم أبو أسامة أو أبو عبدالله، فقيه مفسر، من أهل المدينة: كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته واستقدمه الوليد بن يزيد في جماعة من الفقهاء (فقهاء المدينة) إلى دمشق مستفتياً في أمره، وكان ثقة كثير الحديث، له كتاب في التفسير، رواه عنه ولده عبد الرحمن (الأعلام ٩٥/٣ تهذيب التهذيب ٣٩٥/٣).

وجل الكلام مخرج القسم. وما تعرف دمشق إلا بدمشق، ولا فلسطين إلا بفلسطين. فإن كنت إنما تقف من ذكر التين على مقدار يابسه ورطبه، وأنه غذاء قوي [لعمري][1] ويصلح في مواضع الدواء، ومن الزيتون على زيته والاصطباح به، وعلى التأدّم بهما والوقود بشجرهما، وعلى ما أشبه ذلك من أمرهما ـ فقد أسأت ظناً بالقرآن، وجهلت فضل التأويل. وليس بهذا المقدار عظمهما الله عز وجل، وأقسم بهما ونوّه بذكرهما..

ولو وقفت على جناح بعوضة وقوف معتبر، وتأملته تأمل متفكر بعد أن تكون ثاقب النظر سليم الآلة، غواصاً على المعاني، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك، ولا من الشواغل إلا ما زاد في نشاطك، لملأت مما توجدك العبرة من غرائب الطوامير الطوال، والجلود الكبار، ولتبجّسَ عليك[2] من كوامن المعاني ومن خفيات الحكم، ما لا يشتد معه تعجبك ممن وقف على ما في الديك من الخصال العجيبة، وفي الكلب من الأمور الغريبة، وقد قال المتكلمون والرؤساء في التمثيل بين الملائكة والمؤمنين، وفي فرق ما بين الجن والإنس. وطباع الجن من طباع الإنس، أبعد من طباع الديك من الكلب[3] وإنما ذهبوا إلى الطاعة والمعصية.

ويخيل إلي أنك لو سمعتهما يمثلان بين التدرج والطاوس، لما اشتد تعجبك، ونحن نرى أن التمثيل بين خصال الذرة والحمامة، والبعير والفيل[4]، والثعلب والذئب أعجب وأعجب.

ولسنا نعني أن للذرة ما للطاوس من حسن ذلك الريش وتلاوينه وتعاريجه[5]، ولا أن لها غناء الفرس في الحرب والدفع عن الحريم، ولكنا إذا أردنا مواضع التدبير العجيب من الخلق الخسيس، والحس اللطيف من الشيء

(١) لفظ سقط من (هـ).
(٢) (ط): «ولا ينحبس».
(٣) الجملة في (هـ) هكذا: «وطباع الجن أبعد من طباع الإنس، ومن طباع الديك، ومن طباع الكلب».
(٤) (هـ): «والفيل والبعير».
(٥) يقال ثوب معرج: أي مخطط في التواء. وفي (ل): «تعاريجه» وانظر الحيوان ١٥٠/٥.

السخيف[١]، والنظر في العواقب من الخلق الخارج من حدود الإنس والجن والملائكة، لم تذهب إلى ضخم البدن وعظم الحجم، ولا إلى المنظر الحسن، ولا إلى كثرة الثمن. وفي القرد أعاجيب وفي الدب أعاجيب، وليس فيهما كبير مرفق إلا بقدر ما يتكسب به القراد[٢].

وذكرت أن الكلب لا سبع تام ولا بهيمة تامة، [ولعمري إنه لسبع تام، وبلى لعمري أنه لسبع تام][٣] وما كان ليخرجه من حدود السباع إلى حدود الناس، مقدار ما هو عليه من الإنس بهم، وقد يكون في الشيء[٤] بعض الشبه من الشيء فلا يكون ذلك مخرجاً له من أحكامها وحدودها[٥].

وقد يشبه الشعراء والبلغاء الإنسان بالشمس والقمر[٦]، والغيث والبحر، والأسد والسيف، والحية والنجم. ولا يخرجونه بهذه المعاني إلى حد الإنسان. وإذا ذموا قالوا: هو الكلب والخنزير، والقرد والحمار، والثور، والتيس، ثم لا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس وفي أسمائهم، ولا يخرجون ذلك[٧] الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء.

وسموا الجارية غزالاً، وخشفاً، وزهرة، وقضيباً وغير ذلك، وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب فذكروا الأسد والثور، والحمل والجدي، والعقرب وغير ذلك وقال ابن عسلة الشيباني[٨]:

---

(١) (ط): «والحسن اللطيف في الشيء السخيف»، وهي عبارة مشوهة.
(٢) (هـ): «إلا بقدر ما تتكسب به أصحاب القردة».
(٣) سقطت هذه الجملة من (هـ).
(٤) (هـ): «فقد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء».
(٥) (هـ): «أحكامهما وحدودهما».
(٦) (هـ): «بالقمر والشمس».
(٧) كذا في (ط)، و(هـ): بذلك.
(٨) هو عبد المسيح، شاعر جاهلي، روى له صاحب المفضليات ثلاث قصائد برقم ٧٢، ٧٣، ٨٣. والبيت روايته في البيان ١/٢٢٩ مطابقة لهذه. والرواية في المفضليات: «لصحوت» وقبله:
يا كعب إنك لو قصرت على ... حسن الندام وقلة الجرم
وسماع مدجنة تعللنا ... حتى ننام تناوم العجم

فصحوت والنمري يحسبها عمَّ السماك وخالة النجم[1]

وقال النبي ﷺ: «نعمت العمة النخلة»[2] وهذا كلام صحيح المعنى، لا يعيبه إلا من لا يعرف مجاز الكلام. وليس هذا مما يطرد.

ونراهم يسمون الرجل جملاً ولا يسمونه بعيراً، ولا يسمون المرأة ناقة، ويسمون الرجل ثوراً ولا يسمون المرأة بقرة، ويسمون الرجل حماراً ولا يسمون المرأة أتانا، وإنما سموا العالم الصغير سليل العالم الكبير، حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير، ووجدوا له الحواس الخمس، ووجدوا فيه المحسوسات الخمسة، ووجدوه يأكل اللحم، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع، ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب، وروغان الثعلب، وجبن الصفرد، وجمع الذرة، وصنعة السرفة[3] وجود الديك، وإلف الكلب، واهتداء الحمام، وربما وجدوا فيه من كل نوع في البهائم والسباع خلقين وثلاثة[4]، ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه، وصولته وحقده، وصبره على حمل الأثقال، ولا يلزمه[5] شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره، واسترواحه وتوحشه، وشدة مكنته[6] كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض المرة والمرتين والثلاث، ولا يبلغ ذلك المقدار أن يقال له داهية وذو مكر أو صاحب بزلاء[7] وكما يخطئ الرجل فيفحش خطاؤه[8] في المرة والمرتين والثلاث، فلا يبلغ الأمر أن يقال له غبي وأبله ومنقوص.

---

(١) صوابه: «لصحوت» كما في المفضليات ٢٧٩.

(٢) ورد الحديث في (هـ): «نعمت العمة لكم النخلة».

(٣) (ط): «وصفة السرفة» وصوابه ما هنا (ول). ويقال في المثل «أصنع من سرفة». الدميري: دويبة سوداء الرأس وسائرها أحمر تتخذ لنفسها بيتاً مربعاً من دقائق العيدان تضم بعضها إلى بعض بلعابها على مثال الناوس ثم تدخل فيه وتموت.

(٤) في ثمار القلوب ٢٨٠ حيث نقل هذا الكلام: «خلتين».

(٥) (هـ): «ولا يلزم شبه الذئب».

(٦) (هـ): «نكره» موضع «مكنته» ومكنته: تمكنه.

(٧) (ط) كما هنا: «نكر»، (هـ): «نكراء» بدلها وكلاهما صحيح. النكراء، والنكر بالضم: الدهاء والفطنة. والبزلاء: الرأي الجيد والشدائد. ابن منظور في الهامش لوحة ١/٥٢ «البزلاء: الداهية».

(٨) الخطاء: الخطأ.

وسموه العالم الصغير لأنهم وجدوه يصور كل شيء، ويحكي كل صوت بفمه[١].

قالوا: ولأن أعضاءه مقسومة على البروج الإثني عشر والنجوم السبعة، وفيه الحمراء[٢] وهي من نتاج النار، والسوداء وهي من نتاج الأرض والدم وهو من نتاج الهواء، والبلغم وهو من نتاج الماء، وعلى طبائعه الأربعة وضمت الأوتاد الأربعة[٣].

فجعلوه العالم الصغير إذ كان فيه [من] جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه، والكلب سبع وإن كان له بالناس أنس. ولا تخرجه الخصلة والخصلتان مما قارب فيه بعض طبائع الناس إلى أن يخرج [٤] من الكلبية. وقد عرفت شبه باطن الكلب[٥] بجوف الإنسان، وشبه ظاهر القرد بظاهر الإنسان، ترى ذلك في طرفه وتغميض عينيه، وضحكه، وكفه وأصابعه، ورفعها ووضعها، وكيف يتناول بها، ويجهز اللقمة إلى فيه، وكيف يكسر الجوز ويستخرج بسره[٦] وكيف يلقن كل ما[٧] أخذ به وأعيد عليه، وإن من جميع الحيوان إذا سقط في الماء غرق مثل الإنسان فإن الإنسان مع اجتماع المعرفة له[٨] يغرق، إلا أن يكتسب معرفة السباحة، وإن كان طبعه أوفى وأكمل فإنه من ها هنا أنقص وأكل، وكل شيء فهو يسبح من جميع الحيوانات، مما يوصف بالمعرفة والفطنة، ومما يوصف بالغباوة والبله[٩]، وليس يصير القرد بذلك المقدار من المقاربة إلى أن يخرج من بعض حدود القرود إلى حدود الإنسان.

---

(١) (ط): «يعيه» والمخطوطة: «يفهمه» والوجه ما في (ل): بفمه.

(٢) (هـ): «الصفراء» موضع «الحمراء».

(٣) (ل): «وجدت الأوتار الأربعة».

(٤) المخطوطة «يخرج» بدلها في (هـ) «يخرجه».

(٥) (ط): «باطن شبه الكلب» و(هـ): «باطن» موضع «جوف».

(٦) (هـ): «لبه»، (ل): «سره» وهي بمعنى وهنا «بسره».

(٧) (ط) والمخطوطة: «يلقى كلما أخذه» وهو تحريف أثبت ما في (هـ). وفي ثمار القلوب ٣٢٤ «يتقن».

(٨) (هـ): «فيه» موضع «له».

(٩) (هـ): «البلادة» موضع «البله».

وزعمت أن مما يمنع من التمثل بين الديك والكلب أنه حارس محترس منه [وكل][1] حارس من الناس فهو حارس غير مأمون تبدله[2].

ولقد سأل زياد[3] ليلة من الليالي [فقال]: من على شرطتكم؟ قالوا: بلج ابن نشبة الجشميّ. فقال:

وساع من[4] السلطان يسعى عليهم   ومحترس من مثله وهو حارس

ويقال: قيل[5] هذا الشعر في الفلافس النهشلي[6]، حين ولي شرطة الحارث بن عبدالله:

أقلي على اللوم يا ابنة مالك   وذمي زماناً ساد في الفلافس
وساع مع السلطان يسعى عليهم   ومحترس من مثله وهو حارس

وقلت: وما يبلغ من قدر الكلب ومقدار الديك، حتى[7] يتفرغ لهما شيخان من جلة المعتزلة، فأي شيء غفر الله لنا ولك، بلغ من قدر جزء لا يتجزأ من رمل عالج، والجزء الاقل من أول قطع الذرة للمكان، والصحيفة

---

(١) المخطوطة: «فكان» والصواب ما أثبت كما في (هـ).
(٢) المخطوطة: «تبديله» وأثبت الوجه كما في بقية النسخ.
(٣) هو زياد بن أبيه: أمير، من الدهاة، القادة الفاتحين الولاة من أهل الطائف، ولدته أمه (سمية) واختلف في اسم أبيه، أسلم في عهد أبي بكر وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة ثم لأبي موسى الأشعري، ألحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤ هـ. فكان عضده الأقوى وولاه البصرة والكوفة وسائر العراق فلم يزل في ولايته إلى أن توفي سنة ٥٣ هـ (الاعلام ٨٩/٣، ابن خلدون ٥/٣ - ١٥، الطبري ١٦٢/٦، لسان الميزان ٤٩٣/٢).
(٤) (هـ): «مع» موضع «من». وأكثر الروايات تذكر «مع» إلا نسخة ابن منظور.
(٥) قائل الشعر هو عبدالله بن همام السلولي، من بني مرة بن صعصعة، بن قيس عيلان، وبنو مرة يعرفون ببني سلول، لأنها أمهم (الخزانة ٦٣٨/٢ - ٦٣٩، اللآلئ ٦٨٣ وهو القائل في الفلافس الأبيات «أقلي علي اللوم.. الخ» البيتان في الشعر والشعراء ٦٥١/٢، وعيون الأخبار ٥٧/١ - ٥٨) «محترس من مثله وهو حارس» مثل يضرب للرجل يعير الفاسق لفعله وهو أخبث منه. أنظر مجمع الأمثال ٢٣١/٢.
(٦) قال ابن قتيبة: كان الفلافس هذا على شرطة الكوفة من قبل الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي أخي عمر بن أبي ربيعة.. وخرج الفلافس مع ابن الأشعث فقتله الحجاج».
(٧) (هـ): «إن» موضع «حتى».

التي لا عمق لها[1]، وأي شيء يساوي ذلك[2]، وما بلغ من ثمنه وقدر حجمه حتى يتفرغ للجدال فيه الشيوخ الجلة، والكهول العلية، حتى يختاروا النظر فيه على التسبيح والتهليل، وحتى يزعم أهله أنه فوق الحج والجهاد، فإن زعمت أن هذا كله سواء طالت الخصومة معك، وشغلتنا به عما هو أولى بنا فيك، على أنك إذا عممت ذلك كله بالنبي[3]، وجللته بالعيب، صارت المصيبة فيك أجل والعزاء عنها أعسر. وإن زعمت أن ذلك إنما جاز لأنهم لم يذهبوا إلى أثمان الأعيان في الأسواق، وإلى عظم الحجم، وإلى ما يروق العين ويملأ النفس[4] وإنما ذهبوا إلى عاقبة الأمر فيه، وإلى نتيجته، وما يتولد عنه في علم النهايات، ومن باب الكل والبعض ومن باب ما يحيط به العلم منه، وما يفضل عنه، ومن فروق[5] ما بين مذاهب الدهرية ومذاهب الموحدين. فإن كان هذا العذر مقبولاً، وهذا الحكم صحيحاً، فكذلك تقول[6] في الكلب لأن الكلب ليس له خطر ثمين ولا قدر في الصدور جليل، لأنه إن كان كلب صيد فديته أربعون درهماً وإن كان كلب ضرع فديته شاة وإن كان كلب دار فديته زنبيل تراب، وحق على القاتل أن يؤديه[7]، وعلى صاحب الدار أن يقبله.

قلت: ولو كان بدل النظر في الكلب[8] والديك النظر في التوحيد، ونفي التشبيه والوعد والوعيد، وفي التعديل والتجوير لكان أصوب [لك][9].

فالعجب أنك عمدت إلى رجال لا صناعة لهم ولا تجارة إلا الدعاء إلى ما ذكرت، والاحتجاج لما[10] وصفت، ووضع الكتب فيه والولاية والعداوة فيه،

---

(١) المخطوطة: «الصفيحة» وهذا تحريف أثبت الوجه.

(٢) وردت العبارة في (هـ): «ولأي شيء يعنون بذلك».

(٣) (هـ): «بالذم» موضع «النبي».

(٤) (هـ): «يلائم» موضع «يملأ» وكلاهما صحيح.

(٥) (هـ): «فرق» بالإفراد.

(٦) (ط): «يقول» وهو تحريف.

(٧) المخطوطة: «يدبه» وأثبت ما في بقية النسخ.

(٨) (هـ): العبارة مختصرة: «ولو كان بدل النظر فيهما النظر في التوحيد».

(٩) سقط هذا اللفظ من (هـ).

(١٠) في الأصل: «بما».

ولا لهم لذة ولا هم ولا مذهب ولا مجاز إلا عليه وإليه، فحين أرادوا أن يقسطوا بين الجميع بالحصص، ويعدلوا بين الكل بإعطاء كل شيء نصيبه حتى يقع التعديل شاملاً، والتقسيط جامعاً، اعترضت في التعنت وسطرت الكلام، وأطلت الخطبة[1]، من غير أن يكون صوب رأيك أديب، وشايعك حكيم. وسأضرب لك مثلاً قد استوجبت أغلظ منه، وجدنا الجميع أهل النقص، ولأهل كل صنف منهم نسكاً يعتمدون عليه، ويحتسبون به في الطاعة، ويفزعون إليه على قدر فساد الطباع مع خبث المنشأ، وقلة التثبت، فنسك المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمي الناس بالريبة، ويتزين بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه خوفاً من أن يكون قد فطن له، فهو يستر ذلك الداء ويرمي الناس به. ونسك الخارجي إظهار استعظام المعاصي ثم لا يلتفت [إلى غيره][2] لمجاوزة المقدار وإلى ظلم العباد.

ونسك الخراساني أن يحج ثم ينام[3] على قفاه، ويعقد[4] الرياسة ويتهيأ للشهادة، ويبسط لسانه بالحسبة، وقالوا: إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر.

ونسك البنوي[5] والجندي طرح الديوان، والزراية على السلطان[6]. ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ[7]، ونسك الخصي إظهار مجاهدة الروم ولزوم طرسوس. ونسك الرافضي ترك النبيذ. ونسك البستاني ترك سرقة

---

(١) (هـ): «الخطب».

(٢) ساقط من (هـ).

(٣) (هـ) «ينام» موضع «ثم ينام».

(٤) كذا في (هـ) و(ط) والمخطوطة: «يفقد» وليس بشيء.

(٥) (ط): «الكوفي».

(٦) (ط): «والزيارة للسلطان» (ل): «والزيارة على السلطان» وتركت ما هو ثابت هنا كما في (هـ).

(٧) في القاموس: «الطبيخ ضرب من المنصف». وفي مادة نصف «كمعظم: الشراب طبخ حتى ذهب نصفه».

الثمار[١]. ونسك المغني الصلاة في الجماعة وكثرة التسبيح، والصلاة على النبي ﷺ. ونسك اليهودي التشدد في إقامة السبت.

والصوفي المظهر النسك من المسلمين، إذا كان فسلا ببعض العمل تصوف[٢] وأظهر تحريم المكاسب، وعاد سائلاً، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له.

وإذا كان النصراني نذلاً فسلاً[٣] مبغضاً للعمل، ترهب فلبس[٤] الصوف، لأنه واثق أنه متى لبسه وتزيا بذلك الزي، وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه، ثم لا يرضى بأن ربح الكفاية باطل حتى استطال بالمرتبة.

فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن أنه قد حول ريبته إلى خصمه، وحول براءة خصمه إليه. وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا[٥] فقد بلغ الأمنية، ووقف على النهاية. فاحذر أن تكون منهم.

يقال: أجرأ من الليث، وأجبن من الصفرد، وأسخى من لافظة، وأصبر على الهوان[٦] من كلب، وأحذر من عقعق، وأزهى من غراب، وأصنع من سرفة[٧]، وأظلم من حية، وأغدر من ذئب، وأخبث من ذئب خمر[٨] وأروغ من ثعلب، وأحمق من حبارى، [وأشد عداوة من عقرب] [٩] وأهدى من

(١) (هـ): «الثمر» موضع «الثمار».
(٢) كذا في (ل)، (ط): «بين» بدلاً من «وبعض»، هنا كما في (ط)، (هـ): «يبغض» بدل «ببعض»، «تطرف» موضع «تصوف».
(٣) (هـ): «فسلاً نذلاً».
(٤) (هـ): «ولبس» بالواو موضع «فلبس».
(٥) أثبت ما في (هـ) موضع: «كل ما وصفنا» تكملة الجملة التي كانت بالمخطوطة.
(٦) كذا في (ل). و(هـ): «الهون». وهما بمعنى.
(٧) (ط): «واضع من شرفه».
(٨) (ط): «ضمر» وهو تحريف، والخمر بالتحريك. ما واراك من شجر وغيره.
(٩) سقط هذا المثل من هذا الموضع في (هـ).

قطاة، [وأصدق من قطاة] (١)، وألأم من كلب على جيفة وأكذب من فاختة، وأجمع من ذرة وأضل من حمار أهله(٢)، وأعق من ضب، وأبر من هرة، وأنفر من الظليم وأضل من ضب، وأضل من ورل(٣)، وأضل من حية.

فيعبرون عن هذه الأشياء بعبارة العبارة عن الناس، في مواضع الإحسان والاساءة، حتى كأنهم من الملومين والمشكورين، ثم يعبرون في هذا الباب الآخر بدون هذا التعبير، ويجعلون خبرهم(٤) مقصوراً على ما في خلقه من الغريزة والقوى فيقولون: أبر من عقاب، واسمع من فرس، وأطول ذماء من ضب.

فالثاني يشبه العبارة عن الحمد والذم، والأول يشبه العبارة عن اللائمة والشكر(٥).

وإنما قلنا ذلك لأن كل مشكور محمود، وليس كل محمود مشكوراً، وكل ملوم مذموم وليس كل مذموم ملوماً. وقد يحمدون البلدة ويذمون الأخرى، وكذلك الطعام والشراب، وليس ذلك على جهة اللوم ولا على جهة الشكر، لأن الأجر(٦) لا يقع إلا على جهة التخير والتكلف، والأول إنما يقال بالخلقة وبمقدار من المعرفة، لا يبلغ أن يسمى عقلاً، كما أنه ليس قوة تسمى استطاعة.

ومما ذكره صاحب الديك من ذم الكلاب وتعداد معايبها(٧) ومثالبها، وما جاء في الآثار من النهي عن اتخاذها وامساكها، ومن الأمر بقتلها وطردها، ومن كثرة جنايتها، وضرب المثل بلؤمها ونذالتها، وقبحها وقبح معاظلتها(٨) وسماجة

---

(١) سقط أيضاً هذا المثل من (هـ).

(٢) كذا في (ل). (هـ): «أهلي».

(٣) (ل): «أشرد من ورل».

(٤) (ط): «خيرهم» المخطوطة: «خيره» وأثبت ما في (ل) لأنه الصواب.

(٥) (ط) والمخطوطة: «السلامة والشكر» وأثبت الوجه من (ل) كما في (هـ).

(٦) (هـ) والمخطوطة: «الآخر» وهو تصحيف، أثبت ما في (هـ).

(٧) (ط): «معائبها» بالهمزة وهو خطأ صوابه في (ل) كما هنا، إذ المعايب جمع معاب أو معابة [بمعنى العيب، فياؤه في الجمع أصيلة غير زائدة فلا يصح قبلها همزة. مثلها في ذلك مثل معيشة ومعايش.

(٨) (ط): «معاطاتها» وهو تحريف. والعظال: الملازمة في السفاد من الكلب ونحوه.

نباحها[١] وتقزز الناس من دنوها[٢]، وأنها من الخلق المركب والحيوان المطلق: كالبغل في الدواب وكالراعبي في الحمام[٣] وأنها لا سبع ولا بهيمة، ولا أنسية ولا جنية، وأنها من الحن دون الجن[٤] وإنها مطايا الجن.

[قال ابن خالويه: الحن كلاب الجن، والحن أيضاً سفلة الجن وأنها نوع من المسخ][٥] وأنها تنبش القبور وتأكل الموتى، وانها يعتريها الكذب من أكل لحوم الناس.

ولنذكر قول من عدد محاسنها، وذكر أسماءها[٦] وأنسابها، وتفدية الرجال لها[٧] وذكر كسبها وحراستها، ووفائها وإلفها ومنافعها، والمرافق التي فيها، وما أودعت من المعرفة الصحيحة والفطن العجيبة والحس اللطيف[٨]، والأدب المحمود، وصدق الاسترواح وجودة الشم، وذكر حفظها واهتدائها، وإثباتها لصور أربابها وجيرانها، وصبرها، ومعرفتها بحقوق الكرام، وإهانة اللئام، وصبرها على الجفاء واحتمالها للجوع، وذكر يقظتها وقلة غفلتها[٩] وبعد أصواتها، وكثرة نسلها وسرعة قبولها وإلقاحها وذكر لغتها وجودة فهمها وخدمتها، وجدها ولعبها وجميع أمورها، بالاخبار والأشعار، والكتب المنزلة والأمثال السائرة، وقول أصحاب الفأل فيها، وأخبار المتطيرين عنها، وأسنانها وأعمارها ومدة حملها وأسمائها، وسماتها وشياتها، ودوائها وأدوائها وسياستها، والتي تلقن منها[١٠] وأصول مواليدها ومخارج بلدانها.

---

(١) المخطوطة: «نتاجها» وهو تصحيف.
(٢) (ط): «درنها» ووردت العبارة في (هـ) هكذا: «وتقذر المسلمين من دنوها «تقذر» بدل «تقزز» و«المسلمين» بدل «الناس».
(٣) (ط): «والزاغبي من الحمام» وهو تصحيف.
(٤) (ط): الأول: «الجن» وصوابه «الحن» كما هنا و(ل).
(٥) ما بين المعقفين سقط من (هـ).
(٦) (هـ): «من ذكر أسمائها».
(٧) (ط): «وتغذية الرجال إياها» وهو تحريف.
(٨) (ط): «والحسن اللطيف» وليس بشيء.
(٩) (ل): «وكثرة غفلتها» وبذلك يفسر المعنى.
(١٠) (هـ): «اللاتي لا تلقن منها». (ط): «لا تلقى منها» وهو تحريف.

قال صاحب الديك: أشياء من الحيوان تضاف إلى نتن الجلود وخبث الرائحة، كريح أبدان الحيّات، وكنتن التيوس وصنان عرقها، وكنتن جلد الكلب إذا أصابه المطر[1].

قال روح بن زنباع[2] الجذامي في امرأته، وضرب [لها][3] بالكلب في ذلك مثلاً:

ريح الكرائم معروف له أرج ... وريحها ريح كلب مسه مطر

وكانت امرأة روح بن زنباع أم جعفر بنت النعمان بن بشير، وكان عبد الملك زوجه إياها، وقال: إنها جارية حسناء فاصبر على بذاء لسانها.

وفي أكل الكلب العذرة يقول الراجز:

أحرص من كلب على عِقي صبي[4]

يقال للذي يخرج من بطن الصبي حين يخرج من بطن أمه عقي بكسر العين، ويقال عقى الصبي يعقي عقياً، فإذا شد بطنه للسمن قيل قد صرب ليسمن[5]. وإياه عنى ابن عمر حين قيل له، هلا بايعت أخاك عبدالله بن

---

(١) (هـ): «مطر» موضع «المطر».

(٢) هو روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي، أبو زرعة: أمير فلسطين، وسيد اليمانية في الشام وقائدها وخطيبها وشجاعها. قيل: له صحبة. كان عبد الملك بن مروان يقول: جمع روح طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز. ترجمته (الاعلام ٦٣/٣، ابن عساكر ٣٣٧/٥، البداية والنهاية ٥٤/٩، سمط اللآلئ ١٧٩) توفي روح سنة ٨٤ هـ.

(٣) سقط هذا اللفظ من (هـ) ووردت العبارة فيها: وضرب بالكلب المثل».

(٤) (ط): «عفى» والصواب بالقاف كما في (ل). والعقي بالكسر: ما يخرج من بطن الولد حين يولد.

(٥) في الأصل: «اشتد» موضع «شد». وهو تحريف. وفي (ط): «ضرب» مكان «قد صرب» وصوابه ما هنا كما في (ل).

الزبير[1]؟ قال: إن أخيَّ وضع يده في عقية[2]، وأنا لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة[3].

وفي الحديث: «الراجع في هبته كالراجع في قيئه». وهذا المثل للكلب. ويقال: «أبخل من كلب على جيفة». ويقال: الجيفة للكلب أحب إليه من اللحم الغريض، ويأكل العذرة ويرجع في قيئه، ويشغر ببوله في جوف أنفه ويسدده[4] تلقاء خيشومه.

[ويقال: شغر الكلب بالغين معجمة: إذا رفع رجله وبال على حائط، وكذلك شغر الرجل جاريته، إذا رفع رجلها عند الوطء][5]. قال صاحب الكلب: إن كنتم إنما تستسقطون الكلب[6] وتستسغلونه بهذا وشبهه[7] والجيفة أنتن من العذرة، والعذرة شر من القيء، فالجيفة أحب إلى أشراف السباع ورؤسائها من اللحم الغريض.

والأسد سيد السباع، وهو يأكل الجيفة، ولا يعرض لشرائع الوحش وافتراس البهائم، ولا للسابلة من الناس، ما وجد في فريسته فضله. ويبدأ بعد شرب الدم فيبقر بطنه ويأكل ما فيه من الغثيثة والثفل[8] والحشوة والزبل، وهو يرجع في قيئه، وعنه[9] ورث ذلك السنور.

---

(١) ليس هو عبدالله بن الزبير، الأسدي، أسد خزيمة، الكوفي، الشاعر المتهور، له نظم بديع، وهو الذي امتدح معاوية ثم قدم على ابن الزبير فلم يعطه شيئاً فقال: لعن الله ناقة حملتني إليك فقال: إن وراكبها وقدم العراق على مصعب. ولكن عبدالله بن الزبير المقصود هو صاحب الإمارة الذي وفد عليه الشاعر (سير أعلام النبلاء ٣/٣٥٧، الطبري ٢/٢٣١) يقال مات في زمن الحجاج..

(٢) (ط): «قيئة» ويفوت بذلك الاستشهاد. والصواب هنا.

(٣) (ط): «واضعاً في فرقة».

(٤) كذا في (ل)، (هـ): «يحذفه».

(٥) سقط هذا الجزء من هذا الموضع في (هـ).

(٦) (ط): «تستسفطون» وهو تصحيف.

(٧) (هـ): «أشباهه» موضع «شبهه».

(٨) (ط): «القيئة والتفل» وهو تحريف ما أثبت كما في (ل).

(٩) كذا في (هـ) و(ل). (ط): «وعند» وصوابه ما أثبت.

وهو المضروب به المثل في النجدة والبسالة، وفي شدة الإقدام والصولة، فيقال: «ما هو إلا الأسد على برائنه» و«هو أشد من الأسد» و«هو أجرأ من الليث العاديّ» و«فلان أسد البلاد» وقيل لحمزة بن عبد المطلب[1] أسد الله. فكفاك من نبل الأسد أنه اشتق لحمزة من اسمه. ويقال للملك أصيد إذا أرادوا أن يصفوه بالكبر وقلة الالتفات، وبأن أنفه في أسلوب[2] ولأن الأسد يلتفت معاً لأن عنقه من عظم واحد.

وبعد فإن من[3] يأكل الجيفة لم يبعد من طباع كثير من الناس، لأن من يشتهي اللحم الغاب من الناس تجده، ومنهم من يشتهي النمكسود[4]. وليس بين [مسلوخ][5] النمكسود وبين المصلوب اليابس كبير فرق، وإنما يذبحون الديكة والبط والدجاج والدراج من أول الليل، ليسترخي لحمها، وذلك أول التجيف[6].

فالأسد أجمع لهذه الخصال من الكلب، فهلا ذكرتم بذلك الأسد، وهو أنبه ذكراً وأبعد صيتاً.

وأما ما ذكرتم من نتن الجلد ومن استنشاق البول، فإن للتيس في ذلك ما ليس للكلب، وقد شاركه في الحذف ببوله تلقاء أنفه، وباينه بشدة الصنان، فإن الأمثال به أكثر ذكراً. وفي العنز أيضاً عيوب. وفي توجيه التيس ببوله إلى خاق خيشومه يقول الشاعر يهجو:

---

(١) هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم، أبو عمارة، من قريش: عم النبي ﷺ وأحد صناديد قريش وسادتهم في الجاهلية والإسلام، تردد في الإسلام ثم أسلم، وكان شعار حمزة في الحرب ريشة نعامة يضعها على صدره. ولما كان يوم بدر قاتل بسيفين وفعل الأفاعيل وقتل يوم أحد سنة ٣ هـ، فدفنه المسلمون في المدينة، الاعلام ٢/٣١٠، أسد الغابة، وصفوة الصفوة ١/١٤٤، الروض الأنف ١/١٨٥).

(٢) كذا في (ط): ، (ل): «وبأن أنفه أسلوب» (هـ) «وبأن أنفه فيه أسلوب «والأسلوب» الشموخ في الأنف.

(٣) (هـ): «الذي» موضع «من».

(٤) أنظر ما في تذكرة داود.

(٥) سقطت هذه الكلمة من (هـ) قبل: «النمكسود».

(٦) كذا كل النسخ، ما عدا (ل) (وهـ): «التجيف».

دعيت يـزيـد كي تـزيـد فلم تـزد   فعـاد لك المسمي فـأسماك بـالقحـر[1]
ومـا القحـر إلا التيس يعتـك بـولـه   عليـه فيمـذي في لبـان وفي نحـر[2]

وبعد فما نعلم من صنيع العنز في لبنها وفي الارتضاع من خلفها إلا أقبح.

قال ابن أحمر:

إنـا وجـدنـا بني سهـم وجـاملهـم   كـالعنـز تعـطف روقيهـا وتـرتضـع[3]

وقلتم: هجا ابن غادية السلمي[4] بعض الكرام، حين عزل عن ينبع، فقال لمن ظن أنه عزل لمكانه:

ركبـوك مـرتحـلاً فـظهـرك منهـم   دبـر الحـراقـف والـفقـار مـوقـع
كـالكلب يتبـع خـانـقيـه وينتحي   نـحـو الـذيـن بهـم يعـز ويمـنـع

وقال ابن هرمة الفهري[5]:

فـما عـادت لـذي يمـن رؤوسـا   ولا ضرت بـفـرقـتـهـا نـزارا
كعنـز السـوء تنـطح من خـلاهـا   وتـرأم مـن يحـد لهـا الـشـفـارا

وما نعلم الرجوع في الجرة، واعادة الفرث إلى الفم ليستقصى مضغه الا

---

(١) (ط): «بالفجر» وهو تصحيف ما هنا و(ل)، والقحر أصل معناه البعير المسن.
(٢) (ط): «الفجر» موضع «القحر» و«يعتل» مكان «يعتك». يقال عتك عليه يضربه أي لم ينهنهه عنه شيء. . . . وفي (ل): «ويمذي في اللبان وفي النحر».
(٣) (ط): «وجاهلهم» (ل) «وحافلهم» وصوابه ما أثبت كما في عيون الأخبار ٢/٧٥. والجامل: قطيع الإبل معه رعيانه وأربابه.
(٤) (ط): «السلمحا» وفي (ل): «عادية» بالعين. وأثبت ما في (ش) موافقاً لما هنا.
(٥) هو ابراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة بن الهذيل بن الربيع بن عامر بن صبيح من كنانة بن عدي بن قيس بن الحارث بن فهر، وإلى فهر ينتهي نسب قريش. وقيل: إنهم ينتهون إلى النضر من كنانة. وقيل: نفى بنو الحارث بن فهر نسب ابن هرمة فقال:
أحـار بـن فـهـر كـيـف تـطرحـونـني   وجاء العدا من غيركم يرتضي نصري
فصار من ولد فهر في ساعته.
وكان ابن هرمة دعياً في الخلج، والخلج أدعياء في قريش. وكان ابن هرمة يقول: الأم المعرب دعى أدعياء! ويعني نفسه (الأغاني مجلد ٢ ص ٥٨٥، ديوان الحماسة شرح التبريزي ٢/٦٤).

أسمج[1] وأقذر من الرجوع في القيء. وإنما مثل الجرة مثل الريق الذي ذكره ابن أحمر فقال:

هـذا الثنـاء وأجـدر أن أصـاحبـه وقـد يـدوم ريق الـطامـع الأمـل[2]

وإنما مثل القيء مثل العذرة، لأن الريق ما دام في فم صاحبه، ألذُّ من السلوى، وأحسن موقعاً من الماء البارد من العطشان، والريق كذلك ما لم يزايل موضعه، ومتى زايل فم صاحبه إلى بعض جلده اشتد نتنه وعاد في سبيل القيء.

فالريق والجرة في سبيل واحد، كما أن القيء والعذرة في سبيل واحد. ولو أن الكلب قلس حتى يمتلئ منه فمه، ثم رجع فيه من غير مباينة له، لكان في ذلك أحق بالنظافة من الأنعام في جرتها، وأن الأرانب لتحيض حيضاً نتناً، فما عاف لحمها أصحاب التقزز[3] لمشاركتها الأنعام في الجرة.

فقال صاحب الكلب: أما ما عبتموه من أكل العذرة، فإن ذلك عام في الماشية المتميز لحمها على اللحمان، لأن الإبل والشياه[4] كلها جلالة وهن على يابس ما يخرج من الناس أحرص، وعلى أنها إذا تعودت أكل ما قد جف ظاهره وداخله رطب، رجع أمرها إلى ما عليه الكلب. ثم الدجاج لا ترضى بالعذرة وما فيها من الحبوب التي لم يأتِ عليها الاستمراء والهضم، حتى تلتمس الديدان التي فيها، فتجمع نوعين من العذرة[5] لأنها إذا أكلت ديدان العذرة فقد أتت على النوعين جميعاً.

على أن الكلاب متى شبعت[6]، لم تعرض للعذرة، والأنعـام الجلالـة

(١) (ط): «إلى السمع» وهو تحريف ما هنا.
(٢) (ط): «يصاحبه» و«يداوم» وصوابه ما هنا كما في (ل) والبيان ١/ ١٨٠.
(٣) كذا في (ط): والتقزز: الاشمئزاز. وهي: «التقذر» والتقذر من تقذر الشيء: عده قذراً.
(٤) المخطوطة: «الشاة» بالإفراد وأثبت ما في (هـ) لمناسبة الإبل بالجمع.
(٥) (ط): «فيجتمع نوعان».
(٦) (هـ): «شبعت» مكان «أشبعت».

والحافر، قد جعلت ذلك كالحمض إذا كانت لها خلة، فهي مرة تتغذى به ومرة تتحمض به وقد جاء في لحوم الجلالة ما جاء.

وملوكنا وأهل العيش منا، لا يرغبون في شيء من اللحمان رغبتهم في الدجاح، ويقدمونها على البط والنواهض[1]، والقبج والدراج، وعلى الجداء. وهم يعرفون طعمها وشهوتها[2] ويأكلون الرواعي كما يأكلون المسمنات.

وأطيب ما في الأنهار من السمك، وأحسنها قدوداً وخرطاً، وأرفعها ثمناً وأكثرها تصرفاً في المالح والطري، وفي القريس والنشوط الشبوط[3]، وليس في الماء سمكة رفيعة الذكر [ولا غيرها][4]، إلا وهي أحرص على العذرة وأشد طلباً لها من الخنزير في البر، والجري في البحر.

وقد علم الناس كيف استطابة لحوم الخنازير، وكيف كانت الأكاسرة والقياصرة يفضلونها ولولا التعبد لجرى عندنا مجراه عند غيرنا.

وقد علم الناس كيف استطابة أكل الجري.

وفي الجري قال أبو كلدة: الجري: أدم العميان، وجيد في الكوشان[5] ودواء للكليتين[6] وصالح لوجع الظهر وعجب الذنب، وخلاف على اليهود، وغيظ على الروافض وفي أكله أحياء لبعض السنن، وإماتة لبعض البدع، ولم يفلج عليه مكثر منه قط. ومحنة بين المبتدع والسني، هلك فيه فئتان[7] مذ كانت الدنيا: محلل ومحرم.

---

(١) زدت الكلمة هنا من (هـ) وبقية النسخ.
(٢) كما في (ط): «طعمها وشهوتها». (هـ): «طبعها وسوء قوتها».
(٣) المخطوطة: «القريص» وأثبت ما في (هـ). في القاموس: سمك قريش: طبخ وعمل فيه صباغ وترك حتى جمد. وفي مبادئ اللغة ٧٤: «والقريس: لحم يطبخ بخل ثم يبرد». وهي في (ط): «القريش» وفي (ل) كما في المخطوطة: «القريص» وهما كلمتان محرفتان. وإما النشوط فهي كلمة ساقطة من (ط). والنشوط: سمك يمقر في ماء وملح.
(٤) (هـ): «ولا ذات خمول» موضع «ولا غيرها».
(٥) الكوشان: طعام لأهل عمان من الأرز والسمك.
(٦) (ط): «في الكليتين» وهو تحريف.
(٧) (ط): «فتيان» وليس بشيء.

وقال أبو اسحق: الجري قبيح المنظر، عاري الجلد، ناقص الدماغ، يلتهم العذرة ويبتلع الفأر والجرذان صحاحاً[1]، وهو زهم لا يستطاع أكله إلا محسياً[2] ولا يتصرف تصرف السمك، وقد وقع عليه اسم المسخ، لا يطيب مملوحاً ولا منقوراً، ولا يؤكل كباباً، ولا يختار مطبوخاً، ويرمى بكله إلا ذنبه[3].

والأصناف التي تعرض للعذرة كثيرة، الدجاج والرخم، الهداهد والجعل.

واسم الرخمة الأنوق، حتى سموا كل شيء من الحيوان يعرض للعذرة بأنوق، قال الشاعر:

حتى إذا أضحى تدرى واكتحل   لجارتيه ثم ولَّى فنثل
رزق الأنوقين القرنبى والجعل[4]

ولشدة طلب الجعل لذلك قال الشاعر:

بات يعشِّي وحده ألفي جعل[5]

وتقول العرب: «سدك به جعله»[6]. قال الشاعر:

إذا أتيت سليمى شبَّ لي جعل   إنَّ الشقي الذي يغرى به الجعل[7]

يضرب هذا المثل للرجل إذا لزق به من يكرهه، وإذا كان لا يزال يراه وهو يهرب منه.

(١) (ط): «يلتقم العذرة ويبتلع الجرذان» (هـ): «يلتهم العذرة ويأكل الجرذان».
(٢) كذا في (ل). أنظر كتاب الطبيخ للبغدادي ٦٤ حيث ذكر صفة المحسي: بقية النسخ «محسواً».
(٣) (ل): «بكله إلا ذنيبه».
(٤) أثبت الصواب كما في (هـ) ٥٠٣/٣ من الحيوان بدل كلمة «ذرق».
(٥) قبله: «إذا أتوه بطعام وأكل» كما في (هـ) وورد البيت الثاني بدون الأول في (ل) أيضاً.
(٦) (ط): «شرك به جعله» وإنما هي سدك ـ بمعنى لزم ـ كما في (ل) وهنا. وفي الأمثال «ألصق من جعل».
(٧) شب: أي أتيح. وعنى بالجعل الواشي. أمثال الميداني ١٨٠/٢.

وكان أصله ملازمة الجعل لمن بات في الصحراء، فكلما قام لحاجة تبعه، لأنه عنده يريد الغائط.

وفي القرنبى يقول ابن مقبل:

ولا أطرق الجارات بالليل قابعاً قبوع القرنبى أخلفته محاجره[1]

والقبوع: الاجتماع والتقبض. والقرنبى: دويبة فوق الخنفساء [ودون الجعل][2]، وهو والجعل يتبعان الرجل إلى الغائط.

والهدهد يضارع الرخمة في ذلك، والهدهد منتن [الريح][3] والبدن وإن لم تجده ملطخاً بشيء من العذرة، لأنه يبني بيته ويصنع أفحوصته من الزبل، وتعتري هذه الشهوة الذبان، حتى أنها لو رأت عسلاً وقذراً، لكانت إلى العذرة أسرع[4]. قال الشاعر[5]:

قفا خلف وجه قد أطيل كأنه قفا ملك يقصي الهموم على بثق[6]
وأعظم زهواً من ذباب على خرا[7] وأبخل من كلب عقور على عرق[8]

ويزعمون أن الزنبور لهج بصيد الذبان، ولا يكاد يصيده[9] إلا وهو قاعد على عذرة لفرط شهوته لها، فيعرف الزنبور ذلك، فيجعل غفلته فرصة ونهزة.

ويقال إنه ليس في الأرض رائحة أشد على النفس، من بخر فم أو نتن حر، ولا في الأرض رائحة أعصم للروح من ريح التفاح[10].

(١) كذا في (ط) وأمثال الميداني ٢/١٨٠. و(ل)، (هـ) «مجاعره» مكان «محاجره».
(٢) سقطت هذه الكلمة من المخطوطة وأثبتها من (هـ) لتكمل العبارة.
(٣) سقطت الكلمة من (هـ).
(٤) (هـ): «القذر» بدل «العذرة».
(٥) هو أبو نواس الحسن بن هانئ كما في البيان ٣/٣٥٤ وعيون الأخبار ١/٢٧٣ والشعراء ٧٦٠. والشعر في هجاء جعفر بن يحيى البرمكي.
(٦) البثق: منبعث الماء. كذا في (ل) و(هـ)، وما عداها: «ثبق».
(٧) (ل): «خر».
(٨) العرق بالفتح: العظم بلحمه. فإذا أكل لحمه فعراق ـ كغراب ـ أو كلاهما لكليهما.
(٩) (ط): «يصيد» والوجه ما هنا كما في (ل).
(١٠) (هـ): «أعصم لروح من رائحة التفاح».

وقال صاحب الكلب: وما ترى الناس يعافون تسميد البقول[1] قبل نجومها وتفتق بذورها[2] إلا[3] بعد انتشار ورقها وظهور موضع اللب منها حتى ربما ذروا عليها السماد ذراً، ثم يرسل عليها الماء حتى يشرب اللب قوى العذرة، بل من لهم بالعذرة؟! وعلى أنهم ما يصيبونها إلا مغشوشة مفسدة، وكذلك صنيعهم في الريحان، فأما النخل فلو استطاعوا[4] أن يطلوا بها الأجذاع طلياً[5] لفعلوا. وإنهم ليوقدون بها الحماقات وأتاتين الملال[6]، وتنانير الخبز، ومن أكرم سمادهم الأبعار والأخثاء إذا جفت. وما بين القلط جافاً والخثاء يابساً، وبين العذرة جافة ويابسة فرق. وعلى أنهم يعالجون بالعذرة وبخرء الكلب، من الذبحة والخانوق[7] في أقصى مواقع التقزز[8] وهو أقصى الحلق وموضع اللهاة[9]، ويضعونها على مواضع الشوكة، ويعالجون بها عيون الدواب.

وقال مسبح[10] الكناس: إنما اشتق اسم الخير من الخرء. والخرء في النوم خير. وسلحة مدركة ألذ من كوم العروس ليلة العرس. ولقد دخلت على بعض الملوك لبعض الأسباب، وإذا به عطاس وزكام وثقل رأس، وإذا ذلك قد طاوله، وقد كان بلغني أنه كان هجر الجلوس على المقعد وإتيان الخلاء فأمرته بالعود إلى عادته، فما مرت له أيام حتى ذهب ذلك عنه[11].

وزعم أن الدنيا منتنة الحيطان والتربة، والأنهار والأودية، إلا أن الناس قد غمرهم ذلك النتن المحيط بهم، وقد محق حسهم طول مكثه في خياشيمهم،

---

(١) (هـ): «بقولهم مكان «البقول».
(٢) (ل): «بذورها» بالذال، وهما بمعنى.
(٣) (هـ): «ولا» موضع «الا»، والمعنى يختلف مع كل منهما.
(٤) (ط): «استطالوا» وهو تحريف ما هنا. كما في (ل).
(٥) (ط): «طلباً» وهو تحريف.
(٦) المليل: الخبز واللحم وضعته في الملة. والملة: الرماد الحار. وفي (ل): «القلال».
(٧) الذبحة: وجع في الحلق أو دم يخنق فيقتل. وفي (ط): «الخاثوق» موضع «الخانوق».
(٨) (ط): «التفزر» وهو تصحيف ما هنا و(ل).
(٩) (ط): «ومواضع اللهاث» وهو تحريف.
(١٠) (ط): «مسيح».
(١١) (ط): «حتى ذهبت عنه».

ومن ارتاب في ذلك[1]، فيمتحن[2] في أول ما يخرج إلى الدنيا عن بيت مطيب وليتشمم[3] تشمم المتشبث، على أن البقاع تتفاوت في النتن. هذا قول مسبح[4] الكناس.

وزعم سلمويه[5] وابن ماسويه متطببا الخلفاء أن ليس في الأرض جيفة أبقى نتناً ولا أثقب ثقوباً من جيفة بعير. ويقال إن الحجاج قال: أي الجيف أنتن؟ فقيل: جيف الكلاب. فامتحنت فقيل له: أنتن منها جيف السنانير، وأنتن جيفها الذكور منها. فصلب ابن الزبير بين جيفتي سنورين ذكرين[6].

قال: ولم أشم نتناً قط أنتن من ريح حش مقيّر، يبول فيه الخصيان ولا يصب عليه الماء فإن لأبوالهم المترادفة المتراكمة[7] ولريح القار وريح هواء الحش[8] وما ينفصل إليه من ريح البالوعة جهة من النتن ومذهباً في المكروه، ليس بينه وبين الأبدان عمل، وإنما يقصد إلى عين الروح وصميم القلب[9]، ولا سيما إذا كان الخلاء غير مكشوف وكان مغموماً غير مفتوح. وأما الطيب فإني لم أشم رائحة قط أحيا للنفس ولا أعصم للروح، ولا أفتق ولا أغنج ولا أطيب خمرة من ريح مشطة[10] امرأة إذا أحكمت تلك الأخلاط، وكان عرف بدنها ورأسها وشعرها سليماً، وإن كانت بمدينة الرسول ﷺ، فإنك ستجد ريحاً تعلم أنه ليس فوقها إلا رائحة الجنة[11].

---

(١) العبارة في (هـ): «فمن ارتاب بخبري، فليقف في الرد إلى أن يمتحن ذلك في أول... الخ».

(٢) (هـ): «إلى أن يمتحن».

(٣) (ط): «ليشم».

(٤) (ط): «مسيح»

(٥) سلمويه هو ابن بنان، خدم المعتصم. ترجم له القفطي ١٤٣، وابن النديم ٢٩٦ ليبسك، ٤١٢ مصر. وأما ابن ماسويه فهو أبو زكريا يحيى أو يوحنا. خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل، كما في الفهرست، ٤١١ مصر. وفي (ط): «مطيب الخلفاء» وصحته ما هنا.

(٦) في المعارف ٩٩ أنه صلب حيث أصيب.

(٧) (ط): «لأبوالهم المتراكمة». (هـ): «لأبوالهم المترادفة المتراكبة».

(٨) (ط): «ولريح الغار وريح هوائه» وهو كلام محرف.

(٩) (هـ): «القلب» وأثبته موضع «النفس».

(١٠) كذا في (ل) و(هـ): «من ريح عروس».

(١١) (هـ): «ريح» موضع «رائحة».

والظربان أنتن الخلق فساء. وقد علم ذلك وجعله من سلاحه كما عرفت الحبارى ما في سلاحها من الآلة، إذا قرب الصقر منها، والظربان يدخل على الضب جحره وفيه حسوله أو بيضه، فيأتي أضيق موضع في الجحر فيستره بيديه، ويحول استه، فلا يفسو ثلاث فسوات حتى يدار بالضب فيخر[1] سكران مغشياً [عليه]، فيأكله ثم يقيم في جحره حتى يأتي على آخر حسوله.

وتقول العرب: انه ربما دخل في خلال الهجمة فيفسو، فلا تتم له ثلاث فسوات حتى تتفرق الإبل عن المبرك، تتركه وفيه قردان فلا يردها الراعي، إلا بالجهد الشديد.

ويقال في المثل: «أفسى من الظربان» ويسمى مفرق النعم، يريدون من شدة نتن فسائه[2].

ويقال في المثل: ـ إذا وقع الشر بين الرجلين فتباينا وتقاطعا ـ: «فسا بينهما ظربان». ويقال: «أنتن من ظربان» لأن الضب إنما يخدع[3] في جحره ويوغل في سربه لشدة طلب الظربان له.

قال أبو ذباب السعدي[4] في هوان الكلب:

لكسرى كان أعقل من تميم ... ليالي فر من أرض الضباب
فاسكن أهله ببلاد ريف ... وأشجار وأنهار عذاب[5]
فصار بنو بنيه لها ملوكاً ... وصرنا نحن أمثال الكلاب
فلا رحم الإله صدى تميم ... فقد أزرى بنا في كل باب

---

(١) (ط): «فيخر» وصوابه كما هنا في (ل) و(هـ) وثمار القلوب ٣٣٣.

(٢) (هـ) وردت العبارة هكذا: «يريدون من نتن ريح فسائه».

(٣) خدع الضب في جحره: دخل. وفي (ط): «ينزرع» وهما بمعنى.

(٤) أبو ذباب السعدي صحابي شاعر، من سعد العشيرة. له في إسلامه خبر طريف، وهو ممن عرف بكنيته فقط، ترجم له ابن حجر في الإصابة أول قسم الذال من باب الكنى وهو في (ط) «ابن دب» وفي (ل): «ابن دواب». والأبيات أعادها الجاحظ في الحيوان ١٠١/٦ ونسبها في الحنين إلى الأوطان إلى الفرزدق.

(٥) (هـ): «واسكن» بدل «فأسكن» بالفاء.

وأراد اللعين[١] هجاء جرير - وجرير من بني كليب - فاشتق هجاءه من نسبه فقال:

سأقضي بين كلب بني كليب ... وبين القين قين بني عقال
فإن الكلب مطعمه خبيث ... وإن القين يعمل في سفال
كلا العبدين - قد علمت معد ... لئيم الأصل من عم وخال
فما بقيا عليّ تركتماني ... ولكن خفتما صرد النبال

وقال رجل من همذان، اسمه الضحاك بن سعد[٢]، يهجو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم لما فر يوم الجمل:

لج الفرار بمروان فقلت له ... عاد الظلوم ظليماً همه الهرب[٣]
أين الفرار وترك الملك إن قبلت ... منك الهوينى فلا دين ولا أدب[٤]
فراشة الحلم فرعون العذاب وإن ... يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقال آخر وجعل الكلب مثلاً في اللؤم:

سرت ما سرت من ليلها ثم عرست ... على رجل بالعرج ألأم من كلب

ويقال للكلب «فلحس»، وهو من صفات الحرص والإلحاح. ويقال: «فلان أسأل من فلحس». وفلحس: رجل من بني شيبان[٥] كان حريصاً رغيباً ملحاً ملحفاً[٦] [كان طفيلياً][٧]. وكل طفيلي عندهم فلحس.

والأرشم[٨]: الكلب والذئب، وقد اشتق منه للإنسان إذا كان يتشمم

---

(١) هو منازل بن زمعة المنقري، من بني منقر. وكان ممن قضى بين جرير والفرزدق فأصابه الشر. قال ابن قتيبة: وكان اللعين هجاء للأضياف.
(٢) نسبه العسكري في ديوان المعاني ١٩٦/١ إلى سعيد بن العاصي.
(٣) (ط): «عاد الظليم ظليماً». والظليم: الذكر من النعام.
(٤) ديوان المعاني: «إذا كشفت عنك» الطبري ١٣١/٩: «إذ ذهبت عنك».
(٥) (ط): «من ابني شيبان». وانظر أمثال الميداني ٣١٧/١.
(٦) (هـ): «ملحفاً ملحاً».
(٧) سقطت هذه الجملة من (هـ).
(٨) (ل): «الأرسم» وهو تصحيف. والأرشم: الذي يتشمم الطعام ويحرص عليه.

الطعام ويتبع مواضعه. قال جرير في بعضهم:

لقى حملته أمه وهي ضيفة ... فجاءت بيتن للضيافة أرشما[1]

وقال سهم بن حنظلة الغنوي:

وأما كلاب فمثل الكلا ... ب لا يحسن الكلب إلا هريرا

وأما نمير فمثل البغا ... ل أشبه أباءهن الحميرا[2]

وأما هلال فعطارة ... تبيع ملاباً وعطراً كثيرا[3]

[والملاب ضرب من الطيب][4].

وقال الشاعر: وضرب المثل بالكلب في قبح الوجه:

سفرت فقلت لها هج فتبرقعت ... فذكرت حين تبرقعت ضبارا[5]

وضبار كلب لهم[6].

قال كعب الأحبار لرجل أراد سفراً: أن لكل رفقة كلباً، فلا تكن كلب أصحابك.

وتقول العرب: «أحب أهلي إلى كلبهم الظاعن»[7]. ومن الأمثال: «وقع

---

(١) (ل): «أرسما» مصحف. وفي (ط): «متى»، محرفة. والبيت على الصواب في اللسان (ضيف ـ رشم ـ يتن) وأدب الكاتب لابن قتيبة ١٢٧ والاقتضاب ٣٤٦. وقد نسب في كل تلك إلى البعيث. ابن منظور (رشم): قال ابن سيده: وأنشد أبو عبيد هذا البيت لجرير. قال: وهو غلط.

(٢) يبتدىء هذا البيت والذي قبله في (ل). بكلمة «فأما» مع الفصل بين البيتين بكلمة «وقال» وفي (ط): «وأما تميم فمثل البغال».

(٣) كذا في (ل): «الملاب» وهو كسحاب عطر أو الزعفران. (هـ): «كباء» ككتاب: عود البخور أو ضرب منه، والشعر في كتاب البغال ٣٤٣.

(٤) سقط هذا الجزء من (هـ).

(٥) في الصحاح: «هج مخفف زجر للكلب، يسكن وينون» وأنشد البيت في (هجج وهبر) برواية «هبارا» وكذلك في اللسان (هبر) ولكن في (هجج وضبر): «ضبارا» كما في ٢/٢٢ من الحيوان.

(٦) كذا في (ل)، و(هـ) «اسم كلب له».

(٧) في عيون الأخبار ٢/٨١: «الكلب أحب أهله إليه الظاعن». وانظر أمثال الميداني ١/١٨٣ والتمثيل والمحاضرة ٣٥٥.

الكلب على الذئب ليأخذ منه مثلما أخذ». ومن أمثالهم: «الكلاب على البقر»[1]. [ويجوز النسب على إضمار فعل، أي: أرسل الكلاب على البقر][2].
ومن أمثالهم في الشؤم: «على أهلها دلت براقش. وبراقش: كلبة قوم نبحت على جيش مروا ولا يشعرون بالحي، فاستدلوا على موضعهم بنباحها فاستباحوهم.

قال الشاعر:

ألم تر أن سيد آل ثور نباتة عضه كلب فماتا[3]

وقال صاحب الكلب: قد يموت الناس بكل شيء، وقد قال عبد الملك بن مروان: ألا تتعجبون من الضحاك بن قيس[4] يطلب الخلافة ونطح أباه كبش[5] فوجد ليس به حبض ولا به نبض[6] وقال عرفجة بن شريك يهجو أسلم بن زرعة ـ ووطئت أباه عنز بالمربد فمات:

ولم أستطع إذ بان[7] مني معشري ... مكان قتيل العنز أن أتكلما
فيا ابن قتيل العنز هل أنت ثائر ... بزرعة تيساً في الزريبة أزنما[8]

---

(١) في الأصل: «الكلاب كل البقر» والمثل معروف. ولصاحب القاموس، وكذلك للدميري في حياة الحيوان كلام فيه. وانظر المزهر ١/٦٥.
(٢) هذا الجزء سقط من (هـ). ويبدو أنه تعليق لابن منظور «المختصر».
(٣) (ط):
ألم تر أن سيد ال عور بنابه عضه كلب فماتا
(٤) هو الضحاك بن قيس بن خالد، الأمير أبو أمية، وقيل: أبو أنيس، وقيل: أبو عبد الرحمن وقيل: أبو سعيد، الفهري القرشي، له أحاديث من الصحابة خرج له النسائي، وقد روى عن حبيب بن مسلمة أيضاً، حدث عنه معاوية بن أبي سفيان ووصفه بالعدالة، وسعيد بن جبير وغيرهم. شهد فتح دمشق وسكنها، أظهر بيعة ابن الزبير بدمشق ودعا له فسار عامة بني أمية وحشمهم، فلحقوا بالأردن، وسار مروان وبنو بحدل إلى الضحاك. (سير أعلام النبلاء ٣/١٦١ ـ ١٦٤، طبقات ابن سعد جـ٧، جـ٢/١٣٠، الاستيعاب ١/٣٢٤، الإصابات ٣/٢٦٨) مات سنة ٦٤ هـ.
(٥) أثبت ما في (هـ) موافقاً لبقية النسخ موضع «تيس».
(٦) في القاموس: «ما به حيص ولا نبص: حراك».
(٧) (ط): «بات» وهو تحريف ما هنا.
(٨) الأزنم: ذو الزنمة، وهي هنة معلقة في حلقة تحت اللحية. وفي (ط): «أزرما».

[الأزنم: الـذي تحت عنقه زنمة][1].

قيل لأبي عبيدة: أليس بقع الكلاب أمثلها؟ قال: لا. قيل ولم؟ وقد قال الشاعر:

وخـفـت هـجـاءهـم لـمـا تـواصـوا كخـوف الـذئب من بقـع الكـلاب[2]

قال: ليس هكذا قال، إنما قال:

كخوف الذئب من سود الكـــلاب

ألا ترى أنه حين أراد الهجاء قال:

كـأنـك بـالمبـارك بعـد شهـر تخـوض غمـوره بقـع الكـلاب[3]

ويدل على ذلك قول الجدلي[4]:

يقـولـون لي صبـراً فـقلت لـطالما صـبرت ولكن لا أرى الصـبر ينفـع
أأجعـل نفسي عـدل عـلج كـأنما يمـوت بـه كـلب إذا مـات أبـقـع

قال: فقد بين كما ترى أن الأبقع شرها[5]

قال: فلم قال الشاعر:

أرسلت أسـداً على بقـع الكلاب فقـد أمسى شريـدهم في الأرض فـلالا[6]

قال: فكيف يقول ذلك وهو يمدحهم؟ وإذا صغر شأن من هزموا [وفلوا] فقد صغر شأن الممدوح. بل إنما قال «أرسلت أسداً على سود الكلاب». وقال:

(١) سقط من (هـ) وهو زيادة لابن منظور. كتبه في هامش اللوحة ٢/٦١ س ٤.
(٢) (ل): «وخفت هجينهم».
(٣) المبارك: اسم نهر بالبصرة احتفره خالد بن عبدالله القسري لهشام بن عبد الملك. وفي (ط): «بالمنازل» وهو تحريف. والغمور: جمع غمر، وهو الماء الكثير. وفي (ط): «غمورة» وفي (ل): «عمورة» وصوابهما ما ثبت هنا. وانظر معجم البلدان رسم (المبارك). والبيت فيه للفرزدق، وقد أعاده الجاحظ في ٢/٧٨.
(٤) نسبه ياقوت إلى الغطمش الضبي في رسم (الجوسق).
(٥) أثبت ما في (هـ) وبقية النسخ موضع «شر».
(٦) في اللسان: وهم قوم فل: منهزمون، والجمع فلول وفلال. أنظر اللسان.

إنما جاء الحديث في قتل الكلاب، لأن عقورها[١] أكثر ما تكون سوداً، وذلك من غلبة أنفسها لها[٢].

وليس في الأرض حيوان من ثور وبقرة وحمار وفرس وكلب وإنسان، إلا والسود أشدها شراً وعصياً[٣]، وأظهرها قوة وصبراً.

قال أبو سعد المخزومي[٤] في هجائه دعبلاً[٥]:

يـا ثـابـت بـن أبي سـعـيـد إنها ... دول وأحـر بها بـأن تـنـتـقـلا
هـلا جعلت لنـا كحـرمـة دعبـل ... في است أم كلب لا يسـاوي دعبـلا

وقال الحسن بن هانئ[٦] يهجو جعفر بن يحيى الرملي:

قفـا خلف وجـه قـد أطيـل كـأنـه ... قفـا مالـك يقضي الهمـوم عـلى بثق[٧]
وأعـظم زهوًا من ذبـاب عـلى خـر[٨] ... وأبخـل من كلب عقـور عـلى عـرق

وقال وضاح اليمن[٩]:

---

(١) (هـ): «عقرها» بدل «عقورها».
(٢) سقطت «لها» من (هـ).
(٣) كذا في الأصل: «شراً وعصياً»، (هـ): «أسرا وعصياً».
(٤) أبو سعد المخزومي ممن عرف بكنيته، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة العباسية. وقد عاصر دعبلاً وله معه مهاجاة وأقذاع. وقد نعته الجاحظ في البيان ١٤٧/٣ بأنه دعي بني مخزوم. وفي (ط): «أبو سعيد» والصواب ما في (ل). ويؤيد ذلك قول ابن أبي الشيص فيه (الأغاني ٥٤/١٨):

أنـا بشرت أبـا سـعـد فـأعـطاني الـبـشـارة

(٥) هو دعبل بن علي بن رزين، من خزاعة، ويكنى أبا علي ترجمته في (الشعر والشعراء ٨٤٦/٢، الأغاني ٢٩/١٨، ابن خلكان ١٧٨/١ ـ ١٨٠، معاهد التنصيص ٣٠٢/١ تاريخ بغداد ٣٨٢/٨).
(٦) هو المكنى بأبي نواس، سبقت ترجمته وانظر الشعر والشعراء ٧٩٦/٢.
(٧) (ط): «تثق». وانظر الشعراء ٧٩٠.
(٨) كذا في (ل)، (هـ): «خرا».
(٩) هو شاعر إسلامي اسمه عبد الرحمن ووضاح لقب غلب عليه، ويقال له أيضاً وضاح اليمن لأنه كان من أجمل العرب، وكان أبوه إسماعيل من آل حمير مات وهو طفل فانتقلت أمه إلى أهلها فتزوجت رجلاً من أولاد الفرس فشب وضاح في حجر زوج أمه فجاء أهله يطلبونه فادعى زوج أمه أنه ولده فتحاكموا فيه وأقاموا البينة أنه ولد على فراش اسماعيل أبيه، فحكم به الحاكم لبني =

وأكتم السر غضبـانـاً وفي سكـري حتى يكـون لـذاك النجـد مـطلع[1]
وأتـرك الـقـول عن عـلم ومـقـدرة حتى يكـون لـه وجـه ومـستـمـع

[وقـال: كيف يصف نعلاً من نعـال الكرام. وهـو مذهب من المـدح غريب][2].

عندما قال:

إذا طـرحت لم يـطب الكلب ريحهـا وإن وضعت في مجلس القـوم شمت

= حمير أهله ومسح يده على رأسه وقد أعجبه جماله وقال له: اذهب فأنت وضاح اليمن.
قالوا: وكان وضاح يرد المواسم هو والمقنع الكندي وأبو زبيد الطائي مقنعين يسترون وجوههم خوفاً من العين وحذراً على أنفسهم من النساء. (أنظر الحماسة ١/٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(١) (ط): «حتى يكون بذاك. (هـ) أثبت الشطر الثاني من البيت الأول تكملة للبيت الثاني وشطر البيت الثاني تكملة للبيت الأول.

(٢) سقط هذا الجزء من (هـ). والبيت لكثير بن عبد الرحمن، ذكره البغدادي في الخزانة ٤/١٤٧ بولاق، وكذلك البيان ٣/١٠٩، وفي اللسان (نعل): «له نعل». وفي (هـ) ١/٢٦٦.

«باب من هُجي بأكل لحوم الكلاب ولحوم الناس»

قال سالم بن دارة[1]:

يـا فـقـعسي لم أكـلتـه لـمـه ... لـو خـافـك الله عـلـيـه حـرمـه
فما أكلت لحمه ولا دمـه

وقال الفرزدق[2]:

إذا أسـدي جـاع يـومـاً بـبـلدة ... وكـان سـميـنـاً كـلبـه فـهـو آكـله

وقال مساور بن هند[3]:

إذا أسـديـة ولـدت غـلامـاً ... فـبشرهـا بـلـؤم في الـغـلام
يخـرسـهـا نـسـاء بـني دبـير ... بـأخبث ما يجـدن من الـطعـام[4]

---

(١) هو سالم بن مسافع. ودارة أمه، وهو شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام وكان رجلاً هجاء وله ترجمة مسهبة في الخزانة ٢/١٢٥ ـ ١٣٠. والشعر في البخلاء ١٩٧ وانظر الحيوان ٢/٥٨، ١٤/٤.

(٢) سبقت ترجمته ص ١٦٢.

(٣) هو مساور بن هند بن قيس بن زهير العباسي، شاعر معمر، قيل: ولد في حرب داحس والغبراء قبل الإسلام بنحو خمسين عاماً، وعاش إلى أيام الحجاج، وكان أعور، قال المرزباني: هو من المتقدمين في الإسلام، هو وأبوه وجده أشراف من بني عبس، شعراء وفرسان، توفي نحو سنة ٧٥ هـ. ترجمته في (الاعلام ٨/١٠٥، معاهد التنصيص ١/٢٨٣، الشعر والشعراء ١٢٥، الأغاني ٩/١٥١).

(٤) (ط(: «ما يكون من الطعام» وما هنا وافق ما في (ل) والبخلاء ١٩٧ في الهامش لوحة ٢/٦٢ قال ابن منظور: «خرست النفساء: إذا اتخذت لها طعاماً».

تـرى أظـفـار أعـقـد مـلقـيـات   بـراثـنـهـا عـلى وضـم الـثـمام[١]

فهذا الشعر وما أشبهه يدل على أن اللعين إنما قراهم كلباً ولم يقـرهم تيساً، وقد هجيت أسد وهزيل وبلعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس، فقال حسان ابن ثابت[٢] يذكر هزيلاً:

إن سرك الغـدر صرفاً لا مـزاج لـه   فـأت الـرجيـع وسـل عن دار لحيـان
قـوم تـواصـوا بـأكـل الجـار بينهم   فـالكلب والشـاة والإنسـان سيـان

وهجا شاعر بلعنبر، وهو يريد ثوب بن شحمة[٣]، وكان شريفاً وكان يقال له مجير الطير، فـأما مجير الجراد فهـو مدلـج بن سويـد بن مرشـد بن خيبري[٤]، فعير الشاعر ثوب بن شحمة بأكل الرجل العنبري[٥] لحم المرأة إلى أن نزل ثوب[٦] من الجبل فقال:

عـجـلتـم مـا صـادكـم عـلاج   مـن الـعـنـوق ومـن الـنـعـاج
حتـى أكلتم طفلـة كالعـاج

فلما عيره قال ثوب[٧]:

---

(١) وضم الثمام: مثل للقلة والهوان. وفي (ط): «الشمام» وصوابه كما هنا و(ل) والبخلاء ١٩٧.

(٢) هو حسان بن ثابت بن المنذر بن خزام، صاحب رسول الله ﷺ من بني تيم الله بن ثعلبة بن عمرو الخزرجي وينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان، وأمه الغريعة بنت خالد بن قيس بن لوذان، وهو فحل من فحول الشعراء. عاش عشرين ومائة سنة، ستين في الجاهلية وستين في الإسلام، وكان شاعر الأنصار في الجاهلية، وشاعر النبي ﷺ في النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام أنظر (الأغاني مجلد ٢ ص ٥٠٤، ديوان الحماسة ١/٥٠).

(٣) كذا في القاموس والبخلاء ١٩٨. وفي (ط): «ثور بن شحمة» وفي (ل): «ثوب بن سحمة» وكلاهما محرف. وكان ثوب سيداً شريفاً قد أجار الطير فكان لا يثار ولا يصاد بأرضه، فسمي مجير الطير. ثمار القلوب ٣٥٥.

(٤) (ط): «جبير» وانظر خبر مجير الجراد في أمثال الميداني (١:٢٠٢) وبلوغ الأرب (١/١٤٤).

(٥) (ل): «القيني»، وفي البخلاء «بأكل الفتى».

(٦) (هـ): «إلى أن أتى ثوب». (ط): «ثوراً» وصوابه هنا كما في (ل).

(٧) (ط): «ثور». ابن منظور في الهامش: «ذكر ابن سناء الملك في روح الحيوان: قف على هذا الشعر فإنه من أعاجيب الدنيا».

يـا بنت عمي مـا أدراك مـا حسبي إذ لا تجن خبيث الـزاد أضـلاعي[1]
إني لـذو مـرة تخشى بـوادره عنـد الصيـاح بنصـل السيف قـراع

[قال الجاحظ][2]: قف على هذا الشعر فإنه من أعاجيب الدنيا.

ومن ظريف الشعر قول أبي عدنان[3]:

فـما كلبـة سـوداء تفـري بنـابهـا عـراقـاً من المـوق مـراراً وتكـدم[4]
أتيـح لهـا كلب فـضنـت بعـرقـهـا فهـارشها وهي عـلى العـرق تعـذم[5]

(تعذم: تعض][6].

وتنازع مالك بن مسمع[7] وشقيق بن ثور، فقال له مالك: إنما رفعك قبر بتستر[8]

فقال شقيق: حين وضعك قبر بالمشقر يا ابن قتيل النساء وقتيل الكلاب!!

وكان يقال لمالك بن مسمع بن شيبان[9] قتيل الكلب[10]، وذلك أنه لجأ

---

(١) (ط): «ما يدريك» وهما سيان، (ط): «لا تجر» (ل): «لا يجز» وصوابه ما هنا كما في البخلاء. في الهامش لوحة ١/٦٣، قال ومن أعاجيب الدنيا قول الجاحظ أن هذا الشعر من أعاجيب الدنيا.

(٢) زيادة ابتدأ بها ابن منظور الكلام.

(٣) قال الجاحظ في شأنه: «وما كان عندنا في البصرة رجلان أدرى بصنوف العلم، ولا أحسن بياناً من أبي الوزير، وأبي عدنان المعلمين وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا» البيان ١/٢٥٢ وقد عده ابن النديم ممن صنف في غريب الحديث. الفهرست ١٢٩ مصر.

(٤) (ط): «تغرى بنابها» وهو تحريف. وفيها «مراداً وتكدم» وصوابها في (ل) كما في المخطوطة لوحة ١/٦٣ س ٥.

(٥) تعذم: تعض أو تأكل بجفاء.

(٦) تفسير لابن منظور في هامش اللوحة ١/٦٣.

(٧) هو مالك بن مسمع بن شيبان البكري الربعي، أبو غسان: سيد ربيعة في زمانه. كان مقدماً رئيساً، ولد في عهد النبي ﷺ قال المبرد: وإليه تنسب المسامعة، وقال ابن قتيبة: لم يل شيئاً قط، وهلك في أول خلافة عبد الملك بن مروان بالبصرة، وعقبه كثير (الأعلام ١٤٢/٦ معجم ما استعجم ٣٨٧، الكامل لابن الأثير ١٠٤/٤)، توفي سنة ٧٣ هـ.

(٨) (ط): «بنشير».

(٩) في ثمار القلوب: «مسمع بن سنان» ٣١٨.

(١٠) (هـ): «قتيل الكلاب».

في الردة إلى قوم من عبد القيس، فكان كلبهم ينبح عليه فكان يخاف أن يدل على مكانه فقتله فقتل به.

وتقول العرب: «أسرع من لحسة كلب أنفه». ويقال: «أحرص من لعوة» وهي الكلبة، وجمعها لعاء[1]. وفي المثل: «ألأم من كلب على عرق». ويقولون: «نعم كلب في بؤس أهله» وفي المثل «اصنع المعروف ولو مع الكلب».

وقال ابن سيرين، الكلب في النوم رجل فاحش، فإن كان أسود فهو عربي، وإن كان أبقع فهو عجمي.

قال ابن أخت أبي بلال مرداس بن أدية[2]: رأيت أبا بلال في النوم كلباً تذرف عيناه، وقال: انا حولنا بعدكم [كلاباً] من كلاب أهل النار:

[أدية تصغير يد][3].

ولما خرج شمر بن ذي الجوشن[4] الضبابي لقتال الحسين بن[5] علي كرم

---

(١) في (ط): «لقوة» و«لقاء» وصوابهما في (ل).

(٢) (ط): «أبي بلال بن مرداس بن أدية». وأبو بلال كنية مرداس نفسه كما في الأغاني وجمهرة ابن حزم ٢١١.

(٣) شرح لابن منظور. هامش اللوحة ٦٣/١ ص ١٣.

(٤) هو شمر بن ذي الجوشن (واسمه شرجيل) ابن قرط الضبابي الكلابي، أبو السابغة: من كبار قتلة الحسين (رضي الله عنه) كان من ذوي الرياسة في هوازن، وشهد (صفين) مع علي، كان يروي الحديث، ثم كانت فاجعة اشتراكه في مقتل الحسين وحمل رأسه إلى يزيد بن معاوية. قتله جماعة من رجال المختار يتقدمهم أبو عمرة عبد الرحمن بن أبي الكنود وقتل سنة ٦٦ هـ. (الأعلام ٢٥٤/٣، الكامل لابن الأثير ٩٢/٤، لسان الميزان ١٥٢/٣).

(٥) هو سبط رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا ومحبوبه، أبو عبدالله الحسين بن أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب. حدث عن جده وأبويه وصهره عمر، وطائفة. حدث عنه ولداه علي وفاطمة، وعبيد بن حنين، وعكرمة والشعبي وغيرهم، ومولده في شعبان سنة ٤ هـ. روي أن الحسين أشبه برسول الله ﷺ من صدره إلى قدميه، قتل بكربلاء بعد خروجه مع خمسين من صحبه، بقي وحيداً يجابهه القوم وهم يكرهون الإقدام عليه إلى أن خرج فيهم شمر وقال: ثكلتكم أمهاتكم، ماذا تنظرون به؟ وطعنه سنان بن أنس النخلي في ترقوته، ثم طعنه في صدره فخر، وأخذ رأسه خولي الأصبحي، (سير أعلام النبلاء ١٨٨/٣ ـ ٢١٧، الطبقات ٣١/٧، الاستيعاب ١٤٢/١، الإصابة ١٤/٢. الفهرس ١٣٩/١).

الله وجهها، فرأى الحسين فيما يرى النائم أن كلباً أبقع يلغ في دمائهم، فأول ذلك أن يقتلهم[1] شمر بن ذي الجوشن. وكان منسلخاً برصاً[2].

[قالوا: وإذا كان الرجل كذلك، سمي أقشر، يعني البرص][3].

قال: والمسلمون كلهم يسمون الخوارج كلاب أهل النار[4].

وصاحب الكلب يصفه بالسرعة والحضر، وبالصبر على طول العدو، وبسعة الإهاب وبأنه إذا عدا ضبع وبسط يديه ورجليه حتى يمس قفصه الأرض[5]، وحتى يشرط أذنيه بشبا[6] أظفاره، وأنه لا يحتشي ريحاً[7] مع ما يصيب الكلاب من اللهث، فإن كان كما تقولون فلم وصفت الشعراء الفرس وشبهته بضروب من الخلق، [وكذلك الأصمعي قال][8] في الأعضاء منه وغير ذلك من أمره،وتركوا الكلب في المنسأ[9] لا يلتفت أحد لفته[10]؟! وكان اسم فرس عامر بن الطفيل[11]، الكلب، والمزنوق، والورد.

---

(١) (ط): «فأول ذلك بقتلهم شمر».

(٢) (ل): «متسلخاً برصاً».

(٣) سقط هذا الجزء من (هـ).

(٤) كذا في (ل)، (هـ)، (ط) وثمار القلوب ٣١٥: «كلاب النار» ومحل الصواب ما فيها.

(٥) (هـ): «قصصه» بدل قفصه». والحضر: العدو.

(٦) شبا: جمع شباة: وهي الحد. وفي (ط): «بسباه» محرفاً.

(٧) (ل): «لا يحتسي ريحاً مع ما» و(ط): «لا يحتشي ريحاً مما» والصواب ما في المخطوطة ووافق ما في (هـ).

(٨) هذا الجزء محذوف من (هـ). وحذف قوله: «الأصمعي» قال: «يغير المعنى».

(٩) المنسأ: المزجر. وفي (ل): «المنسى» وفي (ط): «المنسا».

(١٠) لفته: جهته. وفي (ط): «لا يلتفت إليه أحد».

(١١) هو عامر بن الطفيل بن مالك ينتهي نسبه إلى عامر بن قيس عيلان، شاعر مخضرم كان سيد بني عامر غير مدافع، وهو ابن عم لبيد الشاعر، وفد على رسول الله ﷺ ومعه أربد أخو لبيد يضمران الشر والسوء. فألفى النبي ﷺ إليه وطاء وعرض إليه الإسلام فقال: على ان لي الوبر ولك المدر، وتجعل لي نصف ثمار المدينة ويكون لي الأمر من بعدك، فأبى رسول الله ﷺ. (راجع القصة في الحماسة ١/٣٩ لأبي تمام شرح التبريزي) ومات بغدة كغدة البعير حبسته في بيت امرأة من سلول فجعل يثب إلى السماء ويقول: يا موت ابرز لي! أغدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية ومات مكانه (الحماسة ١/٣٩، ٢٥٥).

قال صاحب الديك: قال أوس بن حجر[1]، ووصف الناقة ونشاطها والذي يهيجها فقال:

كـأن هـراً جنيبـاً تحت مغـرضهـا　　والتف ديـك بـرجليهـا وخنـزيـر[2]

فهلا قال: والتف كلب برجليها [ثم قال: كأن هراً جنيباً تحت مغرضها ولم يقل: كأن كلباً جنيباً][3].

وقال المثقب العبدي:

فسـل الهم عنـك بـذات لـوث　　عـذافرة كـمـطرقـة الـقـيـون
وصـادقـة الـوجـيـف كـان هـراً　　يبـاريهـا ويـأخـذ بـالـوضـين[4]

قال صاحب الكلب: إنما يذكرون في هذا الباب السباع المنعوتة بالمخالب وطول الأظفار، كما ذكروا الهر وابن آوى. والكلب ليس يوصف بالمخالب، ليس أن الهر أقوى من الكلب.

ألا ترى قول أوس بن حجر:

كأن هراً جنيباً عنـد مغرضهـا

فذكر الموضع الذي يوصف بالخلب والخدش والخمش والتظفير، فلما أراد ما يثورها ويفزعها حتى تذهب جافلة في وجهها[5] أو نادة، أو كأنها مجنونة

(١) هو أوس بن حجر بن مالك التميمي، أبو شريح شاعر تميم في الجاهلية، أو من كبار شعرائها. في نسبه اختلاف بعد أبيه حجر. وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى، كان كثير الأسفار، عمر طويلاً ولم يدرك الإسلام، كان رقيق الشعر، فيه حكمة، له ديوان مطبوع (الأعلام ١/٣٧٤، معاهد التنصيص ١/١٣٢، الأغاني طبعة الدار ١١/٧٠، خزانة البغدادي ٢/٢٣٥، سمط اللآلئ ٢٩٠).

(٢) لابن طباطبا نقد في هذا البيت ذكره المرزباني في الموشح ٨٦، ولابن رشيق كلام فيه في العمدة ٢/٢٢٥، وانظر معاهد التنصيص ١/٤٧. (هـ): «عند» بدل «تحت» وابن منظور يعيد ذكر البيت مرة ثانية كما هو في (هـ).

(٣) هذا الجزء سقط من (هـ).

(٤) كذا في (ط): «وصادقة الوجيف» (هـ): «وبصادقة».

(٥) أثبت ما في (هـ) موضع «وجهه» الذي كان بالمخطوطة كما في (ل). وهو تحريف.

من حاق المرح والنشاط[1] قال:

والتف ديـك برجليها وخنزيـر

وقال صاحب الديك: روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يحل لرجل يعطي عطية ويرجع فيها، إلا الوالد فيما يعطي ولده، ومثل الذي يعطي العطية ثم يرجع فيها كمثل الكلب يأكل حتى إذا شبع قاء ثم عاد فيه»[2].

وعن عبدالله بن جعفر أن أبا بكر رضي الله عنه أمر بقتل الكلاب. قال عبدالله بن جعفر: وكانت أمي تحت أبي بكر، وكان جرو لي تحت سريره[3]، فقلت يا أبت، وكلبي أيضاً؟ قال[4]: لا تقتلوا كلب ابني، ثم أشار بإصبعه إلى الكلب ـ أن[5] خذوه من تحت السرير ـ [فأخذوه][6] وأنا لا أدري، فقتل.

وإسماعيل بن أمية قال: أمتان من الجن مسختا، وهما الكلاب والحيات.

قال ابن المبارك[7]: إذا عرف الرجل قدر نفسه يصير[8] عند نفسه أذل من كلب.

قال صاحب الديك ـ وذكر الكلب فقال ـ: من لؤم الكلب [إذا] أسمنته أكلك، ومن لؤمه اتباعه لمن أهانه، وإلفه لمن أجاعه، لأنه أجهل من أن يأنس

---

(١) حاق المرح: صادقه، وفي (ط): «حال المرح».
(٢) (ل): «قاء ثم عاد في قيه». (هـ): «قاء ثم عاد في قيئه».
(٣) (ط): «تحت السرير».
(٤) (هـ): «فقال».
(٥) (هـ): «أي» بدل «أن».
(٦) سقطت هذه الكلمة من (هـ).
(٧) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن المبارك بن واضح، المروزي، مولى بني حنظلة. كان قد جمع بين العلم والزهد، وتفقه على سفيان الثوري، ومالك بن أنس رضي الله عنهما، وروى عن الموطأ، وكان كثير الانقطاع، محباً للخلوة، شديد التورع، وكان له شعر وكان قد غزا، فلما انصرف من الغزو وصل إلى (هيت) فتوفي فيها في رمضان سنة ١٨١ هـ أو ١٨٢ هـ. ومولده بمرو سنة ١١٨ هـ (راجع وفيات الأعيان ٢/٢٣٧ ـ ٢٣٩ دار السعادة).
(٨) (هـ): «صار».

بما يؤنس به[1] وأشره وأنهم وأحرص وألج من أن يذهب بمطمعه[2] ما يذهب بمطامع[3] السباع.

ومن جهله أنا لم نجده يحرس المحسنين إليه بنباحه، وأربابه الذين ربوه إلا كحراسته لمن عرفه ساعة، بل لمن أذله وأجاعه وأعطشه. بل ذلك ليس منه حراسة، وإنما هو من فضل البذاء ومن السخف ومن شدة التسرع.

والكلب جبان وفيه جرأة، ولفرط[4] الجبن يفزع من كل شيء وينبح. [ولو كان شجاعاً فيه بعض التهيب لكان أمثل. وإنما ذلك كالذي يعتري نساء السفلة من الصخب والكلب][5].

والبرذون ربما رمح البرذون مبتدئاً، وقلق وصهل صهيلاً في اختلاط، وليس ذلك من فضل قوة يجدها في نفسه على المرموح، ولكنه يكون جباناً فإذا رأى البرذون الذي يظن أنه يعجز عنه أراه الجبن أنه واقع به، فيقلق فإذا قلق رمح، وهذه العلة تعرض للمجنون، فإن المجنون الذي تستولي عليه السوداء، ربما أنه يثب على من لا يعرف. وليس ذلك إلا لأن المرة أوهمته أنه يريده، بسوء، وان الرأي أن يبدأه[6] بالضرب. وعلى مثال ذلك يرمي بنفسه في الماء والنار.

وأما الذي شهدت أنا من أبي اسحق بن شمر بن سيار النظام، فإنا خرجنا ليلة في بعض طرقات الأبلة وتقدمته شيئاً، فألح عليه كلب من شكل كلاب الرعاء وكره أن يعدو فيغريه، وأنف أيضاً من ذلك، وكره أن يجلس مخافة أن يشغر عليه[7] [أي يرفع رجله ويبول عليه][8] ولعله أن يعضه [أو

---

(١) (ل): «منه».

(٢) و(٣) كذا في (ط). (هـ): «مطمعته» ويعني طمعه. وابن منظور يصلح الكلمة في الهامش «بمطاعم».

(٤) (هـ): «ومن فرط».

(٥) سقط هذا الجزء من (هـ). من هذا الموضع.

(٦) (ط): «أنه يبدأ».

(٧) في (ط): «يشر عليه ببوله» وهو تحريف.

(٨) في المخطوطة لابن منظور اللوحة ١/٦٥ س ١.

يفترسه][1] فيهرت ثوبه وألح عليه ولم يرد سواه[2] فلما تخلصنا منه قال ابراهيم في كلام له يعدد خصاله المذمومة: إن كنت سبع فاذهب مع السباع وعليك بالبراري والغياض، وإن كنت بهيمة فاسكت عنا سكوت البهائم!

ولا تنكر حكايتي عنه بكلام ملحون. من قولي: «إن كنت سبع» ولم أقل «إن كنت سبعاً»! فكلام الأعراب يفسد كلام المولدين كما أن اللحن يفسد نوادر كلام الأعراب[3] لأن سامع ذلك الكلام إنما أضحكته[4] تلك الصورة وذلك المخرج، وتلك اللغة فإذا دخلت على هذا الذي إنما أضحك سخفه حروف الاعراب والتحقيق والتثقيل[5] وحولته إلى صورة ألفاظ العرب الفصحاء، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته.

ثم قال أبو اسحق: إن أطعمه اللص بالنهار كسرة خبز خلاه، ودار حواليه[6] ليلاً، فهو في هذا الوجه مرتش وآكل سحت، وهو أسمج الخلق صوتاً، وأحمق الخلق يقظة ونوماً، ينام النهار كله على نفس الجادة، وقد سهر الليل كله، وعلى وقع الحافر[7]، وفي كل سوق وملتقى طريق، وقد ذهب ليله بالصياح والصخب، والنصب والغيظ والغضب، والمجيء والذهاب فيركبه من حب النوم على حسب حاجته إليه فإن وطئته دابة فأسوأ الخلق جزعاً، وأكثره نباحاً وعواء فإن سلم ولم تطأه دابة ولا إنسان، فليست تتم له السلامة لأنه في [كل][8] حال يتوقع البلية فإن لم يسلم فليس على ظهرها أسوأ منه حالاً[9]، لأنه أقلهم صبراً وأسوأهم جزعاً، ولأنه الجاني على نفسه، وقد كانت الطرق

---

(1) سقطت هذه الكلمة من (هـ).

(2) كذا في (ل). (هـ): «وألح عليه فلم ينله بسوء».

(3) كذا في (ل). (هـ): «يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب». وانظر البيان ١٤٥:١.

(٤) كذا في (ل) وفي (هـ): «أعجبته» بدل «أضحكته».

(5) (ط): «والتخفيف والتفضيل» والوجه ما في (ل).

(6) (هـ): «حوله» بدل «حواليه».

(7) كانت الجملة بالمخطوطة «ولا يبقى وقع الحافر» وأصلحتها بما ترى. (هـ): «وعلى مدق الحوافر».

(8) سقط هذا اللفظ من (هـ).

(9) (هـ): «أسوأ حالاً منه».

الخالية له معرضة، وأصول الحيطان مباحة.

وكل خلق فارق أخلاق الناس فمذموم. والناس ينامون بالليل الذي جعله الله عز وجل سكناً، وينتشرون بالنهار الذي جعله الله عز وجل للنفوس[1] مسرحاً.

قال صاحب الكلب: لو شئنا أن نقول: إن سهره بالليل ونومه بالنهار خصلة ملوكية لقلنا، ولو كان خلاف ذلك ألذ لكانت الملوك به أولى[2]. وأما ما عبتموه بنومه على مربعات السكك العامرة[3] وفي الأسواق الجامعة على أن هذا الخلق إنما يعتري كلاب الحرس [4] وهي التي في الأسواق مأواها. وبعد فما أخطأ من يكلف، السبع أخلاق الناس وعادات البهائم! [وكل امرئ أعرف بشأنه، ولولا أن الكلب يعلم ما يلقى من الأحداث والسفهاء وصبيان الكتاب من رض عظامه بالرجم، إذا وجدوه نائماً في طريق ليس يحضر به رجال يهابون ويرحمون ويزجرون السفهاء وإن ذلك لا يعتريه في مجامع الأسواق][5].

وقد علمنا أن سباع الأرض عن آخرها إنما تهيج وتسرح وتلتمس المعيشة وتتلاقى على السفاد والعظال ليلاً.

[العظال: سفاد الكلاب[6]].

وإنما الليل نام الناس فيه عن حوائجهم[7]، وجعلوا النوم في الليل لضربين: أحدهما لأن الليل إذا كان من طبعه البرد والرطوبة والخثورة، كان ذلك أنزع إلى النوم وأدعى إليه[8]، لأنه من شكله.

---

(١) كذا في (ل). ووردت العبارة في (هـ): «بالنهار الذي جعله الله تعالى لحاجات الناس مسرحاً».
(٢) (هـ): «بذلك» بدل «به».
(٣) (ل): «على مربعات السكك العامرة».
(٤) (هـ): «الحراس» موضع «الحرس».
(٥) الكلام الذي بين معكفين ثبت في (هـ) سابقاً على الكلام الذي قبله مع اختلاف واضح بين الكلامين. زيادة وتفسير لابن منظور «الجملة الأخيرة» اللوحة ١/٦٦ س ١.
(٦) شرح وتفسير لابن منظور.
(٧) (هـ): «العبارة» وإنما نام الناس بالليل عن حوائجهم.
(٨) (هـ): «العبارة» ذلك أنزع إلى النوم وما دعا إليه».

والضرب الآخر لأن الليل موحش مخوف الجانب[1] من الهوام والسباع ولأن الأشياء المبتاعة والحاجات إلى تميز الدراهم والدنانير[2] والبذور والجواهر نهاراً فقادتهم طبائعهم وساقتهم غرائزهم إلى وضع النوم في موضعه والانتشار والتصرف[3] في موضعه على ما قدر الله عز وجل من ذلك.

وأما ما ذكرتم من نوم الملوك بالنهار وسهرهم بالليل، فإن[4] الملوك لم تجهل فضل النوم بالليل والحركة بالنهار، ولكن لكثرة أشغالها فضلت حوائجها عن[5] مقدار النهار فاستعانت بالليل، وناس منهم ذهبوا إلى أن التناول من الشراب وسماع الصوت الحسن مما يزيد في المنة، ويكون مادة للقوة. وعلموا أن العوام إذا كانت لا تتناول الشراب ولا تتكلف السماع على هذا المعنى، إن ظنها سيسوء[6]، وقولها سيكثر، فرأوا أن الليل أستر وأجدر أن يتم به التدبير[7]، وقال الراجز:

الليل أخفى والنهار أفضح

وما زالت ملوك العجم تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض وتشغله عن التفكير، حتى أخذت ذلك ملوك العرب. قال ابن عسلة الشيباني[8]:

وسماع مدجنة تعللنا حتى ننام تناوم العجم

وقالت أم تأبط شراً[9]: «ما ولدته يتناً، ولا سقيته غيلاً ولا أبته على مأقة».

---

(١) (هـ): «الجوانب» بدل «الجانب».
(٢) (هـ): «الدنانير والدراهم» بذكر الدنانير قبل الدراهم.
(٣) (ط): «والانتشار بالتصرف» وهو تحريف.
(٤) في الأصل: «وأن» والوجه ما هنا.
(٥) (ط): «المرات» وهو تحريف.
(٦) (ط): «منير» وهو تحريف ما في (ل).
(٧) (ط): «به باقي التدبير».
(٨) سبقت ترجمته.
(٩) سبق ذكرها مع ترجمة تأبط شراً (ص ١٨٨).

فأما اليتن فخروج رجل المولود قبل رأسه، وذلك علامة سوء، ودليل على الفساد. وأما سقي الغيل فارتضاع لبن الحبلى وذلك فساد شديد.

وأما المأقة فإن الصبي يبكي بكاء شديداً متعباً موجعاً، فإذا كانت الأم جاهلة حركته في المهد حركة تورثه الدوار، فنومته بأن تضرب يدها على جنبه، وإن نام الصبي فتلك الفزعة واللوعة والمكروه قائم في جوفه، ولم يعلل ببعض ما يضحكه ويلهيه[1] ويسره، حتى يكون نومه على سرور يسري فيه ويعمل في طباعه، ولا يكون نومه على فزع وغيظ أو غم، فإن ذلك مما يعمل في الفساد، والأم الجاهلة والمرقصة الخرقاء إذا لم تعرف فرق ما بين الحالتين، كثر منها ذلك الإفساد[2]، حتى يخرج الصبي مائقاً.

والحذاق من الملوك وأصحاب العنايات التامة يحتاجون إلى أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن ويشدوا متنهم بالشراب [الكثير][3]، إذا وقع في الجوف حرك الدم، وإذا حرك الدم لا يزال زائداً في الحركة المولدة للسرور.

أما تركه الاعتراض على اللص [إذا أطعمه دفعة أو دفعتين]، وأحسن إليه قائماً[4] وجب عليه حفظ أهله لإحسانهم إليه، وتعاهدهم له. فإذا كان عهده بر اللص أحدث، لم يكلف الكلب النظر في العواقب، وموازنة الأمور، والذي أضمر اللص من البيات غيب، [قد ستر عنه][5] وهو لا يدري أجاء ليأخذ أم جاء ليعطي أم[6] هم أمروه أم هو المتكلف لذلك، ولعل أهله أيضاً أن يكونوا قد استحقوا ذلك منه بالضرب والإجاعة.

وأما سماجة الصوت فالبغل أسمج صوتاً منه، والحمار أنكر صوتاً منه، وكذلك الطاوس، على أنهم يتشاءمون به، وليس الصوت الحسن إلا لأصناف

---

(١) (هـ): «يلهيه ويضحكه».

(٢) (هـ): «الفساد» بدل «الإفساد».

(٣) (هـ): «الشراب» فقط بدون «الكثير».

(٤) ما بين المعكفين ساقط من (هـ) ووردت: «قائماً» في (هـ): «مراراً».

(٥) في (ل): «وتعهدهم له». و(هـ): «وتعاهدهم له» وهما بمعنى.

(٦) أثبت هذا الجزء من (هـ) تكملة للجملة قبله.

الحمام من القماري والدباسي، والشفانين، فأما الأسد والذئاب وابن آوى والخنزير، وجميع الطير والسباع والبهائم فكذلك.

وإنما لك أن تذم الكلب في الشيء الذي لا يعم، والناس يقولون: ليس في الناس شيء أقل من ثلاثة: البيان الحسن، والصوت الحسن، والصورة الحسنة، ثم الناس بعد مختلطون ممتزجون.

وربما كان بل كثيراً ما تجده وصوته أقبح من صوت الكلب، فلم تخصون الكلب بشيء عامة الخلق أسوأ فيه حالاً من الكلب؟!

وأما عواؤه من وطء الدابة وسوء جزعه من ضرب الصبيان، فجزع الفرس من وقع عذبة السوط، أسوأ من جزعه من وقع حافر برذون، وهو في هذا الموضع إلى الفرس أشد(١) مناسبة منه. على أن الديك لا يذكر بصبر ولا جزع.

قال صاحب الديك: روي أن ابن عباس قال: السود من الكلاب الجن، والبقع منها الحن. ويقال إن الحن ضعفة الجن، كما أن الجني إذا كفر وظلم وتعدى وأفسد، قيل شيطان، وإن قوي على البنيان والحمل الثقيل واستراق السمع فهو(٢) مارد، فإن زاد فهو عفريت فإن زاد فهو عبقري. كما أن من قاتل في الحروب(٣) وأقدم فهو شجاع، فإن زاد فهو البطل فإن زاد قالوا: بهمة فإن زاد قالوا: أليس(٤).

وبعض الناس يزعم أن الحن والجن جنسان(٥) مختلفان وذهبوا إلى قول الأعرابي حين أتى بعض الملوك ليكتتب في الزمنى فقال:

أن تكتبوا الزمنى فإني لزمن   من ظاهر الداء وداء مستكن

---

(١) كذا في (ل)، وفي الأصل: «أشد منه». وكلمة منه مقحمة، (هـ): «للفرس أشد».
(٢) (هـ): «قيل» موضع «فهو».
(٣) (هـ): «الحرب» بالإفراد موضع «الحروب».
(٤) الأليس من الليس بمعنى الشجاعة. وفي (ط): «ليث» وهو تحريف.
(٥) (هـ): «صنفان» موضع «جنسان».

أبـيـت أهـوي في شـيـاطين تـرن   مختلف نـجـواهـم[1] حـن وحـن

وروى جابر عن النبي ﷺ أنه قال[2]: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فإذا وجدتم الكلب الأسود البهيم فاقتلوه فإنه شيطان».

وعن أبي رافع قال: أمرني النبي ﷺ أن أقتل الكلاب، فانتهيت إلى ظاهر بني عامر، فإذا عجوز مسكينة معها كلب ليس قربها: إنسان[3] فقالت: إرجع إلى النبي ﷺ فأخبره [خبري][4]، أن هذا الكلب يؤنسني وليس قربي أحد.

فرجع إليه فأخبره، وأمره أن يقتل كلبها [فرجع][5] فقتله، ولما فرغ من قتل كلاب المدينة وقتل كلب المرأة قال: الآن استرحت.

وعن عبدالله بن عمر[6] قال: قضى رسول الله ﷺ في كلب الصيد بأربعين درهماً، وفي كلب الغنم بشاة [من الغنم][7]، وفي كلب الزرع بفرق من الزرع[8]، وفي كلب الدار بفرق من تراب، حق على القاتل أن يؤديه وحق على صاحب الدار أن يقبضه.

---

(١) (هـ): «نجارهم» بدل «نجواهم». الزمنى، جمع زمن: هو ذو العاهة الذي يدوم مرضه زمناً طويلاً البخلاء ٢/١٠.

(٢) كذا في (ل) برواية هذا الحديث قبل الحديث المذكور أولاً في (هـ).

(٣) (ط): «بقربها إنسان».

(٤) هذه الكلمة سقطت من (هـ).

(٥) سقطت هذه الكلمة من (هـ) وورد هذا الجزء هكذا: «أن يقتل كلبها فقتله».

(٦) هو أبو عبد الرحمن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، القرشي العدوي أسلم مع أبيه وهو صغير لم يبلغ الحلم، وهاجر مع أبيه إلى المدينة، رده الرسول يوم أحد لصغر سنه، واجازه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة، كان من أهل الورع والعلم، كثير الاتباع لآثار النبي ﷺ، شديد التحري والاحتياط والتوخي في فتواه، وكل ما تأخذ به منه، وكان أعلم الصحابة بمناسك الحج. توفي بمكة سنة ٦٣ هـ وهو ابن أربع وثمانين سنة. دفن بذي طوى، في مقبرة المهاجرين. (وفيات الأعيان ٢/٢٣٤ ـ ٢٣٧. دار السعادة) وفي الأصل: «حسان بن عبدالله بن عمر».

(٧) في المخطوطة فقط.

(٨) الفرق بالفتح، وبالتحريك: مكيال ضخم لأهل المدينة يقال إنه يسع ستة عشر رطلاً وفي (ل) كما هنا: «من الزرع» (هـ): «من طعام».

قال: والتراب لا يكون عقلاً إذا كان في مقدار الفرق.

وفي قوله: وحق على صاحب الدار أن يقبضه، دليل على أنه عقوبة على اتخاذه[١] وأن ذلك على التصغير لأمر الكلب وتحقيره، وعلى وجه الإرغام لمالكه. ولو كان عوضاً أو ثواباً، أو كان في طريق الأموال المحروص عليها لما أكره على قبضه أحد، ولكان العفو أفضل.

وعن ابن عمر قال: من اتخذ كلباً ليس بكلب زرع ولا ضرع ولا صيد نقص من أجره كل يوم قيراط. قال رجل: فإن اتخذ رجل وهو كاره [له][٢]؟ قال: إنما إثمه على صاحب الدار.

وفي رواية: نقص من أجره كل يوم قيراطان.

وعن صدقة بن طيسلة[٣] المازني قال: سألت الحسن قلت: إن دورنا في الجبان[٤] وهي معورة وليس عليها أبواب فما ترى[٥] أن أتخذ فيها كلاباً؟ قال: لا لا.

وفي حديث آخر: «وقيراط مثل أحد».

أقبل عبدالله بن عمرو بن[٦] العاص حتى نزل ناحية مكة، وكانت امرأة

---

(١) (ط): «على النهي عن اتخاذه» وصوابه ما هنا كما في (ل).
(٢) سقط هذا اللفظ من (هـ).
(٣) (ط): «طيلسة» وأثبت ما بالمخطوطة موافقاً لما في (ل).
(٤) الجبان والجبانة: المقبرة والصحراء. وفي (ط): «الجنان» وهو تحريف.
(٥) (هـ): «أفترى».
(٦) هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سعد ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب، إمام حبر عابد صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه. أبو محمد وقيل أبو عبد الرحمن وقيل: أبو نصير القرشي السهمي. وأمه هي رائطة بنت الحجاج بن منية السهمية، له مناقب وفضائل ومقام راسخ في العلم والعمل. كتب الكثير باذن النبي ﷺ وروى عن أبي بكر وعمر ومعاذ وسراقة وأبيه عمرو وغيرهم، كما حدث عنه ابنه محمد على نزاع في ذلك، ومولاه أبو قابوس وحفيده شعيب بن محمد فأكثر عنه، قال أحمد بن حنبل: مات عبدالله ليالي الحرة سنة ٦٣ هـ وقيل: مات بمصر ودفن بداره الصغيرة سنة ٦٥ هـ على اختلاف في مكان مماته (سير أعلام النبلاء ٣/٥٣ ـ ٦٢ الذهبي دار المعارف ١٩٦٢).

عم له تهاديه فلما كان ذات يوم قالت له: لو أرسلت إليَّ الغنم فاستأنست برعائها وكلابها فقد نزلت قاصية! فقال: لولا كلابها لفعلت إن الملائكة لا تدخل داراً فيها كلب.

وعن ابن عباس أنه قال على منبر البصرة: إن الكلاب من الحن[1] وإن الحن من ضعفة الجن، فإذا غشيكم منها شيء فالقوا إليها شيئاً واطردوه فإن لها أنفس سوء.

وعن ابراهيم قال: لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب إلا عن الكلاب.

قال صاحب الكلب[2]: روي أن تقامر رجلان على عهد عمر بديكين فأمر عمر الديكة أن تقتل[3] فأتاه رجل من الأنصار فقال: امرت بقتل أمة من الأمم تسبح الله عز وجل[4]؟ فأمر بتركها.

وعن أبي موسى قال: لا تتخذوا الدجاج في الدور فتكونوا أهل قرية وقد سمعتم ما قال الله عز وجل[5] في أهل القرى: ﴿**أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون**﴾[6].

وهذا من أبي موسى ليس على ما يظنه الناس، لأن تأويله هذا ليس على وجه، ولكنه كره للفرسان وللرجال[7] اتخاذ ما يتخذه الفلاح وأصحاب التعيش مع حاجته يومئذ إلى تفرغهم لحروب العجم، وأخذهم في تأهب الفرسان وفي

---

(١) (ط): «الجن» بالجيم والصواب بالحاء كما هنا و(ل).

(٢) (هـ): «قال صاحب الديك» وكل ما في المخطوطة هو الصواب لأن الموقف دفاع عن الكلب حيث سبق النهي عن اتخاذه، ثم قتله، وصاحب الكلب يورد أن أشياء أخرى ورد النهي عن اتخاذها، ثم جواز قتلها.

(٣) (ط): «نقل» وهو تحريف.

(٤) (٥) (هـ): «الله تعالى» موضع «الله عز وجل» ويتكرر هذا الاختلاف كثيراً.

(٦) سورة الأعراف، الآية ٩٧ ـ مكية.

(٧) كذا في (ل)، (هـ): «ورجال الحرب».

دربة رجال الحرب. فإن كان إنما ذهبت إلى الذي يظهر في اللفظ فهذا تأويل مرغوب عنه.

قال صاحب الكلب: فقد أمر[١] بقتل الديكة ولم يستثن منها شيئاً دون شيء ونهى أبو موسى عن اتخاذ الدجاج ولم يستثن منها شيئاً دون شيء والديكة تدخل في هذا الاسم، واسم الدجاج يجمعها جميعاً. ورويتم في قتل الحمام مثل روايتكم في قتل الكلاب ولم أركم رويتم أن الحمام مسخ ولا أن بعضه من الجن وبعضه من الحن ولا أن أمتين مسختا وكان أحدهما الحمام.

وزعمتم أن عمر إنما [٢] أمر بقتل الديكة حين كره الهراش بينهما[٣] والقمار بها. فلعل كلاب المدينة في تلك الأيام كثر فيها العقور[٤] وأكثر أهلها في الهراش والقمار بها[٥].

وقد علمتم أن ولاة المدينة دمروا على[٦] صاحب الحمام إذا خيف من قبله القمار[٧] وظنوا به التشرف[٨] [على الناس][٩].

وذكروا عنه الرمي بالبندق وخديعة أولادهم بالفراخ. فما بالكم لم تخرجوا للكلاب من التأويل والعذر مثل الذي خرجتم للحمام والديكة.

ورويتم في الجري[١٠]والضباب أنهما كانتا أمتين مسختا. وروى بعضهم

---

(١) يعني عمر.
(٢) في الأصل: لما» والوجه ما هنا.
(٣) (هـ): «بها» موضع «بينهما».
(٤) (ل): «العقر» وهو جمع عقور.
(٥) (هـ): «فيها» بدل «بها».
(٦) دمروا عليه: دخلوا عليه وهجموا فجأة.
(٧) (ط): «من قبل القمار» والصواب ما في (ل) كما هنا.
(٨) الشرف: الإشفاء على خطر من خير أو شر. وفي (ل): «به التشرف»، وفي (ط): «انه السرف». وما في (ل) وافق ما هنا، (هـ): «وظنوا أنه الشرف».
(٩) سقط من (هـ).
(١٠) الجري: ضرب من السمك. وفي (ط): «الجدي» وهو تحريف.

في الأربيانة أنها كانت خياطة تسرق السلوك، وانها مسخت وترك عليها بعض خيوطها لتكون علامة لها على جنس سرقتها.

ورويتم في الفأرة أنها كانت طحانة، وفي سهيل أنه كان عشاراً[1]، وفي الحية أنها كانت في صورة جمل، وأن الله عز وجل عاقبها حتى لاطها بالأرض وقسم عقابها على عشرة أقسام حين احتملت دخول إبليس في جوفها حتى وسوس إلى آدم من فيها.

وزعمتم أن الإبل خلقت من أعنان الشياطين[2]. وزعمتم أن الكلاب أمة من الجن مسخت، والذئب أحق بأن يكون شيطاناً من الكلب، لأنه وحشي وصاحب قفار، وبه يضرب المثل [في التعدي][3] والذئب ختور غدار والكلب وفي مناصح. وقد أقام الناس في الديار الكلاب مقام السنانير في الفأر[4]. والذئب مضرة كله، والكلب منافعه فاضلة على مضاره.

والناس لم يطبقوا على اتخاذها عبثاً ولا جهلاً والقضاة والولاة والفقهاء والنساك الذين يأمرون المعروف وينهون عن المنكر، والمحتسبة لم يطبقوا على ترك النكير على[5] ما يشاهدون منها في دور من لا يعصيهم ولا يمتنع عليهم إلا وقد علموا أنه قد كان لقتل تلك الكلاب بأعيانها في ذلك الدهر، معنى. وإلا فالناس من[6] جميع أقطار الأرض لا يجتمعون على مسالمة أصحاب المعاصي، الذين خلعوا عذرهم وأبرزوا صفحتهم[7].

---

(١) العشار: من يأخذ العشر.
(٢) الأعنان: النواحي والجوانب. وفي الأصل: «أعناق» وهو تصحيف. أنظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ١٦٣.
(٣) زدتها كما في الباقي من النسخ للتحديد.
(٤) (ل): «من الفأر» (هـ): «للفأر».
(٥) في المخطوطة كما كان بالأصل «وعلى» والواو مقحمة وأثبت بدون واو.
(٦) (هـ): «في» موضع «من».
(٧) (ط): «ضجتهم» وهو تحريف.

بل ما ترى خصماً يطعن[١] عند قاض على شاهد[٢] أن[٣] في داره كلباً، ولا ترى حاكماً يرد بذلك شهادة، بل لو كان الكلاب اتخاذها[٤] مأموراً به، لما كان إلا كذلك.

وأنكم حملتم جميع الهداهد على حكم هدهد سليمان، وجميع الغربان على حكم غراب نوح عليه السلام[٥] وجميع الحمام على حكم حمامة السفينة[٦] وجميع الذئاب على حكم ذئب أهبان بن أوس، وجميع الحمير على حكم حمار العزير لكان ذلك حكماً مردوداً.

وقد تعرض لخصائص الأمور أسباب في دهر الأنبياء ونزول الوحي، لا يعرض مثلها في غير زمانهم: قد كان جبريل عليه السلام يمشي في الأرض في صورة دحية الكلبي [٧] [وابن دريد يقول: دحية بالفتح، وابن السكيت يقولها بالكسر][٨]، وكان إبليس يتحرف الشكل في صورة سراقة المدلجي[٩]، وظهر في صورة الشيخ النجدي. ومثل هذا كثير.

فإن زعمتم أن النبي ﷺ نظر إلى رجل يتبع حماماً طياراً فقال: «شيطان

---

(١) بالمخطوطة «يطمع» وليس لها معنى وأثبت ما بالأصل.

(٢) (هـ): «على شاهد عند قاض».

(٣) (هـ): «بأن» بالباء.

(٤) (هـ): «لو كان اتخاذ الكلاب».

(٥) ليست في (هـ).

(٦) في الأصل: «حمام السفينة»، وهو محرف. أنظر الحيوان ٢: ٣٢١ والثمار.

(٧) هو دحية بن خليفة بن مروة بن فضالة الكلبي: صحابي بعثه رسول الله ﷺ برسالته إلى قيصر يدعوه للإسلام وحضر كثيراً من الوقائع. وكان يضرب به المثل في حسن الصورة وشهد اليرموك فكان على كردوس، ثم نزل دمشق وسكن المزة وعاش إلى خلافة معاوية، مات نحو سنة ٤٥ هـ. (الأعلام ٣/١٣، الإمبابة ١/٤٧٣ طبقات ابن سعد ٤/١٨٤).

(٨) تعليق وشرح لابن منظور صاحب المختصر. (ل): «يتحرق السكك» (ط): «يتراءى في السكك.

(٩) هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي الكناني. أبو سفيان: صحابي، له شعر: كان ينزل قديداً. له في الصحيحين ١٩ حديثاً، وكان في الجاهلية قائفاً، أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨ هـ وتوفي سنة ٢٤ هـ (الأعلام ٣/١٢٦، ثمار القلوب ٩٣، والتاج ٦/٣٨٠).

يتبع شيطاناً»، فخبرونا عمن يتخذ الحمام[1] من سكان الآفاق من الحرمين والمصرين[2] ومن بني هاشم إلى من دونهم، أتزعمون أنهم شياطين على الحقيقة وانهم من نجل إبليس اللعين[3] أو يزعمون أنهم كانوا إنساً فمسخوا بعد جنا، أم يكون قوله لذلك الرجل شيطان، على مثل قوله «شياطين الجن والإنس» وعلى قول عمر: لأنزعن شيطانه من نخرته[4]، وعلى قول منظور بن رواحة[5]:

فلما أتاني ما تقول ترقصت   شياطين رأسي وانتشين من الخمر

وقال أبو الوجيه العكلي: «وكان ذلك حين ركبني شيطاني» قيل له: وأي الشياطين تعني؟ قال الغضب. والعرب تسمي كل حية شيطاناً.

وقالت العرب: ما هو إلا شيطان الحماطة. [الحماطة شجر تأوي إليه الحيات][6].

ويقال «ما هو إلا شيطان» يريدون القبح، و«ما هو إلا شيطان». يريدون الفطنة وشدة العارضة.

وقال بعض العرب في وقعة كانت: والله ما قتلنا إلا شياطينا برصاً[7] لأن الرجل الذي قاتلهم اسمه شيطان. وكان به برص.

وفي بني سعد بنو شيطان. قال ابن ميادة[8]:

فلما أتاني ما تقول محارب   تغنت شياطين[9] وجن جنونها

---

(١) (ط): «يتبع الحمام».

(٢) كذا في (ل)، (هـ): «الحرميين والبصريين».

(٣) (هـ): «أنهم من نجل الشياطين» موضع «أنهم من نجل إبليس اللعين».

(٤) النخرة، بالضم كهمزة: مقدم الأنف. (ط): «نعرته» تصحيف.

(٥) (ط): «منصور بن رواحة».

(٦) تعليق لابن منظور. في هامش اللوحة ١/٧٠.

(٧) كذا في (ل) وعلى الوجه: «إلا شيطان برصا» بدليل ما بعد، وكذا في (ط).

(٨) هو الرماح بن يزيد أو الرماح بن أبرد يصل نسبه إلى سعد بن ذبيان، يكنى أبا شراحيل، وميادة أمه، وكان يزعم أنها فارسية، وهو شاعر إسلامي سبقت ترجمته ص ٢٣٤.

(٩) (ط): «شياطين» وصوابه في (ل). وانظر ثمار القلوب ٥٧.

وقال أبو النجم:

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وهذا كله منهم على جهة المثل:

وخرافة[١] رجل من عذرة استهوته الشياطين، فتحدث رسول الله ﷺ يوماً بحديث فقالت امرأة من نسائه: هذا من حديث خرافة قال: «لا وخرافة حق».

ورويتم أن شريك بن خناسة دخل الجنة وخرج منها ومعه ورقة وأن عمر سأل الرجل المفقود الذي استهوته الجن فقال: ما كان طعامهم[٢]؟ قال: الفول والرمة[٣]. وسأله[٤] عن شرابهم فقال: الجدف[٥].

وزعمتم أن الجن خنقت حرب بن أمية[٦]، وخنقت مرداس بن أبي عامر[٧]، وخنقت الغريض المغني، وقتلت سعد بن عبادة، واستهوت عمرو بن

---

(١) خرافة: رجل من بني عذرة غاب عن قبيلته زمناً ثم عاد فزعم أن الجن استهوته، وأنه رأى أعاجيب جعل يقصها عليهم فأكثر، فقالوا في الحديث المكذوب: «حديث خرافة» وقالوا: اكذب من خرافة حتى سمى الضريري الكذب: خرافة. (الأعلام ٢/٣٤٧، شرح الشريشي على المقامات ١/٦٣).

(٢) كذا في (هـ). والمخطوطة ما في (ط): «طعامكم».

(٣) (ط): «البعر والبول والرمة».

(٤) (ط): «وسأل».

(٥) الجدف بالتحريك: نبات يكون باليمن لا يحتاج آكله معه إلى شرب ماء. ابن الأثير. وفي (ط): «الجدق» وهو تحريف.

(٦) هو حرب بن أمية بن عبد شمس، من قريش كنيته أبو عمر: من قضاة العرب في الجاهلية، ومن سادات قومه وهو جد معاوية بن أبي سفيان، شهد حرب الفجار ومات بالشام وتزعم العرب أن الجن قتلته بثأر حية (الأعلام ٢/١٨٣، الألوسي ٣/٣٨٦). مات نحو سنة ٣٦ ق هـ.

(٧) هو مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربعي الحنظلي التميمي، أبو هلال، وأدبة أمه، من عظماء الشراة وأحد الإبطال الخطباء العباد سجن ونجا، جمع قومه فحاربه عبيد الله بن زياد وهزمه، قال ابن حزم: وله عقب كثير باصطخر. (الأعلام ٨/٨٧، ابن الأثير ٣/٢٠٣، الطبري ٦/٢٧١، معجم البلدان ١/٥٧.

عدي[1] واستهوت عمارة بن الوليد، فأنتم ملاء[2] بالخرافات، أقوياء على رد الصحيح، وتصحيح ألسقيم، ورد تأويل التنزيل والحديث[3] المشهور إلى أهوائكم. وقد عارضناكم.

وقالوا في الحديث: «من اقتنى كلباً ليس بكلب زرع أو ضرع ولا قنص فقد أثم»[4]. فهاتوا شيئاً من جميع الحيوان يصلح للزرع والضرع والقنص. وبعد فهل اتخذوا كلب الضرع إلا ليحرس الماشية وأولادها من السباع؟ وهل عند الكلب عند طروق الأسد والنمر والذئاب وجميع ما يقتات اللحمان من رؤساء السباع، إلا صياحه ونباحه وانذاره، وأن يشغلها بعض الشغل، ويهجهج لها[5] بعض الهجهجة، إلى أن يلحق من يحميها، ويتوافى إليها[6] من يذود عنها، أو[7] ليس في هذا القياس أنا متى وجدنا دهراً تكثر فيه اللصوص، ويظهر[8] فيه السراق والنقوب، ويشيع فيه التسلق، ممن إذا أفضى إلى منزل القوم لم يرض إلا بالحريبة [9] ليس دونها شيء، أو يأتي على الأنفس، وهو لا يصل إلى ما يريد حتى يمر على النساء متكشفات[10] ومن عسى إذا أخذته المرأة أخذ يد ألا يرضى بأن[11] يتوعد بذبح الأولاد، إن لم ينقى بالمال[12] حتى يذبح،

---

(١) هو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة اللخمي: أول من ملك العراق من بني لخم في الجاهلية. تولى بعد مقتل خاله (جذيمة) وانتقم له من قاتليه (الزباء) في خبر طويل وكانت إقامته بالحيرة قال البغدادي: هو أول ملوك لخم استمر في الملك أكثر من ٥٠ سنة ـ منفرداً به مستقلاً لا يدين لملوك الطوائف (الفرس) ولا يدينون له. (الأعلام ٢٥٣/٥، ابن خلدون ٦٢/٢، المرزباني ٢٠٥، البغدادي ٢٧١/٣ ـ ٢٧٢، الكامل لابن الأثير ١٢٢/١، ١٣٤).

(٢) كذا في (ل) و(ط): «أملياء بالخرافات» و(هـ) كما في (ط) وهما بمعنى.

(٣) (ط): «ورديان التنزيل والحديث» و(ل) «ورد تأويل الحديث» سقط منهما «التنزيل».

(٤) (ط): «فهو آثم».

(٥) (ل): «بها» موضع «لها». وكذا في (هـ).

(٦) (ل): ««إليه» كما كان بالمخطوطة وأثبت ما في (ط).

(٧) (ط)، و(هـ): «إذ ليس» بدل «أوليس».

(٨) (هـ): «ويفشو» مكان «ويظهر».

(٩) الحريبة: المال الذي يعيش به الإنسان أو المال الذي يسلب منه. وفي (ط): «بالحربية».

(١٠) (هـ)، (ط): «مكشفات».

(١١) (هـ)، (ل): «إن» موضع «بأن».

(١٢) (هـ) العبارة: «وإن يتقي بالمال».

ومن عسى إن تمكن شيئاً قليلاً أو أمن قليلاً، أن يركب الحرم بالسوءة العظمى وبالاصابة التي لا شوى لها[1].

أفما[2] هذه الحال أحق بالحراسة من تلك الأحوال؟ التي هي زرع وضرع[3] وأي الأمرين أحق بالتحصين[4] والحياطة وأيها أشبه بالتغرير والإضاعة،[وهل الحكمة][5] إلا اتخاذ الكلاب التي لا تنام عند نوم من قد دأب نهاره ولو ترك اتخاذها وأضاف ذلك إلى يقظة المسروقين[6] [لذهبت الأموال وهتكت الحرم] [7] .

على أنا لو (حلنا) بين حراس[8] الأسواق وبين اتخاذ الكلاب لامتنعوا من ضمان الحراسة، ولامتنع كل محروس من إعطائه تلك الأجرة، ولوجد اللصوص ذلك من أعظم الفرص وأجود الغنم[9].

أو ما تعلمون أن هذا الحريم وهذه الحرمات[10] وهذه العقائل من الأموال، أحق بالمنع والحراسة وبالدفع عنها بكل حيلة، من حفظ الغنم وحريم الراعي وحرمة الأجير؟!

وبعد فإن الذئاب لا تجتمع على قطيع واحد، والذي يخاف من الذئب السلة والخطفة[11] والاستلاب والاختلاس. والأموال التي في حوانيت التجار ومنازل أهل اليسار يأتيها من أهل العدو والعدة، ومن أصحاب النجدة، من

---

(١) يريد بالإصابة التي لا تخطئ» .
(٢) (هـ)، (ط): «فهذا الحال» موضع «أفما هذه الحال». (هـ): ««فهذا الحال».
(٣) سقط هذا الجزء من (هـ)، (ط).
(٤) (ط): «بالتحصيل» وهو تحريف.
(٥) سقطت الكلمتان من (هـ).
(٦) اختلاف واضح بين العبارة التي ثبتت في (هـ) وما في المخطوطة من بداية كلمة «وهل الحكمة» حتى «يقظة المسروقين».
(٧) سقط هذا الجزء من (هـ).
(٨) (هـ) «حرس» بدل «حراس».
(٩) (هـ)، (ط): «من أعظم الغنم وأجود الفرص» وفي الأصل: «الغرض».
(١٠) (ط): «الحريمات».
(١١) (ل): «والخطف» وهما بمعنى.

يحتملها بحذافيرها، مع ثقل وزنها وعظم حجمها، ثم يتجالدون دون ذلك [١] بسيوف الهند. وهم من بين الخليقة لولا أنهم قد أحسوا من نفوسهم [٢] من الجراة وثبات العزيمة، بما ليس من غيرهم لكانوا كغيرهم، ولولا أن قلوبهم أشد من قلوب الأسد لما خرجوا، على أن جميع الخلق يطلبونهم[٣] وعلى أن السلطان لم يول إلا لمكانهم، والكلاب لم تتخذ إلا للإنذار بهم، وعلى أنهم إن أنذروا بهم[٤] قاتلوا قتال من لا ينجيه إلا القتال، وعلى أنهم إن أخذوا ماتوا كراماً.

ولعل المدينة في ذلك الدهر كانت مأمونة من أهل الفساد[٥] وكان أكثر كلابها عقوراً، وأكثر فتيانها من بين مهارس أو مقامر. والكلب العقور والكلب الكلب أشد مضرة من الذئب المأمور بقتله.

وقد يعرض للكلاب الكلب والجنون لأمور: منها أن تأكل لحوم الناس، ومنها كالجنون الذي يصيب[٦] سائر الحيوان.

وجهال الناس اليوم يقتلون الوزغ، على أن آباءها وأمهاتها[٧] كانت تنفخ على نار ابراهيم عليه السلام، وتنقل إليها الحطب.

وبعد فلعل النبي ﷺ قال هذا القول إن كان قاله على الحكاية لأقاويل القوم[٨]. ولعل ذلك كان على معنى كان يومئذ معلوماً فترك الناس العلة ورووا الخبر[٩] سالماً من العلل، مجرداً غير مضمن[١٠]. [أو]، لعل من سمع هذا الحديث شهد آخر الكلام ولم يشهد أوله، أو لعله عليه السلام قصد بهذا

---

(١) (ط): «على ذلك». (هـ): «ثم يجالدون».
(٢) (هـ): «من «أنفسهم» موضع «من نفوسهم».
(٣) (هـ): «يطالبونهم».
(٤) (هـ)، (ط): «أنذر بهم».
(٥) كذا في (ل). (ط)، (هـ): ««مأموناً عليها من أهل الفساد».
(٦) (هـ): «يعرض» بدل «يصيب».
(٧) (ط): «أباها وأمهاتها» والوجه ما هنا كما في (ل).
(٨) (ط): «لأقاويل قوم».
(٩) (ط): «وردوا الخبر» وهو تحريف.
(١٠) (ط): «غير مميز».

الكلام إلى ناس من أصحابه قد كان دار بينهم وبينه شيء. وكل ذلك ممكن سائغ[1] غير مستنكر ولا مدفوع.

وقد رويتم في الفواسق ما قد رويتم في[2] الحية والحدأة والعقرب والفأرة والغراب، ورويتم في الكلب العقور، وكيف يقتلن[3] في الحل والحرم. فإن كنتم فقهاء فقد علمتم أن تسمية الغراب بالفسق،[والكلب بالإسم الذي سمي به][4]، والفأرة بالفويسقة، أن ذلك ليس من شكل تسمية الفاسق[5]، ومن شكل تسمية إبليس اللعين.

وقد قالوا: ما فجرها إلا فاجر، ولم يجعلوا الفاجر إسماً لا يفارقه. وقد يقال للفاسق من الرجال: خبيث. وقال ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة الخبيثة[6] فلا يقربن مصلانا» وهو على غير قوله عز وجل ﴿**الخبيثات للخبيثين**﴾[7]. وقال بعض الرجاز:

أما أتاك عني الحديث إذ أنا بالغائط أستغيث
والذئب وسط غنمي يعبث وصحت بالفاسق يا خبيث[8]

وقالوا: قد أمرنا بقتل الحية والعقرب، والذئب والأسد، على معنى ينتظم معنيين[9]: أحدهما الامتحان والتعبد بفكر القلب وعمل الجارحة، لا على جهة الانتقام والعقوبة. وأمرنا بضرب الباغي بالسيف إذا كانت العصى لا تغني فيه على جهة الدفع وعلى جهة العقاب ولم نؤمر بالقصد إلى قتله، وإنما الغاية في دفع

---

(١) (ل): «شائع» وهو تحريف ما في (ط) وهنا.
(٢) في الأصل: «من».
(٣) (ط): «يقتل» والوجه ما هنا و(ل).
(٤) سقط هذا الجزء من (هـ).
(٥) (ط): «القاذق». (ل): «القاذف» والوجه ما أثبت.
(٦) قال ابن الأثير: يريد الثوم والبصل والكرات.
(٧) سورة النور، الآية ٢٦ ـ مدنية.
(٨) (هـ): «بالغائط» موضع «بالفاسق».
(٩) في الأصل «بمعنيين» وهو تحريف.

بأسه عنا، فإن أتى ذلك المقدار عليه، كان كسارق مات من قطع يده، وكقاذف مات من جلد ظهره[1].

وقد أمرنا بالقصد إلى قتل الحيات والعقارب وإن لم تعرض لنا في ذلك الوقت، لأن جنسها جنس المتلف متى هم بذلك.

وليس لنا أن نضرب الباغي بالسيف إلا وهو مقبل غير مدبر، ولنا أن نقتل الحية مقبلة كانت أو مدبرة، كما نقتل الكافر مقبلاً ومدبراً، إلا أن قتل الكافر يجمع الامتحان والعقوبة، وليس في قتل الحية إلا الامتحان. وقد كان يجوز أن تمتحن بحبسها[2] والاحتيال لمنعها، دون قتلها، وإذا ولى الباغي من غير أن يكون يريد الرجوع إلى فئة، فحكمه الأسر والحبس أبداً إلى أن يؤنس فيه التروع. وسبيل الاحناش والسباع وذوات السموم من الهمج والحشرات، القتل مقبلة ومدبرة. وقد أتيح لنا قتل ضروب من الحيوان عندما يبلغ من جنايتها علينا الخدش، فضلاً عن الجرح والقتل، كالبعوض والنمل، والبراغيث والقمل.

والبعير قتله فساد، فإن صال على الناس صار[3] قتله صلاحاً. [والإنسان][4] قتله حرام، فإن خيف صار[5] قتله حلالاً.

والكلاب أصناف لا يحصيها[6] إلا من أطال الكلام. وجملة ذلك أن ما كان منها للصيد فهي للضراء، وواحدها ضروة[7]، وهي الجوارح والكواسب، ونحن لا نعرفها إلا السلوقية، وهي من أحرار الكلاب وعتاقها[8]

(١) كذا في (ط)، (هـ): «عن جلد ظهره».
(٢) (ط): «يمتحن لجنسها» وهو تحريف.
(٣) (هـ): «كان» موضع «صار» كما في (ط).
(٤) أثبته هنا وكان ساقطاً ليستقيم الكلام ولحاجته إليه.
(٥) (هـ): «كان» بدل «صار».
(٦) كذا في (ل)، (ط)، (هـ): «لا يحيط بها».
(٧) (ط): «ضار» وهو تحريف.
(٨) في الأصل: «وهي في أحرار الكلاب وعتاقها» وما ثبت هنا هو الوجه.

والخلاسية[1] هجنها ومقاريفها. وكلاب الرعاء، وهي من زينيّها، وهي كرادتها ومحامرها[2].

وقد تصيد الكلاب غير السلوقية، ولكنها تقصر عن السلوقية بعيداً. وسلوق من أرض اليمن كان لها حديد جيد الطبع، كريم العنصر [3] حر الجوهر.

ولما صار الكلب يجمع خصال اللؤم والنذالة والحرص والشره[4]، والبذاء والتسرع، اشتقوا من اسمه لمن هجوه بهذه الخصال.

قال بشار بن برد[5]:

يرد الحريص على متالفه ... والليث يبعث حينه كلبه[6]

ولما اشتقوا من اسمه للأشياء المحمودة أكثر. قال الحارث بن الطفيل[7]:

ومدجج يسعى بشكته ... محمرة عيناه كالكلب[8]

ومن ولد ربيعة بن نزار كلب بن[9] ربيعة، وكلاب بن ربيعة، ومكالب ابن ربيعة، ومكلبة بن ربيعة، وفيهم من السباع أسد، وضبيعة وذئب وذؤيب، وهم خمسة عشر رجلاً ثمانية من جميع السباع، ومن الثمانية أربعة مشتقة من اسم الكلب، وبنو الكلبة، قال الشاعر:

---

(١) (ط): «الجلاسية» وهو تصحيف.

(٢) (ل): «حواد بها ومحامرها». (هـ): «وكرديها فهي كرادتها «وأثبت ما جاء بالمخطوطة.

(٣) أثبت ما في (ط)، (هـ) بدل «العقاقير» التي كانت بالمخطوطة.

(٤) في الأصل: «الشدة»، وإنما هو الشره قرين الحرص.

(٥) سبقت ترجمته ص ٢٤٨.

(٦) أنظر المرتضى في أماليه ٢ : ٢٩. وقبله.

واستغن بالوجبات عن ذهب ... لم يبق قبلك لامرئ ذهبه

قال ابن السكيت: يقال فلان يأكل الوجبة إذا كان يأكل في اليوم والليلة وجبة».

(٧) كما في الأغاني ١٢/٥٠ وفي (ط)، (هـ) نسب الشعر لعامر بن الطفيل.

(٨) المدجج عنى به القنفذ للشوك الذي عليه «اللسان» (دجج) والمخصص ٩٥/٨.

(٩) (ل): «أكلب».

سيكفيك من ابني نزار لراغب بنو الكلبة الشم الطوال الأشاجع[١]

والكلب لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبري. وبنوها بنو الكلبة الذين سمعت بهم - تزوجها خزيمة بن النعمان من بني ضبيعة بن ربيعة، فهي أمهم.

وفيها يقول شبيل بن عزرة[٢] الضبعي صاحب الغريب - وكان شيعياً من الغالية[٣]، فصار خارجياً من الصفرية:

بنو كلبة هرارة وأبوهم خزيمة عبد خامل الأصل أوكس

واشتق من اسم الكلب أسماء القرى والبلدان والناس والأيام وغيرهم. وقد قيل للخوارج: كلاب النار وللنوائح: كلاب النار.

وإذا كان العود سريع العلوق في كل زمان أو كل أرض[٤] أو في عامة ذلك قالوا: ما هو إلا كلب.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال في وزر بن جابر[٥] حين خرج من عنده واستأذنه إلى أهله: «نعم إن لم تدركه أم كلبة» يعني الحمى.

وما ذكروا به العضو من أعضاء الكلاب والكلبة والخلق منها أو الصفة الواحدة من صفاتها أو الفعل الواحد، قول رؤبة[٦]:

---

(١) كذا في (ل): «لراغب» وما عدا (ل): «لواغب». وانظر الاشتقاق ١٩٣.

(٢) هذا العلم كثيراً ما يقع فيه التحريف والتصحيف، فقد ورد في خزانة الأدب (أنظر ١/٩٢) برسم (شبل بن عمرو)، وفي الأمالي (١/٤٨) (شبيل بن عروة) وفي فهرست ابن النديم ٦٨ مصر (شبيل بن عرعرة) وفي القاموس (شبيل بن عروة) وفي (ط) من الحيوان (شبيل بن غزرة) وصواب هذا كله ما هنا كما في (ل)، وما نبه عليه الزبيدي في تاج العروس، وكما ضبطه ابن دريد في الاشتقاق ١٩٣ جوتجن. وشبيل هذا من خطباء الخوارج وعلمائهم وله قصيدة في الغريب وكان أولاً رافضياً ثم انتقل إلى الشراة وبرئ من الروافض ومات بالبصرة.

(٣) (ط): «من كبار الشيعة».

(٤) المخطوطة والأصل «وكل أرض» وأثبت الوجه كما في (هـ).

(٥) كان ممن وفد مع زيد الخيل إلى الرسول ﷺ. وانظر الحيوان ٢/٣٠٨ (هـ).

(٦) هو رؤية بن العجاج عبدالله بن رؤبة من بني مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم وكان أفصح عربي قط. وفي الأغاني عن محمد بن سلام قال: قلت ليونس: هل رأيت عربياً قط أفصح من =

لاقيت مطلاً كنعاس الكلب[1]

يقول: مطلاً مفرطاً[2] دائماً. وقال الشاعر:

يقود بها دليل القوم نجم ... كعين الكلب في هبى قباع[3]

هذه أرض ذات غبرة من الجدب[4] لا يبصر القوم فيها النجم الذي يهتدى به إلا وهو كأنه عين الكلب، لأن الكلب إنما [تراه] أبداً مغمضاً غير مطبق الجفن ولا مفتوح. والهبى: الظلمة الواحد هاب وللجمع هبى مثل غاز وغزى. والقباع: التي قد قبعت في المنام واحدها قابع كما يقبع القنفذ.

[يقال: امرأة طلعة قبضه وهي التي تتطلع فإذا رأت إنساناً دخلت][5] قال ابن مقبل:

ولا أطرق الجارات بالليل قابعاً ... قبوع القرنبى أخلفته مجاجره[6]

والقبوع: الاجتماع والتقبض، والقرنبي: دويبة أعظم من الخنفساء.

ومما اشتق من اسم الكلب في مواضع النباهة، كليب بن ربيعة[7] وهو كليب وائل. ويقال إنه قد قيل في رجلين من ربيعة ما لم يقل في أحد من

= رؤبة؟ فقال: لا، ما كان معد بن عدنان أفصح منه» وفيه أنه دخل على أبي مسلم الخراساني فأنشده وتحدث إليه أبو مسلم فقال رؤبة: «تالله ما رأيت أعجمياً أفصح منه وما ظننت أن أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي». وديوانه مطبوع في مجموع أشعار العرب جـ ٣ ص ٣ وانظر (الأغاني ١٨/١٢٥، الخزانة ١/٣٨، الشعر والشعراء ٢/٥٩٤).

(١) للثعالبي قول في هذا البيت بثمار القلوب ٣١٦، وانظر أمثال الميداني «أقوم من كلب» ٢/٢٨٠.

(٢) (ط): «مقرطعاً» وليس له معنى يصح. (هـ): «مقرمطاً» مقاربة الخطو وأثبت ما ترى وعله الوجه.

(٣) (ط): «هبا» والصواب ما هنا كما في (ل). وانظر الميداني «كعين الكلب الناعس».

(٤) (ط): «الحر.

(٥) سقط هذا الجزء من بقية النسخ.

(٦) كذا بالأصل إلا أن: «أخلفته» وردت بالأصل: «أسلمته». (هـ): «أخلفته مجاعره».

(٧) هو كليب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة: جد جاهلي. يعرف بنوه ببني «الجد» نسبة إلى أم صاحب الترجمة «مجد بنت تميم» أنظر الأعلام (٦/٩١).

العرب، حتى ضرب بها المثل في كل مكان، وهو قولهم: «أعز من كليب وائل»، والآخر: «لا حر بوادي عوف».

قالوا: وكانت ربيعة إذا انتجعت معه لم توقد ناراً ولم تحوض حوضاً. وكان يحمي الكلأ ولا يتكلم عنده إلا خفضاً ويجير الصيد ويقول: صيد أرض كذا وكذا في جواري لا يباح.

وكان له جرو كلب قد كتعه[1] فربما قذف به في الروضة تعجبه فيحميها إلى منتهى عوائه ويلقيه بحريم الحوض فلا يرده بعد حتى تصدر إبله. قال النابغة الجعدي[2]:

كليب لعمري كان أكثر ناصرا ... وأيسر ذنبًا منك ضرج بالدم

رمى ضرع ناب فاستمر بطعنة ... كحاشية البرد اليماني المسهم

وقال رجل من الخوارج[3] لمعاوية بن أبي سفيان:

قد سرت سير كليب في عشيرته ... لو كان فيهم غلام مثل جساس

الطاعن الطعنة النجلاء عاندها ... كطرة البرد أعيا فتقها الآسي[4]

كان أول عمل وليه الحجاج تبالة، فسار إليها فلما قرب منها قال للدليل:

---

(١) كتعه بمعنى شد قوائمه. وانظر أمثال الميداني ١/٤٤٦ والثمار ٧٧.

(٢) اسمه حسان بن قيس (وقيل: حيان بن قيس) بن عبدالله ينتهي نسبه إلى جعبة بن كعب بن ربيعة أحد بني عامر بن صعصعة ويكنى أبا ليلى وهو شاعر قديم معمر أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم وحسن إسلامه وكان أكبر من النابغة الذبياني، وأنشد النبي ﷺ شعراً فأعجب به وقال له: لا يفضض الله فاك، ولقد أتت عليه مائة سنة أو نحوها وما نقص من فيه سن، وكان ممن فكر في الجاهلية فأنكر الخمر والميسر، وسمي النابغة لأنه أقام مدة لا يقول الشعر ثم نبغ فقاله، وقيل أقام ثلاثين سنة لا يتكلم ثم تكلم بالشعر وقيل كان قديماً شاعرا مفلقاً طويل البقاء في الجاهلية والإسلام. والشعر الذي أورده الجاحظ له شعر قاله النابغة يخاطب به عقال بن خويلد العقيلي يحذره غب الظلم لما أجار بنو وائل بن معن الباهليين وكانوا قتلوا رجلاً من بني جعدة. فحذرهم مثل حرب البسوس إن أقاموا على مثل ذلك فيهم. (الحماسة شرح التبريزي ١/٣٥٢-٣٨٦، الأغاني مجلد ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٧).

(٣) في نوادر أبي زيد ١٥١ إن قائل الشعر هو بشير بن أبي العبسي.

(٤) العاند: العرق يسيل فلا يرقأ. وفي (ط): «عائذها» وهو تحريف وفي (ل): «عن عرض» وفي النوادر: «يعيا فتقها»، قال: أراد يعيا بفتقها. وينتهي الجزء الأول من النسخة (ل). وتستمر المقابلة على النسخة س وبقية النسخ الأخرى.

أين هي؟ وعلى أي سمة هي؟ قال: تسترك عنها هذه الأكمة. قال: لا أراني أميرا إلا على موضع تسترني منه أكمة، أهون علي بها ولاية؟! وكر راجعًا. فقيل في المثل: «أهون من تبالة على الحجاج» والعامة تقول: لهو أهون علي من الأعراب على عركوك.

ولما حضرت الحجاج الوفاة وقد ولي قبل ذلك ما ولي وافتتح ما افتتح وقتل من قتل قال للمنجم: هل ترى ملكًا يموت؟ قال: نعم ولست به، أرى ملكًا يموت اسمه كليب وأنت اسمك الحجاج. قال: والله كانت أمي سمتني كليبًا وأنا صبي. فمات.

والعرب إنما كانت تسمي بكلب، وحمار، وحجر، وجعل، وحنظلة، وقرد، على التفاؤل بذلك. وكان الرجل إذا ولد له ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل، فإن سمع إنسانًا يقول حجرًا أو رأى[1] حجرًا سمى ابنه به وتأول[2] فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وإنه يحطم ما لقي. وكذلك إن سمع إنسانًا يقول ذئبًا أو رأى ذئبًا تأول فيه الفطنة والخبث[3] والمكر والكسب. وإن كان حمارًا تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد. وإن كان كلبًا تأول فيه الحراسة واليقظة، وبعد الصوت والكسب وغير ذلك.

وكذلك صور عبيدالله [بن زياد] في دهليزه كلبًا وكبشًا وأسدًا وقال: كلب نابح وكبش ناطح وأسد كالح. فتطير إلى ذلك فطارت عليه.

وترك الناس مما كان مستعملاً في الجاهلية أمورًا كثيرة فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة، [وكقولهم الأكذبان][4]، وكتسميتهم[5] للرشوة ولما يأخذه السلطان: الحملان والمكس.

---

(١) في الأصل: «ورأى».

(٢) هكذا بالمخطوطة. (ط): (هـ): «وتفاءل» والأنسب ما بالمخطوطة بدليل الفعل المتعدي «تأول» والمنقول المذكور «الشدة» إذ لو كانت الكلمة «تفاءل» كان لا بد من دخول حرف الجر مع المفعول ليتعدى الفعل به ويصبح المفعول «بالشدة».

(٣) (هـ): «الخب» موضع «الخبث».

(٤) سقط من (هـ).

(٥) (هـ)، (ط): «وكقولهم» موضع «وكتسميتهم».

وكما تركوا أنعم صباحًا، وأنعم ظلامًا، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم؟ وكيف أمسيتم؟

وكما تركوا أن يقولوا للملك أو السيد المطاع: أبيت اللعن، وكان حذيفة ابن بدر[1] يحيا بتحية الملوك ويقال له: أبيت اللعن. وتركوا ذلك في الإسلام من غير أن يكون كفرًا.

وقد ترك العبد أن يقول للمولى[2]: ربي، كما يقال رب الدار، ورب البيت. وكذلك حاشية السيد والملك تركوا أن يقولوا ربنا. كما قال الحارث بن حلزة[3].

ربنا وابننا وأفضل من يمـ ـشي ومن دون ما لديه الثناء

[أي: الثناء عليه لا يقوم بمعروفه وفضله. يريد أن الثناء يقل عندما يأتيه من كثرة الفضل].[4]

وكما تركوا: أن يقولوا لقوام البيت[5] السدنة وقالوا الحجبة[6].

ولما أنشد أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب[7] شعر الأسدي:

ومركضة صريحي أبوها تهان لها الغلامة والغلام[8]

قال: فقلت له: فتقول: للجارية غلامة؟ قال: لا، هذا من الكلام المتروك [ابن الأنباري: مركضة بكسر الميم: سريعة، وبضمها التي تتحرك

---

(١) حذيفة بن بدر رجل يضرب به المثل في سرعة السير. كان في عصر المنذر بن ماء السماء (في الجاهلية) قيل: سار في ليلة مسيرة ثماني ليال. فضرب به المثل. الأعلام ٢/١٨٠، ثمار القلوب ١١١.

(٢) (هـ): «السيدة» موضع «للمولى».

(٣) سبقت ترجمته ص ١٦٣، ١٩٥.

(٤) هذا في المخطوطة لابن منظور فقط وبقية النسخ خلت من هذا الجزء اللوحة ٧٥/ ١س٧.

(٥) (هـ)، (ط): «الملوك» بدل «البيت».

(٦) في الأصل: «بالسدنة وقالوا الجحية» وهو تحريف.

(٧) في الأصل: «عن أبي عبد الرحمن بن يذلي» وكلمة «ابن» مقحمة، لأن أبا عبدالرحمن كنية يونس ابن حبيب كما في بغية الوعاة ٣٩٥ وقد أخذ عنه أبو عبيدة كما في البغية ٣٩٥. توفي يونس سنة ١٨٢هـ عن ثمان وثمانين سنة.

(٨) الجوهري: الصريح: اسم فحل منجب. وأنشد هذا البيت.

وحدها في بطنها][1] وأسماؤه زالت مع زوال معانيها، كالمرباع والنشيطة، والمرباع: ربع الغنيمة الذي كان خالصًا للرئيس وصار في الإسلام الخمس، على ما سنه الله. وأما النشيطة فإنه كان للرئيس أن ينشط عند قسمة المتاع العلق النفيس يراه إذا استحلاه. وهي[2] الصفي وكان لرسول ﷺ من كل مغنم وهو كالسيف الهزام[3] والفرس العتيق، والدروع الحصينة، والشيء النادر.

[وقال الأصمعي: النشيطة في الغنيمة ما أصاب الرئيس قبل أن يصل إلى بيضة القوم][4].

قال ابن عنمة الضبي[5] حليف بني شيبان، في مرثيته بسطام بن قيس:[6]

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول[7]

والفضول: فضول المقاسم، كالشيء إذا قسم [وفضلت فضلة][8] استهلكت كاللؤلؤة، والسيف والدرع، والبيضة، والجارية، وأشباه ذلك.

وأسماء حدثت ولم تكن، وإنما اشتقت لهم من أسماء متقدمة، على

---

(١) شرح وتفسير لابن منظور صاحب المختصر.

(٢) (هـ) (ط): (وبقي)، موضع (هي).

(٣) كذا في (س). (ط)، (هـ): (اللهذم) وهما بمعنى.

(٤) سقط هذا الجزء من (هـ).

(٥) (ط): (ابن عتمة) وصوابه هنا كما في (ش). وابن عنمة هو عبدالله، وهو من شهد القادسية. والبيت من أبيات ثمانية رواها أبو تمام في ١/ ٤٢٠. وفيها أيضًا «هذا الشعر قاله في فضل بسطام ابن قيس وقد قتله عاصم بن خليفة الضبي وكان ابن عنمة مجاورا في بني شيبان فخاف على نفسه منهم فرثاه بهذه الأبيات يستميل بها بني شيبان».

(٦) هو بسطام بن قيس مسعود الشيباني، أبو الصهباء: سيد شيبان ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية، يضرب به المثل في الفروسية، أدرك الإسلام ولم يسلم. قتله عاصم بن خليفة (يوم السقيفة) بعد البعثة النبوية توفي نحو سنة ١٠ ق.هـ. الأعلام ٢/ ٢٤، الكامل للمبرد ١/ ١٠٩ الكامل لابن الأثير ١/ ٢٢٤.

(٧) المرباع: الربع ومثله ربع أخذ الغنيمة. وفي الحديث: (ألم أجعلك تربع) أي تأخذ المرباع. الصفايا: جمع صفية وكذلك الصفي وهو ما يصطفيه الرئيس من المغنم لنفسه قبل القسمة.

(٨) زدتها في الموضع من بقية النسخ.

التشبيه، مثل قولهم لمن أدرك الجاهلية والإسلام مخضرم كأبي رجاء العطاردي[1] وشقيق بن سالمة، ومن الشعراء النابغة الجعدي[2]. وابن مقبل، وأشباههم من الفقهاء والشعراء. ويدل على أن هذا الاسم أحدث في الإسلام أنهم في الجاهلية لم يكونوا يعلمون أن ناسًا يسلمون وقد أدركوا الجاهلية، ولا كانوا يعلمون أن الإسلام يكون.

ويقال إن أول من سمى الأرض التي لم تحفر قط ولم تحرث إذا فعل ذلك بها مظلومة، النابغة حيث يقول:

إلاَّ الأواريّ لأيـاً ما أبيـنهـا والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

ومنه قيل سقاء مظلوم إذا أعجل عليه قبل إدراكه.

والظلم على ثلاثة أوجه: يكون وضع الشيء في غير موضعه، ويكون بمعنى الإغضان كقوله تعالى ﴿**كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا**﴾[3] ويكون بمعنى الجحود كقوله تعالى: ﴿**وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها**﴾[4] [أي جحدوا][5].

وقول الآخر:

لا يـظلمـون إذا ضيفـوا وطـابهـم وهـم لجـودهـم في جـزرهـم ظـلم

وظلمهم للجزر: أن يعرقبوها، وكان في الحق أن تنحر نحراً، وظلمهم لها أن ينحروها صحاحًا سمانًا لا علة بها.

ومن ذلك قولهم: الحرب غشوم، وإنما سميت بهذا الاسم لأنها تنال غير الجاني ومن ذلك قولهم «من أشبه أباه فما ظلم»، يقول قد وضع الشبه في موضعه.

ومن المشتق المحدث، اسم منافق راءى بالإسلام واستر الكفر أخذ ذلك

---

(١) هو عمران بن ملحان أو ابن تيم، وله ترجمة في الإصابة.
(٢) سبقت ترجمته ص ٣٢٤.
(٣) سورة الكهف، الآية ٣٣ ـ مكية.
(٤) سورة الإسراء، الآية ٥٩ ـ مكية.
(٥) ما بين المعكفين سقط من (هـ) في هذا الموضع.

من النافقاء والقاصعاء والداماء[1]، ومثل المشرك والكافر، ومثل التيمم. قال الله عز وجل: ﴿**فتيمموا صعيدًا طيبًا**﴾[2] أي تحروا وتوخوه. وقال: ﴿**فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه**﴾[3]. فكثر هذا في الكلام حتى صار التيمم هو المسح نفسه. وكذلك عادتهم وصنيعهم في الشيء إذا طالت صحبته للشيء وملابسته له[4].

وكما سموا رجيع الإنسان الغائط، وإنما الغيطان البطون التي كانوا ينحدرون فيها إذا أرادوا قضاء الحاجة للستر.

ومنه العذرة، وإنما العذرة الفناء، والأفنية هي العذرات، ولكن لما طال إلقاؤهم النجو والزبل في أفنيتهم، سميت تلك الأشياء التي رموا بها، باسم المكان الذي رميت به. وفي الحديث: «أنقوا عذراتكم» وقال ابن الرقيات:

رحم الله أعظما دفنوها بسجستان طلحة الطلحات[5]
كان لا يحجب الصديق ولا يعتل بالبخل طيب العذرات

ومنه النجو: وذلك أن الرجل كان إذا أراد قضاء الحاجة تستر بنجوة.

والنجو: الارتفاع من الأرض، فقالوا من ذلك: ذهب ينجو، كما قالوا: ذهب يتغوط إذا ذهب إلى الغائط لذلك الأمر، ثم اشتقوا منه فقالوا إذا غسل موضع النجو قد استنجى وقالوا: ذهب إلى المخرج وإلى المتوضأ، وإلى المذهب، وإلى الخلاء، وإلى الحش، وإنما الحش القطعة من النخل[6]، وهي

---

(١) هي من أسماء جحرة اليربوع السبع، أنظر اللسان «دمم».
(٢) سورة المائدة، الآية ٦ ـ مدنية.
(٣) سورة المائدة، الآية ٦ ـ مدنية.
(٤) كذا في الأصل. (ط) (هـ): «صحبتهم وملابستهم له».
(٥) هو طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعي: أحد الأجواد المقدمين. كان أجود أهل البصرة في زمانه. ذهبت عينه بسمرقند، وكان يميل إلى بني أمية، فيكرمونه، وولاه زياد بن سلمة على سجستان، فتوفي فيها واليًا نحو سنة ٦٥هـ. (الأعلام ٣/٣٣١، خزانة البغدادي ٣/٣٩٤ ـ ٣٩٥).
(٦) بالمخطوطة (من الأرض) وأثبت ما في (ط) و(هـ) لأنه الوجه بدليل ما يأتي بعده من شرح.

الحشان. [والحشان النخل][1] وكانوا بالمدينة إذا أرادوا قضاء الحاجة دخلوا النخل، لأن ذلك أستر، فسموا المتوضأ الحش، وإن كان بعيدًا من النخل.

ومن هذا الباب الملة، والملة موضع الخبرة باسم موضعها وهذا عند الأصمعي خطأ. ومن هذا الشكل الراوية[2]، والراوية[3] هو الجمل نفسه، وهو حامل المزادة فسميت المزادة باسم حامل المزادة. ولهذا المعنى سموا حامل الشعر والحديث راوية.

ومنه قولهم: ساق إلى المرأة صداقها. وإنما كان يقال ذلك حين كانوا يدفعون في الصداق ابلا، وتلك الإبل يقال لها النافجة.

وإذا كانوا يدفعون الصداق عينًا وورقًا فلا يقال ساق لها الصداق ومن ذلك أنهم كانوا يضربون على العروس البناء، كالقبة والخيمة، على قدر الإمكان، فيقال بنى عليها، اشتقاقًا من البناء ولا يقال ذلك اليوم. والعروس اما أن تكون مقيمة في مكانها أو تتحول إلى مكان أقدم من بنائها.

ومن ذلك قولهم في البغي والمتكسبة بالفجور: قحبة، وإنما القحاب السعال. وكانوا إذا أرادوا الكناية عن ذلك وعن من تكسبت بالزنى، قالوا: قحبت أي سعلت.

وكلمات للنبي ﷺ لم يتقدمه فيها أحد: من ذلك قوله: «إذا لا ينتطح فيها عنزان». وكذلك: «مات حتف أنفه». ومن ذلك: «يا خيل الله اركبي». وقوله «هدنة على دخن»[4] وقوله: «كل الصيد في جوف الفرا» وقوله: «لا يلسع المؤمن من جحر مرتين».

وقال عمر: (شنشنة أعرفها من أخزم) يعني شبه ابن العباس بالعباس. وأخزم: فحل معروف بالكرم.

---

(١) لابن منظور.
(٢) وردت الكلمة بالمخطوطة: (الرواية) وأثبت الصحيح.
(٣) سقط هذا الجزء من (هـ).
(٤) المخطوطة (د) (ط): (ولا يقال) وأثبت الصواب كما في (ل).

وأما الكلام الذي جاءت كراهيته من طريق الروايات. فجاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا يقولن أحدكم خبثت نفسي ولكن ليقل لقست) كأنه ﷺ كره أن يضيف المؤمن الطاهر إلى نفسه الخبث بوجه من الوجوه.

وجاء عن عمر ومجاهد وغيرهما النهي عن قول القائل: استأثر الله بفلان، بل يقال مات فلان. ويقال استأثر الله بعلم الغيب واستأثر الله بكذا وكذا.

قال النخعي: كانوا يكرهون أن يقولوا: قراءة عبدالله، وقراءة سالم، وقراءة أبي، وقراءة زيد وكانوا يكرهون أن يقال سنة الله وسنة رسول الله.

وكره مجاهد أن يقال مسيجد ومصيحف للمسجد القليل الذرع، والمصحف القليل الورق. وهم إن كانوا لم يريدوا التصغير [والتحقير][1] فإنه بذلك شبيه.

وربما صغروا الشيء من طريق الرقة والشفقة، كقول عمر: أخاف على هذا العريب. ولم يرد التصغير بهم. ويقول الرجل: فلان أخيي وصديقي، وليس التصغير يريد به. وذكر عمر بن مسعود فقال: كنيف ملئ علمًا[2] وقال سلمة بن سلامة[3] يوم السقيفة: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب، وهو[4] كقول النبي ﷺ لعائشة: الحميراء، وكقولهم لأبي قابوس الملك: أبو قبيس. وكقولهم: دبت اليه دويهية الدهر، وذلك إذا أرادوا لطافة المدخل ودقة المسلك.

ويقال إن كل فعيل في أسماء العرب فإنما هو على هذا المعنى، كقولهم المعيدي، وكنحو سليم وضمير، وكليب، وعقير، وسعيد، وجبير، وطريق التصغير والتحقير إنما هو كقولهم، نجيل ونذيل قال: ورب اسم إذا صغرته صار أملأ للصدر، مثل قولك أبو عبيدالله، هو أكبر في السماع من أبي عبدالله،

(١) سقطت الكلمة من (هـ).
(٢) كنيف: تصغير كنف بالكسر، بمعنى الوعاء.
(٣) كذا بالأصل وقائل القول هو الحباب بن المنذر كما هو معروف، وكما كتبه الجاحظ في البيان ٢٩٦/٣ في حديث يوم السقيفة، وانظر تاريخ الخضري ٢٥٣/١.
(٤) (هـ): «وهذا» موضع «وهو».

وكعب بن جعيل أفخم من كعب بن جعل وربما كان التصغير بنية وخلقة، لا يتغير، كنحو الحميا والسكيت، وجنيدة، وغيرها. وليس هذا كقولهم القصيري، وفي كبيدات السماء وكالثريا.

وقال علي بن أبي طالب(١) دققت الباب على رسول الله ﷺ فقال: من هذا؟ فقلت أنا. فقال: أنا كأنه كره قولي أنا. وقال عمر بن الخطاب: لا يقولن أحدكم أهريق الماء ولكن يقول أبول. وسأل عمر رجلاً عن شيء فقال: الله أعلم. فقال عمر قد خزينا إن كنا لا نعلم أن الله أعلم إذا سئل أحدكم عن شيء فإن كان يعلمه قاله، وإن لم يعلمه قال لا علم لي بذلك.

وسمع عمر رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين قال: ما هذا الدعاء قال: إني سمعت الله عز وجل يقول: ﴿**وقليل من عبادي الشكور**﴾(٢).

وقال: ﴿**وما آمن معه إلا قليل**﴾(٣). قال عمر: عليك من الدعاء بما يعرف.

وقال النبي ﷺ: «لا يقولن أحدكم لمملوكه عبدي وأمتي، ولكن يقول: فتاي وفتاتي، ولا يقول المملوك ربي وربتي، ولكن يقول سيدي وسيدتي».

وكره مطرف بن عبدالله(٤)، قول القائل للكلب اللهم أخزه.

---

(١) علي بن أبي طالب أمير المؤمنين الخليفة بعد سيدنا عثمان بن عفان، ابن عم الرسول ﷺ أخباره رضي الله عنه كثيرة وفضائله شهيرة، وكان أول من وضع النحو وسن العربية، وذلك أنه مر برجل يقرأ «وأن الله بريء من المشركين ورسوله» «بالكسر في الكلام (رسوله)، فوضع النحو ألقاه إلى أبي الأسود الدؤلي، وقيل لم يؤثر عنه غير بيتين من الشعر هما:

تلكم قريش تمناني لتقتلني ... ولا وجدك ما بروا ولا ظفروا

فإن هلكت فرهن ذمتي لهم ... بذات روقين لا يعفو لها أثر

وذات روقين، وذات ورقين: إذا كانت داهية عظيمة. معجم الأدباء ٤١/١٤.

(٢) سورة سبأ، الآية ١٣ ـ مكية

(٣) سورة هود، الآية ٤٠ ـ مكية.

(٤) هو مطرف بن عبدالله بن الشخير العامري. أبو عبدالله: زاهد من كبار التابعين، له كلمات في الحكمة مأثورة، وأخبار، ثقة فيما رواه من الحديث، ولد في حياة النبي ﷺ ثم كانت إقامته ووفاته في البصرة توفي سنة ٨٧هـ، أنظر (الأعلام ١٥٤/٨ للزركلي، حلية الأولياء ١٩٨/٢، رغبة الأمل ٦٨/٣، ووفيات الأعيان ٩٧/٢).

وقد كره السلف أشياء كثيرة لا تعرف وجوهها، ونرى أصحابنا يقلدونهم[١] فيها ولا نستطيع الرد عليهم، ولو كانوا يردون الأمور مع عللها وبرهاناتها خفت المؤنة، ولكن أكثر الروايات مجردة وقد اقتصروا على ظاهر اللفظ دون حكاية العلة.

قال ابن مسعود وأبو هريرة: (لا تسموا العنب الكرم، فإن الكرم هو الرجل المسلم). وقد رفعوا ذلك إلى النبي ﷺ.

وأما قوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»[٢] فما أحسن ما فسر ذلك عبد الرحمن بن مهدي[٣] قال: وجه هذا، أن القوم قالوا: **﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾**[٤] فلما قال القوم ذلك، قال النبي ﷺ: «ذلك يعني أن الذي أهلك القرون هو الله عز وجل».

فتوهم متوهم أنه إنما أوقع الكلام على الدهر.

وكما غلطوا في قول النبي ﷺ لحسان[٥]: (قل ومعك روح القدس) فقالوا: معناه ومعك جبريل، لأن روح القدس من أسماء جبريل عليه الصلاة والسلام[٦]. ألا ترى أن موسى [صلى الله على نبينا وعليه وسلم][٧] قال: (ليت أن روح الله مع كل أحد) يريد العصمة والتوفيق، وقال الله عز وجل: **﴿وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا﴾**[٨] يعني القرآن.

وسمع الحسن رجلاً يقول: طلع سهيل وبرد الليل. فكره ذلك وقال:

---

(١) (ط): «فرأي أصحابنا: لا يكرهونها» وكذا في (هـ).

(٢) (هـ): «فإن الدهر هو الله».

(٣) هو أبو سعيد عبدالرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري، من أئمة حفاظ الحديث. قال الشافعي: لا أعرف له نظيرًا في الدنيا. توفي بالبصرة ١٩٨هـ.

(٤) سورة الجاثية، الآية ٢٤ ـ مكية

(٥) سبقت ترجمته ص ٢٩٦.

(٦) بالمخطوطة (و) سقط من (هـ).

(٧) زيادة لابن منظور.

(٨) سورة الشورى الآية ٥٢ مكية.

إن سهيلاً لم يأتِ بحر ولا·ببرد قط. ولهذا الكلام مجاز ومذهب. وقد كرهه الحسن.

وكره أنس بن مالك قول الرجل للغيم والسحابة: ما أخلقها للمطر وهذا كلام مجاز. وكان كراهية أنس له من خوفهم عليهم العود في شيء من أمور الجاهلية، احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم الكلام الذي فيه أدنى متعلق.

وروي عن ابن عباس قال: لا تقولوا والذي خاتمه على فمي، فإنما يختم الله على فم الكافر. وكره قولهم: قوس قزح. وقال: قزح هو شيطان، وإنما ذهبوا إلى التعريج[1] والتلوين، كأنه كره ما كانوا عليه من عادات الجاهلية. وكأنه أحب أن يقال: قوس الله، فيرفع من قدره، كما قالوا بيت الله وزوار بيت الله.

وقالت عائشة رضي الله عنها: قولوا لرسول الله خاتم الأنبياء، ولا تقولوا: لا نبي بعده. فإلاَّ تكن ذهبت إلى نزول المسيح عليه السلام فما أعرف له وجها إلا أن تكون قالت لا تغيروا ما سمعتم، وقولوا كما قيل لكم تتقوا[2].

وكره ابن عمر قول القائل: أسلمت في كذا وكذا، وقال ليس الإسلام إلا الله[3].

وكره ابن عباس قول القائل: أنا كسلان.

وقال ابن عمر: لا تسموا الطريق السكة.

وكره أبو العالية قول القائل: كنت في جنازة، وقال: قل تبعت جنازة. [كأنه ذهب إلى أنه كان في جوفها][4]، والناس لا يريدون هذا، وهذا شبيه بقول من كره أن يقال: أعطاني فلان نصف درهم. وقال: إذا قيل[5]: كيف

---

(١) كانت الكلمة (التقريج) ثم عاد ابن منظور وصححها في الهامش على (التعريج). اللوحة ٢/٧٨.

(٢) (ط): «والفظوا بمثله سواء» موضع «تتقوا».

(٣) المخطوطة والأصل: «الله». وأصلحت كما جاء في (ط).

(٤) المخطوطة: «حزنها» وليس بشيء. (هـ): «كأنه ذهب إلى أنه عنى أنه كان في جوفها».

(٥) (هـ): «إذا قلت» موضع «إذا قيل».

تكيل الدقيق؟ فليس جوابه أن تقول: القفيز بدينار[1]، ولكن يتناول القفيز ثم يكيل فيه[2] الدقيق، وهذا من القول مسخوط!

وكره ابن عباس قول القائل: قد انصرفوا من الصلاة، وقال: بل قولوا: قد قضوا الصلاة وفرغوا من الصلاة، وقد صلوا، لقوله: ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾[3].

وكره حبيب بن أبي ثابت، أن يقال للحائض طامث، وكان أبو اسحق[4] يقول: لا تسترسلوا إلى كثير من المفسرين، فإن كثيرًا منهم يقول بغير رواية وعلى غير أساس، وكلما كان التفسير عندهم أغرب كان أحب إليهم، وكيف أثق بتفسير قوم[5]، وقد قالوا في قوله عز وجل: ﴿وأن المساجد لله﴾[6]: إن الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التي نصلي فيها بل إنما عنى الحياة وكل ما سجد الناس عليه: من يد ورجل وجبهة وأنف.

وقالوا في قوله عز وجل: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[7]: إنه ليس يعني الجمال والنوق وإنما يعني السحاب.

وسئلوا عن قوله تعالى: ﴿وطلح منضود﴾[8] قالوا: الطلح هو الموز. [ولا يعرف الطلح إلا للطلح المعروف][9].

---

(١) (ط): «بدنينير» بالتصغير.

(٢) (هـ): «به» موضع «فيه».

(٣) سورة التوبة، الآية ١٢٧ ـ مدنية.

(٤) هو ابراهيم بن سيار بن هانئ البصري أبو اسحق النظام، من أئمة المعتزلة، تبحر في علوم الفلسفة واطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين والهيين، تابعه فرقة من المعتزلة سميت «بالنظامية» أما شهرته بالنظام فأتباعه يقولون إنها من إجادته نظم الكلام وخصومه يقولون إنه كان ينظم الخرز في سوق البصرة. ألفت حوله كتب كثيرة وهو أستاذ الجاحظ. توفي سنة ٢٣١هـ. (الأعلام ٣٦/١ تاريخ بغداد ٩٧/٦، أمالي المرتضى ١٣٢/١).

(٥) كذا في الأصل (ط): «بتفسيرهم».

(٦) سورة الجن، الآية ١٨ ـ مكية

(٧) سورة الغاشية، الآية ١٧ ـ مكية

(٨) سورة الواقعة، الآية ٢٩ ـ مكية

(٩) سقط من (هـ)، (ط).

وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان كان فرضًا على جميع الأمم وأن الناس غيروه قوله عز وجل: ﴿**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**﴾[١].

وقالوا في قوله عز وجل: ﴿**لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا**﴾[٢] قالوا: حشره بلا حجة.

[وعلى رأيهم: أن البصير ذو حجة فكيف يجوز أن يكون مدة حياته ذا حجة ثم يحشر بلا حجة][٣].

وقوله تعالى: ﴿**ويل للمطففين**﴾[٤]: قالوا الويل: واد في جهنم. ثم وصفوا ذلك الوادي، ومعنى الويل في كلام العرب معروف في الجاهلية قبل الإسلام وهو من أشهر كلامهم.

وسئلوا عن: ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾[٥] قالوا: الفلق: واد في جهنم، وقعدوا يصفونه. وقال آخرون: الفلق: المقطرة[٦] بلغة اليمن.

[قال الخليل: المقطرة خشبة فيها خروق، ويحبس فيها أهل الجزاء برجل واحد أو كلهم في خروق الخشبة][٧].

وقالوا في قوله تعالى: ﴿**عينا فيها تسمى سلسبيلا**﴾[٨] قالوا: أخطأ من وصل هذه الكلمة ببعض، إنما هي سل سبيلاً إليها يا محمد. فإن كان كما قالوا فأين معنى تسمى، وعلى أي شيء وقع قوله تسمى.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٣ ـ مدنية.
(٢) سورة طه، الآية ١٢٥ ـ مكية.
(٣) ما بين المعقفين سقط حدث في (هـ).
(٤) سورة المطففين، الآية ١ ـ مكية.
(٥) سورة الفلق، الآية ١ ـ مكية.
(٦) المقطرة: المجمرة، خشبة فيها خروق على قدر سعة رجل المحبوسين، انظر القاموس وفي هامش اللوحة ٢/٧٩ كتب ابن منظور «في الجاهلية قبل الإسلام وهو من أشهر كلامهم» بعد قول الجاحظ: «قالوا: الفلق واد في جهنم وقعدوا».
(٧) سقط هذا الجزء من (هـ).
(٨) سورة الانسان، الآية ١٨ ـ مدنية.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا**﴾[1] قالوا الجلود كناية عن الفروج. كأنه كان لا يرى أن كلام الجلد من أعجب العجب.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿**كانا يأكلان الطعام**﴾ [2]: إنه كناية عن الغائط. كأنه لا يرى أن في الجوع وما ينال أهله من الذل والعجز والفاقة وأنه ليس في الحاجة إلى الغذاء ما يكتفى به في الدلالة على أنهما مخلوقان، حتى يدعي على الكلام ويدعي له شيئا أغناه عنه.

وقوله تعالى: ﴿**وثيابك فطهر**﴾[3] إنه إنما عنى قلبه.

وقال رجل لعبيدالله بن الحسن[4] إن أبي أوصى بثلث ماله في الحصون. قال: إذهب فاشتر به خيلاً فقال الرجل: إنه إنما ذكر الحصون: قال: أما سمعت قول الأسمر الجعفي:

ولقد علمت على تجنبي الردى[5] أن الحصون الخيل لا مدرُ القرى

قال النوشراني[6]: قلت للحسن القاضي: أوصى جدي بثلث ماله لأولاده وأنا من أولاده. قال ليس لك شيء، قلت: ولم؟ قال: أوما سمعت قول الشاعر[7]:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

قال: فشكوت ذلك إلى فلان فزادني شرا.

---

(١) سورة فصلت، الآية ٢١ ـ مكية.

(٢) سورة المائدة، الآية ٧٥ ـ مدنية.

(٣) سورة المدثر، الآية ٤ ـ مكية.

(٤) هو عبيدالله بن الحسن بن حسين العنبري قاض من الفقهاء العلماء بالحديث من أهل البصرة وتوفي بها سنة ١٦٨هـ.

(٥) في (ط): «الورى» وهو تحريف ما هنا و(ش).

(٦) (هـ): «النوشرواني».

(٧) مع كثرة الاستشهاد بهذا البيت في كتب العربية وفي كتب العروض لم يعرف له قائل، كما صرح بذلك العيني، والسيوطي في شرح شواهد المغني ٢٨٧. لكن البغدادي في الخزانة ٤٠٢/١ قد نقل عن الكرماني أن قائله هو الفرزدق.

وقالوا في قوله: ما ساءك وناءك: ناءك أبعدك. وساءك[1] أبرصك. قال: لقوله تعالى: ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾[2]. وبئس التكلف.

وقال الله عز وجل يخبر عن نبيه ﷺ: ﴿وما أنا من المتكلفين﴾[3]. وليس يؤتى القوم إلا من الطمع، ومن شدة إعجابهم بالغريب من التأويل.

قالوا: إن من الأسماء المحدثة التي قامت مقام الأسماء الجاهلية قولهم لمن لم يحج: صرورة. وأنت إذا قرأت أشعار الجاهلية وجدته على خلافه. قال ابن مقروم الضبي:[4].

لـو أنها عـرضت لأشمط راهـب عـبـد الإلـه صرورة متـبـتـل
لـدنـا لبهجتهـا وحسن حـديثهـا ولهـم مـن تـامـوره بـتـنـزل

فالصرورة عندهم إذا كان أرفع الناس في مراتب العبادة وهو اليوم اسم للذي لم يحج اما لعجز، وإما لتضييع، أو لإنكار[5].

وإذا كان للعرب أن يشتقوا كلامًا من كلامهم وأسماء من أسمائهم، واللغة عارية في أيديهم ممن خلقهم ومكنهم وألهمهم وعلمهم، وكان ذلك منهم صوابًا عند جميع الناس، فالذي أعارهم هذه النعمة أحق بالاشتقاق وأوجب طاعة. كما كان له أن يبتدئ الأسماء فلذلك له أن يبتدئها متى[6] أحب. قد سمى كتابه المنزل قرآنا، وجعل السجود للشمس كفرًا، ولا يكون السجود لها كفرًا إلا وترك ذلك السجود بعينه إيمانًا، والترك للشيء لا يكون إلا بالجارحة التي[7] كان بها الشيء، وفي مقداره من الزمان وتكون بدلاً منه وعقبًا. فواحدة أن يسمى السجود كفرًا،

---

(١) (ط): «ما ساءك وناءك» والصواب ما هنا كما في (ش). وفي (ط): «برصك» وصوابه ما هنا كما في (ش).

(٢) سورة طه مكية الآية ٢٢.

(٣) سورة ص مكية. الآية ٨٦.

(٤) هو: ربيعة بن مقروم بن قيس الضبي من مخضرمي الجاهلية والإسلام وهو من شعراء الحماسة وشهد وقعة القادسية سنة ١٦ وتوفي نحو سنة ٢٠.

(٥) في الأصل: «وأما الإنكار» وفي (ط)، (هـ): «وأما لانكار».

(٦) (هـ)، (ط): «مما» موضع «متى».

(٧) في الأصل: «حتى».

وإذا كان كفرًا كان جحودًا، وإذا كان جحودًا كان شركًا، والسجود ليس يجمد والجحد ليس بإشراك إلا أن تصرفه إلى الذي يصير به إشراكًا، [والأحمر يروي في هذا بيت شعر جاهلي، أو مثلاً سائرًا وأخرى أنه قد صار في هذا القياس عمل الجبهة إيمانًا وإذا كان إيمانًا كان توحيدًا وإخلاصًا، وهذا من المشتق، وترك الخضوع إليه بالقلب كفرًا وليس جحدًا ولا إنكارًا، وهم لا يصيبون في اللغة العربية والأشعار الفصيحة إيمانًا ليس بإقرار وإقرارًا ليس من عمل اللسان، على أن أشعار الإسلام والأمثال السائرة فيها والأمثال الكاذبة بعد الجاهلية تربى في العدد على ما كان في الجاهلية كلها][1]

[والنباح والعواء يقع في مواضع مختلفة، ويكون من أجناس مختلفة وكلها مشتقة من نباح الكلب وعوائه][2]. يقال: الكلب يعوي، والفصيل يعوي، والذئب يعوي. كما يقال: الكلب ينبح والهدهد ينبح، ويقال للظبي إذا أسن: إنه ينبح ويقال للشاعر ينبح وللحيات تنبح.

[وينبت لقرونه شعب][3].

قال الحكم بن عبدل[4]:

آليت إذ آليت مجتهدا ورفعت صوتًا ما به بحح
لا يدرك الشعراء منزلتي في الشعر إن سكتوا وإن نبحوا

وقال أبو ذؤيب[5]:

---

(١) هذا السقط الكبير - (الذي بين المعقفين) - حدث في جميع النسخ.

(٢) سقط آخر حدث في جميع النسخ.

(٣) هذه الجملة التي بين المعقفين كتبها ابن منظور على يمين اللوحة ١/٨١ دون أن يشير إلى موضعها بخط أو ما شابه ذلك، وكتبت بمحاذاة: «وللحيات تنبح» فأثبتها هنا. وهذه الجملة ذكرت بعد: «ويقال للظبي إذا أسن» في بقية النسخ.

(٤) هو: ابن جيلة بن عمرو أحد بني أسد بن خذيمة شاعر إسلامي مجيد متقدم في طبقته خبيث اللسان من شعراء الدولة الأموية وكان أعرج أحدب لا تفارقه عصاه، ولما كبرت سنه ترك الوقوف بأبواب الملوك، فكان يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسله، فلا يحبس له رسول، ولا تؤخر له حاجة. أنظر ٤٦/٢ حماسة أبي تمام.

(٥) هو: خويلد بن خالد جاهلي إسلامي وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي وخرج مع عبدالله بن الزبير في مغزى نحو المغرب فمات. فواراه عبدالله بن الزبير في حفرته. وفي الأغاني أنه مات =

ولا هـرهـا كلبي ليبعـد تعرهـا[1] ولـو نبحـتني بـالـشكـاة كـلابهـا

قال الأصمعي: إذا كان الرجل ضخم الصوت قيل: نبح ينبح نبحًا، والنبوح: أصوات جماعة الحي بما فيها من كل صوت. والبعير يشيب وجهه من أكل الحمض.

وقد تصير الناقة الحمراء إذا أتمت حبشية. وكذلك تصير الفرس إذا ألقت شعرها وطرث، تستديل هذا اللون.

وقال خالد بن الصقعب النهدي[2] [في نباح الهدهد][3].

هبـطنـا بعـد عهـدك بـطن خبت تـظل حمـامـه مـثـل الخـصـوم
كـأن عـريـن أيكـتـه تـلاقـى بـه جمـعـان مـن نـبط وروم[4]
نـبـاح الهـدهـد الحـولي فـيـه كـنبـح الـكلب في الأنس المقيـم[5]

وربما جعلوا الهدهد الذي ينبح، الحمام الذكر. وقال بعض العلماء: كلاب الحي شعراؤهم الذين ينبحون دونهم ويحمون أعراضهم. وقال آخرون: كلاب الحي كل عقور، وكل ذي عيون أربع.

وأما قوله[6]:

لعـمـرك مـا خـشيـت عـلى أبي رمـاح بـني مـقيـدة الحـمار[7]

= بمصر. وقال الجمحي: «كان أبو ذؤيب شاعرًا فحلاً لا غمزة فيه ولا وهن. وقال أبو عمرو بن العلاء: سئل حسان: من أشعر الناس؟ قال: حيا أو رجلاً؟ قال: حيا. قال أشعر الناس حياً هزيل وأشعر هزيل غير مدافع أبو ذؤيب. ابن سلام يقول (الشعر والشعراء ٢/٦٥٣، وترجمته في أول المفضلية ١٢٦ وله تراجم في الاشتقاق ١١٠ والأغاني ٦/٥٦ ـ ٦١ والأصلية ٧/٦٣ ـ ٦٤).

(١) تعر، كمنع: صاح. وفي (ط): «ثعرها» محرفة.
(٢) قصيدة هذا الشاعر رواها ابن السجري في حماسته وفسرها (٢٨٩ ـ ٢٩١).
(٣) سقط هذا من (هـ).
(٤) في الأصل: «عريك» و«تلاع» و«قبط» وتصحيحه من الحماسة.
(٥) هذه في (ط). وليس (ش).
(٦) الشعر في الحيوان (٦: ٢١٩) منسوب إلى الأسدي قاله للحارث الغساني وفي أكام المرجان ١٦ إلى «الأزدي» وفي ثمار القلوب ٥٣ إلى امرأة.
(٧) بنو مقيدة الحمار: العقارب لأنها أكثر ما تكون في الحر. اللسان (رمح، حمر).

ولكني خشيت على أبي رماح الجن أو إياك حار[1]

والطواعين عند العرب هي رماح الجن. وفي الحديث: «ان الطاعون وخز من الشيطان».

قال صاحب الكلب: قد علمنا أنكم تتبعتم على الكلب كل شيء هجي به وجعلتم ذلك دليلاً على سقوط قدره وعلى لؤم طبعه وعلى قلة غنائه وقد رأينا الشعراء هجت الأصناف كلها فلم يفلت منهم إنسان ولا سبع، ولا بهيمة ولا طائر ولا همج ولا حشرة ولا رفيع من الناس ولا وضيع، إلا أن يسلم بعض ذلك عليهم بالخمول، فكفاك بالخمول دقة ولؤمًا وقلة ونذالة.

وقال مزرد بن ضرار[2]:

وإن كناز اللحم من بكراتكم تهر عليها أمكم وتكالب
وليت الذي ألقى فناؤك رحله لتقريه بالت عليه الثعالب

فقد وضع الثعلب كما ترى بهذا المكان الذي كفاك به نذالة. وقال الفرزدق:

على حين لم أترك على الأرض حية ولا نابحًا إلا استقر عقورها
وكان نفيع إذ هجاني لأهله كباحثة عن مدية تستثيرها

فهذا قولهم في العنز ولا نعلم في الأرض أقل شرا. ولا أكثر خيرًا من شاة.

وقال الخريمي[3]:

---

(١) (ط): «رماح الحي». وتصحيحه م (س). ابن منظور في الهامش: «ما خشيت على رماح كرماح الجن وهلك في البيت الثاني.

(٢) هو مزرد بن نزار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: «فارس شاعر جاهلي أدرك الإسلام في كبره وأسلم... ويقال: اسمه «يزيد» غلبه لقبه «مزرد» وهو الأخ الأكبر «للشماخ» كان هجاء في الجاهلية خبيث اللسان، حلف لا ينزل به ضيف إلا هجاه ولا يتنكب بيته إلا هجاه. توفي نحو سنة ١٠هـ. أنظر الأعلام ١٠١/٨، الآمدي ١٩٠، المرزباني ٤٩٦ خزانة البغدادي ١١٧/٢، أسد الغابة ٣٥١/٤.

(٣) هو اسحاق بن حسان، ويكنى أبا يعقوب من العجم وكان مولى ابن خريم الذي يقال لأبيه خريم الناعم وهو خريم بن عمرو من بني مرة بن عوف بن سعد من ذبيان. وعمي أبو يعقوب الخريمي بعدما أسن. مدح منصور بن زياد كاتب البرامكة ورثاه بعد موته وكان متصلاً به (الشعر والشعراء ٨٥٣/٢، تاريخ بغداد ٣٢٦/٦، زهر الآداب ٢٠١/٤).

يـا لـلرجـال لـقـوم قـد مـللتم أرى جـواري لهم[1] إحدى البليات
ذئب رضيـع وخنـزيـر تعـارضهـا عقـارب وجنت وجنـا بـحيـات[2]
مـا ظنكـم بـأنـاس جـل كسبهـم مصرح السحت سموه الأمـانـات[3]

فهذا قولهم في العقارب والحيات و[السباع والذئاب][4].

ولما قال معبد في ذم[5] الكلب، وتلا قول الله تعالى: ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين**﴾ إلى قوله: ﴿**فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا**﴾[6] قال أبو اسحق: إن كنت إنما جعلت الكلب شر الخلق لهذه العلة، فقد قال الله عز وجل على نسق هذا الكلام.

﴿**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها**﴾ إلى قوله: ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضل**﴾[7] فالذي قال في الإبل والبقر والغنم أعظم، فأسقط من أقدارها بقدر معنى الكلام، وأدنى ذلك أن تشرك بين الجميع في الذم [والا تخص الكلب وحده بذلك][8].

قال صاحب الكلب: سنضرب مثلاً يكون بيننا عدلاً: إذا استوى القبيلان في تقادم الميلاد، ثم كان أحد الأبوين كثير الذرء[9] والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء، وكثير السادات في العشائر، وكثير الرؤساء وكان الآخر قليل الذرء والعدد، ولم يكن فيهم خير كثير، خملوا ودخلوا في غمار العرب، وغرقوا في معظم الناس، فسلموا من ضروب الهجاء أو من كثير منه، وسلموا

(١) (هـ)، (ط): «جوارهم» موضع «جواري لهم».
(٢) أصل الوجن: «الدق، ومنه ميجنة القصار، وجعله الشاعر هنا للخلط.
(٣) (ط): «خير» موضع «جل».
(٤) (ط): «الضباع والخنازير».
(٥) (هـ)، (ط): «قتل» موضع «ذم».
(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٧٥ ـ ١٧٦ ـ مكية.
(٧) سورة الأعراف، الآية ١٧٩ ـ مكية.
(٨) سقط هذا الجزء من (هـ).
(٩) الذرء: النسل، وفي الأصل: «الدرء» محرفة.

من أن يضرب بهم المثل في قلة أو نذالة إذا لم يكن لهم شر، وكان محلهم من القلوب محل من لا يغبطه الشعراء[1] ولا يحسده الأكفاء.

وإذا تقادم الميلاد ولم يكن الذره وكان فيهم خير كثير وشر كثير، ومثالب ومناقب، لم يسلموا من أن يهجوا أو يضرب بهم المثل، ولعل أيضًا أن تتفق لهم أشعار تتصل بمحبة الرواة، وأمثال تسير على ألسنة العلماء فيصير حينئذ من لا خير فيه ولا شر أمثل حالاً ممن فيه الفضل الكثير وبعض النقص ولا سيما إذا جاوروا من يأكلهم وحالفوا من لا ينصفهم كما لقيت غني أو باهلة[2].

ولو أن عبسًا أقامت في بني عامر ضعف ما أقامت، لذهب شطر شرفها، ولكن قيس بن زهير[3] لما رأى دلائل الشر قال لأصحابه: الذل في بني غطفان خير من الغنى[4] في بني عامر!

وقد يكون القوم حلولاً مع بني أعمامهم، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم وإن تركوا شيئًا من إنصافهم اشتد ذلك عليهم وتعاظم، بأكثر من قدره فدعاهم ذلك إلى الخروج منهم إلى أعدائهم. فإذا صاروا إلى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم، فوق الذي كان فيه من بني أعمامهم حتى يدعوهم ذلك إلى الندم على مفارقتهم، فلا يستطيعون الرجوع، حمية وأنفة[5] ومخافة أن يعودوا لهم إلى شيء مما كانوا عليه، وإلى[6] المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم، ومن شدة الصولة عليهم.

وقد خرج الأضبط بن قريع[7] من بني سعد فجاور ناسًا فلما رأى

---

(٤) (هـ)، (ط): «من لا يغبط».

(٢) قبيلتان.

(٣) سبقت ترجمته ص ١٦٥.

(٤) (هـ): «العز» موضع «الغنى».

(٥) (هـ): «حمية واتقاء» موضع «حمية وأنفة» وهذا هو الوجه.

(٦) المخطوطة والأصل: «ولا المقام» وأثبت ما في (ط).

(٧) هو الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب السعدي التميمي: شاعر جاهلي قديم أساء قومه إليه، فانتقل عنهم إلى آخرين ففعلوا كالأولين. فقال: بكل واد بنو سعد (يعني قومه).ترجمته في (الأعلام ١/٣٣٧ سمط اللالئ ٣٢٦، الشعر والشعراء ١٤٣ خزانة الأدب للبغدادي ٤/٥٩١.

مذهبهم وظلمهم وتهكمهم[١] قال: «بكل واد بنو سعد!» فأرسلها مثلاً.

ومن القبائل المتقادمة الميلاد التي في شطرها خير كثير وفي شطرها الآخر شرف وضعة، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ومثل فزارة ومرة وثعلبة، ومثل عبس وعبدالله بن غطفان ثم غني وباهلة[٢] واليعسوب والطفاوة فالشرف والخطر في عبس وذبيان والمبتلى والملقى والمحروم والمظلوم، مثل[٣] باهلة وغني لما لقيت من صوائب سهام الشعراء وحتى وكأنهم آلة[٤] لمدارج الأقدام، [يعثر فيها كل ماش ويجوز بها كل مار][٥].

وربما ذكروا اليعسوب والطفاوة، وأشجع ببعض الذكر.

وذلك مشهور في خصائص العلماء لا يجوز ذلك صدورهم. وجل معظم البلاء بغنى وباهلة، وهم أرفع من هؤلاء وأكثر فضولاً ومناقب حتى صار من لا خير فيه ولا شر أحسن حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر كما قال الشاعر:

اضرب ندى طلحة الطلحات مبتدئًا ببخل أشعث واستثبت وكن حكما[٦]
تخرج خزاعة من لؤم ومن كرم ولا تعد لها لؤمًا ولا كرما[٧]

وقد ظرف في شعره وظلم خزاعة ظلمًا عبقريًا.

وكما قال الشاعر في علباء بن حبيب:

أرى العلباء كالعلباء لا حلو ولا مر
شبيخ من بني الجارو دلا خير ولا شر

(١) (هـ): «وتهكهم» وهنا كما جاء بالأصل.
(٢) في الأصل: «بحسبي» وإنما هو: «غني» وسيتكرر الحديث عن غني وباهلة.
(٣) في الأصل: «ومثل» والوجه حذف الواو.
(٤) كذا.
(٥) وردت العبارة في (هـ)، (ط): «ينكب فيها كل ساع، ويعتريها كل ماش».
(٦) في (ط): «بذي طلحة» وتصحيحه من (ش)، ومن الأغاني، والرواية فيها بلؤم (مطلب) فينا وكن حكمًا.
والمطلب الذي يعنيه هو ابن عبدالله بن مالك كان واليًا على مصر وكان قد ولى دعبلاً على أسوان فلما سمعه يهجوه بهذا الشعر المتقدم عزله عنها. سبقت ترجمته.
(٧) في الأصل: «ولا تعركها» وليس بشيء وصوابه في الأغاني.

فهذا ونحوه من أشد الهجاء.

والخمول اسم لجميع أصناف الأرض كلها أو عامتها، ولكنه كالسرو عند العلماء وليس ينفعك الخاصة إذا ضرتك العامة.

ومن هذا الضرب تميم بن مر وثور وعكل وتيم ومزينة. ففي عكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور، وقد سلم ثور إلا من الشيء اليسير ومما لا يرويه إلا العلماء ثم حلت البلية وركد الشر والتحف الهجاء على عكل وتيم وقد شعثوا في مزينة شيئًا، ولكن حبيهم إلى المسلمين قاطبة ما تهيأ لهم من الإسلام حين قل حظ تميم فيه. وقد نالوا من ضبة مع ما في ضبة من الخصال الشريفة لأن للأب متى نقص ولده في العدد عن ولد أخيه أو ابن أخيه[1] فقد ركبهم الآخرون بكل عظيمة، حتى يروا تسليم المرباع إليهم والسير تحت اللواء، والحمل على أموالهم في النوائب، وحتى ربما صاروا كالعضاريط والعسفاء، وكالأتباع والدخلاء، ثم لا يجدون من ذلك بدأ، لأنهم إن امتنعوا حصدوا واجتنوا[2]، فرأوا أن النعمة أربح لهم.

وقد أعان غيلان بن خرشة[3] على الأحنف بكلمة فقال الأحنف: عبيد في الجاهلية أتباع في الإسلام.

فإن هربوا تفرقوا فصاروا أشلاء في البلاد فصار حكمهم حكم من درج وحكم أبيهم حكم من لم يعقب، وإن هم حالفوا الغرباء فذلك حيث لا يرفعون رؤوسهم من الذل والغرم.

وقد سلمت ثور وابتليت عكل وتيم، ولولا الربيع بن خيثم[4] وسفيان الثوري[5]، لما علمت العامة أن في العرب قبيلة يقال لها ثور. ولشريف واحد

---

(١) في الأصل: «متى نصر ولده في العدد على ولد أخيه» والوجه ما هنا.

(٢) في (ط): «كأنهم متى امتنعوا خذلوهم فاستباحوهم.

(٣) هو غيلان بن خرشة، انظر حديثه مع الأحنف في البيان ٢:٨٨، ٣:٩٨.

(٤) هنا كما بالأصل: «خيثم». وانظر الاشتقاق ١١٢: ١١٣ وتعريب التهذيب.

(٥) هو أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبدالله بن موهبة بن أبي بن عبدالله بن منقذ بن نصر بن الحكم ينتهي نسبه إلى معد بن عدنان، وكان إمامًا في علم الحديث =

ممن قبلت[1] تيم أكثر من ثوز وما ولد.

وكذلك بلعنبر قد ابتليت وظلمت وبخست مع ما فيها من الفرسان ومن الشعراء والزهاد والفقهاء ومن القضاة والولاة ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين.

وقد سلمت كعب بن عمرو، وابتليت [الحبطات، ولو لم يكن لهم محمد ابن عياد وعباد بن الحصين وعمرو بن المسور لكان خيرًا لهم ولسلمت سلامة][2] وقد سلمت كعب بن عمرو، فإنه لم ينلها من الهجاء إلا الخمش والنتف.

ورب قوم قد رضوا بخمولهم مع السلامة على العامة ولا يشعرون حتى يصب الله على قمم رؤوسهم حجارة القذف، بأبيات يسيرها شاعر وسوط عذاب يسير به الراكب والمثل كما قال الشاعر فيهم:

إن منافاً فقحة لدارم[3] كما الظليم فقحة البراجم

وكما قال آخر[4]:

وجدنا الحمر من شر المطايا كما الحبطات شر بني تميم

فما الميسم في جلد البعير، بأعلق من بعض الشعر.

وإذا كان بيت واحد يربطه الشاعر في قوم لهم النباهة والعدد والفعال، مثل نمير، يصير، أهله إلى ما صارت إليه نمير وغير نمير، فما ظنك بالظليم وبمناف وبالحبطات، وقد بلغ من نمير قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

= وغيره من العلوم، أجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، أحد الأئمة المجتهدين سمع من أبي اسحق السبيعي والأعمش ومن في طبقتهما وسمع منه الأوزاعي وابن جريج ومحمد بن اسحق ومالك وتلك الطبقة. ولد سنة ٥ وقيل: ست وقيل سبع وتسعين للهجرة وتوفي بالبصرة سنة ١٦١ وقيل ١٦٢هـ (وفيات الأعيان جـ٢/١٢٧).

(١) في الأصل: «قتلت». والوجه ما هنا، من قبلت القابلة الولد: أخرجته.

(٢) سقط هذا الجزء من (ط)، (هـ).

(٣) في الأصل: «إن منا فقحة لدارم».

(٤) البيت من أبيات ثلاثة لزياد الأعجم أوردها العيني، ونقلها عنه البغدادي في خزانة الأدب ٤/٢٨٠.

وقال أبو الليث العكلي:

أتـوعـدني لـتـقـتـلني نمـير مـتى قتلت نمـير من هـجـاهـا

ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقع الهجاء وهذا من أول كرمها، كما بكى مخارق بن شهاب[1]، وكما بكى علقمة بن علاثة[2]، وكما بكى عبدالله بن جدعان من بيت لخداش[3] بن زهير[4] وما زال يهجوه من غير أن يكون رآه، فلما رآه ورأى جماله ونبله وبهاه والذي يقع في النفوس من فضله ومحبته ومن إجلاله والرقة عليه، أمسك.

وبلية أخرى: أن يكون القبيل متقادم الميلاد، قليل الذرء[5] وقليل السيادة، وتهيأ أن يصير في ولد أخوتهم الشرف الكامل والعدد التام فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكل من رآهم أو سمع بهم، أضعاف ذلك الذي هم عليه ولو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم.

ومن شؤم الاخوة أن شرفهم ضعة أخوتهم، ومن يمن الأولاد أن شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم: كعبدالله بن دارم. فلو أن الفقيم لم يناسب عبدالله لكان خيرًا لهم.

ولقد ضعضعت قريش ـ لما جاءت به من الخصال الشريفة التامة، من

---

(١) الذي أبكاه هو محرز بن المكعبر العنبري، وانظر الحديث في البيان ٤/٤١ ـ ٤٢.

(٢) هو علقمة بن علاثة بن عوف الكلابي العامري: من الصحابة، من بني عامر بن صعصعة. كان في الجاهلية من أشراف قومه. وقدم على قيصر، ونافر عامر بن الطفيل، ثم أسلم وارتد في أيام أبي بكر فانصرف إلى الشام فبعث إليه أبو بكر القعقاع بن عمرو، ثم عاد إلى الإسلام وولاه عمر بن الخطاب حوران فنزلها إلى أن مات وكان كريمًا. (الأعلام ٥/٤٨، خزانة البغدادي ١/ ٨٨ ـ ٨٩، شرح العيون لابن نباتة ٨٥).

(٣) في الأصل: «لخراش».

(٤) هو خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو وهو من شعراء قيس المجيدين ترجمته في الشعر والشعراء (٢/٦٤٥) الاشتقاق ١٨٠، الإصابة ٢:١٤٨ وفيها: إنه شهد حنينًا مع المشركين وقال في ذلك شعرًا، ثم أسلم بعد ذلك بزمان، وذكر المرزباني: انه جاهلي وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: خداش بن زهير أشعر في عظم الشعر يعني نفس الشعر من لبيد، إنما كان لبيد صاحب صفات. وانظر اللآلئ ٧٠١ ـ ٧٠٢.

(٥) (هـ): «الذلة» موضع «الذرء» والذرء: النسل.

اركان كنانة ـ وكنانة سنام الأرض وجبلها[1] وعينها التي تبصر بها وأنفها التي بها تعطس، فما ظنك بمن أبصر بني زيد بن عبدالله بن دارم، ثم رأى بني فقيم بن جرير بن دارم؟!

وكذلك كل أخوين إذا برع أحدهما وسبق وعلا الرجال، وسبق في الجود، أو في الفروسية[2] أو في البيان، فإن كان الآخر وسطًا من الرجال صيره أخوه في الطبقة السفلى لتبين البراعة في أخيه فصارت قرابته التي كانت مفخرة هي التي بلغت به أسفل سافلين. وكذلك عنزة بن أسد في ربيعة، ولو لم يكن سودد ربيعة مرة في عنزة ومرة في ضبيعة أضجم لكان خيرًا لهم اليوم، ولود كثير من هؤلاء القبائل التي سلمت على الشعراء أو على العوام أن يكون فيهم شطر ما للعنزيين من الشرف، ولو أن الناس وازنوا بين خصال القبائل خيرها وشرها لكانوا سعداء[3].

وقال صاحب الديك: وقلت من عيوب الكلب: إنه إذا كان في الدار محق أجور أهل الدار حتى يأتي على أقصاها، لأن الأجور إذا أخذ منها في كل يوم وزن قيراط، والقيراط مثل أحد، لم يلبث ذلك أن يأتي على آخرها وقلت: في الكلب أشد الأذى على الجار والضيف والدخيل، يمنعه إياه النوم ليلاً والقائلة نهارًا أو أن يسمع الحديث.

ثم على سامع النباح من المؤنة من الصوت الشديد، ولو لم يكن في الكلب مما يؤدي بشدة صوته إلا مداومة مجاوبة الكلاب لكان في ذلك مما ينغص العيش ويمنع من الكلام والحديث.

وقال أرطأة[4] بن سهية في بعض افتخاره:

---

(١) كذا.

(٢) الفروسة والفروسية: الحذق بركوب الخيل.

(٣) كذا بالأصل وفي (هـ)، (ط): «سواء».

(٤) هو ابن زفر بن عبدالله ينتهي نسبه إلى سعد بن ذبيان وسهية أمه، وهو فارس شاعر إسلامي فصيح معدود في طبقات الشعراء المعدودين في دولة بني أمية، لم يسبقها ولم يتأخر عنها، وكان شريفًا في قومه جوادًا، وكان يناقض شبيب بن البرهاء ويهاجيه، وفد مرات على عبد الملك بن مروان ينشده ويجيزه. انظر جـ ١ ص ١٣٠ ديوان الحماسة بشرح التبريزي.

وإني لقوام إلى الضيف موهنًا إذا أغدف الستر البخيل المواكل[١]
دعا فأجابته كلاب كثيرة على ثقة مني بما أنا فاعل
وما دون ضيفي من تلاد تحوزه النفس إلا أن تصان الحلائل[٢]

وقال ابن هرمة[٣]:

ومستنبح قال الصدى مثل قوله فقلت له: قم في اليفاع فجاوب[٤]
فجاء خفي الصوت قد مسه الطوى بضربة مفتوق الغرارين قاضب[٥]
فرحبت واستبشرت حتى بسطته[٦] وتلك التي ألقى بها كل آئب

وقال رجل من بني عبدالله بن غطفان[٧]:

إذا أنت لم تستبق ود صحابة على دخن أكثرت بث المعاتب[٨]
وإني لأستبقي امرأ السوء عدة لعدوة عريض من الناس جانب[٩]
أخاف كلاب الأبعدين ونبحها إذا لم تجاوبها كلاب الأقارب

وقال أحيحة بن الجلاح[١٠]:

ما أحسن الجيد من مليكة والل بّات إذ زانها ترائبها

(١) (ط): «إلى الضعيف»، «إذا أغدق»، وتصحيح البيت كما هنا من (ش) وعيون الأخبار (٢٣٩/٣).
(٢) (هـ)، (ط): «تحوز يد الضيف» موضع «تحوزه النفس».
(٣) سبقت ترجمته وهو من بني هزيل كان دعيًا في الخلج والخلج أدعياء في قريش انظر جـ٢ ص ٢٦٤ ديوان الحماسة. ترجمته ص ٢٥٦.
(٤) (هـ): ورد البيت الأول: «ومستنبح نبهت كلبي لصوته... الخ».
(٥) (هـ): «الضوى» موضع «الطوى»، «سنون» موضع «مفتوق».
(٦) (ط): «بسطه» وصوابه ما هنا كما في (ش).
(٧) نسب في حماسة البحتري ٣٩٤ إلى النعمان بن حنظلة العبدي.
(٨) الدخن: الحقد وسوء الخلق ومعناه قريب من الدخل.
(٩) العريض «كسكيت» الذي يتعرض للناس بالشر.
(١٠) هو أحيحة بن الجلاح بن الحريش الأوسي أبو عمرو: شاعر جاهلي من دهاة العرب وشجعانهم، قال الميداني: كان سيد يثرب (المدينة) وكان له حصن فيها سماه (المستظل) وحصن في ظاهرها سماه (الضحيان). قال البغدادي: كان سيد الأوس في الجاهلية وكان مرابيًا كثير المال توفي نحو سنة ١٣٠ق هـ. ترجمته في (الأعلام ٢٦٣/١، الأغاني ١١٥/١٣. أمثال الميداني ١٣/١ خزانة الأدب البغدادي ٢٣/٢. والشعر في الخزانة ٣٢١/٣.

يـا لـيـتـني لـيـلة إذ هـجـع الـ نـاس ونـام الـكـلاب صـاحبـهـا

وقلت: في الكلب قذرة[1] في نفسه، واقذاره أهله لكثرة سلاحه وبوله، وعلى أنه لا يرضى بالسلاح على السطوح حتى يحفر بربرائثه وينقب بأظفاره وفي ذلك التخريب.

ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يكون سببًا للوكف وفي الوكف من منع النوم ومن إفساده حر المتاع، ما لا يخفى مكانه، مع ما فيه من عض الصبيان، وشق الثياب والتعرض للزوار، وفي خلقته من الطبع المستدعي للصبيان إلى ضربه ورجمه وتهييجه بالعبث ويكون ذلك سببًا لعقرهم والوثوب عليهم.

وقلت: وبئس الشيء هـو في الـدار وفيهـا الحـرم والأزواج والسراري والحظيات والمعشوقات وذلك أن ذكره ظاهر الحجم، وهو أما مقبع وأما قائم، وليس معـه ما يـواريه وربمـا أنعص[2] بحضرتهم، ولعلهن أن يكن مغيبـات ومحتـاجات إلى مـا تحتاج إليـه النساء عنـد غيبـة فحلهن، أو عجـزه عن أن يمنيهن[3].

وقد رمى ضابئ بن الحرث البرجمي أم أناس من العرب، أن الكلب الذي يقال له قرحان[4] كان يأتي أمهم حتى استعدوا عليه [أهله] عثمان بن عفان، ولولا أن المعنى الذي رماهم به كان مما يكون ويجوز ويخاف مثله، لما بلغ ذلك من عثمان ما بلغ حتى مات في حبسه[5].

وزعم اليقطري أنه أبصر رجلاً يكوم كلبة من كلاب الرعاء، مر ذلك الزب العظيم في ثفرها ـ والثفر منها ومن السبع، كالحر من المرأة والظبية من

---

(١) كذا بالأصل (ط)، (هـ)، «قذارة».
(٢) (ط): «أشظ» وأشظ الرجل: أنعظ، وفي الأصل: «انتشط» وهنا كما ترى: «انعص» وعلها «انعظ».
(٣) (هـ): «يعمهن» موضع «يمنيهن».
(٤) أنظر قصة «قرحان» في الخزانة ٤/٨٠ بولاق ومعاهد التنصيص ١/٦٦ والشعراء ٣٠٩.
(٥) كتب مصحح الطبعة الأولى من الحيوان: «اتفق أهل الأخبار أن ضابئًا كسر ضلع عثمان يوم الدار وأن الحجاج قتل ضابئًا لما ولي العراق».

الأتان والحجر، والحياء من الناقة والشاة ـ وزعم أنها لم تعقد عليه ولا ندري أمكنته أم اغتصبها.

وفي ملح الحديث: أن رجلاً أشرف على رجل وقد ناك كلبة فعقدت عليه، فبقي أسيرًا يدور معها فصاح به الرجل: اضرب جنبيها ففعل. فأطلقته فرفع رأسه إليه، وقال: أخزاك الله أي نياك كلبات أنت!

وحدث رجل أنه أشرف من سطح له فإذا هو بسواد في ظل القمر في أصل حائط، وإذا أنين كلبة فرأى رأس إنسان يدخل في القمر ويرجع إلى موضعه فإذا هو بحارس ينيك كلبة قال: فرجمته وأعلمته أني قد رأيته فصبحني مع الفجر يقرع الباب، فقلت: ما حاجتك؟ ظننت أنك تمضي على وجهك في البراري. قال: جعلت فداك استر علي ستر الله عليك، وأنا أتوب على يديك! قال: قلت ويلك ما اشتهيت من كلبة؟ قال: كل حارس ليس له زوجة ولا حلة[1] فهو ينيك إناث الكلاب[2] إذ كن عظام الأجسام. قال: فقلت: أما يخاف أن تعضه؟ قال: لو رام ذلك منها غير الحارس التي هي له وقد باتت معه وأدخلها في كسائه في ليالي البرد والمطر لما تركته. وعلى أنه إذا أراد أن يوعبه كله لم تستقر له. قال: ونسيت أن أسأله هل تعقد على أيور الناس كما تعقد على أيور الكلاب، قال: فلقيته بعد ثلاثين سنة فسألته قال: لا أدري لعلها لا تعقد عليه لأنه لا يدخله فيها إلى أصله، ولعل ذلك إنما هو يحدث من الكلب والكلبة فإذا اختلفا لم يقع الالتحام. فقلت له: فهل طيب هو؟ قال: وقد نكت عامة إناث الحيوانات فوجدتهن كلهن أطيب من النساء. قلت: وكيف ذلك؟ قال: ما ذلك إلا لشدة حرارتهن وأطال الحديث حتى أنس فقلت له: فإذا دار الماء في صلبك وقرب الفراغ فربما التذت الكلبة، قال: أما أن الكلاب أطيب شيء أفواهاً، وأعذب شيء ريقًا، ولكنها لا تمكن أن أنيكها من قدام، ولو ذهبت أن أنيكها من خلف وثنيت رأسها إلي وأهويت إلى تقبيلها لم آمن من أن تظن أني أريد بها غير ذلك فتكدم فمي ووجهي. فقلت له: أسألك بالذي يستر

(١) (هـ): «ولا يحل» ولعل الصواب ما هنا والمقصود به «حليلة».
(٢) (ط): «إناثا الكلاب».

عليك هل نزعت عن هذا العمل منذ أعطيتني صفقة يمينك بالتوبة؟ قال: ربما حننت إلى ذلك وأكره أن أخيش بعهدك، قلت: وإنك لتحن إليها؟ قال: والله أحن إليها وقد تزوجت بعدك امرأتين ولي منهما رجال ونساء ومن تعود شيئًا لم يكد يصبر عنه. قلت: فهل تعرف اليوم في الحراس من ينيك الكلاب؟ قال: نعم خذ محمويه الأعور وخذ يشجب الحارس، وخذ قفا الشاة وخذ فارساً الحمامي، وكان قيم حمام، وكان حلقيًا فزعم أنه ناك الكلبات خمسين سنة وشاخ وهزل وقبح وتشنج حتى لا ينيكه أحد - قال: فلم أزل أحتال لكلب عندي حتى ناكه. قال: وكان منه على خير حتى قتله اللصوص.

قال: فالكلاب كما ترى تتهم بالنساء، وينيكها الرجال، وتنيك الرجال وليس شيء أحق بالنفي والاطراد والقتل منها. ونحن من السباع العادية الوحشية في راحة إلا في الفرط[1] فإن لها عرامًا على بعض الماشية، وجناية على سداد السابلة وكذلك البهائم، وما عسى أن يبلغ من وطء بعير أو نطح كبش أو خمش سنور أو رمح حمار، ولعل ذلك يكون في الدهر المرة أو المرتين ولعل ذلك لا ينال إلا عبدًا حارسًا أو سائسًا للإبل محتملاً، والكلاب مع هذه الآفات شركاء الناس في دورهم وأهاليهم!!

وقال صاحب الكلب: إن كنتم إلى الأذى بالسلاح تذهبون، وإلى قشر طين السطوح بالبراثن تميلون وإلى نتن السلاح وقذر المأكول والمشروب تقصدون فالسنور أكثر في ذلك.

وقد رويتم أن النبي ﷺ قال: «إنها من الطوافات عليكم». فإذا كان ذلك في السنانير مغتفرًا لانتفاعهم بها في أكل الفأر، فمنافع الكلب أكثر وهو بالاعتقاد أحق. وفي إطلاق ذلك في السنور دليل على أنه في الكلاب أجوز.

وأما ما ذكرتم من اتعاظه فلعمري إنه لا ينبغي للغيور أن يقيم البرذون والفرس والبغل والحمار والتيس في المواضع التي تراها النساء، والكلب في ذلك أحسن حالاً. وقد كره ناس إدخال منازلهم الحمام والديكة والدجاج والبط

---

(١) الفرط: الندرة. وفي (ط): «الفرق».

خاصة لأن له عند السفاد قضيبًا يظهر، وكذلك التيس من الظباء فضلاً عن تيوس الصفايا، وعلى أن للحمام[1] خاصة من الاستشارة[2] والكسح[3] بالذنب والتقبيل ما ليس للناس[4] مثله، ثم التقبيل والتغزل والتنفش[5]، والابتهاج بما يكون منه عند الفراغ، وركوب الأنثى للذكر وإمكانها لغير ذكورها ما يكون أهيج للنساء مما ذكرتم[6] فلم أفردتم الكلب بالذكر دون هذه الأمور التي إذا عاينت المرأة غرمول واحد منها حقرت بعلها أو سيدها، ولم يزل ظل ذلك الغرمول يعارضها في النوم، وينبهها ساعة الغفلة ويحدث لها التمني لما لا تقدر عليه، واحتقار ما تقدر عليه فتركتم ذكر ما هو أعظم إلى ما هو أصغر؟!

فإن كنتم إنما تذهبون من التشنيع عليه إلى ما يعقر الصبيان عند العبث والتعرض والتهييج فلو أن الذي يأتي صبيانكم إلى الكلب من الإلحاح بأصناف العيب، والصبيان أقسى الخلق وأقلهم رحمة ـ أنزلوه بالأحنف بن قيس وحاجب ابن زرارة وحصن بن حذيفة لخرجوا[7] إلى أقبح مما يخرج إليه الكلب. ومن ترك منهم الأخذ فوق يد ابنه فهو أحق باللائمة.

وبعد فما وجدنا كلبًا وثب على صبي فعقره من تلقاء نفسه، وإنه ليتردد عليه وهو في المهد، وهو لحم على وضم، فما شمه ولا يدنو منه، وهو أكثر خلق الله تشممًا واسترواحًا وما في الأرض كلب يلقى كلبًا غريبًا إلا شم كل واحد منهما است صاحبه. وما في الأرض مجوسي يموت فيحزن على موته ويحمل على الناؤوس إلا بعد أن يدنى منه كلب ليشمه فإنه لا يخفى عليه أهو حي أم ميت للطافة حسه ولأنه لا يأكل الأحياء. فأما اليهود فإنهم يتعرفون ذلك من الميت،

---

(١) (ط): «الحمام» وصوابه ما هنا كما في (ش).
(٢) الاستشارة: إظهار الحسن. ومن استشارت الإبل: سمنت وحسنت.
(٣) (هـ): «الكسم» موضع «الكسح».
(٤) في الأصل: «الناس».
(٥) في الأصل: «التنفس».
(٦) (ط): «ما ذكرتم» وصوابه ما هنا.
(٧) (ط): «يخرجوا» وصوابه ماهنا و(س).

بأن يدهنوا استه ولذلك قال الشاعر[1] وهو يرمي ناساً بدين اليهودية:

إذا مات منهم ميت مسحوا استه بدهن وحفوا حوله بقرام

وقالوا: فإذا ذكرتم جنايات الكلاب فواحدة من جنايات الديكة أعظم من جميع جنايات الكلاب لأن عبدالله بن عثمان بن عفان ابن بنت الرسول ﷺ إنما مات من نقر ديك كان في دار عثمان، نقر عينه فكان سبب موته فقتل الديك[2] لعترة رسول الله ﷺ أعظم مما تستعظمونه من جنايات الكلاب، وقد نقر ديك عين ابن حسكة بن عباب[3] أو عين ابن أخته.

ونقر ديك عين ابن الريان بن أبي المسيح وهو في المهد فاعور ثم ضربته الحمرة فمات.

ووثب ديك فطعن بصيصته في عين بنت لثمامة بن أشرس، قال ثمامة: فأتاني الصريخ فوالله ما وصلت إليها حتى كمد وجهها كله واسود الأنف والوجنتان، وغارت العينان. وكان شأن هذا الديك - فيما زعم ثمامة - عجبًا: ذكر أن رجلاً ذكر أن له ديكًا عند رجل بقال، يقاتل به الكلاب، قال: فأتيت البقال فسألته عنه فزعم أنه وجه به إلى قتال الكلاب، قد تراهنوا في ذلك فلم أبرح حتى اشتريته، فكنت أصونه وجعلته في مكنة فخرجت يومًا وأقبلت ابنتي تنظر إليه فكان هذا جزائي منه!

قال: وأقبل ديك آخر إلى رأس زيد بن عمر، [وهو ملقى في صحن دار يوسف بن عمر][4] حتى وطئ في ذؤابته ثم اقبل ينقر دماغه وعينه. فقال رجل من قريش لمن حضر ذلك من الخدم:

---

(١) هو سالم بن دارة يهجو طريف بن عمرو، كما في اللسان «حمم». وقبل البيت:

إني وإن خوفت بالسجن ذاكر لشتم بني الطماح أهل حمام

(٢) بالمختصر: «الشاة». وأثبت ما في بقية النسخ لأنه الوجه.

(٣) في الأصل كما كان بالمختصر «عباد» وصوابه ما أثبت موافقًا لما في الاشتقاق ٣٢٩ والبيان ٣٦/٤.

(٤) سقط ما بين المعكفين من (هـ).

اطـردوا الـديـك عن ذؤابـة زيـد   طـالما كـان لا تـطأه الـدجـاج[1]

والكلب إن كان كما يقولون فإن يدأ له تشج[2] وأخرى تأسو، بل ما يدفع بحراسته ويجلب من المنافع بصيده[3] أكثر وأعم، وهو الغامر لا المغمور والفاضل لا المفضول، والديك يفقأ العيون ويقتل الأنفس ويشج ولا يأسو؛ فشره صرف وخيره ممزوج، إلا أن يزعموا أنه يحرس من الشياطين[4] فيكون هذا من القول الذي يحتاج إلى البرهان. ومن[5] عارض منافع الكلب بحراسته اللصوص من أموال الناس ومنع السباع من الماشية وموضع نفعه من المزارع بما يدعى من حراسة الديكة للشياطين، لم يكايل ولم يوازن ولم يعرف المقايسة ودل بذلك على أن مبلغ رأيه لا يجوز عقل النساء.

ويكون العواء للكلب والذئب والفصيل. قال الشاعر[6]:

ومستنبـح تستكشط الـريـح ثـوبـه   ليسقط عنـه وهـو بـالثـوب معصم
عـوى في سـواد الليـل بعـد اعتسـافـه   لـيـنـبـح كـلب أو لـيـفـزع نـوم
فجـاوبـه مستسمـع الصـوت للقـرى   لـه مـع إتيـان المهـبـين مـطعـم
يكـاد إذا مـا أبصر الضيف مـقبـلاً   يـكـلمـه مـن حـبـه وهـو أعـجـم

وقال ذو الرمة[7]:

بـه الـذئب محـزونًـا كـأن عـواءه   عـواء فصيـل آخـر الـليـل محثـل

وقال الأحيمر السعدي[8]:

---

(١) جاء هذا البيت في الأصل كلامًا منثورًا، وانظره في الكامل ٧١٠ ليبسك وفي الأصل أيضاً «لا تطؤها» وتصحيحه من الكامل.
(٢) في (ط): «تسبح» وهو تحريف ما في (ش).
(٣) (ط): «بعبده» وتصحيحه ما هنا موافقًا لما في (ش)، (م).
(٤) (هـ): موضعها «الشيطان».
(٥) ليست بالأصل.
(٦) الأبيات في الحماسة ٢/٢٦٠ والشعر لابراهيم بن هرمة (١٥٠هـ) في البيان ٣/٢٠٥.
(٧) شاعر أموي مجيد في وصف الطبيعة توفي عام ١١٧هـ.
(٨) الأحيمر السعدي: شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية كان لصًا فاتكًا ماردًا. من أهل بادية الشام أتى العراق وقطع الطريق وطلب مضر فأهدر دمه وتبرأ منه قومه وطالت مطاردته=

عوى الذئب فاستأنست بالـذئب إذ عوى   وصـوت إنـسـان فـكـدت أطـير

وقال حميد بن أرقط[1]

وعـاو عوى والليـل مستحلس النـدى   وقـد زحفت للغـور تـاليـة النجم[2]

وذلك أن الرجل إذا كان باغيًا أو زائرًا، أو ممن يلتمس القرى، ولم ير بالليل نارًا، عوى أو نبح لتجيبه الكلاب فيهتدي بذلك إلى موضع الناس.

ومما قالوا في أنس الكلب وإلفه، وحبه لأهله ولمن أحسن إليه قال ابن الطثرية[3] القشيري في ذلك:

يـا أم عـمـرو انـجـزي المـوعـودا   وارعـي بـذاك أمـانـة وعـهـودا
ولقـد طرقت كـلاب أهلك بـالضحى   حـتى تـركـت عـقـورهـن رقـودا
يضربـن بـالأذنـاب من فـرح بنـا   مـتـوسـدات أذرعًـا وخـدودا

وقال آخر:[4]

لـو كنت أحمـل خمـرًا يـوم زرتـكم   لم ينكـر الكلب أني صـاحب الـدار

= حن إلى وطنه، تاب من اللصوصية ونظم أبياتًا في توبته أوردها الآمدي نقلاً عن أبي عبيدة توفي نحو سنة ٧٠ هـ ترجمته الأعلام ٢٦٣/١ المؤتلف والمختلف ٣٦، معجم البلدان ١٠١/٤، الشعر والشعراء ٢٣٠٧.

(١) هو حميد بن مالك الأرقط لقب بالأرقط لآثار كانت بوجهه، وهو شاعر إسلامي مجيد وكان بخيلاً قال أبو عبيدة: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة، وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان: (انظر معجم الأدباء ١٣/١١ مطبعة دار المأمون وكتاب الوافي بالوفيات جـ ٤ قسم أول) ـ والبيت في البخلاء.

(٢) (ط): «للغور» وصوابه كما في (ش). وفي الأصل: «مستجلس الندى» وصوابه ما هنا موافقًا لما في البخلاء ٢٠٠ ـ استحلس الندى: تراكم.

(٣) هو يزيد بن الصمة، أحد بني سلمة الخير بن قشير والطثرية أمه وهو شاعر إسلامي وكان جميل الوجه حسن الشعر حلو الشمائل وكان يقول: من أفحم عند النساء فلينشد من شعري وكان كثيرًا ما يتحدث إلى النساء وقد قتله بنو حنيفة (يوم الفلج) وكان لبني عامر على بني حنيفة (انظر حماسة أبو تمام ١١٠/٢) وفي الأصل: «وقال ابن الطثرية» والوجه ما هنا والشعر في البخلاء ٢٠٣.

(٤) الشعر في البيان ٣١١/٣ منسوب إلى بعض الحجازيين وانظر البخلاء ٢٠٢ وهو في الحماسة ٢٣٣/٢ منسوب إلى مالك بن أسماء العزاري وهو شاعر إسلامي غزل، وأخته هند بنت أسماء زوج الحجاج وهو ممن عرف بالجمال في العرب ترجم له أبو الفرج في أغانيه ٤٠/١٦ ـ ٤٦.

لكن أتيت وريح المسك يفعمني ... والعنبر الورد أذكيه على النار[1]

فأنكر الكلب ريحي إذ طرقتكم[2] ... وكان يعرف ريح الزق والقار

وقال حسان بن ثابت:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول[3]

يغشون حتى ما تهر كلابهم ... لا يسألون عن السواد المقبل

وقال عمران بن عصام:

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم منن ظاهرة[4]

فبابك ألين أبوابهم ... ودارك مأهولة عامرة[5]

وكلبك آنس بالمعتفين ... من الأم بابنتها الزائرة

وكفك حين ترى السائلين ... أندى من الليلة الماطرة

فمنك العطاء ومنا الثناء ... بكل محبرة سائره

وقال هلال بن خثعم[6]:

إني لعف عن زيارة جارتي ... وإني لمشنوءٌ إلى اغتيابها

إذا غاب عنها بعلها لم أكن لها ... زؤورًا ولم تأنس إليَّ كلابها

وما أنا بالداري أحاديث سرها ... ولا عالم من أي حوك[7] ثيابها

وإن قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك عورات الأمور اجتنابها

(١) فعمه الطيب وفغمه: ملأ خياشيمه. وفي الأصل «ينعمني» وصوابه في البخلاء ٢٠٢ وفي الحماسة ٢٣٣/٢ «يفعمني» بالغين، وفيها «وعنبر الهند أذكيه».

(٢) (ط): «حين أبصرني».

(٣) (ط): «نقية حجزاتهم» موضع «كريمة أحسابهم» وفي الأصل: «نقية حجراتهم» وليس بشيء الحجزة: معقد الإزار.

(٤) في الأصل: «غامرة» موضع «ظاهرة» والشعر في الأغاني ١٢٩/١ منسوب إلى نصيب وعبد العزيز هذا هو ابن مروان.

(٥) (هـ): «آهلة» موضع «مأهولة».

(٦) كذا نسب الشعر في البخلاء ٢٠٢. ويروى لقيس بن الخطيم وقد رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١٨٣/٣ لبشار بن برد وهو في حماسة البحتري طبع أوربا لزياد بن منقد التميمي.

(٧) في الأصل: «حول» وما أثبت هنا كما في عيون الأخبار وحماسة البحتري.

وقال حاتم الطائي[١]، وهو أبو سفانة، وكان قد أسره ثور بن شحمة العنبري مجير الطير:

إذا ما بخيل الناس هرت كلابه   وشق على الضيف الغريب عقورها
فإني جبان الكلب بيتي موطأ   جواد إذا ما النفس شح ضميرها
ولكن كلابي قد أقرت وعودت   قليل على من يعتريها هريرها

وقال صاحب الكلب: إن كثيرًا من هجاء الكلب ليس يراد به الكلب وإنما يراد به هجاء رجل فيجعل الكلب صلة في الكلام ليبلغ ما يريد من شتمه. وهذا أيضًا مما يرتفق به الناس من أسباب الكلب [ولو شئنا قلنا من فضائله][٢]، قال الشاعر:

وما يك فيّ من عيب فإني   جبان الكلب مهزول الفصيل

فهو لم يرد مديح الكلب بالجبن [ولا هجاءه][٣] وإنما أراد مدح نفسه وقال الشاعر[٤]:

من دون سيبك لون ليل مظلم   وحفيف نافجة وكلب موسد[٥]

والكلب إنما أسره أهله، فإنما اللوم على من أسره وهذا الضرب كقوله[٦]:

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النار

ومعلوم أن هذا لا يكون ولكن حقر أمرهم وصغرهم.

---

(١) هو حاتم بن عبدالله بن سعد يصل نسبه إلى الغوث بن طيِّئ وكان حاتم يكنى أبا سفانة وأبا عدي لأنه كان له ولدان سفانة وعدي، وحاتم من شعراء العرب في الجاهلية وأجوادها يشبه شعره جوده ويصدق قوله فعله وكان مظفرًا إذا قاتل غلب وإذا غنم أنهب وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز وكانت الشعراء تفد إليه وأخباره مدونة وشعره مطبوع بأيدي الناس، (انظر ديوان الحماسة ٢/٢٢ شرح التبريزي).

(٢) سقط هذا الجزء من (هـ).

(٣) سقطت هذه الكلمة من (هـ).

(٤) هو حسيل بن عرقطة شاعر جاهلي، النوادر لأبي زيد ٧٥. وانظر الحيوان ٤/٨٢ وديوان المعاني ٢/١٠٦.

(٥) النافجة: الريح تجيء بقوة وفي الأصل: «ناقمة» وإنما الحفيف للريح. وتصحيحها من النوادر لأبي زيد ويقال أوسد كلبه: أغراه بالصيد. فهو موسد.

(٦) البيت للأخطل يهجو به جريرًا. وفيه قالت بنو تميم: «ما هجينا بشعر هو أشد علينا من هذا البيت: ديوان المعاني ١/١٧٥.

وقال الشاعر:

وتطعم كلب الحي من خشية القرى   ونارك كالعذراء من دونها ستر[1]

وقال أعشى بني تغلب:

إذا احتلت معاوية بن عمرو   على الأطواء خنقت الكلابا

فالكلب مرة مكعوم ومرة مخنوق ومرة موسد ومرة محرش ومرة يجعله جبانا ومرة يجعله وثابًا كما قال الراعي في الحطيئة[2] يهجوه:

ألا قبح الله الحطيئة إنه   على كل ضيف ضافه فهو كالح[3]

وقعت إليه وهو يخنق كلبه   ألا كل كلب - لا أبا لك - نابح[4]

بكيت على زاد خبيث قريته   ألا كل عبسي على الزاد نائح[5]

والعرب تقول: إن دماء الملوك شفاء من داء الكلب ومن الجنون قال الشاعر:[6]:

أرى الخلان بعد أبي عمير   بحجر في لقائهم جفاء

من البيض الوجوه بني سنان   لو أنك تستضيء بهم أضاءوا

---

(١) كما في الأصل: «فطعم» وفي (هـ): «تكعم» كما في اللسان: «كعم».

(٢) هو جرول بن أوس بن مالك العبسي أبو مليكة: شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام كان هجاء عنيفًا لم يكد يسلم من لسانه أحد وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثر من هجاء الزبرقان بن بدر فشكاه إلى عمر بن الخطاب فسجنه عمر بالمدينة فاستعطفه فأخرجه ونهاه عن الهجاء فقال: إذا تموت عيالي جوعًا! أخباره وترجمته (الأعلام ٢/١١٠ فوات الوفيات ١/٩٩، شرح الشواهد ١٦٣، الشعر والشعراء ١٦٠ خزانة البغدادي ١/٤٠٩).

(٣) (هـ): «سالح» موضع «كالح».

(٤) (هـ): «وقعنا» موضع (وقعت).

(٥) البيت الأخير نسبه ابن منظور إلى الراعي وذكره كما ترى وراء البيتين السابقين وكذلك البيت منسوب في العمدة ٢/١٥١ إلى الراعي وقد رواه أيضًا تاليًا للبيتين السابقين وفي (هـ)، (ط) نسب إلى أعشى تغلب برواية:

«ألا كل عبسي على الزاد نابح»

(٦) هو أبو البرج القاسم بن حنبل المري، والشعر بقوله في زفر بن أبي هاشم بن مسعود بن سفيان عامل اليمامة. (الحماسة ٢/٣٠٤) و(المؤتلف والمختلف ٦٢) (معجم المرزباني ٩٠٣) وأبو البرج قال فيه صاحب القاموس: إنه شاعر إسلامي. والبيت الأخير مروي في عدة أبيات منسوبة إلى أمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ١٧.

لهم شمس النهار إذا استقلت ونور ما يغيبه العماء[1]
بناة مكارم وأساة حلم[2] دماؤهم من الكلب الشفاء

وقال الفرزدق:

ولو تشرب الكلبى المراض دماءنا شفتها وذو الخبل الذي هو أدنف[3]

وذلك أنهم يزعمون أن دماء الأشراف والملوك تشفي من عضة الكلب وتشفي من الجنون. قال: وكان أصحابنا يزعمون أن قولهم دماء الملوك شفاء من الكلب على معنى أن دم الكريم هو الثأر المنيم وأن داء الكلب[4] على معنى قول الشاعر[5]:

كليب من حسٍّ ما قد مسه وأفانين فؤاد مختبل[6]

وعلى مثل قوله[7]:

«كلب بضرب جماجم ورقاب[8]»

فإذا كلب من الغيظ والغضب فأدرك ثأره فذلك هو الشفاء من الكلب وليس أن هناك دمًا يشرب في الحقيقة.

قال صاحب الكلب، زعمتم أنه يبلغ من فضل قوة طباع الديك في الإلقاح أنه متى سفد دجاجة وقد احتشت بيضًا صغارًا من نتاج الريح والتراب قلبها كلها

---

(١) استقلت الشمس: ارتفعت وهي مثل استقل الطائر إذا ذهب عاليًا في الجو. العماء: السحاب المرتفع، وقيل الكثيف، وقال أبو زيد: هو شبه الدخان يركب رؤوس الجبال.

(٢) كذا بالأصل ولعل صحته «الكلم» بمعنى الجرح كما في الحماسة والمؤتلف والمعجم والاساة: جمع آس، والآسي: الذي يداوي الجرح أو هو الطبيب.

(٣) الكلبى: جمع كليب وهو المصاب بداء الكلب. وأما الكلب بكسر اللام فجمعه كلبون والأدنف: من الدنف وهو المرض. وفي الأصل: «أدلف» وأثبت ما هنا ما وافق رواية الديوان ٥٦٣/٢.

(٤) في (ط): «الكلاب» وصوابه ما هنا كما في (ش).

(٥) هو النابغة الجعدي: كما في اللسان «حمل» والمعاني الكبير ١١٣٣.

(٦) أفانين فؤاد: أي ضروب نشاطه. ورواية اللسان: «محتمل» قال ابن منظور: «احتمل الرجل - بالبناء للمجهول - «غضب».

(٧) في الأصل: «قولهم» والآتي عجز بيت لحصين بن القعقاع يرثي عتيبة بن الحارث بن شهاب وصدر البيت:

«يوم الحليس بذي الفقار كأنه»

(٨) في (ط): «كلب بضرب» وصوابه ما هنا وما في (ش).

حيوانًا ولو لم يكن سفدها إلا مرة واحدة. وجعلتموه بذلك في غاية الفحلة فطباع الكلب أعجب إلقاحًا وأثقب لأن الكلب الكلب إذا عض إنسانًا فأول ذلك أن [يحبله ويلقحه] وأن يحيله نباحاً مثله وينقله إلى طباعه فصار ينبح كما ينبح ثم يحبله ويلقحه بأجزاء صغار يبولها علقًا في صور الكلاب على بعد ما بين العنصرين والطبعين والجنسين والذي يتولد في أرحام الدجاج من بيض الريح والتراب على حال أقرب مشاكلة إلى طباع الديك.

والكلب هو[1] العجب العجيب لأنه أحبل ذكرًا من خلاف جنسه ولأنه مع الإحبال والإلقاح أحاله نباحًا مثله، فتلك الأدراص[2] وتلك الكلاب الصغار أولاد ونتاج وإن كان لا يبقى.

وقد تعلمون أن أولاد البغلات من البغال لا تبقى وأن اللقاح قد يقع وإنما منع البغل من البغلة لهذه العلة.

كان الأسود بن أوس الحمرة أتى النجاشي ومعه امرأته وهي بنت الحارث أحد بني عاصم بن عبيد بن ثعلبة فقال النجاشي: ألا أعطيك شيئًا من داء الكلب[3]. فأقبل حتى إذا كان في الطريق أتاه الموت، فأوصى امرأته أن تتزوج ابنه قدامة بن الأسود وأن تعلمه دواء الكلب فتزوجته نكاح مقت[4]، وعلمته دواء الكلب فهو إلى اليوم فيهم.

فولد قدامة المحل ـ وأمه بنت الحارث ـ فكان المحل يداوي من الكلب. فولد المحل عقبة وعمرًا، فداوى ابن المحل عتيبة بن مرداس[5] وهو ابن فسوة

---

(١) في الأصل: «والكلب وهو» وذلك تحريف.

(٢) الأدراص: جمع درص بفتح الدال وكسرها، وهو ولد القنفذ والأرنب واليربوع والفأرة والهرة ونحوها.

(٣) مثل هذا الكلام عند ابن قتيبة في العيون ٢/٨٠ والشعراء ٣٣٢.

(٤) نكاح المقت: أن يتزوج الرجل امرأة أبيه بعده وقد نص القرآن الكريم على تحريمه في قوله تعالى: **﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف﴾** (سورة النساء، الآية ٢٢) وقد سرد ابن قتيبة في المعارف ص ٥٠ أسماء طائفة من الرجال الذين خلفوا على زوجات آبائهم منهم كنانة بن خزيمة وهاشم بن عبد مناف، وعمرو بن نفيل.

(٥) في عيون الأخبار أنه (المحل)، وفي الشعراء وفق ما هنا. وفي الأصل: «عيينه» وتصحيحه من العيون والشعراء.

الشاعر[1] فبال مثل أجراء الكلاب علقًا، ومثل الأدراص[2] وصور النمل فقال ابن فسوة حين برئ:

ولولا دواء ابن المحل وعلمه هررت إذا ما الناس هر كلابها
وأخرج عبدالله أولاد زارع[3] مولعة أكتافها وجنوبها[4]

وأولاد زارع: أولاد الكلاب.

وقوله:

ولولا دواء ابن المحل وعلمه هررت ... ...

فإنما ذهب إلى أن الذي يعضه الكلب الكلب ينبح نباح الكلاب ويهر هريرها.

وعضّ كلب رجلاً من بلعنبر فأصابه داء الكلب فبال علقًا في صور الكلاب فقالت بنت المستنثر[5]

أبالك أدراصًا وأولاد زارع وتلك لعمري نهية المتعجب[6]

وعض سنجير الكلب الكلب، فكان يعطش ويطلب الماء أشد الطلب حتى إذا أتوه به صاح عند معاينته له: لا، لا، لا أريد!.

وهكذا يصيب صاحب تلك العضة، وذلك أنه يعطش عنها أشد العطش

---

(١) قال أبو الفرج: هو أحد بني عمرو بن كعب بن عمرو بن تميم وهو شاعر مقل غير معدود في الفحول مخضرم ممن أدرك الجاهلية والإسلام هجاء خبيث اللسان بذيء. وكان لا يزال يأتي أمراء البصرة فيمدحهم فيعطونه ويخافون لسانه وقد روى أبو الفرج حديثًا طويلاً له مع ابن عباس وهو عامل على البصرة لعلي بن أبي طالب، وكان حليفًا لجميل بن معمر، وفيه يقول:

فلو كنت من زهران لم ينس حاجتي ولكنني مولى جميل بن معمر

وترجمته مسهبة في الأغاني (١٩/١٤٢ ـ ١٤٦).

(٢) في الأصل: «الأضراس» وإنما هي «الأدراص» كما سبق.

(٣) في الأصل: «وأجزع» وليس له وجه وصوابه في العيون والشعراء، وفيهما كذلك: «بعد الله» موضع: «عبدالله».

(٤) المولعة: التي بها سواد وبياض مستطيلان.

(٥) في العيون: «فقالت امرأته».

(٦) (ط): «نهبه المتجنب» وفي (م): «نهية المتنجب» وصوابه هنا كما في (ش) وعيون الأخبار والنهية بالضم: غاية الشيء وآخره كالنهاية.

ويطلب الماء أشد الطلب فإذا أتوا به هرب منه أشد الهرب، فقال دلم[1] عبد لبني سعد:

لقد جئت يا سنجير اذا وقلة   إباؤك للشيء الذي أنت طالبه[2]

وكان زياد كتب دواء الكلب، وعلقه على باب المسجد الأعظم[3] ليعرفه جميع الناس.

قال وأنا رأيت كلبًا كلبًا مرة في الحي ونحن في الكتاب عرض لصبي يسمى مهديًا من أولاد القصابين، وهو قائم يمحو لوحة فعض وجهه فنقع ثنيته دون موضع الجفن[4] من عينه اليسرى، فخرق اللحم دون العظم إلى شطر خده، فرمى به، وخرج منه من الدم ما ظننت أنه لا يعيش معه، وبقي الغلام مبهوتًا وأسكته الفزع ثم خيط ذلك المكان، ورأيته بعد ذلك بشهر وقد عاد إلى الكتاب وليس في وجهه من الشتر[5] إلا موضع الخيط الذي خيط به فلم ينبح ولا فزع من الماء ولا بال علقًا ولا أصابه مما يقولون قليل ولا كثير، ولم أجد أحدًا من تلك المشايخ يشك أنهم لم يروا قط (كلباً)[6] أكلب ولا أفسد طبعًا من ذلك الكلب.

[فيكون عندي ما يدعونه من أنه يفزع من الماء وأنه ينبح ويعول الأدراص غير صحيح][7].

«قال ابن سناء الملك في روح الحيوان: إن الجاحظ كما قيل أعلم الناس بما

---

(١) اشتقاق هذا العلم من «الدلم» بالتحريك، وهو شيء شبه الحية يكون في الحجاز ومنه المثل وهو «أشد من الدلم».

(٢) (هـ): «أجلو فلقة» موضع «أدا وقلة» وفي (ش): «أحلو ملقة» والصواب ما هنا.

(٣) هو مسجد البصرة، وكان أول أمره مبنيًا بالقصب ولما ولي البصرة أبو موسى الأشعري بناه باللبن. ولما استعمل معاوية زيادًا على البصرة بنى زياد المسجد بالجص وسقفه بالساج وجعل له سواري اجتلبها من الأهواز، وكانت أرض المسجد تربة فكانوا إذا فرغوا من الصلاة نفضوا أيديهم من التراب فلما رأى زياد ذلك قال لا آمن أن يظن الناس على طول الأيام أن نفض اليد في الصلاة سنة فأمر بجمع الحصى وإلقائه في المسجد.

(٤) بالمخطوطة «النمص» وأصلحته بما في بقية النسخ.

(٥) الشتر: القطع.

(٦) زدته لحاجة الكلام إليه.

(٧) الكلام الذي بين المعكفين سقط من (هـ).

لم يكن وأجهلهم بما كان «لأن فزع المكلوب من الماء ونباحه وبوله الأدراص أمر تواتر عليه الأسماع بل تكرر على العيون عيانة، وقد ذكرت الأطباء أسبابه ووصفوا مداواته واستفاض استفاضة حصل بها العلم وانتفى معها الشك فشكه فيه بل جهله به من العجب العجيب وما غلطه إلا ظنه أن الكلب الفاسد هو الكلب وليس كذلك لأن الفاسد هو الصحيح فلا يؤذي والمكلوب هو المريض»(١).

وفي الكلب والكلب أنشد الأعرابي:

حياكم الله فإني منقلب ... وإنما الشاعر مجنون كلب

أكثر ما يأتي على فيه الكذب

والمكلب الذي يصيب كلابه داء في رؤوسها يسمى الجحام(٢) فتكوى بين أعينها.

وقال آخر: (٣)

ولو هيأ له الله من التوفيق أسبابا ... لسمى نفسه عمرًا وسمى الكلب وثابا

والكلب أشد ما يكون حرصًا إذا كان خطمه يمس عجب الظبي والأرنب والثور وغير ذلك، مما هو من صيده، قال الحسن بن هانئ(٤):

---

(١) الكلام من بداية قوله: «قال ابن سناء الملك» إلى قوله: «والمكلوب هو المريض» يبدو أنه مما أورده ابن منظور لمناقشة رأى الجاحظ كما هو واضح وخلت جميع النسخ من هذا الجزء.

(٢) الجحام كغراب: داء يصيب الإنسان في عينه فترم، وقيل داء يصيب الكلب، وقيل يصيب الكلب في رأسه، وفي الأصل: «الحجام» بتقديم الحاء. وهو تصحيف.

(٣) هو أبو محجن كما في محاضرات الراغب (٢/ ٢٩٥) قاله في رجل يسمى وثابًا ويسمي كلبه عمرا. والشعر سيعيده الجاحظ. وقد ذكر الراغب الشعر أيضًا في ١٥٣/٢ منسوبًا إلى ابن أبي عتيق، فهما روايتان في النسبة.

(٤) هو الحسن بن هانئ اشتهر بأبي نواس مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن وهم الذين يقال فيهم: «حاوحكم» علم كبير من أعلام الأدب والشعر أخباره وأشعاره مفرقة في الدواوين الكبار وقد طبع ديوانه بمصر وألفت كتب كثيرة في أخباره من أجودها (أخبار أبي نواس) لابن منظور صاحب هذا المختصر ولسان العرب وكان أبو نواس بصريًا قال:

ألا كل بصري يرى إنما العلى ... مكمَّهة سحق لهن جرين

الكمة: التي فيها أكمام، جمع كم بضم الكاف وتشديد الميم والسحق بضم السين وسكون =

ربما أغدو معي كلبي طالبًا للصيد في صحبي[١]
فسمونا للقنيص معًا فدفعناه إلى أظب[٢]

ومنها:

غير يعفور أهل به جاب دفيه عن القلب[٣]
فتعايا التيس حين كبا ودنا فوه من العجب[٤]

وقوله: «غير يعفور أهل به» فالإهلال الذي ذكره شيء يعتريه في ذلك الوقت يخرج من جوفه صوت شبيه بالعواء الخفيف، وهو بين العواء والأنين وذلك من حاقِّ الحرص[٥] وشدة الطلب وخوف الفوات ويقال: أهلت السماء إذا صبت واستهلت: إذا ارتفع صوت وقعها ومنه الإهلال بالحج.

ومنه استهلال الصبي قال ابن أحمر[٦]:

يهل بالفرقد ركبانها كما يهل الراكب المعتمر[٧]

= الحاء: جمع سحوق وهي النخلة الطويلة بعد ثمارها على المجتنى والجرين بفتح الجيم وكسر الراء: هو «الجرن» بضم فسكون وهو موضع التمر الذي يجفف فيه ـ وهو أحد المطبوعين، أنظر الشعر والشعراء ٢/٧٩٦ ـ ٧٩٧».

(١) في الأصل: «صحب» والوجه ما هنا.

(٢) السامي: هو الصائد أو الصائد الذي يلبس جوربي شعر ويعدو خلف الصيد نصف النهار ليقيه الجوربان حر الرمضاء فذلك معنى «سمونا» وفي (ط): «شمرنا» وفي (ش): «سمرنا» والوجه ما هنا كما في الديوان والرواية فيه «فسمونا للحزيزبه» والحزيز: ما غلظ من الأرض والأظبى: جمع ظبي.

(٣) اليعفور: الظبي أو ولده. والدفان: الجنبان. «وجاب» كما في الديوان كما في رواية اللسان مادة (هلل)، (هـ): «جاف» وجاف: بلغ بالطعنة الجوف.

(٤) التيس: عنى به هنا الذكر من الظباء، وكبا: سقط لوجهه، والعجب: أصل الذنب.

(٥) في الأصل: «ومن خلق الحرص» وما أثبت هنا هو الصحيح وتكرر في أكثر من موضع بهذا الرسم وحاق الحرص: شدته وقوته. ثم أن صاحب اللسان قد نقل تفسير الجاحظ للإهلال من أوله إلى كلمة «الفوات» ولم يصرح بنسبة القول إلى الجاحظ. وفي اللسان: «حاق الحرص كما هنا.

(٦) في اللسان (مادة هلل): «وقال الراجز»؟ (وليس الكلام رجزًا وإنما هو شعر فما هنا صوابه وقد جاء البيت في (مادة عمر) منسوبًا إلى ابن أحمر. كما نسبه أيضًا لابن أحمر في مادة (ركب) ١/٤٣١ لسان العرب.

(٧) قال ابن منظور: «فيه قولان»: قال الأصمعي: إذا انجلى لهم السحاب عن الفرقد أهلوا أي=

وقال الأعرابي: أرأيت من لا يشرب ولا يأكل[١] ولا صاح واستهل أليس مثل ذلك قد يطل[٢]؟ وإذا شغر الكلب برجله وبال فذلك الدليل على تمام بلوغه للإلقاح وهو من الحيوان الذي لا يحتلم[٣]

وكذا الاحتلام من الغلام فيعرف بأمور: منها انفراق الأرنبة، ومنها تغير ريح أبطيه، ومنها الأنياب ومنها غلظ الصوت.

وفي الغلمان من لا يحتلم، وفي الجواري جوار لا يحضن، وذلك في النساء عيب، وليس مثله في الرجال، بعضهم لم يحتلم إلا مرة أو مرتين، وبعضهم لم يحتلم البتة.

وقال الحسن بن هانئ في نعت كلب:

أنعت كلبًا أهله في كده[٤] قد سعدت جدودهم بجده[٥]
فكل خير عندهم من عنده يظل مولاه له كعبده

= رفعوا أصواتهم بالتكبير كما يهل الراكب الذي يريد عمرة الحج، لأنهم كانوا يهتدون بالفرقد وقال غيره: يريد أنهم في مفازة بعيدة من المياه فإذا رأوا فرقدًا ـ وهو ولد البقرة الوحشية ـ أهلوا أي كبروا لأنهم قد علموا أنهم قد قربوا من الماء»! (هـ). وانظر اللسان (ركب). والفرقد في القول الأول هو الفرقدان: نجمان في السماء لا يغربان، وقيل كوكبان قريبان من القطب وقيل كوكبان في بنات نعش الصغرى، قال ابن منظور: «وقد قالوا فيهما الفراقد.. وربما قالت لهما العرب الفرقد». قال ابن منظور في مادة (ركب) «المعنى: يريد قومًا ركبوا سفينة فغمت السماء ولم يهتدوا فلما طلع الفرقد كبروا لأنهم اهتدوا للسمت الذي يعرفونه، قال: والركبان: ركبوا الدواب» لسان العرب ١/٤٣١.

(١) في الأصل: «من لا أكل ولا شرب» وبذلك يفوت السجع. وكلام الأعرابي هذا سجع. وقد ذكره الجاحظ في باب السجع من البيان ١/٨٣، والأعرابي قال هذا القول عند رسول الله ﷺ حين قضى في الجنين إذا سقط ميتا بغرة ـ الغرة: عبد أو أمة ـ وقد قال له الرسول الكريم بعد أن سمع كلامه: «أسجعًا كسجع الجاهلية».

(٢) في الأصل: «بطل». وإنما هو «يطل» أي يذهب دمه هدرًا كما في البيان ١/٢٨٧ واللسان ونهاية ابن الأثير.

(٣) في الأصل: «لم».

(٤) في كده، من كده. وفي (ط): «في وده» وصوابه ما هنا كما في (ش) وفي الديوان: «من كده» ورواية الدميري ٢/٤٠٢ ومحاضرات الراغب ٢/٢٩٦ «في كده».

(٥) الجدود: جمع جد، بفتح الجيم، وهو الحظ والرزق، والجد بالكسرة الاجتهاد.

وبما يستدل به على فراهية الكلاب.

قال من يجيد ذلك[1]: ان طول ما بين يدي الكلب ورجليه - بعد أن يكون قصير الظهر - من علامة السرعة.

وقال: ويصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل العنق غليظها[2]، وأن يشبه بعض خلقه بعضًا وأن يكون أغضف مفرط الغضف[3].

ويكون بعيد ما بينها[4]، واسع الشدقين بعيد ما بينهما، أزرق العينين عظيم المقلتين[5]، ناتئ الحدقة[6]، طويل الخطم لطيفه[7]، واسع الشدقين ناتئ الجبهة عريضها، ويكون الشعر الذي تحت حنكه كأنه طاقة[8]، ويكون غليظًا، وكذلك شعر خديه، ويكون قصير اليدين طويل الرجلين، لأنه إذا كان كذلك كان أسرع في الصعود بمنزلة الأرانب.

قالوا: ولا يلحق الأرنب في الصعود، إلا كلب قصير اليدين، طويل الرجلين.

وينبغي أن يكون طويل الصدر غليظه، ويكون ما يلي الأرض من صدره عريضًا، غليظ العضدين مستقيم اليدين، مضموم الأصابع بعضها إلى بعض، إذا[9] مشى أو عدا، وهو أجدر ألا يصير بينها من الطين وغيره ما يفسدها[10]، ويكون ذكي الفؤاد نشيطًا، ويكون عريض الظهر، عريض ما بين مفاصل

(١) كذا في سائر النسخ «يجيد» و(هـ) منفردًا «خبر».
(٢) المخطوطة والأصل: «غليظهما» وأثبت الصواب من عيون الأخبار (٢/٨٠).
(٣) الأغضف: المسترخي الأذن.
(٤) وذلك بأن يكون عريض الجبهة.
(٥) القلة: شحمة العين التي تجمع البياض والسواد.
(٦) الحدقة: سواد العين.
(٧) الخطم: مقدم الفم والأنف.
(٨) الطاقة: الحزمة من الريحان ونحوه. وفي عيون الأخبار: (وأن يكون الشعر الذي تحت حنكه طاقة طاقة).
(٩) في الأصل: (وإذا).
(١٠) في (ط): (أو هوى جدارنا لا يصير) الخ، والصواب ما هنا كما في (ش).

عظامه، عريض ما بين عظم أصل الفخذين اللذين يضمان[١] أصل الذنب، طويل الفخذين غليظها شديد لحمها، ويكون رزين المحزم[٢]، دقيق الوسط، طويل الجلدة التي بين أصل الفخذين والصدر، مستقيم الرجلين، ولا يكون في ركبته انحناء [٣]، ويكون قصير الساقين دقيقها، كأنها خشبة من صلابتها.

وطول الأذناب محمود في الإناث، ويكره ذلك للذكورة.

ولين شعره مما يدل على القوة.

وقد يرغب ذلك في جميع الجوارح من الطيور وذوات الأربع، من لين الريش لذوات الريش، ولين الشعر لذوات الشعر. وزعم أن لين الشعر في عتاق الخيل علامة صالحة. وينبغي أن يكون الكلب شديد المنازعة للمقود والسلسلة، وأن لا يكون العظم الذي يلي الجنبين من عظام الجنبين صغيرًا بل في قدر ثلاثة أصابع.

وزعم أن السود منها أقل صبرًا على البرد والحر، وأن البيض أفره إذا كن سود العيون.

ومن علامة الفره التي ليس بعدها شيء، أن يكون على ساقيه أو على إحداهما[٤] أو على رأس الذنب مخلب، وينبغي أن يقطع من الساقين، لئلا[٥] يمنعه من العدو.

وذكر أن خير الأشياء التي تطعمه[٦] الكلاب الخبز الذي يبس، ويكون

---

(١) (هـ) (يجيبان) موضع (يضمان).
(٢) المحزم: موضع الحزام من الدابة. وهي في الأصل: (الحمل) وليس لها وجه. والرزين: الثقيل.
(٣) كذا في (ط) و(ش) إلا أن كلمة (اغثاء) وردت موضع (انحناء) في (ط). والعبارة في عيون الأخبار (٢/ ٨١) (ويكون في ركبته انحناء) وكذلك في (هـ).
(٤) في الأصل وكذا في عيون الأخبار: «أحدهما» والساق مؤنثة.
(٥) في (ط): «ما يمنعه» وفي (ش): «ألا يمنعه» والمخطوطة: «لأنه يمنعه» والصواب ما أثبت. والذي يقطع هو المخلب.
(٦) كذا في الأصل. و(ط)، (هـ): «تطعمها الكلب».

الماء الذي يسقاه يصب عليه شيء من الزيت، فإن ذلـك كالقت[1] المحض للخيل. ويشتد عليه عدوه.

قال: وخير الطعام في إسهان الكلاب رأس مطبوخ، وأكارع بشعرها، من غير أن تطعم من عظامها شيئًا، والسمن إذا طعم منه قدر ثلاث سكرجات[2] مرتين أو ثلاث مرات فإن ذلك مما يسمنه، ويقال إنه يعيد الهرم شابًا، في الصيد وفي المنظر. والعظام والثريد من أردأ ما تأكله للعدو وخير شيء يداوى به الكلب من وجع البطن والديدان، أن يطعم قطعة ألية وصوف شاة معجـونًا بسمن البقر، فإنه يلقي كل دود وقذر في بطنه.

وخير ما يعالج به الحفا[3] أن يدهن آسته ثـلاثة أيـام، ويجم فيها ولا يستعمل، أو يمسح على يديه ورجليه القطران.

وذكروا عن خزيمة بن طرخان الأسدي، من أهل همذان[4]، أنه ليس من علاج الكلب خير من أن يحقن. [وفي نسخة خير من أن يسقى العين[5]، وفي نسخة خير من أن يجعل في حره شيء من سمن بقر مع ملح أندراني وشيء من صعتر][6].

ويقال: كدي الجرو يكدي كدى[7] وهو داء يأخذ الجراء خاصة، يصيبها

---

(١) في اللسان والقاموس: «ألقت الفصفصة» والفصفصة في تذكرة داود الطبيب يقول: إنها تعرف في مصر بالبرسيم اهـ. وفي (ط): «كاللفت» وهو تحريف صوابه بالمخطوطة و(ش).

(٢) في شفاء الغليل للخفاجي: «سكرجة بضم السين والكاف وفتح الراء المشددة، ومنهم من ضمها والصواب الفتح، معرب. ومعناه مقرب الخل، وفي اللسان: «إناء صغـير يؤكل فيـه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية، وأكثر ما يوضع فيها الكوامخ. وقد ذكر لها الإسكافي (في مبادئ اللغة ٥٧) اسمًا عربيًا هو «المصبغة» التي يجعل فيها الصبغ بالكسر أي الإدام.

(٣) في الأصل: «للحفا»، وفي عيـون الأخبار (٨١/٢): وإذا حفى دهنت استـه» والحفا: رقـة القدم».

(٤) في الأصل: «همذان»، وهمذان: قبيلة يمنية، وإنما هو «همذان» بلد بديع الزمان.

(٥) كذا.

(٦) سقطت العبارة التي بين المعكفين من باقي النسخ. وعلها زيادة لابن منظور. وإذا كان كذلك فهذا دليل على أنه قرأ أكثر من نسخة للحيوان.

(٧) (ط): «كداء» وصوابه ما هنا و(ش) والمخصص ٨٢/٨.

منه قيء وسعال، حتى تكوى بين عينيها، ويقال أكدى الرجل إكداء: إذا لم يظفر بحاجة.

والكدية من الأرض: ارتفاع في صلابة. ويقال في الماء: حفر فأكدى.

وزعم صاحب المنطق أن الكلاب تمرض فتأتي حشيشة[1] تعرفها بعينها، فتأكل منها فتبرأ. وأن الكلاب إذا كان في أجوافها دود، وأكلت سنبل القمح تبرأ.

وزعم صاحب المنطق أن العقاب تأكل الحيات، وأن بينهما عداوة، لأن الحية أيضًا تطلب بيضها وفراخها.

والغداف يقاتل البومة، لأن الغداف يخطف بيض البومة نهارًا. وتشد البومة على بيض الغداف ليلاً فتأكله، لأن البومة ذليلة بالنهار ردية النظر[2]، وإذا كان الليل لم يقوَ عليها شيء من الطير والطيور كلها تعرف البومة بذلك، وصنيعها بالليل[3] فهي تطير حول البومة[4] وتضربها وتنتف ريشها. [ولحرصها على ذلك منها][5] صار الصياد ينصب للطير بالبومة.

والغداف يقاتل ابن عرس، لأنه يأكل بيضه وفراخه.

وبين الحدأة والغداف قتال، لأن الحدأة تخطف بيض الغداف لأنها أشد مخالب وأسرع طيرانًا.

---

(١) في سائر النسخ: إن الكلاب تأتي حشيشة «وعلى هامش اللوحة ١/٩٥. وقد كتب ابن منظور «معاداة الحيوان» وفي أسفل نفس اللوحة «يقاتل» قبل: «الظربان» وهي كلمة تكمل الجملة: «يقاتل الظربان».

(٢) وردت الكلمة: «البصر» في (مب).

(٣) (ط): «وصنيعها فإذا رأيتها» وصوابه ما هنا كما في (ش).

(٤) (ط): «حولها البومة» وصوابه ما هنا و(ش).

(٥) وردت في (هـ)، (ط): «بدلاً من التي بين المعكفين هذه العبارة:» ومن أجل ذلك صار الصيادون ينصبونها للطير.

وبين الأطرغلة[١] وبين الشقراق[٢] قتال، لأنه يقتل الأطرغلة ويطالبها[٣].

وبين العنكبوت والعظاية[٤] قتال لأن العظاية تأكل العنكبوت. وعصفور الشوك يعبث بالحمار وعبثه ذلك هو قتاله[٥]، لأن الحمار إذا مر بالشوك وكان به دبرة[٦] أو جرب تحكك به، ولذلك متى نهق الحمار سقط بيض عصفور الشوك وفراخه تخرج من عشها ولهذه العلة يطير العصفور خلف الحمار وينقر رأسه.

والذئب مخالف للثور والحمار والثعلب جميعًا لأنه يأكل اللحم النيء[٧] ولذلك يقع على البقر والحمير والثعالب.

وبين الثعلب والزرق[٨] خلاف لهذه العلة لأنهما جميعًا يأكلان اللحم. والغراب يخالف الثور والحمار جميعًا ويطير حولهما وربما نقر عيونهما. قال الشاعر:

عاديتنا لا زلت في تباب عداوة الحمار للغراب

قال: ولا أعرف هذا من قول صاحب المنطق لأن الثعلب لا يجوز أن يعادي من بين أحرار الطير وجوارحها الزرق وحده وغير الزرق آكل اللحم. وإن كان سبب عداوته له اجتماعهما على أكل اللحم، فليبغض العقاب من الطير،

---

(١) الأطرغلة: «اسم يقع على الدبسية والقمرية والفاختة المطوقة، انظر القاموس (الأطرغلات) و(صلل).

(٢) الشقراق بفتح الشين وكسرها: طائر صغير يسمى الأخيل وهو أخضر مليح بقدر «الحمامة وخضرته حسنة مشبعة وفي أجنحته سواد والعرب تتشاءم به. وقال الجاحظ: إنه نوع من الغربان وفي طبعه العفة عن السفاد وهو كثير الاستغاثة، إذا ضاربه طائر ضربه وصاح كأنه المضروب. الدميري.

(٣) في الأصل: «ويطالبه».

(٤) قال الأزهري: هي دويبة ملساء تعدو وتتردد كثيرًا تشبه سام أبرص إلا أنها أحسن منه ولا تؤذي وتسمى شحمة الأرض. الدميري.

(٥) (هـ): «وعبثه ذلك قتال له» موضع «وعبثه ذلك هو قتاله».

(٦) الدبرة بالتحريك: قرحة الدابة والبعير، والجمع دبر وأدبار مثل شجرة وشجر وأشجار وهي في (ط): «بدرة» وصوابها في (ش)، وانظر نهاية الأرب ١٠/١٧.

(٧) في الأصل: «النى» وإنما هو «النيء».

(٨) الزرق، كسكر: طائر يصاد به بين البازي والباشق.

والذئب من ذوات الأربع فإنها آكل للحم. ولعل المترجم قد أساء عنه في الأخبار.

والحية تقاتل الخنزير وتقاتل ابن عرس وإنما تقاتل ابن عرس إذا كان مأواهما في بيت واحد، ولأن الخنزير يأكل الحيات. ويزعمون أن الذي يأكل الحيات القنافذ، والعقبان. قال: فالحية تعرف هذا من الخنزير فهي تطالبه.

والغراب مصادق للثعلب والثعلب مصادق للحية، والأسد والنمر مختلفان. قال: وبين الفيلة اختلاف شديد وكذلك ذكورها وإناثها وهي تستعمل الأنياب إذا قاتل بعضها بعضًا وتعتمد بها على الحيطان فتهدمها وتزحم النخلة بجنبها فتصرعها.

فإذا صعب من ذكورتها شيء احتالوا له حتى يكومه[1] ذكر آخر فإذا كامه خضع أبدًا. وإذا اشتد خلقه وصعب عصبوا رجليه ويقال إن البعير إذا صعب وخافه القوم، استعانوا عليه فبركوه[2] وعقلوه حتى يكومه فحل آخر فإذا فعل ذلك ذل!

وأما أصحابنا فحكوا عجائب من العداوة بين الفيل والسنور ـ وهذا أعجب ـ ذهبوا إلى فزع الفيل من السنور، ولم يروه يفزع مما هو أشد وأضخم، وهذا الباب على خلاف الأول كأن ذلك الباب بني على عداوة الأكفاء.

والشاة من الذئب أشد فرقًا منها من الأسد وإن كانت تعلم أن الأسد يأكلها. وكذلك الحمام يعتريه من الشاهين ما لا يعتريه من العقاب والبازي والصقر. وكذلك الفأرة من السنور، وقد يأكلها ابن عرس. وأكثر ذلك يقتلها ولا يأكلها. وهي من السنور أشد فرقًا.

والدجاجة تأكلها أصناف من السباع والثعالب تطالبها مطالبة شديدة ولو كان دجاج على رف مرتفع أو على أغصان شجرة شاهقة، ثم مر تحتها كل صنف مما يأكلها فإنها تكون مستمسكة بما تحتها معتصمة بالأغصان التي هي

(١) يكومه: يعتليه اعتلاء ذكورة الحيوان لإناثها.
(٢) كذا في الأصل (ط)، (هـ) «فأبركوه».

عليها. فإن مر من تحتها ابن آوى وهن ألف، لم تبق واحدة إلا وترمي بنفسها إليه.

والسبع لا يأكل الحار، والسنور لا يذوق الحموضة، ويجزع من الطعام الحار. قال: وإذا ضرب الأسد شيئًا بمخالبه رأيت مواضع آثار مخالبه في أقدار شرط الحجام أو أزيد شيئًا[1] إلا أنه من داخل واسع خرب[2] كأن الجلد ينضم على سم مخالبه فيأكل ما هنالك. قال وأما عضته فإن دواءها ودواء عضة الكلب سواء[3].

[ومن خصال الكلب أن جميع خوف الأسد يشبه خوف الكلب][4]. ومما يشبه فيه الكلب الأسد انطباق أسنانه. ومما أشبه فيه الكلب الأسد النهم، فإن الأسد يأكل أكلاً شديدًا ويمضغ مضغاً متداركاً ويبتلع البضع الكبار[5] من حاق الرغبة[6] ومن الحرص وكالذي يخاف الفوت. ولما نازع السنور من شبهه[7] صار إذا ألقيت له بضعة[8] لحم فإما أن يحملها ويأكلها حيث لا تراه، وإما أن يأكلها وهو يكثر التلفت وإن لم يكن بحضرته سنور ينازعه، والكلب يعض على العظم ليرضه فإن مانعه شيء وكان مما يسيغه ابتلعه وهو واثق بأنه يستمريه ويسيغه.

والنهم يعرض للحيات فالحية لا تبتلع ولا تمضغ إلا ذوات الراسات[9] وهي غير ذوات الأنياب فإنها تمضغ المضغة والمضغتين فإن ابتلعت شيئًا فيه عظم أتت عودًا شاخصًا فالتوت عليه فحطمت العظم والحية قوية جدًا.

---

(١) (هـ): «قليلاً» موضع «شيئًا».
(٢) (ط)، (هـ): «أوسع خرزًا» موضع «واسع خرب».
(٣) وردت العبارة في (هـ): «فإن دواءها دواء عضة الكلب».
(٤) سقط ما بين المعكفين من (هـ).
(٥) البضع بالفتح: وكعنب وصحاف وثمرات: جمع بضعة بالفتح وقد تكسر، وهي القطعة من اللحم.
(٦) حاق الرغبة: شدتها وصدقها. وفي (هـ): «خاق» وصوابها ما هنا.
(٧) (ط): «شبه» وأثبت ما وافق ما في (ش).
(٨) (هـ): «قطعة» موضع «بضعة».
(٩) هذا الجمع للجاحظ، والرأس يجمع على رؤوس وأرؤس.

والأسد وإن كان مما لا يفارق الغياض ولا يفارق الماء فإنه قليل الشرب للماء وليس يلقي رجعه إلا مرة في اليوم وربما كان في اليومين والثلاثة، ورجعه يابس شديد اليبس متعلق شبيه بخر [(١)] الكلب ويشبهه أيضًا من جهة أخرى وذلك أنهما جميعًا إذا بالا شغرا [(٢)].

والكلب من أسماء الأسد، لقرابة ما بينه وبين الكلب.

والكلب يشبه الخنزير فإن الخنزير يسمن في أسبوع وإن جاع أيامًا ثم أشبع شبعة تبين ذلك تبينًا ظاهرًا.

ويقال: ليس في الأرض فحل من جميع أجناس الحيوان لذكره حجم ظاهر إلا الإنسان والكلب. وليس في الأرض شيئان يتسافدان فيتشابكان من فرط إرادة طباع كل واحد منهما لطباع صاحبه حتى يلتحم عضو الذكر بعضو الأنثى حتى يصير التحامهما كالتحام الخلقة والبنية، لا كالتحام الملامسة والملازمة[(٣)]، إلا كما يوجد من[(٤)] التحام قضيب الكلب لثفر[(٥)] الكلبة.

وقد يلزق القراد ويغمس العلس[(٦)] مقاديمه في جوف اللحم، حتى يرى صاحب القراد أنه ثؤلول[(٧)]. فما القراد المضروب به المثل في الالتحام إلا دون التحام الكلبين.

ولذلك إذا ضربوا المثل للمتباضعين بالسيوف والملتقين للصراع فالتف

---

(١) (ط)، (هـ): «برجيع» موضع «بخر».

(٢) شغر: رفع إحدى رجليه.

(٣) في الأصل: «كالالتحام الملامسة والملازمة» وهو تحريف.

(٤) سقط هذا الحرف من (ط).

(٥) كذا بالأصل (ط)، (هـ): «بثفر».

(٦) العلس بالتحريك: القراد الضخم وهي في الأصل: العلق». والعلق: دود أسود وأحمر يكون بالماء يعلق بالبدن ويمص الدم وهو من أدوية الحلق والأورام الدموية. كذا قال الدميري.

(٧) الثؤلول: بثر صغير صلب مستدير على صور شتى. وفي الأصل: «حتى يرى صاحب القراد أنه ثؤلول»، والقراد لا يصيب الناس وهو موكل بالإبل.

بعضهم ببعض، قالوا: كأنهم الكلاب المتعاظلة[١]. وليس هذا النوع من السفاد إلا للكلاب. وكان اسماعيل بن غزوان[٢] قد تعشق جارية لمويس بن عمران[٣] فكانت إذا وقعت إليه وقعة لم تمكث عنده إلا بقدر ما يقع عليها فإذا فرغ لبست خفها وطارت وكان اسماعيل يشتهي المعاودة وأن يطيل الحديث ويريد القرص والشم والتقبيل والتجريد ويعلم[٤] أنه في الكوم الثاني والثالث أجدر أن ينظر[٥] وأجدر أن يشتفي - فكان ربما ضجر ويذكرها بقلبه وهو في المجلس، فيقول: يا رب امسخني وإياها كلبين ساعة من ليل أو نهار[٦] حتى يشغلها الالتحام عن التفكير في غضب مولاتها إن احتبست!!

وفي الكلبة أعجوبة أخرى: وذلك أنه يسفدها كلب أبقع وكلب أسود وكلب أبيض وكلب أصفر، فتؤدي إلى كل سافد شكله وشبهه، في أكثر ما يكون ذلك!

وأما تأويل الظالع في قول الحطيئة:

تسديتها من بعد ما نام ظالع الـ ـكلاب وأخبى ناره كل موقد[٧]

قال الأصمعي: يظلع الكلب لبعض ما يعرض للكلاب، فلا يمنعه ذلك

---

(١) من أيام العرب المعروفة يوم العظالى وهو يوم بين بكر وتميم، سمي بذلك لركوب الناس فيه بعضهم بعضًا. وقال الأصمعي: ركب فيه الثلاثة والاثنان الدابة الواحدة. وقيل: سمي بذلك لأنه تعاظل فيه على الرياسة بسطام بن قيس، وهانئ بن قبيصة، ومفروق بن عمرو والحوفزان.

(٢) اسماعيل بن غزوان هذا ممن ردد الجاحظ ذكرهم في كتابه (البخلاء) وكثيرًا ما يقرنه بسهل بن هارون وكان ممسكًا شديد البخل يحتج للبخل بكلام عجيب، أنظر البخلاء ص ١٣٠، وكان اسماعيل يوصف بحسن الفهم وجودة الاستماع (البيان ٣/١٦٣، ٢١٢).

(٣) مويس بن عمران كان من بخلاء الناس وأحد من احتج للبخل وهو من معاصري الجاحظ (انظر البخلاء ٥٨). وفي الأصل: «موسى بن عمران، وإنما هو «مويس» كما في البخلاء وكما في القاموس. وكان مويس من المتكلمين.

(٤) في (ط)، (ش): «وليعلم» والوجه ما هنا كما في (م).

(٥) بالبناء للمجهول من أنظره بمعنى أمهله والمقصود به المطاولة.

(٦) في الأصل: «والنهار» (هـ) «من الليل أو النهار» وكذلك (ط).

(٧) تسداها: علاها. ولم أرَ هذا البيت في ديوان الحطيئة برواية السكري، وهو في أمثال الميداني ١/٢٤ برواية: «ألا طرقتنا بعد..» وقال الميداني: «يضرب مثلاً في تأخير قضاء الحاجة». والرواية في اللسان (ظلع) «تسديتنا» وقال: «يخاطب خيال امرأة طرقه».

من أن يهيج في زمن هيج الكلاب فإذا رأى الكلبة المستحرمة[1] لم يطمع في معاظلتها والكلاب منتبهة تنبح، فلا يزال منتظرًا[2] لوقت فترة الكلاب ونومها وذلك من آخر الليل.

وقال طفيل الغنوي[3]:

أنــاس إذا مــا أنكــر الكـلب أهـله   حموا جارهم من كـل شنعاء مضلع[4]

يقول: إذا تكفروا في السلاح لم تعرفهم كلابهم.

ولم يدع جميع أصحاب المعارف إلا أن الكلب أشد إثباتًا وأصدق حسًا. وفي ذلك يقول الآخر:

فــلا تـرفعي صــوتًا وكــوني قصيــة   إذا ثـوب الـداعي وأنكــرني كلبي[5]

يقول: إياك والصياح[6] إذا عاينت الجيش.

---

(١) استحرمت الكلبة: اشتهت.

(٢) في الأصل: «فلا تزال تنتظر»، (ط)، (هـ): «فلا يزال ينتظر» والمخطوطة كما أثبت.

(٣) هو طفيل بن عوف ينتهي نسبه إلى غني بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان وهو شاعر جاهلي من الفحول المعدودين يقال انه أقدم شعراء قيس وهو والنابغة الجعدي وأبو داؤد الأيادي أوصف العرب للخيل. جـ ١ ص ٨٤ ديوان الحماسة شرح التبريزي.

(٤) هذا البيت رواه أبو علي في الأمالي (١/٥٥) بهذه الرواية: مطابقًا لديوانه ٢٨

أنــاس إذا مــا أنكــر الكــلب أهـله   حمــوا جـارهم من كــل شنعــاء مضلغ

كما هو في المخطوطة قال أبو علي: «ويروى: مقظع» قال: «ومضلع» شديدة، يقال أضلعني الأمر: إذا اشتد علي وغلبني (اهـ). وقال في اللسان ولم يروِ البيت: «وداهية مضلعة تثقل الأضلاع وتكسرها» فيظهر أن ما في (هـ)، (ش)، (م).

... ...   حمــوا جـارهم من كــل شنعـاء مــظلع

رواية ثالثة في البيت وفي (ط): «تطلع» وهي تحريف و«مظلع»: تجعل صاحبها يظلع: أي يعرج، وجاء في الحديث: «الحمل المضلع، والشر الذي لا ينقطع، إظهار البدع» فقال ابن الأثير: «ولو روي بالظاء من الظلع: العرج والغمز لكان وجهًا». و«الشنعاء» قال أبو علي: هي الداهية المشهورة.

(٥) القصية: البعيدة. والداعي: الذي يدعو الناس إلى القتال. ثوب: دعا مرة بعد أخرى.

(٦) كذا جميع النسخ ما عدا (هـ): «الصراخ».

وقوله: «أنكرني كلبي»، يخبر أن سلاحه تام من الدرع والبيضة والمغفر[1] فإذا تكفر بسلاحه أنكره كلبه فنبحه[2].

وقوله:

إذا خرس الفحل وسط الحجور[3] وصاح الكلاب وعق الولد

قوله: إذا خرس الفحل فإن الفحل إذا عاين الجيش وبوارق السيوف لم يلتفت لفت الحجور. وقوله: وصاح الكلاب، الكلاب في تلك الحال تنبح أربابها كما تنبح سرعان الخيل إليهم[4]، لأنها لا تعرفهم من عدوهم.

وقوله: وعق الولد فإن المرأة إذا صبحتهم الخيل ونادى الرجال يا صباحا ذهلت عن ولدها وشغلها الرعب عن كل شيء. فجعل تركها احتيال ولدها والعطف عليه في تلك الحالة، عقوقًا منها لهم، وهو قول الناس: نزلت بهم أمور لا ينادى وليدها[5] واستعاروا هذه الكلمة فصيروها في هذا الوضع من هذا المكان.

وقد ذكر ذلك مزرد بن ضرار وغيره فقال:

تبرأت من شتم الرجال بتوبة إلى الله مني لا ينادى وليدها[6]

---

(١) المغفر كمنبر: زرد يلبس تحت البيضة ويغطي العنق وقيل حلق يتقنع به المتسلح. والبيضة: غطاء حديدي للرأس.

(٢) تكفر بسلاحه: دخل فيه فاستترت هيئته.

(٣) جاء هذا البيت منثورًا بالمخطوطة وكتبته على هذه الهيئة. وبقية النسخ: «الحجون» وهو تحريف صوابه ما هنا. والحجور كالحجورة والأحجار: جمع حجر بالكسر وهي الأنثى من الخيل.

(٤) سرعان الخيل بالتحريك: أوائلها، وقد يسكن.

(٥) وقال أبو عبيد: معناه أمر عظيم لا ينادى فيه الصغار وإنما يدعى فيه الكهول والكبار، وقال الكلابي: هذا مثل يقوله القوم إذا خصبوا وكثرت أموالهم فإذا أهوى الصبي إلى شيء ليأخذه لم ينه عن أخذه، ولم يصح به لكثرته عندهم. الميداني (٢/٣١٢). وقال أبو العميثل: الصبيان إذا رأوا شيئًا عجبًا تحشدوا له، مثل القراد والحاوي فلا ينادون ولكن يتركون يفرحون. أدب الكاتب ٤٨ ـ ٤٩.

(٦) مثل هذه الرواية في اللسان (ولد) مع النسبة إلى ضرار. والبيت في الميداني (٢/٣١٣) غير منسوب والرواية فيه هكذا:

فاقصرت عن ذكر الغواني بتوبة إلى الله مني لا ينادى وليدها

وقال آخر:

إذا عـمـي الـكـلب في ديـمـة وأخـرسـه الله مـن غـير صر[1]

فالذي يخرسه إفراط البرد، وإلحاح المطر كما قال الهذلي: [2].

وليلة يصـطلي بـالفـرث جـازرهـا يختص بـالنقرى المـثرين داعيهـا[3]

لا ينبـح الكلب فيهـا غـير واحـدة من العشـاء ولا تسري أفـاعيهـا[4]

والكلب إذا ألحت عليه السحائب بالأمطار في أيام الشتاء لقي جهدًا[5] فمتى أبصر غيمًا نبحه، لأنه عرف ما يلقى من مثله، وفي المثل: «لا يضر السحاب نباح الكلاب»[6] وقال الشاعر:

ومـا لي لا أغـزو ولـلدهـر كـرة وقـد نبحت نحـو السـماء كـلابهـا

يقول: كنت أدع الغزو مخافة العطش على الخيل والأنفس فما عذري اليوم والغدران كثيرة، ومناقع المياه موجودة[7].

والكلاب لا تنبح السحاب إلا من إلحاح المطر وترادفه.

وقال ابن هرمة:

وآسـأل الجـار والمعصب والأضيـا ف وهـنـا إذا تحـيـوا لـديًـا[8]

كـيـف يـلقـونـني إذا نـبـح الـكـلـ ـب وراء البيـوت نبحًـا خـفيـا [9]

يقول: الكلب وإن أخرسه البرد الذي يكون مع المطر والريح التي تمر

---

(١) من هذا المعنى ما أنشده الميداني (٢/٣١٣) من قول الآخر:

لقـد شرعت كفـا يـزيـد بن مـزيـد شرائـع جـود لا يـنـادى ولـيـدهـا

(٢) والديمة: المطر الدائم، والقر: البرد الشديد.

(٣) يقال دعا النقرى: إذا خص بدعوته، والجفلى: إذا عمم في دعوته.

(٤) (ط)، (هـ): «من الصقيع» موضع «من العشاء».

(٥) (ط)، (هـ): «جنة» موضع «جهدًا» والأخير هو الوجه، والجنة: الجنون، والكلب لا يجن بل يجد جهدًا من عناء البرد.

(٦) االمثل عند الميداني (٢/١٤٨) وقال: يضرب لمن ينال من إنسان بما لا يضره».

(٧) كذا بالأصل، (هـ): «موفورة».

(٨) سبق شرح البيت والكلام عنه.

(٩) (هـ): «وراء الكسور» موضع «وراء البيوت».

بالصحارى المطرة فتبرد، فإن الكلب وإن ناله ذلك فإن ذلك من خصب وليس ذلك من صر[١].

وذكر فرعون ذو الأوتاد عند أبي حية النميري[٢]، فقال أبو حية: الكلب خير منه وأحزم فقيل له: كيف خصصت الكلب بذلك؟ قال: لأن الشاعر يقول:

ومـا لي لا أغـزو ولـلدهـر كـرة   وقـد نبحت نحـو السـماء كـلابهـا

وقال الفرزدق

فـإنـك إن تهجـو حنيفـة سـادرًا   وقبلك قـد فـاتـوا يـد المتنـاول[٣]
كفرعـون إذ يـرمي السـماء بسهمـه   فـرد عليـه السهم أفـوق نـاصـل[٤]

ففرعون يرمي السماء من فرط جهله، والكلب ينبح السماء من جودة فطنته.

وزعم فهد الأحزم[٥] أن الكلب إنما عرف مخرج ذلك الشيء المؤذي له حتى نبحه بالقياس لأنه إنما نبحه بعد أن توالى عليه الأذى من تلك الجهة. وكان فهد[٦] يتعصب للكلب، فقلت له: وكذلك الحمار إذا رفعت عليه السوط مر من تحتك مسرعا[٧]، فبالقياس علم أن السوط متى رفع حط، ومتى حط أصابه ألم، فما فضل الكلب في هذا الموضع على الحمار [والحمار هو المضروب به المثل في الجهل والموصوف به][٨].

---

(١) لأن الصر أقوى من البرد.

(٢) هو الهيثم بن الربيع وكان يروي عن الفرزدق وكان كذابًا قال ذات يوم: عن لي ظبي فرميته، فراغ عن سهمي فعارضه ـ والله ـ ذلك السهم، ثم راغ فراوغه السهم حتى صرعه!! ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٧٧٤، المؤتلف ١٠٣، الأغاني ١٥/٦١ ـ ٦٢ الخزانة ٤/٢٨٣ ـ ٢٨٥.

(٣) البيتان غير موجودين في ديوان الفرزدق. وفيهما اقواء.

(٤) (ش): «ناصل» كما بالمخطوطة (ط)، (م): «ناضل» والصواب ما هنا كما في التنبيه على الحماسة لابن جني (مصورة معهد المخطوطات)، عند قول الحماسي: (كساق الجرادة أو امشى. والسهم الأفوق: المكسور الفوق بالضم وهو موضع الوتر من السهم. والناصل: الذي خرج سهمه قال ابن جني: «أي أفوق ناصليا».

(٥) كذا في (ش). وفي (م): «الأخرم» موضع «الأحزم» وفي (ط): «فهذا جزم وهو تحريف.

(٦) (ط): «وكان فهدًا» وهو تحريف ما هنا و(ش) و(م).

(٧) (ط)، (هـ): «من تحتك مرًا حثيثًا».

(٨) وردت الجملة التي بين المعكفين في (هـ) هكذا: «والحمار هو الموصوف بالجهل».

وقول الشاعر:

مـا لـك لا تنبـح يـا كلب الـدوم   قـد كنت نبـاحـا فـما بـال اليـوم

قال: كان هذا رجل ينتظر عيرًا له تقدم فكان إذا جاءت العير نبح الكلب، فاحتبست عليه العير، فقال كالمتمني وكالمنتظر المستبطئ: ما لك لا تنبح؟ أي ما للعير لا تأتي.

حجّ أيّاس بن معاوية[1] فسمع نباح كلب فقال: هذا كلب مشدود. ثم سمع نباحه فقال: قد أرسل. فانتهوا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال. فقال له غيلان أبو مروان[2]: كيف علمت؟ قال: كان نباحه وهو مشدود[3] يسمع من مكان واحد، فلما أطلق سمعته يقرب مرة ويبعد مرة ويتصرف في ذلك.

وسمع ذات ليلة وقد مرّ بماء صوت كلب فقال: أسمع صوت كلب غريب، فقيل له: كيف عرفت ذلك؟ قال: بخضوع صوته وشدة نباح الآخرين. فسألوا فإذا كلب غريب مربوط والكلاب تنبحه.

قال بعض العلماء: كلب أبقع وفرس أبلق وكبش أخرج[4]، وتيس أبرق،

---

(١) هو أياس بن معاوية بن قرة المزني، أبو وائلة: قاضي البصرة وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء يضرب المثل بذكائه. قال الجاحظ: «أياس من مفاخر مضر ومن مقدمي القضاة، كان صادق الحدس نقابًا، عجيب الفراسة، وللمدائني كتاب سماه «زكن أياس» أقام بواسط وتوفي بها سنة ١٢٢هـ. ترجمته في (الأعلام ٣٧٦/١، البيان والتبيين ٥٦/١ وفيات الأعيان ٨١/١، ميزان الاعتدال ١٣١/١).

(٢) قال ابن النديم في شأنه: «وقد استقصيت خبره في مقالة المتكلمين في أخبار المرجئة، ولرسائله مجموع نحو ألفي ورقة». كما عده في الكتاب المترسلين بعد عبد الحميد الكاتب. وقد قرنه الجاحظ في البيان بابن المقفع وسهل بن هارون وعبد الحميد (البيان ٢٩/٣) وقد أثبت له ابن قتيبة نموذجًا من رائع كلامه في عيون الأخبار ٣٥٤/٢. وانظر ترجمته في المعارف ٢١٢.

(٣) (هـ): «موثق» موضع «مشدود».

(٤) كذا بالأصل، (ط)، (هـ): أملح، والأملح: الأبيض يخالط لونه سواد. هما بمعنى وجاء في فقه اللغة ص ٥٧ ما يأتي: «فصل في تقسيم السواد والبياض على ما يجتمعان فيه: فرس أبلق، تيس أخرج، كبش أملح، ثور أشبه، جبل أبرق، أبنوس ملمع، سحاب أغر، أفعوان أرقش، دجاجة رقطاء».

وثور أشيه[1].

ويقال: كلب وكلاب وكليب، ومعزى وماعز ومعيز.

وقال حموية الخريبي[2] وأنشدوه[3] [هذا البيت][4]:

كـأنـك بـالمبـارك بعـد حـين تخـوض غـماره بقـع الكـلاب[5]

وأنشدوه:

أرسلت أسداً على سـود الكلاب فقـد أمسى شريـدهم في الأرض فـلالا[6]

فقال: لا خير في البقع البتة، وسود الكلاب أكثرها عقورا.

وخير الكلاب ما كان لـونه يـذهب إلى ألوان الأسـد من الصفرة والحمـرة والتبقيع هجنة.

وخـير السـنـانـير الخـلـنـجيـة وخـير الكـلاب للصيـد البـيض وألوان الأسد للهراش [الحمر والصفر][7]، والسود للذئاب وهي شرها.

وقـال النبي ﷺ: «لولا أن الكـلاب أمة من الأمم لأمـرت بقتلها، ولكن اقتلوا [منها][8] كل أسود بهيم».

---

(١) هذه الكلمة غير موجودة في مادة «شيه» أو «شوه» وإنما هي من مادة «وشى»، قال في الصحاح «الشية» كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره. وفي اللسان: «والشية سواد في بياض أو بياض في سواد، الجوهري وغيره كما سبق وأصله من الوشي والهاء عوض عن الواو الذاهبة من أوله والجمع شيات.

(٢) الخريبي: نسبة إلى الخريبة. موضع بـالبصرة، وفي (ط): «الخرسي» وفي (ش): «الحـربي» وصوابها ما هنا كما في (م).

(٣) في الأصل: «وأنشدني» كما يطلبه سياق الكلام.

(٤) سقطت من (هـ) وبقية النسخ.

(٥) المبارك، نهر بالبصرة احتفره خالد القسري لهشام بن عبد الملك، والغمار: جمع غمر بالفتح وهو الماء الكثير، وفي (ط)، (م): «عمارة» وهو تصحيف صوابه ما هنا و(ش) ومعجم البلدان، وبقع الكلاب: جمع أبقع وهو ما خالط بياضه سواد.

(٦) سبق الحديث عن هذا البيت.

(٧) زدتها من بقية النسخ حتى يكتمل الكلام.

(٨) زدته من (ط) في هذا الموضع.

وكل شيء من الحيوان إذا اسود شعره أو جلده أو صوفه كان أقوى لبدنه ولم تكن[1] معرفته محمودة.

وزعم[2] أن الحمام الهداء[3] إنما هو في الخضر والنمر[4] فإذا اسود الحمام حتى يدخل في الاحتراق صار مثل الزنجي الشديد البطش القليل المعرفة. فالأسود لا يجيء من البعد، لسوء هدايته. والأبيض يضرب فيه البياض لا يجيء من الغاية لضعف قواه. وعلى قدر ما يعتريه من البياض يعتريه من الضعف.

فالكلب هو الأصفر والأحمر، والحمام هو الأخضر والأنمر، والسنور هو الخلنجي العسال، وسائر الألوان عيب. وقد يكون فيها ومنها الخارجي[5] كما يكون من الخيل، ولكنه لا يكاد ينجب، ولا تعدو الأمور المحمودة منه رأسه، وقد ربما شبه وقرب من النجابة فإذا كان كذلك كان كهذه الأمهات والآباء المنجبة[6] إلا أن ذلك لا يتم منها إلا بعد بطون عدة.

قال رداد[7]: أقول للرجل الذي إذا ركب الإبل فعقر ظهورها من اتعابه، هذا رجل معقر. وكذلك السرج والقتبة، ولا يقال للكلب إلا عقور. وكلاب عقر، ويقال: هو ضرو للكلب الضاري على الصيد، وضروة للكلبة[8]، وهذه ضراء كثيرة، وكلب ضار، وكلاب ضوار.

---

(١) في الأصل: «ولا تكن» المخطوطة: «لا تكون» وأثبت ما في (هـ)، (ط).

(٢) يروي الجاحظ كثيرًا عن «مثنى بن زهير» ناسبًا إليه أقوالاً كثيرة عن الحمام فربما يكون صاحب الزعم هذا هو (مثنى بن زهير).

(٣) كذا في المخصص ١٧٠/٨ وقال: «الواحد الهادي» ويقال هداه فاهتدى وهدى أيضًا: صار مهتديًا، والكلمة بالأصل جاءت «الهدا». ويظهر أن القصر والمد لغتان جائزتان فيها. قال ابن سيده: «وهن اللائي يدربن ويرفعن من مرحل إلى مرحل حتى يجئن من البعد من بلاد الروم وعريش مصر ودون ذلك من مواضع كثيرة مسماة».

(٤) النمر: جمع أنمر وهو ما فيه غرة بيضاء وأخرى سوداء.

(٥) الخارجي: المجهول النسب.

(٦) في الأصل: «المسنجبة».

(٧) هو رداد الكلابي، من فصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء. ذكره ابن النديم في الفهرس ٤٧ ليبسك، ٧٠ مصر.

(٨) في الأصل: «وضروة الكلبة».

وقد ضريت أشد الضراوة، ومنه قيل: إناء ضار[١] وقال عمر: «إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر[٢]».

وقال الأصمعي: كلب أبقع وكلبة بقعاء، وفرس أبلق وفرس بلقاء وتيس أبرق وعنز برقاء وكذلك جبل أبرق وكساء أبرق وكلب أبرق.

قال ابن داحة[٣]: نزل عندنا أعرابي ومعه ابنان له صغيران، أحدهما مستهتر[٤] باللعب بالكلاب، والآخر مستهتر بالحملان، فقال الأعرابي: لصاحب الكلب:

مـا لي أراك مـع الكـلاب جنيبـة وأرى أخـاك جنيبـة الحمـلان[٥]

قال: فرد عليه الغلام:

لـولا الكـلاب وهـرشهـا من دونها كـان الـوقـير فريسـة الـذؤبـان[٦]

(١) جاء في اللسان: وفي حديث علي كرم الله وجهه: أنه نهى عن الشرب في الإناء الضاري، هو الذي ضري بالخمر وعود بها فإذا جعل فيه النبيذ صار مسكرًا، وأصله من الضراوة وهي الدربة والعادة» و«إناء» هي في الأصل «أتاء» وهو تصحيف وكما يقال «إناء ضار، يقال «سقاء ضار باللبن» أي باق فيه أثر اللبن، فإذا وضع فيه لبن حديث اكتسب منه طعمًا ورائحة خاصة، ويقال: «جرة ضارية بالخل والنبيذ» كذلك.

(٢) المجازر: مواضع الجزارين التي تنحر فيها الإبل وتذبح البقر والشاة وتباع لحمانها، قال في اللسان: «وإنما نهاهم عنها لأنه كره لهم إدمان أكل اللحوم. وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر: أي عادة كعادتها، لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف في النفقة، فجعل العادة في أكل اللحوم كالعادة في شرب الخمر لما في الدوام عليها من سرف النفقة والفساد». وقال الجوهري في الصحاح: «قال الأصمعي: المجازر يعني ندى القوم وهو مجتمعهم لأن الجزور إنما تنحر عند جمع الناس». وقال ابن الأثير في النهاية: «نهى عن أماكن الذبح لأن إلفها ومداومة النظر إليها ومشاهدة ذبح الحيوان مما يقسي القلب ويذهب الرحمة منه وقيل إنما أراد بالمجازر إدمان أكل اللحوم فكنى عنها بأمكنتها».

(٣) ذكره الجاحظ في البيان ١/٨٤ باسم ابراهيم بن داحة مع جماعة من الرجال ثم قال: وهؤلاء جميعًا من مشايخ الشيع «أي الشيعة» وهو في الأصل بالراء. والصواب ما هنا كما في البيان والحيوان.

(٤) استهتر بالشيء ـ بالبناء للمجهول: أولع به، فهو مستهتر. وفي الأصل: «مشتهرًا» من الشهرة. وهو تحريف.

(٥) الجنيبة: الدابة تقاد.

(٦) الهراش: تحريش الكلاب.. وفي (ط)) «فراسة الكلاب». وفي (م): «فراسة الذؤبان» وصوابها ما أثبت كما في (ش).

والوقير: اسم للغنم الكثيرة السائمة مع ما فيها من الحمير وغير ذلك[١].

قال الشماخ بن ضرار:

فـأوردهـن تـقـريـبًـا وشـدا   شرائـع لم يكـدرهـا الـوقـير[٢]

وقال آخر في تثبيت ما قال الغلام:

تعـدو الذئـاب عـلى من لا كـلاب لـه   وتتقي مـريض المستثفـر الحـامي[٣]

[المستثفر: الكلب إذا أدخل ذنبه بين رجليه)[٤].

قال أبو محمد: قدمت امرأة إلى مكة، وكانت ذات جمال وبراعة وشارة، فأعجبت ابن أبي ربيعة[٥] فأرسل إليها فخافت شعره فلما أرادت الطواف قالت لأخيها: اخرج معي فخرج معها وعرض لها عمر فلما رأى أخاها عدل[٦] عنها، فأنشدت قول جرير[٧]:

---

(١) في اللسان: «قال الرمادي: دخلت على الأصمعي في مرضه الذي مات فيه فقلت يا أبا سعيد ما الوقير؟ فأجابني بضعف صوت فقال: الوقير الغنم بكلبها وحمارها وراعيها. لا يكون وقير إلا كذلك».

(٢) عنى حمارًا من حمر الوحش وقد تقدم جماعة الحمر لموردها الماء الصافي وهو في ذلك يعدو ويشتد عدوه، وحمر الوحش من الحيوانات التي تعتقد الرياسة لأحدها.

(٣) كذا في (ش)، (ط)، (م)، (هـ): «وتتقي صولة المستثفر الحامي».

(٤) زيادة في هذا الموضع من المختصر.

(٥) هو عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي ويكنى أبا الخطاب واشتهر بجده إلى ربيعة واسم أبيه عبدالله في الإسلام سماه به رسول الله ﷺ، وكان اسمه في الجاهلية بجيرا وأبو جهل بن هشام ابن المغيرة ابن عم أبيه وأم عمر بن الخطاب حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ابنة عم أبيه. وفي الشعر والشعراء: «وكان أبوه عبدالله يلقب بجيرا» وعمر هذا شاعر غزل مفتون بالنساء، وصاف لهن محبب إليهن لا يمدح سواهن وكان يشبب بنساء الأمراء، وسيدات النساء، رقيق الشعر حسن الديباجة جيد الأسلوب، سهل التركيب، وكانت العرب تقر لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر حتى كان عمر بن أبي ربيعة فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضًا، ولم تنازعها شيئاً. انظر (الشعر والشعراء ٢/٥٠٣ الحماسة لأبي تمام شرح التبريزي ٢/٦٦ الخزانة ١/٢٣٨ - ٤٢٠).

(٦) (هـ)، (ط): «أعرض» بدلاً من «عدل».

(٧) كذا، ومثله في الأغاني ١/٣٥. والخبر فيه عن الهيثم بن عدي وفيه بسط وزيادة

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقي حوزة المستفر الحامي[1]

قال: وبنو مخزوم يزعمون أن ابن أبي ربيعة لم يحل إزاره على حرام قط، وإنما كان يذهب في نسيبه إلى أخلاق ابن أبي عتيق فإن ابن أبي عتيق من أهل الطهارة والعفاف وكان كل من سمع كلامه توهم أنه من أجرأ الناس على فاحشة.

وهم يقولون أن عمر بن أبي ربيعة إنما سمي بعمر بن الخطاب[2]، وأنه ولد ليلة مات عمر. فلما كان بعد ذلك ذكروا فساد هذا وصلاح ذلك فقالوا: أي باطل وضع، وأي حق رفع!!

ومثل هذا الكلام لا يقال لمن يعرف[3] بالعفة الثابتة وببعض المزاح.

قال صاحب الكلب: ومما يدل على قدر الكلب كثرة[4] ما يجري على ألسنة الناس من ذكره بالخير والشر، والحمد والذم، حتى ذكر ذلك في الحديث والأمثال، حتى استعمل في الاشتقاقات، وجرى في ذكر طريق الفأل والطيرة، وفي ذكر الرؤيا والأحلام، ومع ذكر الجن والسباع والبهائم، وإن كنتم إنما قضيتم بالشر وبالنقص، وباللؤم وبالسقوط لأن ذلك كله قد قيل فيه، والذي قيل فيه من الخير أكثر [من خصال النقص والخمول][5]. لأن الخصال المخالفة لذلك، تعطي من النباهة وتقيم من الذكر على القدر الموجود من ذلك. وكما لا

---

(١) والخبر كذلك في عيون الأخبار ٤/١٠٩ عن محمد بن علي. ورواية البيت فيه:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقي مريض المستأسد الحامي

والبيت برواية ابن قتيبة هذه منسوب إلى النابغة كما في اللسان وحماسة البحتري ٢٦٤ وشرح الأشعار الستة للشنتمري مخطوطة دار الكتب. والبيت في (س) كما ورد بالمخطوطة. والبيت في شعر الزبرقان بن بدر أيضًا كما في المؤتلف والمختلف ١٢٨. قال يونس: «هو للنابغة: أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل» وانظر الزهر ١/١١٠. والبيت في (هـ):

«وتتقي حوزة المستأسد الضاري»

(٢) (ط): «يسمى» والوجه ما هنا كما في (ش).

(٣) (هـ): «يوصف» موضع «يعرف».

(٤) (ط): «كثيرًا»، والصواب ما هنا و(ش)، (م).

(٥) بدل هذه الجملة التي بين المعكفين وردت في (هـ): «ومن الخصال المحمودة أشهر».

تكون الخصال التي تورث الخمول مورثة للنباهة فكذلك[1] خصال النباهة في مجانبة الخمول، ولأن الملوم أفضل من الخامل.

وسمع الترجمان بن هريم بن هبيرة[2]، رجلاً يقول: ما جاء الحارث بن شريح بيوم خير قط، قال الترجمان: إلا يكن[3] جاء بيوم خير فقد جاء بيوم شر[4]. وبعد فأي رئيس كان خيره محضًا عدم الهيبة ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، وقتل في موضع القتل وعفا في موضع العفو، وعاقب في موضع العقاب، ومنع ساعة المنع، وأعطى ساعة الإعطاء خالف حسن[5] التدبير وظن أن رحمته فوق كل رحمة.

وقد قالوا: بعض القتل إحياء للجميع. وبعض العفو إغراء كما أن بعض المنع إعطاء ولا خُير فيمن كان خيره محضًا وشر منه من كان شره صرفًا. ولكن اخلط الوعد بالوعيد والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع فإن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة. ومن أخاف ولم يوقع[6] وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك فخير الخير ما كان ممزوجًا وشر الشر ما كان صرفًا، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل أولى بذلك الحكم.

---

(١) (ط): «كما لا تكون... فلذلك»، والوجه ما هنا.

(٢) الترجمان بن هريم: قال ابن قتيبة في المعارف ١٨٤: إنه كان على الأهواز: وعلى بني حنظلة في فتنة ابن سهل. وأبوه هريم بن أبي طحمة كان شجاعًا كيسًا وكان مع المهلب في قتال الأزارقة ومع عدي بن أرطأة في قتال يزيد بن المهلب. وكبر هريم فحول اسمه في أعوان الديوان، فقيل له: إنك لا تحسن أن تكتب فقال: إلا اكتب فإني أمحو الصحف في الأصل: «الترجمان بن مريم» وصوابه ما هنا كما في المعارف والبيان ١/١٩٩.

(٣) في الأصل: «أن لا يكون» صوابه ما هنا والبيان.

(٤) قال الجاحظ في البيان: ذهب الترجمان إلى مثل معنى قول الشاعر:

وما خلقت بنو زمان إلا أخيرًا بعد خلق الناس طرا
وما فعلت بنو زمان خيرًا ولا فعلت بنو زمان شرا

زمان: قبيلة منها الفند الزماني الشاعر.

(٥) (هـ): «خالف الرب في التدبير» موضع «خالف حسن التدبير».

(٦) في (ط): «يقع» والصواب ما هنا.

وفي إطباق [جميع][1] الملوك والأئمة في جميع الأقطار والأمصار على استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصواب فيه دون غيره. وإذا كان الناس إنما يصلحون[2] على الشدة واللين، والعفو والانتقام والبذل والمنع والخير والشر عاد ذلك الشر خيرًا والمدح إعطاءً والمكروه محبوبًا. وإنما الشأن في العواقب، وفيها يدوم ولا ينقطع.

قال الشاعر، يمدح قومًا[3]:

ان يسألوا الخير يعطوه وإن جهدوا ... فالجهد يخرج منهم طيب أخبار[4]

وإن توددتهم لانوا وإن شهموا ... كشفت إذمار حرب غير أغمار[5]

وقال العتبي[6]:

ولكن[7] بنو خير وشر كليهما ... جميعًا ومعروف ألم ومنكر

وقال الراجز يوم جبلة[8]:

---

(١) زدتها ليستقيم الكلام من النسخ الأخرى.

(٢) في الأصل: «يصطلحون» والوجه ما هنا.

(٣) الشعر رواه أبو تمام في الحماسة ٢/٢٦٩ والقالي في الأمالي ١/٢٣٩ وهو لعبيد بن العرندس الكلابي كما في الكامل ٤٧ وتنبيه البكري ٧٣. وكذلك رواه المرزباني في المعجم ٣٠٦، ونسبه إلى العرندس الكلابي لا إلى عبيد. وقد نبه البكري على هذا الخطأ. والشعر رواه أيضًا العسكري في ديوان المعاني ١/٤١ غير منسوب. أما القوم الذين مدحهم عبيد بن العرندس فهم بنو عمرو الغنويون. وكان أبو عبيدة يقول: «هذا المحال، كلابي يمدح غنويا» قال البكري في تفسير ذلك: «وإنما أنكر أن يكون كلابي يمدح غنويا لأن فزارة كانت قد أوقعت ببني بكر ابن كلاب وجيرانهم من محارب وقعة عظيمة ثم أدركتهم غنى فاستنقذتهم، فلما قتلت طيِّئ قيس الندامى الغنوي وقتلت عبس هريم بن سنان الغنوي، استغاثت غني ببني أبي بكر وبني محارب ليكافئوهم بيدهم عندهم فقعدوا عندهم فلم يجيبوهم فلم يزالوا بعد ذلك متدابرين».

(٤) جهدوا: أصابهم الجهد وهو شدة الزمان.

(٥) توددتهم: طلبت مودتهم. شهموا بالبناء للمفعول: من شهمت الفرس إذا حركتها لتسرع. يقول إذا حركوا على سبيل الإخافة لم يكن عندهم لين. التبريزي في شرح الحماسة ٤/٧٢. والإذمار: جمع ذمر بالكسر وهو الشجاع. والإغمار: جمع غمر بالتثليث ويحرك وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٦) سبقت ترجمته.

(٧) كذا في (ط)، (هـ). وهي في (ش)، (م): «أولاك» بمعنى «أولئك»

(٨) يوم جبلة أحد الأيام الثلاثة العظيمة عند العرب وهي: يوم الكلاب ويوم جبلة ويوم ذي قار. وهو مفصل في الأغاني ١٠/٣٣ ـ ٤٥. وكان قبل الإسلام بأربعين سنة وهو عام مولد النبي ﷺ =

أنا الغلام الأعسر الخير فيّ والشر
والشر فيّ أكثر

وقال ثمامة: الشهرة بالشر خير من أن لا أعرف بخير ولا شر.

وكان يقال: يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه.

وقال: ألا ترى أن علي بن أبي طالب، عليه السلام[(١)] ـ قال: يهلك في فئتان[(٢)]: محب مفرط، ومبغض مفرط.

وهذه صفة أنبه الناس، وأبعدهم غاية في مراتب الدين وشرف الدنيا ألا ترى أن الشاعر يقول:

أرى العلباء كالعلباء لا حلو ولا مر[(٣)]
شيخ من بني الجارود لا خير ولا شر

= كما في العقد ٣٠٧/٣ وقائل الشعر هو معاوية بن عبادة بن عقيل وكان أعسر كما في الأغاني. والأعسر: الذي يعمل بشماله. وفي كتاب أيام العرب في الجاهلية ص ٣٤٩ ـ ٣٥٦ ما ملخصه: «يوم شعب لعامر (بن قيس) وحلفائهم من عبس على تميم وحلفائهم من ذبيان وأسد وغيرهما. وجبلة: جبل طويل له شعب عظيم واسع لا يرقى الجبل إلا من قبله. ويوم جبلة من أعظم أيام العرب وأشدها، وكان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة. «نشبت العداوة بين عبس وذبيان ابني غطفان في حرب داحس والغبراء خرج بنو عبس من ديارهم وعلى رأسهم الربيع بن زياد العبسي وأخوه عامر وقيس بن زهير بن جذيمة وفيما هم سائرون قال لهم الربيع: أما والله لأرمين العرب بحجرها. اقصدوا بني عامر. وساروا حتى نزلوا مضيقًا من وادي بني عامر ونزلوا على ربيعة بن شكل من كعب واستنفروا معهم بعض القبائل. وأقبلت تميم وأسد وذبيان ولفهم نحو (جبلة) كما وصل بنو عامر وعبس قبلهم، واقتتلوا وقد اتبع بنو عامر جبلة فقد حلوا عقل الإبل ثم اتبعوا آثارها ولكل تابع حجرين أو ثلاثة، ثم صاحوا بالإبل فخرجت تحطم كل شيء مرت به، وخبطت تميمًا ومن معها وانحطوا منهزمين في الجبل حتى السهل ولما بلغوا السهل لم يكن لأحد همة إلا أن يذهب على وجهه. وجعلت بنو عامر يقتلونهم ويصرعونهم بالسيوف في آثارهم، وانهزموا شر هزيمة» انظر القصة كاملة في أيام العرب في الجاهلية تأليف محمد أحمد جاد المولى بالاشتراك ـ دار إحياء الكتب العربية ١٩٤٢م ص ٣٤٩/٣٥٦.

(١) (ط)، (هـ): «رضي الله تعالى عنه» موضع «عليه السلام».

(٢) في الأصل: «فتيان».

(٣) كلمة «العلباء» الأولى، المراد بها «علباء بن حبيب» كما سبق في الصفحات الماضية. وأما «العلباء» الثانية فالمراد بها عصب عنق البعير، يقول: هو تافه فسل، والعلباء بكسر العين.

وإذا كان الرجل أبرع الناس براعة وأظهرهم فضلاً وأجمعهم لخصال الشرف ثم كانت كل خصلة في خصاله على حالها مساوية لأختها في التمام، فواحدة أن هذا الرجل لا يكاد يوصف إلا بالسيادة والرياسة، إذا لم يكن له سند[١] من عمل يكون هو الغالب عليه.

وقد قالوا فيما يشبه ما ذكرنا، وإن لم يكن هو بعينه[٢]:

هينون لينون أيسار بنو يسر سواس مكرمة أبناء أيسار[٣]
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري

وقد قال مثل الذي وصفنا جعفر الضبي[٤] في الفضل بن سهل[٥]: أيها الأمير أسكتني عن وصفك تساوي أفعالك في السؤدد، وحيرني فيها كثرة عددها فليس إلى ذكر جميعها سبيل، وإن أردت وصف واحدة اعترضت أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر من الأخرى، ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها.

ولذلك قالوا: «أحلم من الأحنف، و«أحلم من قيس بن عاصم[٦]»، ولم يقولوا: أحلم من عبد المطلب، ولا قالوا: أحلم من هاشم لأن الحلم خصلة من خصاله [وتمام كل خصلة من خصاله كتمام حلمه][٧]، فلما كانت خصاله متساوية

---

(١) (ش)، (ط)، (هـ): «له مسند» و(م): «مسندهما» موضع «سند» هنا.

(٢) القائل للبيتين التاليين هو: عبيد بن العرندس الكلابي. وقد سبق بيتان من قصيدة الشعر الآتي.

(٣) ما هنا كما في رواية شرح التبريزي للحماسة ٧٢/٤ قال: «يعني في أخلاقهم يسر» وشرح معنى «سواس مكرمة» بقوله: «أي يروضون المكارم ويلون أمرها «كما قال: إنهم أيسار أبناء أيسار أي إنهم عريقون في الكرم، والمشهور في رواية البيت «ذوو كرم» والأيسار جمع يسر بالتحريك وهو المغامر.

(٤) في البيان ١٧٣/٢ والأغاني ١١،٥/٧ من يدعى «جعفر بن سليمان الضبعي» فربما يكون هذا.

(٥) هو الفضل بن سهل السرخسي كان وزيرًا للمأمون اتصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠هـ وصحبه قبل أن يلي الخلافة فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش فكان يلقب بذي الرياستين ولد سنة ١٥٤هـ وتوفي سنة ٢٠٢.

(٦) هو قيس بن عاصم بن سنان بن خالد أحد بني سعد بن زيد مناة بن تميم يكنى أبا علي، وهو شاعر فارس وشجاع مشهور بالحلم كثير الغارات أدرك الجاهلية والإسلام، أسلم وحسن إسلامه وأتى إلى النبي ﷺ وصحبه في حياته وعمر بعده زمانًا. (الحماسة لأبي تمام ٢٣٣/٢).

(٧) وردت هذه الجملة التي بين المعكفين في بقية النسخ هكذا: «لأن الحلم خصلة من خصاله كتمام حلمه».

وخلاله مشرقة[١]، وكلها كـان غالبًـا ظاهـرًا، وقاهـرًا غامـرًا، سمي[٢] بأجمـع الأسماء، ولم يسم بالخصلة الواحدة، ويستدل بذلك على أنها كانت أغلب خصال الخير عليه.

وإذا بلغ السيد في السؤدد والكمال، حسده من الأشراف من يظن أنه الأحق به، وفخرت به عشيرته فلا يزال سفيه[٣] من شعراء القبائل قد غاظه ارتفاعه على مرتبة سيد عشيرته في جاه. ومن طلب عيبًا وجده فإن لم يجد عيبًا وجد بعض ما إذا ذكره وجد من يغلط فيه ويحمله عنه. ولذلك هجي حصن ابن حذيفة وزرارة بن عدس[٤] وعبدالله بن جدعان، وحاجب بن زرارة[٥].

وإنما ذكرت لك هؤلاء لأنهم مع سؤددهم وطاعة القبيلة لهم، لم يذهبوا فيمن تحت أيـديهم من قومهم ومن جـيرانهم وحلفـائهم، مـذهب كليب بن ربيعة[٦] ولا مذهب حذيفة بن بدر، ولا مذهب عيينة بن حصن ولا مذهب لقيط بن زرارة ولأن لقيطًا لم يأمر بسحب ضمرة بن ضمرة[٧] إلا وهو سيد

---

(١) أي عالية علوًا ظاهرًا.

(٢) في الأصل: «تسمى».

(٣) (ط)، (م): «سيفه» والصواب ما هنا كما في (ش).

(٤) هو زرارة بن عدس بن زيد: جد جاهلي بنوه بطن من بني دارم، من تميم بن عدنان، وكان حكمًا من قضاة تميم. وقاد تميمًا وغيرها يوم شويحط ومن بنيه: «حاجب بن زرارة». الأعلام ٣/٧٥، نهاية الأرب ٢٢٤.

(٥) هو حاجب بن زرارة بن عدس الدارمي التميمي: من سادات العرب في الجاهلية، كان رئيس تميم في عدة مواطن وهو الذي رهن قوسه عند كسرى على مال عظيم ووفى به، أدرك الإسلام وأسلم وبعثه النبي ﷺ على صدقات بني تميم فلم يلبث أن مات: «الأعلام ٢/١٥٣، الإصابة ١/٢٧٣).

(٦) كليب بن ربيعة وهو المعروف بكليب بن وائل نحو (١٨٥ ـ ١٣٥) ق .هـ. بن الحارث بن مرة التغلبي الوائلي: سيد الحيين «بكر» و«تغلب» في الجاهلية ومن الشجعان الأبطال. وأحد من تشبهوا بالملوك في امتداد السلطة. بلغ من هيبته أنه كان يحمي مواقع السحاب فيقول: «ما أظلته هذه السحابة في حماي» فلا يرعى أحد ما تظله. ومن أمثالهم: «هو في حمى كليب» ويقال اسمه «وائل» ولقبه «كليب» الأعلام ٦/٩٠ ابن الأثير ١/١٨٧ المرزباني ٣٥٤.

(٧) ضمرة بن ضمرة بن جابر النهشلي من بني دارم: شاعر جاهلي من الشجعان الرؤساء يقال: كان اسمه «شقة بن ضمرة» فسماه النعمان «ضمرة» وهو صاحب يوم «ذات الشقوق» من أيام العرب في الجاهلية. أغار فيه على بني أسد وظفر بهم في مكان من ديارهم يسمى (ذات الشوق» وفي الأصل: «صخرة بن ضمرة» تحريف أنظر الأعلام ٣/٣١١، سمط اللآلئ ٤٣٥.

قومه، ولو بقي لجاوز ظلم كليب وتهكم[1] عيينة، فإن هؤلاء وإن كانوا سادة فقد كانوا يظلمون وكانوا[2] بين أن يظلموا وبين أن يحتملوا ظلمًا ممن ظلمهم. ولا بد من الاحتمال كما لا بد من الانتصار.

وقال الله عز وجل: ﴿**ولكم في القصاص حياة**﴾[3] وإلى هذا المعنى رجع قول الحكيم الأول: «بعض القتل إحياء للجميع».

وعامة هؤلاء السادة لم يكن شأنهم أن يردوا الناس إلى أهوائهم، وإلى الانسياق لهم بعنف السوق وبالحرب في القود، بل كانوا لا يؤثرون الترهيب على الترغيب، والخشونة على اللين[4]، وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء.

ومتى أحب السيد الجامع، والرئيس الكامل قومه أشد الحب وحاطهم على حسب حبه لهم، كان بغض أعدائهم له على حسب حب قومه له. هذا إذا لم يتوثب إليه ولم يعترض عليه من بني عمه وإخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به. وحسد الأقارب أشد وعداوتهم على حسب حسدهم.

وقال الأولون: رضا الناس شيء لا ينال.

وقيل لبعض الناس: من السيد فيكم؟ قال: الذي إن أقبل هبناه وإذا أدبر اغتبناه!

وقال الأول: بغضاء السوق[5] موصولة بالملوك والسادة، وتجري في الحاشية مجرى الملوك. وليس في الأرض عمل أكيد لأهله من سياسة العوام. قال عامر بن الطفيل:[6]:

(١) التهكم: «التكبر، واشتداد الحمق.

(٢) في (ط): «وكان» والصواب في (ش)، (م) كما هنا.

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٩ ـ مدنية.

(٤) بقية النسخ: «التليين» موضع «اللين» هنا.

(٥) السوق: جمع سوقة، والسوقة: الرعية. وفي (ط): «السوء»، والوجه ما هنا موافقًا لما في (ش)، (م).

(٦) (ش) ورد الاسم: «عباس بن الطفيل» وهو تحريف، والأبيات في العقد ٢/٢٥٩ وعيون الأخبار ١/٢٢٧، وأمالي القالي ٣/١١٨، وأمالي المرتضى ١/١٠. انظر العقد وبقية المراجع المذكورة، سبقت ترجمته.

وإني وأن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب
فما سودني عامر عن وراثة[1] أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكب[2]

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبدالله بن زياد[3] وزياد يغرغر بنفسه[4]: ألا أوصي بك الأمير زيادًا؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: إذا لم يكن للحي إلا وصية[5] الميت، فالحي هو الميت.

وقال بشامة بن الغدير[6]:

وجدت أبي فيهم وجدي كليهما يطاع ويؤتى أمره وهو محتبي
فلم أتعمل للسيادة فيهم ولكن أتتني طائعًا غير متعب

ومن الناس من يقول: إن العيش كله في كثرة المال وصحة البدن وخمول الذكر.

وقال بعض من يخالفه: لا يخلو صاحب البدن الصحيح والمال الكثير، من أن يكون بالأمور عالمًا، أو يكون بها جاهلاً. فإن كان بها عالمًا فعلمه بها لا يتركه حتى يكون له من القول والعمل على حسب علمه لأن المعرفة لا تكون كعدمها، لأنها لو كانت موجودة غير عاملة لكانت المعرفة كعدمها وفي القول وفي العمل ما أوجب النباهة وأدنى حالاتها أن تخرجه من حد الخمول، فقد صار ماله معرضًا لمن يقدر على سلبه.

---

(١) راجع العقد جـ ١ وعيون الأخبار جـ ١، تجد الرواية المشهورة: «عن وراثة».
(٢) هذا الشعر مما تحتج به الشعوبية على العرب.
(٣) عبيدالله بن زياد كان فاتحاً من الشجعان وكان مقربًا من عبدالملك بن مروان قتل مصعب بن الزبير وحمل رأسه إلى عبد الملك، ثم خرج على الحجاج مع ابن الجارود فلما قتل ابن الجارود لجأ إلى عمان حيث لاقى منيته سنة ٧٥، أنظر نهاية الأرب ٢١٦/٩، آمالي المرتضى ٢٠٠/١.
(٤) غرغرت روحه: ترددت في الحلق عند الموت.
(٥) في الأصل: «بوصية».
(٦) بشامة بن الغدير هو خال أبي سلمى والد زهير وكان زهير منقطعًا إليه معجبًا بشعره. وكان بشامة أحزم الناس رأيًا وكانت غطفان تستشيره وتصدر عن رأيه. (الأغاني ١٤٩/٩). ووردت كلمة: «الغدير» في (ط)، (م): «القدير»، وهي تصحيف ما هنا وما في (ش) موافقة لما هنا.

وإذا كانت المعرفة هذا عملها في التنبيه على نفسها فالمال الكثير أحق بأن يكون عمله الدلالة على مكانه والسعاية بأهله. والمال أحق بالتنبيه وأولى بالشكر، وأخدع لصاحبه، بل يكون له أشد قهرًا، ولحسه[١] أشد إفسادًا.

وإن كانت معرفته ناقصة فبقدر نقصانها يجهل مواضع اللذة. وإن كانت تامة فبقدر تمامها ينفي الخمول ويجلب الذكر.

وليس شيء ألذ ولا أنعم من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالأعداء، ومن عقد المنن في أعناق الرجال، والسرور بالرياسة وبثمرة السيادة، لأن هذه الأمور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسمة النفس[٢]. وأما المطعم والمشرب والمنكح والمشمة وكل ما كان من نصيب الحواس، فقد علمنا أن كل من كان أشد نهمًا وأشره وأرغب كان أتم لوجدانه الطعم. وذلك قياس على موضع الطعام[٣] من الجائع، والشراب من العطشان[٤].

ولكننا إذا مثلنا بين الفضيلة التي مع السرور وبين لذة الطعام، وبين ما يحدث الشره له من ألم السهر والالتهاب ومن القلق وشدة الطلب[٥]، رأينا أن صاحبه مفضول غير فاضل. هذا مع ما يسب به، ومع حمله له على القبيح، وعلى أن نعمته متى زالت لم يكن أحد أشقى منه. هذا مع العلم بما وهب الله له[٦] من السلامة من آفة الشره، ومن فساد الأخلاط.

وبعد فلا يخلو صاحب الثروة والصامت الكثير[٧]، الخامل الذكر من أن يكون ممن يرغب في المركب الفاره، والثوب اللين، والجارية الحسناء[٨]، والدار

---

(١) بقية النسخ: «ولحية» موضع «ولحسه» وعلى الصواب ما هنا.
(٢) (هـ): «وقسم النفس» موضع «وقسمة النفس» وكلاهما صحيح وهو النصيب والحصة.
(٣) بقية النسخ: «مواقع الطعم».
(٤) في الأصل: «وبين لذة الطعام وبين ما يحدث له الشره».
(٥) النسخ الأخرى: «الكلب» موضع «الطلب» وما أثبت هو الوجه.
(٦) (ط)، (م): «لهم» والصواب ما هنا كما في (ش).
(٧) الصامت من المال: الذهب والفضة، والناطق منه: الإبل.
(٨) في بقية النسخ: «والجارية الحسنة».

الجيدة، والمطعم الطيب أو يكون ممن لا يرغب في شيء من هذا[1] فإن كان لا يرغب في هذا النوع كله، ولا يعمل في ماله للدار الآخرة، ولا يعجب بالأحدوثة الحسنة، ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصامت، فإن هذا حمار أو أفسد طباعًا من الحمار وأجهل من الحمار وقد رضي أن يكون في ماله أسوأ حالاً من الوكيل.

وبعد فلا بد للمال الكثير من الحراسة الشديدة ومن الخوف عليه فإن أعمل الحراسة له، وتعب في طلبه[2]، على حسب الخوف عليه، خرج عليه فضل كثير[3]، وإن هو لم يخف عليه ـ ولم يكن في سبيل التوكل ـ فهو في طباع الحمار وفي جهله، والذي أوجب له الخمول ليؤديه إلى سلامة المال له، وقد أعطاه من الجهل[4] ما لا يكون معه إلا مثل مقدار لذة الحمار في أكل الخبط[5].

وإن هو ابتاع فره الدواب وفره الخدم والجواري واتخذ الدار الجيدة والطعام الطيب والثوب اللين فقد دل على موضع ماله ومن كان كذلك ولم يظهر له ضيعة فاشية، أو تجارة مربحة يحتمل مثل ذلك الذي يظهر من نفقته وإلا فإنه سيوجد في اللصوص عند أول من يقطع عليه أو مكابرة تكون أو تعب يؤخذ لأهله المال العظيم.

ولو عنى بقوله الخمول والمال وصحة البدن، فذهب إلى مقدار من المال [يغني عن الناس ويعاش به عيشاً وسطًا][6]، كان قدر القول مقبولاً، ولكن ما لمن كان ماله لا يجاوز هذا المقدار يتمنى الخمول.

ولعمري إن الخمول ليكون في طبقات كثيرة قال أبو نخيلة السعدي[7]:

---

(١) في بقية النسخ: «من ذلك».

(٢) (ط)، (هـ): «وتعب في حفظه»، «على حسب الخوف».

(٣) بقية النسخ: «فضل» فقط بدون «كثير».

(٤) في الأصل: «قد أعطاه الله تعالى من الجهل».

(٥) الخبط، بالتحريك: ورق الشجر يخبط بالعصا فتأكله الدواب والإبل.

(٦) سقطت العبارة التي بين المعكفين من (هـ)، (ط) وثبتت هنا ونسخة بيروت.

(٧) هو أبو نخيلة الراجز السعدي. قال أبو الفرج (الأغاني ١٨/١٢٩): «أبو نخيلة اسمه لا كنيته» كان أبو نخيلة من صنائع مسلمة بن عبدالملك بالشام ومدح الأمويين ثم انقطع إلى الهاشميين =

شَكرتك أن الشكر حبل من التقى   وما كل من أقرضته نعمة يقضي
فأحييت من ذكرى وما كان خاملا   ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

ولسقوط الخامل من عيون الناس، قالت الأعرابية لابنها: إذا جلست مع الناس فإن أحسنت أن تقول كما يقولون فقل، وإلا فخالف تذكر.

وليس يقول هذا إلا من ليس يعرف شكر[1] الغنى، وتقلب الأموال إلى ما خلقت له وقطعها عقلها، وخلعها عذرها، وتيه أصحابها، وكثرة خطأهم في حفظها وسترها، وعجزهم عن أمانة حركتها ومنعها من جميع ما تنازع إليه وتحمل عليه[2].

وقد روينا في الملح أن رجلاً قال لصاحب له: أبوك الذي جهل قدره وتعدى طوره فشق العصا وفرق[3] الجماعة، لا جرم فقد هزم ثم أسر وصلب! قال له: يا صاحبي دعني من ذكر أبي ومن أسره ومن قتله ومن صلبه، أبوك هل حدث نفسه بشيء من هذا قط؟!

وليس إلى الناس بعد الهمة وقصرها وإنما تجري إليهم بأهلها إلى الغايات على قدر ما يعرض لهم من الأسباب.

ألا ترى أن أبعد الناس همة في نفسه وأشدهم تلفتًا إلى المراتب، لا تنازعه نفسه إلى طلب الخلافة لأن ذلك يحتاج إلى نسب وإلى أمر قد وطئ له بسبب كسبب طلب أوائل الخوارج الخلافة بالدين وحده دون النسب. فإن صار من الخوارج فقد حدث له سبب إمكان الطلب، أكدى أم نجح.

= فهجا الأمويين. وقد صنع في المنصور أرجوزة يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى ويعقد العهد لإبنه محمد الهادي، فوصله المنصور بألفي درهم، وأمره أن ينشدها بحضرة عيسى ففعل فطلبه عيسى فأدركه مولى له في طريق خراسان فقتله. وأخباره مطولة في الأغاني والشعر في مديح مسلمة بن عبدالملك كما في الأغاني (١٨/١٤٠) وحماسة ابن الشجري ١١٧ والشعر أوله:

أمسلم أني يا ابن خير خليفة   ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض

(١) الشكر أراد به النوء وهو من شكرت الشجرة خرج منها الشكير وهو ما ينبت حول أصلها من باب فرح.

(٢) (ط)، (م): «من جميع ما تنازع العمل عليه»، وهو تحريف ما هنا.

(٣) كما بالأصل، و(هـ): «فارق» موضعها.

وقد زعم ناس من العلماء أن رجالاً حظيت بالسيادة[1] وبالنباهة والطاعة في العشيرة.

وكذلك القبيلة ربما سعدت بالحظ، وحظيت بالجد، وإنما ذلك على قدر الاتفاق، وإنما هو كالمعافى والمبتلى، وإنما ذلك كما قال زهير[2]:

وجـدت المنايـا خبط عشواء من تصب تمـتـه ومن تخـطئ يـعمـر فـيـهـرم

وكما تحظى بعض الأشعار وبعض الأمثال وبعض الألفاظ دون غيرها ودون ما يجري مجراها أو يكون أرفع منها.

قالوا: وذلك موجود في المرزوق والمحروم وفي المحارف[3] والذي تجوز عليه الصدقة. وكم من حاذق بصناعته وكثير الجولان في تجارته، وقد بلغ فرغانة[4] مرة، والأندلس مرة، ونقب في البلاد[5]، ومن حاذق يشاور ولا يستعمل، ثم لا تجدهما يستبينان، من سوء الحال وكثرة الدين، ومن صاحب حرب منكوب مخذول، وهو الليث على برائنه، مع تمام العزيمة ونفاذ البصيرة، ومع المعرفة بالمكيدة والصبر الدائم على الشدة.

فكم من بيت شعر قد سار وأجود منه مقيم في بطون الدفاتر لا تزيده الأيام إلا خمولاً، كما لا تزيد الذي دونه إلا شهرة ورفعة. وكم من مثل قد طار به الحظ حتى عرفته الإماء ورواه الصبيان والنساء. وكذلك حظوظ الفرسان.

---

(١) (ط)، (هـ): «رجالاً خطبت للسيادة» وما بالمخطوطة الأنسب.

(٢) هو زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني من معز، حكيم الشعراء في الجاهلية، وفي أئمة الأدب من يفضله على شعراء العرب كافة. كان أبوه شاعرًا وخاله شاعرًا وأخته سلمى شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين، وأخته الخنساء شاعرة، قصائده كانت تسمى بالحوليات، توفي نحو سنة ١٣ ق.هـ، ترجمته في (الأعلام ٣/٨٧، الأغاني طبعة الدار ١٠/٢٨٨، معاهد التنصيص ١/٣٢٧ الشعر والشعراء ٤٤ خزانة البغدادي ١/٣٧٥).

(٣) المحارف: المحدود المحروم.

(٤) فرغانة، بالفتح: بلاد في حدود التركستان.

(٥) نقب في البلاد: ذهب فيها.

وقد عرفت شهرة عنترة في العامة، ونباهة عمرو بن معد يكرب[١]، وضرب الناس المثل بعبيد الله بن الحر[٢]، وهم لا يعرفون. بل لم يسمعوا قط بعتيبة بن الحارث بن شهاب[٣]، ولا ببسطام بن قيس[٤]، وكان عامر بن الطفيل[٥] أذكر منهما نسبًا.

ويذكرون عبيدالله بن الحر، ولا يعرفون شعبة بن ظهير[٦]، ولا زهير بن ذؤيب، ولا عباد بن الحصين[٧]، ويذكرون عند اللسن والبيان والخطب عبيدالله ابن القرية[٨] ولا يعرفون سحبان وائل.

---

(١) هو عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبدالله الزبيدي: فارس اليمن، وصاحب الغارات المذكورة. وفد على المدينة سنة ٩هـ في عشرة من بني زبيد فأسلم وأسلموا وعادوا. ولما توفي النبي ﷺ ارتد عمرو في اليمن. ثم رجع إلى الإسلام فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد اليرموك وذهبت بها إحدى عينيه، وبعثه عمر إلى العراق، فشهد القادسية وكان عفي النفس أبيها، فيه قسوة الجاهلية يكنى أبا ثور وهو القائل:

إذا لم تستطع شيئًا فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

توفي على مقربة من الري، وقيل: قتل عطشًا يوم القادسية توفي سنة ٢١هـ. انظر (الأعلام ٥/٢٦٠ - ٢٦١، معاهد التنصيص ٢/٢٤٠، الشعر والشعراء ١٣٨، خزانة الأدب للبغدادي ١/٤٢٥ - ٤٢٦).

(٢) عبيد الله بن الحر الجعفي: قائد من الشجعان الأبطال، وكان بينه وبين مصعب بن الزبير منافسة وقد صمد عبيد الله لرجال مصعب صمدًا ولكن أصحابه تفرقوا عنه، فخاف أن يؤسر، فألقى نفسه في الفرات، فمات غريقًا. وكان عبيدالله شاعرًا فحلاً، انظر ابن الأثير حوادث سنة ٦٨.

(٣) كان فارس بني تميم، وفيه يقول عمرو بن معد يكرب: «ما أبالي أي ظعينة لقيت على ماء من أمواه معد، ما لم يلقني دونها عبداها أو حراها»: ويعني بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث، وعنى بالعبدين: عنترة والسليك بن السلكة. (الأغاني ١٤/٢٧).

(٤) بسطام بن قيس بن مسعود الشيباني، سيد شيبان، ومن أشهر فرسان العرب في الجاهلية أدرك الإسلام ولم يسلم وقتله عاصم بن حليفة الضبي يوم الشقيقة.

(٥) سبقت ترجمته ص٢٩٩.

(٦) كذا في (ش)، (م) وفي (ط): «زهير».

(٧) كان يكنى أبا جهضم وكان فارس بني تميم. وولي شرطة البصرة أيام ابن الزبير، وكان مع مصعب أيام قتل المختار، قال الحسن: «ما كنت أرى أحدًا يعدل بألف فارس حتى رأيت عبادًا». المعارف ص ١٨٢.

(٨) هو أيوب بن زيد: منسوب إلى أمه، كما قال ابن قتيبة في المعارف ٢٥٨، كان أحد بلغاء الدهر خطيبًا يضرب به المثل، وكان أعرابيًا أميا. (ابن خلكان ١/٨٤). قالوا: قتل ابن القرية سنة ٨٤، أمر بقتله الحجاج.

والعامة لم يصل ذكر هؤلاء إليهم[1] إلا من قبل الخاصة، والخاصة لم تذكر هؤلاء دون أولئك، ولكن ذكرت الجميع فحكمت العامة بالخفيف على النفس السابق إلى القلب، على قدر الطباع، طباع القلب وهيبته ثم استوت علل العامة في ذلك وتشابهوا[2].

والعامة والباعة والسفلة والأغبياء[3] كأنهم أعذار عام واحد.

وهم في باطنهم أشد تشابهًا من التوأمين في ظاهرهما، وكذلك هم في مقادير العقول وفي التسرع، وإن اختلفت الصور والنغم[4]، والأسنان والبلدان.

وذكر الله تعالى وعز رد قريش ومشركي العرب على النبي ﷺ قوله، فذكر ألفاظهم، ومقادير هممهم التي كانت في وزن ما يكون من جميع الأمم إلى أنبيائهم فقال سبحانه وتعالى[5]: ﴿**تشابهت قلوبهم**﴾[6] وقال سبحانه: ﴿**فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم**﴾[7] ثم قال: ﴿**وخضتم كالذي خاضوا**﴾[8]. ومثله كثير. ألا ترى أنك لا تجد في كل بلدة وفي كل عصر الحالة فيهما إلا على مقدار واحد[9] وجهة واحدة، من السخف والحمق[10] والغباوة والظلم، وكذلك النخاسون[11] على طبقاتهم، من أصناف ما

(١) (ط): «إليهما»، والوجه ما هنا و(ش).
(٢) بقية النسخ: «وتشابهت» موضع «وتشابهوا».
(٣) (ط)، (هـ): والأغنياء... والوجه ما بالمخطوطة لمناسبته الكلام.
(٤) النغم: المراد به اللغات واللهجات.
(٥) زيادة بالمخطوطة.
(٦) سورة البقرة، الآية ١١٨.
(٧)و(٨) سورة التوبة، الآية ٦٩.
(٩) في الأصل: «للحاكة فيهم على مقدار واحدة» و(هـ) «للحاكة من أن يكونوا على مقدار واحد وكذلك (ط). والمخطوطة كما ترى إلا أنني أبدلت كلمة «واحدة» بـ«واحد».
(١٠) في (ط)، (هـ): «السخط» موضع «السخف».
(١١) النخاس: بياع الدواب والرقيق، وفي (ط)، (م) «النخاسون» وهي على الصواب ما هنا و(ش).

يبيعون [ويبتاعون][1]. وكذلك السماكون والقلاسون[2] وكذلك أصحاب الخلقان[3] كلهم، في كل دهر وفي كل بلد، [وزمان][4] على مثال واحد، وعلى جهة واحدة.

وكل حجام في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ وإن اختلفوا في البلدان والأجناس والأسنان. ولا ترى مسجونًا ولا مضروبًا عند سلطان إلا وهو يقول: إني مظلوم! ولذلك قال الشاعر:

لم يخلق الله مسجونًا تسائله ... ما بال سجنك إلا قال مظلوم[5]

وليس في الأرض خصمان يتنازعان إلى حاكم، إلا وكل واحد منهما يزعم أنه مظلوم وليس في الأرض [متكلمان][6] يتنازعان إلا وكل واحد منهما يدعي الإنصاف لنفسه والظلم على صاحبه.

وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده. إلا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط: فمنهم الغرق المغمور، ومنهم من نال من الصواب ونال من الخطأ، ومنهم من يكون خطؤه مستورًا لكثرة صوابه، فما أحسن حاله ما[7] لم يمتحن بالكشف. ولذلك احتاج العاقل [في العجب بولده، و][8] في استحسان كتبه وشعره، من التحفظ والتوقي، ومن إعادة النظر والتهمة إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك.

والعامة تحكم بأن حاتمًا الطائي أجود العرب ولو قدمته على هرم الجواد لما

---

(١) سقطت هذه الكلمة من (هـ)، وهي كما في نسخة بيروت.

(٢) القلاس: الضارب بالدف. وفي (ط): «السماكون الغلاسون» وفيه تصحيف وتحريف صوابه ما هنا كما في (ش)، (م).

(٣) الخلقان من الثياب: جمع خلق، وهو البالي، والمراد تجارها.

(٤) سقطت هذه الكلمة من بقية النسخ.

(٥). كذا في البيان (٣/١٦٩). ورواية البيت في عيون الأخبار (١/٧٩، ٢/١١٦):

ما يدخل السجن إنسان فتسأله ... ما بال سجنك إلا قال مظلوم

(٦) ما بين المعكفين سقط من (هـ). وكما هي بنسخة بيروت.

(٧) أثبت ما في (ط)، (هـ) موضع: «من لم».

(٨) ما بين المعكفين بالمخطوطة و(ش).

اعترضته عليهم ولكن الذي يحدث عن حاتم، لا يبلغ مقدار ما رووه عن كعب ابن مامة[1]، لأن كعبًا بذل نفسه في أعطية الكرم وبذل المجهود [في المال] فساوى حاتمًا من هذا الوجه، وباينه ببذل المهجة[2].

فلو كان الأمر في هذا لا يمس إلى الجدود والحظوظ أو إلى الاتفاقات، أو إلى علل باطنة تجري الأمور عليها لما جرت الأمور على هذه المجاري. ولو كان الأمر فيها مفوضًا إلى تقدير الرأي، لكان ينبغي لغالب بن صعصعة[3] أن يكون هو المشهور بالجود دون هرم وحاتم. فإن زعمت أن غالباً كان إسلاميًا وكان حاتم جاهليًا، والناس بمآثر العرب الجاهلية أشد كلفًا فقد صدقت. وهذا أيضًا ينبئك أن الأمور في هذا الباب تجري على تقدير خلاف الرأي، وإنما تجري في الباطن على نسق واحد قائم وعلى نظر صحيح وعلى تقدير محكم قد تقدم في تعبينها[4] وتسويتها من لا تخفى عليه خافية ولا معجزة ولا شيء يفوته.

وإلا فما بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر في النفوس، وأجل[5] في الصدور من رجال الجاهلية مع قرب العهد وكثرة[6] خطر ما ملكوا وكثرة ما

---

(١) هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الأيادي، أبو داود، كريم، جاهلي يضرب به المثل في حسن الجوار: فيقال: «أجود من كعب بن مامة». و«جار كجار أبي دؤاد»، وهو صاحب القصة المشهورة في الإيثار: «اسق أخاك النمري» قال أبو عبيدة: أجواد العرب ثلاثة: «كعب بن مامة، حاتم الطائي، وهرم بن سنان» أنظر (الأعلام ٦/٨٥، أمثال الميداني ١/١٠٩ جمهرة الأنساب ٣٠٨).

(٢) إشارة إلى ما روي أن كعبًا هذا خرج في ركب فيهم النمر بن قاسط، فضلوا فتصافنوا ماءهم - وهو أن يطرح في القعب حصاة، ثم يصب فيه الماء بقدر ما يغمر الحصاة فما زال كعب يؤثر النمري على نفسه كل يوم حتى لم يصبح بكعب قوة النهوض وارتحل القوم وتركوه مكانه ففاظ «أي هلك» القصة بالتفصيل في أمثال الميداني ١/١٦٧، والعقد ١/١٤٧.

(٣) كان من وجوه تميم، وهو والد الفرزدق الشاعر، أدرك النبي ﷺ ووفد على علي، وأبوه صعصعة له صحبة. وأخته هنيدة بنت صعصعة زوج الزبرقان بن بدر، أدركت النبي ﷺ. الإصابة ٦٩٢٥ وكتاب النساء منها ١١١٥. وتوفي غالب في نحو سنة ٤٠.

(٤) التعبية: الإعداد والتهيئة، وفيه يقال: تعبية الجيش بمعنى إعداده وتهيئته للقتال، وفي (ط): «تعيينهما» وهو تحريف ما هنا و(ش)، (م).

(٥) كذا بالحاء.

(٦) كثرة. هنا موضع «عظم» في (ط)، (هـ)، الأصل.

جادت أنفسهم به، ومع الإسلام الذي شملهم وجعله الله أولى بهم من أرحامهم.

ولو أن جميع مآثر الجاهلية وزنت به وما كان من الجماعة اليسيرة[١] من رجالات[٢] قريش في الإسلام لأربت عليها أو لكانت مثلها.

وليس لقدر الكلب والديك في أنفسهما وأثمانهما سقنا هذا الكلام وابتدأنا هذا القول. ولسنا نقف من أثمانهما من الذهب والفضة ولا إلى أقدارهما عند الناس، وإنما نتنظر فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه، وعلى عجيب تدبيره ولطيف حكمته، وفيما استخزنهما[٣] من غرائب المعارف، وأودعهما من غوامض الإحساس وسخر لهما من عظام المنفعة والمرافق، ودل بهما على أن الذي ألبسهما ذلك التدبير وأودعهما تلك الحكم، يجب[٤] أن يفكر فيهما ويعتبر بهما ويسبح الله عندهما. فغشى ظاهرهما بالبرهان، وعم باطنهما بالحكم، وهيج على النظر فيهما والاعتبار بهما، وليعلم كل ذي عقل أنه لم يخلق الخلق سدى، ولم يترك الأمور غفلاً وهملاً، وليعلموا أن الله عز وجل لم يدع شيئًا غير موسوم[٥] ونثرًا غير منظوم وسدى غير محفوظ وأنه لا يخليه من عجيب تقديره ولا يعطله من حلى تدبيره[٦] ولا من زينة الحكم وجلال قدر البرهان.

ثم عم بذلك ما بين الصؤابة[٧] والفراش إلى الأملاك السبعة وما دونهما من الأقاليم السبعة. وقال عز وجل: ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾[٨]. وقد يتجه

---

(١) (ط)، (م): «اليسر»، وفي (ش): «اليسير» والصواب ما هنا.

(٢) في الأصل: «حالات» والصواب ما هنا.

(٣) استخزنهما: استودعهما، وفي الأصل: «استخرجهما» وليس بشيء.

(٤) كذا بالأصل، (هـ): «يحب» والمعنى يستقيم بأيهما.

(٥) الغفل بالضم: ما ليس به سمة تميزه ويقابله «الموسوم». وهي في الأصل: «مرسوم».

(٦) (ط): «حل تدبيره» والصواب ما هنا و(ش).

(٧) الصوابة: بيضة القملة والبرغوث. وهي في (ط) «الضباية» وفي (ش)، (م): «الضوابة» وكلاهما تحريف.

(٨) سورة النحل، الآية ٨ ـ مكية.

هذا الكلام على وجوه: أحدها أن تكون ها هنا ضروب من الخلق لا يعلم بمكانها الناس، ولا بد من أن يعرف ذلك الخلق معنى نفسه، أو يعلمه صفوة الله من ملائكته، أو يعرفه الجن ولا يجوز إلا ذلك. أو يكون الله إنما عنى أنه خلق أسبابًا، وهيأ[1] عللاً، وجعل ذلك رفدًا لما يظهر لنا ونظاما.

وكان بعض المفسرين يقول: من أراد أن يعرف معنى قوله: **﴿ويخلق ما لا تعلمــون﴾**، فليوقد نارًا في وسط غيضة، أو في صحراء برية ثم ينظر إلى ما يغشى النار من أصناف الخلق الذي يغشى ناره يختلف على قدر اختلاف مواضع الغياض والبحار والجبال والصحارى. وليعلم أن مـا لم يبلغه ولا يبلغـه أكثر وأعجب. وما أرد هذا التأويل، وأنه ليدخل عندي في جملة ما تدل عليه الآية، ومن لم يقل ذلك لم يفهم عن ربه ولم يتفقه في دينه.

كأنك لا ترى في ديدان الخل والملح وفي الديدان التي تتولد في السموم إذا عتقت[2] وعرض لها العفن ـ وهي بعد قواتل ـ عبرة وأعجوبة وأن[3] التفكر فيها مشحذة للأذهان، ومنبهـة لذوي الغفلة وتحليـل لعقدة البلدة[4] وسبب لاعتياد الروية وانفساح في الصدور وعز في النفوس، وحلاوة تقتـاتها الـروح وثمرة تغذي العقل وترق في الغايات البعيدة.

وكأنك لا ترى أن في فأرة البيش[5] وفي السمندل[6] آية غريبة، وصفة عجيبة، وداعية إلى التفكر، وسببًا إلى التعجب.

---

(١) (هـ): «ووهب» موضع «هيأ».

(٢) هذه الكلمة ليست بالأصل، وقد ترك لها فراغ في كل من (ش)، (م)، والتيمورية ولم يترك لها في (ط). وبالمخطوطة هذه الكلمة: «عتقت» وكذلك ما نقـل الثعالبي عن الجـاحظ في ثمار القلوب ص ٣٤٤ عند كلامه في (دودة الخل). وعتق الشيء من باب ضرب وكرم ونصر: قدم وطال عليه العهد.

(٣) في الأصل: «ولأن» وصوابه ما هنا.

(٤) البلدة بالضم وبالفتح، والبلادة أيضًا: ضد النفاذ والذكاء في الأمور وفي الثمار «البلادة» وهما بمعنى.

(٥) فـأرة البيش: دويبة تغتـذي بالسمـوم فلا تضرهـا وليست بفأرة ولكن هكـذا تسمى. انظر ص ٢٣٤ جـ ٢ حياة الحيوان للدميري.

(٦) السمندل: طائر يسقط في النار فلا يحترق ريشه ـ زعم.

وكأنك لا ترى أن في الجعل، الذي متى دفنته في الورد سكنت حركته وبطلت[١] في رأي العين روحه، ومتى أعدته إلى الروث انحلت عقدته، وعادت حركته، ورجع حسه ـ أعجب العجب، وأحكم الحكم!

وأي شيء أعجب من الخلد[٢]! وكيف يأتيه رزقه، وكيف يهيأ له ما يقوته[٣]، وهو أعمى لا يبصر، وأصم لا يسمع، وبليد لا يتصرف، وأبله لا يعرف! ومع ذلك أنه لا يجوز باب جحره، ولا[٤] يتكلف سوى ما يجلب إليه رازقه ورازق غيره.

[وأي شيء أعجب من طائر ليس له رزق إلا أن يخلل أسنان التمساح فيكون ذلك له رزقًا وترويحًا عن التمساح][٥]، وأي شيء أعجب من طائرين يراهما الناس من أدنى جدود[٦] البحر من شق البصرة، إلى غاية البحر من شق السند، أحدهما كبير الجثة يرتفع في الهواء صعدًا[٧]، والآخر صغير الجثة يتقلب عليه ويعبث به فلا يزال مرة يرفرف حوله ويرتقي على رأسه، ومرة يطير عند ذناباه، ويدخل تحت جناحه ويخرج من بين رجليه، فلا يزال يغمه ويكربه[٨] حتى يتقيه بذرقه، فإذا ذرق شحا له فاه[٩] فلا يخطئ أقصى حلقه حتى كأنه

---

(١) ما عدا المخطوطة: «وبطل»، وكذلك (هـ):

(٢) الخلد بالضم، وقد تفتح الخاء، وقد تكسر: دويبة عمياء صماء لا تعرف ما يدنو منها إلا بالشم تخرج من جحرها وهي تعلم أن لا سمع لها ولا بصر لها فتفتح فاها وتقف على باب جحرها ليجيء الذباب فيسقط على شدقيها ويمر بين لحييها، فتسد فمها عليها وتستدخلها بجذبة النفس تعلم أن ذلك هو رزقها وقسمها. (الحيوان ٦/٤١١) والدميري برسمه.

(٣) (ش)، (م)، : يفوته «بالفاء، تحريف.

(٤) ما عدا هنا: «ولأنه» وكذلك (هـ).

(٥) هذا الجزء ثابت بالمخطوطة، مب، وأثبته (هـ) مع اختلاف واضح بين النصين س ١٠ جـ ٢ ص ١١٢.

(٦) الجدود: جمع جد بالفتح وهو الشاطئ. والجد بالكسر والجدة بالكسر أيضًا بمعنى الجد: الشاطئ.

(٧) ما عدا المخطوطة ومب: مصعدًا.

(٨) (ط): «بغمه وبكربه» بالباء وصوابه ما هنا و(ش)، (م).

(٩) شحا فاه: فتحه. في غير المخطوطة: «يذرق فإذا ذرق شحا فاه».

ردى[1] به في بئر، وحتى كأن ذرقه مدحاة بيد أسوار[2]، فلا الطائر الصغير يخطئ في التلقي، وفي معرفته بأنه لا رزق له إلا في ذلك المكان، ومن هذا الوجه، ولا الكبير يخطئ في التسديد[3]، ويعلم أنه لا ينجيه منه إلا أن يتقيه بذرقه، فإذا أوعى ذلك الذرق[4]، واستوفى[5] ذلك الرزق، رجع شبعان ريان بقوت يومه، ومضى الطائر الكبير لطيشه. وأمرهما مشهور، ولا يتهم المخبر عنه.

فجعل تعالى وتقدس بعض الوحش كسوبًا محتالاً، وبعض الوحش متوكلاً غير محتال، وبعض الحشرات يدخر لنفسه رزق سنته، وبعضاً يتكل على الثقة لأن له في كل يوم قدر كفايته، رزقًا معدًا وأمرًا مقطوعًا. وجعل بعض الهمج يدخر وبعضه يتكسب وبعض الذكور يعول ولده، وبعض الذكور لا يعرف ولده، وبعض الإناث تخرج[6] ولدها، وبعض الإناث تضيع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعض الأجناس معطوفة على كل ولد من جنسها وبعض الإناث لا تعرف ولدها بعد استغنائه عنها، وبعض الإناث لا تزال تعرفه وتعطف عليه، وبعض الإناث تأكل ولدها وكذلك بعض الذكورة. وبعض الأجناس يعادي كل شيء يكسر بيضها أو يأكل أولادها.

وجعل يتم بعض الحيوان من قبل أمهاتها، وجعل يتم بعض الحيوان من قبل آبائها، وجعل بعضها لا يلتمس الولد وإن أتاه الولد، وجعل بعضها مستفرغ الهم في حب الذرء[7] والتماس الولد، وجعل بعضها يزاوج وبعضها لا يزاوج ليكون للمتوكل من الناس جهة في توكله وللمكتسب جهة في تكسبه

(١) (ط)، (م): «رما» (ش)، (هـ): «وحا» وصوابهما رمى» و«دحا» وهما بمعنى، وهنا: «ردى».

(٢) المدحاة: آلة الدحو، أي الرمي، الأسوار بالضم والكسر: الجيد الرمي بالسهام.

(٣) التسديد: إصابة الهدف، ما عدا المخطوطة، مب: «التشديد».

(٤) الذرق: نجو الطائر. أوعاه: استوعبه.

(٥) (ط): «استوى في» وصوابه ما هنا (ش)، مب.

(٦) التخريج: التربية والتأديب، ويصح أن تكون «تخرج» من الإخراج كما نقل الجاحظ عن أرسطو في الحيوان (٦/٣٣٨): إن العقاب لا بد أن تخرج واحدًا من أولادها وربما طردتهن جميعًا. (اهـ) وفي (مب) «تبغض ولدها».

(٧) الذرء: النسل.

وليحضر[1] على بالهم أسباب البر والعقوق، وأسباب الحظر والتربية، وأسباب الوحشة من الأرحام الماسة.

ولمكان اقتران المعاني واختلاف العلل قال رسول الله ﷺ لبعضهم: «اعقلها وتوكل»[2] وقال لبلال: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا!».

[فافهموا هذا التدبير وتعلموا هذه الحكم واعرفوا مداخلها ومخارجها ومفرقها ومجموعها فإن الله عز وجل لم يردد في كتابه ذكر الاعتبار والحث على التفكير والترغيب في النظر والتعرف والتوقف][3]، إلا وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة، حكماء من هذه التعبئة[4].

ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى. ولا لتمييز المضار من المنافع والرديء من الجيد بالعيون المجعولة لذلك لما جعل الله تعالى العيون مدركة. ولولا أن الإنسان الحساس[5] إذا رأى الأمور المميزة عنده أخذ الحاجة وترك ما يستغنى عنه وما يضره أخذه فيأخذ ما يحب ويدع ما يكره ويشكر على المحبوب ويصبر على المكروه حتى يذكر بالمكروه كيفية العقاب، ويذكر بالمحبوب كيفية الثواب، ويعرف بذلك كيفية التضاعيف، ويكون ما يغمه رادعًا له، وممتحنًا بالصبر عليه، وما يسره باسطًا له وممتحنًا بالشكر عليه، وللعقل في خلال ذلك مجال وللرأي تقلب وتنشأ[6] للخواطر أسباب ويتهيأ لصواب الرأي أبواب. ولتكون المعارف الحسية[7]، والوجدانات الغريزية، وتمييز الأمور بها سببًا إلى ما يتميز عند العقول وتحصره المقاييس. وليكون عمل الدنيا سلمًا إلى عمل الآخرة،

---

(١) جميع النسخ: «ولتخطر» وأثبت ما في (هـ) موافقًا لما في (مب).

(٢) رواه الترمذي عن أنس. وقال السيوطي: حديث ضعيف. الجامع الصغير ١١٩١.

(٣) الجزء الذي بين المعكفين سقط من النسخ ما عدا (مب) كما هنا. وأثبته (هـ) من (مب).

(٤) التعبئة: الإعداد. (مب): «بهذه التعبئة» وسبق تفسير الكلمة.

(٥) كذا بالأصل، (ط)، (هـ): «والإنسان الحساس».

(٦) في (ش)، (م): «وتنشر». وفي (ط): «تنشؤ» وما هنا هو الصواب (هـ): «وتنشق كما في(مب).

(٧) (ط): «الحبية» وصوابه ما هنا كما في ش.

وليترقى من معرفة الحواس إلى معرفة العقول ومن معرفة الروية من غاية إلى غاية، حتى لا يرضى من العلم والعمل إلا بما أداه إلى الثواب الدائم ونجاه من العقاب الدائم[١].

وسنذكر طرفًا مما أودع الله الكلب مما لا تحسنه أنت أيها الإنسان، مع احتقارك له وظلمك إياه. ونحن نعلم أن أدق الناس حسًا وأرقهم ذهنًا وأحضرهم فهمًا وأصحهم خاطرًا وأكملهم تجربة وعلمًا، لو رام الذي يحسنه الكلب في كثير من حالات الكلب يظهر له من عجزه وخرقه، وكلال حده وفساد حسه ما لا يعرف بدونه أن الأمور لم تقسم على قدر[٢] رأيه، ولا على قدر مبلغ عقله وتقديره ولا على محبته وشهوته وأن الذي قسم ذلك لا يحتاج إلى مشاورة ومعاونة ولا إلى مكاتفة ومؤازرة[٣] ولا إلى تجربة وروية. ونحن ذاكرون من ذلك جملاً.

إعلم أن الكلب إذا عاين الظباء، قريبة كانت أو بعيدة عرف المعتل وغير المعتل[٤] وعرف العنز من التيس. وهو إذا أبصر القطيع لم يقصد إلا التيس - وإن علم أنه أشد حضرًا، وأطول سوطًا وأبعد وثبة - ويدع العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حضرها وقصر قاب خطوها، ولكنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطًا أو شوطين حقب ببوله[٥]!!

وكل حيوان[٦] إذا اشتد فزعه عرض له إما سلس البول والتقطير، وإما الأسر[٧] والحقب، وكذلك المضروب بالسياط على الأكتاف وبالعصي على الاستاه، وما أكثر[٨] ما يعتريهم البول والغائط. وكذلك صار بعض الفرسان

---

(١) كذا في جميع النسخ ما عدا (هـ): «الأليم».
(٢) (هـ). وبقية النسخ: «مقدار» موضع «قدر».
(٣) كذا جميع النسخ عدا (مب)، (هـ): «مكاتفة ومرادفة» وبقية النسخ: «مرادفة» موضع «مؤازرة».
(٤) (ط): «المقتل وغير المقتل» وما هنا يشبه ما في (ش)، و(مب).
(٥) حقب ببوله: تعسر عليه البول.
(٦) بقية النسخ: «وكل الحيوان» (مب)، (هـ) كما هنا.
(٧) الأسر بالضم: احتباس البول.
(٨) (ط): «وأما» صوابه ما هنا و(ش). وفي (مب): «فما».

الأبطال إذا عاين العدو وقطر إلى أن يذهب عنه هول الجنان[١].

فإذا حقب التيس[٢] لم يستطع البول مع شدة الحصر ومع النفز[٣] والجزع، ووضع القوائم معًا ورفعها معًا في أسرع من الطرف[٤] فيثقل عدوه ويقصر خطوه[٥] ويعتريه البهر حتى يلحقه الكلب فيأخذه، والعنز من الظباء إذا اعتراها البول من الفزع لم تجمعه وحذفت به كإيزاغ المخاض[٦] الضوارب، لسعة السبيل وسهولة المخرج فتصير لذلك أدوم شدًا، وأصبر على المطاولة.

فهذا شيء في طبع الكلب معرفته، دون سائر الحيوان.

والكلب المجرب لا يحتاج في ذلك إلى معاناة، ولا إلى تعلم، ولا إلى روية ولا إلى تكلف، وقد كفاه ذلك الذي خلق العقل والعاقل والمعقول والداء والدواء والمداوي والمداوى، وقسم الأمور على الحكمة وتمام مصلحة الخليقة.

ومن معرفة الكلب، أن المكلب يخرجه إلى الصيد في يوم، الأرض فيه ملبسة من الجليد ومغشاة بالثلج، قد تراكم عليها طبقًا على طبق، حتى طبقها ثم ربما ضربته الريح ببردها فيعود كل طبق منها وكأنه صفاة ملساء أو صخرة حتى لا يثبت عليها قدم ولا خف، ولا حافر ولا ظلف، إلا بالتثبت الشديد، فيمضي[٧] الكلاب بالكلب، وهو إنسان عاقل وصياد مجرب وهو مع ذلك لا

---

(١) كذا جميع النسخ عدا (هـ)، (مب) «لهول الجنان».

(٢) حقب: احتبس بوله، ما عدا المخطوطة (مب)، (هـ): «تعب».

(٣) النفز: «وثب الظبي خاصة ويقال: ظبي ينفوز وفي (ط)، (ش): «النفر» بالراء. وفي (مب): «البعر» وفيما عدا (مب): «الجزع».

(٤) كذا في (ش)، (مب)، وهو الصواب وفي (ط): «فما أسرع في الطرف».

(٥) كذا النسخ جميعها: «فيقصر خطوه» (مب)، (هـ): «ويقصر مدى خطاه».

(٦) الإيزاغ: «دفع الناقة ببولها. والمخاض: النوق الحوامل وهي في (ط) «المحاض» محرفة وصوابها في (ش)، و(مب) والصواب: التي تضرب بأرجلها إذا أرادها الفحل، تفعل ذلك لأنها حامل. وفي لسان العرب (١٢/١ مادة (قرأ) الإيزاغ: إخراج البول دفعة دفعة، وأورد بيت الشعر:
بضرب كآذان الفراء فضوله   وطعن كإيزاغ المخاض ثبورها
وثبورها: أي تختبرها.

(٧) كذا في (مب)، (هـ)، بقية النسخ: «فمضى» تحريف.

يدري أين [موضع][1] جحر الأرنب من جميع بسائط الأرض[2]، ولا موضع كناس ظبي، ولا مكمن ثعلب[3]، ولا غير ذلك من موالج[4] وحوش الأرض، فيتحرق[5] الكلب بين يديه، وخلفه وعن يمينه وشماله ويتشمم ويتبصر فلا يزال كذلك حتى يقف على أفواه تلك الجحرة، ويثير الذي فيها ويتنفس، ذلك أن أنفاسها وبخار أجوافها وأبدانها وما يخرج من الحرارة المستكنة[6] في عمق الأرض، يذيب مالاقاها[7] في فم الجحر من الثلج الجامد حتى يرق وإن لم يثقبه[8]، وذلك خفي غامض لا يقع عليه قانص [9] ولا راع، ولا فلاح، وليس يقع عليه إلا الكلب الصائد الماهر.

وعلى أن للكلب[10]في تتبع الدراج[11]وفي الاصعاد خلف الأرانب في الجبل الشاهق، من الرفق وحسن الاهتداء والتأني[12]ما يخفى مكانه على البيازرة[13]والكلابين.

وحدثني صديق لي أنه حبس كلبًا وأغلق عليه الباب في الوقت الذي كان طباخه يرجع فيه للبيت من السوق ومعه اللحم، ثم أحد سكينًا على سكين

---

(١) بالمخطوطة فقط.

(٢) (مب): «بسيط الأرض»، المخطوطة: «بساط الأرض» وأثبت ما في (هـ) وبقية النسخ.

(٣) كذا جميع النسخ، (مب)، (هـ): «مكو الثعلب»، والمكو: الجحر.

(٤) موالج: مداخل.

(٥) يتحرق: يشتد عدوه. وبين يديه: أمامه،

(٦) (ط): «المستكمنة» وما هنا كما في (ش)، (مب)، وهو الصواب.

(٧) (ط): «ملاقاها»، والصواب ما هنا كما في (ش)، (مب).

(٨) كذا جميع النسخ عدا (مب)، (هـ): «ويكاد أن يثقبه».

(٩) (ط): «ناقص»، وهو تحريف صوابه ما بالمخطوطة، (ش)، (مب)، والقانص: الصائد.

(١٠) في الأصل: «الكلب» وكذلك المخطوطة وأثبت الصواب من (هـ).

(١١) الدراج: طائر أسود باطن الجناحين وظاهرهما، أغبر على خلقة القطا، إلا أنه ألطف. و«تتبع» بالمخطوطة: «وتنبيح» كما بالأصل. في مب: «تبنيج» وأثبت الوجه كما في (هـ).

(١٢) (مب) والمخطوطة: «التأني»، وفيما عداهما: «التأتي»، والوجه ما أثبت، والتأتي: حسن الاحتيال.

(١٣) «يخفى» كذلك (مب)، ما عداهما: «لا يخفى» ولا «مقحمة» والبيازرة: جمع بيزار بفتح الباء وهو الصائد بالبازي. ما عدا المخطوطة و(مب): «البياز» وهو تحريف ما هنا.

فنبح الكلب وقلق لتوهمه أن الطباخ رجع بالوظيفة[١]، وهو يحد السكين ليقطع اللحم!!

قال: فلما كان العشي صنعنا به مثل ذلك لنعرف حاله في معرفة الوقت، فلم يتحرك!! قال: وصنعت مثل ذلك بكلب لي فلم يقلق إلا قلقًا يسيرًا، فلم يلبث أن رجع الطباخ باللحم فصنع بالسكين مثل صنيعي فقلق حتى رام فتح الباب!! فقلت: لئن كان عرف الوقت بالرصد[٢] فتحرك له، فلما لم يشم ريح اللحم عرف أنه ليس بشيء ثم لما سمع السكين والوقت بعد لم يذهب وقد جيء باللحم فشمه وهو في البيت، أو عرف فصل ما بين إحدادي السكين وإحداد الطباخ. إنَّ أيضًا هذا لعجب.

وإن اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان، فلا أجد ريحه إلا بعد أن أدنيه من أنفي، ولم أجد أهل سكة اصطفانوس[٣]، ودار جارية وباعة مربعة بني منقر[٤] يشكون أن كلبًا كان يكون في أعلى السكة، وكان لا يجوز محرس الحارس أيام الأسبوع كله، فإذا كان يوم الجمعة أقبل قبل صلاة الغداة من موضعه ذلك إلى باب جارية، ولا يزال هناك ما دام على معلاق الجزار شيء من لحم. وباب جارية تنحر عنده الجزر في جميع أيام الجمع خاصة، فكان ذلك لهذا الكلب عادة ولم يره أحد منهم في ذلك الموضع في سائر الأيام[٥]، حتى إذا كان غداة الجمعة أقبل!

---

(١) الوظيفة: ما يقدر من طعام أو رزق في اليوم أو في السنة والزمان المعين.

(٢) الرصد: الارتقاب.

(٣) موضع بالبصرة، مسماة باسم كاتب نصراني كان في أيام زياد أو ما قاربها، روي عن ابن عباس أنه قال «الحظوظ مقسومة لا يقدر أحد على صرفها ونقلها عن أماكنها. ألا ترى إلى سكة أصطفانوس كان يقال لها سكة الصحابة نزلها عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ فلم تضف إلى واحد منهم، وأضيفت إلى كاتب نصراني من أهل البحرين يريد اصطفانوس - وتركوا الصحابة». معجم البلدان (أصطفانوس، وسكة أصطفانوس).

(٤) الباعة: جمع بائع، والمربعة: الموضع المربع. وفي (ط): «مربعة بين منقر»، وهو تحريف ما هنا، (ش)، (م)، (مب) والتيمورية. وهي وسابقتها موضعان بالبصرة.

(٥) في سائر النسخ والمخطوطة: «في سائر أيام الجمعة»، تحريف وأثبت الوجه كما في (هـ) و«في سائر الأيام» ساقط من (مب).

فليس مثل هذا إلا عن معرفة[١] مقدار ما بين الوقتين.

ولعل كثيرًا من الناس ينتابون مثل[٢] هذه المواضع في يوم الجمعة اما للصلاة، وإما لغير ذلك[٣]، فلا يعدمهم[٤] النسيان من أنفسهم، والاستذكار لغيرهم[٥]. وهذا الكلب لم ينس من نفسه، ولم يستذكر بغيره[٦].

وزعم هؤلاء بأجمعهم أنهم تفقدوا شأن هذا الكلب منذ انتبهوا لصنعة هذا[٧] فلم يجدوه غادر ذلك يومًا واحدًا.

وأنشد أبو الحسن بن خالويه[٨] عن أبي عبيدة لبعض الشعراء:

يعرد عنه جاره وشقيقه ... وينبش عنه كلبه وهو ضاربه [٩]

قال أبو عبيدة: سبب هذا الشعر أن رجلاً خرج ينتظر ركابه، فأتبعه كلب له، فطرده وكره أن يتبعه، ورماه بحجر [فأدماه][١٠]، فأبى الكلب إلا أن يذهب معه فلما سار[١١] إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار ربض الكلب قريبًا

---

(١) كذا في (مب)، (هـ): «عن مقدارية»: بمعنى تقدير وهو مصدر صناعي من كلمة: «مقدار».

(٢) (هـ): «بعض» موضع «مثل» هنا.

(٣) كما في بقية النسخ والمخطوطة: «أو لغيرها».

(٤) يقال ما يعدمني هذا الأمر: أي ما يعدوني. ويقال أيضًا: أعدمني الشيء: إذا لم أجده وفي (ط): «لا يعد فيهم» وهو تحريف ما هنا، (ش)، (مب).

(٥) كذا في جميع النسخ «لغير» بدون «هم». (هـ): «بغيرهم».

(٦) (هـ): «ولا يستذكر بغيره» عدا (مب) «ولم يتذكر».

(٧) كذا في جميع النسخ: «لصنعه» بدون «هذا» وهو ساقط من الجميع عدا (مب). وورد هكذا «لصنيعه هذا».

(٨) (مب): «بن حلوة».

(٩) التعريد: الإحجام والفرار، وفي الأصل: «يعود»، وليس لها وجه. والصواب ما هنا. وما في تأويل مختلف الحديث ص ١٦٦. قصة البيت رواها ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث عن أبي عبيدة أيضًا، ولكنها تباين ما هنا، قال: «وقد كان أبو عبيدة يذكر أن رجلين سافرا ومع أحدهما كلب له، فوقع عليهما اللصوص فقاتل أحدهما حتى غلب وأخذ فدفن وترك رأسه بارزًا، وجاءت الغربان وسباع الطير فحامت حوله، تريد أن تنهشه وتقلع عينيه، ورأى ذلك كلب كان معه، فلم يزل ينبش التراب عنه حتى استخرجه، ومن قبل ذلك قد فر صاحبه وأسلمه».

(١٠) سقطت هذه الكلمة من جميع النسخ.

(١١) بقية النسخ: «صار» موضع «سار».

منه فبينما هو كذلك[١] إذ أتاه أعداء له يطلبونه بطائلة لهم عنده وكان معه جار له وأخوه دنيا[٢] فأسلماه وهربا عنه، فجرح جراحات ورمي به في بئر غير بعيدة القعر، وحثوا عليه التراب حتى غطى رأسه[٣] والكلب في ذلك كله يزجر ويهر، فلما انصرفوا أتى رأس البئر فما زال يعوي وينهش عنه التراب بيديه ويكشفه عن رأسه حتى أظهر رأسه فتنفس ووصل إليه الروح[٤] وقد كاد يموت ولم يبق منه إلا حشاشة، فبينما هو كذلك إذ مر به ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحفر عن قبر فنظروا فإذا هم بالرجل فاستشالوه[٥] حيًّا وحملوه إلى أهله فزعم أن ذلك الموضع يدعى ببئر الكلب[٦].

وهذا العمل يدل على وفاء وإلف ومحاماة ومعرفة وصبر ومع تفوق المنافع إلا أن ذلك كله كان عن غير تكلف ولا هو فيه تصنع.

وقيل لأعرابي من بني أسد، وقد أكل جرو كلب: أتأكل لحم الكلب وقد قال الشاعر[٧]:

إذا أسدي جاع يومًا ببلدة   وكان سمينًا كلبه فهو آكله

أكل هذا قرمًا إلى اللحم؟! فأنشأ[٨] الأسدي يقول:

---

(١) بقية النسخ: «قريبًا فبينما هو كذلك». وهنا كما في (مب) و(هـ).

(٢) قال الوزير أبو بكر البطليوسي: «إذا كسر أوله جاز فيه التنوين، وإذا ضم لم يجز فيه إلا ترك الصرف لأن فعلى لا يكون إلا للمؤنث، وهو منصوب على المصدر إذا نون كما تقول: هذا درهم ضرب الأمير وعلى الحال إن كان ألفه للتأنيث». ودنيا بمعنى الأدنى من القرابة. انظر ص ٤ من خمسة دواوين العرب.

(٣) كذا في (مب)، (هـ) وما عداهما: «ثم حثى عليه التراب ثم غطى رأسه».

(٤) كذا في (مب)، ما عداهما: «فتنفس وردت إليه الروح».

(٥) استشالوه: رفعوه.

(٦) ذكر القزويني في عجائب المخلوقات: أن بقرية «من أعمال حلب بئرًا يقال لها بئر الكلب إذا شرب منها من عضه الكلب الكلب برئ، وهي مشهورة، قال: وقد أخبرني بعض أهل القرية أن المكلوب إذا لم يجاوز أربعين يومًا وشرب منها برئ، أما إذا جاوز الأربعين فإنه يموت ولو شرب منها. وهذه البئر يشرب منها أهل الضيعة» (انظر ص ٣٣٧ جـ ٢ حياة الحيوان).

(٧) هو الفرزدق كما في البخلاء ١٩٨ والمعاني الكبير ٢٥٤.

(٨) فأنشده جميع النسخ. هنا و(مب)، (هـ) «فأنشأ» موضع «فأنشد».

رضينـا بحظ الليـث طعـمًا وشـهـوة   فسائل أخا الحلفاء إن كنت تـدري[١]

[وأخو الحلفاء: الأسد لأنه يسكن في الغياض][٢].

والأسد لا يحرص عـلى شيء من اللحمان حـرصه عـلى لحم الكلب. وأما العامة فتزعم أن لحوم الشاة أحب اللحمان إليه، والأسد يـطيف بجنبات القـرى طلبًا لاغترار الكلب لأن وثبة الأسد تعجل الكلب من القيام وهـو رابض. حتى ربما دعاهم ذلك إلى إخراج الكلب من قراهم إلا أن يكون بقرب ضياعهم خنازير فليس شيء حينئذ أحب إليهم من أن تكثر الأسد عندهم. وإنما يخرجون الكلاب في تلك الحال لأنهم يخافونها[٣]، على ما هو عندهم أنفس من الكلب، ولا يكون ذلك إلا في القرى التي تقرب الغيضة والمأسدة[٤].

فزعم بعض الدهاقين أنهم لا يشكون أن الأسد إنما يطلب الكلب لحنقه عليـه لا من طريق أن لحمـه أحب اللحمان إليـه. وأن الأسد ليـأتي مناقـع المياه وشطوط الأنهار فيأكل السراطين والضفادع، والرق[٥] والسلاحف، وأنه أشره من أن يختار لحمًا على لحم. وإنما يكـون ذلك منـه إذا أراد المتطرف من حمـير القريـة وشائها ودوابها. فإذا ألح[٦] الكلب في النباح انتبهوا ونذروا بالأسد[٧]. فكـانوا بين أن يحصنوا أموالهم وبين أن يهجهجوا به[٨]. فيرجع خائبًا. فإذا رأى ذلك بدأ بالكلب لأنه يأمن الإنذار[٩]، ثم يستوفي على القرية[١٠].

---

(١) المخطوطة وبقية النسخ: «الخلعاء» وفي (ط): «أخي» أثبت الصواب من(مب) والمعاني الكبير. قال ابن قتيبة: «وأخو الحلفاء» الأسد، و«صبا» موضع «رضينا» (هـ).

(٢) زيادة لابن منظور.

(٣) كذا (مـب)، بقية النسخ: «في تلك الحالات الكلاب».

(٤) المأسدة: الأرض الكثيرة السباع. كذا جميع النسخ «التي تقرب» (مب) «التي بقرب».

(٥) الرق: العظيم من السلاحف، وفي الأصل: «الزق» بالزاي محرفة.

(٦) ما عدا المخطوطة: «فإذا لج»، وكذلك (مب): «فالح الكلب في النباح انتبهوا وبدروا».

(٧) نذروا به: علموا. يقال أنذرتهم فنذروا بفتح النون وكسر الذال.

(٨) هجهج بالكلب: صاح به ليبعد فقال له: هج! هج!.

(٩) كذا جميع النسخ عدا (مب): «لأنه بذلك يأمن الإنذار» أي لكي يأمن الإنذار.

(١٠) كذا في (ش)، (م)، (ط): «يبيتون في أعلى القرية» (مب): «ثم يستولي على القرية».

وسمعت متواترًا عن الفلاحين أن الأسد ربما جاء قلس[١] السفينة فيتشبث به ليلاً، والملاحون يمدون السفينة فلا يشكون أن القلس قد التف على صخرة أو معلق بجذم شجرة[٢]. ومن عادتهم أن يبعثوا الأول من المدادين ليخلصه[٣]. فإذا رجع إليه الملاح تمدد الأسد ولزق بالأرض[٤]، وغمض عينيه كي لا يبصر وميضها[٥]، فإذا قرب وثب عليه وحطمه[٦]، فلا يكون للملاحين هم إلا إلقاء أنفسهم في الماء وعبورهم إليه. وربما أكله إلا ما بقي منه وربما جر فريسته إلى عريسه[٧] وإلى جرائه وأشباله وإن كان ذلك على أميال [٨].

قال: فليس الديك من بابة الكلب، لأنه إن ساوره قهره قهرًا ذريعًا. وسلاح الكلب الذي في فيه، أقوى من صيصة[٩] الديك التي[١٠] في رجله[١١]، وصوته أندى[١٢] وأبعد وعينه أيقظ.

والكلب يكفي نفسه ويحمي غيره ويعول أهله، فيكون لصاحبه غنمه وليس عليه غرمه. ولما يرمح[١٣] الدواب من الناس، ولما يجمح وتنطح وتقتل أهلها في يوم واحد، أكثر ما يكون من جميع الكلاب في عام.

---

(١) القلس، بالفتح: حبل غليظ من حبال السفن. المخطوطة وجميع النسخ: «حبل قلس السفينة» وأثبت ما في (مب)، لوضوحه.
(٢) جذم الشجرة: أصلها.
(٣) (ط): «أول المدادئن» محرفة، وفي (م): «أول المدادين» وما هنا كما في (ش) و(مب)، وورد موضع (ليخلصه)، «ليحله».
(٤) (مب): «فإذا رجع إليه الملاح تمدد الأسد ولصق بالأرض».
(٥) الوميض: البريق.
(٦) (مب): «فحطمه» بقية النسخ، «فخطفه».
(٧) العريس والعريسة: مأوى الأسد. وفي (م): «عريشته» وفي (مب): «إلى عريسته وعرسه».
(٨) أثبت ما في (مب)، (هـ)، والمخطوطة وبقية النسخ: «وإن ذلك على أميال».
(٩) الصيصة: شوكة في رجل الديك كما في اللسان والقاموس، وقيل: صوابه «الصيصية» وقيل: تلك مخففة من هذه انظر تاج العروس، (مب): «صيصيته».
(١٠) في الأصل: «الذي» والوجه ما هنا.
(١١) في نثار الأزهار لابن منظور ٩٦: «وفي الديك الصيصة، وهي طرف عرفه الحاد، وهي سلاحه الذي يقاتل به، وبها سمي قرن الثور صيصة»، فقد جعل الصيصة في العرف.
(١٢) أندى في معنى أبعد. وفي (ط): «الذي أبعد» تحريف صوابه ما هنا و(ش).
(١٣) الرمح: الرفس.

والكبش ينطح ويعقر ويقتل من غير أن يهاج وأن يعبث به.

[والثور ينطح ويقتل من غير أن يهاج ويعبث به][1].

والبرذون يعض ويرمح من غير أن يهاج ويعبث به[2].

ولا ترى كلبًا يعض أحدًا إلا من تهيج شديد، وأكثر ذلك إنما هو النباح والوعيد.

والكلب يعرف وجه سيده[3] [من وجه عبده] وأمته، ووجه الزائر. حتى ربما غاب صاحب الدار حولاً مجرمًا[4]، فإذا أبصره قادمًا اعتراه من الفرح والبصبصة، والعواء[5] الذي يدل على السرور، وشدة الحنين ما لا يكون شيء فوقه[6].

وحدثني[7] صديق لي قال: كان عندنا جرو كلب، وكان لي خادم لهج بتقريبه، فغاب عني إلى البصرة أشهرًا [8] فقلت لبعض من عندي: أتظنون أن فلانًا (يعني الكلب) يثبت اليوم صورة الخادم الغائب وقد فارقه وهو جرو، وقد صار كلبًا يشغر ببوله؟ قالوا: ما نشك أنه قد نسي صورته وبره. قال: فبينا أنا جالس إذ سمعت نباح الكلب في باب الدار، ولم أرَ شكل نباحه من شكل التوثب[9] ورأيت فيه بصبصة السرور وحنين الإلف، فلم ألبث أن رأيت الخادم طالعًا علينا وأن الكلب ليلتف على ساقيه، ويرتفع إلى فخذيه، وينظر على وجهه ويصيح صياحًا يستبين فيه الفرح ثم كان الخادم بعد ذلك يغيب الأشهر[10] أو

---

(١) هذه الجملة سقطت من بقية النسخ.

(٢) عدا المخطوطة «أن يهاج به ويعبث»

(٣) ما عدا (مب): «صاحبه» (مب): «ربه» و«من وجه عبده» سقط من الجميع عدا (مب).

(٤) مجرمًا: كاملاً، (ط): «نعم ربما غارب عند صاحبه حولاً كاملاً» وفي (ش): نعم ربما غاب عنه صاحبه حولاً كاملاً» وصوابه ما هنا، و(مب).

(٥) (ط): «والالتواء».

(٦) كذا في (مب). بقية النسخ: «بما لا شيء فوقه».

(٧) عدا المخطوطة: «وخبرني صديق لي».

(٨) (مب): فغاب عن البصرة أشهرًا» ما عدا (مب): «فغاب عنها إلى البصرة أشهرًا».

(٩) الأصل، (هـ): «التأنب» وفي (ش): «التونب» و(مب) والمخطوطة: «من شكل التوثب».

(١٠) عدا المخطوطة: «ثم كان يغيب الشهرين والثلاثة».

يمضي إلى بغداد ثم يرجع فأعرف بذلك الضرب من البصبصة وبذلك النوع من النباح أن الخادم قد قدم.

وزعم أنه ربما ألقي لهذا الجرو إلى أن صار كلبًا، بعض الطعام فيأكل منه ما أكل، ثم يمضي بالباقي ليخبأه[١]، وربما ألقي إليه الشيء وهو شبعان فيحمله حتى يأتي به بعض المخابئ فيضعه هناك، فإذا جاع رجع إليه فأكله.

وزعم غلماني وغيرهم من أهل الدرب، أنه كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب ويهوي[٢] إلى عراقيب برذونه، وكان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلاً إلى الدرب أو خارجًا لم ينبح عليه ولا على دابته، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق، ولكنه يدخل الدهليز، فسألت عن ذلك فبلغني أنه كان إذا أقبل صاح الخادم وأهوى له بالضرب[٣] فيدخل الدهليز وأنه ما فعل به ذلك إلا ثلاث مرات[٤]، حتى أنه صار إذا رأى محمد بن عبد الملك دخل الدهليز من تلقاء نفسه، فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية[٥].

قال: وكنا إذا تغدينا دنا من الخوان فرجمناه[٦] مرة أو مرتين فكان لا يقربنا لمكان الزجر[٧] ولا يبعد عن الخوان لعلة الطمع، فإن ألقينا إليه شيئًا أكله ودنا من أجل ذلك بعض الدنو.

---

(١) كذا، عدا (مب): «فيخبؤه» وكذلك (هـ).

(٢) هذه الكلمة فقط بالمخطوطة.

(٣) كذا (مب)، (هـ)، ما عداها: «وهوله بالضرب».

(٤) كذا، عدا (مب)، (هـ): «مرار».

(٥) في القاموس «الشاكري: الأجير المستخدم معرب جاكر» والجاحظ يستعملها بمعنى الجند. قال في رسالته إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك (رسائل الجاحظ ١/ ٣٠ تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون): «وقد ظن ناس كثيرون أن أسماء أصناف الأجناد لما اختلفت في الصورة والخط والهجاء إن حقائقها ومعانيها على حسب ذلك، وليس الأمر على حسب ما توهمه، ألا ترى أن اسم الشاكرية وإن خالف في الصورة والهجاء اسم الجند فإن المعنى فيهما ليس ببعيد لأنهم يرجعون إلى معنى واحد وعلم واحد» وبهذا يكون امراد الجند المستأجرون.

(٦) كذا جميع النسخ عدا (مب): «فزجرناه».

(٧) بقية النسخ: «لمكان الرجم».

فكنا نستظهر عليه[١]، فنرمي باللقمة فوق مربضه بأذرع. فإذا أكلها ازداد من الطمع فقربه ذلك من الخوان، ثم يجوز موضعه الذي كان فيه ولولا ما كنا نقصد إليه من امتحان ما عنده، ليصير ما يظهر منه حديثًا لكان إطعام الكلب والسنور من الخوان خطأ من وجوه: أولها أن يكون تضرية له ودربة حتى إنه ربما مد يده إلى ما على المائدة[٢]، وربما تناول بقية ما عليها[٣]، وربما قاء الذي أكله[٤]، [وهم يرون ذلك][٥]، وربما لم يرضَ بذلك حتى يعود فيه[٦]، وهذا كله مما لا ينبغي أن يحضره الرئيس، ويشهده رب الدار، وهو على الحاشية أجوز.

فأما علماء الفرس والهند، وأطباء اليونانيين ودهاة العرب وأهل التجربة من نازلة الأمصار [وحذاق المتكلمين][٧]، فإنهم يكرهون الأكل بين أيدي السباع، يخافون نفوسها وأعينها، للذي فيها من الشره والحرص والكلب، ولما يتحلل عند ذلك من أجوافها من البخار الرديء، وينفصل من عيونها من الأمور المفسدة، التي إذا خالطت طبائع الإنسان نقضتها[٨].

وروي أن ابن عباس[٩] قال على منبر البصرة: ان الكلاب من الحن وان الحن من ضعفة الجن فإذا غشيكم منها شيء فألقوا إليها[١٠] شيئًا أو أطردوها فإن لها أنفس سوء.

---

(١) يريد نحاول التغلب عليه، من ظهر عليه بمعنى غلبه.
(٢) كذا في (مب)، ما عداهما: «الخوان».
(٣) كذا في (مب)، بقية النسخ: «فإنما تناول بقية ما عليها».
(٤) وردت «أكله»، في بقية النسخ: «أكمله».
(٥) ما بين المعكفين فقط في المخطوطة و(مب).
(٦) عدا المخطوطة: «حتى يعود في قيئه».
(٧) سقطت عبارة «وحذاق المتكلمين» من (مب). وأثبت «الأكل» من بقية النسخ.
(٨) كذا في جميع النسخ، عدا (مب): «طباع الإنسان نقصته». والطباع: الطبيعة.
(٩) رواه الثوري عن سماك بن حرب عن ابن عباس. انظر الحيوان ٢/١٣١.
(١٠) ثبتت جملة: «فألقوا إليها شيئًا» كذلك في (ش)، (م)، (مب). وفي تأويل مختلف الحديث ١٦٧ «فإذا غشيتكم عند طعامكم فألقوا لها، فإن لها أنفسًا»، قال ابن قتيبة: «يعني أن لها عيونًا تصيب بها والنفس العين».

ولذلك كانوا يكرهون قيام الخدم بالمذبات[1] والأشربة على رؤوسهم وهم يأكلون، وكانوا يقولون في السنور والكلب: أما أن تطرده قبل أن تراك تأكل وأما أن تشغله بشيء يأكله ولو بعظم.

ورأيت بعض الحكماء وسقطت من يده لقمة فرفع رأسه فإذا عين غلام[2] له تحدق نحو لقمته وإذا الغلام يزدرد ريقه لتحلب فمه من الشهوة.

وكان ذلك الحكيم جيد اللقم[3] طيب الطعام وكان يضيق على غلمانه. فيزعمون أن نفوس السباع وأعينها في هذا الباب أردأ[4] وأخبث. وبين هذا المعنى وبين قولهم في إصابة العين الشيء المستحسن شركة وقرابة، وقالوا: قد رأينا رجالاً ينسب[5] ذلك إليهم، ورأيناهم[6] وفيهم من إصابة العين مقدار من العدد لا نستطيع أن نجعل ذلك النسق من باب الاتفاق. وليس إلى رد الخبر سبيل لتواتره ولأن العيان حققه، والتجربة ضمت إليه.

وفي الحديث في العين التي أصابت سهل بن حنيف[7] فأمر رسول الله ﷺ في ذلك الذي أمره، وذلك مشهور[8].

---

(١) عدا المخطوطة: «المذاب».

(٢) كذا في (مب)، بقية النسخ: «غلامه».

(٣) اللقم: الأكل السريع.

(٤) في (ط)، (مب): «أردى» محرفة لأنها من الرداءة لا الإرداء.

(٥) (ط): «رجال لا ينسب»، بزيادة «لا» وصوابه ما هنا كما في (ش)، (مب).

(٦) المخطوطة: «رأينا لهم» وصححته من بقية النسخ.

(٧) سهل بن حنيف من أهل بدر وممن ثبت يوم أحد حين انكشف الناس، ونفح عن رسول الله ﷺ وشهد الخندق، والمشاهد كلها واستخلفه علي على البصرة بعد الجمل ثم شهد معه حنين. وهو من الأنصار. وعندما آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار جعل سهلاً أخاً لعلي بن أبي طالب. ومات بالكوفة سنة ٣٠. الإصابة ٣٥٢٠ والمعارف ١٢٦، وقد جعله ابن قتيبة: «سهيلاً» بالتصغير. والمعروف «سهل» كما في الإصابة وسيرة ابن هشام في غير ما موضع.

(٨) انظر، لحديث سهل بن حنيف، في الموطأ (١١٨/٣ - ١١٩) وتيسير الوصول (١٥٩/٣) طبع التجارية في كتاب الطب. وهو في الموطأ بروايتين أولاهما «مالك عن محمد بن أبي أمامة بن سهيل بن حنيف أنه سمع أباه يقول: اغتسل أبي، سهل بن حنيف، بالخرار فنزع جبة كانت عليه وعامر بن ربيعة ينظر. قال: «وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد. قال: فقال له عامر ابن ربيعة: ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء! في الرواية الأخرى: ولا جلد مخبأة! قال: فلازم سهل مكانه واشتد وعكه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره سهل بالذي كان من أمر عامر فقال =

قالوا: لولا أن فاصلاً ينفصل من عين المستحسن إلى بدن المستحسن حتى يكون ذلك الداخل عليه هو الناقص[١] لقوله لما جاز أن يلقى [مكروهًا البتة، وكيف يلقى][٢] المكروه من إنسان[٣] في حيزه وموضعه[٤]، [من غير تماس ولا تصادم][٥]. [والذي أصابته العين في حيزه وموضعه][٢] من غير تماس ولا تصادم[٥]، ولا فاصل[٦] ولا عامل لاقى معمولاً فيه. ولا يجوز أن يكون المعتل بعد صحته يعتل من غير معنى بدنه[٧]. ولا تنتقض الأخلاط ولا تتزايل إلا لأمر يعرض لأنه حينئذ يكون ليس بأولى بالانتقاض من جسم آخر.

وإن جاز للصحيح أن يعتل من غير حادث، جاز للعليل أن يبرأ[٨] من غير حادث.

وكذلك القول في الحركة والسكون، فإذا جاز ذلك أن الغائب قياسًا على الحاضر الذي لم يدخل عليه شيء من مستحسن له، فإذا كان لا بد من معنى قد عمل فيه. فليس لذلك المعنى وجه إلا أن يكون انفصل إليه شيء عمل فيه. وإلا فكيف يجوز أن يعتل من ذات نفسه وهو على سلامته وتمام قوته، ولم يتغير ولم يحدث عليه ما يغيره فهو وجسم غائب[٩] في السلامة من الأعراض سواء.

= رسول الله ﷺ: علام يقتل أحدكم أخاه، ألا بركت؟! إن العين حق: توضأ له. فتوضأ له عامر فراح سهيل مع رسول الله ليس به بأس»، والحديث أخرجه النسائي وصححه ابن حبان ورواه الحاكم في المستدرك من طرق أخرى (٣/٤١٠ ـ ٤١٢، ٤/٢١٠ ـ ٢١٦). بعضها مختصر وبعضها مطول.

(١) كذا في (مب)، ما عداهما: «الناقص» تحريف.
(٢) ما بين المعكفين سقط من جميع النسخ عدا هنا و(مب).
(٣) كذا جميع النسخ عدا (مب) «من انساق في».
(٤) حيزه: أي حده ومكانه المحدود. (ط): «خيره» تحريف.
(٥) سقط من جميع النسخ عدا المخطوطة. إلا الجزء الأخير فقد ثبت أيضًا في (مب).
(٦) (ط): «مناضل»، صوابه ما هنا وفي (ش) و(مب).
(٧) كذا في (مب)، في البقية: «بعد صحة معنى بدنه».
(٨) وردت كلمة «العليل في بقية النسخ: «للمعتل».
(٩) كذا في (ش)، (مب)، وهو الصواب. وفي (ط): «فهو جسم ثابت»، وفي (م): «فهو وجسم نائب».

وهذا جواب المتكلمين [الذين يصدقون بالعين، ويثبتون الرواية] (١).

[وليس يكون المتكلم] (٢) جامعًا لأقطار الكلام متمكنًا في الصناعة يصلح للرياسة حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة.

والعالم عندنا هو الذي يجمعهما، والصيب هو(٣) الذي يجمع بين تحقيق التوحيد وإعطاء الطبائع حقائقها من الأعمال، ومن زعم أن التوحيد لا يصلح(٤) بإبطال حقائق الطبائع فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد. وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنتها بالتوحيد. ومن قال ذلك فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع.

وإنما ييأس(٥) منك الملحد، إذا لم يدعك(٦) التوفر على التوحيد إلى بخس(٧) حقوق الطبائع، لأن في دفع أعمالها رفع أعيانها. فإذا كانت الأعمال هي الدالة على الله فرفعت الدليل(٨)، فقد أبطلت المدلول عليه. ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة.

وأنا أعوذ بالله أن أكون كلما غمز قناتي باب من الكلام صعب المدخل، نقضت ركنًا من أركان مقالتي ومن كان كذلك لم ينتفع به.

فإن قيل: وما بلغ من أمر هذا الفاصل الذي لا يشعر به القوم الحضور ولا الذي انفصل منه، ولا المار بينهما ولا المتلقي له ببدنه وليس دونه شيء

---

(١) هذا الجزء فقط في المخطوطة (مب). وجاءت كلمة: «الرواية» كما في الأصل وهي في (مب) «الرؤيا» بدل «الرواية»، وأثبته (هـ) نقلاً عن (مب) ٢٠/١٣٤.

(٢) هذا الجزء فقط في (مب) وهنا. وأشار (هـ) في الهامش أن التكملة من (مب) ٢٠/١٣٤.

(٣) سقط «هو» من جميع النسخ عدا المخطوط و(مب).

(٤) ما عدا (مب) «لا يصح» وكذلك المخطوطة وأثبت ما في (مب).

(٥) في الأصل: «يأنس» ولا وجه له.

(٦) (ط)، (م): «يرعك التوقير» وفي (مب): «يدعك التوقير» والصحيح ما هنا كما في (ش).

(٧) (ط)، (م): «تحسن» والصواب من (ش) و(مب). كما هنا.

(٨) المخطوطة: «فإذا كانت الأعمال هي الدالة على ذلك فدفعت الدليل» بقية النسخ: «وإذا كانت الأعمال الدالة على ذلك قد رفعت الدليل» وأثبت هنا ما في (مب)، (هـ).

وكيف لم يعمل في الأقرب دون الأبعد، الأقرب إنسان مثله، ولعله أن يكون طبعه أشد اجتذابًا للآفات!

وبعد فكيف يكون شيء يصرع الصحيح ويضجع القائم، وينقض القوي ويمرض الأصحاء ويصدع الصخر ويهشم العظم، ويقتل[١] الثور، ويجري في الجماد مجراه في النبات، ويجري في الموات[٢] مجراه في الحيوان، ويجري في الصلابة والملاسة مجراه في الأشياء السخيفة الرخوة، وهو مما ليس له صدم كصدم الحجر، أو غرب كغرب السيف أو حد كحد السنان، وليس من جنس السم فيحمل على نفوذ السم[٣]، وليس من جنس الغذاء فيحمل على نفوذ الغذاء، وليس من جنس السحر فيقال إن العمار[٤] عملوا ذلك من طريق طاعتهم للعزائم. ولعل ذلك إنما كان شيئًا وافق شيئًا.

فيقال[٥] لهم: كيف تعلمون مقدار سم الجرارة[٦] أو سم الأفعى، ولو وزنتم الجرارة قبل لسعها وبعده لوجدتموها على حال واحدة. وأنت ترى كيف تفسخ عقد بدن الفيل، وكيف تنقض[٧] قوى البعير، من غير صدم [كصدم][٨] الحجر، [أو غرب كغرب السيف][٩]، أو حد كحد السنان.

فإن قلت: وهل ناب الأفعى وإبرة العقرب إلا في سبيل حد السنان؟ قلنا: إن البعير لو كان إنما يتفسخ لطعن العقرب بإبرتها لما كان ذلك يبلغ منها

---

(١) (ط): «يقل»، والصواب من (ش) كما هنا.

(٢) ما عدا (مب): «المدات»، (مب): «النبات» وكذلك (هـ). والموات بالضم: الموت، والموات بالفتح ما لا روح فيه. والموات أيضًا: الأرض التي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد، والمقصود به هنا مطلق الأرض.

(٣) هذا الجزء فقط هنا وفي (مب)، وسقط من بقية النسخ ما عدا (هـ).

(٤) العمار: سكان البيوت من الجن» (ش): «العمال» محرفة، وفي (مب): «فعلوا».

(٥) ما عدا المخطوطة: «قيل لهم».

(٦) الجرارة: «نوع من العقارب إذا مشى على الأرض جر ذنبه، وفي (ط): «الجرادة» وهو تحريف ما هنا، (ش)، (م)، (مب).

(٧) في الأصل: «تنقص» بالصاد.

(٨) سقطت هذه الكلمة إلا من (ش)، (م)، (مب).

(٩) هذا الجزء فقط هنا وفي (مب). (هـ).

مقدار النخس[1] فقط، ولكنه لا بد من أن يكون ذلك لأحد أمرين: اما أن تكون العقرب تمج فيه شيئًا من إبرتها، ويكون طبع ذلك وإن قل أن ينفسح له كالفيل والزندبيل[2].

وإما أن يكون طبع ذلك الدم إذا لاقاه ذلك الناب وتلك الإبرة أن يجمد[3] فيقتل بالاجماد، أو يذيب فيقتل بالإذابة. فأيهما كان فإن الأمر فيه على خلاف ما صدرتم به المسألة[4].

وقد أجمعوا على أن الأفعى إذا هرمت فلم تطعم ولم يبقَ في بدنها[5] دم أنها تنكز[6] بأنفها وتطعن به، ولا تعض بفيها فيبلغ النكز بها ما كان يبلغه العض قبل ذلك[7].

وها هنا أمثال نضربها وأمور عاينتموها، يذلل بها هذا المعنى عندكم ويسهل بها المدخل، قولوا لنا: ما بال العجين يكون في أقصى الدار ويفلق

---

(١) (ط): «التحسن»، (مب): «الحسن»، والصواب ما هنا، (ش)، (م).

(٢) الزندبيل: الفيل الكبير، وأنشد يحيى بن معين:

وجاءت قريش البطاح إلينا هم الدول الجالية
يقودهم الفيل والزندبيل وذو الضرس والشفة العالية

الزندبيل: كبير الفيلة وقال يحيى: أراد بالفيل والزندبيل، عبد الملك وأبان ابني بشر بن مروان قتلا معًا ابن هبيرة الأصغر، وأراد بذي الضرس والشفة العالية خالد بن مسلمة المخزومي المعروف بالقافاء الكوفي، روى له مسلم وروى عن الشعبي وطبقته، وروى عنه: شعبة بن الحجاج وكان من المرجئة يبغض عليًا رضي الله عنه، أُخذ مع ابن هبيرة، فقطع أبو جعفر المنصور لسانه ثم قتله. (ص ١٢ جـ ٢ حياة الحيوان الدميري).

(٣) (ط)، (م): «يحمل»، وصوابه ما هنا (ش)، (مب).

(٤) ما عدا(مب): «فإن الأمر على ما صدرتم به المسألة» والمخطوطة: «فإن الأمر فيه على خلاف ما صدرتم فيه المسألة». وأثبت ما في (مب)، (هـ).

(٥) ما عدا المخطوطة: «فمها» موضع «بدنها».

(٦) نكزت الحية: لسعت بأنفها.

(٧) ما عدا المخطوطة: «فيبلغ النكز لها ما كان يبلغ لها قبل ذلك اللدغ».

إنسان بطيخة[١] في أدنى الدار، فلا يفلح العجين أبدًا ولا يختمر؟ فما ذلك الفاصل[٢]؟

أبصدم كصدم[٣] الحجر أم بغرب كغرب السيف!؟ وكيف لم يعرض ذلك الفساد في كل معجون هو أقرب إليه من ذلك العجين.

وحدثني [حاذق من][٤] الأطباء أن رجلاً يضرب الحية [٥] من دواهي الحيات بعصاه فيموت الضارب [٦]، لأنهم يرون أن شيئًا فصل من الحية [فسرى في العصا][٧] وجرى فيها حتى داخل الضارب فقتله. والأطباء والنصارى أجرا على دفع الرؤيا[٨] والعين، وهذه الغرائب التي تحكى عن الحيات وصرع الشيطان الإنسان.

أما الدهرية فمنكرة للشياطين والجن والملائكة والرؤيا وهم يرون أن أمرهم لا يتم إلا بمشاركة أصحاب الجهالات[٩].

وقد نجد الرجل ينقف شحم الحنظل[١٠]وبينه وبين صاحبه مسافة صالحة [للبعد][١١]فيجد في حلقه مرارة من الحنظل، وكذلك السوس إذا [هو][١٢]

---

(١) (ط): «ويقلق إنسان بطبخه» والصحيح ما هنا (وش)، (مب). وقد ذكر مثل هذا في تأويل مختلف الحديث ٤٣٩ قال: «وقد يفسد العجين إذا قطع في البيت الذي هو فيه البطيخ».

(٢) ما عدا هنا و(مب) «فما ذلك الفصل».

(٣) (ط): «يصدم ذلك» وفي (مب): انصدم كان».

(٤) هذا الجزء فقط هنا وفي (مب).

(٥) ما عدا المخطوطة: و(مب): «أن الرجل يصيب الحية».

(٦) قال ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث: «وقد زعم صاحب المنطق أن رجلاً ضرب حية بعصا فمات الضارب»، يظهر أن محدث الجاحظ روى له ما أثر عن أرسطو.

(٧) سقط هذا الجزء من جميع النسخ عدا المخطوطة.

(٨) أي الاعتقاد بصحة تأويلها وإنبائها عن المستقبل. وأجرا: أجرأ ورسمت في (مب): «أجرى» وفي سائر النسخ عدا المخطوطة: «أجراء».

(٩) ما عدا (مب): «الجهات» وأثبت هنا ما في (مب) لوروده في أكثر من مكان بهذا الرسم.

(١٠) شحم الحنظل: ما في جوفه سوى حبه، ونقف الحنظل: شق الحنظل عن الهبيد والهبيد: حب الحنظل.

(١١) سقطت هذه الكلمة من جميع النسخ عدا هنا.

(١٢) ساقط من الجميع عدا هنا.

عولج وبينه وبين الإنسان[١] مسافة متوسطة البعد، يجد في حلقه حلاوة السوس. وناقف الحنظل لا تزال عينه تهمل[٢] ما دام ينقفه، ولذلك قال ابن حذام[٣] وهو أول من بكى الديار:

كأني غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحي ناقف حنظل

يخبر[٤] عن بكائه ودرور دمعته، فشبه [نفسه] [٥] بناقف الحنظل، وقد نجد الرجل يقطع البصل، أو يوخف الخردل[٦] فتدمع عيناه، وينظر الإنسان في العين المحمرة[٧] فتعتري عينه حمرة.

وفي المثل: «أعدى[٨] من الثؤباء!»، كما تقول: «أعدى[٨] من الجرب!» وذلك أن من تثاءب مرارًا، وهو تجاه الإنسان، اعترى ذلك الإنسان التثاؤب.

ورأيت قومًا من الأطباء ومن[٩] فلاسفة المتكلمين، يكرهون دنو الطامث[١٠]من إناء اللبن لتسوطه[١١] أو تعالج منه شيئًا، فكأنهم يرون أن لبدنها

---

(١) في الأصل: «الأسنان».

(٢) يقال هملت عينه: أي فاضت دموعه، وكذلك (هملانا) أيضًا بالفتح وانهملت مثله.

(٣) (ط): «ولذلك قال أبو عبيدة وهو الذي يقول» وفي (ش)، (م): «ولذلك قال ابن خذام قال أبو عبيدة هو الذي يقول»، وفي (مب)، (هـ): «ولذلك قال ابن حمام، قال أبو عبيدة؛ وهو الذي يقول» وما بالمخطوطة كما ترى وهو ما أثبته وابن حذام هذا ذكره امرؤ القيس في قوله:

عوجا على الطلل القديم لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن حذام

انظر ديوانه شرح الوزير أبي بكر ص ١٦٠ ـ ١٦٥ ويروى «لأننا» موضع «لعلنا»، «المحيل لعلنا»، و«كما بكى ابن حمام».

(٤) و«نجد» موضع «يعني» بالمخطوطة.

(٥) هذه الكلمة فقط هنا وفي (مب).

(٦) (ط): «الخروب» وصوابه ما هنا (ش)، (مب)، وفي (ط) (ش): «يكسر» صوابها ما هنا و(مب)، وفي تأويل مختلف الحديث: «. . . . وكذلك موخف الخردل وقاطع البصل». أوخفه صب عليه الماء وضربه بيده.

(٧) ما عدا (مب) والمخطوطة: «الحمرة». صوابه ما هنا كما في (مب) وتأويل مختلف الحديث.

(٨) ما عدا المخطوطة: «لهو أعدى» وقد سوغ لصاحب المختصر حذف «لهو» اختصاره للأصل.

(٩) ما عدا المخطوطة: «وهم» موضع «من».

(١٠) الطامث: الحائض. والمعنى: أن دنو الطامث من اناء اللبن يكون مفسدًا له إذ تختلط تلك الرائحة المنبعثة منها باللبن فتفسده. وقد فسر ذلك تفسيراً علمياً: انظر مجلة الرياضة البدنية، ديسمبر سنة ١٩٣٨.

(١١) السوط: الخلط والمزج.

ما دام ذلك العرض يعرض لها، لها رائحة حدة وبخار غليظ، يكون لذلك المسوط مفسد.

وما ذلك ببعيد منكم.

قال أبو سعيد عبد الملك بن قريب(١): كان عندنا رجلان يعينان الناس، فمر أحدهما بحوض من حجارة، فقال: ما رأيت كهذا الحوض قط! فتطاير الحوض فلقتين(٢)، فأخذه أهله فضببوه(٣) بالحديد، فمر عليه ثانية فقال: وأبيك لقلما أضررت أهلك فيك! فتطاير أربع فلقات.

قال: وأما الآخر، فإنه سمع صوت بول وراء حائط فقال: إنه لين الشخب(٤)!

فقالوا له: إنه فلان ابنك، قال: وانقطاع ظهراه! قالوا: إنه لا بأس عليه(٥). قال: فإنه لا يبول والله بعدها أبدًا! فما بال حتى مات.

قال الأصمعي: ورأيت رجلاً عيونًا فدعى عليه فعور(٦)، قال: إذا رأيت الشيء يعجبني، وجدت حرارة تخرج من عيني. وهذا القول من أعلم الحجج في الفاصل من صاحب العين إلى المعين.

ويقال فلان عيون: إذا كان يتشوف الناس ليصيبهم بعين. ويقال عنت فلانًا أعينه عينًا: إذا أصبته بعين، ورجل معين ومعيون: إذا أصيب بالعين. ويقال للعيون: انه لنفوس، وما أنفسه، أي ما أشد عينه، وقد أصابته نفس أو عين.

---

(١) هو الأصمعي.
(٢) (ط)، (م) «فبطل الحوض فرقتين» وفي (ش): «فنصل الحوض فرقتين» وما هنا وافق ما في (مب). والفلق، بالكسر: الفلقة من الشيء أي الكسرة يقال: اعطني فلقة الجفنة وهي نصفها. انظر القاموس والمختار ص ٥١١.
(٣) ضببت الخشب ونحوه: ألبسته الحديد «انظر اللسان».
(٤) كذا: «بول وراء حائط فقال إنه لين الشخب» كما هو ثابت. وأما في (مب) وقد تبعه (هـ): «فقال: إنك لشر الشخب».
(٥) ما عدا المخطوطة و(مب): «عليك».
(٦) ما أثبت من (مب). وما عداها: «يدعى عليه بقود».

فأما قول القائل: إن من لؤم الكلب وغدره أن اللص إذا أراد دار أهله أطعم الكلب الذي يحرسهم قبل ذلك مرارًا ليلاً ونهارًا[١]، ودنا منه ومسح رأسه[٢]، حتى يثبت صورته، فإذا أتاه ليلاً أسلم إليه الدار بما فيها - فإن هذا التأويل لا يكون إلا من نتيجة سوء الرأي، لأن سوء الرأي يصور لأهله الباطل في صورة الحق، وفيه بعض الظلم للكلب وبعض المعاندة للمحتج عن الكلب، وقد ثبت للكلب استحقاق المدح من حيث أراد أن يهجوه منه، فإن كان الكلب لفرط[٣] إلفه وشكره كف عن اللص عند ذكر احسانه، وإثبات صورته، فما أكثر من يفرط عليه الحياء حتى ينسب إلى الضعف والكرم وحتى ينسب إلى الغفلة. وربما شاب[٤] الرجل بعض الفطنة ببعض التغافل، ليكون أتم لكرمه فإن الفطنة إذا تمت منعت من أمور كثيرة، ما لم يكن الخيم كريمًا والعرق سليمًا.

وإنك إن تكلف الكلب ما قد عجل إليه اللص من اللطف والإحسان - أن يتذكر نعمة سالفة، وأن يحترس من خديعة المحسن إليه مخافة أن يكون يريغ[٥] بإكرامه سوءاً[٦] - لحسن الرأي فيه، بعيد الغاية في تفضيله.

ولو كان للكلب آلة يعرف بها عواقب الأمور وحوادث الدهور، وكان

---

(١) يورد الجاحظ هنا كلام من ينال من الكلب للؤمه وغدره وأنه كثير الغفلة وبعد أن يبسط هذا الادعاء يتناوله بالنقص وإثبات عكسه وذلك واضح من خلال سرده آراءه بعد إثباته لقول القائل. وعلى عكس ذلك فقد استحق الكلب المدح بما ادعاه القائل إنه هجاء له وعد الجاحظ مأخذ القائل على الكلب من حسناته لا من عيوبه وما ذلك إلا لفرط الإلف والشكر وقد استدعى دليلاً على ذلك نلمسه من بني الإنسان فقد يكون الحياء المفرط علة النسبة إلى الضعف وما هو كذلك.

(٢) ما عدا المخطوطة: «ظهره».

(٣) كذا جميع النسخ عدا (مب): «بفرط الفه».

(٤) المخطوطة و(مب): «وربما شيع الرجل بعض الغفلة» تحريف. أثبت الصواب من بقية النسخ.

(٥) يريغ بمعنى (يريد) كما جاءت الرواية في (ط). وفي (ش): «بريع» وفي (م): «بديع» والصواب ما هنا كما وافقه ما في (مب).

(٦) (ط)، (ش)، (مب): «سوء» وتصحيحه ما هنا كما في (م).

يوازن بين عاجلها وآجلها[١]، ويعرف مصادرها من مواردها[٢]، ويختار أتم الخيرين وأنقص الشرين، ويتثبت في الأمور[٣] ويخاف الغيب[٤] ويأخذ بحجة ويعطي بحجة[٥]، ويعرف الحجة من الشبهة، والثقة من الريبة، ويتثبت في العلة ويخاف زيغ الهوى[٦] وسرف الطبيعة لكان من كبار المكلفين ومن رؤوس الممتحنين.

والعادة القائمة والنسق الذي لا يتخطى[٧]، والنظام الذي لا ينقطع ولا يختلط، في ذوي التمكين والاستطاعة وفي ذوي العقول والمعرفة أن أبدانهم متى أحست بأصناف المكروه والمحبوب وازنوا وقابلوا وميزوا بين أتم الخيرين وأنقص الشرين ووصلوا كل مضرة ومنفعة في العاجل [بكل مضرة ومنفعة في][٨] الآجل[٩]، وتتبعوا مواقعها. وتعرفوا مساقطها، كما تعرفوا مقاديرها وأوزانها[١٠]، واختاروا بعد ذلك أتم الخيرين وأنقص الشرين.

فأما الشر صرفًا والخير محضًا فإنهم لا يتوقفون عندهما، ولا يتكلفون الموازنة بينهما، وإنما ينظرون في الممزوج[١١]وفي بعض ما يخشى معارضته، ولا يوثق بمغزاه ومكشفه[١٢]، فيحملونه[١٣]على خلاص الذهن، كما يحمل الذهب على الكير.

(١) ما عدا المخطوطة: «عواجلها وأواجلها».
(٢) ما عدا المخطوطة: «مصادرها ومواردها» بدون «من».
(٣) ما عدا المخطوطة: «ويختار أنقص الشرين وأتم الخيرين».
(٤) ما عدا المخطوطة و(مب): «الغيب».
(٥) ما بين المعكفين فقط هنا وفي (مب).
(٦) الزيغ: الميل. وفي (ط): «زيغ»، ولا وجه له، والصواب ما هنا و(ش)، (مب).
(٧) المخطوطة: «السنن»، ما عداها: «والسن»،(مب): «النسق». ويتخطى في الأصل: «يخطى» محرفة. ويتخطى ـ ومثله يختطي ـ: يتجاوز.
(٨) سقط هذا الجزء من جميع النسخ عدا المخطوطة و(مب)، و(هـ): نقلاً عن(مب).
(٩) ما عدا المخطوطة و(مب): «والآجل».
(١٠) ما عدا المخطوطة و(مب): «كما يعرفوا أوزانها».
(١١) ما عدا هنا و(مب): «وإنما ينتظرون في المكروه».
(١٢) المخطوطة: «بمغزاه ومكتشفه» (ط). «بمغزاه ومكتشفه» (ش): «بمغزاه ومكشفه» وأثبت ما في (مب) وهو الوجه.
(١٣) إلى هذه الكلمة ينتهي ما وجد من نصوص الحيوان في نسخة الأمبروزيانا (مب).

وأما ذوات الطبائع المسخرة والغرائز المجبولة[١] التي [٢] إنما[٣] تعمل من جهة التسخير والتنبيه[٤] كالسم والدواء والغذاء، وإن هيأ الله عز وجل أصناف الحيوان المسخرة لدرك ما لا تبلغه العقول اللطيفة، بلغته بغير معاناة ولا روية ولا توقف ولا خوف من عاقبة.

ومتى تقدمت من أهل العقول المبسوطة المتمكنة بطبائعها، المقصورة غير المبسوطة، لم يمكنها أن تعرف بتلك الطبيعة ما كان موازيًا لتلك الأمور ببديهة ولا فكرة وإذا كانت كذلك فليس بواجب أن يكون كلما أحسن أمرًا أمكنها أن تحسن ما كان في وزنه، [ووجب أن يحسن ما كان دونه][٥] في الغموض والإلطاف، وفي الصنعة التي لا تمكن إلا بحسن التأني وببعد الروية ومقابلة الأمور بعضها ببعض، وهذا الفن إنما يصاب [٦] عند من جهته العقل [٧] ، وفي تمكنه للاستدلال، والكف عنه والقطع له إذا شاء، وإتمامه [٨] إذا شاء، وبلوغ غايته، والانصراف عنه إلى عقبيه من الأفعال، ومن جهته تعرف العلل، ويمكنه إكراه نفسه على المقاييس والتكلف والتأني [٩] .

ومتى كانت الآلة موجودة فإنها تنبه[١٠] على مكانها، وإلا كان وجودها كعدمها، وبالحس[١١] الغريزي تشعر صاحبها بمكانها، لا يحتاج في ذلك إلى تلقين

---

(١) (ط): «المجهولة» والصواب ما هنا كما في (ش)
(٢) عدا المخطوطة بدون «التي».
(٣) كذا في الأصل، ما عداهما: فإنما.
(٤) المخطوطة: «والبقية» وأثبت ما في (ش) وبقية النسخ.
(٥) سقط هذا الجزء من جميع النسخ، وورد الكلام فيها موصولاً هكذا: «ما كان في وزنه في الغموض والالطاف».
(٦) عدا المخطوطة: «وهذا الفن لا يصاب إلا عند».
(٧) ما زال الجاحظ يورد الأدلة ويسوق الحجج دفاعًا عن الكلب وقول القائل بخسته ولؤمه، وذلك بإيراد ما يستطيع أن يفعله صاحب العقل وما لا يستطيع، ثم ذوات الطبائع المسخرة وأهل العقول المبسوطة وما يحتاجون إليه من روية وتأنٍ في تمييز الأمور واختيارها.
(٨) في الأصل: «وبإتمامه».
(٩) في الأصل والمخطوطة: «التأني» بالنون، وأثبت ما في (ش)، (هـ).
(١٠) بقية النسخ: «تنبهك».
(١١) (ط)، (م): «وبأحسن» وصوابه ما هنا و(ش)

وإشارة، وإلى تعليم وتأديب، وإن كان صاحب الآلة أحمق من الحبارى وأجهل من العقرب.

والعاقل الممكن لا يفضل في هذا المكان على الأشياء المسخرة ولا ينفصل منها في هذا الباب، وليس عند البهائم والسباع إلا ما صنعت له، وألهمت معرفته وكفيت[1] تكلف أسبابها والتعلم لها من تلقاء أنفسها، فإذا أحسن العنكبوت نسج ثوية[2] وهو من أعجب العجب، لم يحسن عمل بيت الزنبور، وإذا صنع النحل خلاياه مع عجيب القسمة التي فيها، لم يحسن أن يعمل مثل بيت العنكبوت. والسرفة ـ التي يقال في المثل: «أصنع من سرفة» ـ لا تحسن أن تبني[3] مثل بيت الأرضة، على جفاء هذا العمل وغلظه، ودقة ذلك العمل ولطافته.

وليس كذلك العاقل وصاحب التمييز ومن ملك التصرف، وخول الاستطاعة، لأنه يكون ليس بنجار فيتعلم النجارة، [ثم يبدو له][4] بعد الحذق فيها الانتقال إلى الفلاحة، وربما ملها بعد حذقها وصار إلى التجارة.

قال صاحب الكلب: وزعمت أن قولهم «أسمح من لافظة» أن اللافظة الديك، لأنه يقبض[5] على الحبة بطرفي منقاره، ثم يحذف بها قدام الدجاجة. وما رأينا أحدًا من العلماء ومن الذين رووا هذا المثل يقول ذلك، والناس في هذا المثل رجلان: زعم أحدهما أن اللافظة العنز، لأن العنز ترعى في روضة وتأكل من معلفها وهي جائعة، فيدعوها الراعي أو[6] صاحبها باسمها إلى الحلب، فتترك ما هي فيه حتى تنهك حلبًا.

وقال الآخر: اللافظة الرحى، لأنها لا تمسك في جوفها شيئًا مما صار في

---

(١) عدا المخطوطة: «وكيفية».
(٢) الثوي: البيت. وفي الأصل: «ثوية» وهو تصحيف.
(٣) في الأصل: «لا يحسن أن يبني».
(٤) هذا الجزء هنا وفي (ش). وزاده (هـ) من (ش)، وبدله في (ط): «وله».
(٥) عدا المخطوطة: «ويعض».
(٦) عدا المخطوطة: «وصاحبها».

بطنها. وكيف تكون اللافظة الديك! وليس لنا أن نلحق في هذه الكلمة تاء التأنيث في أسماء الذكورة(١).

واللافظة مع هاء التأنيث بالعنز(٢) والرحى أشبه(٣).

وبعد فقد زعم ثمامة بن أشرس(٤): أن ديكة مرو تطرد الدجاج عن الحب، وتنزع الحب من أفواه الدجاج.

قال صاحب الديك: قولهم: «أسمح من لافظة»، لا يليق بالرحى لأنها صخرة صماء، والذي يخرج ما صار في بطنها المدبر(٥) لها، والعرب أيضًا تمدح الإنسان بهذه الأشياء وما جرى مجراه من الوجوه الكثيرة، ليكون ذلك مشحذة للأذهان، وداعية له إلى السباق وبلوغ الغايات.

وأما ترك الشاة للعلف فليس بلفظ للعلف، إلا أن يحملوا ذلك على المجازات البعيدة، وقد يكون مثل ذلك عند الضرورة، والشاة ترتضع من خلفها حتى تأتي على أقصى لبن في ضرعها، وتنثر العلف، وتقلب المحلب(٦)، وتنطح من قام عليها وأتاها بغذائها.

---

(١) كذا.

(٢) العنز: الأنثى من المعز والجمع أعنز وعنوز، روى البخاري وأبو داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: «أربعون خصلة أعلاها منبحة العنز ما من يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديقًا بموعودها إلا أدخله الله الجنة «انظر ص ١٨٩ حياة الحيوان جـ ٢.

(٣) أي هذا اللفظ أليق بهما.

(٤) ثمامة بن أشرس أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من ا[illegible]ء، وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد. تاريخ بغداد ١٤٥/٧. وفي البيان ١١١/١ قال الجاحظ عنه: «وما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان قد بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه. وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه ولم يكن لفظه إلى سمعك، بأسرع من معناه إلى قلبك. وفي عيون الأخبار ١٣٧/٣ «قال رجل لثمامة: إن لي إليك حاجة قال ثمامة: ولي إليك حاجة قال؛ وما هي؟ قال: لا أذكرها حتى تتضمن قضاءها. قال: قد فعلت قال: حاجتي ألا تسألني هذه الحاجة؟! قال: رجعت عما أعطيتك! قال ثمامة: لكني لا أرد ما أخذت!!».

(٥) (ط): «المدبر» وصوابه ما هنا و(ش).

(٦) المحلب والحلاب بكسرهما: إناء يحلب فيه.

وهي من أموق البهائم[١]، وزوجها شتيم المحيا، منتن الريح، يبول في جوف فيه، وفي حاق[٢] خياشيمه.

وتقول العرب: «إنما هو تيس في سفينة»[٣]، إذا أرادوا به الغباوة و«ما هو إلا تيس»، إذا أرادوا به نتن الريح.

والعنز خرقاء، وأبوها وهو التيس أخرق منها.

وأمر الديك وشأنه، وكيف[٤] يلفظ ما قد صار في منقاره وكيف يؤثر به طروقته من ذات نفسه - شيء يراه [جميع][٥] الناس.

وهذه المكرمة وهذا الغزل[٦]، وهذا الإيثار شيء يراه الناس لم يكن في ذكر قط ممن يزاوج[٧] إلا الديك، والديك أحق بهذا المثل: فإن كنتم قد صدقتم على العرب في التأويل لهذا المثل[٨] فهذا غلط من العرب وعصبية للبن وعشق للدقيق[٩].

والمثل إنما يلفظ به رجل من الأعراب، وليس الأعرابي بقدوة إلاّ في الجر والنصب والرفع في الأسماء[١٠]، وأما في غير ذلك فقد يخطئ ويصيب. فالديك أحق بهذا المثل الذي يدل على أن هذا الفعل في الديك إنما هو من جهة الغزل، وأنه لا يفعل ذلك إذا هرم وعجز عن السفاد، وانصرفت رغبته عنهن وهو في

---

(١) أموق البهائم: أحمقها.

(٢) حاق الشيء: وسطه. وفي الأصل: «حلق» ولا وجه له.

(٣) عدا المخطوطة: «ما هو إلا تيس في سفينة». قال أبو الشمقمق في هجاء بشّار:

هلليـنـه هلليـنـه طعـن قثـاة لتـيـنـه
إن بشـار بـن بـرد تـيـس أعـمـى في سـفـيـنـة

(انظر الأغاني ٤٦/٣، ٦٩ ونكت الهميان ١٢٦).

(٤) كذا بالواو (ش)، (ط): «كيف».

(٥) سقطت هذه الكلمة من غير المخطوطة.

(٦) (ط): «التغزل» وصوابه ما هنا و(ش).

(٧) الجملة وردت في المخطوطة: «لا مما يزاوج ولا مما لا يزاوج إلا الديك».

(٨) عدا المخطوطة: «في تأويل هذا المثل»، والمعنى: إن كانت روايتكم عن العرب صادقة.

(٩) (ط): «عشق الدقيق» والمخطوطة مثلها في (ش).

(١٠) المراد بالأسماء هنا الكلمات.

أيام شبابه أنهم وأحرص على المأكول، وأضن على الحب، فما باله لم يؤثرهن به عند زهده ويؤثرهن عند رغبته؟! وما باله لم يفعل ذلك وهـو فروج صغـير، وصنع ذلك حين أطاق السفاد؟! فتركه لذلك في أوقات العجز عنهن، وبذله في أوقات القوة عليهن(١) دليل على الذي قلت(٢).

قال صاحب الكلب: لسنا ننكر خصال الديك وخصاله المحمودة (٣)، ولولا ذلك ما مثلنا بينه وبين الكلب (٤). ومن يمثل بين العسل والخل في وجه الحلاوة والحموضة؟! والذي قلتم من قذفه الحب قدام الدجاج صحيح، وليس هذا الذي أنكرنا، وإنما أنكرنا موضـع المثل الـذي صرفتموه إلى محبتكم(٥)، وتركتم تقليد من لم يزل الناس يقلدونهم للشاهد والمثل(٦). وإن جاز لكم أن تردوا عليهم هذا المثل جاز لكل من كره مثلاً أو شاء أن يرد عليهم وفي هذا إفساد أمر العرب(٧).

وقال أبو الحسن: مر أياس بن معاوية بديك ينقر حبًا ولا يفرقه فقال: ينبغي أن يكون هرمًا، فإن الهرم(٨) إذا ألقي له الحب لم يفرقه [والشاب](٩) يفرقه ليجتمع الدجاج حوله. والهرم فنيت رغبته فيهن فليس يهمه إلا نفسه.

ورووا عن أياس أنه قال: اللافظة الديك الشاب، لأنه يأخذ الحبة فيؤثر بها الدجاج، والهرم لا يفعل ذلك وإنما هو لافظة ما دام شابًا.

---

(١) (ط): «في الأوقات القوت عليهن» والصواب ما هنا وش».
(٢) (ط): «ذلك قلنا»، ما عدا المخطوطة: «على الذي قلنا».
(٣) عدا هنا: «ومناقبه من الأخبار المحمودة».
(٤) كذا في الأصل: «ما مثلنا»، وأثبت (هـ): «ما ميلنا» يقال: ميل بين الشيئين تمييلاً: رجح ووازن وعن الوجه ما بالأصل والمخطوطة بدليل ما سيذكره بعد: «وإنما أنكرنا المثل».
(٥) كذا في الأصل، ما عداهما: «حجتكم».
(٦) في الأصل: «وتركتم ما زال الناس يقلدونهم الشاهد والمثل».
(٧) ما عدا هنا: «وفي ذلك إفساد أمر العرب».
(٨) (ط): «وإن الهرم».
(٩) هذه الكلمة سقطت من بقية النسخ والكلام يستقيم بها.

وعن أبي هريرة: «أن كلبًا مر بامرأة وهو يلهث عند بئر، فخلعت[١] خفها فسقته، فغفر الله[٢] لها».

وقال ابن داحة[٣]: ضرب ناس مع السلطاء[٤] جارًا لهم، وسحبوه وجروه وله كلب، فما زال الكلب يحمل عليهم وينبح ويواثبهم ويشق ثيابهم ولولا أن المضروب المسحوب كان يكفه عنهم ويزجره، لقد كان عقر بعضهم.

قال ابراهيم النظام: قدمتم السنور[٥] على الكلب[٦] ورويتم عن النبي ﷺ أنه أمر بقتل الكلاب وباستحياء السنانير وبتقريبها وتربيتها، كقوله عند مسألته عنها: «هن الطوافات عليكم»[٧]. وكل منفعة عند السنور فإنما هي أكل الفأر فقط، وعلى أنكم قلما تجدون سنورًا يطلب الفأر، فإن كان مما يطلب ويأكل الفأر، لم يعدمكم[٨] أن يأكل حمامكم وفراخكم والعصافير التي يتلهى بها أولادكم، وكل طائر مما يتخذ لحسنه وحسن صوته.

---

(١) عدا المخطوطة: «فنزعت».

(٢) عدا هنا: «فغفر الله تعالى لها».

(٣) (ط): «راحة»، وسبق ذكره وترجمته و«داحة» بالدال أيضًا في (ش).

(٤) أثبت هنا ما في بقية النسخ موضع «السلطان» بالمخطوطة، والسلطاء: جمع سليط وهو الصحابي البذيء اللسان.

(٥) السنور، بكسر السين المهملة وفتح النون المشددة، واحد السنانير حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر، وكنيته: أبو خداش وأبو غزوان وأبو الهيثم وأبو شماخ، والأنثى أم شماخ وله أسماء كثيرة قيل: إن أعرابيًا صاد سنورًا فلم يعرفه فتلقاه رجل فقال: ما هذا السنور ولقي آخر فقال: ما هذا الهر؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا القط؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الضيون؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الخيدع؟ ثم لقي آخر فقال: ما هذا الخيطل؟ ثم لقي آخر فقال ما هذا الدم؟ فقال الأعرابي أحمله وأبيعه لعل الله تعالى يجعل لي فيه مالاً كثيرًا فلما أتى به إلى السوق قيل له: بكم هذا؟ فقال: بمائة فقيل له: إنه لا يساوي نصف درهم! فرمى به وقال: لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل ثمنه، وهذه الأسماء للذكر، انظر ص٤٣ جـ٢ حياة الحيوان.

(٦) حيوان معروف وربما وصف به فقيل للرجل: كلب. وللمرأة: كلبة والجمع أكلب وكلاب وكليب مثل أعبد وعباد وعبيد، والأكالب جمع أكلب قال ابن سيدة: وقد قالوا في جمع كلب كلابات. انظر ص ٣٣٨ جـ٢ حياة الحيوان.

(٧) دا المخطوطة: «إنهن من الطوافات عليكم».

(٨) (ط): «ولم» والصواب ما هنا و(ش).

والذي لا بد منه الوثوب على صغار الفراريج، فإن هو عف عن أموالكم لم يعف عن أموال جيرانكم[1]. ومنافع الكلب لا يحصيها الطوامير[2]. والسنور مع ذلك يأكل الأوزاغ[3] والعقارب[4] والخنافس[5] وبنات وردان[6] والحيات، ودخالات الآذان[7] والفأر والجرذان، وكل خبيثة وكل ذات سم، وكل شيء تعافه الأنفس[8] ثم قلتم في سؤر السنور وفي سؤر الكلب ما قلتم.

ولا يشك في أنه ليس في السباع أطيب أفواها من الكلاب وكذلك كل إنسان [رطب الفم][9] كثير[10] الريق سائل اللعاب. والخلوف لا يعرض للمجانين الذين تسيل أفواههم.

---

(١) كتب ابن منظور على هامش اللوحة ١/١٢١ ما نصه: «في روح الحيوان: وقد قال ﷺ لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

(٢) الطوامير: جمع طومار بالضم وهو الصحيفة.

(٣) الوزغ بفتح الواو والزاي والغين المعجمة: دويبة معروفة وهي وسام أبرص جنس، واتفقوا على أن الوزغ من الحشرات المؤذيات وجمع الوزغة وزغ وأوزاغ ووزغان وأزغان على البدل حكاه ابن سيدة، وفي الصحيحين: «أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ وسماه فويسقا وقال: كان ينفخ النار على ابراهيم عليه الصلاة والسلام» وكذلك رواه الإمام أحمد في مسنده، انظر ص ٤٦٩ جـ ٢ حياة الحيوان للدميري.

(٤) العقرب: دويبة من الهوام تكون للذكر والأنثى بلفظ واحد واحدة العقارب وقد يقال للأنثى عقربة وعقرباء محدود غير معروف ويصغر على عقيرب والذكر عقربان بضم العين والراء، ص ١٦١ جـ ٢ الدميري (حياة الحيوان).

(٥) هو جمع خنفس بضم الخاء وفتح الفاء أو كسرهما، أو جمع خنفسة بضم الخاء والفاء أو ضم الخاء وفتح الفاء. وزيادة الياء في هذا الجمع مذهب الكوفيين، انظر همع الهوامع ١٨٢/٢.

(٦) بنات وردان بفتح الواو وتسمى فالية الأفاعي: وهي دويبة تتولد في الأماكن الندية وأكثر ما تكون في الحمامات والسقايات ومنها على ألوان كثيرة وإذا تكونت تسافدت وباضت بيضًا مستطيلاً وهي تألف الحشوش واحدها حش بفتح الحاء المهملة وضمها ثم أورد صاحب حياة الحيوان قول الجاحظ: «أصل الحش القطعة من النخل وهي الحشان بكسر الحاء المهملة وتشديد الشين» وكنوا بها عن مكان قضاء الحاجة كما كنوا عنه بالخلاء وقيل: ذهب ينجو ويتغوط. أنظر ص ٤٧٥ جـ ٢ الدميري في (حياة الحيوان).

(٧) دخال الأذن: دويبة ذات قوائم كثيرة تسمى في مصر من العامة «أم أربعة وأربعين» انظر معجم المعلوف ٥٤. وراجع جـ ٢ (هـ).

(٨) عدا المخطوطة: «النفس».

(٩) سقط هذا الجزء من بقية النسخ.

(١٠) عدا المخطوطة: «سائل الريق» موضع «كثير الريق» هنا.

ومن كان لا يعتريه الخلوف فهو من البخر أبعد. وكما أن طول انطباق الفم يورث الخلوف، فكثرة تحلب الأفواه بالريق تنفي الخلوف، وحتى أن من سال من فيه[1] اللعاب فإنما قضوا له بالسلامة منه، وإن استنكهوه[2] مع أشباهه وجدوه طيب الريق.

ويقال إن أطيب الناس أفواها الزنج، وإن كانت لا تعرف سنونًا ولا سواكا[3].

على أن الكلب سبع[4] وسباع الطير وذوات الأربع موصوفة بالبخر، والذي يضرب به المثل في ذلك الأسد [والصقر][5]. قال بشار يهجو حماد عجرد[6]:

وأفسى من الظربان[7] في ليلة الكرى ... وأخلف من صقر وإن كان قد طعم

ويقال: ليس في البهائم أطيب أفواها من الظباء.

وتواتر بين أهل البصرة أن طاعونًا جارفًا أتى على أهل دار، فلم يشك أهل

---

(١) عدا هنا: «سال فوه». والخلوف بالضم، تغير رائحة الفم.

(٢) أي لو قورن ريح فمه مع أشباهه وأقرانه وشم لوجدوا ريح فمه أطيب.

(٣) السنون: ما يستاك به من دواء مؤلف لتقوية الأسنان. وفي (ط): «لا تعرف سنوها سواكا». وهو تحريف ما هنا و(ش).

(٤) السبع بضم الباء وإسكانها: الحيوان المفترس والجمع أسبع وسباع وأرض مسبعة أي كثيرة السباع. قرأ الحسن وابن حيوة «وما أكل السبع» بإسكان الباء. وهي لغة لأهل نجد قال حسان ابن ثابت رضي الله عنه في عتيبة بن أبي لهب:

من يرجع العام إلى أهله ... فما أكيل السبع بالراجع

وقرأ ابن مسعود وأكيله السبع وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنه وأكيل السبع، قيل سمي سبعًا لأنه يمكث في بطن أمه سبعة أشهر ولا تلد الأنثى أكثر من سبعة أولاد، ولا ينزو الذكر على الأنثى إلا بعد سبع سنين من عمره (١٤ جـ٢) حياة الحيوان للدميري.

(٥) فقط بالمخطوطة.

(٦) هو حماد بن عمر، من أهل الكوفة مولى لبني سواءة بن عامر بن صعصعة وكان معلمًا وشاعرًا محسنًا وهو أحد الحمادين الثلاثة الذين كانوا بالكوفة وهم: حماد عجرد وحماد الرواية وحماد بن الزبرقان النحوي، وكانوا يتنادمون ويتعاشرون وكأنهم نفس واحدة ويرمون جميعًا بالزندقة، انظر الشعر والشعراء ص ٧٧٩ جـ٢. الأغاني ١٣/٢٧٠ المؤتلف ١٥٧ ابن خلكان ١/٢٠٧.

(٧) ظربان، بفتح الظاء مثل القطران: دويبة فوق جرو الكلب منتن الريح كثيرة الفسو، وقد عرف الظربان ذلك من نفسه فجعل ذلك سلاحًا له.

تلك المحلة أنه لم يبقَ فيها صغير ولا كبير وقد كان بقي فيها صبي يرتضع، ويحبو ولا يقوم على رجليه، فسدوا باب الدار فلما كان بعد أشهر تحول فيها بعض ورثة القوم فوجدوا فيها صبيًا يلعب مع أجراء كلبة كانت لأهل الدار فراعهم[1] ذلك. ثم أقبلت الكلبة فلما رآها الصبي حبا إليها، فأمكنته من أطبائها فمصها، فعلموا[2] أن الصبي لما نسي[3] في الدار واشتد جوعه، رأى أجراءها ترتضع من أطبائها، حبا إليها فعطفت عليه، فلما سقته مرة أدامت ذلك له، وأدام هو الطلب.

والذي هدى[4] المولود إلى مص إبهامه ساعة يسقط من بطن أمه، ولم يعرف كيفية الارتضاع [ولو][5] لم تكن الهداية إليه شيئًا مجعولاً في طبعه، لما مص الإبهام وحلمة الثدي، فلما أفرط عليه الجوع واشتدت عليه حاله وطلبت نفسه وتلك الطبيعة فيه، دعته تلك الطبيعة وتلك المعرفة إلى الطلب والدنو. فسبحان من دبر ذلك وألهمه ودل عليه!!

ومثل هذا الحديث ما خبر به بابويه صاحب الحمام. قال: كان عندي زوج حمام مقصوص، وزوج حمام طيار، وفرخان من فراخ الزوج الطيار، وكان في الغرفة ثقب في أعلاها وجعلت قدّام تلك الكوة[6] رفًا ليكون مسقطًا لما يخرج ويدخل من الحمام، مخافة من عارض يعرض فلا يكون للطيار منفذ للتكسب ولورود الماء. فاتفق أن وضعني السلطان في الحبس، فنسيت أمر[7] الزوج الطيار والفرخين، وما لهما من الثمن وما فيهما من الكرم ورحمت الزوج المقصوص، وشغلني ذلك الاهتمام بها[8] عن كثير مما أنا فيه، فقلت: أما الزوج

(١) ما عدا المخطوطة: «فراعه ذلك».
(٢) ما عدا المخطوطة: «فظنوا».
(٣) ما عدا هنا: «وصار منسيًا».
(٤) ما عدا هنا: «ألهم» موضع «هدى».
(٥) ليست بالأصل.
(٦) الكوة: الخرق في الحائط، والثقب في البيت.
(٧) ما عدا المخطوطة: «قدر» موضع «أمر».
(٨) في الأصل: «بها».

الطيار فإنهما يخرجان ويرجعان ويزقان ولعلهما أن يسلما أو يذهبا ولكن كيف يكون حال المقصوصين. فخلي سبيلي بعد أشهر[1] وقال: فلم يكن لي هم إلا النظر إلى ما خلفت من الحمام، فإذا الفرخان قد ثبتا وإذا الطياران على حالهما، إلاَّ أني رأيتهما زاقين فقلت: كيف يكونان زاقين مع استغناء فرخيهما عنهما؟! ولا أشك في موت المقصوصين ثم دخلت الغرفة، فإذا الزوج المقصوص على أحسن حال فعجبت من ذلك[2] ولم ألبث أن دنوا إلى أفواه الزوج الطيار يصنعان كما يصنع الفرخان في طلب الزق ورأيتهما قد زقاهما وإذا هما لما اشتد جوعهما، وكانا يريانهما يزقان الفرخين ويريان الفرخين كيف يستزقان ويستطعمان[3]، حملهما الجوع وحب العيش وتلهب العطش وما في طبعهما من الهداية، على أن طلبا ما طلب الفرخان[4] [فعطفا عليهما][5]، فزقاهما ثم صار الزق عادة في الطائر[6]، والاستطعام عادة في المقصوص.

ومن الحمام حمام يزق فراخه ولا يزق شيئًا من فراخ غيره، ومن الحمام حمام يزق كل فرخ دنا منه، كما أن من الحمام حمامًا[7] لا يزق فراخه البتة حتى يموت، وإنما تعظم البلية على الفرخ إذا كان الأب هو الذي لا يزق، لأن الولادة وعامة الحضن والكفل على الأم، فإذا ظهر الولد فعامة الزق على الأب، كأنه صاحب العيال والكاسب عليهم، وكالأم التي [تحمل][8] وتلد وترضع.

وأعجب من هذا الطائر الذي يقال له كاسر العظام[9]، فإنه يبلغ من

---

(١) ما عدا هنا: «شهر» ولعله الصواب.

(٢) ما عدا هنا: «فاشتد تعجبي من ذلك».

(٣) بقية النسخ: «يستطعمان ويزقان».

(٤) عدا المخطوطة: «الفرخ».

(٥) سقط الجزء: «فعطفا عليهما» من بقية النسخ.

(٦) عدا المخطوطة: «الطيار».

(٧) (ط): «حمام».

(٨) سقطت من بقية النسخ.

(٩) كاسر العظام: طائر من سباع الطير بين النسر والعقاب يحمل كل عظم فيه مخ حتى إذا كان في كبد السماء أرسله على صخرة فينكسر، فيهبط فيأكل مخه، انظر معجم المعلوف ١٤٣ - ١٤٥.

بره[1] بالفراخ كلها[2] بعد القيام بشأن فراخ نفسه أن يتعهد فرخ العقاب[3] الثالث، الذي تخرجه من عشها، لأنها[4] أشره وأرغب بطنًا وأقسى قلبًا وأسوأ خلقًا من أن تحتمل إطعام ثلاثة.

وهي مع ذلك سريعة الجوع[5]، فتخرج ما فضل عن فرخين، فإذا أخرجته قبله كاسر العظام وأطعمه لأن العقاب من اللائي تبيض ثلاث بيضات في أكثر حالاتها.

وعير رجل من بني أسد بأكل لحوم الكلاب، وذهب إلى قوله[6]:

يا فقعسي لم أكلته لمه   لو خافك الله عليه حرمه[7]

فما أكلت لحمه ولا دمه

فقال الأعرابي: أما علمت أن الشدة والشجاعة والبأس والقوة في ثلاثة أصناف [من الحيوان][8] العقاب في الهواء، والتمساح في الماء، والأسد في الغياض.

وليس في الأرض لحم أشهى إلى التمساح والأسد من لحم كلب. فإن شئتم

---

(١) ما عدا المخطوطة: «بر الفراخ».

(٢) (ط): «كليهما» والصواب ما هنا كما في (ش).

(٣) طائر معروف، كنيته أبو الأشيم وأبو الحجاج وأبو حسان وأبو الدهر وأبو الهيثم والأنثى أم الخوار وأم الشعر وأم كلبة وأم لوح وأم الهيثم، والعرب تسمي العقاب الكاسر، ويقال لها الخبرارية للونها وهي مؤنثة اللفظ، والعقاب حاد البصر ولذلك قالت العرب: «أبصر من عقاب» انظر ٢/١٥١ حياة الحيوان للدميري.

(٤) المخطوطة والأصل: «لأنه» والعقاب مؤنثة وقيل تذكر وتؤنث. وقد أنثها الجاحظ هنا بقوله: «وعشها». وكذلك: «يحتمل» والصواب «تحتمل».

(٥) بقية النسخ: «الجزع» والصواب ما هنا.

(٦) هو سالم بن دارة كما في اللسان (روح).

(٧) قال ابن الأنباري: معناه لو علم الله ذلك منك. (الأضداد ١١٩). وقال الجاحظ في الحيوان (٤/٤٢هـ): «جعل بدل قوله أمن الكلب على أكل لحمه، أن الله هو الذي لم يخف ذلك فيحرمه». وقال الجاحظ في البخلاء: «وتهجى أسد بأكل الكلاب وبأكل لحوم الناس والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة أتى قبيحًا ألزمت ذلك القبيلة كلها».

(٨) هذا الجزء هنا فقط.

فعدوه عدوًا لهما، فإنهما يـأكلانـه من [الحنق][١] والغيظ وطلب الثأر، وإن شئتم فقولوا غير ذلك.

وبنو أسد أسد الغياض[٢]، وأشبه شيء بالأسد فلذلك تشتهي من اللحمان أشهاها إلى الأسد، والدليل على أنهم أسد وفي طباع الأسـد، أنك لـو أحصيت جميع القتلى من سادات العرب وفرسانهم لوجدت شطرها أو قريبًا من شطرها لبني أسد.

قـال صاحب الكلب: والكلب لا يـرضى بالنـوم والربـوض عـلى بيـاض الطريق[٣] وعلى عفر التراب، وهو يرى ظهر البساط، ولا يرضى بالبساط وهو يجد الوسادة، ولا يرضى بالمطارح دون مرافق المطارح[٤] فمن نبله في نفسه أن يتخير أبـدًا أرفع مـوضع في المجلس، وكـان معاويـة قد أبصر كلبًا على منـبره فـاتخـذ المقصورة، هذا إلى ما طبع عليه من إكرام الرجل الجميل اللباس، حتى لا ينبح عليه إن دنا من باب أهله، مع الوثوب على كل أسود، وعلى كل رث الهيئة، وعلى كل سفلة[٥] تشبه حاله حال أهل الريبة.

ومن كبره وشدة تجبره وأنفته[٦] واحتقاره أنه متى نبح على رجل في الليل، [وأراده وألح عليه][٧]، ولم يمنعه حارس ولم يمكنه الفوت، فدواؤه عند ذلك أن لا ينجيه منه إلا أن يقعد بين يديه مستخزيًا مستسلمًا فإنه إذا رآه في تلك الحال دنا منه

---

(١) سقطت هذه الكلمة من الأصل.

(٢) كذا في (ش). وفي (ط): «الغياش» ولعل الصواب «الناس»، وإن كان هناك وجه لما ثبت. وجاء في مساءلة الحجاج لابن القرية: «وقال فأخبرني عن مآثر العرب في الجاهلية. قال: كانت العرب تقول: حمير أرباب الملك، وكندة لباب الملوك، ومذحج أهل الطعان وهمدان أحلاس الخيل، والأزد آساد الناس». ابن خلكان (١/٨٣، العمدة (٢/١٦٥).

(٣) كما في بقية النسخ موضع: «الأرض» التي كانت بالمخطوطة.

(٤) المطارح: جمع مطرح، وهو بكسر الميم: المفرش.

(٥) عدا المخطوطة: «سفيه».

(٦) الأنفة: الحمية، وفي الأصل: «وفرط حمايته».

(٧) لم تثبت إلا في المخطوطة.

فشغر[1] عليه ولم يهجه، كأنه حين ظفر به ورآه[2] تحت قـدرته، أراد أن يسمـه بميسم ذل، كما كانت العرب تجز نواصي الأسرى من الفرسان إذا أرادت أن تخلي سبيلها وتمن عليها، ولو كف العربي [وأمسك][3] عن جز نـاصيته ولعله لا يبلغ أهله حتى تستوي[4] مع سائر شعر رأسه، ولكن ذل الجز لا يزال يلوح في وجهه، ولا يزال له أثره في قلبه[5].

وكان مطرف بن عبدالله[6] يكره أن يقال للكلب أخسأ، وما أشبه ذلك، وفي دعائه على أصحاب الكلب الذي كان أربـابه لا يمنعـونه من دخـول مصلاه حيث قال: اللهم امنعهم بركة صيده!! دليل على حسن رأيه فيه.

ومر المسيح بن مريم [على نبينا وعليه الصلاة والسلام][7] ومعه الحواريون بجيفة كلب، فقال بعضهم: ما أشد نتن ريحه! قال: فهلا قلت: ما أشد بياض أسنانه.

---

(١) أشغر عليه: رفع رجليه فبال. وفي (ط) «فثفر» وصوابه ما هنا و(ش) وقد ذكر الجاحظ أن ذلك علامة بلوغ الكلب وقدرته على السفاد.

(٢) في (ط): «تحت قدرته أنه» وفي (ش): «وما أن» والصواب ما هنا.

(٣) سقطت من بقية النسخ.

(٤) في الأصل: «يستوي». والكلام في «الناصية».

(٥) تناول الجاحظ هنا الأثر النفسي الذي يتركه جز الناصية وهذا يدل كما سبق في دراسته على سعة أفقه واطلاعه وثقافته فقد لخص انعكاس فعل الجز وأثره في نفسية من وقع به ذلك وأن الأثر الطويل لذلك ليس ببقاء الناصية مجزوزة فقد تستوي الناصية إلى أن يصل قومه وموطنه إلا أنه لا يستطيع نسيان ما وقع به فيصبح محفورًا في ذاكرته تراوده كل حين، وعلى هذا ما أرادته العرب من الجز وهم يعرفون استواء الناصية بعد فترة.

(٦) هو مطرف بن عبدالله بن الشخير أحد التابعين ويكنى أبا عبدالله، وكان لأبيه صحبة يقـول الجاحظ عنه: «وكان خطيبًا بينا صاحب أخبار وأمثال وذكره في جملة القصاص، ثم قال: وقضى ابنه مطرف بن عبدالله بن الشخير في مكان أبيه (يريد بمسجد البصرة). البيان ١/٣٦٧. وقال الجاحظ: «وكان يقال: «فقه الحسن، ورع أبي سيرين وعقل مـطرف وحفظ قتادة». البيـان ١/٢٤٢. «وكان مطرف بن عبدالله يقول: لا تطعم طعامك من لا يشتهيه. يقول: لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه» البيان ١/١٠٣. وقد روى الجاحظ كثيرًا من أقواله في البيان. قال ابن قتيبة: «ومات عمر ومطرف ابن عشرين سنة كأنه ولد في حيـاة رسول الله ﷺ. . ومات في خلافة عبد الملك بن مروان بعد سنة سبع وثمانين». المعارف ١٩٣.

(٧) ما عدا المخطوطة: «ومر المسيح بن مريم في الحواريين بجيفة كلب، فقال بعضهم: الخ».

والهراش الذي يقع بين الكلاب وأشر الذي يجري بينهما، هو شيء يكون من جميع الأجناس المتفقة كالبرذون والبرذون، والبعير والبعير، والحمام والحمام، والحمار والحمار وكذلك جميع الأجناس وأما الذي يفرط ويتمنع به ناس، ويقع فيه القمار، وينفق عليه ويغالي به فالكلب والكلب، والكبش والكبش والديك والديك والسماني والسماني[1] والجرذ والجرذ[2].

فأما الجرذ فلا يقاتل الجرذ حتى يشد رجل أحدهما في طرف خيط، ويشد الجرذ الآخر بالطرف الآخر فيكون بينهما من المساواة والالتفاف[3] والعض والخمش، وإراقة الدماء[4] وفري الجلود ما لا يكون بين شيئين من الأنواع التي يهارش فيها.

والذي يحدث للجرذان[5] طبيعة القتال، الرباط نفسه، فإن انقطع الخيط وانحل العقد، أخذ هذا شرقًا وهذا غربًا، ولم يلتقيا[6] أبدًا.

وإذا تقابلت جحرة الفأر [والجرذان][7]، وخلالها الموضع، فبينهما شر طويل، ولكنه لا يعدو الوعيد والصخب، ولا يلتقي منهما اثنان أبدًا.

والسلوقية[8] الطويلة المناخر أجود شمًا، والشم العجيب والحس[9] اللطيف

---

(١) في الأصل: «والسمان والسمان» صوابه ما هنا. والسماني بضم السين وفتح النون على وزن الحباري: اسم لطائر يلبد بالأرض ولا يكاد يطير إلا أن يطار، ويسمى قتيل الرعد من أجل أنه إذا سمع الرعد مات، وانظر (٣٢/٢) حياة الحيوان.

(٢) (ط): «الجراد»، (ش)، (م): «الجرد» وصوابها ما هنا.

(٣) كذا في الأصل وبقية النسخ: «الالتقاء».

(٤) ما عدا المخطوطة: «الدم».

(٥) (ط): «للجراد». (ش)، (م): «الجردان» والوجه ما هنا.

(٦) في الأصل: «يلتفتا» والوجه ما هنا.

(٧) سقطت من بقية النسخ. والجحرة: جمع جحر.

(٨) من أنواع الكلاب، ومن طباعه أنه إذا عاين الظباء قريبة منه أو بعيدة، عرف المقبل من المدبر ومشي الذكر من مشي الأنثى، ويعرف الميت من الناس والمتماوت، حتى أن الروم لا تدفن ميتًا حتى تعرضه على الكلاب، فيظهر لهم من شمها إياه علامة تستدل بها على حياته أو موته، ويقال لا يفعل ذلك الا القلطي (٣٣٧/٢) حياة الحيوان.

(٩) (ط): الحسن وتصحيحه ما هنا كما في (ش).

في ذلك[١]، إلا أن ذلك في طلب الذكور للإناث، والإناث للذكور خاصة. وأما شم المأكول، واسترواح الطعم فللسباع في ذلك ما ليس لغيرها. وأن الفأر ليشم وأن الذر والنمل[٢] ليشم، وإن السنانير لتشم، وكذلك الكلب، وله في ذلك فضيلة، ولا يبلغ ما يبلغ الذئب.

(١) ما عدا المخطوطة: «من ذلك». والمعنى: أي من طول المناخر.

(٢) النمل: معروف، الواحدة نملة والجمع نمال، وأرض نملة ذات نمل، وطعام منمول: إذا أصابه النمل، والنملة بالضم: النميمة. وكنيته أبو مشغول، والنملة أم نوبة، وأم مازن، وسميت النملة نملة لتنملها وهو كثرة حركتها وقلة قوائمها والنمل لا يتزاوج ولا يتناكح، انظر حياة الحيوان ص ٤٣٩ جـ ٢.

باب ما يشبه بالكلب وليس هو منه

إذا جرى الفرس المحجل، شبهوا قوائمه [بقوائم الكلب][1] إذا ارتفعت في بطنه، فيصير تحجيلها كأنه أكلب صغار (بيض)[2] تعدو.

قال العماني[3]:

كـأن تحـت البـطن مـنـه أكـلبـا   بيضًـا صغـارًا ينتهشن المنقبـا[4]

ويصفون الطلع أول ما يبدو صغارًا بآذان الكلاب البيض.

قال الراجز:

أنـعت حمـارًا عـلى سـحيض[5]   يخـرج بعـد النجم والتبـعيض[6]

طلعًا كآذان الكلاب البيض

---

(١) أثبت هذا الجزء كما في بقية النسخ لأن سقوطه يخل بالمعنى.

(٢) سقطت الكلمة من بقية النسخ.

(٣) هو محمد بن ذؤيب الفقيمي، ولم يكن من أهل عمان، وإنما قيل له (عماني) لأن دكينًا الراجز نظر وهو يسقي الإبل ويرتجز، فرآه غليمًا مصفر الوجه، ضريرًا مطحولاً فقال: من هذا العماني؟ فلزمه الاسم، أنشد الرشيد ومروان، وكثيرًا من الخلفاء، وكبار الأمراء والسادة والرؤساء، وكان يجيد وصف الفرس. الشعر والشعراء ٢/٧٥٥ وانظر الأغاني ١٧/٧٨ ـ ٨٣.

(٤) أنظر ديوان المعاني (٢/١١٤) والشعر والشعراء ٣٧٢.

(٥) كذا، ولعلها «فضيعن»، وهو من ظهور النبت في أول أمره أنظر (هـ) ٢/٦٧.

(٦) كذا، ولعلها «التبريض»، وهو الماء القليل. انظر (هـ) ٢/١٦٧.

ويوصف صوت الشخب في الإناء بهرير هراش الكلاب.

قال الأعرابي:

كـأن خـلفـيـهـا إذا مـا هـرا جـروا كـلاب هـورشـا فهـرا[1]

وقال أبو دواد[2]:

طـويـل طـامـح الـطرف إلى وهـوهـة الـكـلب[3]

قال الهيثم بن عدي[4]: كان رجل يسمى كلبًا، وكان له بني يلعب في الطريق، فقال له رجل: ابن من [أنت يا صبي][5]؟ فقال ابن وو وووو!!

ويحبون أن يكون ذنب الكلب الصائد يابسًا، ليس عليه من اللحم قليل ولا كثير، قال الشاعر[6]:

---

(١) يقول: كأن صوت لبنها حين الحلب صوت جروين من اجراء الكلاب أغرى أحدهما بالآخر، فكان منهما نباح.

(٢) في الأصل: «أبو داود»، وإنما هو: «أبو دواد». والبيت الآتي في أدب الكاتب ٨٦ والأمالي ٢/٢٥٠ والأضداد ٢٦٦ منسوب إلى أبي دواد. لكن قال أبو عبيد البكري في التنبيه: إن هذا البيت ليس لأبي دواد ولا وقع في ديوانه، وإنما هو لعقبة بن سابق الهزاني: أنظر قصيدة عقبة ابن سابق في الأصمعيات ٣٩، وكذلك الاقتضاب ٣٢٤.

(٣) الرواية في المراجع المتقدمة: «إلى مفزعة الكلب»: أي نظره طامح إلى أقصى موضع يسمع منه الكلب إيساد صاحبه أي إغراءه، والبيت في صفة الفرس.

وأما الوهوهة هنا فصوت الكلب عند جزعه. والبيت يروى برفع «طويل» وخفضه، فمن خفضه جعله من صفة الفرس المذكور في البيت الذي قبله وهو:

وقـد أغـدو بـطرف هـيـكـل دمـه مـيـعـة سـكـب

أشـم سـلجـم المـقـبـل لا شـخـت ولا جأب

ومن رفع فعلى خبر مبتدأ مضمر. أنظر الاقتضاب ٣٢٥.

(٤) كذا في (ش)، وهو الصواب. وفي (ط): «عرابي» وفي (م): «عربي» وكلاهما تحريف. كان الهيثم عالمًا بالشعر والأخبار والمثالب والمناقب والمآثر والأنساب. وكان يرى رأي الخوارج توفي سنة سبع أو تسع ومائتين وانظر الخبر (هـ) ٥/٢٨٨.

(٥) سقط هذا الجزء من بقية النسخ.

(٦) هو رجل من بني عمرو بن عامر يهجو قومًا من بني سلم، كما في اللسان (غبط).

إني وآتي ابن غـولاق[1] ليقـربني[2] كالغابط[3] الكلب يبغي الطرق في الذنب[4]

الطرق: الشحم اليسير، يقال: ليس به طرق.

ويقال: ليس في الأرض فرخ ولا جـرو ولا شيء من أولاد الحيوان أسمن ولا أرطب من أجراء الكلب. وهي أشبه شيء بفـراخ الحمام، فـإن فراخ الحـمام أسمن شيء مـا دامت صغارًا من غـير أن تسمن، فـإذا بلغت لم تقبـل الشحم، وكذلك أولاد الكلاب.

قال أعرابي: أصابتنا سنـة شديـدة ثم أعقبتها سنـة فتتابعت فيهـا الأمطار فسمنت الماشية، وكثرت الألبان والأسمان، فسمن ولدان الحي، حتى كأن آست أحدهم جرو يتمطى!

قال أبو العباس أمير المؤمنين[5] لأبي دلامة: سل! قال: كلبًا. قال: ويلك!

---

(١) كذا في اللسان، وأمثال الميداني ٢/٢٠: «إني وإن ابن غلاق»، (هـ) والأصل: «إني وطلب ابن غلاق». والطلب: هو الطلب سكنت لامه للشعر.

(٢) (ط): «ليقربني» وصوابه ما هنا و(ش)، (م) وأمثال الميداني واللسان.

(٣) الغـابط: الذي يجس الحيـوان ليعرف سمنـه من هزالـه. وفي (م): «كـالغـائط» وفي (ط): «كالطالب». وفي الأمثال: «كعابط»، وذلك تحريف ما هنا، (ش). وفي اللسان «كغابط».

(٤) (ط)، (م): «الذيب»، وصوابه ما هنا. قال الميداني: يضرب هذا المثل لمن يطلب المعروف عند اللئيم.

(٥) هو أبو العباس عبدالله بن محمد، الملقب بالسفاح أول خلفاء الدولة العباسية (١٠٤/١٣٦) والحديث في الأغاني ٩/١١٦ مع اختلاف في الألفاظ حيث توجد ترجمة أبي دلامة ٩/١١٥ - ١٣٣ وانظر جمع الجواهر ٩٠. القصة كما رواها صاحب الوفيات ٢/٧٤ «دخل أبو دلامة على المهدي فقال له: سلني حاجتك، فقال: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك؟ قال: بل لك، قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد، فأمر له بكلب، فقال: يا أمير المؤمنين، هبني خرجت إلى الصيد أفأعدو على رجلي؟ فأمر له بدابة، فقال: يا أمير المؤمنين من يقوم عليها؟ فأمر له بغلام، فقال: يا أمير المؤمنين، هبني صدت صيدًا وأتيت به المنزل فمن يطبخه؟ فأمر له بجارية، فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء يبيتون في البادية؟ فأمر له بدار، فقال: يا أمير المؤمنين، قد صيرت في عنقي جملة من العيال، فمن أين لي ما يقوت هؤلاء؟ قال: قد أقطعتك ألف جريب عامرًا وألف جريب غامرًا، قال: أما العامر فقد عرفت، فما الغامر؟ قال: الخراب الذي لا شيء فيه، قال: أنا أقطع أمير المؤمنين مائة ألف جريب بالبدو، ولكني أسأل أمير المؤمنين من ألف جريب جريبًا واحدًا عامرًا، قال: من أين؟ قال: من بيت المال؟ فقال المهدي: حولوا المال واعطوه جريبًا، قال: يا أمير المؤمنين، إذا حول منه المال صار غامرًا، فضحك منه، قال: فهل بقيت لـك =

وما تصنع بكلب؟! قال: قلت سل وللكلب حاجتي أتصيد به. قال: فلك كلب! قلت: ودابة تكون للصيد. قال: ودابة. قال: وغلامًا يركب الدابة ويصيد. قال: وغلامًا. قال: وجارية تطبخ لنا عمل الصيد. قال: وجارية. قال: يا أمير المؤمنين! كلب ودابة وغلام وجارية، هؤلاء كلهم عيال، لا بد من دار، قال: ودار. قال: ولا بد لهؤلاء من غلة وضيعة. قال: قد اقتطعت مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة. وقال: وأي شيء الغامرة؟ قال: ليس فيها نبات. قال: أنا أقطعك خمسمائة جريب من فيافي بني أسد غامرة. قال: فقد جعلنا لك المائتين عامرتين كلها[1] قال: هل[2] بقي لك شيء؟ قال: نعم، أقبل يدك. قال: أما هذا فدعه[3]. قال: ما منعت عيالي شيئًا أهون عليهم فقدا منه؟!

قال أبو مريم: كان بالمدينة رجل قد كثرت عياله ودينه حتى توارى من غرمائه. ولزم منزله، فأتاه غريم له، وله عليه شيء يسير فتلطف حتى وصل إليه، فقال له: ما تجعل لي إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور والسلامة من غرمائك؟ قال أقضيك جميع ما لك علي[4]، وأزيدك من[5] عندي ما تقر به عينك. فتوثق منه بالإيمان، فقال له: إذا كان غدًا قبل الصلاة مر خادمك يكنس بابك وفناءك ويرشه[6]، ويبسط على دكانك حصرًا، ويضع لك متكأ، ثم أمهل حتى تصبح[7] ويمر [بك][8] الناس، واجلس فكل من مر بك وسلم عليك، فانبح في وجهه، ولا تزيدن، أحدًا على النباح كائنًا من كان، ومن كلمك فانبح

= حاجة؟ قال: نعم، تأذن لي أن أقبل يدك، فقال: ما لك إلى ذلك سبيل، قال: والله ما رددتني عن حاجة أهون علي منها» هكذا كاملة في الوفيات ٢/ ٧٤ ـ ٧٥، ووفاة ابن دلامة سنة ١٦١هـ.

(١) (ط): «كليهما».
(٢) عدا المخطوطة: «أبقي لك شيء؟».
(٣) عدا المخطوطة: «أما هذه فدعها».
(٤) عدا المخطوطة: «أقضيك حقك».
(٥) عدا المخطوطة: «مما» موضع «من».
(٦) عدا المخطوطة: «يرش».
(٧) (ط): «يصبح».
(٨) سقطت من غير المخطوطة.

عليه[١]، من أهلك وخدمك أو غيرهم، أو غريم أو غيره، حتى تصير إلى الوالي فانبح إذا كلمك، وإياك أن تزيده أو غيره على النباح، فإن الوالي إذا أيقن أنك مجد لم يشك في أنه عرض لك عارض من مس فيخلي عنك، قال: ففعل ذلك فمر به بعض جيرانه فسلم عليه، فنبح في وجهه، ومر آخر ففعل كذلك، حتى تسامع غرماؤه، فأتوه فسلموا عليه، فلم يزد على النباح، فتعلقوا به ورفعوه إلى الوالي، فسأله فلم يزده على النباح، فرفعه معهم إلى القاضي، فلم يزده على ذلك، فأمر بحبسه، فحبس أيامًا وجعل عليه العيون، وملك نفسه وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح، فأخرجه القاضي ووضع عليه العيون في منزله، فكان لا يتكلم في منزله بحرف، ولا يزيد على النباح، فلما تقرر ذلك عند الناس، أمر غرماءه بالكف عنه، وقال: هذا رجل به لمم[٢]. فمكث [كذلك][٣] ما شاء الله ثم أتاه غريمه الذي علمه الحيلة، يتقاضاه عدته فلما كلمه جعل لا يزيده على النباح، فقال له: وعلي أيضًا وأنا الذي علمتك هذه الحيلة، فجعل لا يزيده على النباح، فلما يئس منه انصرف عنه[٤].

لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير[٥]، اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا[٦]: قد أمكنتك الفرصة من العرب، بتشاغل بعضهم ببعض[٧]، لوقوع بأسهم بينهم، والرأي[٨] لك أن تغزوهم في[٩] بلادهم، فإنك

---

(١) عدا المخطوطة: «أنبح له».

(٢) اللمم: الجنون.

(٣) «مكث» في (ط): «مكثت» محرفة، وصوابها ما هنا كما في (ش)، وسقط ما بين المعكفين من بقية النسخ.

(٤) بقية النسخ: فلما يئس منه انصرف يائسًا».

(٥) هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبو عبدالله: أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام، نشأ بين يدي أخيه عبدالله بن الزبير، فكان عضده الأقوى وولاه البصرة، طعن في حرب بينه وبين جيش عبدالملك بن مروان في وقعة (الجاثليق) وجز رأسه وحمل إليه، وبمقتله نقلت بيعة أهل العراق إلى ملوك الشام (٢٦ - ٧١)هـ. (الأعلام ٨/١٤٩، الطبقات ٥/١٣٥ ابن سعد، رغبة الأمل ١/٨٥).

(٦) ما عدا المخطوطة: «فقالوا له».

(٧) بقية النسخ: «بعضهم مع بعض.

(٨) (ش)، (هـ): «فالرأي».

(٩) بقية النسخ: «إلى» موضع «في».

إن فعلت ذلك [أذللتهم][١]، ونلت حاجتك، ولا[٢] تدعهم حتى تنقضي الحرب بينهم فيجتمعوا عليك! فنهاهم عن ذلك وخطأ رأيهم، فأبوا عليه إلا أن يغزوا العرب في ديارهم[٣]. فلما رأى ذلك، دعا[٤] بكلبين فحرش بينهما، واقتتلا قتالاً شديدًا، ثم دعا بثعلب فخلاه، فلما رآه الكلبان، تركا ما كانا فيه، وأقبلا عليه حتى قتلاه، فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا، فعرفوا صدقه، ورجعوا عن رأيهم.

تخاصم رجلان أحدهما صديق للمغيرة بن سعيد[٥]، فقال الآخر للمغيرة:

إن هذا يتوعدني بمعرفته لك[٦]، ويزعم أنها تنفعه عندك، قال: أجل! إنها لتنفعه، وينفع عند الكلب العقور!

فإذا كان الكلب العقور كذلك، فما ظنك بغيره؟ وأنت لا تصيب من الناس من تنفع عنده المعرفة من ألف واحدًا[٧].

وهذا الكرم في الكلاب عام. والكلب يحرس صاحبه[٨]، ويحمي حريمه شاهدًا وغائبًا، ونائمًا ويقظان، لا[٩] يقصر عن ذلك وإن جفوه، ولا يخذلهم وإن خذلوه.

---

(١) سقطت كلمة «أذللتهم» من بقية النسخ، ووردت الجملة فيها هكذا: «فإنك إن فعلت ذلك بهم نلت حاجتك».

(٢) كذا في الأصل، وما عدا المخطوطة والأصل: «فلا تدعهم» بالفاء.

(٣) موضع كلمة «ديارهم» في بقية النسخ: «بلادهم».

(٤) عدا المخطوطة: «أمر» موضع «دعا».

(٥) المغيرة بن سعيد البجلي الكوفي، أبو عبدالله: دجال مبتدع من أهل الكوفة، قالوا: إنه جمع بين الإلحاد والتنجيم كان يقول بتأليه علي، وتكفير أبي بكر وعمر وسائر الصحابة إلا من ثبت مع علي، وكان يقول هو المهدي، وظفر به خالد، فصلبه وأحرق بالنار خمسة من أتباعه وهم يسمون «المغيرية». توفي المغيرة بن سعيد سنة ١١٩هـ. (الأعلام ١٩٨/٨ - ١٩٩، ميزان الاعتدال ١٩١/٣، ابن الأثير ٧٩/٥، الطبري ٢٤٠/٨، لسان الميزان ٧٥/٦).

(٦) بقية النسخ: «بمعرفتك إياه» موضع «بمعرفته لك».

(٧) في الأصل: «من ألف واحد».

(٨) ما عدا المخطوطة: «ربه» موضع «صاحبه».

(٩) ما عدا المخطوطة: «ولا».

والكلب أيقظ الحيوان عينًا في وقت حاجتهم إلى النوم، وإنما نومه نهارًا عند استغنائهم عن حراسته[١] ثم لا ينام إلا غرارًا أو[٢] غشاشًا. وأغلب ما يكون[٣] النوم عليه وأشد ما يكون[٤] إسكارًا له، أن يكون كما قال رؤبة[٥]:

«لاقيت مطلاً كنعاس الكلب»[٦]

يعني بذلك القرمطة في المواعيد.

وكذلك فإنه أنوم ما يكون أن يفتح عينيه[٧] بقدر ما يكفيه للحراسة، وذلك ساعة بعد ساعة، وهو في هذا كله أسمع من فرس، وأحذر من عقعق[٨] مع بعد صوته.

وقيل لرجل من العرب: ما الحمار[٩]؟ فقال: غؤور العينين، وإشراف الحاجبين، ورحب الأشداق، وبعد الصوت.

هذا مع قلة السآمة[١٠]والصبر على الجفوة، واحتمال الجراحات الشداد، وجوائف[١١]الطعان ونوافذ السهام، وإذا ناله ذلك لم يزل ينظفه بريقه، لمعرفته بأن ذلك هو دواؤه حتى يبرأ، لا يحتاج إلى الطبيب[١٢]، ولا إلى المراهم[١٣]ولا إلى علاج.

---

(١) «حراسته» موضعها في غير المخطوطة: «حراسة».
(٢) بقية النسخ: «إلا غرار وغشاشًا» والغرار والغشاش: النوم القليل.
(٣) (هـ): «يكوم» موضع «يكون».
(٤) سقطت هذه الكلمة من بقية النسخ ما عدا (ش)، (هـ) والمخطوطة.
(٥) هو رؤبة بن العجاج وسبقت ترجمته.
(٦) سبق الكلام في هذا البيت ويقصد هنا التسويف وخلف الوعد.
(٧) عدا المخطوطة: «عينه».
(٨) العقعق ـ كثعلب ـ طائر على قدر الحمامة في شكل غراب وهو ذو لونين أبيض وأسود. ويضرب به المثل في الحذر والسرقة.
(٩) كذا، وفي (هـ): «ما الجمال»؟
(١٠) صفة للكلب بدليل ما سيأتي بعدها من كلام.
(١١) والجائفة الطعنة تبلغ الجوف.
(١٢) (هـ): «طبيب» موضع «الطبيب».
(١٣) بقية النسخ: «مراهم» موضع «المراهم» بالألف واللام.

وتقول العرب: «الضب أطول شيء ذماء»[1]، والكلب أعجب في ذلك منه، وإنما عجبوا من الضب لأنه يغبر[2] ليلته مذبوحًا مفري الأوداج، ساكن الحركة، حتى إذا قرب من النار تحرك. كأنهم يظنون أنه قد كان حيًا، وإن كان في العين ميتًا.

والأفعى [تذبح][3] فتبقى أيامًا تتحرك.

فأما[4] الذي يعتريه الاختلاج بعد جمود[5] ليلة، فلحوم[6] البقر والجزر[7] تختلج وهي على المعاليق اختلاجًا شديدًا.

والحية يقطع ثلثها الأسفل، فتعيش وينبت ذلك المقطوع.

والكلب أشد الأشياء التي تعيش على الجراح، التي لا يعيش عليها إلا الكلب، والخنزير والخنفساء.

والكلب أشد الحيوان[8] فكًا، وأرهفها نابًا، وأطيبها[9] فما، وأكثرها ريقًا، يرمى بالعظم المدمج[10]، فيعلم [بالطبع][11] والغريزة أنه إن عضه رضه، وإن ابتلعه استمرأه.

وهو ألوف للناس، مشارك من هذا الموضع العصافير والخطاطيف والحمام

---

(١) الذماء: بقية الروح. وفي (ط): (أطول شيئًا) وهو على الصواب في (ش)، (م) كما هنا.
(٢) يغبر: يمكث. وفي (ط)، (م) «يغير» وهو تحريف ما ثبت هنا و(ش).
(٣) سقطت هذه الكلمة من بقية النسخ.
(٤) أثبت ما في بقية النسخ موضع: «فأما الاختلاج الذي يعتريه بعد جمود ليلة» الذي بالمختصر لاضطراب المعنى.
(٥) الجمود: كناية عن الموت، ووردت الكلمة عدا هنا «جموده».
(٦) ما عدا المخطوطة: «فلحم» بالإفراد.
(٧) الجزر: الإبل المذبوحة، جمع جزور.
(٨) بقية النسخ: «شيئًا» موضع «الحيوان».
(٩) (ط)، (م): «أخبثها»، وصوابه ما هنا، (ش).
(١٠) المدمج: الصلب. وفي (ش): «يرى العظم المدمج».
(١١) سقطت هذه الكلمة من بقية النسخ.

والسنانير، بل يزيد على ذلك في الخاص والعام[1]. فأما الخاص فإن من الحمام»[2] ما هو طوراني[3] وحشي، ومنه ما هو آلف أهلي[4].

والخطاف من القواطع غير الأوابد، إذا قطع إلى الإنس لم يبن بيته إلا في أبعد المواضع، من حيث لا تناله أيديهم، فهو مقسوم على بلاده وبلاد من اضطرته إليه الحاجة. والعصافير[5] تكون بالقرب[6] [من الناس][7] حيث تمتنع منهم في أنفسها. والكلاب مخالطة لها ملابسة، ليس منها وحشي، وكلها أهلي. وليس من القواطع [ولا][8] من الأوابد ما يكون آنس بالناس - من كثير مما يوصف بالإنس والإلف - من الناس دون من سواهم[9]. وفي السنانير الوحشية والأهلية.

وعلى أن إلف الكلب فوق إلف الإنسان الألوف[10]، والإلف من الكلب أغرب منه من[11] الحمام والعصفور، لأنه سبع، ولأن الحمام بهيمة، والسبع بالسباع أشبه، فتركها ولم يناسبها، [ولم يعايشها][12]، ورغب عنها، [وليس ذلك

---

(١) ما عدا المخطوطة: «في باب الخاص وفي باب العام».
(٢) (ط)، (م): «من» كما هنا، (ش): «منه»، والصواب ما هنا.
(٣) في معجم البلدان: طرآن: جبل فيه حمام كثير، إليه ينسب الحمام الطرآني.. قال: والعامة تقول طوراني، وهو خطأ». وفي اللسان: «وحمام طوراني وطوري منسوب إليه». أي إلى طور سيناء. قال: «وقيل هو منسوب إلى جبل يقال له طرآن، نسب شاذ».
(٤) أي يألف الناس ويعايشهم، وهو صنف آخر من الحمام.
(٥) العصافير: جمع عصفور: بضم العين، وحكى ابن رشيق في كتاب الغرائب والشذوذ عصفور بالفتح والأنثى عصفورة. قال الشاعر:
كعصفورة في كف طفل يسومها ... حياض الردى والطفل يلهو ويلعب
وكنيته: أبو الصعود، وأبو محرز، وأبو مزاحم، وأبو يعقوب، قال حمزة: سمي عصفور لأنه على وفر، وهي أنواع، حياة الحيوان ١٤٠/٢.
(٦) ما عدا المخطوطة: في القرب».
(٧) سقطت الكلمتان من بقية النسخ.
(٨) ليست بالأصل وبها يستقيم الكلام.
(٩) كذا في الأصل: «(هـ): «من الكلاب دون سواها».
(١٠) (ط): الألوف»، وصوابه ما هنا كما في (ش)، (م).
(١١) عدا المخطوطة: «في» موضع «من».
(١٢) سقط هذا الجزء من بقية النسخ.

لضعف عنها][1] وكيف، وهو يصيد الوحوش، ويمنع جميع السباع [من][2] الإفساد؟! ثم صار في كثير من حالاته، آنس بالناس منه بالكلاب دنية وقصرة[3]، ولا تراه يلاعب كلبًا ما دام إنسان يلاعبه. ثم لم يرض بهذه المشاكلة، وبمقدار ما عليه من طبع[4] الخطاف والحمام والعصفور وبمقدار ما فصل به من الأنس والإلف حتى صار إلى غاية المنافع سلمًا، وإلى أكثر المرافق [سببًا][5].

فليس[6] لحارس الناس ولحارس أموالهم بد من كلب، وكلما كان أكثر[7] كان أحب إليه ولا بد لأقاطيع المواشي من كلاب، وإلا فإنها نهب للذئاب ولغير الذئاب ثم كلاب الصيد حتى ربما كان أهل البيت عيالاً على كلب.

وله من الحكاية وقبول التلقين وحسن التصرف في أصناف اللعب، وفي فطن الحكايات وفي الجوارح المذللة لذلك، والمصرفة فيه، ما ليس عند الدب والقرد والفيل، والغنم المكية، والببغاء. والكلب الزيني[8] يسرج على رأسه ساعات [كثيرة من الليل][9]، وربما بقي مقعيًا وربما علق يديه وانتصب على عجب ذنبه، والمسرجة على رأسه ساعات كثيرة من الليل فلا يتحرك.

وكان في بني ضبة كلب زيني يسرج على رأسه فلا ينبض له نابض ويدعونه باسمه ويرمى إليه ببضعة لحم والمسرجة على رأسه فلا يميل ولا

---

(١) خلت منه النسخ عدا المخطوطة.

(٢) «من» فقط هنا وفي (س).

(٣) يريد الكلاب القريبة إليه في النسب.

(٤) ما عدا هنا: «طباع» موضع «طبع».

(٥) سقطت كلمة: «سببا» من بقية النسخ.

(٦) ليست بالأصل وبها يستقيم الكلام، وفي (ش): «لمحارس» بدل «لحارس».

(٧) «أكثر» موضعها في (هـ): «أكبر» والأولى أليق إذا صرفت للمال، والثانية صحيحة إذا صرفت للكلب.

(٨) ضرب من الكلاب قصير القوائم، شديد الذكاء، يقال بالهمز وترك الهمز.

(٩) زدتها في هذا المكان مجاراة لبقية النسخ. وعلى هامش اللوحة ٢/١٢٧ «الزيني: القصير».

يتحرك، حتى يأخذ القوم المصباح عن رأسه، وإذا زايل[1] رأسه وثب على اللحم فأكله! فقد درب بذلك وثقف وتعلق في عنقه الزنبلة والدوخلة[2] وتوضع فيها رقعة، ثم يمضي إلى البقال ويجيء بالحوائج.

ثم صار القراد وصاحب الرباح[3] يستخرج فيما بين القرد والكلب ضروبًا من العمل، وأشكالاً من الفطن، حتى صاروا يطحنون عليه، فإذا فرغ من طحنه مضوا به إلى المتمعك[4]، فتمعك كما يصنع حمار المكارين وبغال الطحانين.

وقرابة أخرى بينه وبين الإنسان: أنه ليس شيء من الحيوان لذكره حجم باد إلا الكلب والإنسان والقرد.

والكلب بعد ذلك أسبح من حية، ولا يتعلق به في ذلك الثور، وذلك فضيلة له على القرد، مع كثرة فطن القرد وشبهه للإنسان لأن كل حيوان في الأرض فإنه إذا ألقي في الماء الغمر سبح، إلا القرد والفرس الأعسر. والكلب أسبحها كلها، حتى إنه ليقدم في ذلك على البقرة والحية.

وفي طباع أرحام الكلاب أعجوبة [فواحدة][5] أنها تلقح من جميع أجناس الكلاب، وتلقح من آخر غير الكلاب، ويلقحها كما يلقح منها وتلقح من كلاب مختلفة الألوان، فتؤدي شبه كل كلب، وتمتلئ أرحامها أجراء من سفاد واحد[6] ومن مرة واحدة، كما تمتلئ من عدة كلاب ومن كلب واحد، وليست هذه الفضيلة إلا لأرحام الكلاب.

قالوا: والزنج صنفان، قبيلة زنجية فوق قبيلة، وتفسيرهما: أن قبيلة هم

---

(١) (ط): «أزيل» وصوابه ما هنا و(ش).

(٢) الدوخلة: بفتح الدال وتشديد اللام المفتوحة وتخفف، أصل معناها: سفيفة من خوص يوضع فيها التمر والرطب.

(٣) الرباح: القرد الذكر، وفي الأصل: «الرياح».

(٤) المتمعك: مكان تمعك الدابة في التراب.

(٥) سقطت هذه الكلمة من بقية النسخ.

(٦) ما عدا المخطوطة: «كلب» بدل «واحد».

النمل، وقبيلة هم الكلاب، ففخر هؤلاء بالكثرة، وهؤلاء بالشدة[١]، وهذان الإسمان هما ما اختاراهما لأنفسهما ولم يكرها عليهما.

وقال النبي ﷺ لعتبة بن أبي لهب[٢]: «أكلك كلب االله» فأكله الأسد. فواحدة: أنه ثبت أن الأسد كلب[٣] والثانية: أن الله عز وجل[٤] لا يضاف إليه إلا العظيم من الأشياء[٥] فأما الخير فقولهم: بيت الله وأهل الله وكتاب الله وكليم الله وروح الله وأشباه ذلك. وأما الشر فقولهم: دعه في لعنة الله وسخط الله ونار الله وما أشبه ذلك. وقد يسمي المسلمون والناس [الأسد][٦] كلبًا.

وقد زعم آخرون، أن بنات آوى والثعالب والضباع، كلها كلاب ولذلك تتسافد وتتلاقح.

وقال آخرون: إنها الكلاب إذا أردتم أن تشبهوها بها فاما أن تكون كلابًا لعلة أو علتين ـ والوجوه التي تخالف فيها الكلاب أكثر ـ فإن هذا مما لا يجوز.

وقول من زعم أن الجواميس بقر وأن الخيل حمر، أقرب إلى الحق من قولكم، وزعم ناس أن الجواميس ضأن البقر، والبقر ضأن أيضًا، ولذلك سموا بقر الوحش نعاجًا، كأنه إنما اتبع الأسماء.

[ومن أنكر قوله ﷺ «أكلك كلب الله» وهو يعني الأسد، فقد أنكر علامة من علامات الرسول][٧].

---

(١) أنظر البيان ٣/٥١. فيه حديث عن القبيلتين.

(٢) في الأصل: «قال يا لهب». وفي ثمار القلوب ١٩ وفقه اللغة ٢٤٨ ـ وقد نقل الثعالبي فيهما نص الجاحظ ـ «عتيبة» بالتصغير. والصواب «عتبة» كما في الأغاني (١٥/٢ ـ ٣) وكما في المعارف ٦٢ وسيرة ابن هشام ٤٦٥ جوتنجن وفي الأغاني عن عكرمة قال: «لما نزلت: والنجم إذا هوى، قال عتبة للنبي ﷺ: أنا أكفر برب النجم إذا هوى، فقال رسول الله ﷺ: اللهم أرسل عليه كلبًا من كلابك!» أنظر الأغاني.

(٣) كذا في فقه اللغة، والأصل، (هـ): «كلب الله».

(٤) الأصل: «تبارك وتعالى» بدل «عز وجل».

(٥) فقه اللغة: إلا العظيم من الأشياء في الخير والشر «وفي الثمار» من جميع الأشياء من الخير والشر، والأصل: إلا العظيم من جميع الخير والشر.

(٦) سقطت من بقية النسخ.

(٧) «أنكر» موضعها «دفع» في (هـ): «علامات» موضع «علامة».

والناس قد تسموا بكلب وكليب وكلاب وأكلب ومكاليب ومكالبة بنو ربيعة بن نزار، وكليب بن ربيعة بن وائل، وفي العرب من القبائل كلب، وبنو الكلبة، وبنو كلاب وبنو كلب، وأكلب بن ربيعة بن نزار، وكلب بن وبرة[1] جذم من الأجذام[2]، ومنهم سادات البصرة، ومن ذلك عمرو الكلب[3]، وأبو عمرو الكلب الجرمي[4] النحوي. فكيف لا يجوز مع ذلك أن يسمى الأسد بالكلب، وهؤلاء أرفع من الأسد؟!

وقد قالوا: كلب الماء، وكلب الرحى - والضبة[5] التي في الرحل يقال لها الكلب، والكلب: الخشبة التي تمنع الحائط من السقوط وتشخص في القناطر والمسنيات[6].

والكلب الذي في السماء. [أراد بكلب السماء: الشعري العبور وهي اليمانية التي بطلوعها يستعدون للصيف، ويسميها أهل الطب: نجم الكلب، وأهل التنجيم يسمونها: كلب الجبارة، والجبار: كواكب الجوزاء][7].

---

(١) كلب بن وبرة بن تغلب ينتهي إلى قضاعة جد جاهلي: حينما أطلق لفظ «الكلبي» فأنسبه إليه. من نسله بنو كلدة، وبنو أوس، وبنو ثور، وبنو رفيدة. قال ياقوت: «ويوم صوار من أيامهم المشهورة (الأعلام ٨٨/٦، صبح الأعشى ٣١٦/١، النقائض ٦٢٥، معجم البلدان ٣٩٥/٥، الطبري ٢١٤/٨ - ٢٣١).

(٢) الجذم: الأصل.

(٣) الأصل: عمرو ذو الكلب «واسمه عمرو بن العجلان بن عامر، وهو من بني هذيل. قال ابن الأعرابي: سمي ذا الكلب لأنه كان له كلب لا يفارقه. وقال أبو عبيدة: وإنما خرج غازيًا ومعه كلب يصطاد به، فقال له أصحابه: يا ذا الكلب! فثبتت عليه وكان يغزو بني فهم غزوًا متصلاً. فقام ليلة فوثب عليه نمران فأكلاه، فادعت فهم قتله وقالت أخته ريطة ترثيه في قصيدة أولها:

كل امرئ لمحال الدهر مكروب   وكل من غالب الأيام مغلوب

الأغاني ٢٢/٢٠ - ٢٣).

(٤) سبق الحديث عنه.

(٥) الضبة: هنا الحديدة العقفاء التي تكون في طرف الرجل تعلق فيها المزاود والأداوي.

(٦) المسناة: السد يعترض به الوادي ليحبس الماء.

(٧) هذا الجزء من زيادات ابن منظور والنسخ الأخرى لم تثبته في هذا الموضع، وبدأ ابن منظور حديثه بقوله: «أراد» توضيحًا لما أراده الجاحظ من «والكلب الذي في السماء».

ويقال: به داء الكلب، وقد اعتراه على الطعام كلب، وقد كلب عليهم في الحرب، و«دماء الملوك للكلبى شفاء»[1].

والكلبة والكلبتان[2] والكلاب[3] والكلوب ثم المكلب والمكلب[4] وهذا مختلف ومشتق من ذلك الأصل.

ومنه علوية[5] كلب المطبخ، وحمويه كلب الجن.

ولما شهد أبو علقمة المزني عند سوار بن عبدالله[6] وغيره[7] من القضاة ووقف[8] عن قبول شهادته، قال له أبو علقمة: لم توقفت في إجازة شهادتي؟ قال: بلغني أنك تلعب بالكلاب والصقور. قال: من خبرك أني ألعب فقد أبطل، ومن بلغك أني أصطاد بها فقد صدقك من أبلغك، وإني أخبرك إني جاد في الاصطياد بها[9] غير لاعب ولا هازئ، فقد وقف المبلغ بك على فرق ما بين الجد واللعب، قال: ما وقف ولا وقفته عليه. فأجاز شهادته.

وقد قال الله عز وجل: ﴿**يسألونك ماذا أحلَّ لهم**﴾[10] فقال لنبيه ﷺ: ﴿**قل أحل لكم الطيبات**﴾[11] وأدخل الصيد بالكلاب في الطيبات، وانتظم

---

(١) هو عجز بيت لعوف بن الأحوص وصدره:
ولا العنقاء ثعلبة بن عمرو

(٢) الكلبتان: آلة للحداد يأخذ بها الحديد المحمى، وهو لفظ يلازم التثنية.

(٣) الكلاب، بضم الكاف وتشديد اللام: الحديدة التي على خف الرائض للدابة، وجمعها كلاليب. وتسمى المهماز أيضًا.

(٤) الكلوب: المنشال أي آلة نشل الشيء ورفعه. وقال اللحياني: الكلاب والكلوب: السفود لأنه يعلق الشواء ويتخلله انظر جـ٢/١٧٨ الحيوان (هـ).

(٥) (ط): «علوبة» صوابه ما هنا و(ش).

(٦) هو سوار بن عبدالله بن سوار بن عبدالله بن قدامة، أبو عبدالله العنبري البصري، نزل بغداد وولي بها قضاء الرصافة وكان فقيهًا فصيحًا، أديبًا شاعرًا وقد وثقه كثيرون، منهم أحمد بن حنبل، وتوفي سنة خمس وأربعين ومائتين. (تاريخ بغداد ٤٧٨٨).

(٧) في الأصل: «أو» بدل الواو.

(٨) الواو ليست بالأصل ووردت الكلمة: «توقف» موضع «وقف».

(٩) الأصل: «بها» بدل «بها».

(١٠) و(١١) سورة المائدة، الآية ٤.

ذلك الحلال الطيب والطعام الطيب ثم قال[1]: ﴿**وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾[2]. فاشتق لكل صائد وجارح وكاسب من باز، وصقر، وعقاب، وفهد، وشاهين، ويؤيؤ، وباشق، وعناق الأرض[3]، من اسم الكلب. وهذا يدل على أنه أعمها نفعًا، وأبعدها صيتًا، وأنبهها ذكرًا. ثم قال: ﴿**فكلوا مما أمسكن عليكم، واذكروا اسم الله عليه**﴾[4] فذكر تعليمهم لها إذ أضاف ذلك إلى نفسه، ثم خبر[5] عن أدبها وأنها تمسك على أربابها لا على أنفسها. ويزعم[6] أصحاب الصيد أن ليس في الجوارح شيء أجدر[7] أن يمسك على صاحبه ولا يمسك على نفسه من الكلب.

وقال الله عز وجل: ﴿**وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد**﴾[8] خبر[9] أنهم لم يستصحبوا من جميع ما يألف الناس ويرتفقون به، ويسكنون إليه شيئًا غير الكلب، فإن مما يألف الناس ويرتفقون به ويسكنون إليه، الفرس والبعير، والحمار والبغل، والثور، والحمام، والشاة والديك، كل ذلك مما يستصحب في الأسفار، وينقل من بلد إلى بلد.

والناس يصطادون بغير الكلب، ويستمتعون بأمور كثيرة، فخبر عنهم بعد أن جعلهم خيارًا أبرارًا، أنهم لم يختاروا استصحاب شيء سوى الكلب، وليس يكون ذلك من الموفقين المعصومين المؤيدين، إلا بخاصة في الكلب لا تكون في غيره.

---

(١) سقط هذا الجزء من الأصل، ومن (هـ) انظر ١١ جـ٢ ط ٢ ص ١٧٨.

(٢) سورة المائدة، الآية ٤ ـ مدنية.

(٣) عناق الأرض: دويبة أصغر من الفهد، طويل الظهر، يصيد كل شيء حتى الطير. وقال في نهاية الغريب، قال قتادة: عناق الأرض من الجوارح، دابة وحشية أكبر من السنور وأصغر من الكلب وفي المثل: لقي عناقة الأرض «أي داهية» ٢/١٨٦. الدميري.

(٤) سورة المائدة، الآية ٤ ـ مدنية.

(٥) الأصل: «أخبر» بدل «خبر».

(٦) الأصل: «وزعم».

(٧) أثبتها في هذا الموضع كما في الأصل ليستقيم الكلام.

(٨) سورة الكهف، الآية ١٨ ـ مكية

(٩) الأصل: «فخبر».

ثم أعاد ذكر الكلب، ونبه[١] على حاله، بأن قال: ﴿**إذ يتنازعون بينهم أمرهم**﴾[٢] إلى قوله: ﴿**ولا تستفت فيهم منهم أحدًا**﴾[٢] وفي قوله: ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم**﴾[٢] دليل على أن الكلب رفيع الحال نبيه الذكر، إذ جعل الكلب رابعهم، وعطف ذكره على ذكرهم[٣] حتى كأنه مما يقاربهم، ولولا ذلك يقال: ثلاثة معهم كلب لهم. وبين قول القائل معهم كلب لهم، وبين قوله رابعهم كلبهم[٤] ـ فرق واسع.

فإن قلتم: هذا كلام لم يحكه الله عز وجل عن نفسه، وإنما حكاه عن غيره حيث يقول: ﴿**سيقولون**﴾ فقد صدقتم لأن الكلام لو كان منكرًا لأنكره الله عز وجل، فإذا حكاه ولم يعه وجعله قرآنًا وعظمه بذلك المعنى، مما لا ينكر في العقل ولا في اللغة، كان الكلام إذا كان على هذه الصفة مثله، إذ كان عن الله عز وجل.

ومثل ذلك فعل[٥] بعض المخالفين في القدر، فإنه سأل بعض أصحابنا فقال: هل تعرف في كتاب الله تعالى أنه يخبر عن الاستطاعة، أنها قبل الفعل[٦]؟ قال: نعم، أتى كثير، من ذلك قوله عز وجل: ﴿**قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين**﴾[٧] قال المخالف: سألتك أن تخبرني عن الله فأخبرتني عن عفريت من الجن لو كان بين يدي لبزقت في وجهه! فقال له: أما سليمان النبي، صلى الله على نبينا وعليه وسلم، ومن حضره فلم ينكروا عليه فلو كان هذا القول كفرًا وافتراء على الله

---

(١) كذا في الأصل: «ونبه على». (هـ)، (ش): «ونبأ عن».

(٢) سورة الكهف، الآيتان ٢١ و٢٢.

(٣) أي عطف ذكر الكلب على الفتية الذين آمنوا السابق ذكرهم في الآيات الأولى من سورة الكهف، المعروفين (بأهل الكهف).

(٤) أصلحت العبارة التي كانت بالمختصر بما ترى، وهي: «وبين قول القائل: رابعهم كلبهم، وبين قولهم: معهم «كلب لهم».

(٥) الأصل: «مثل» موضع «فعل».

(٦) القول بالاستطاعة قبل الفعل أصل من أصول المعتزلة، ينافحون عنه ولابن حزم بحث في هدم هذا الأصل وتفنيده. الفصل (٢٦/٣ ـ ٤٣).

(٧) سورة النمل، الآية ٣٩ ـ مكية.

ومغالبة له وتفويضًا للمشيئة إلى نفسه لكان سليمان ومن حضره من المسلمين من الجن والأنس أحق بالإنكار عليه بل لم يكن العفريت في هذا الموضع هو الذي يسرع فيه [بالفعل][١]، ويذكر الطاعة ويتقرب فيه بذكر سرعة [٢] النفوذ، ويبشر [٣] فيه بأن معه من القوة المجعولة فيما يتهيأ لمثله قضاء حاجته ليكذب ثم لا يرضى بالكذب حتى يقول قولاً[٤] مستنكرًا، ويدعي[٥] قوة لم تجعل له، ثم يستقبل بالافتراء على الله تعالى وبالاستبداد عليه، نبيًا[٦] قد ملك الجن والأنس والرياح والطير، ومنطق[٧] كل شيء، ثم لا يزجره فضلاً عن أن يضربه، [ولا يضربه][٨] أو يسجنه فضلاً عن أن يقتله.

وبعد، فإن الله تبارك وتعالى لم يجعل ذلك القول قرآنًا، ويترك التنبيه على ما فيه من العيب، إلا والقول [قد][٩] كان صدقًا مقبولاً. وقد سمع هذا القول رسول الله ﷺ، تلاه على الناس وما زال الناس يتلونه في مجالسهم ومحاريبهم، أفما كان في جميع هؤلاء واحد يعرف معرفتك، ويغضب[١٠] لله عز وجل غضبك.

قال صاحب الكلب: ولو اعترضت جميع البدو في جميع الآفاق من الأرض، أن تصيب[١١] أهل خيمة واحدة، ليس عندهم كلب واحد فما فوقه لما وجدته، وكذلك كانوا في الجاهلية، وعلى ذلك هم في الإسلام. فمن رجع بالتخطئة على جميع طوائف الأمم فليتهم رأيه، فإن رأى الفرد ولا سيما الحسود،

---

(١) سقطت من الأصل.
(٢) (ط): «بساعة»، وصوابه ما هنا، (ش).
(٣) (ش): «ويشره»!
(٤) هذا صواب ما في الأصل مطابقًا لما في (ش)، وقد ورد في الأصل: «ولا».
(٥) (ط): «ويستنكر أو يدعي» وصوابه ما هنا كما في (ش).
(٦) (ط): «وبيننا من»، وصوابه ما هنا، (ش).
(٧) الأصل: «ونطق».
(٨) سقط من الأصل.
(٩) سقط من الأصل.
(١٠) الأصل: «أو يغضب».
(١١) (ط): «يصيب» والصواب ما هنا كما في (ش).

لا يفي برأي واحد، أو يرى الاستشارة حظًا، فكيف بأن يفي برأيه جميع أهل البدو من العرب والعجم.

[وقال أبو عباد النميري: لا يكون البنيان قرية حتى ينبح فيه كلب، ويصقع فيه ديك](١).

قال أحمد الخاركي(٢): لا تصير قرية حتى يصير فيها حائك ومعلم، قال: أبو عباد(٣): إذا صارت إلى هذا فقد صارت مدينة.

وللكلب إثبات وجه صاحبه، ونظره في عينيه، وفي وجهه، وحبه له ودنوه منه، حتى ربما لاعبه ولاعب صبيانه بالعض الذي لا يؤلم ولا يوجع، وهي الأضراس التي لو أنشبها(٤) في الصخر لنشبت، والأنياب التي لو أنحى بها(٥) على الحصى لرضها.

وقد تراه وما يصنع بالعظم، وبالفقرة من الصلب، فتراه كيف يرضه ويفتته، ثم ان مانعه بعض المهانعة، ووافق منه بعض الجوع، كيف يبتلعه وهو واثق باستمرائه وهضمه.

وله ضروب من النغم، وأشكال من الأصوات، وله نوح وتطريب،

---

(١) هذا الجزء لم يثبت إلا هنا، (ش). وقد أثبته (هـ) نقلاً عن (ش). ووردت كلمة: «يصقع» في (ش): «يزقو».

(٢) في الأصل: «الحاركني». وفي البخلاء ١٠٥، ١٠٦ «أحمد بن الحاركي» والصواب ما هنا وهو منسوب إلى (خارك) جزيرة في وسط البحر الفارسي، كما في معجم البلدان، وهو أحمد بن اسحاق الخاركي البصري. وانظر طبقات ابن المعتز ٣٠٦ وفيه «الخارجي» تحريف، والفهرست ٢٣٣ وحواشي معجم المرزباني ٤٣١.

(٣) هو أبو عباد الكاتب، كاتب أحمد بن أبي خالد. وأبو عباد هو القائل: «إذا أنكر القائل عيني المستمع فليستفهمه عن منتهى حديثه، وعن السبب الذي أجرى ذلك القول له، فإن وجده قد أخلص له الاستماع، أتم له الحديث وإن كان لاهيًا عنه، حرمه حسن الحديث، ونفع المؤانسة، وعرفه بفسولة الاستماع والتقصير في حق المحدث». انظر البيان ٢/٤١ - ٩١.

(٤) أنشبه ونشبه بمعنى.

(٥) (ط): «أنحا بها» والصواب ما هنا و(ش).

ودعاء وخوار[١]، وعواء وهرير، وبصبصة وشيء يصنعه عند الفرح، وله صوت شبيه بالأنين إذا كان قريبًا من الصيد، وله إذا لاعب أشكاله في غدوات الصيف شيء بين العواء والأنين.

وله وطء على الأرض لا يكون مثله، وإذا مر على واد جامد ظاهر الماء، تنكب مواضع الخرير في أسفله.

قال الشاعر[٢] ـ ورأى رجلاً اسمه وثاب واسم كلبه عمرو:

ولو هيأ له الله من التوفيق أسبابا
لسمى نفسه عمرا وسمى الكلب وثابا

والكلبة كثيرة الاطباء، وكذلك الخنزيرة. وللفهدة أربعة أطباء، [وللهرة] ثمانية أطباء من لدن صدرها وقرب إبطيها إلى رفغيها[٣].

وللفيل حلمتان تصغران[٤] عن جثته. وهما مما يلي الصدر مثل الإنسان، والذكر في ذلك يشبه الرجل[٥]، لأن للرجل ثديين صغيرين.

ويقال: إن [على][٦] الكلاب واقية من عبث السفهاء والصبيان بها. وقال دريد بن الصمة[٧] حين ضرب امرأته بالسيف ولم يقتلها[٨]، [وكان لما تزوجها

(١) في القاموس: «الخوار بالضم: من صوت البقر والغنم والظباء والسهام». فاستعماله هنا في غير موضعه الأصيل.

(٢) هو أبو محجن كما في محاضرات الراغب (٢/٦٥) قاله في رجل يسمى وثابًا ويسمي كلبه عمرا. وقد ذكر الراغب الشعر أيضًا في (٢/١٥٣) منسوبًا إلى ابن عتيق، فهما روايتان في النسبة.

(٣) في الأصل: من قوله «أطباء من لدن» إلى: «رفغيها» تكملة للحديث عن أطباء الفهدة، وقد سقط منه: «وللهرة ثمانية». والرفغ بالفتح والضم: أصل الفخذ.

(٤) في الأصل: «حلمان يصغران».

(٥) في الأصل: «يشبه بالرجل».

(٦) فقط هنا وفي (ش)، وأثبته (هـ) كذلك من (ش).

(٧) هو دريد بن الصمة بن جشم بن معاوية بن بكر من هوازن بن منصور بن عكرمة بن قيس عيلان، ويكنى أبا قرة، وأمه ريحانة بنت معد يكرب، أحد شعراء الفرسان، وذوي الرأي في الجاهلية، شهد يوم حنين مع هوازن ولا فضل فيه للحرب وإنما أخرجوه ليقتبسوا من رأيه، وقتل يومئذ على شركه. ترجمته الاشتقاق (١٧٧ ـ ١٧٨). الأغاني ٩/٢ ـ ١٩) والمؤتلف ١١٤، الشعر والشعراء ٢/٧٤٩ الخزانة ٤/٤٤٢ ـ ٤٤٧).

(٨) في الأغاني ٩/٩ عن ابن الأعرابي: «تزوج دريد بن الصمة امرأة فوجدها ثيبًا وكانوا قالوا له إنها =

أصابها ثيبًا، فقام عنها، وأخذ سيفه وتلقته أمها فحز يديها بالسيف فلم يقطعهما، فنظر إليها بعد ذلك وهي معصوبة الزراعين][1] فقال:

أقر العين أن عصبت يداها ... وما إن يعصبان على خضاب

فأبقاهن أن لهن جداً[2] ... وواقية كواقية الكلاب

ويقال: قزح الكلب ببوله فهو يقزح قزحا، اذا بال. وشغر الكلب: اذا رفع رجليه بال او لم يبل. ويقال: شغرت بالمرأة[3] أشغرها شغراً، اذا رفعت رجليها[4] للنكاح. ويقال: عاظل الكلب معاظلة، في معنى السفاد.

ويقال: كلب عظل وكلاب عظل وعظلى وعظالى.

قال مالك بن عبدالله الجعدي يوم فيف الريح[5] حدثني أبي قال: لقد

= بكر فقام عنها قبل أن يصل إليها، وأخذ سيفه فأقبل به إليها يضربها فتلقته أمها لتدفعه عنها، فوقف يديها ـ أي حزهما ولم يقطعهما ـ فنظر إليها بعد ذلك وهي معصوبة فقال: أقر العين» البيتين. ثم قال «قالوا: يريد أن الكلب يصيبه الجرح فيلحس نفسه فيبرأ» والميداني في الأمثال ٢/٢٨٩ يقول: إن الواقية مصدر كالعاقبة، والكاذبة، وذكر لمثل: «واقية كواقية الكلاب» وقال «أي وقاية كوقاية الكلاب على ولدها. وهي أشد الحيوانات وقاية لأولادها». أنظر ثمار القلوب ٣١٨.

(١) يبدو أنها زيادة لابن منظور، وخلت النسخ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: «جلدا»، وإنما هو «جدا» بمعنى حظًا كما في الأغاني. وفي ثمار القلوب: «لؤمًا». والبيت السابق لهذا يروى لحسان بن ثابت في جملة أبيات رواها ابن هشام في السيرة ٥٧٠ جوتنجن، برواية: «أقر العين إن عصبت يداه».

(٣) مثله شغرتها وأشغرتها كما في اللسان.

(٤) الوجه: «شغرتها أشغرها شغراً».

(٥) سبق الحديث عنه وملخصه: «كانت بنو عامر تطلب بني الحارث بن كعب بأوتار كثيرة، فجمع لهم الحصين بن يزيد الحارثي ـ وكان يغزو بمن تبعه من قبائل مذحج ـ وأقبل في بني الحارث، وجعفى وزيد، وقبائل سعد العشيرة، ومراد وغيرهم، واستعافوا بقبائل خثعم، فخرج شهران وناهس واكلب عليهم انس بن مدرك، وأقبلوا يريدون بني عامر وهم منتجعون مكاناً يقال له: «فيف الريح» ومع مذحج النساء والمزراري حتى لا يفروا، إما ظفروا وإما ماتوا جميعاً. واجتمعت بنو عامر كلّها إلى عامر بن الطفيل، فقال لهم عامر حين بلغه مجيء القوم: أعدوا بنا عليهم، فاني أرجو أن نأخذ غنائمهم ونسبي نساءهم، ولا تدعوهم يدخلون عليكم دياركم. والتف القوم فاقتتلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام. قال أبو عبيدة: كانت وقعة فيف الريح وقد بعث النبي ﷺ بمكة ـ وأسرع القتل في الفريقين جميعاً، فافترقوا، ولم يستقل بعضهم عن بعض غنيمة، وكان الصبر والشرف لبني عامر «انظر أيام العرب في الجاهلية ص ١٣٢ وما بعدها. وفيف الريح: موضع بأعلى نجد.

نظرت يومئذ الى بني عبدالله بن الحارث بن نمير، فما شبهتهم الا بالكلاب المتعاظلة حول اللواء.

والسلوقية منسوبة الى سلوق من بلاد اليمن لها سلاح جيد وكلاب فرة[١].

قال: وليس في الأرض بهيمة [ولا سبع أنثى تريد فطام ولدها واخراجه من اللبن الى اللحم، أو الى العشب، ان كانت بهيمة الا وهي تعفر ولدها. والتعفير: أن ترضعه وتمنعه حتى يجوع ويطلب اللحم ان كان سبعاً، والعشب ان كان بهيمة[٢]]، فلا تزال تماطله[٣] وتطاوله، [وكلما][٤] مرت عليه الأيام كان وقت منعها له أطول، حتى اذا قوي على أكل اللحم أو العشب وأعياه ذلك فطمته.

وكان ابن لسان الحمرة[٥] يكنى ابا كلاب[٦]. وكان زوج حبى المدنية يقال له ابن ام كلاب، وقال الشاعر يذكرها[٧]:

---

(١) فرة: جمع فارة، مثل راكع وركع. والسلوقية كما بين الجاحظ موضع باليمن، فنسب إليه كلاب معروفة بفراهتها وجيد سلاحها.

(٢) لم يثبت هذا الجزء الا هنا، (ش)، وأكمل (هـ) هذا الوضع نقلاً عن (ش).

(٣) في الأصل: ««تنوله وتماطله».

(٤) سقطت الكلمة الا من المخطوطة، (ش).

(٥) ابن لسان الحمرة اسمه عبيدالله بن الحصين أو ورقاء بن الأشعر، كما في القاموس والمعارف ٢٣٣ (وفي الفهرست ١٣٢) مصر «ورقاء» وهو تحريف) وهو أعرابي من بني تميم الله بن ثعلبة، وكان من علماء زمانه، قال ابن قتيبة «وكان أنسب العرب وأعظمهم بصراً، دخل الكوفة، وعليها المغيرة بن شعبة، وسأله المغيرة في طبائع قبائل من العرب، وفي خلق النساء فأجاب أجوبة ممتعة، انظر الأغاني (١٤/١٣٨) وفي البيان ٣/١٦٢ «إذا سمعت حديث أبي نضرة وكلام ابن أبي بكرة فكأنك مع ابن لسان الحمرة». والحمرة: طائر يشبه العصفور.

(٦) في الأصل: «أبو كلب»، وصوابه ما هنا كما في الحيوان ٢/٢٠٦ والمعارف، والدميري وفهرست ابن النديم.

(٧) الشاعر هو هدبة بن خشرم العذري كما في أمثال الميداني (١/٣٥٣). وحبى هذه كانت امرأة مزواجاً، فتزوجت على كبر سنها فتى يقال له ابن أم كلاب فقام ابن لها كهل فمشى إلى مروان ابن الحكم ـ وهو والي المدينة ـ وقال: ان أمي على كبر سنها وسني، تزوجت شاباً مقتبل السن فصيرتني ونفسها حديثاً، فاستحضرها مروان وابنها فلم تكترث لقوله ولكنها التفتت إلى ابنها وقالت: يابرذعة الحمار! أما رأيت ذلك الشاب المقدود العنطنط، والله ليصرعن أمك بين الباب =

ومـا وجـدت وجـدي بـه أم واحـد　ولا وجـد حـبى بـابـن أم كـلاب
رأتـه طـويـل الساعـدين شمـردلا　كـما انبعثت مـن قـوة وشبـاب[1]

وقال آخر[2] يصف عيون الكلاب اذا عاينت[3] الصيد:

مجـزعـة غـضـف كـأن عـيـونها　اذا آذن القنـاص بـالصيـد عضرس

مجزعة: في أعناقها جزع، وهو الودع تجعل في القلائد. يقول: تبيض عيونها حتى[4] تختل الصيد. والعضرس ها هنا: البرد[5]. وهم عند الحاجة يعدون الكلب والمطية.

وقال الآخر[6] وذكر الضراء:

= والطاق فليشفين غليلها ولتخرجن نفسها دونه! ولوددت انه ضب واني ضبيبته وقد وجدنا خلاء! فانتشر هذا الكلام عنها فضربت بها الأمثال. وقد حضرت حبى مصرع هدبة بن الخشرم حين قدم للقتل، وهو في ذلك ينشد الاشعار فقالت له: ما رأيت أقسى قلباً منك! أتنشد الاشعار وأنت يمضى بك لتقتل وهذه خلفك كأنها ظبي عطشان تولول؟! تعني امرأته. فوقف ووقف الناس معه، فأقبل على حبى فأنشد البيتين الآتيين. انظر أمثال الميداني والكامل ٧٦٦ ليبسك.

(١) في الميداني: «عنطنطا» موضع «شمردلا» - وكذلك منسوب في اللسان إليه ١/٢٩٦ مادة (حبب).

(٢) هو البعيث كما في اللسان (عضرس). وأنشده في (حرج) بدون نسبة.

(٣) في الأصل: «أبصرت» موضع «عاينت». ابن منظور: «محرجة في أعناقها الحرج» موضع «مجزعة في أعناقها الجزع». يريد أن أعين الكلاب من شدة الغضب. هامش الورقة ١/٣٢ من المخطوطة.

(٤) في الأصل: «حين» بدل «حتى».

(٥) بمثل ذلك فسره الجوهري، لكن عقب عليه ابن بري بقوله: «والعضرس ههنا نبات له لون احمر تشبه به عيون الكلاب لأنها حمر، وليس هو صاحب الغمام كما ذكر - يعني الجوهري - إنما ذلك في بيت غير هذا وهو:

فـبـاتـت عـلـيـه لـيـلة رجـيـبـة　تحـيـي بـقـطر كـالجـمان وعضرس

(٦) كتب ابن منظور في نفس السطر: «أبو ذؤيب» اشارة إلى أن هذا البيت لأبي ذؤيب.
(ط): «ابن ذؤيب»، (ش): «أبن أبي ذؤيب» وصوابه كما كتب ابن منظور. وكما في (م).
والبيت من قصيدة أبي ذؤيب الهذلي المشهورة التي مطلعها:

أمـن المـنـون وريـبـهـا تـتـوجـع　والـدهـر ليس بمعـتـب مـن يجـزع

وهي قصيدة مفضلية اختارها ابن عبده ربه في العقد ١٦٤/٢ وقد رثى بها أبو ذؤيب أولاده وكانوا سبعة فماتوا كلهم إلا طفلاً. ومنها البيت السائر:

وإذا المـنـيـة انـشـبـت أظـفـارهـا　ألـفـيـت كـل تميـمـة لا تـنـفـع

شغف الكــلاب الضــاريــات بـــه   فـاذا يـرى الصبـح المصـدق يفــزع

يقول: هذه البقر(١) لما قد لقيت مع الصبح والاشراق من الكلاب صارت حين ترى ساطع الصبح تفزع(٢)، وذلك أنها تمطر ليلتها فتشرق في الشمس(٣)، فعندها ترسل عليها الكلاب.

ويقال ان اكثر ما يعرض الذئب للغنم مع الصبح، وانما يرتقب(٤) فترة الكلب [ونومه](٥) وكلاله، لأنه بات ليلته حارساً لأهله.

ولما قال النبي ﷺ لزيد الخيل(٦) من الخير ما قال، وسماه زيد الخير، ما سأله زيد شيئا، ولا ذكر له حاجة، الا أنه قال: يا رسول الله، فينا رجلان يقال لأحدهما ذريح(٧)، والآخر يكنى أبا دجانة، ولهما أكلب خمسة تصيد الظباء، فما ترى في صيدهن؟ فأنزل الله عز وجل **﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم وأذكروا اسم الله عليه﴾**(٨). فأول شيء يعظم في

= وقد روى صاحب اللسان (مادة شعف) وكذا الراغب في المحاضرات ٢/٢٩٦:

شـعف الـكـلاب الـضـاريـات فـؤاده   فـإذا يـرى الصبـح المصـدق يفـزع

قال ابن منظور: «يقول: ذهبت بقلبه الكلاب فإذا نظر إلى الصبح ترقب الكلاب أن تأتيه».

(١) في الأصل: «الثيران».

(٢) المخطوطة: «فزعت»، الأصل: «فزع»، وأثبت ما في (هـ).

(٣) كذا في (ش)، (ط)، (هـ). وفي (م): «فتتشرق». وبالرواية الأولى تكون إحدى التاءين قد حذفت تخفيفاً، وذلك جائز. قد ورد به القرآن قال تعالى: **﴿ولا تيمموا﴾**، **﴿ولا تبرجن﴾**.

(٤) في الأصل: «رقب».

(٥) سقط من الأصل.

(٦) زيد الخيل هو زيد بن مهلهل بن منهب، من طيِّئ كنيته أبو مكفف. من أبطال الجاهلية لقب زيد الخيل لكثرة خيله، أو لكثرة طراده بها، وكان شاعراً محسناً وخطيباً لسناً، أدرك الاسلام ووفد على النبي (ص) سنة ٩٠ هـ في وفد طيئ وأسلم، وسماه «زيد الخير».
(الاعلام ١٠١/٣ «الأغاني، والاصابة، خزانة الأدب للبغدادي ٤٤٨/٢، ثمار القلوب ٧٨).

(٧) روي الحديث برواية أخرى في تفسير ابن أبي حاتم، وهي أن عدي بن حاتم وزيد الخيل الطائيين جاءا إلى رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله اننا نصيد بالكلاب والبزاة، وان كلاب آل ذريح تصيد البقر والحمير والظباء. قال ابن حجر في الاصابة ٢٤٣٩: «فهذا يدل على أن ذريحا بطن من طيئ. لا اسم رجل بعينه».

(٨) سورة المائدة، الآية ٤.

عينك شأن الكلب، أن هذا الوافد الكريم الذي قيل له ما قيل، وسموه بما لم يسم به أحد، لم يسأل إلا عن شأن الكلب.

وثانية وهي أعظمها: أن الله عزّ وجل أنزل فيه عند ذلك آياً محكما، ثم قال:[1] **﴿أحل لكم الطيبات﴾**[2] فسمى صيدها طيبا، ثم قال: **﴿وما علمتم من الجوارح مكلبين﴾**[2] فخبر[3] عن قبولها التعليم[4] والتأديب، ثم قال: **﴿مما علمكم الله﴾**[2] ولولا أن ذلك الباب من التعليم والعلم مرضي عند الله عز وجل لما أضافه إلى نفسه. ثم قال: **﴿فكلوا مما أمسكن عليكم﴾**[2]. وهكذا يقول أصحاب الصيد، ان كل صائد فإنما يمسك على نفسه الا الكلب فإنه يمسك على صاحبه.

ولو كان الجواب لزيد الخيل سنة من سنن النبي ﷺ لكان في ذلك الرفعة، فكيف والكتاب فوق السنة.

وقد سمى ابن عباس أسماء كلاب فقال: المختلس، وغلاب، والقنيص، وسلهب، وسرحان، والمتعاطس[5].

وزعم الأطباء أن من أجود أدوية الذبحة[6] والخناق أن ينفح[7] في حلق من كان ذلك به من الخنق، ما جف من رجيع الكلب[8]. أجود من ذلك أن يكون يتغرغر به وربما طلوه على جلد المحموم[9] الحديد المحمى[10].

---

(١) ثبت هنا، وفي (ش)، وسقط من بقية النسخ، وفي (هـ) نقلاً عن (ش): «فقال».
(٢) سورة المائدة، الآية ٤.
(٣) الأصل: «مخبراً» موضع «فخبر».
(٤) (ط): «للتعيم» وهو خطأ صوابه ما هنا، و(ش).
(٥) (ط): «المغناطيس»، وما هنا وافق ما في (ش).
(٦) الأصل: «الخانوق» وهما بمعنى، داء يأخذ في الحلق.
(٧) ينفح: «أي يدفع».
(٨) الأصل: «الكلاب» بالجمع موضع «الكلب».
(٩) (ط): «لحوم» وهو تحريف ما هنا، (ش).
(١٠) كذا في الأصل، (ش) «الحديد الحمي».

وأجود رجيع الكلاب أن يشتدّ بياضه. وليس يعتريه البياض إلا عن أكل العظام [1]، وذلك رديء للقانص منها.

والجعر[2] قد تبيض إذا كان قوت صاحبه اللبن، ولذلك قال أبو كلاب - وهو ابن لسان الحمرة[3] - ومر به رجل من بني أسد فقال: علمت العرب يا معشر بني أسد أنكم أشدها بياض جعور[4]، فعكف عليه فضربه بسيفه حتى برد[5].

وذلك أنه عيره بأنهم لا يعرفون البقل، ولا يعرفون إلا اللبن.

والعرب تقول: اللحم أقل الطعام بخراً.

قال صاحب الكلب: وما للديكة وللكلاب[6]، والكلاب ينزل فيها القرآن ويحدث فيها السنن، ويشتق من أسمائها للناس وللأسد، ولها أسماء معروفة واعراق منسوبة، وبلدان مشهورة، وألقاب وسمات، ومناقب ومقامات!!

وما للديك إلا ما تقول العوام: إنه إذا كان في الدار ديك أبيض أفرق[7] لم يدخلها شيطان وليس يقوم خير ذلك ولو كان حقا، بشره[8]، لأن العوام تقضي على من كان في داره ديك أبيض أفرق[9] بالزندقة.

والذين يقولون: إن الدار إذا كان فيها ديك أبيض أفرق لم يدخلها شيطان، يقولون من أكل لحم سنور أسود لم يضره سحر، وإذا دخنت الدار

---

(١) في الأصل: «الطعام» وما هنا أقرب للمعنى.
(٢) كذا في (ش) بالافراد، وفي الأصل: «الجعور»، والجعر: ما يبس من العذرة في المجعر أي الدبر، أونجو كل ذات مخلب من السباع.
(٣) سبقت ترجمته ص ٤٥٧.
(٤) في الأصل: «بعور» موضع «جعور».
(٥) برد: سكنت أنفاسه وانقضت حياته.
(٦) الأصل «ما للديك وللكلاب؟».
(٧) ديك أفرق: عرفه مفروق.
(٨) في الأصل: «بشؤمه» موضع «بشره».
(٩) (ط): «أفرق» بالقاف، وصوابه ما هنا، (ش).

بالدخنة[1] التي يسمونها[2] دخنة مريم، أو باللبان، لم يكن لعمار تلك الدار عليهم سبيل، فان مرت ساحرة[3] تطير سقطت. وهم الذين لا يشكون أن من نام بين البابين تخبطه العمار وخبلته الجن.

ومما زاد في في ذكر الكلب قول السيد بن محمد[4] في شأن عائشة رضوان الله عليها في الحديث الذي رووه[5] فقال:

تهوي من البلد الحرام فنبهت بعد الهدو كلاب أهل الحوْب

ويقال صرفت الكلبة صرافاً وصروفاً، وظلعت تظلع ظلوعاً.

---

(١) الدخنة: ذريرة تدخن بها البيوت.

(٢) في الأصل: «سموها» موضع «يسمونها».

(٣) (م): «فإن موت ساحره» انظر تأويل مختلف الحديث ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٤) السيد لقبه واسمه اسماعيل بن محمد بن يزيد بن ربيعة بن مفزغ الحميري، وجده يزيد بن ربيعة شاعر مشهور، وهو الذي هجا زياداً وبنيه ونفاهم عن آل حرب، وحبسه عبيد الله بن زياد لذلك وعذبه، ثم أطلقه معاوية. قال أبو الفرج في الأغاني (٢/٧): يقال إن أكثر الناس شعراً في الجاهلية والاسلام ثلاثة: بشار، وأبو العتاهية، والسيد. ثم قال: وإنما مات ذكره ـ يعني السيد ـ لما كان يفرط فيه من سب أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه في شعره. قال الصلاح الكتبي في الفوات ٢٢: «كان شاعراً محسناً كثير القول إلا أنه كان رافضياً. . . وكان مقيماً بالبصرة» وفي الفوات أيضاً: «ومات أول أيام الرشيد سنة ثلاث وسبعين ومائة وولد سنة خمس ومائة».

(٥) يشير إلى ما روي: من أن السيدة عائشة لما أرادت المضي إلى البصرة في (وقعة الجمل) مرت بالحوأب ـ وهو موضع بئر قريب من البصرة ـ فسمعت نباح الكلاب فقالت: ما هذا الموضع؟ فقيل لها هذا موضع يقال له الحوأب. فقالت: إنَّا لله، ما أراني إلا صاحبة القصة. فقيل لها: وأي قصة؟ فقالت: سمعت رسول الله (ص) يقول وعنده نساؤه: ليت شعري، أيتكن تنبحها الكلاب بحوأب سائرة إلى الشرق في كتيبة وهمت بالرجوع فغالطوها وحلفوا لها أنه ليس الحوأب. انظر معجم البلدان برسم (الحوأب) حوأب: واسع. الأزهري، الحوأب: واد في وهدة من الأرض واسع، ودلو حوأب وحوأبة كذلك، وقيل: ضخمة قال:

حوأبة تنقض بالضلوع

أي تسمى للضلوع نقيضاً من ثقلها. وحوأب: ماء أو موضع قريب من البصرة ويقال له أيضاً الحوأب. الجوهري الحوأب مهموز، ماء من مياه العرب على طريق البصرة وفي الحديث انه ﷺ قال لنسائه: أيتكن تنبحها كلاب الحوأب؟ قال: الحوأب منزل بين البصرة ومكة وهو الذي نزلته عائشة رضي الله عنها، لما جاءت إلى البصرة في وقعة الجمل. التهذيب: الحوأب: موضع بئر نبحت كلابه ـ أم المؤمنين عند مقبلها من البصرة «لسان العرب» ١/٢٨٨ مادة (حأب).

وفي المثل: «لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب». [أي الصارف][(١)]. قال الأصمعي: هذا باطل، إنما ذلك إذا أصاب الكلب ما يظلع منه، لم يطق سفاد الكلبة حتى تهدأ الرجل، وحتى تمل الكلاب النباح وتفترق[(٢)]، وتحتاج إلى النوم لطول التعب[(٣)]، فإذا كان في ذلك الوقت يلتمس[(٤)] الظالع [ورام][(٥)] سفاد الكلبة، ولم يعرف ظلعه إلا الكبة. وأنشد[(٦)]:

تسديتها من بعد ما نام ظالـع الكلاب وأخـبـى نـاره كـل مـوقـد

ويقال: لحز الكلب الاناء، يلحز لحزاً، ولحسه يلحسه لحساً، قال أبو زيد[(٧)]: وذلك إذا لحس الاناء من باطنه. والقرو: ميلغة الكلب، فإذا كان للكلب فإنما هو من أسفل كوز أو ما أشبه ذلك، وإلاّ فالقرو أسفل نخلة ينجر ويقور[(٨)] وينتبذ فيه.

وقال الأعشى: [(٩)]

أرمـي بهـا البـيـد إذا أعـرضـت وأنـت بـين الـقـرو والعـاصر[(١٠)]
في مجـدل شـيـد بـنـيـانـه يـزل عـنـه ظـفـر الـطـائـر

ومما يحاجي به الناس، أن يقولوا: أتعرفون شيئاً ان قام كان أقصر منه إذا

---

(١) لم يثبت إلا هنا.
(٢) (ط): «تغوق»، وصوابه ما هنا، (ش).
(٣) (ط): «أطول التعب»، وصوابه ما هنا، (ش).
(٤) (ش)، (م): «تلتمس».
(٥) سقطت من بقية النسخ.
(٦) البيت للحطيئة وسبق الكلام عليه. تسداها: علاها.
(٧) (ط)، (ش)، (هـ): «أبو زيد». وفي (م): «أبو زيد»، ولعل الصواب ما هنا، وهو أستاذ الجاحظ.
(٨) في الأصل: «ويقوب».
(٩) القصيدة التي منها البيتان في ديوانه ١٠٤ - ١٠٨.
(١٠) (ش): «ارمي به» وصوابه هنا، (ط) والضمير للناقة في بيت قبل هذا وهو:
لـقـد اسـلي الهـم حـين اعـترى بجسرة دوسرة عـاقـر
والمجدل، كمنبر: القصر المشرف، سمي مجدلا لوثاقة بنيانه.

قعد؟ يريدون به الكلب، لأن الكلب قعوده اقعاؤه، وهو إذا أقعى كان أرفع لسمكه، وأذهب في الهواء طولاً منه إذا قام [على أربع](١).

ويقال: أقعى الكلب اقعاء، ولا يقال: قعد ولا جلس. وفي الحديث: «أنه نهى أن يقعي أحدكم في الصلاة اقعاء الكلب».

قال صاحب الكلب: يعرف فتاء الكلب وهرمه بالأسنان، فإذا كانت سوداء(٢) كانت دليلاً على الكبر، وإذا كانت بيضاء (٣) وحادة دلت على الفتاء والحداثة. وأسنان الذكورة أكثر.

وأصناف الحيوان المشقوقة الافواه [والآذان](٤) كالكلب والأسد والفهد موصوفات بشدة الماضيغ والفك والخراطيم، كالكلب والخنزير والذئب، فأشبه الكلب الأسد في شحو الفم واتساعه، وعلى أن شحو فمه على مقدار جسمه، وأشبه الذئب والخنزير في طول الخطم وامتداد الخرطوم.

وذلك يعتري كل شديد الفك، جيد الاستراوح. فجمع الكلب دون هذه الأصناف ما يصلح للرض والحطم، كما جمع ما يصلح للابتلاع والالتهام، فجمع الحطم والقضم، والابتلاع والالتهام.

والأسد حريص واسع الشحو فهو يبتلع البضعة التي لو رآها انسان لم يظن أن حلقه يتسع لمرور ذلك [فيه](٥) ـ وهو في ذلك قليل الريق ـ لا يسلس في حلقه ما يمر به(٦)، بل يبتلع لفرط نهمه وشحو لحييه ضعفي ذلك المقدار.

وزعم ناس ان الذي يدل على أن عنق الأسد عظم واحد، ضعفه عن تحريك عنقه وتصريفه، ولا يلتفت إلا معاً، فسمي لذلك أصيد.

---

(١) سقط ما بين المعكفين من بقية النسخ.
(٢) (ط): «سوء»، وصوابه ما هنا، (ش).
(٣) في الأصل: «بيضاء موضع «بيضاء».
(٤) سقطت من بقية النسخ.
(٥) سقطت من بقية النسخ.
(٦) في الأصل: «فيه موضع «به».

وقالوا في أسنان الذئب وفي أسنان بعض الحيات انها ممطولة[1] في الفكين، يذهب إلى أنه[2] عظم مخلوق في الفك وانه لا يثغر[3].

والحيات توصف بسعة الأشداق والأفاعي خاصة هي المنعوتة بذلك.

ومما أشبه فيه الكلب الإنسان والأسد، أن كل واحد من هذه الأجناس إنما له بطن واحد، وبعد البطن الامعاء، إلا أن بعضها أعظم من بعض، ويناسبها في الذي ذكرنا الدب والذئب، فما أكثر ما يناسبان الكلب، ولذلك يتناكحان ويتلاقيان.

وامعاء الكلاب أشبه شيء بأمعاء الحية. وهذا أيضاً مما يزيد في قدره، لأنه إما أن يشبه الإنسان، أو رؤساء السباع أو دواهي الحشرات، وكلما كانت هذه المعاني فيه أكثر كان قدره أكبر.

قال: والكلب يحلم ويحتلم، وكذلك الفرس والحمار، والصبي يحلم ولا يحتلم، والثور في ذلك كالصبي. ويعرف ذلك في الكلب إذا نبح وتفزع[4].

وزعم أن الاحتلام قد عوين من الفرس والبرذون والحمار.

قالوا: وليس العظال والتحام الفرجين إلا في الكلاب[5] والذئاب، ومن أراد أن يفرق بين الذئاب[6] إذا تعاظلت وتسافدت رام أمراً عسيراً.

والحيوان الذي يطاول عند السفاد معروف، مثل الكلاب والذئاب، والعنكبوت والجمال، وإن لم يكن هناك التحام. وإذا أراد العنكبوت السفاد

---

(١) ممطولة: أي ممتدة، داخلة، أو بمعنى مطبوعة طبعاً.
(٢) (ط): «بأنه».
(٣) أثغر: ألقى ثغره، والثغر: الأسنان.
(٤) قبل كلمة «تفزع» موضع أبيض في كل من (ش)، (م). وهذه الكلمة جاءت برسم «تفرغ» في كل من (ط)، (م). وهو تصحيف بينما ترى أن الكلمة في المخطوطة «نبح».
(٥) في الأصل بالافراد: «الكلب والذئب».
(٦) بقية النسخ: «الكلاب» موضع «الذئاب» والوجه ما هنا بدليل ما سيأتي.

جذبت[١] الأنثى [بعض][٢] خيوط نسجها من الوسط، فإذا فعلت ذلك فعل الذكر مثل ذلك، فلا يزالان يتدانيان حتى يتشابكا[٣] فيصير بطن الذكر قبالة بطن الأنثى. وذلك شبيه بعادات الضفادع.

قال بعض الاعراب: إذا هجم الرجل على الذئب والذئبة وهما يتسافدان، وقد التحم الفرجان قتلها كيف شاء، لأنهما قل ما[٤] يوجدان كذلك، لأن الذئب وحشي جداً، وصاحب قفرة[٥] وانفراد وتباعد فإذا أراد الذئبة توخى موضعاً من الفلاة لا يطؤه الانس، خوفاً على نفسه، وضنا[٦] بالذي يجد في المطاولة من اللذة.

قال أحمد بن المثنى: خرجت إلى صحارى حرج[٧] لجناية جنيتها وخفت الطلب، وأنا شاب، إذ عرض لي ذئب فكنت كلما أدر على شق استدار بي، فإذا درت له دار من خلفي، وأنا وسط برية لا أجد بها معيناً، ولا شيئاً[٨] أستند إليه، فبينا أنا كذلك وقد أصابني الدوار، وأيقنت بالهلكة. فكان من صنع الله وتأخير الاجل ان عرضت له ذئبة، وكان زمن اهتياجها فلما عاينها تركني وقصد نحوها، فما تلعثم أن ركبها[٩]. وقد كنت قرأت في الكتب أنها تلتحم، ففوقت سهمي[١٠] وهما ينظران إلي، فلما لم أر عندها نكيراً حقق ذلك عندي، فمشيت إليهما بسيفي فقتلتهما.

---

(١) في الأصل: «جلبت» موضع «جذبت» والجذب يقتضي شد الأنثى للذكر بواسطة الخيوط المنسوجة كما يصف ذلك الجاحظ فالأصوب ما ثبت هنا.
(٢) في المخطوطة (ش) فقط، و(هـ) نقلاً عن (ش).
(٣) في الأصل: «فلا يزالا يتدانيان حتى يتشابكان» وصوابه ما أثبت.
(٤) (هـ): «قليلاً ما» موضع «قل ما».
(٥) (س): «قفوة».
(٦) (ط): «ومنعا» وفي (ش)، (م): «ومنعا» وصوابهما ما هنا.
(٧) في الأصل: «خوخ» موضع «حرج».
(٨) في الأصل: «إلا بشيء».
(٩) ما تلعثم: ما لبث. مثلها: ما تلبث، وما تلوم، وما عتم، وكثير غيرها.
(١٠) (ط)، (م): «فقومت سهمي» وفي (ش): «ففومت سهمي» والوجه ما هنا، يقال فوق سهمه: جعل له فوقاً. والفوق: موضع الوتر من السهم.

ومما يعد للكلاب أنها كثيراً[1] ما تلقح لحال الدفء والخصب، والكلب والخنزير في ذلك سواء، ولا يكاد غيرهما من الأصناف يتلاقح في ذلك الزمان. فالكلب كما ترى ينازع مواضع الاساءة من محاسن جميع الحيوان.

قال: واناث الكلاب تصعب أخلاقها إذا كانت لها أجراء، وكل ما له بيض أو فراخ [أو جرو][2] فأسوأ ما يكون خلقاً وأنزق، وأكثر ما يكون أذى[3] وأعرم ـ إذا كان كذلك[4]، إلا إناث البقر.

والكلب كلما كان أسن كان صوته أجهر وأغلظ.

والكلب ينزو إذا تمت له ستة أشهر. وربما كان ذلك منه وهو ابن ثمانية أشهر. والكلبة الأنثى تحمل واحداً وستين يوماً، أطول ما يكون، ولا تضع قبل أن يتم لحملها ستون يوماً، ولا يبقى الجرو ولا يربى إذا قصر عن ذلك، والأنثى تصلح أن ينزى عليها بعد ستة أشهر.

والكلبة والحجر[5] والمرأة وغير ذلك، يكون أول نتاجها أصغر جثة وكذلك البيض إذا كان بكراً وكذلك ما يخرج منه من فروج أو فرخ.

وذكور الكلاب تهيج قبل الاناث في السن، والاناث تهيج قبلها في وقت حركتها. وكلما تأخر نزو[6] الحدث إلى تمام الشباب كان أقوى لولده.

والكلاب لا تريد السفاد عمرها كله، بل إلى وقت معلوم.

وهي تلقح إلى أن تبلغ ثماني عشرة سنة، وربما انتدرت[7] الكلبة فبلغت العشرين.

---

(١) (ط): «ومما يعد الكلاب أنها كثيراً»، والصواب ما هنا، (ش).
(٢) سقطت من بقية النسخ.
(٣) في الأصل: «إذا».
(٤) في الأصل: «وإذا كان كذلك».
(٥) الحجر، بالكسر: الأنثى من الخيل.
(٦) في الأصل: «وقت» موضع «نزو».
(٧) كذا في (ش). في (ط) «ابتدرت» وهو تصحيف.

قال: والكلاب أجناس كثيرة: والكلب السلوقي يسفد إذا كان ابن ثمانية أشهر والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية، والجرو إذا وضع يكون أعمى اثني عشر يوماً ثم يبصر، والكلبة تسفد بعد وضعها في الشهر الثاني، ولا تسفد قبل ذلك.

ومن اناث الكلاب ما تحمل خمس السنة، يعني اثنين وسبعين يوماً، وإذا وضعت الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يوماً.

ومن أصناف الكلاب ما يحمل ربع السنة، أعني تمام ثلاثة أشهر وتضع الجراء عمياء وتبقى كذلك سبعة عشر يوماً ثم ترضع جراءها على عدد أيامها التي لا تبصر فيها.

وزعم أن اناث الكلاب تحيض في كل سبعة أيام، وعلامة ذلك ورم أثفارها ولا تقبل السفاد في ذلك الوقت بل في السبعة التي بعدها فيكون ذلك تمام أربعة عشر يوماً أكثر ما يكون، وربما كان لتمام ستة عشر يوماً.

واناث الكلاب تلقي بعد الوضع رطوبة غليظة بلغمية، وإذا وضعت الجراء اعتراها هزال، وكذلك عامة الاناث، ولبنها يظهر في الأطباء[1] قبل أن تضع بخمسة أيام، وربما ظهر اللبن في أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام، وربما كان ذلك في مقدار أربعة أيام. ولبنها يجود إذا وضعت في ساعتها، قال: وأما السلوقية فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوماً، ويكون لبنها أول ما تضع غليظاً، فإذا أزمن دق ورق، ولبن الكلاب يخالف لبن سائر الحيوان بالغلظ بعد لبن الخنازير والأرانب.

وقد تكون علامة مبلغ سفادها مثل ما يعرض للنساء من ارتفاع الثديين. ومعرفة ذلك عسيرة، وهذه علامة تظهر لاناث الكلاب. وذكورتها ترفع أرجلها وتبول لتمام ستة أشهر. ومنها ما لا يفعل ذلك إلا أن يبلغ ثمانية أشهر ومنها ما يعجل قبل السنة. وأما الاناث فهي تبول مقعية، ومنها ما تشغر.

---

(١) الأصل: «أطبائها» موضع «الأطباء».

وأكثر ما تضع الكلبة اثنا عشر جروا، وذلك في الفرط، وأكثر ذلك الخمسة والستة، وربما وضعت جرواً واحداً، واناث السلوقية تضع ثمانية اجراء واناثها وذكورتها تسفد ما بقيت[1].

ويعرض للسلوقية عرض خاص: وهي أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد، وذكورة السلوقية تعيش عشر سنين، والاناث تعيش اثنتي عشرة سنة[2]، وأكثر أجناس الكلاب تعيش أربع عشرة سنة، والخاص[3] يبقى عشرين سنة.

واناث الكلاب أطول من الذكورة، وكذلك هي في الجملة وليس يلقي الكلب من أسنانه سناً ما خلا النابين، وإنما يلقيهما إذا كان ابن أربعة أشهر.

ومن أجل أن الكلاب[4] لا تلقي غير هذين السنين[5] يشك بعض الناس أنها لا تلقي سناً البتة.

وللكلاب ثلاثة أصناف من المرض، أسماؤها[6]: الكلب بفتح اللام، والذبحة، والنقرس[7]. والكلب جنون، فإن عرض لشيء من الحيوان كلب أماته، ما خلا الإنسان. وهو داء يقتل الكلاب وتقتل به الكلاب كل شيء عضته، إلا الإنسان فإنه قد[8] يعالج فيسلم.

وداء الكلب يعرض للحمار، فأما الجنون وذهاب العقل فهو يصيب كل شيء فمن ذلك ما يصيب الدواب فإن منها ما يصرع كما يصرع المجنون،

---

(١) (ط): «ما تقت» وصوابه ماهنا كما في (ش).
(٢) (ط): «اثنى عشر سنة» والصواب ما هنا، (ش).
(٣) كذا في الأصل، (ش) «الأجناس» موضع «الخاص».
(٤) (ط): «من أجل ذلك أن الكلاب».
(٥) في الأصل: «النابين» موضع «السنين».
(٦) (ط): «وأسماؤهم» وهي على الصواب في (ش).
(٧) النقرس بالكسر: ورم ووجع في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين. وفي (ط): «النقوس» وفي (ش): «النفوس» بالفاء، وصوابها ما هنا.
(٨) سقط من بقية النسخ.

والسائس[١] من الدواب: الذاهب العقل.

وقد كان شأن أعين الطبيب عجباً، وذلك أنه كان يصرع، واتفق أن كان له بغل يصرع، وربما اتفق أن كان يصرعان جميعاً!

والصرع عام في الحيوان ليس يسلم منه صنف منها. والإنسان فوق جميع الحيوان تعذيباً[٢]، كذلك هو في العقل[٣] والمعرفة والاحتيال لدفع المضرة واجتلاب المنفعة، وما أكثر ما يعتريهم ذلك. ومنه ما يذهب، ومنه ما لا يذهب.

وقد كان بختيشوع[٤] المتطبب عرض له ذلك، وعرض لعبد الملك[٥] بن قريب الأصمعي فذهب عنه.

والموتة[٦] جنس من الصرع، إلا أن صاحبه إذا أفاق عاد إلى كمال عقله كالنائم والسكران، والمغشى عليه، وان عاش صاحب الموتة في ذلك مائة عام.

وليس يلقى شيء من الحيوان في هذا الباب كما يلقى الورشان[٧] [والإنسان][٨].

---

(١) (ش): «السائسي».
(٢) كذا، ويقصد أن الإنسان أكثر تعذيباً عندما يعتريه الصرع.
(٣) (ش): «وذلك».
(٤) هو بختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع ابن جرجس، طبيب سرياني الأصل مستعرب. قربه الخلفاء العباسيون ولا سيما المتوكل العباسي، فعلت مكانته وأثرى حتى كان يضاهي المتوكل في الفرس واللباس. خدم الواثق والمتوكل والمستعين والمهتدي والمعتز، مات ببغداد سنة ٢٥٦ هـ (الاعلام ١٢/٢، طبقات الأطباء ١٣٨/١، الطبري ٥٦/١١).
(٥) هو الأصمعي إمام اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر. كان يتقي أن يفسر الحديث كما يتقي أن يفسر القرآن، وهو ممن أكثر التأليف، وكان من أهل البصرة، توفي سنة ٢١٦ عن ثمان وثمانين سنة. الحيوان ٢٢٤/٢.
(٦) في القاموس «الموتة بالضم: الغشي والجنون».
(٧) الورشان هو ساق حر، وهو ذكر القماري والجمع وراشين ومجمع أيضاً على ورشان بكسر الراء، وقيل إنه طائر يتولد بين الفاختة والحمامة، وبعضهم يسميه (الورشين) وكنيته أبو الأخضر وأبو عمران وأبو النائحة وهو أصناف وهو يوصف بالحنو على أولاده حتى انه ربما قتل نفسه إذا رآها في يد القانص، انظر حياة الحيوان ٤٦٣/٢.
(٨) زيادة سقطت من بقية النسخ.

فأما السكر فليس من الحيوان شيء إلا وهو يسكر، واختلاف سكره كاختلاف سكر الناس، فان من الناس من تراه يتحدث وهو يشرب فلا تنكر فيه شيئاً، حتى يغلب عليه نوم السكر ضربة واحدة، ومنهم من تراه والنبيذ يأخذ منه الأول فالأول، وتراه كيف تثقل حركته، ويغلظ حسه ويتمحق عقله، حتى يطيش عليه السكر بالعبث، ويطبق عليه النوم. ومنهم من يأخذه السكر بالعبث لا يعدوه، ومنهم من لا يرضى بدون السيف، وإلا أن يضرب أمه ويطلق امرأته، ومنهم من يعتريه البكاء ومنهم من يعتريه الضحك، ومنهم من يعتريه الملق والتقيد به، والتسليم على المجالس، وتقبيل رؤوس الناس، ومنهم من يرقص ويثب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما من العرض[1] وفضل الاشر[2] والآخر تحريك المرة، وهي علة الفساد وهيجان الآفة.

وكل هذه الحالات والصور، والنعوت، والأجناس، والتوليد، الذي يختلف باختلاف طبائع الناس، وطبائع الأشربة، وطبائع البلدان، والأزمان والأسنان، وعلى قدر الاعراق والأخلاق، والقلة والكثرة، والتصريف والتوفيق قد وجدوه في أجناس الناس والحيوان، إلا أن في الناس واحدة لم توجد في سائر الحيوان قط، فإن من الناس من لا يسكر البتة، منهم محمد بن الجهم[3] وأبو عبدالله العمي[4].

وأما العمي فإن بني عبد الملك الزيـاديين دعـوني مرة ليعجبـوني منه، فدخلت على رجل ضخم فدم[5] اللسان غليظ المعاني عليه من الكلام أشـد المؤنة وفي معانيه اختلاف، ليس منها شيء يواتي صاحبه ولا يشاركه، وحتى ترى

---

(١) العرض: بمعنى الجنون وذهاب العقل.

(٢) الاشر: المرح.

(٣) هو محمد بن الجهم البرمكي، ولاه الخليفة المأمون عدة ولايات وقد ذكر أبو الفرج في الأغاني (١٥/١٣) أسئلة طريفة في الأدب والشعر وجهها إليها المأمون، فأعجبه جوابها، وكان هـذا الاختبار الأدبي سبباً لحصوله على هذه الولايات.

(٤) من المعتزلين وسبقت الاشارة اليه.

(٥) الفدم: الأحمق الجافي.

أن ارادته[١] في شق ولسانه في شق، وتظن أن كلامه كلام مهموم[٢] أو مجنون، فشرب القوم شرب الهيم[٣]، وكانت لهم أجساد مدبرة وأجواف منكرة، فما زال العمي يشرب رطلاً بعد رطل، ويرق لسانه، وينحل عقده[٤] ويصفو ذهنه، ويذهب عقل كل واحد منهم، ويغلظ ذهنه حتى لو قلت: أني لم أر مثل العمى حسن نفس كنت صادقاً، والتفت إلى القوم أجمعهم فقالوا: لولا مكان هذا العجب لما عجبناك[٥] اليوم مع حداثة عهدنا بك.

وزعم لي العمي وكان كثير المنازعة للقضاة، أنه إذا قارب العشرة الأرطال ثم نازع الخصوم، كان ذلك اليوم الذي يفوت فيه ذرع الخصوم بحجته[٦] بدا.

وقد قال الشاعر[٧]:

وجدت أقل الناس عقلاً إذا انتشى ... اقلهم عقلاً إذا كان صاحيا
تزيد حسي الكأس السفيه سفاهة ... وتترك أخلاق الرجال كما هيا[٨]

وهذا شعر بعض المولدين، والأعاريب لا تخطئ هذا الخطأ، وقد رأينا أسفه الناس صاحياً أحلم الناس سكران، وهو مرداس صاحب زهير، ورأينا أحسن الناس خلقاً وأوزنهم حلماً، حتى إذا صار في رأسه رطل صار أخف حلماً من فراشة، وأكثر نزواً من حرارة رمضة[٩]، فإن المثل بها يضرب.

وكان سبب معرفة أصحابنا مقدار سكر البهائم، ان محمد بن سليمان بن

(١) في الأصل: «اذنه» موضع «ارادته».
(٢) الأصل: «محموم» موضع «مهموم» والأول اليق.
(٣) الهيم: الابل العطاش.
(٤) العقد هنا: بمعنى القوة.
(٥) في الأصل: «ما عساك» المخطوطة: «عتبناك» وأثبت ما في (ش)، (هـ).
(٦) فات ذرعهم: غلبهم وتجاوز مداهم.
(٧) هو أبو نواس، ديوانه ٣٥٨. وأنشدهما في ديوان المعاني ١/٣٢٤.
(٨) الحسي بالضم: جمع حسوة بالضم، وهي المرة من الحسو. وأراد بالرجال هنا: الكاملين في معنى الرجولة. وفي ديوان المعاني: «أخلاق الكريم».
(٩) الرمضة: التي أصابها الرمض، وهو شدة الحر. والنزو: الوثب.

علي لما شرب على علوية كلب المطبخ وعلى الدهمان، وعلى شراب البصريين، وعلى كل من نزع إليه من الأقطار، أحب أن يشرب على الابل من البخاتي والعراب، ثم على الظلف من الجواميس والبقر، ثم على الخيل العتاق والبراذين فلما فرغ من كل عظيم الجثة واسع الجفرة[1] تركه إلى الشاء والظباء والكلب والسنور وابن عرس والجرذ والحشرات، حتى أتاهم حاو[2] فأرغبوه فكان يحتال لافواه الحيات حتى يصب في أجوافها بالاقماع، وبالمساعط[3] ويتخذ لكل شيء شكله، فأبصروا تلك الاختلافات في هذه الأجناس.

وحديث أبو اسحاق ابراهيم النظام[4]، وكان مأمون اللسان قليل الزيغ وكان قد جالسه حينا ـ ولم أزعم انه قليل الزيغ على أن ذلك قد كان يكون منه وان كان قليلاً بل قلت ذلك على مثل قولك: فلان قليل الحياء، ولست تريد هناك حياء البتة، وإنما كان عيبه سوء ظنه، وجودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله، فلو كان بدل تصحيحه القياس التمس[5] تصحيح الأصل الذي قاس عليه خرج أمره على الخلاص[6]، ولكنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه وينسى ان بدء أمره كان ظناً. فإذا اتقن ذلك واطرد له واتسق، جزم عليه، وحكاه، عن صاحبه حكاية المستبصر على صحة معناه، وكان لا يقول سمعت، ولا رأيت. وإذا خرج كلامه مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع انه حكى ذلك عن سماع امتحنه، أو معاينة بهرته.

---

(١) الجفرة بالضم: ما يجمع البطن والجنبين. وفي الأصل: «الحفرة» بالحاء وهو تصحيف ما هنا.

(٢) في الأصل: «حاوي» والوجه حذف الياء.

(٣) جمع مسعط بضم الميم والعين، وهو الاناء الذي يجعل فيه السعوط. وهو أحد ما جاء بالضم مما يعتمل.

(٤) سبقت الاشارة إليه، وهو أستاذ الجاحظ ابراهيم النظام (٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م)، ابراهيم بن سيار ابن هانئ النظام، كان أحد فرسان أهل النظر والكلام على مذهب المعتزلة وله في ذلك تصانيف عدة منها النكت، وكان أيضاً متأدباً وله شعر جمع بخمسين ورقة، وهو دقيق المعاني على طريقة المتكلمين، سير النبلاء (٣٥٩/٣٦٢ ـ ٧) الذهبي ١٦٣/١ الفهرست لابن النديم لسان الميزان ٣/١٥٨ ابن حجر، معجم المؤلفين ص ٣٧.

(٥) في الأصل: «التماس».

(٦) في الأصل: «الذي كان قاس عليه أمره على الخلاص».

حدثني أبو اسحق قال: شهدت أكثر هذه التجربة في اسكار البهائم ثم أصناف السباع، ولقد احتال الأسد مقلم الأظفار ينادي عليه: العجب العجب!! حتى سقاه وعرف مقداره في الاحتيال، فزعم أنه لم يجد في الحيوان جميعاً أملح سكراً من الظباء. ولولا أنه من الترفه لكنت لا يزال يكون عندي الظبي أسكره وأرى طرائف ما يكون منه.

قال: واناث الكلاب السلوقية أسرع تعلماً من الذكورة[1].

وأصناف جميع السباع ذكورها أجرأ وأمضى[2] وأقوى، إلا الفهود[3] والدببة.

والعامة تزعم أن اللبوءة اجرأ من الأسد، وليس ذلك بشيء وهي أنزق وأحد، وأفرق من الهجهجة[4] وأبعد من التصميم وشدة الصولة.

قال صاحب الديك: وفي الديك الشجاعة والصبر عند اللقاء، وهم لا يجدون الصبر تحت السياط والعصا، إلا أن يكون ذلك موصولاً بالصبر على وقع السلاح.

وفي الديك الجولان، وهو ضرب من الزوغان، وجنس من تدبير الحرب، وفيه الثقافة والتسديد[5] وذلك أنه يقدر ايقاع صيصيته[6] بعين الديك، أو في مذبحه فلا يخطؤه[7].

وهم يتعجبون من الجزار، ويضربون به للمثل إذا كان لا يخطئ اللبة[8]، ومن اللحام إذا كان لا يخطئ المفصل، وهذا القول يذمون به

---

(١) الذكورة: جمع ذكر. وهي في (ط): «المذكورة» وصوابها ما هنا.

(٢) (ط): «أمضا» وصوابه ما هنا، (ش).

(٣) (كذا في الأصل، (ش): «الفهدة».

(٤) أي أن خوفها من صياح الناس به أشد من خوفه.

(٥) الثقافة: الحذق. والتسديد: صدق الإصابة.

(٦) سبق الكلام في هذا اللفظ في ص ١٧٢.

(٧) قية النسخ: «ويتقرب إلى المذبح فلا يخطئ».

(٨) اللبة بوزن الحبة: المنحر.

ويمدحون، فالديك في ذلك أعجب وله مع الحذق بهذه الطعنة، وبهذا السلاح الطريف، سرعة الوثبة، والارتفاع في الهواء، وليس ذلك إلا له، وقد سمي قرن الثور صيصية ثم سموا الآطام[1] صياصي، وهي التي كانت بالمدينة للامتناع بها وفي القرآن: **﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم﴾**[2]. ثم شبهوا شوكة الحائك التي بها تهيأ السداة واللحمة[3] بها فسموها صيصية، إذ[4] كانت مشبهة بها في الصورة ولأنها مانعة من فساد الحوك والغزل ولأنها في يده كالسلاح، متى شاء أن يجأ بها انساناً وجأه[5].

قال دريد بن الصمة:[6]

نظرت إليه والرماح تنوشه   كوقع الصياصي في النسيج الممدد

وتسمى ابرة العقرب شوكة، كما تسمى صيصية الديك شوكة، وهي من هذا الوجه مشبهة[7] بشوك النخل.

ويقال لمن ضربته الحمرة: قد ضربته الشوكة، لأن الشوكة إذا ضربت انساناً فما أكثر ما يعتريه من ذلك الحمرة.

وتوصف الحجر[8] وتشبه بالشوكة، لأن الشوكة غليظة المآخر. لطيفة المقادم. والشوك والسلاء سواء.

ومن سمى ابرة العقرب حمة فقد أخطأ. وإنما الحمة سموم ذوات الشعر

---

(١) الاطام: جمع اطم بضم وبضمتين وهو الحصن يبنى من الحجارة.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢٦.

(٣) اللحمة: الثوب تضم وتفتح.

(٤) في الأصل: «إذا» وإنما هي: «إذ» التعليلية.

(٥) وجأه: ضربه وطعنه.

(٦) البيت الآتي من قصيدة اختارها أبو تمام في الحماسة ١/٣٣٦ مطلعها:

نصحت لعارض وأصحاب عارض   ورهط بني السوداء والقوم شهدي

يرثي بها دريد بن الصمة أخاه عبدالله بن الصمة، والبيت المستشهد به قال فيه أبو هلال العسكري ديوان المعاني ٢/٥٨: «أحسن ما قيل في سرعة وقع الرماح وتداركه».

(٧) الأصل: «شبيهه».

(٨) الحجر، بالكسر: أنثى الخيل.

كـالدبـر[١] والزنـابير، وذوات الأنيـاب والأسنان كـالأفاعي وسـائر الحيـات، وكسموم[٢] ذوات الابر من العقارب. وأما البيش[٣] وما أشبهه من السموم، فليس يقال له حمة.

وها هنا أمور لها سموم في خراطيمها، كالذبان والبعوض، وأشياء من الحشرات تعض وربمـا قتلت، والضمج[٤] دون ذلـك، وعقارب طيـارة. ولم نسمعهم[٥] يسمون، جميع السموم بالحمة.

وقد يعرف بعض الناس أنه متى عض قتل، كان منهم صفوان أبو جشم الثقفي، وداود القراد. والناس يسمون الرجل إذا بلغ من حرصه أن لا يدع ذكراً، غلاماً كان أو رجلاً، أو خصياً كان أو فحلاً، إلا نكحه من فرط غلمته، وقوة فحلته يسمونه: صيصية. ويقولون: ما فلان إلا صيصية، وهو عندهم اسم لمن اشتد لواطه، تشبيهاً منهم له بصيصية الديك في الحدة والصلابة.

وللديك انتصاب[٦] إذا قام، ومباينته صورة في العين لصورة الدجاجة، وليس هذا الفرق الواضح من الاناث والذكورة موجوداً إلا فيه، وليس ذلك للحمام والحمامة، ولا للحمار والحمارة، ولا للخيل ولا للجمال، وليس ذلك إلا لهذه الفحولة لأنها كالرجل والمرأة، والديـك والدجـاجة، وكـالنخلة الفحال والنخلة المطعمة[٧] ـ ألا ترى أنك لو رأيت ناقة مقبلة لم تدر أناقة هي أم جمل،

---

(١) الدبر، بالفتح: جماعة النحل.

(٢) (ط): «وسموا» وصوابه ما هنا، (ش).

(٣) البيش، بالكسر: نبات سام يكثر في تخوم الهند والصين، وفي الأصل: «فإنما البيش».

(٤) الضمج، بالفتح: دويبة منتنـة تلسع، وهي مـا تسمى في مصر باسم «البق» وفي الأصـل: «الصحيح» وصوابه ما هنا، (ش).

(٥) في الأصل: «ولم نرهم» موضع «ولم نسمعهم».

(٦) في الأصل: «انتصابه» موضع «انتصاب».

(٧) اطعمت الشجرة: دنا إثمارها، أو اثمرت، ويقال أطعمت الشجرة ـ بوزن افتعلت ـ إذا أدركت ثمرتها أي أخذت طعماً وطابت. فكلمة «مطعمة» يصح أن تقرأ بإسكان الطاء أو تشديدها. ولكل وجه. وأما الفحال ـ كرمان ـ فهو الذكر من النخل. وفي الأصل كما هنا بتكرار «النخلة» (هـ): «وكالفحال والنخلة المطعمة». وانظر الحيوان (٢/٢٣٨، ٣/١٣٧، ٥/٢٠٩ هـ).

حتى تنظر إلى موضع القبل[1] والضرع، وإلى موضع الحيا.

ثم للديك لحية ظاهرة، وليست تكون اللحى إلا للجمل، فإنه يوصف بالعثنون، وللتيس وللرجل.

ثم الديك صاحب اللحية والفرق[2]، قالت امرأة في ولدها وزوجها[3]:

وهـبـتـه مـن سـلفـع أفـوك ومـن هـبـل قـد عـسا حـنـيـك

أشهب ذي رأس كرأس الديك.

تريد أن شعر جسده أبيض من الكبر، وجعلت شعر رأسه كرأس الديك لأنه كان مخضوب الرأس واللحية بالحمرة، ثم لم ترض له بشبه الرجال من هذا الوجه حتى جعلت رأسه أفرق، وذلك شيء من الجمال والوقار والفضل، لا يتهيأ للناس مع كمالهم وتمامهم إلا بالتكلف له والاحتيال فيه.

ثم يبلغ من شدة تعجله ومن قوته على السفاد، وعلى الباب الذي يفخر به الإنسان إذا كان ذا حظ فيه وهو مما يذكي النفس ـ كنحو ما ذكر عن التيس المراطي، وكنحو ما تراهم يبركون للبختي الفالج عدة قلاص[4]، فإذا ضرب الأولى فخافوا عليها أن يحطمها وهو في ذلك قد رمى بمائه مراراً افلته الرجال على التي تليه في القرب، حتى يأتي على الثلاث والأربع على ذلك المثال.

وليس يدعوهم إلى تحويله عن الثالثة إلى الرابعة إلا خوفهم عليها من العجز منه.

والناس يحكون عن عدد ما يكون من العصفور في الساعة الواحدة من العدد الكثير، وزعم أبو عبدالله الأبرص العمى، أن التيس المراطي قرع في يوم من أول أيام هيجه نيفا وثمانين قرعة.

---

(١) في الأصل: «القيل» موضع «القبل» وسيأتي حديث عنها بعد.
(٢) الفرق: انفراق العرف.
(٣) سبق هذا الرجز.
(٤) البختي: الواحد من الإبل البختية، وهي الخراسانية، والفالج: الضخم ذو السنامين. والقلاص: جمع قلوص وهي الناقة الشابة.

والديك يكون له وحده الدجاج الكثير، فيوسعها قمطاً وسفاداً.

وقد قلنا في إحالته[١] البيض الكثير الترابي وقلبه اياه بسفاده إلى الحيوانية. وعلى [أن][٢] الذي تخصيه إنما يخرج له من بين الزمكي[٣] وموضع القطاة[٤] بيضتين عظيمتين معروفتين.

قال ورأيت ديكاً هندياً تسنم دجاجة هندية ـ وزلق عن ظهرها على مدرة[٥]، وكانت الدار مثارة[٦] لتجعل بستاناً فإذا تلك المجة كالبزقة البيضاء فأخذها بعض من كان معنا فشمها حين رأى بياضها وخثورتها وكثرتها، ليعلم هل تناسب ريحها نطفة الإنسان، وريح طلع الفحال فلم يجد ذلك.

هذا ثم معرفة الديك بالليل وعدد ساعاته، وارتفاق بني آدم بمعرفته وصوته: يعرف آناء الليل ومقادير الأوقات، ثم يقسط أصواته على ذلك تقسيطاً موزوناً لا يغادر منه شيئاً. ثم قد علمنا أن الليل إذا كان خمس عشرة ساعة أنه يقسط أصواته المعروفة بالعدد عليها، كما يقسطها والليل تسع ساعات، ثم يصنع فيما بين ذلك من القسمة واعطاء الحصص على حساب ذلك. فليعلم الحكماء أنه فوق الأسطرلاب[٧]، وفوق [مقادير][٨] الجزر والمد على منازل القمر. حتى كأن طبعه فلك على حدة. فجمع المعرفة العجيبة والرعاية.

---

(١) في الأصل: «وقد قلنا في حالة البيض». وهو ما يسميه الجاحظ ببيض الريح.
(٢) ليس بالأصل.
(٣) الزمكي، بكسر الزاي والميم وتشديد الكاف مقصوراً: أصل ذنب الطائر، أو منبته وفي الأصل: «الزمكا».
(٤) القطاة: ما بين الوركين، أو العجز.
(٥) المدر: قطع الطين اليابس، وأحدثه مدرة. وفي (ط): «عن مذرة» وفي (ش): «عن مدرة». والمخطوطة: «عن صدرة» وكلها تحريف ما أثبت هنا كما في (هـ).
(٦) أرض مثارة: محروثة.
(٧) الأسطرلاب أو الاصطرلاب: مقياس النجوم، وهو باليونانية «اصطرلابون»، وأصطر: هو النجم ولابون هو المرآة، وقد ورد حديث عن هذا اللفظ في مفاتيح العلوم ص ١٣٤. وانظر في القاموس مادة لوب). وانظر جـ ٢/٢٤٣ من (هـ).
(٨) سقطت هذه الكلمة من بقية النسخ بينما وردت برسم «مقدار» في نهاية الارب (٢٢٠/١٠) النويري.

وربّ معرفة تكون نبيلة، وأخرى لا تكون في طريق النبالة، وان كانت المعارف كلها مفصلة متقدرة، إلا أنها في منازل ومراتب، وليس في الأرض معرفة بدقيق ولا جليل [الا][1] وهي في نفسها شريفة كريمة.

والمعرفة كلها تبصر، والجهل كله عمى، والعمى كله شين ونقص، والاستبانة كلها خير وفضل. ثم له بعد ذلك ارتفاق الناس بهذا المعنى[2] منه.

ومن ذلك بعد صوته، وانه يدل على أن موضعه مأهول مأنوس، ولذلك قالوا: لا يكون البنيان قرية حتى يصقع فيها ديك.

وليس في الأرض طائر أملح من فروج وليس ذلك الاسم إلا لولد الديك، وإلا فكل شيء يخرج من البيض فإنما هو فرخ[3] والفروج حين تنصدع عنه البيضة، يخرج كاسباً عارفاً بمواضع لقط الحب وسد الخلة، وهو أصيد للذباب من السوداني[4] ويدرج مع أولاده بلا فصل.

ومع ما أعطي من محبة النساء، ورحمة الرجال، وحسن الرأي من جميع أهل الدار، ثم اتباعه لمن دعاه، وإلفه لمن قربه، ثم ملاحة صوته وحسن قده، والذي فيه مما يصح له الفروج ويتصرف فيه[5].

كان جعفر بن سعيد، يزعم أن الديك أجمل[6] من الطاوس، وانه مع جماله وانتصابه واعتداله وتقلعه[7] إذا مشى، سليم من مقابح الطاوس [ومن

---

(١) فقط بالمختصر.

(٢) في الأصل: «بهذا». يقال ارتفق بالأمر: انتفع به.

(٣) في الأصل: «فروج» وهو تحريف، والصواب ما هنا.

(٤) السوداني، والسودانية: الزرزور، أو طائر من فصيلة الزرازير، انظر الحيوان ٢/٢٤٣ هـ، حياة الحيوان ٢/٤٥).

(٥) في الأصل، (هـ): «ويتفرج فيه» موضع «ويتصرف فيه»، وما ثبت هنا هو الصواب.

(٦) في الأصل: «أحمد» موضع «أجمل».

(٧) تقلع في مشيته: مشى كأنه ينحدر، وفي صفة النبي ﷺ «انه كان إذا مشى تقلع» حديث. وفي الأصل «تعلقه» ولا وجه له. ومثل هذه اللفظة في ثمار القلوب ٣٧٣ نقلها الثعالبي عن الجاحظ.

موقه وقبح صورته][1]، ومن تشاؤم أهل الدار به، ومن قبح رجليه، ونذالة مرآته[2] وزعم أنه لو ملك طاوساً لألبس رجليه خفا.

قال: وإنما يفخر له بالتلاوين، والتعاريج[3] والتهاويل التي لألوان ريشه. وربما رأيت الديك النبطي وفيه شبيه بذلك. إلا أن الديك أجمل من التدرج[4]، لمكان الاعتدال والانتصاب والإشراف، وأسلم من العيوب من الطاوس.

وكان يقول: ولو كان الطاوس أحسن من الديك النبطي في تلاوين ريشه [فقط][5] لكان فضل الديك عليه بفضل القد والخرط، وبفضل الانتصاب وجودة الاشراف [أكثر][6] من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك، ولكان السليم من العيوب في العين أجمل[7] لاعتراض تلك الخصال القبيحة على حسن الطاوس في عين الناظر إليه. وأول منازل الحمد السلامة من الذم[8]. وكان يزعم أن قولهم: ان فلاناً أحسن من الطاوس، وما فلان إلا طاوس[9]، وأن قول الشاعر:

«خدودها مثل طواويس الذهب[10]

---

(١) سقطت الجملة من الأصل ووردت في ثمار القلوب ٣٧٣ بالنص السابق. والموق، بالضم: الحمق.

(٢) المرآة: بالفتح: المنظر.

(٣) التعاريج: الخطوط الملتوية. وفي ثمار القلوب: «التفاريج».

(٤) الدراج، والتدرج: ضرب من الدراج وهو طائر شبيه بالحمام، حسن الصوت مبارك، كثير النتاج يبشر بالربيع.

(٥) سقط من بقية النسخ وثابت في الثمار نقلا عن الجاحظ، وجملة «في تلاوين» هي في الأصل و«تلاوين» وصوابها ما هنا.

(٦) سقط من بقية النسخ.

(٧) في الأصل: «ولكان السليم من العيوب في العين، والعين فيه أعمل». وما في الثمار نص ما هنا.

(٨)) في الأصل: «الذنب» والوجه ما هنا.

(٩) في الأصل: «إلا طاوساً»، وصوابه ما هنا، إذ ان من شروط عمل ما الحجازية ألا ينتقض نفيها بإلاً.

(١٠) روي الشعر أيضاً: «جلودها مثل طواويس الذهب» عن أبي العميثل للراجز.

ما ذم ابلي عجم ولا عرب   جلودها مثل طواويس الذهب

وأنهم لما سموا جيش ابن الأشعث[1] جيش الطواويس لكثرة من كان يذهب[2] فيه من الفتيان المنعوتين بالجمال، وإنما قالوا ذلك[3] لأن العامة لا تبصر الجمال.

ولفرس رائع كريم أحسن من طاوس في الأرض، وكذلك الرجل والمرأة.

وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط، وعلى أنهم ذهبوا إلى ألوان ريشه، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه وتنصبه كحسن[4] البازي وانتصابه، ولم يذهبوا إلى الأعضاء والجوارح، وإلى الشيات[5] والهيئة، وإلى الرأس والوجه الذي فيه.

وكان جعفر يقول: لما لم يكن في الطاوس إلا حسنه في ألوانه، ولم يكن له من المحاسن ما يزاحم ذلك ويجاذبه وينازعه ويشغل عنه ـ ذكر وتبين وظهر.

وخصال الديك كثيرة، وهي متكافئة في الجمال والفضل. فلم يذكر بشيء دون شيء.

وجمال الديك لا يلهج بذكره إلا البصراء بمقادير الجمال والقبح، والتوسط في ذلك، والاختلاط والقصد، وما يكون[6] فيه ممزوجاً وخالصاً. وحسن الطاوس حسن لا تعرف العوام غيره، فلذلك لهجت بذكره.

ومن الدجاج الخلاسي[7] والهندي، والدجاج الزنجي[8]، ومنها

---

(١) هو عبد الرحمن بن الأشعث الخارج على الحجاج، انظر ثمار القلوب ٣٨٠.
(٢) في الأصل: «من كان يجتمع».
(٣) ليس بالأصل، وفي الثمار: «قال ذلك»، «وإنما» في الأصل: «وأما».
(٤) في الأصل: «لحسن» وصوابه ما هنا، موافقاً لما في الثمار.
(٥) الشيات: جمع شية، وهو اللون المخالف، وفي الأصل: «الثياب» وفي المختصر كذلك: «الثياب» وأثبت ما في (هـ). وفي القرآن ﴿لا شية فيها﴾ (سورة البقرة، الآية ٧١)
(٦) ليست بالأصل.
(٧) الخلاسي، بالكسر: ما تولد بين الهندي والنبطي من الدجاج، كتاب البغال ص ٢٩٨.
(٨) (ش): «الزنجري».

الكسكري[١]، ومن الديكة ما يخصى فلا يبلغه في الطيب والسمن شيء وان اشتد لحمه.

وإذا كان غير خصي فقد يمدح ذلك عنه من وجه هو ارد عليه في باب الفخر[٢]، من رخاوة اللحم واستطابة الأكل له، وعلى أنه لو أدناه من بعض سباع الطير، أو عدا خلفه إنسان، وكأنه يريد أخذه حتى إذا فسخه البهر ارتد في موضعه لا يبرحه، ثم ذبحه على المكان، لجمع به الخصال كلها.

ولو علق في عنقه حجر ليلته بعد أن ذبحه، أو أولج بطنه شيئاً من حلتيت[٣] لجمع به الخصال فإنه أعمل فيه من البورق[٤] وقشور البطيخ في اللحم المفصل[٥].

وهو بعد غيور يحمي دجاجه[٦].

ولحم الدجاج فوق جميع اللحمان في الطيب والبياض والحسن. والملوك تقدمه على لحوم الفراخ والنواهض[٧]، والبط، والدراج، وهم للدراج آكل منهم للجداء الرضع، وللعنق الحمر[٨] من أولاد الصفايا.

والدجاج أكثر اللحوم تصرفاً، لأنها تطيب شواء، وحاراً وبارداً. ثم

---

(١) قال الثعالبي في الثمار ص ٤٢٦: «كسكر احدى كور السواد من ريف دجلة والفرات، ودجاجها موصوف بالجودة والسمن، ومذكور في أطايب الأطعمة، وربما بلغت الواحدة منها وزن الجدي والحمل»، وهي في الأصل: «الكسركري» تحريف ما هنا، ويقول ياقوت:
«كورة واسعة ينسب إليها الفراريج الكسكرية لأنها تكثر بها جداً، رأيتها أنا تباع فيها أربعة وعشرون فروجاً كباراً بدرهم واحد».

(٢) أرد: أنفع. وفي الأصل: «رد عليه من باب الفخر ومن رخاوة اللحم».

(٣) قال داود: «وهو صمغ الانجدان» انظر الحيوان جـ ٢: ٢٤٨.

(٤) في الأصل: «فإنه من أعمل فيه البورق»، والبورق: النطرون، أو النطرون ضرب من ضروب البورق.

(٥) المفصل: المقطع. وفي الأصل: «المفضل» وهو تصحيف.

(٦) (ط): «دجاجته»، وما هنا وافق ما في (ش).

(٧) النواهض: جمع ناهض، وهو فرخ الطائر الذي وفر جناحه وتهيأ للطيران.

(٨) العنق: جمع عناق بالفتح. وهي الأنثى من أولاد الماعز، انظر الحيوان (١/٢٣٣).

تطيب في البزماورد[١] والهرائس[٢]، وتطيب طبيخاً، وفصوصاً، وان قطعتها مع اللحم طيبت[٣] اللحم، ومرق ذلك اللحم وسمينها يقدم في السكباجة[٤] على البط، إلا أنها تطعم المفصود[٥] وليس ذلك للبط.

قال: والديكة دجاج إذا ذكرت في جملة الجنس، وهذا الباب مما تغلب فيه الاناث على الذكورة، وقيل: لا، ولكن الديك نفسه دجاجة، إلا أنهم إذا أرادوا ابانته بأنه ذكر قالوا: ديك كما يسمون الذكر والأنثى [من الخيل][٦] الفرس بلا هاء، فإذا أرادوا أن يثبتوا الأنثى قالوا: حجر، وهي وانت كانت حجراً فإنها فرس.

وقد بين ذلك القرشي[٧] في قوله:

اطـردوا الـديـك عن ذؤابـة زيـد   طـالما كـان لا تـطأه الـدجـاج[٨]

---

(١) في القاموس: الزماورد، بالضم: طعام من البيض واللحم، معرب، والعامة يقولون بزماورد، وفي التاج: «وقوله بزماورد وهو الرقاق الملفوف باللحم. قال شيخنا: وفي كتب الأدب هو طعام يقال له لقمة القاضي. ولقمة الخليفة، ويسمى بخراسان نواله، ويسمى نرجس المائدة وميسر ومهنا».

(٢) الهرائس: جمع هريسة، وهي طعام يتخذ من الحنطة واللحم، وأجوده المتخذ من الحنطة النقية المقشورة ولحم الدجاج، وصنعتها أن يغلى اللحم حتى تنزع رغوته ثم يرمى معه كنصفه من الحنطة، أو أقل، والماء مثلاهما، وتغلى مكشوفة حتى يذوب ما في اللحم من الدهن فينزع، ويقوم الملح، وتفوه بنحو الدار صيني والقرنفل وتسد بالعجين إلى نحو عشر ساعات ثم ترفع وتضرب وتسقى دهنها المأخوذ أولاً «تذكرة داود» (١/٣٤٣). وهي في (ط): «الهرائيس» وما هنا وافق ما في (ش). وانظر المحاضرات (١/١٩٣).

(٣) في الأصل: «دسم ذلك اللحم».

(٤) يقال للسكباج: الخلية والمخللة والصفصافة. ويبدو أنه اللحم يعالج بالخل والتوابل ويضاف إليه أحياناً الزعفران. انظر المحاضرات (١/١٩٢) والحيوان (٢/٢٥٠).

(٥) أي يصح للمفصود أن يأكل منها بخلاف البط، فإنه كما قال داود في تذكرته (١/٨١) «يولد دماً كثيراً» وفي الأصل: «المقصود» وصوابه ما هنا. وفي البخلاء ٢/١١ «سكباج: لحم طبخ بخل».

(٦) سقط من الأصل.

(٧) هو قرشي وشيعي. انظر الكامل ٧١٠ ليبسك.

(٨) كذا في الكامل، (هـ): «كان ما كان لا تطأه الدجاج».

وذلك انه كان رأى رأس زيد بن علي[١] عليه السلام في دار يوسف بن عمر[٢]، فجاء ديك حتى وطئ شعره ونقر في لحمه ليأكله.

قالوا: وقد أخطأ من زعم أن الديكة إنما تتجاوب، بل إنما ذلك منها شيء يتوافق في وقت، وليس كتجاوب نباح الكلاب[٣]، لأن الكلب لا وقت له، وإنما هو ساكت صامت ما لم يحس بشيء يفزع منه، فإذا أحس به نبح، وإذا سمع نباحه كلب آخر أجابه ثم أجاب ذلك آخر، ثم أجابها الأول، وتبين أنه المجاوب حتى تتجاوب جميع تلك الكلاب، والديك ليس من أجل أنه أنكر شيئاً أو سمع صوتاً صقع[٤]، وإنما يصقع[٥] لشيء في طبعه، إذا قابل ذلك الوقت من الليل هيجه. فعدد أصواته في الوقت الذي يظن أنه تتجاوب فيه الديكة، كعدد أصواته وليس في القرية ديك غيره، وكذلك هو في المواقيت. والعلة التي لها يصقع في وقت بعينه شائعة في ذلك الوقت. وليس كذلك الكلاب! قد تنبح الكلاب في الخريبة[٦] وكلاب في بني سعد غير نابحة، وليس

---

(١) في الأصل: «زيد بن عمر» وهو خطأ صوابه ما في (هـ)، والكامل، ومعجم البلدان (كناسة)، وهو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو الحسن، الهاشمي له ترجمة في تاريخ دمشق لابن عساكر (١٥/٦) تاريخ ابن الأثير (٩٠/٥) بولاق. شرح نهج البلاغة (٣١٥/١) مروج الذهب (١٨/٣)، روى عن أخيه محمد بن علي وأبان بن عثمان، وروى عنه جعفر الصادق والزهري وشعبة وغيرهم، وفد على هشام بن عبد الملك فرأى منه جفوة فكانت سبب خروجه وطلبه الخلافة، وسار إلى الكوفة فقام إليه منها شيعة فظفر به يوسف بن عمر الثقفي فقتله وصلبه وأحرقه سنة ١٢٣ هـ، وله أربع وأربعون سنة ولم يزل مصلوباً إلى سنة ست وعشرين ثم أنزل بعد أربع سنوات وعده ابن سعد في الطبقة الثالثة. فوات الوفيات (٣٣٣/٢).

(٢) هو يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي ولي اليمن لهشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ ثم نقله هشام إلى ولاية العراق سنة ١٢١، فاستخلف ابنه الصلت على اليمن وقصد العراق فقتل خالداً القسري، وأقام بالكوفة إلى أيام يزيد بن الوليد، فعزله سنة ١٢٦ وقبض عليه، وحبسه في دمشق إلى أن قتله يزيد بن خالد القسري بثأر أبيه سنة ١٢٧، الوفيات (٣٦٠/٢ ـ ٣٦٥).

(٣) في الأصل: «يتجاوب نباح»، (هـ): «بتجاوب كنباح».

(٤) في الأصل: «صفع» وإنما هو «صقع» بالقاف بمعنى صاح.

(٥) في الأصل: «يصفع» وإنما هو يصقع «بالقاف».

(٦) الخريبة: موضع بالبصرة.

يجوز أن تكون ديكة المهالبة تصقع[١]، وديكة المسامعة ساكتة[٢].

فإن أراد مريد بقوله أن الديكة تتجاوب، على مثل قول العرب: هذه الجبال تتناظر، إذا كان بعضها قبالة بعض، وإذا كان الجبل من صاحبه بالمكان الذي لو كان إنسان رآه ـ جاز ذلك.

وتقول العرب: إذا كنت بمكان كذا كذا، حيث ينظر إليك الجبل فخذ عن يسارك أو عن يمينك.

قال الراجز:

وكـما يـرى شيـخ الجبـال ثبـيرا[٣]

وشيخ الجبال عنده أبو قبيس[٤]

قال صاحب الكلب: لولا أنا وجدنا الحمار المضروب به المثل في الجهل، يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديك، لقد كان ذلك قولاً غير مردود. ولو أن متفقداً يتفقد ذلك من الحمار لوجده منظوماً يتبع بعضه بعضاً على عدد معلوم، ولوجد ذلك مقسوماً على الساعات، ولكان القائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس على تجاوب، وإنما ذلك شيء يتوافق معاً، لاستواء العلة، ولم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الاصطرلاب فضيلة ليست للحمار.

وعلى أن الحمار أبعد صوتاً، ولقد بلغ من شدة صوته أن حلف أحمد بن عبد العزيز: إن الحمار لا ينام! فقيل له: ولم قلت ذلك؟ قال: لأني وجدت صياحه ليس بصياح شيء انتبه تلك الساعة، ولا هو صياح من يريد أن ينام بعد انقضاء صياحه!

---

(١) في الأصل: «تصفع».

(٢) المسامعة: محلة بالبصرة تنسب إلى بني مسمع بن شهاب بن عمرو. معجم البلدان ولعل «المهالبة» محلة تجاور سابقتها تنسب إلى بني المهلب بن أبي صفرة.

(٣) في الأصل: «وكما ترى»، (هـ): «وكما يرى».

(٤) أبو قبيس جبل بمكة أورده الجاحظ في البخلاء جـ٢ ص ٤٤ في معرض حديثه عن يحيى بن خالد البرمكي عندما قال لـه المكي ويحيى بن خالـد قد نقب في أبي قبيس، وزاد في داره: «عمدت إلى شيخ الجبال فزعزعته وثلمت فيه». أي لم ترعَ حرمة هذا الجبل.

هذا الحمار هو الذي ضرب الله تعالى به المثل في الصوت وفي الجهل، فقال: **﴿كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾**(١). فلو كان شيء من الحيوان أجهل بما في بطون الأسفار من الحمار لضرب الله به المثل دونه.

وعلى أن فيه من الخصال ما ليس في الديك، وذلك أن العرب وضعته من الأمثال التي هي له في عشرة أماكن، فقال رسول الله ﷺ: «كل الصيد في جوف الفرا»(٢)، وكفاك به مثلاً إذا كان لرسول الله ﷺ في تفضيل هداية أبي سفيان.

وقالت العرب: «أنكحُ من الفرأ». والفرأ مهموز وجمعه فراء(٣).

وتقول العرب: «العير أوقى لدمه»(٤). وقولهم: «من ينك العير ينك نياكاً»(٥). وقالوا: «الجحش إذا فاتتك الأعيار(٦).

---

(١) سورة الجمعة، الآية ٥ ـ مدنية.

(٢) الفرا: بالفتح: يقصر ويهمز ويمد، هو الحمار الوحشي. والحديث مثل تمثل به رسول الله (ص) وانظر الأصل في الميداني (٢/ ٧٤). والسبب في هذا الحديث أن أبا سفيان استأذن النبي فحجبه ثم أذن له فقال له: «ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجلهتين» ـ وكان قد أدخل غيره من الناس قبله ـ فقال: «يا أبا سفيان أنت كما قال القائل: «كل الصيد في جوف الفرا» أراد أن يقول له انه في الناس كحمار الوحش في الصيد، كلها دونه، يتألفه بذلك على الاسلام. وقال أبو العباس المبرد: معناه إذا حجبك قنع كل محجوب ورضي، لأن كل صيد أقل من الحمار الوحشي، فكل صيد لصغره يدخل في جوف الحمار، وذلك انه حجبه وأذن لغيره. اللسان (فرأ)، وانظر كامل المبرد ١٨١ ليبسك، والدميري (فرأ) والمخطوطة: «بطن» وأثبت ما في الميداني.

(٣) في الأصل: «مجموعة فراء» والصواب ما هنا.

(٤) يضرب للموصوف بالحذر، وذلك انه ليس شيء من الصيد يحذر حذر العير إذا طلب. وفي الأصل كما كان بالمخطوطة: «أوفى» بالفاء. والوجه ما أثبت هنا من أمثال الميداني (١/ ٤٢٠) وانظر نهاية الارب (١٠/ ٩٥).

(٥) يضرب مثلاً لمن يغالب الغلاب. وأصل المثل في الميداني (٢/ ٢٣٢).

(٦) الجحش نصب بفعل مضمر، أي أطلب الجحش، وهو ولد الحمار قبل أن يفطم، والمثل يضرب لمن يطلب الأمر الكبير فيفوته، فيقال له أطلب ما دون ذلك. اللسان (جحش) والميداني: (١/ ١٤٩ ـ ١٥٠) ونهاية الارب (١/ ١٣٩).

وقالوا: «أصبر من عير أبي سيارة»[1]، لأنه كان دفع بأهل الموسم على ذلك العير[2] أربعين عاماً.

وقالوا: «إن ذهب عير فعير في الرباط»[3]. وقالوا في المديح لصاحب الرأي: «جحيش وحده»، «وعيير وحده»[4]، وقالوا: «العير يضرط والمكواة في النار»[5]، فهم وان قالوا ذلك، قالوا: «حمار يحمل اسفاراً»[6]، و«أضل من حمار أهله»، و «أخزى الله الحمار مالاً لا يزكى ولا يذكى»[7]، و «قد حيل بين العير والنزوان»[8].

فالذي مدح به أكثر، فقد وجدنا الحمار أبعد صوتاً، ووجدناه يعرف من أوقات الليل ويميز عدداً معلوماً إلى الصبح، وعلى أن له في الأسحار فضله.

والحمار أجهل الخلق، فليس ينبغي للديك أن يقضى له بالمعرفة والحمار قد

---

(١) سبقت ترجمته ص ٢٣٤.

(٢) في الأصل: «ذلك الحمار» موضع: «ذلك العير».

(٣) الرباط: حبالة الصائد، يقال للصائد: ان ذهب عير فلم يعلق في الحبالة فاقتصر على ما علق. يضرب في الرضا بالحاضر وترك الغائب. الميداني (١/٢٣) ونهاية الارب (١٠/٩٦).

(٤) يضربان لمن يعتزل الناس ويستبد برأيه ـ اللسان (جحش) والميداني (١/٤٢١).

(٥) يضرب للرجل يخاف الأمر فيجزع قبل وقوعه فيه. وأصل المثل في الميداني (٢/٣٧) بلفظ «قد يضرط العير والمكواة في النار».

(٦) مثل قرآني: والأسفار: جمع سفر وهو الكتاب. وأصله قوله تعالى ﴿**مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً**﴾ الآية ٥ سورة الجمعة، يعني اليهود في تركهم استعمال التوراة وما فيها. والحمار يحمل الكتب وهو لا يعرف ما فيها ولا يعيها. يضرب مثلاً للذي يحوز الشيء الجليل ولا يستطيع الانتفاع به أو لمن يعلم ولا يعمل بعلمه، والآية يكثر الاستشهاد بها في كتب البلاغة كتشبيه تمثيلي.

(٧) لا يزكى: لا تجب فيه الزكاة، فإن الحمير والبغال والحملان والفصلان والعجاجيل لا تجب فيها الزكاة. (الحيوان ٢/٥٧). ولا يذكى: من التذكية، وهي الذبح، فإن الحمار مما لا يحل أكله في أصح الأقوال. وهذا المثل في الدميري (١/٣٧٣) بلفظ «شر المال ما لا يذكى ولا يزكي» قال الدميري: «أشاروا بذلك إلى الحمار».

(٨) قالوا: أول من قال ذلك صخر بن عمرو أخو الخنساء، وقد كان طعن في غزوة فمرض حولا، فملته زوجه وبرمت به، وأظهرت غدراً حتى لقد هم بقتلها، وطلب السيف ليقطعها فإذا يده لا تقله، فقال في ذلك منوهاً ببر أمه. (الميداني ٢/٣٨).

ساواه في يسير[1] علمه، ثم باينه أن في الحمار حسن الهداية. وللديك إن سقط على حائط جاره لم يحسن أن يهتدي إلى داره، وان خرج من باب الدار ضل، وضلاله من أسفل كضلاله من فوق.

قال صاحب الديك: قال عبيد الله بن عبدالله بن عتبة[2]: «صرخ ديك عند النبي ﷺ فسبه بعض أصحابه، فقال: لا تسبه فإنه يدعو إلى الصلاة».

وروي عن النبي ﷺ قال: «إن مما خلق الله لديكاً عرفه تحت العرش وبراثنه في الأرض السفلى، وجناحاه في الهواء[3]، فإذا ذهب ثلثا الليل وبقي ثلثه ضرب بجناحيه، ثم قال: سبحوا الملك القدوس، سبوح قدوس - ربي لا شريك له. فعند ذلك تضرب الطير بأجنحتها وتصيح الديكة». وأوفى آخر بمعناه «فالديكة أكيس منا»[4].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إن الديك الأبيض صديقي وصديق صديقي، وعدو عدو الله، يحرس دار صاحبه وسبع دور». وكان رسول الله ﷺ يبيته معه في البيت.

وكانت أصحاب رسول الله ﷺ يسافرون بالديكة.

وزعم أهل[5] التجربة أنهم ما يرون الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق[6]، أنه لا يزال ينكب في أهله وماله.

---

(١) في (ط): «سيد» وصوابه ما هنا، (ش).

(٢) هو أحد وجوه الفقهاء الذين روي عنهم الفقه والحديث، وأحد الفقهاء السبعة من أهل المدينة، وكان ضريراً، روى عن جماعة من وجوه الصحابة، وكان ابن عباس يقدمه ويؤثره ويعزه، وقال عمر بن عبد العزيز: لو كان عبيد الله بن عتبة حيا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لي بيوم من أيام عبيد الله غرما، قال ذلك في خلافته، وكان مع ذلك شاعراً رقيقاً مجيداً محسناً متمسكاً. (الحماسة ٢/١١٨).

(٣) في الأصل: «الهوى».

(٤) ليست بالأصل. كذا.

(٥) في الأصل: «أصحاب التجربة».

(٦) الافرق: المفروق العرف.

وفي المحاجاة يقال: كيف تعرف الديك من الدجاجة حين يخرج من البيضة؟ قالوا: يعلق بمنقاره فإن تحرك فهو ديك وان لم يتحرك فهو دجاجة.

وقال الشاعر[1] في حسن الدجاجة ونبل الديك:

غدوت بشربة من ذات عرقٍ ... أبا الدهناء من حلب العصير[2]

وأخرى بالعقنقل ثم رحنا ... نرى العصفور أعظم من بعير

كأن الديك ديك بني نمير ... أمير المؤمنين على السرير[3]

كأن دجاجهم في الدار رقطا ... وجوه الروم في قمص الحرير[4]

فبت أرى الكواكب دانيات ... ينلن أنامل الرجل القصير[5]

أدافعهن بالكفين عني ... وأمسح جانب القمر المنير[6]

وقال صاحب الكلب: الأشياء التي تألف الناس ولا تريد سواهم كالعصفور والخطاف والكلب والسنور. والديك مما يتخذه الناس، وليس مما يحن اليهم فيقطع البلاد نزاعاً، فيكون كالقواطع من الطير التي تريدهم كالخطاف، ولا هو من الأوابد كالعصفور الذي حيثما دار رجع اليهم، ولا هو كالكلب الذي لا يعرف سواهم، ولا هو كالأهلي من السنانير التي إذا ألفتهم لم تفارقهم، وتعس بالليل، وتطوف في القبائل من دار إلى دار ثم لا يكون مرجعها إلا إليهم والديك في خلاف ذلك كله، ثم لا يألف منزله ولا يعرف ربعه، ولا يحن إلى دجاجه، ولا تتوق نفسه إلى طروقته[7]، ولا يشتاق إلى ولد، ولا يألف الذين غذوه وربوه، بل لم يدر قط أن له ولداً، ولو كان درى لكان

---

(١) الشعر في ديوان المعاني (١/٢٣٠)، (٢/١٣٦) ونثار الأزهار ٩٧، ونهاية الأرب (١٠/٢٢٧)، وحماسة ابن الشجري (٢٧٨) والعقد (٦/٣٤٧ لجنة التأليف).

(٢) ذات عرق: هو الحد الفاصل بين نجد وتهامة، والحلب: الشراب.

(٣) السرير هنا: عرش الخلافة، أو هو الملك والأمارة.

(٤) الرقط: جمع رقطاء، وهي ذات اللون الأسود يشوبه نقط بيض أو العكس. ورواية النهاية والنثار «وفود الروم»، (هـ)، الأصل: «بنات الروم».

(٥) أنظر الصاحبي ١٧٣.

(٦) الرواية في ديوان المعاني: «وأمسح عارض القمر المنير».

(٧) طروقته: أنثاه.

على درايته دليل، فإذ قد وجدناه لبيضه وفراريجه المخلوقة منه ومن نجله، كما نجده لما لم يلده ولما أيضاً ليس من شكله ولا يرجع إلى نسبه، فكيف لا نقضي عليه بالنقص، إذ كانت الأمور لا تعرف إلا بهذا وشبهه!!

وهو لا يعرف أهل داره، ولا يثبت وجه صاحبه الذي لم يخلق إلا عنده، وفي ظله وتحت جناحه ولم يزل في رزقه وعياله. والحمام ترجع إليه من مائتي فرسخ، ويصطاد فيتحول عن وطنه عشر حجج، ثم هو على ثبات عهده وقوة عقده، وعلى حفاظه وإلفه، [ووفائه][1] والنزاع إلى وطنه. فمتى[2] وجد فرجة ووافق جناحه وافياً وافاه وصار إليه، وإن كان جناحه مقصوصاً جدف[3] إلى أهله، وتكلف المضي إلى سكنه، فإما بلغ وإما أعذر[4].

والخطاف يقطع إليهم من حيث لا يبلغه خبر ولا يطؤه صاحب سفر، على أنا لا نراه يتخذ وكره إذا صار إليهم إلا في أحصن موضع، ولا [يحمله][5] الإنس بهم على ترك التحرز منهم، والحزم في ملابستهم، ولا يحمله الخوف منهم على منع نفسه لذة السكون إليهم، ولا يبخس الارتفاق بهم لحظة.

والعصافير لا تقيم في دار إلا وهي مسكونة، فإن هجرها الناس لم تقم فيها العصافير.

والسنور يعرف ربة المنزل، [ويألف رب المنزل][6]، ويألف فراخ الحمام ويعابث فراريج الدار.

وإن سرق وربط شهراً عاد عند انحلال رباطه. والهرة تعرف وجه ولدها وإن صار مثلها، وإن أطعمت شيئاً حملته إليه وأثرته به. وربما ألقي إليها الشيء

---

(١) سقطت من بقية النسخ.
(٢) كذا في (ش)، والأصل، (هـ): «فان».
(٣) جدف الطائر: طار وهو مقصوص كأنه يرد جناحيه إلى خلفه. ومجدافاه: جناحاه. وفي الأصل: «حذف» وهو تصحيف.
(٤) أي كان له عذر في عدم استطاعته الوصول.
(٥) زدتها من بقية النسخ ليستقيم الكلام.
(٦) سقطت من بقية النسخ.

اليسير فتدنو لتأكله، ويقبل ولدها فتمسك عنه، وتعرضه له[1]، وربما طرح لها الشيء وولدها غائب عنها - ولها ضروب من النغم، وأشكال من الصياح - [الأشكال من المعاني][2]، فتصيح ضرباً من الصياح يعرف أهل الدار أنه صياح الدعاء لا غير ذلك.

[كما تستخير الطينة الخسف][3]. ويقال: «أبر من هرة»[4].

ومتى أرادت ما يريد صاحب الغائط أتت موضعاً في تراب في زاوية من زوايا الدار، فتبحث حتى إذا جعلت له مكاناً كهيئة الحفرة دفنته[5] فيها ثم غطته من ذلك التراب، ثم تشممت أعلى ذلك التراب وما ظهر منه، فإن وجدت شيئاً من الرائحة زادت عليها تراباً، فلا تزال كذلك حتى تعلم أنها قد أخفت المرئي والمشموم جميعاً. فإن هي لم تجد تراباً خمشت وجه الأرض، أو ظهر السطح حتى تبلغ في الحفر المبلغ، ومن ستر ذلك المجهود[6].

وزعم قوم من الأطباء أن السنور يعرف وحده ريح رجعه، فإنما يستره لمكان شم الفأر له، فإنها تفر من[7] تلك الرائحة. ويغطيه لما يكون فيه خلق من أخلاق الأسد[8]، وما يشاكل فيه الأسد في الخلق، على قدر ما يشاكله في الخلق.

والديك لا تراه إلا سالحاً، ثم لا يتوقى ثوب رب الدار ولا فراشه ولا

---

(١) في الأصل: «وترضه له».

(٢) سقطت من الأصل، وعلى هامش اللوحة ٢/١٤٦ كتب ابن منظور: «تستخير من الخوار».

(٣) زيادة في ابن منظور، خلت منها جميع النسخ، كما كتب ابن منظور تعليقاً في الهامش هذا نصه «تستخير من الخوار». اللوحة ٢/١٤٦ وهذا الجزء وما قبله سقط من جميع النسخ.

(٤) قال الدميري: «أرادوا بذلك أنها تأكل أولادها من شدة الحب لهم»، والدميري تبع في هذا القول ما في أمثال الميداني (١/٤٥١) في كلامه على «أعق من ضب» ومثله لابن قتيبة في عيون الأخبار (٢/٧٢). وأورد هنا تعليق الأستاذ هارون: «ليس ذلك أرادوا، وإنما عنوا ما بها من خلة الإيثار لولدها على نفسها» الحيوان (٢/٢٦٣ في الهامش).

(٥) في الأصل: «جعلته» موضع «دفنته».

(٦) أي وحتى تبلغ غاية جهدها في ستر ذلك.

(٧) في الأصل: «إلى»، والوجه ما هنا، والفأر: جمع فأرة، والضمير في «تفر» راجع إليها.

(٨) في الأصل: «وتغطيه لما يكون من خلق من أخلاق الأسد».

بساطه. هذا، وحياته التراب، ولذا[1] يدفن نفسه فيه، ويدخله في أصول ريشه.

ثم لا ترى سلاحاً أنتن من سلاحه[2] لا يشبه ذرق الحمام، وصوم النعام، وجعر الكلب. ثم هو مع ذلك لا تراه إلا سائلاً رقيقاً. ولو كان مدحرجاً كأبعار الشاة والإبل والظباء، ومتعلقاً[3] يابساً كجعر[4] الكلب والأسد، ثم لو كان على مقدار نتنه لكان أهون في الجملة له.

قال صاحب الكلب: ومن مرافق الكلب أن الخناقين[5] يظاهر بعضهم بعضاً، فلا يكونون في البلدان إلا معاً، ولا يسافرون إلا معاً، فربما استولوا على درب بأسره، أو على طريق بأسره ويكون خلف دورهم: إما صحارى وإما بساتين، وفي كل دار كلاب [عدة][6] مربوطة، ودفوف وطبول، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم، فإذا خنق أهل الدار منهم إنساناً، ضرب النساء بالدفوف، وضرب بعضهم الكلاب فسمع المعلم فصاح بالصبيان: انبحوا: وجاوبهم أهل كل دار بالدفوف والصنوج، والطبول كما يفعل نساء أهل القرى، وهيجوا الكلاب.

فلو كان المخنوق حماراً ينهق لما شعر بمكانه أحد، كما كان ذلك بالرقة[7].

وكيف أخذوا أهل درب بأسره!! وذلك أن بعضهم رغب في ثويب كان

---

(١) في الأصل: «ولم».

(٢) في الأصل: «منه»، والسلاح بالضم: النجو.

(٣) كذا بالأصل، (ش): «ومتعلقا».

(٤) أثبت الصواب كذا في (ش)، (هـ)، صواب «كبعر» بالمخطوطة والأصل.

(٥) الخناقون هم من المنصورية أصحاب أبي منصور الكسف الذي كان قال لصاحبه: «في نزل قول الله تعالى: ﴿**وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً**﴾ سورة الطور، الآية ٤٤ والمنصورية من الروافض، أنظر خبرهم في عيون الأخبار (١٤٧/٢) وتأويل مختلف الحديث (٨٦) والعقد (٣٥٠/١) وانظر المقارنة بينهم وبين اليهود في العقد (٣٥٢/١) وتعليل لجوئهم إلى هذا الضرب من القتل في الفصل (١٨٥/٤).

(٦) سقطت من الأصل.

(٧) موضع بالشام.

على حمال، وفيه دريهمات معه فألقى الوهق[1] في عنقه فغشي عليه ولم يجب، وتحرك فأتى المتوضأ وتحرك الحمال والساجور[2] في عنقه، فرجعت نفس الحمال إليه، فقصد نحو الباب، وخرج وزياره[3] في عنقه، وتلقته جماعته[4] فأخبرهم الخبر وتصايح الناس فأخذوا عن آخرهم.

وقد كان بالكوفة وغيرها من البلدان شبيه بذلك، وقد ذكر حماد الراوية[5]، جماعة من المرميين بالخنق من القبائل، وسمى بعضهم فقال:

إذا سرت في عجل فسر في صحابة   وكندة فاحذرها حذارك للخسف
وفي شيعة الأعمى زيار[6] وغيلة   وقشب وإعمال لجندلة القذف[7]
وكلهم شر على أن رأسهم   حميدة والميلاء حاضنة الكسف[8]

---

(١) الوهق: حبل مفتول يرمى فيه أنشوطة فتؤخذ به الدابة. والأنشوطة: عقدة تمد بأحد طرفيها فتنحل.

(٢) الساجور: أصله القلادة أوالخشبة توضع في عنق الكلب.

(٣) الزيار: في الأصل، شناق يشد به البيطار جحفلة الدابة وكذا في (ش) وفي (ط): «وزيادة» وهو تحريف.

(٤) في (ط): «جماعة» وما هنا وافق ما في (ش).

(٥) هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، أول من لقب بالراوية، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها، وأصله من الديلم، ومولده في الكوفة، له مكانة عند بني أمية، وهو الذي جمع السبع الطوال، ولما زال أمر بني أمية أهمله العباسيون، فكان مطروحاً مجفواً في أيامهم. أخباره كثيرة (٩٥ ـ ١٥٥ هـ) الاعلام ٢/٣٠١، نزهة الالباء ٤٣، وفيات الأعيان ١/١٨٤، تهذيب ابن عساكر ٤/٤٢٧، لسان الميزان ٢/٣٥٢.

(٦) في الأصل وكذا في عيون الأخبار (٢/١٤٧): «زياد» وصوابه ما أثبت.

(٧) القشب: خلط السم بالطعام، ويقال قشبه: سقاه سماً، والجندلة: واحدة الجندل. وهو الحجارة. وفي الأصل: «وأعمال محذلة القذف» وفي الحيوان (٦/١٢٩) حيث يكرر هذا الشعر: «وأعمال لخندلة القذف» وتصحيحه من عيون الأخبار. وكان من هؤلاء المنصورية من يشدخ رؤوس الناس بالحجارة وهم (الشداخون) كما سماهم ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (٨٧).

(٨) في الحيوان (٦/٣٩٠) (هـ): «وأما حميدة فكانت من أصحاب ليلى الناعظية، ولها رياسة في الغالية». (هـ): «وقد عد الجاحظ «ليلى» هذه في البخلاء ص (٣١) والحيوان (٢/٢٢٦). والكسف هو أبو منصور صاحب المنصورية وكانت الميلاء حاضنته. وفي الأصل: «والميلا وصاحبة الكسف» وهو تحريف صوابه ما هنا والحيوان (٦/٣٨٩) وعيون الأخبار.

متى كنت في حي بجيلة[١]. فاستمع ... فإن لهم قصفاً يدل على حتف[٢]
إذا اعتزموا يوماً على خنق زائر ... تداعوا عليه بالنباح وبالعزف[٣]

وأما ذكره لبني عجل فلمكان ذي الضفرتين وغيره من بني عجل، وأما ذكره لكندة، فقد أنشد سفيان[٤] بن عيينة أبا عبيدة النحوي:

إذا ما سرك العيش فلا تأخذ على كندة[٥]

ومن كندة أبو قطيفة[٦] أخذ بالكوفة وقتل وصلب.

وكان بالكوفة ممن يأكل لحوم الناس عدية المدنية الصفراء[٧] وبالبصرة رادويه صاحب قصاب رادويه.

وأما الأعمى الذي ذكره فهو المغيرة بن سعيد صاحب المغيرية، وهم صنف ممن يعمل في الخنق بطريق المنصورية[٨].

والمغيرة هذا من موالي بجيلة، وهو الخارج عل خالد القسري، وعند

---

(١) (ط): «حيي بجيلية» (ش): «حي بجيلة» وكلاهما تحريف ما هنا موافقاً لما في الحيوان (٣٨٩/٦) وعيون الأخبار. قال ابن قتيبة: «كان المغيرة بجلياً، مولى لهم».
(٢) أي صوتاً مدوياً يدل على هلاك، وكانوا يدقون الدفوف والطبول ويحدثون ضروباً من الجلبة، ليستروا أمرهم.
(٣) (ش): «بالعرف» وصوابه ما أثبت كما في (ط)، والحيوان، وعيون الأخبار.
(٤) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولى امرأة من بني هلال بن عامر رهط ميمونة زوج النبي (ص) واختلف في ولائه لمن، وأصله من الكوفة، وقيل ولد بالكوفة ونقله أبوه إلى مكة، كان إماماً عالماً ثبتا زاهداً وربما مجمعاً على صحة حديثه وروايته، وحج سبعين حجة، روى عن الزهري وأبي إسحق السبيعي وعمرو بن دينار وآخرين، وروى عن الإمام الشافعي وشعبة بن الحجاج، ومحمد بن إسحق وغيرهم، ولد سنة ١٠٧ هـ في شهر شعبان وتوفي في جمادى الآخرة سنة ١٩٨ هـ بمكة ودفن بالحجون. وفيات الأعيان (١٢٩/٢ - ١٣٠).
(٥) كذا في الأصل وعيون الأخبار. وفي الحيوان (٣٨٩/٦): «فلا تمرر».
(٦) في الحيوان جـ ٦: «أبو قطنة»، وفي عيون الأخبار: «أبو قطبة» وفي البخلاء (٩٥) من يدعى «أبو قطبة» وفي الحيوان (٢٦٧/٢): «أبو قصبة».
(٧) في الأصل: «الصغرى» وما هنا وافق ما في الحيوان (٢٦٧/٢) هـ.
(٨) قد أخذه خالد بن عبدالله فقتله وصلبه بواسط. عيون الأخبار (١٤٨/٢).

ذلك[1] قال خالد: أطعموني ماء! فقال يحيى بن نوفل[2]:

وقلت لما أصابك أطعموني شراباً ثم بلت على السرير
لأعلاج ثمانية وشيخ كبير السن ذي بصر ضرير[3]

وأما حميدة فقد كانت لها رئاسة في الغالية، وهي ممن استجاب لليلى الناعظية[4] وهي من السبائية[5]، والميلاء[6] صاحبة[7] أبي منصور صاحب المنصورية وهو الكسف.

قالت الغالية: إياه عنى الله عز وجل بقوله: **﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم﴾**[8].

وقد ذكره أبو السري معدان الأعمى الشميطي[9] في قصيدته التي صنف

---

(١) وعند ذلك: أي عند خروجه عليه. والعبارة صحيحة مثلها في الحيوان (٦/ ٣٩٠): «ومن أجل خروجه عليه قال: أطعموني ماء».

(٢) في الأصل: «بحر بن نوفل» وإنما هو كما ثبت هنا «يحيى» كما في الجزء السادس من الحيوان والبيان في مواضع متعددة، وقد قال يحيى في خالد ـ غير الشعر الآتي ـ البيان (١/ ١١٢).

بل السراويل من خوف ومن وهل واستطعم الماء لما جد في الهرب
وألحن الناس كل الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق في الخطب

ومن العجيب في أمر خالد هذا أنه كان بليغاً من الأبيناء، وهو كذلك ممن رماهم الناس باللحن وكثرة الخطأ. (البيان ٢/ ٢٢٠).

(٣) الشعر يروى بروايات مختلفة عند الجاحظ في البيان (٢/ ١٩٣)، (٣/ ١٢٢) والحيوان (٦/ ١٣٠) ويروى قبل البيت الثاني:

وكنت لدى المغيرة عير سوء تصول من المخافة للزئير

والمغيرة هو الأعمى صاحب المغيرية، وإياه عنى بقوله: «وشيخ كبير السن ذي بصر ضرير».

(٤) في البخلاء (٣١): «الباعطية».

(٥) (ط): «الشبابية» (ش): «السبابة» والصواب ما هنا. يقال سبائية وسبئية كما في اللسان نسبة إلى عبدالله بن سبأ، وهم فرقة من الغلاة. قال حسان بن ثابت:

كأنَّ سبئية من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

انظر اللسان ١/ ٩٣ مادة (سبأ).

(٦) في الأصل: «والميلى» وهو تحريف.

(٧) كذا في الأصل (هـ): «حاضنة أبي منصور».

(٨) سورة الطور، الآية ٤٤ ـ مكية.

(٩) في الأصل: «السميطي» وصوابه ما بالمخطوطة.

فيها الرافضة ثم الغالية، وقدم الشميطية على جميع أصناف الشيعة[(١)]، فقال:

إن ذا الكسف صد آل كميل ... وكميل رذل من الأرذال[(٢)]
تركا بالعراق[(٣)] داء دويا ... ضل فيه تلطف المحتال
منهم جاهل العسيب إماما ... وفريق يرض زند الشمال
وفريق يقول إنَّا براء ... من علي وجندب وبلال[(٤)]
وبراء من الذي سلم الأمـ ... ـر على قدرة بغير قتال[(٥)]
وفريق يدين بالنص[(٦)] حتما ... وفريق يدين بالاهمال

لأن الكميلية لا تجيز الوكالة في الإمامة، وتقول لا بد من إمام صامت أو ناطق، ولا بد من علم يمد الناس إليه أعناقهم. وأبو منصور يقول بخلاف ذلك.

وقوله:

وفي شيعة الأعمى زياد[(٧)] وغيلة ... وقشب وإعمال لجندلة القذف[(٨)]

---

(١) الشميطية: فرقة من الشيعة الإمامية الرافضة، نسبت إلى أحمر بن شميط. وكان صاحب المختار، وقد قتلهما معاً مصعب بن الزبير. انظر (الفرق ٣٦، ٣٩) (ومفاتيح العلوم ٢٢) (وكامل المبرد ٦٤٣ ليبسك)، (والملل والنحل ٢/٣). وروى الجاحظ في البيان (١/٢٣) ثلاثة أبيات أخرى من هذه القصيدة، وفي (٣/٧٥) بيتين آخرين، وفي (٣/٣٥٦) ستة أخر.

(٢) في الأصل: «زول من الأزوال» وصوابه ما هنا كما في (هـ)، والحيوان (٦/٣٩١) حيث أعيد هذا الشعر. والرذل: الدون الخسيس.

(٣) في الأصل: «بالعراء». وصوابه ما هنا كما في الجزء السادس من الحيوان (هـ).

(٤) جندب هذا هو ابن زهير بن الحارث. كان مع علي بصفين، وكان على الرجالة يومئذٍ، وكان هو والاشتر أقوى رجلين من أصحاب علي في يوم (الجمل). انظر الإصابة ١٢١٤.

(٥) قالوا: إن علياً كفر إذ سلم الأمر إلى أبي بكر ثم عمر ثم عثمان. (الفصل ٤/١٨٣).

(٦) النص: أي النص على الإمام، بأن ينص كل إمام على الإمام الذي يخلفه انظر الفرق ص ٤٥. وفي الأصل: «بالنصر» وهو تحريف. وانظر الكلام على (النص) في الملل والنحل (١/٢٢٣).

(٧) في الأصل: «زياد»، وقد سبق الحديث عن هذا البيت ص ٤٩٣.

(٨) في الأصل: «مجزلة القذف».

فقد قال معدان:

حـبشي وكـافـر سـبـيـاني حـربي ونـاسـخ قـتـال[1]
تلك تيميـة وهـاتيـك صمت[2] ثـم ديـن المـغـيرة المـغـتـال
خـنـق مـرة وشـم بـخـار ثم رضـخ بـالجنـدل المتـوالي[3]

لأن من الخناقين من يكون جامعاً، وبذلك يسمونه إذا جمع الخنق والتشميم، وحمل معه في سفره حجرين مستديرين مدملكين ململمين فإذا خلا برجل من أهل الرفقة استدبره فرمى بأحدهما قمحدوته[4]، وكذلك إن كان ساجداً. فإن دمغه الأول سلبه، وإن هو رفع رأسه طبق بالآخر وجهه، وكذلك إن ألقاه نائماً أو غافلاً.

ولقد صحب منهم [ناس][5] رجلاً خرج من الري، وفي حقوه هميان[6]، فكان لا يفارق معظم الناس، فلما قرب من مفرق الطريقين، ورأوا احتراسه، وهم نزول في صحراء أو على ماء أو بعض سطوح الخانات، والناس متشاغلون بأمورهم، فلم يشعر صاحب الهميان[6] نهاراً والناس حوله إلا والوهق[7] في عنقه، وطرحه حين ألقاه في عنقه، ووثب إليه وجلس على صدره، ومد الآخر برجليه وألقى عليه ثوباً وأذن في أذنه فقام إليهم بعض الرفقة كالمعين وكالمتفجع، فقالوا له: مكانك، فإنه رآك خجل واستحى. فأمسك القوم عنهم وارتحل القوم عنهم، واعجلوا بصاحبهم، فلما خلوا به أخذوا ما أحبوا، وتركوا ما أحبوا، ثم حملوه على أنهم أولى به حتى إذا برزوا رموا به في بعض الأودية.

---

(١) كذا. وفي البيت إقواء «وهو تغير حركة حرف الروي»، و«حبشي» لعلها: «الخشبي» والخشبية: فرقة من المنصورية يقتلون بالخشب. الفصل (٤/١٨٥) ومفاتيح العلوم ص ٢١.
(٢) كذا.
(٣) يحصي هنا طرقهم في القتل من خنق، وتشميم، ورمي بالحجارة. وقد يجمع أحدهم كل هذا، كما سبق وتحدث عنه الجاحظ.
(٤) القمحدوة: الهنة الناشزة فوق القفا وأعلى القذال خلف الأذنين، وإصابة هذا الموضع قاتلة.
(٥) زدتها من بقية النسخ ليستقيم ما كتبه ابن منظور.
(٦) الهميان: وعاء للدراهم يشد إلى الوسط. والحقو: الوسط.

وقد ذكر أعشى همدان السبائية[1] وشأنهم في كرسي المختار[2] بن أبي عبيد فقال:

شهدت عليكم أنكم سبئية[3] وأني بكم يا شرطة الكفر عارف
وأقسم ما كرسيكم بسكينة وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وإن لبس التابوت فتنا وإن سمت حمام حواليه وفيكم زخارف[4]
وإني امرؤ أحببت آل محمد وآثرت وحيا ضمنته المصاحف
واحسب عقباها لآل محمد فينصر مظلوم ويأمن خائف
ويجمع ربي أمة قد تشتتت[5] وهاجت حروب بينهم وحسائف

وما أكثر من خنق نفسه بيده، اما لخوف المثلة، واما لخوف التعذيب أو الهوان وطول الأسر.

---

(١) في الأصل: «السبيلية» وصوابه ما هنا كما في (ش)، والسبئية: فرقة من غلاة الرافضة. قال صاحب الفرق بين الفرق ص ٣٤: ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة فقالوا له: أنت حجة هذا الزمان! وحملوه على دعوة النبوة فادعاها عند خواصه، وزعم أن الوحي ينزل عليه وسجع. .» وقال (ص ٣٥): «واجتمعت السبئية إليه مع عبيد أهل الكوفة».

(٢) المختار هذا هو ابن أبي عبيد الثقفي وكان أبوه من خيار الصحابة، استشهد يوم الجسر في خلافة عمر (لسان الميزان ٦/٦). وكان يقال للمختار «كيسان» وإليه تنسب فرقة «الكيسانية» من الرافضة أو هو أخذ المقالة من كيسان مولى علي وقد قام بثأر الحسين بن علي وقتل أكثر الذين قتلوا حسيناً بكربلاء. انظر أخباره وآراءه في الفرق بين الفرق ص ٢٦ ـ ٢٧، والملل والنحل ١٩٧/١، والطبري ١٤١/٧، قتل المختار سنة ٦٧.

(٣) في الأصل: «سبلية»، تحريف.

(٤) فتنا جمع فتان بالكسر: وأصل معناه غشاء يجعل للرجل من أدم، والقصة أن المختار لما وجه إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيدالله بن زياد، دفع إلى قوم من خاصته حماماً بيضاً ضخاماً، وقال لهم: إن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها في المعركة. فلما التقت الفئتان وكادت الدائرة ان تكون على معسكر ابن الأشتر، أرسلت الحمام البيض فتصايح الناس: الملائكة! فتراجعوا فأسرع القتل في أصحاب عبيدالله، ثم انكشفوا ووضعوا السيف فيهم ثم أفنوهم. ثمار القلوب ٧١، الملل والنحل ١٩٩/١. وورد البيت محرفاً في الأصل والمخطوطة هكذا:

وإن لبس كالتابوت فينا وإن سعت شبام حواليه وفيهم زخارف

وأثبت كما ورد في (هـ).

(٥) (ط): «تشتت»: وصوابه ما هنا. (س).

وقد كان الحكم بن الطفيل[١]، أخو عامر بن الطفيل، وأصحابهم خنقوا أنفسهم في بعض الأيام[٢]، فعيروا بذلك تعييراً شديداً.

قال عروة بن الورد في يوم ساحوق[٣]، ويذكر خنق الحكم بن الطفيل وأصحابه أنفسهم:

عجبت لهم إذ يخنقون نفوسهم ... وقتلهم عند الوغى كان أعذرا[٤]
يشد الحليم منهم عقد حبله[٥] ... الا إنما يأتي الذي كان حذرا[٦]

وكان لأبي زبيد[٧] كلب، يساور الأسد ويمنعه من الفساد، وكان اسمه أكدر. قال حين حطمه[٨] الأسد:

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) هو يوم ساحوق كما في الكامل لابن الأثير (١/٣٩٤). وانظر العقد الفريد (٣/٣١٨).

(٣) هو يوم لبني ذبيان على بني عامر، وانظر الكامل لابن الأثير (١/٣٩٤) سقوهم وأشبعوهم طعناً بالرماح.

(٤) أي كانوا ذوي عذر بين، لو أنهم جاهدوا في الحرب وقتلوا، أما الآن فليس لهم عذر بين الرجال في خنقهم أنفسهم. ورواية العقد (٣/٣١٨): «كان أجدرا».

(٥) في الأصل: «لشد الحليم منهم عقد حلة»، وهو تصحيف ما هنا وما في ديوان عروة بن الورد وهو من بني عبس، وكان يلقب بعروة الصعاليك لقوله:
لحى الله صعلوكاً إذا جن ليله ... معافى المشاس آلفاً كل مجزر
انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/٦٧٥، الأغاني ٢/١٨٤ - ١٩٠ الخزانة ٤/١٩٤ - ١٩٦.
والشعر السابق أيضاً في الخزانة (٤/٢١٨ بولاق). وإنما يشد عقد الحبل ليتعجل خنق نفسه.

(٦) أي إنما يأتي الذي كان حذر منه وهو الموت. وفي الأصل: «ألا يأتي الأمر الذي كان أعذرا»، والمخطوطة في الهامش: «حرك يأتي بالرفع على الأصل لضرورة الوزن» والشعر الثاني ورد «إلا إنما يأتي الذي كان أجدرا».

(٧) في الأصل: «أبو زبد» وإنما هو «أبو زبيد» كما في الأغاني (١١/٢٤) ومعجم الأدباء (١٠/٢٠٠) وهو أبو زبيد الطائي واسمه حرملة بن المنذر وهو شاعر معمر عاش خمسين ومائة سنة أدرك الإسلام ولم يسلم، ومات نصرانياً وكان عثمان بن عفان يقربه ويدني مجلسه. ومن عجيب أمر كلبه (أكدر) أنه كان قد أعد له سلاحاً يلبسه إياه فيتمنع على الأسد ولا يقوم له. وفي الليلة التي قتل الأسد فيها الكلب، كان الكلب قد خرج ولم يلبس سلاحه، فتمكن منه الأسد. انظر المراجع السابقة.

(٨) (ش): حطه»، وصوابه في (ط) وهنا.

أعتـامهـا أعتـامـه شثـن بـراثنـه من الضواري اللواتي تقصم القصرا[1]

قال صاحب الكلب: قال أعرابي وأكل ذئب شاة له تسمى وردة، وكنيتها أم الورد[2]:

أودى بـوردة أم الـورد ذو عـسـل من الـذئـاب إذا مـا راح أو بكـرا[3]
لـولا ابـنهـا وسـليـلات لهـا غـرر ما انفكت العين تـذري دمعها دررا[4]
كـأنمـا الـذئب إذ يعـدو عـلى غنمي في الصبح طالب وتـر كان فـاتـأرا[5]

قال: في هذا الشعر دليل أن الذئب إنما يعدو عليها مع الصبح عند فتور الكلب عن النباح، لأنه بات ليلته كلها دائباً يقظان يحرس، فلما جاء الصبح جاء وقت نوم الكلب وما يعتريه من النعاس ثم لم يدع[6] الله على الذئب بأن يأكله الأسد حتى يختاره ويعتامه، إلا والأسد يأكل الذئاب ويختار ذلك. وإنما استطاب لحم[7] الذئب بفضل شهوته للحم الكلب.

قال صاحب الديك: لم نر شريفاً قط أجاز شاعراً بكلب، ولا حبا به زائراً، ورأيناهم يجيزون الشعراء بالدجاج. وأعظم ذلك أن لقيم الدجاج[8] لما قال في افتتاح خيبر، وهو يعني النبي ﷺ :

---

(١) اعتامه: اختاره. ومنه قول طرفة في معلقته:
أرى المـوت يعتـام الكـرام ويصـطفي عـقـيـلة مـال الفـاحش المـتشـدد
والشثن البراثن: غليظها، وعنى به السبع. وتقصم القصر: تقطع الرقاب، وهي جمع قصرة بالتحريك.

(٢) كان يسمى هذه الشاة وردة ويجعل كنيتها أم الورد. وفي الأصل: «وردة» والوجه ما هنا كما في الشعر.

(٣) يقال عسل الذئب يعسل ـ كيضرب ـ عسلاً وعسلاناً: إذا اضطرب في عدوه وهز رأسه.

(٤) أراد بالدرر الدموع الغزيرة، وهي جمع درة بالكسر.

(٥) أثأر: أدرك وتره.

(٦) (ط): «يدعوا» (ش): «يدعو» والوجه ما هنا.

(٧) في الأصل: «لهم».

(٨) في السيرة ٦٥٦، ٧٦٧، «ابن لقيم» وقد نقل الحافظ ابن حجر في الإصابة ٧٥٥٤ كلام الجاحظ في «لقيم» وقال في تعليل الخلاف بين السيرة والحيوان: «فيحتمل أن يكون وافق اسم أبيه»، يريد أن يكون اسمه «لقيم بن لقيم».

رميت نطاة[1] من النبي بفيلق   شهباء ذات مناكب وفقار[2]

وهب له دجاج خيبر عن آخرها، ولتلك الدجاج قيل: لقيم الدجاج.

كان أياس بن معاوية وهو صغير، ضعيفاً دقيقاً دميماً[3]، وكان له أخ شديد الحركة وأقوى منه، فكان معاوية يقدمه على أياس، فقال له أياس يوماً: إنك تقدم أخي علي، وسأضرب لك مثلي ومثله: هو مثل الفروج حين تنفلق عن البيضة، يخرج كاسياً نفسه، يلتقط. ويستخفه الناس، فكلما كبر انتقص، حتى إذا تم وصار دجاجة، لم يصلح إلا للذبح، وأنا مثل فرخ الحمام حين تنفلق عنه البيضة، تنفلق عن شيء ساقط لا يقدر على الحركة. فأبواه يغذوانه حتى يقوى ويثبت ريشه[4] ثم يحسن بعد ذلك ويطير ويتخذه الناس في بيوتهم ويكرمونه. فقال أبوه: لقد أحسنت المثل!! فقدمه على أخيه فرأى عنده أكثر مما كان يظن به.

وأياس هو الذي قال: لست بخب[5] والخب لا يخدعني، وهو يخدع أبي ويخدع الحسن.

---

(١) (ط): «قطاة» وفي الإصابة «مطاة» وصوابهما ما أثبت من المخطوطة، (ش)، السيرة وهي اسم لأرض خيبر، أو عين من عيون قرية من قرى خيبر، كما في المعجم.

(٢) وصف الفيلق ـ وهو مذكر ـ بشهباء لما ضمنه من معنى الكتيبة. والشهباء: العظيمة الكثيرة السلاح. وبعد هذا البيت أبيات سبعة في السيرة.

(٣) (ش): «ذميما» وفي (ط) كما في المخطوطة: «دميما».

(٤) في الأصل: «وينبت» وما هنا وافق ما في الثمار.

(٥) الخب، بالكسر: الذي يخدع الناس. والخبر في البيان (١/١٠١).

«باب ما يحتاج إلى معرفته»

يقال: هو فرج المرأة والجمع فروج، وهو القبل، والفرج كناية، والاسم: الحر، وجمعه أحراح، والواحد: حرح. هكذا كان أصله، وقد يستعار ذلك وهو قليل: قال الشاعر(١):

تراها الضبع أعظمهن رأسا جراهمة لها حرة وثيل(٢)

[الجراهمة من الضباع: العظيمة الرأس](٣). فلم يرض الاستعارة حتى الحق فيها الهاء:

وهو الكعثب، وهو الأجم(٤). قال الراجز:

[جارية أعظمها أجمها](٥) بائنة الرجل فما تضمها

وهو الشكر بفتح الشين واسكان الكاف وأنشدوا:

---

(١) هو ساعدة بن جؤبة، كما في اللسان (جرهم).

(٢) عنى بالجراهمة الضخمة الثقيلة. والتنبيه الآتي بعد يوضح هذا المعنى، وقوله: «لها حرة وثيل» عنى به ما يزعمون من أن كل ضبع خنثى. اللسان، الحيوان (٢/ ٢٨٠).

(٣) شرح وتوضيح لابن منظور. كتبه على هامش اللوحة ٢/١٥٠.

(٤) (ط): «الأخثم» وفي سائر النسخ: «الأحم»، صوابه بالجيم كما في اللسان (جمم) والمخصص (٢/ ٤٠) والأجم: قبل المرأة.

(٥) في (ش):

جارية أعظمها أجمها قد سمنتها بالسويق أمها
بائنة الرجل فما تضمها

وفي الأصل: «احمها» موضع «أجمها» والوجه ما هنا.

وكنت كليلة الشيباء هبت   بمنع الشكر أتأمها القبيل[1]

[أتامها][2]: أفضاها. وأما قوله:

قد أقبلت عمرة من عراقها   ملصقة السرج بخاق باقها

فهو وإن أراد الحر فليس ذلك من أسمائه، ولكنه سماه بذلك على المزاح. والظبية اسم الفرج من الحافر، والجمع ظبيات، وقد استعاره أبو الأخزر فجعله للخف[3] وهو من الظلف والخف الحيا، والجمع: أحيية، وهو من السبع: الثفر، وقد استعاره الأخطل فقال:

جزى الله[4] عنا الأعورين ملامة   وعبدة[5] ثفر الثورة المتضاجم[6]

فلم يرض أن استعاره من السبع للبقرة حتى جعل البقرة ثورة. واستعاره النابغة الجعدي للحافر، كما استعاره الأخطل للظلف.

فقال:

بريذنة[7] بل البراذين ثفرها   وقد شربت من آخر الليل أيلا

---

(١) البيت لعروة بن الورد، كما في اللسان (شيب وتأم). يقال: باتت بليلة شيباء: إذا افترعت ليلة زفافها، ويقال: باتت بليلة حرة: إذا لم تفترع في تلك الليلة. وفي الأصل: «الشهباء»، وهو تحريف صوابه في اللسان (شيب وتأم). وانظر أمثال الميداني (١/٩٠)، وثمار القلوب ٥١١. وفي اللسان: «همت» موضع «هبت».

(٢) هذا اللفظ هنا وفي (ش)، وكتبه (هـ) نقلاً عن (ش) انظر الحيوان ٢/٢٨١ (س ٨).

(٣) (ط): «الأحرز» (ش) «الأحزر» وصوابه ما هنا. وهو أبو الأخزر الحماني أحد رجاز العرب واسمه (قتيبة) كما في اللسان مادة (قمجر).

(٤) كذا. ورواية الديوان ٢٧٧ والكامل ١٥٩ ليبسك والثعالبي في فقه اللغة ٧٦: «فيها».

(٥) في الكامل: «عبدة» وفي فقه اللغة واللسان ـ مادة ضجم ـ «فروة» قال ابن منظور: «وفروة» اسم رجل. (هـ) «عبلة».

(٦) المتضاجم: المعوج الفم، كما في اللسان. وقال أبو الحسن في شرح الكامل: «المتضاجم: المتسع». وفي الأصل: «المتضاخم» وصوابه ما هنا كما في المراجع التقدمة.

(٧) «بريذنة» مصغر «برذونة» تصغير ترخيم. ويروى «بريذينة» كما في اللسان. وفي (ش): «بل البراذن» والايل: جمع آيل، وهو اللبن الخاثر. ورواية اللسان والمخصص ١٦ ـ ١٩: «وقد شربت من آخر الصيف أيلا». والبيت يقوله النابغة الجعدي في هجاء ليلى الأخيلية وقبله:

ألا يا ازجرا ليلى وقولا لها هلا   وقد ركبت امرأ أغر محجلا

وقد قالوا: برذونة. واستعاره الآخر للنعجة. فقال:

وما عمرو إلا نعجة ساجسية[1] تحرك تحت الكبش والثفر وارم

والساجسية[2]: ضأن في تغلب.

واستعاره آخر للمرأة فقال:

نحن بنو عمرة في انتساب بنت سويد أكرم الضباب[3]
جلدتنا من ثفرها المنجاب[4]

ويقال لجردان الحمار غرمول. وقد يقال ذلك للإنسان وقضيب البعير، وهو لكل شيء، ومقلم الجمل فقط. ومن السباع العقدة[5]، وأصله للكلب والذئب.

ويقال: صرفت الكلبة صرافاً وصروفاً، وظلعت تظلع ظلوعاً.

وفي المثل: «لا أفعل حتى ينام ظالع الكلاب» أي الصارف.

ولم يعرف الأصمعي ظلعت الكلبة في معنى صرفت. ويقال: استحرمت وأجعلت[6] واستجعلت واستطارت[7]. والذئبة في ذلك كالكلبة.

---

(١) في الأصل: «شاخسية»، والصواب ما هنا. انظر اللسان (سجس وثفر) والمخصص (٢١/٨). والبيت في اللسان (ثفر) برواية «تخزل تحت الكبش والثفر وارد».

(٢) في الأصل: «الشاخسية» وصوابه: «الساجسية» وانظر التنبيه السابق.

(٣) الضباب، بالكسر: أربعة بطون من بني كلاب: ضب، وضبيب، وحسل، وحسيل. العمدة (١٥٧/٢) والمعارف ٣٩.

(٤) جلدتنا: قبيلتنا، المنجاب: المنجب. ورواية اللسان (مادة ثفر): «جاءت بنا من ثفر المنجاب».

(٥) (ط): «العقرة» وهو تحريف ما هنا، (ش). وفي القاموس عند تفسير «العقدة»: ومن الكلب قضيبه.

(٦) (ط): «جعلت» وهي على الصواب هنا، (ش).

(٧) يقال: «استطارت» كما يقال «استظأرت»: وفي اللسان (طير): «ويقال أجعلت الكلبة، واستطارت، إذا أرادت الفحل»، وفي مادة (ظأر): «قال أبو منصور: قرأت في بعض الكتب استظأرت الكلبة بالظاء أي أجعلت واستحزمت».

ويقال في السباع: وضعت وولدت، ورمصت[1] مثل ما يقال للناس والغنم.

ويقال: نساء وليس لها جمع من واحدها، ويقال بعير وجمل، ولا يقال جملة ولا بعيرة، وقالوا رجل ورجلة وشيخ وشيخة، ويقال أسد وأسدة ولبوة. ويقال لبوات، وذئب وذئبة[2] ويقال إنسان وإنسانة، وسبع وسبعة، وحمام وحمامة، وحمار وحمارة، وسيد وسيدة، وهقل وهقلة، والق والقة[3].

قال رؤبة:

«جد وجدت إلقة من الألق»[4]

ويقال سرحان[5] وسرحانة، وضبع وضبعة، وثعلب وثعلبة.

وأصحابنا لا يعرفون هذا ويضحكون ممن قال: ضبعة عرجاء. ويقال: ثرملة[6].

ومن الفراخ فرخ وفرخة، ومن النمور نمر ونمرة. ويقال: من الضباع ذيخ

---

(١) في الأصل: «رمضت» والصواب ما هنا. وفي القاموس: رمصت السباع: ولدت. انظر مادة (رمص).

(٢) كذا في الأصل: ولبوه» تخفيف «لبوءة» بالهمز.

(٣) الهقل، بالكسر: الفتى من النعام. وفي الأصل: «مقل ومقلة» وهو تحريف. والإلق بالكسر: الذئب.

(٤) ديوان رؤبة ١٠٧. وانظر الحيوان ٣١٤/٦. وسبقت ترجمته: فسر يونس النحوي معنى الروبة ٦٣/٢ وفيات الأعيان فقال: «الروبة: خميرة اللبن. والروبة: قطعة من الليل. والروبة: الحاجة. يقال: فلان لا يقوم بروبة أهله. أي بما أسندوا إليه من حوائجهم، والروبة: جمام ماء الفحل. والرؤبة بالهمزة - القطعة التي يشعب بها الإناء، والجميع بسكون الواو وضم الراء التي قبلها إلا رؤبة فإنها بالهمز وجمعها رئاب. وهي في الأصل اسم لقطعة من الخشب يشعب بها الإناء، وباسمها سمي الراجز المذكور» (اهـ).

(٥) السرحان: الذئب، وكذلك السيد بالكسر.

(٦) الثرملة: الأنثى من الثعالب.

وذيخة[1]، وضبعان وضبعانة، وجيأل وجيألة[2]. وعقرب وعقربة. والعقربان الذكر وحده.

وضفدع وضفدعة، وقنفذ وقنفذة، وشهم وشهمة[3]، وقرد وقردة.

قال: ويقال القة وقشة[4]، ولا يقال القي وقش، ويقال لولد القردة رباح وللأنثى القة.

وقال الشاعر[5]:

والقة ترغث رباحها والسهل والنوفل والنضر[6]

ومن النعام هقل وهقلة، وهيق وهيقة [7]، وصعل وصعلة [8]، وسفنج وسفنجة [9]، ونعام ونعامة[10]، والواحد من فراخها الرأل والجمع رئال و(رئلان)[11] وارأل[12]، والأنثى رألة، وحفانة والجمع حفان، وقد يكون الحفان[13] أيضاً للواحد، ويقال لها قلاص والواحدة قلوص[14] ولا يقال قلوصة،

---

(١) هما الذكر والأنثى من الضباع.

(٢) الذكر والأنثى من الضباع أيضاً.

(٣) الشيهم: العظيم من القنافذ.

(٤) الإلقة: الذئبة. والقشة بالكسر: الصغيرة من أناث القرود.

(٥) هو بشر بن المعتمر، والقصيدة في الحيوان (٦/٢٨٤ - ٢٩١) (هـ).

(٦) ترغث: ترضع. وهي في (ط): «نزعت» وفي (ش): «نـزغت» وهما محرفتان. وانظر اللسان (ربح).
السهل: الغراب. والنوفل: البحر، والنضر: الذهب. وهي أعني «الذهب» في الأصل «النمر» وصوابها ما هنا كما في اللسان والحيوان (٦/٢٨٥ - ٣١٣).

(٧) هما بمعنى هقل وهقلة. انظر ٢/٤٥٨ حياة الحيوان للدميري.

(٨) الصعل من النعام: الدقيق الرأس والعنق.

(٩) السفنج: الخفيف من النعام. وانظر ٢/٢٩ حياة الحيوان للدميري.

(١٠) نعام يقع على الجنس وعلى والواحد أيضاً، كما هنا وكما في القاموس.

(١١) لم تثبت إلا هنا، (ش)، وفي (هـ) نقلاً عن (ش). ومثله في القاموس واللسان.

(١٢) (ط): «رال» وصوابه ما هنا كما في (ش).

(١٣) القلوص يقال للابل كما يقال للنعام، وقبله كلمة «حفان» وردت بالقاف في (ط)، وصوابه بالفاء كما هنا.

ويقال ظليم ولا يقال ظليمة ويقال نقنق ولا يقال نقنقة[١].

ويقال من الأرانب أرنب وأرنبة[٢] ومن الذكور خزز، وللأنثى عكرشة ولولدها خرنق، ويقال هذه أرنب وهذه عقاب، ولا يقال هذا الأرنب، وهذا العقاب.

ويقال لولد الكلب جرو وجروة للأنثى، وهو درص والجمع أدراص، ويقال لمن عضه الكلب الكلب: بال كأدراص الكلاب.

وجرو الكلب يكون أعمى عشرة أيام وأكثر، وقد يعرض شبيه بذلك لكثير من السباع.

ويقال بصبص الجرو وفقح[٣] إذا فتح عينيه شيئاً، ويقال جصص، وصأصأ إذا لم يفتح عينيه[٤]. ولذلك قال عبدالله بن جحش[٥]، والسكران بن عمرو[٦]، للمسلمين ببلاد الحبشة: «إنا فقحنا وصأصأتم». قال بعض الرجاز[٧] في الصبيان:

أقبح به من ولد وأشقح ... مثل جري الكلب لم يفقح[٨]
إن يسر سار لم يقم فينبح ... بالباب عند حاجة المستفتح

---

(١) النقنق: الظليم، أي الذكر من النعام. وفي الأصل: «ويقال تفيق ولا يقال تفيقة وهو تصحيف ما هنا.

(٢) في الأصل: «ولا يقال أرنبة».

(٣) (ط): «وفتح» وصوابه كما في (ش)، وهنا.

(٤) في القاموس: «صأصأ الجرو: حرك عينيه قبل التفتيح أو كاد يفتحهما».

(٥) (ش): «عبيدالله بن جحش». وعبدالله وعبيدالله أخوان هاجرا معاً إلى بلاد الحبشة. (السيرة ٢١٠ جوتنجن)، وقد ترجم ابن حجر لعبدالله في الإصابة. وقد تزوج الرسول اختهما زينب بنت جحش. وكانت قبله عند زيد بن حارثة مولاه.

(٦) هاجر السكران إلى الحبشة ثم رجع إلى مكة فمات بها، فتزوج الرسول ﷺ بعده زوجته سودة بنت زمعة. الإصابة ٣٣٣٠ والسيرة ١٠٠١ جوتنجن.

(٧) (ط): «ثم قال بعض الرجاز»، والوجه ما هنا كما في (ش). وفي الأغاني (٤/٤٢) أن صاحب هذا الرجز هو الأحوص: يهجو نفسه ويذكر حوصه ـ أي ضيق عينيه ـ وفي الحيوان (١/٢٥٤ هـ) أنه أبو الأحوص.

(٨) في الأصل: «مثل جرو» والوجه ما هنا كما في الأغاني والحيوان (١/٢٤٤).

وولد الأسد جرو، وهو لجميع السباع، ويقال له خاصة: شبل. والجمع أشبال وشبول.

حدثني صديق لي قال: تعجب أخ لنا من خبث الثعلب، وكان صاحب قنص، وقال ما أعجب أمر الثعلب! يفصل بين الكلاب والكلب، فيحتال للكلاب بما يعلم أنه يجوز عليه، ولا يحتال مثل تلك الحيلة للكلب، لأن الكلب لا يخفى عليه الميت من المغشى عليه. ولا يخفى عليه التماوت. ولذلك لا يحمل الميت من المجوس إلى الناموس[1] حتى يدنى منه كلب، لأنه لا يخفى عليه مغمور الحس حي أهو أو ميت[2]. وللكلب عند ذلك عمل يستدل به المجوس.

قال: هجمت على ثعلب في مضيق، ومعي بني لي، فإذا هو ميت منتفخ، فصددت عنه، فلم ألبث أن لحقتني الكلاب، فلما أحس بها وثب كالبرق، بعد أن تحايد عن السنن، فسألت عن ذلك فإذا ذلك من فعله معروف، وهو أن يستلقي وينفخ خواصره ويرفع قوائمه فلا يشك من رآه أنه ميت. قال: وكنت أتعجب، فمررت في زقاق، وإذا جرو كلب مهزول قد ضربه الصبيان وعقروه ففر منهم ودخل الزقاق، فرمى بنفسه في أصل أسطوانة[3] وتبعه الصبيان وهجموا عليه، فإذا هو قد تماوت[4] فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك فانصرفوا عنه، فلما جاوزوا تأملت عينيه فإذا هو يفتحها ويغمضها، فلما بعدوا عنه وأمنهم عدا، وأخذ في غير طريقهم فأذهب الذي كان في نفسي للثعلب، إذ كان الثعلب ليس فيه إلا الروغان والمكر، وقد ساواه الكلب في أجود حيله.

وليس في الثعلب إلا الانتفاع بفروته[5]، ونفع الناس بجعر الكلب

---

(١) (هـ) (٢/ ٢٨٩): «الى النار» موضع «إلى الناووس» وهو القبر.

(٢) (ط): «أهو حي أو ميت» (هـ): أحي هو أو ميت».

(٣) في الأصل: «اصطوانة»، وإنما هي بالسين كما هنا واللسان، والقاموس.

(٤) في الأصل: «تمرد» ووجهه ما هنا.

(٥) وأبو فروة كنية جد أبو الفضل الربيع بن يونس صاحب المنصور ووزيره متوفى ١٧٠ هـ، وقيل أن الهادي سمه مرض ثمانية ومات وإنما قيل لجده «أبو فروة» لأنه أدخل المدينة وعليه فروة فاشتراه عثمان رضي الله عنه وأعتقه انظر ٢/٥٩ وفيات الأعيان.

للذبحة أعظم، إذ كان في الذبحة الموت، وليس يقوم مقامه شيء، وجلد الثعلب منه أعواض كثيرة[١].

قال صاحب الديك: شرار عباد الله من قتل أولاد رسول الله ﷺ ولم تجد الشعراء شبهوا أولئك القاتلين بشيء سوى الكلاب.

قال أبو نضلة الأبار، في قتل سلم بن أحوز المازني، صاحب شرطة نصر ابن سيار الليثي يحيى بن زيد[٢] وأصحابه:

ألم تـر ليثـاً مـا الـذي ختمت بـه ... لهـا الـويـل في سلطانها المتخـاذل[٣]
كـلاب تعـاوت لاهـدى الله سبلهـا ... فجـاءت بصيـد لا يحـل لآكـل[٤]
بـنفسي وأمي فـاطـمـي تـقـنـصـوا ... زمـان عـمـى مـن أمـة وتخـاذل
فقـد كشفت للنـاس ليث عن استهـا ... وغـاب قبيـل الحق دون القبـائـل

قال صاحب الديك: وروي عن ابراهيم قال: لم يكونوا ينهوننا عن شيء من اللعب ونحن غلمان إلا عن الكلاب.

وسئل الحسن عن البيض الذي يلعب به الصبيان أيشتريه الرجل فيأكله، فلم ير به بأساً وإن أطعموه أن يأكل منه، والجوز الذي يلعب به الصبيان.

وكان زيد بن أسلم[٥] لا يرى بأساً بالبيض الذي يتقامر به الفتيان، أن يهدى إليه أو يشتريه فيأكله.

حدث أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: أقتلوا

---

(١) في الأصل: «عوض» بالافراد، أي يستعاض عنه بجلد غيره.
(٢) هو يحيى بن زيد بن علي بن الحسين، أحد الأبطال الأشداء، ثار على بني مروان وقتل في الجوزجان سنة ١٢٥: أصابه سهم من رجال سلم بن أحوز فأرداه قتيلاً، فصلب بالجوزجان، ولم يزل مصلوباً حتى ظهر أبو سلم واستولى على خراسان، فأنزله وصلى عليه ودفنه، الحيوان (هـ) (٢٩١/٢).
(٣) أراد بليث القبيلة.
(٤) يعني قتل العلويين.
(٥) زيد بن أسلم العدوي مولى عمر، أبو عبدالله، أو أبو أسامة المدني، ثقة عالم، مات سنة ٣٦، تقريب التهذيب، الحيوان (٢٩٢/٢).

الحيات ذا الطفيتين[١]، والكلب الأسود البهيم ذا الغرتين[٢].

قال: والغرة: حوة تكون بعينيه[٣].

وسئل الحسن عن البيض الذي يتقامرون به. فكرهه.

قال صاحب الديك: وما رأينا أحداً قط يريد الإدلاج[٤] ينتظر صقاع الديك. وإنما يوالي الديك بين صياحه قبيل الفجر ومع الفجر إلى أن ينبسط النهار، وفيما بين الفجر وامتداد النهار لا يحتاج الناس إلى الاستدلال بصوت[٥] الديك. وما رأينا صاحب سحور ولا صاحب أذان يتكل في ذلك على صياح ديك. ولو كان بين الصيحتين فرق وعلامة كان دليلاً. ولكنه متى سمع صقاعه فزع إلى مواضع الكواكب، أو إلى مطلع الفجر الكاذب والصادق.

وللديك عدة أصوات بالنهار، وتلك أوقات لا يحتاج الناس فيها إليه. والناس والملوك يستعملون بالنهار الاسطرلابات[٦] وبالليل البنكابات[٧]، ولهم بالنهار خطوط وظل يعرفون به ما مضى من النهار وما بقي. ورأينا أصحاب البساتين وكل من كان بقرب الرياض، يعرفون ذلك بريح الأزهار. ورأينا الروم ونصارى القرى يعرفون ذلك بحركات الخنازير وببكورها وغدوها وأصواتها ولذلك قالوا في وصف الرجل الجامع: له وثبة الأسد، وروغان الثعلب، وانسلاب الذئب[٨] وجمع الذرة، وبكور الخنزير، والراعي يعرف ذلك

---

(١) الطفيتان: خطان أسودان في ظهر الحية.

(٢) في الأصل: «العزنين» والصواب ما هنا كما في اللسان.

(٣) في اللسان: أن الغرتين نكتتان بيضاوان فوق عينيه.

(٤) الادلاج: افتعال من ادلج بتشديد الدال أي سار من آخر الليل وهو المراد هنا. والادلاج: إفعال من أدلج السير من أول الليل، وليس مراداً، وصقاع الديك: صياحه.

(٥) في الأصل: «لأن يصوت الديك» (هـ): «بأن يصوت الديك» وصاحب السحور من يوقظ لذلك.

(٦) من القول في الاسطرلاب ص ٤٨٤. وفي (ش): «الاصطرلاب».

(٧) في الأصل: «المنكابات» لفظ يوناني مفرد امنكام، ما يقدر به الساعة النجومية من الرمل وهو معرب عربه أهل التوقيت وأرباب الأوضاع كما ذكر في شفاء الغليل». وفي العمدة (٢٣١/٢) أورد وصفاً شعرياً للبنكام يفهم منه أنه آلة مائية.

(٨) انسلاب الذئب: انفلاته وسرعة عدوه. وفي (ش): «استلاب الذئب» من السلب بمعنى النهب.

في رعاء الابل وفي حنينها وغير ذلك من أمرها.

وللحمام أوقات صياح ودعاء مع الصبح وقبيل ذلك على نسق واحد وما ذكر الناس ذلك في الديك والحمار إلا لامتداد اصواتها.

وهديل الحمام ودعاؤه لا يجوز بعيداً[١]، إلا ما كان من الوراشين[٢] والفواخت في رؤوس النخل وأعالي الأشجار، فإنه يسمع من بعد.

وللعصافير والخطاطيف وعامة الطير، مما يصفر ويصرصر[٣]، ويهدل مع الفجر - صياح كثير. ثم الذي لا يدع الصياح في الأسحار ومع الصبح أبداً الضوع[٤]، والصدى[٥] والهامة، والبومة.

وقد يصيح مع الصبح البوم والصدى والهام، والضوع، والخطاطيف، والعصافير، والحمر[٦] في ذلك الوقت أكثر من الديكة. وهذه كلها تقوم مقام الديك.

ويقال لصوت الديك: الدعاء والزقاء والهتاف والصياح والصراخ والصقاع، وهو يهتف ويصقع ويصيح ويزقو ويصرخ.

ويقال للطائر الذي يخرج من بيته بالليل البومة والصدى والهامة والضوع والوطواط والخفاش، وغراب الليل، ويصيد بعضها الفأر[٧] وسام أبرص والقطا وصغار الحشرات، وبعضها يصيد البعوض والفراش وشبهه. والبوم يدخل بالليل على كل طائر في بيته ويخرجه منه فيأكل فراخه وبيضه، وهذه الأسماء مشتركة.

---

(١) لا يجوز بعيداً: لا ينتهي إلى مدى بعيد.

(٢) الوراشين: جمع ورشان. وهو ضرب من الحمام. وفي (ط): «الوارشين» والصواب ماهنا.

(٣) في اللسان: «صرصر الطائر» صوت. وخص بعضهم به البازي والصقر وانظر ص ٤٦٣ جـ ٢ حياة الحيوان.

(٤) (ط): «الصوع» (ش): «الصوغ» والصواب ما هنا. وهو طائر ليلي من جنس البوم. انظر حياة الحيوان للدميري ص ١٠٥ جـ ٢.

(٥) الصدى، بالقصر: ذكر البوم. وفي الأصل: «الصداء» بالمد. وهو تحريف صوابه ما هنا.

(٦) الحمر: ضرب من الطير كالعصفور، وفي الأصل: «الحمير»، وهو تحريف.

(٧) في الأصل: «ويصيد بعضها والفأر».

وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿**إن كانت إلا زقية واحدة**﴾[١] وفي قراءته ﴿**ونفخ في الزقية**﴾ يريد الصور.

وصوت الدجاج القوقأة، تقول هي تقوقئ.

قال صاحب الكلب: وسنروي في الدجاج وهجائها وهجاء من اتخذها أو أشبهها في وجه من الوجوه، قال عبدالله بن الحجاج:[٢]

فإن يعرض أبو العباس عني ويركب بي عروضا عن عروض[٣]
ويجعل وده يوماً لغيري ويبغضني فإني من بغيض[٤]
فإن بمصر عبدالله يأسو ويجبر عظم ذي الكسر المهيض[٥]
فدى لك من إذا ما جئت يوماً تلقاني بجامعة ربوض[٦]
لدى جنب الخوان وذاك فحش وبئست خبزة الشيخ المريض[٧]
كأني إذ فزعت إلى أحيح دخلت على مقوقية بيوض[٨]

---

(١) أي صيحة واحدة، انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٩.

(٢) عبدالله بن الحجاج: شاعر فاتك شجاع، من معدودي فرسان مضر، فكان ممن خرج مع عمرو ابن سعيد على عبد الملك بن مروان فلما قتل عبد الملك عمراً، خرج مع نجدة بن عامر الحنفي، ثم هرب فلحق بعبدالله بن الزبير، فكان معه إلى أن قتل ثم جاء إلى عبد الملك متنكراً واحتال عليه حتى أمنه. الأغاني (١١/ ٢٤ ـ ٣٠).

(٣) ابو العباس، يعني به الوليد بن عبد الملك وكان حبس عبدالله فقال قصيدته هذه في الحبس. انظر: الحيوان (٥) (٢/ ٣٠٢).

(٤) يريد بغيض بن ريث بن غطفان، وهو من أجداد عبدالله، ولهذا البيت خبر في الأغاني (١١/ ٢٧).

(٥) المهيض: المكسور بعد أن كان جبر، والرواية في (هـ) (٢/ ٣٠٢) «ويجبر كسر ذي العظم المهيض».

(٦) الجامعة الربوض: السلسلة الضخمة. وفي (ط): «ريوص» و(ش): «ويوض) محرفتان، وهما على الصواب الذي ثبت هنا وفي الأغاني (١١/ ٢٧).

(٧) في الأغاني: «دست بخفة الشيخ المريض».

(٨) أحيح هذا هو ابن خالد بن عقبة بن أبي معيط، وكان عبدالله قد لجأ اليه، فسعى به إلى الوليد فأخذه من دار أحيح فحبسه. (الحيوان ٢/ ٣٠٢). (ش): «إذ دخلت على أحيح» والوجه ما أثبت هنا و(ط)، والأغاني (ط): «مقوقية ربوض» والوجه ما هنا، (ش) والأغاني. وعنى بالمقوقية: الأوزة، و(هـ): «فزعت» موضع «دخلت».

إوزة غـيـضـة لـقـحـت كـشـافـاً   لفقحتـهـا إذا بـركـت نـقـيض[1]

ويقـال هو: «أسلح من حبـارى ساعـة الخوف» ومن «دجـاجة سـاعة الأمن».

قال صاحب الديك: قـال الأصمعي: أخبرني العـلاء بن أسلم قال: أردت الخروج إلى مكة. فجاءني هشام بن عقبة ـ أخو ذي الرمة ـ فقال لي: إنك تريد شعراً يحضر الشيطان فيه حضوراً لا يحضره في غيره، فاتق الله وصل الصلوات لوقتها، وإنك مصليها لا محالة فصلها وهي تنفعك واعلم أن لكل رفقة [كلباً][2] ينبح عليهم، فإن كان نهب شركوه فيه، وإن كان عار تقلده دونهم فلا تكن كلب الرفقة!![3]

وقال زيد الخيل:

يـا نصر نصر بـني قـعـين إنمـا   أنـتـم إمـاء يـتـبـعـن الاشـترا[4]
يـتـبـعـن فـضـلـة أيـر كـلـب مـنـعـظ   عض الكـلاب بعجبـه فـاستـثـفـرا[5]

فلما قدم زيد الخيل عند النبي ﷺ قـال: «أبرح فتى إن لم تـدركه أم كلبة[6]. يعني الحمّى.

---

(١) أصله من لقحت الناقة كشافاً: إذا حملت بعد نتاجها. والنقيض: الصوت. ورواية أبي الفرج: «لقحقها إذا درجت» والقحقح، بضم القافين: العظم المطيف بالدبر. الحيوان (٢/٣٠٢).
(٢) أثبتها من بقية النسخ حتى يستقيم الكلام.
(٣) مثل هذا الخبر في ثمار القلوب ٣١٥. وقد عزا الميداني المثل إلى لقمان الحكيم. انظر الأمالي (٢/٢٣٤).
(٤) في الأصل: «نصر أبي قعين» والوجه ما هنا. وقعين: بطن من أسد. وفي اللسان: «وسئل بعض العلماء أي العرب أفصح؟ فقال: «نصر قعين».
(٥) استثفر الكلب: أدخل ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه.
(٦) ابرح فتى: أي ما أعجبه فتى. و«فتى» تمييز مثله قول الأعشى الخزانة (٣/٢٧٥):
تـقـول ابنـتي حـين جـد الرحيـ   ـل أبـرحـت ربـا وأبـرحـت جـارا
وانظر الخبر في السيرة ٩٤٧ جوتنجن (وفد طيِّئ)، والأغاني (١٦/٤٧ ـ ٤٨)، والإصابة ٩١٣٤ وقد حم زيد بعد انصرافه من عند الرسول ومات ببلده. الخزانة (٢/٤٤٨ بولاق) وسبقت ترجمته ص ٤٦٥.

قال صاحب الكلب: وقد قال عمرو بن معد يكرب:

وقـد كـنـت إذا مـا الحـ ـي يـومـاً كـرهـوا صـلـحـي
ألـف الخـيـل... بـالخـيـل وأكـفـى النـبـح.. بـالـنـبـح

قال ومن الاستعارات من اسم الكلب قول الرجل منهم، إن أوطن نفسه على شيء: قد ضربت جروتي، وضربت[1] عليه [جروتي][2].

وقال عتبة الأعور:[3]

ذهـب الـذيـن أحـبـهـم وبـقـيـت فـيـمـن لا أحـبـه
إذ لا يـزال كـريـم قـو مـي فـيـهـم كـلـب يـسـبـه

[قال صاحب الديك][4]: فخرتم علينا بصيد الكلب، وهجوتم[5] الديك إذ كان [ليس][6] مما يصيد ولا يصطاد به، وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد، فمن ذلك قول عمرو بن معد يكرب:

ابـني زيـاد أنـتـم في قـومـكـم ذنـب ونـحـن فـروع أصـل طـيـب

---

(١) الجروة بمعنى النفس، كما في اللسان (جرا) وكما في أمثال الميداني ١/٣٨٣. (هـ): «وضربت عليه». وفي الأصل: «ضربت جروة وضربت عليه» وهو تحريف: قال ابن بري: وأنشد أبو عمرو:
ضربت بـأكناف اللوى عنـك جـروتي وعـلقت أخـرى لا تخـون المـواصـلا
أي اطمأنت نفسي. ويقال أيضاً كما في اللسان: ضربت جروة نفسه.
قال الفرزدق:
فضربت جـروتها وقلت لهـا اصـبري وشـددت في ضـنـك المـقـام إزاري
(٢) سقطت الكلمة من بقية النسخ.
(٣) عتبة الأعور ذكره ابن النديم في الفهرست ١٦٣ ليبسك، ٢٣٢ مصر، قال: «عتبة الأعور الكوفي، مقل». وفي معجم المرزباني ص ٢٦٥ «عتبة بن أبي عاصم الحمصي الأعور، هجا بني عبد الكريم الطائي من أهل الشام فعارضه أبو تمام الطائي وهجاه ومدحهم».
(٤) سقط من بقية النسخ، وأضافه (هـ) «لاحتياج الكلام إليه».
(٥) (ط): «وهجرتم» وصوابه ما هنا (ش).
(٦) سقطت من بقية النسخ.

نصل الخميس إلى الخميس وأنتم ... بالقهر بين مربق ومكلب[١]

لا يحسبن بنو طليحة حربنا ... سوق الحمير بحانة فالكوكب

حيد عن المعروف سعي أبيهم ... طلب الوعول بوفضة وبأكلب[٢]

حتى يكهن بعد شيب شامل ... ترحا له من كاهن متكذب

[وفضة، كناية وجمعها وفاض، وقيل الوفضة القوس والمكثار جميعاً][٣]

وأما قول زهير:

فإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم ... وكانوا قديماً من مناياهم القتل[٤]

وهذا البيت نفسه ليس يدل على قولهم أن من كان به جنون أو كلب ثم حسا من دم ملك أفاق وبرئ. وضربوا لصاحب الكلب أمثالاً في شدة طلبه الماء، وفي شدة فراره منه إذا عاينه. وقالوا وقلتم: فالماء المطلوب إذا عاينه من غير أن يمسه، وهو الطالب له، كيف صار إذا رآه صاح[٥]؟!

قالوا: قد يعتري الناظر إلى الماء، والذي يديم التحديق إليه وهو يمشي على قنطرة أو جرف أو جسر الدوار، فإنه ربما رمى بنفسه من تلقاء نفسه في الماء، وهو لا يحسن السباحة.

وذلك على قدر ما يصادف من المرار[٦] والطباع.

فمن فعل ذلك بنفسه أبو الجهجهاه محمد بن مسعود، فكاد يموت حتى استخرج [بالكلفة وجماعة معه فعلوا ذلك][٧].

---

(١) الخميس: الجيش. والقهر: الذل. والمربق: أراد به الصائد بالربقة، وهي العروة في الحبل. والمكلب: الصائد بالكلاب.

(٢) الوفضة: جعبة السهام إذا كانت من أدم.

(٣) سقط هذا الجزء من جميع النسخ، وهو زيادة لابن منظور أثبتها في هامش اللوحة ٢/١٥٥.

(٤) يقول: هم أهل حروب فلا يموتون.

(٥) ضمير قالوا عائد على العرب. وضمير «قلتم» عائد على انصار الكلب. وجملة: «فكيف إذا رآه صاح؟!» اعتراض عليهم من صاحب الديك. وضمير «قالوا» الآتية لأنصار الكلب.

(٦) المرار: جمع مرة بالكسر، وهي مزاج من أمزجة البدن.

(٧) سقط هذا الجزء من بقية النسخ ولم يثبت إلا هنا.

وهذا كما يعتري الذي يصيبه الأسن[١] من البخار المختنق في البئر إذا صار فيها، فإنه [ربما][٢] استقى واستخرج وقد تغير عقله. وأصحاب الركايا يرون أن دواءه [إذا صار فيها][٣] أن يلقوا عليه دثاراً ثقيلاً، وأن يزمل تزميلاً[٤]، وإن كان في تموز أو آب[٥]، ثم يحرس إن كان قريباً من رأس البئر، فإنه إن لم يحل بينه وبين ذلك طرح نفسه في تلك البئر، وأتاها سعياً أول ما يفتح عينيه أو يرجع إليه اليسير من عقله حتى يكفي نفسه[٦] في الموضع الذي لقي منه ما لقي، وقد كان عنده معلوماً أن لو ترك طرفة عين لهلك. هكذا كان عنده أيام صحة عقله، فلما فسد أراه الفساد أن الرأي في العود إلى ذلك الموضع.

وكما يعتري الممرور[٧] حتى يرجم الناس، فإنها تصور له أن الذي رجم قد كان يريد رجمه، فهو يرى أن الصواب أن يبدأه بالرجم وعلى مثل ذلك تريه المرة أن طرحه نفسه في النار أجود وأحزم.

وليس في الأرض إنسان يذبح نفسه أو يخنق أو يتردى في بئر، أو يرمي بنفسه من حالق، إلا من خوف المثلة أو التعذيب والتعيير[٨] وتقريع الشامتين، أو لأن به وجعاً شديداً فيحرك عليه المرة فيحمى لذلك بدنه ويسخن جوفه، فيطير من ذلك شيء إلى دماغه أو قلبه فيوهمه ذلك أن الصواب في قتل نفسه، وإن ذلك هو الراحة.

ولا يختار الخنق الوادع، السليم العقل أو الطباع. وللغيظ ربما رمى بنفسه في هذه المهالك، وقذف بها[٩] في هذه المهاوي والمتالف.

---

(١) الأسن، مصدر أسن كفرح: الهواء الفاسد، وكذلك الماء الأسن: الفاسد، وهنا إذا دخل البئر فانتشق هواء فاسداً فغشي عليه.

(٢) هنا وفي (ش) فقط. (هـ) نقلاً عن (ش). والركايا: جمع ركية وهي البئر.

(٣) لم تثبت إلا بالمخطوطة.

(٤) يزمل: يلف في ثوب. وفي القرآن: ﴿**يا أيها المزمل**﴾

(٥) شهران من الشهور الرومية وفيهما يشتد الحر. انظر عجائب المخلوقات ٧٥ ـ ٧٦.

(٦) «يكفى» مخفف «يكفئ» بمعنى يقلب.

(٧) الممرور: من غلبت عليه المرة ففسد عقله.

(٨) (ط): «التعبير» ووجهه ما هنا (ش).

(٩) في الأصل: «به» والضمير للنفس.

وقد يعتري الذي يصعد على مثل سنسيرة أو عقرقوف[1]، أو خضراء زوج، فإنه يعتريه أن يرمي بنفسه[2] من تلقائها. فيرون عند ذلك أن يصعدوا بعض المعاودين المجربين، ولا يصنع شيئاً حتى يشد عينه، ويحتال لانزاله، وهذا المعنى عام فيمن كانت طبيعته تثور عند مثل هذه العلة. وما أكثر من لا يعتريه ذلك.

قال صاحب الكلب: الغراب من لئام الطير وليس من كرامها، ومن بغاثها وليس من أحرارها، ومن ذوات البراثن الضعيفة والأظفار الكليلة، وليس من ذوات المخالب المعقفة والأظفار الجارحة، ومن ذوات المناقير، وليس من ذوات المناسر[3] وهو مع ذلك قوي البدن[4]. لا يتعاطى الصيد. وربما راوغ العصفور، ولا يصيد الجرادة إلا أن يلقاها في سد[5] من الجراد.

وهو فسل إن أصاب جيفة نال منها وإلا مات هزالاً، ويتقمم كما يتقمم بهائم الطير وضعافها، وليس ببهيمة لمكان أكله الجيف، وليس بسبع لعجزه عن الصيد.

وهو مع ذلك إما أن يكون[6] حالك السواد شديد الاحتراق، ويكون مثله من الناس الزنج فإنهم شرار الناس، وأردأ الخلق تركيباً ومزاجاً، كمن بردت بلاده فلم تطبخه الأرحام، أو سخنت فأحرقته الأرحام. وإنما صارت عقول أهل بابل فوق العقول وجمالهم فوق الجمال لعلة الاعتدال.

---

(١) عقرقوف: قرية بينها وبين بغداد أربعة فراسخ، إلى جانبها تل عظيم يرى من خمسة فراسخ كأنه قلعة عظيمة» الحيوان (٣١٢/٣). وفي الأصل: «عقرقوب».

(٢) (ط): «يرميه» وصوابه ما هنا، (ش).

(٣) المناسر: جمع منسر، كمنبر، وهو المنقار لسباع الطير.

(٤) كذا في الأصل: «ذلك» وفي نهاية الأرب (٢١٠/١٠) حيث نقل النويري عبارة الجاحظ. (هـ): «أنه» في الأصل: «بطن» موضع «البدن» في المخطوطة والنهاية. وفي هامش (ش)، (هـ): «النظر».

(٥) السد بالضم: جماعة الجراد تسد الأفق.

(٦) (ش): «ذلك أن يكون» وفي النهاية كما هنا. وما في (ش) تحريف. الأصل، (هـ): «مع ذلك يكون».

والغراب إما أن يكون شديد الاحتراق فلا يكون له معرفة ولا جمال، وإما أن يكون أبقع فيكون اختلاف تركيبه وتضاد أعضائه دليلاً على فساد أمره. والبقع ألأم من السود وأضعف.

ومن الغربان غراب الليل، وهو الذي ترك أخلاق الغربان وتشبه بأخلاق البوم.

ومنها غراب البين. وغراب البين نوعان: غربان صغار معروفة بالضعف واللؤم، والآخر إنما لزمه هذا الاسم لأن الغراب إذا بان أهل الدار للنجعة، وقع في مواضع[١] بيوتهم ويتلمس ويتقمم، وقد تشاءموا به وتطيّروا منه، إذ كان لا يعتري منازلهم إلا إذا بانوا، فسموه غراب البين، ثم كرهوا إطلاق ذلك الاسم له مخافة الزجر والطيرة[٢]، وعلموا أنه نافذ البصر صافي العين - كما قالوا: «أصفى من عين الغراب»، كما قالوا: «أصفى من[٣] عين الديك» - فسموه الأعور، كما كنوا على الطيرة عن الأعمى أبا بصير[٤].

وبها اكتنى الأعشى بعد أن عمي. ولذلك سموا الملدوغ[٥] والمنهوش السليم، وقالوا للمهالك[٦]: المفاوز.

والغدفان[٧] جنس من الغربان، وهي لئام جداً.

ومن أجل تشاؤمهم بالغراب اشتقوا من اسمه الغربة، والاغتراب، والغريب.

---

(١) كذا في النهاية، وحياة الحيوان وثمار القلوب، الأصل (هـ): «مرابض».

(٢) الطيرة، كعنبة: التشاؤم.

(٣) في الأصل: «عن» موضع «من».

(٤) في الأصل: «كما كنوا عن الطير الأعمى بالبصير»، وفي أمثال الميداني: «كما كنوا طيرة عن الأعمى فكنوه أبا بصير» الميداني (١/٣٥).

(٥) (ط): «الملد» وصوابه ما مر كما في (ش) وأمثال الميداني.

(٦) المهلكة: المفازة، جمعها مهالك.

(٧) الغدفان بالكسر: جمع غداف بالضم، وهو الأسود الضخم من الغربان انظر ٢/٢٠٤ حياة الحيوان.

وليس في الأرض بارح ولا نطيح[١]، ولا قعيد[٢]، ولا أعضب[٣] ولا شيء مما يتشاءم به إلا الغراب عندهم أنكد منه، ويرون أن صياحه أكثر أخباراً، وأن الزجر فيه أعم.

وهم يتعايرون بأكل لحمه. ولو كان ذلك فيهم لأنه يأكل اللحم، ولأنه سبع، لكانت الضواري والجوارح أحق بذلك عندهم. وقد قال وعلة الجرمي[٤]:

فما بالعار ما عيرتمونا شواء الناهضات مع الخبيص[٥]
فما لحم الغراب لنا بزاد ولا سرطان أنهار البريص[٦]

والغربان من الأجناس التي أمر بقتلها في الحل والحرم، وسميت بالفسق وهي فواسق، اشتق لها من اسم إبليس.

ورأى بعضهم في النوم أنه سقط على أعظم صومعة في المدينة غراب. فقال سعيد بن المسيب [أو غيره][٧]: يتزوج أفسق الفاسقين أشرف امرأة من

(١) البارح: ما مر من الطير من ميامنك الى مياسرك يقابله السانح. والنطيح: ما يأتي إليك من أمامك من الطير والوحش.
(٢) القعيد: ما أتى إليك من ورائك من ظبي، أو طائر.
(٣) الأعضب: المكسور القرن.
(٤) هو وعلة بن الحارث الجرمي. ذكره صاحب المؤتلف ١٩٧. وفي العرب وعلة بن عبدالله الجرمي أحد فرسان قضاعة وله خبر في يوم الكلاب الثاني. الأغاني (٧١/١٥).
(٥) الناهضات: أراد بها الفراخ الناهضات وهي التي وفرت أجنحتها وقويت على الطيران وعنى الدجاج والحمام وما أشبهه (الحيوان ٣١٧/٢ هـ)، وليس كما وهم بعضهم فزعم أنها جمع ناهضة بمعنى الأنثى من فرخ العقاب. في (ط): «سواء» وصوابه ما هنا، (ش) ونهاية الأرب (٢١١/١٠). والخبيص: ضرب من الحلوى ذكر له البغدادي في كتاب الطبيخ (٧٣ ـ ٧٤) ست صنعات. وفي الأصل: «المبيض».
(٦) البريص: نهر دمشق. وفي الأصل: «البريض» محرفة، صوابها هنا ومعجم البلدان (البريص) واللسان (برص).
(٧) هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب، القرشي، المدني، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة كان من التابعين، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع سمع سعد ابن أبي وقاص، وأبا هريرة رضي الله عنهما، كانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه، توفي بالمدينة سنة (٢ أو ٣ أو ٤ أو ٩٥ هـ) وقيل أنه توفي سنة ١٠٥ هـ، وفيات الأعيان (١١٧/٢) دار السعادة.

أهل المدينة. فلم يلبثوا إلا أياماً حتى كان ذلك.

وفي المثل: «لا يرجع فلان حتى يرجع غراب نوح»، وأهل البصرة يقولون: «حتى يرجع نشيط من مرو[1]»، وأهل الكوفة يقولون: «حتى يرجع مصقلة من سجستان»[2]. فهو مثل في كل موضع من المكروه.

قال خلف الأحمر[3]: رأيت فرخ غراب فلم أر صورة أقبح ولا أسمج ولا أبغض ولا أقذر ولا أنتن منه. وفراخ الغربان أنتن من صفان الهداهد، على أن الهدهد مثل في النتن - فذكر عظم رأس وصغر بدن، وطول منقار وقصر جناح، وأمرط أسود، وساقط النفس منتن الريح.

وصاحب المنطق يزعم أن رؤية فرخ العقاب أمر صعب وشيء عسير. والغربان بالبصرة أوابد غير قواطع، وهي تفرخ في رؤوس النخل السامقة[4]، والأشجار العالية.

قال: والغراب مع هذا كله عند العرب، قد خدع الديك وتلعب به، ورهنه عند الخمار[5]، وخلص من الغرم، وأغلقه في يد الخمار[6]، فصار له

---

(١) قال هذا المثل زياد، وكان «نشيط» قد بنى له داراً وهرب إلى مرو قبل إتمامها وكلما قيل لزياد: تمم، قال: حتى يرجع نشيط من مرو! وكان زياد لا يرضى إلا عمله. الميداني (١/١٩٨).

(٢) في الأصل: «مسعر» موضع «مصقلة» وهو تحريف صوابه ملخصاً كما في ثمار القلوب ٣٠ حيث نقل الثعالبي كلام الجاحظ، وكذا في المعارف ١٧٧ ومعجم البلدان رسم (طبرستان) وكما في الإعلام (١٥١/٨) وهو مصقلة بن هبيرة بن شبل الثعلبي من بكر بن وائل: قائد، من الولاة. كان من رجال علي بن أبي طالب، أقامه على الأهواز وتحول إلى معاوية وكان معه في (صفين)، قتل عند عودته من طبرستان، وهلك أكثر من كان معه من الجند، وضرب به المثل وقال الأخطل:

دع المعمر لا تسأل بمصرعه واسأل بمصقلة البكري: ما فعلا

معجم البلدان (٢٠/٦) المرزباني ٤٧٥، الاعلام (١٥١/٨). توفي نحو سنة ٥٠ هـ.

(٣) هو خلف بن حيان، أبو محرز، وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعراً كثير الشعر جيده قال الأصمعي، كان مولى أبي بردة بن أبي موسى الأشعري. اعتقله وأعتق أبويه. (الشعر والشعراء ٢/٧٨٩).

(٤) في الأصل، (هـ): «الشامخة» موضع «السامقة» هنا. وهما بمعنى.

(٥) سيذكر الجاحظ القصة بعد قليل.

(٦) أغلقه كما يغلق الرهن: إذا لم يستطع فكاكه وبقية النسخ: «وأغلقه عند الخمار».

الغنم وعلى الديك الغرم ثم تركه وضرب المثل به.

فإن كان معنى الخبر على ظاهر لفظه، فالديك[١] هو المغبون والمخدوع والمسخور به، ثم كان المتلعب به أنذل الطير وألأمه وإن كان هذا القول منهم يجري مجرى الأمثال المضروبة فلولا أن محل الديك من قلوبهم[٢]، دون محل الغراب - على لؤم الغراب ونذالته وموقه وقلة معرفته - لما وضعوه في هذا الموضع.

وإن أردتم معرفة ذلك فانظروا في أشعارهم وأخبارهم وابدأوا بقول أمية ابن أبي الصلت[٣] وقد كان داهية من دواهي ثقيف، وثقيف من دهاة العرب، وبلغ من اقتداره في نفسه، أنه هم بادعاء النبوة، وهو يعلم الخصال التي يكون بها الرجل نبياً أو متنبياً. حتى ترشح[٤] لذلك بطلب الروايات، ودرس الكتب.

وفي أحاديث العرب أن الديك كان نديماً للغراب، وأنهما شربا الخمر عند خمار ولم يعطياه ثمناً[٥]، وذهب الغراب ليأتيه بالثمن، ورهن الديك، فخاس به[٦]، فبقي محبوساً.

وأن نوحاً صلى الله على نبينا وعليه حين بقي في اللجة أياماً بعث الغراب فوقع على جيفة ولم يرجع، ثم بعث الحمامة لتنظر هل ترى من الأرض موضعاً

---

(١) في الأصل: «والديك».

(٢) كذا في (ش)، (ط)، (هـ): «فلو أن على الديك في قلوبهم» إلا أنه في (س) ورد: «على» موضع «محل»، «من» موضع «في» وما هنا صواب ما ذكر في (ش)، (ط)، (هـ).

(٣) هو عبدالله بن ربيعة بن عوف بن أمية، وهو من ثقيف، شاعر مجيد في أكثر شعره، أدرك الجاهلية والإسلام. وعاش حتى بدر. قال الأصمعي: ذهب أمية في شعره بعامة ما يكون في الآخرة، وعنترة بعامة ما يكون في الحرب. وقد صدقه النبي ﷺ في بعض شعره، وكان ﷺ يحب أن يسمع من شعره وكان أمية قد قرأ الكتب القديمة وأراد أن يتبع النبي ﷺ ويهاجر فقدم الحجاز ليأخذ ماله فلما نزل بدراً قيل له: إلى أين يا أبا عثمان؟ قال: أريد أن أتبع محمد فقيل له: فيه شبية وربيعة وفلان وفلان فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى وذهب إلى الطائف، ومات بها كافراً في سنة ٩ هـ. انظر ديوان الحماسة (١/٢٧١ - ٢٧٢).

(٤) ترشح: تقوى، من ترشح الفصيل، إذا قوي على المشي.

(٥) في الأصل: «شيئاً» موضع «ثمناً».

(٦) خاس به: غدر به

يكون للسفينة مرفأ، فاستجعلت[1] على نوح الطوق الذي في عنقها، فرشاها بذلك ـ أي فجعل ذلك لها جعلاً.

ففي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت:

بـآيـة قـام يـنـطق كـل شيء   وخـان أمـانـة الـديـك الغـراب

يقول: حين تركه في أيديهم وذهب.

والعامة تضرب به المثل فتقول: «ما هو إلا غراب نوح».

ثم قال أمية:

وأرسلت الحـمامـة بعـد سبـع   تـدل عـلى المهـالـك لا تهـاب
تلمس هـل تـرى في الأرض عينـا   وغـايتـه من المـاء العـبـاب[2]
فجاءت بعـدمـا ركضت بقـطف   عليها الثأط والـطين الكبـاب[3]

[الكباب: الكثير، والثأط: الحمأة][4].

فـلما فـرسـوا الآيـات صـاغـوا   لهـا طـوقـاً كما عقـد السخـاب[5]
إذا مـاتـت تـورثـه بـنـيـهـا   وإن تـقتـل فـليس لهـا استـلاب[6]

[ثم قال يريد الحية التي ركبها إبليس][7]:

---

(١) استجعل: طلب الجعالة، كسحابة ـ وهي الرشوة. والرشوة: العطاء في مقابل نفع (الحيوان ٣٢١/٢).

(٢) كذا في نهاية الأرب (٢٧٧/١٠) وفي الديوان ١٨: «وغايته بها الماء العباب» أو أن الماء العباب غايته وانتهاؤه إلى الأرض. والعين هنا: الناحية. جاء في اللسان: «والعين: الناحية». وفي الأصل: «وعاينه من الماء العباب». وكذلك (هـ). شرح ابن منظور المعنى في هامش اللوحة ١٥٩/١ بقوله: عاينه محل عين: أي شخص».

(٣) الركض هنا بمعنى الطيران. والثأط: الطين الأسود المنتن. وفي (ط): «عليها الشاة» و(ش): «عليها الشاط». وما هنا وافق ما في اللسان والديوان ١٨. والكباب، بالضم: الطين اللازب.

(٤) سقط هذا الجزء من بقية النسخ.

(٥) السخاب، بالكسر: القلادة، وفي ثمار القلوب ٣٦٨ «فلما فتشوا الآيات».

(٦) أي فلا يستلب منها ذلك الطوق. وفي نهاية الأرب ـ رواية الثعالبي في الثمار: «فليس له استلاب» انظر الحيوان (٣٢٢/٢) (هـ).

(٧) البقية بدون هذا الجزء، وأبيات الشعر ذكرت متصلة.

كـذي الأفعى يـربـيهـا لـديـه وذي الجـني أرسـله يـتـاب[1]
فـلا رب المـنـيـة يـأمـنـها ولا الجـني أصبـح يـسـتـتـاب

قال: والجني: إبليس لذنوبه. والأفعى هي الحية التي كلم إبليس آدم من جوفها. ومن لا علم له يروى أيضاً أن إبليس دخل في جوف الحمار مرة، وذلك أن نوحاً لما أدخل أهل السفينة تمنع الحمار لعسره ونكده، فكان إبليس قد أخذ بذنبه. وقيل كان في جوفه، قال نوح للحمار: أدخل يا ملعون! فدخل الحمار، ودخل إبليس معه، إذ كان في جوفه فلما رآه نوح في السفينة قال: يا ملعون من أدخلك السفينة، قال: أنت أمرتني حين قلت: أدخل يا ملعون! فلم يكن ثمة ملعون سواه[2].

قال: ومن الطير ما[3] يلقم فراخه مثل العصفور، لأن العصفور لا يزق، وكذلك أشباه العصفور، ومن الطير ما يزق فراخه، مثل الحمام وشبهه كبهائم الطير الخالصة، لأن الدجاج يأكل اللحم، ويلغ في الدم، وولدها حين يخرج من البيض يخرج كاسياً مليحاً بصيراً بما يعيشه ويقوته، ولا يحتاج إلى تلقيم سباع الطير والعصافير لأولادها: لأن أولادها إذا لم[4] ترضع ولم تلقط الحب كالفراريج أول ما تخرج من البيض، ولم تزقها الآباء والأمهات كأجناس الحمام - فلا بد لها من تلقيم.

والفروج مشترك الطبيعة، أخذ من طبائع الجوارح نصيباً، وهو أكله اللحم، وحسوه للدم، وأكله للديدان مما هو أقذر من الذباب[5]، والعصفور أيضاً مشترك الطباع[6]، لأنه يجمع بين أكل الحبوب واللحمان، وبين لقط الحبوب وصيد أجناس كثيرة من الحيوان، كالنمل إذا طار[7] والجراد، وليس في

(١) كذا في (ش). وفي (ط): «تباب» والمخطوطة: «يساب» وفسره ابن منظور «يذهب».
(٢) بقية النسخ: «ثم ملعون غيري».
(٣) في الأصل: «من».
(٤) في الأصل «المختصر»: «إذا لم ترتضع» وهو تحريف صوابه ما أثبت، وفي (ش): «ترتضع».
(٥) كذا.
(٦) في الأصل: «مشارك» موضع «مشترك».
(٧) أي صيده للنمل الطائر، وهناك نوع من النمل الطائر ذكره الجاحظ.

الأرض رأس أشبه برأس الحية من رأس العصفور[1].

والعصفور يعلي ويطير فيهتدي ويستجيب.

وليس في الأرض طائر أحن على ولده ولا أشد تعطفاً من عصفور. ويدل على ذلك ما تجد من إسعاد[2] بعضها البعض، إذا دخلت الحية جحر أحدهن لتأكل فرخاً أو تبتلع بيضاً فإن لأبوي الفرخ عند ذلك صياحاً وقلقاً وطيراناً حول الجحر فلا يبقى عصفور من حيث يسمع صياحهما أو يسمع أصواتهما إلا جئن مسعدات، يصنعن كما يصنع أبواه.

وليس في الأرض أصدق حذراً منه. ويقال إنه في ذلك من العقعق[3] والغراب.

حدثني من يصيد العصافير قال: ربما كان العصفور ساقطاً على حائط سطح بحذائي، فيغمني صياحه وحدة صوته، فأصيح وأومئ إليه بيدي[4]، حتى ربما أهويت إلى الأرض كأني أتناول شيئاً، كل ذلك لا يتحرك له، فإن مست يدي أدنى حصاة أو نواة أريد رميها، طار من قبل أن تستمكن منها يدي.

وليس في الطير أكثر عدد سفاد من العصافير، ولذلك يقال إنها أقصر الطير أعماراً.

ولا يقدر العصفور على المشي، وليس عنده إلا النقزان[5]، ولذلك يسمى النقاز، وإنما يجمع رجليه ويثب في جميع حركاته مجيئه وذهابه، وإن هو مشى هذه المشية على سطح وإن ارتفع سمكه، فكأنك تسمع لنقزانه وقع حجر لشدة

---

(١) ما هنا يدلل العبارة التي وردت بالمختصر: «وليس في الأرض رأس أشبه برأس من رأس العصفور برأس الحية».

(٢) الاسعاد: الاعانة. وفي الأصل: «اشعار»، والصواب ما هنا.

(٣) العقعق. كثعلب: طائر في قدر الحمامة وشكل الغراب، طويل الذنب، وهو يخفي بيضه (انظر الحيوان ٢/٣٢٩).

(٤) في الأصل: «فأصيح إليه وأومئ بيدي».

(٥) النقزان: الوثب.

وطئه ولصلابته، وهو ضد الفيل، لأن إنساناً لو كان جالساً وخلف ظهره فيل لما شعر به، لخفة وقع قوائمه، مع سرعة مشي وتمكين في الخطا.

وصوت الديك كريه في السمع، غير مطرب، قال الشاعر[1]:

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا وأمله ديك الصباح صياحاً

وإذا كثر الدجاج في دار أو اصطبل، لم يكن عدد بيضها وفراخها على حسب ما كان يبيض القليل منهن ويفرخه. يعرف ذلك تجار الدجاج ومن اتخذها للغلة.

وهي بمصر ترعى كما يرعى الغنم، ولها راع وقيم.

والموت إلى الدجاج سريع جداً. وسألت عن السبب الذي صار له الدجاج إذا كثرن قل بيضهن وفراخهن، فزعموا أنها في طباع النخل، فإن النخلة إذا زحمت أختها، بل إذا مسَّ طرف سعفها طرف سعف الأخرى، وجاورتها وضيقت عليها في الهواء، وكذلك أطراف العروق في الأرض ـ كان ذلك كرباً عليها وغماً.

فتدانيها وتضاغطها وأنفاسها وأنفاس أبدانها يحدث لها فساداً.

قال صاحب الديك: فخرتم للكلب بكثرة ما اشتق للأشياء من اسم الكلب، وقد اشتق لأكثر من ذلك العدد من البيض، فقالوا لقلانس الحديد: بيض، وقالوا: فلان يدفع عن بيضة الاسلام، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: أنا بيضة البلد. وفي موضع الذم قولهم[2]:

تأبى قضاعة أن تدري لكم نسبا وابنا نزار وأنتم بيضة البلد

ويسمى رأس القبة ورأس الصومعة بيضة. ويقال للمجلس إذا كان

(١) هو أبو نواس. وهذه الخمرية في ديوانه ٢٥٦.

(٢) أي قول شاعرهم، وهو الراعي كما في الحيوان ٢/٣٣٦ واللسان (بيض) وثمار القلوب ٣٩٢ والعمدة ٢/١٥٣، يهجو عدي بن الرقاع العاملي.

معقوداً غير مطول: بيض خانجة[١]. [والخانجة عقد على عقد كحنية على حنية][٢].

ويقال للوعاء الذي يكون فيه الحبن[٣] والخراج[٤] وهو الذي يجتمع فيه القيح بيضة.

ويقال حمس الشر وأحمس إذا اشتد، ويقال قد احتمس الديكان احتماساً إذا اقتتلا اقتتالاً شديداً.

ويقال في المثل للذي[٥] يعطي عطية ثم لا يعود في مثلها: «كانت بيضة الديك». فإن كان [آخر][٦] معروف له قيل: «بيضة العقر»[٦].

ويقال دجاجة بيوض في دجاج بيض وبيض، بإسكان وضع العين من الفعل من لغة سفلى[٧] مضر، وضم موضع العين من نظيره من الفعل لغة أهل الحجاز.

ويقال عمد الجرح يعمد عمداً إذا عصر[٨] قبل أن ينضج فورم ولم يخرج بيضته[٩]. وذلك الوعاء والغلاف[١٠] الذي يجمع المدة يسمى بيضة. وإذا خرج ذلك بالعصر من موضع الحبن فقد أفاق صاحبه.

---

(١) في الأصل: «جاثمة» وكذا (هـ) وأثبت ما في المختصر حيث ورد تفسير لابن منظور بعد.

(٢) تعليق لابن منظور. انظر هامش اللوحة ٢/١٦٠.

(٣) الحبن بالكسر: الدمل. وفي الأصل: «الجبن» وهو تصحيف.

(٤) الخراج: كغراب، ورم قرح يخرج بدابة أو غيرها من الحيوان.

(٥) في الأصل: «الذي».

(٦) سقطت كلمة «آخر» من بقية النسخ. و«بيضة العقر» ان كان قد سبق معروف له قبل هذه المرة التي قطع فيها معروفه. قال أبو عبيد: يقال للبخيل يعطي مرة ثم لا يعود: كانت بيضة الديك. فإن كان يعطي شيئاً ثم قطعه قيل للمرة الأخيرة: كانت بيضة العقر. انظر اللسان وأمثال الميداني (١/٨٦) وثمار القلوب (٣٩٢ - ٣٩٣) والحيوان (٢/٣٤٣).

(٧) في الأصل: «سفل».

(٨) (ط): «أعصر» وصوابه ما هنا، (ش).

(٩) في اللسان: «ولم تخرج بيضته».

(١٠) صواب ما في المختصر: «وذلك الوعاء في الغلاف».

ويوضع بيض الطاوس تحت الدجاجة، وأكثر ذلك لأن الذكر يعبث بالأنثى إذا حضنت، ولهذه العلة كثير من اناث الطير الوحشية يهربن بيضهن من ذكورتها، ويوضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاوس، لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك.

وعلى أنهم يتعهدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفاً من أن تقوم عنه فيفسده الهواء.

وخصي ذكورة أجناس الطير يكون في أول السفاد أعظم. وكل ما كان الطير أعظم سفاداً، كانت خصيته أعظم، مثل الديك، والقبج[1]، والحجل.

وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه في الجثة مرتين.

وكل ما كان من الدجاج أصغر جثة يكون أكثر بيضاً[2]. وبعض الدجاج يبيض بيضاً كثيراً، وربما باض بيضتين في يوم، وإذا عرض ذلك له كان من أسباب موته.

والفروج إذا خرج من بيضه عن حضن الحمام، كان أكيس له.

وبيض الطاوس إذا لم تحضنه الأنثى التي باضته خرج الفرخ أقمأ[3] وأصغر.

وإذا أهرمت الدجاجة فليس لآخر ما تبيض صفرة. وقد عاينوا للبيضة الواحدة محتين، وإذا لم يكن للبيضة مح لم يخلق من البيضة فروج ولا فرخ، لأنه ليس له طعام يغذيه ويربيه. فإذا كانت فيها محتان وكان البياض وافراً ولا يكون ذلك للمسنات ـ فإذا كان كذلك خلق الله من البياض فرخين، وهناك

(١) بفتح القاف واسكان الباء الموحدة وبالجيم في آخره، واحده قبجة، والقبجة اسم جنس يقع على الذكر والأنثى، وفراخ القبج تخرج كما تخرج الفراريج. وأناثه تبيض خمس عشرة بيضة والذكر يوصف بالقوة على السفاد، ولكثرة سفاده يقصد موضع البيض فيكسره لئلا تشتغل الأنثى بحضنه عنه. والقبج يغير أصواته بأنواع شتى بقدر حاجته إلى ذلك. انظر حياة الحيوان للدميري (٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٢) في الأصل: «يكون أكبر بيضه» وهو تحريف صوابه ما هنا.

(٣) اقمأ: من القماءة، بمعنى الصغر.

محتان يربى الفروجان، وتم الخلق، لأن الفروج إنما يخلق من البياض، والصفرة غذاء الفروج.

ويقال ذرق الطائر يذرق ذرقاً، وخزق يخزق خزقاً، ويقال ذلك للإنسان فإذا اشتق له من الحذقة نفسه ومن اسمه الذي هو اسمه قيل: خرئ وهو الخرء والخراءة، ويقال [للحافر][1] راث يروث، وللمعز والشاء[2]: بعر يبعر. ويقال للنعام: صام يصوم وللطير عر[3]، واسم نجو النعام الصوم، واسم نجو الطير العرة.

ويقال للصبي عقى[4]، مأخوذ من العقى.

ويقال لحمت الطائر. ويقال ألحم طائرك الحاما[5]، أي أطعمه لحماً واتخذه له.

ويقال هي لحمة النسب.

ومن خصال الديك المحمودة قولهم في الشراب: «أصفى من عين الديك» وإذا وصفوا عين الحمام الفقيع[6] بالحمرة، أو عين الجراد قالوا: كأنها عين الديك. وإذا قالوا: «أصفى من عين الغراب» فإنما يريدون حدة البصر ونفاذه.

وفي عين الديك يقول الأعشى:

وكأس كعين الديك باكرت حدها ... بفتيان صدق والنواقيس تضرب[7]

---

(١) زدتها من بقية النسخ ليستقيم الكلام.

(٢) في الأصل: «والشاة» ليستقيم الكلام.

(٣) في الأصل، (هـ): «وللطير ينجو» موضع: و«للطير عر».

(٤) في الأصل: «عقئ» وصوابه ما هنا كما في القاموس واللسان.

(٥) في الأصل: «لحم طائرك لحاماً».

(٦) الفقيع: جنس من الحمام أبيض.

(٧) البيت للأعشى كما في الصحاح واللسان. وانظر ديوانه ١٣٧. وللأعشى بيت آخر اتحد مع البيت السابق في الشطر الأول مع اختلاف الشطر الثاني:

وكأس كعين الديك باكرت حدها ... بغرتها إذ غاب عنها بغاتها =

وقال آخر[1]:

ثلاثة أحوال وشهرا مجرما   تضيء كعين العترفان المجاوب[2]

والعترفان من أسماء الديك، وسماه بالمجاوب كما سماه بالعترفان.

وإذا وصفوا الشراب والماء بالصفاء قالوا: كأنه الدمع، وكأنه ماء[3] المفاصل، وكأنه ماء القطر، وكأنه لعاب الجندب. قال أبو ذؤيب:

مطافيل أبكار حديث نتاجها   تشاب بماء مثل ماء المفاصل[4]

والمفاصل: ماء بين السهل والجبل.

وقال ابن نجيم[5] إنما عنوا مفاصل فقار الجمل، لأن لكل مفصل حقاً، فيستنقع فيه ماء[6]، لا تجد ماء أبداً أصفى منه ولا أحسن.

= في ديوان الأعشى ٦٠: «كماء النيئ» وقالوا: حد الخمر: صلابتها. الصحاح واللسان. والمراد بالصلابة قوة تأثيرها.

(١) هو عدي بن زيد العبادي كما في اللسان (عترف) وحياة الحيوان (٢/١٣٣) برسم عترفان إلا أن البيت ورد هكذا:

ثلاثة أحوال وشهرا محرما   أقضى كعين العترفان المحارب

(٢) في الأصل: وكذا في اللسان، وكما سبق في حياة الحيوان (٢/١٣٣): «محرما» بالحاء وهو تصحيف ما هنا، والدميري: «اقضى» موضع «تضيء» و«المحارب» موضع «المجاوب» تحريف. يقال حول مجرم، وسنة مجرمة، وشهر مجرم، ويوم مجرم، أي تام. انظر اللسان والقاموس و«العترفان» شرحه الجاحظ، والدميري: «العترفان» الديك.

(٣) سقط من بقية النسخ عدا (هـ).

(٤) المطافيل: جمع مطفل، وهي سمات الولد. والابكار: جمع بكر، بالكسر، وهي الناقة التي ولدت بطناً واحداً، وولدها بكرها أيضاً. انظر الحديث عن البيت في البيان (١/٢٧٨) وآمالي المرتضى (١/١٨٧) وثمار القلوب ٤٤٦ والمخصص (٧/٢٨).

(٥) هو يحيى بن نجيم قال الجاحظ في شأنه: (البيان ٤/٢٣) «وقد جلست إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو بن كركرة، مع من جالست من رواة البغداديين، فما رأيت أحداً منهم قصد إلى شعر في النسيب فأنشده»، وقد ذكره ابن النديم في الفهرست (١٧٠ ليبسك ـ ٢٤٢ مصر) مع أصحاب القصائد التي قيلت في الغريب، وفي الأصل: «أبو نجيم» محرف.

(٦) (ط): «ما» وما هنا الصواب وافق لما في (ش).

قال قطرب[1]: «والله لفلان أبصر من كلب، وأسمع من كلب، وأشم من كلب»! فقيل له أنشدنا في ذلك، فأنشد يقول:

يـا ربـة البيت قـومي غـير صـاغـرة ضـمي إليـك رحال القـوم والقـربـا[2]
في لـيـلة مـن جمـادى ذات أنـديـة لا يبصر الكلب من ظلمائهـا الطنبـا[3]

وأنشد في سمعه قول جرير:

خفي السرى لا يسمـع الكلب وطأه أتى دون نبـح الكلب والكـلب دائب

قال نصر بن سيار[4]: كان عظماء الترك يقولون للقائد العظيم القيادة: لا بد من أن تكون فيه عشر خصال من أخلاق الحيوان: شجاعة[5] الديك وتحنن الدجاجة، وقلب الأسد وحملة الخنزير[6]، وروغان الثعلب، وختل الـذئب،

---

(١) هو محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي الشهير بقطرب: نحوي عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة، من الموالي، كان يرى رأي المعتزلة النظامية، وهو أول من وضع «المثلث» في اللغة، و«قطرب» لقب دعاه به أستاذه (سيبويه) فلزمه. من كتبه (معاني القرآن - النوادر - غريب الحديث) وغيرها كثير. واتصل بأبي دلف العجلي وأدب ولده. توفي قطرب سنة ست ومائتين. الاعلام (٣١٥/٧) وفيات الأعيان (٤٩٤/١) تاريخ بغداد (٢٩٨/٣) نزهة الالباء ١١٩، الفهرست ٥٢، شذرات الذهب (١٥/٢).

(٢) البيتان لمرة بن محكان التميمي السعدي، كما في الحماسة (٢٥٢/٢) والأغاني (١٠/٢٠) ومعجم المرزباني ٣٨٣، القرب: جمع قراب، وهو غمد السيف أو جفن غمده. والشطر الثاني هنا كما في رواية الحماسة (هـ) كما في الأغاني:

«حطي إليكِ رحال القوم بالقربا»

ومعنى هذا البيت كما قال أبو عبيدة: «كان الضيف إذا نزل بالعرب في الجاهلية ضموا إليهم رحله، وبقي سلاحه معه لا يؤخذ، خوفاً من البيات. فقال مرة يخاطب امرأته: ضمي إليك رحال هؤلاء الضيفان وسلاحهم فإنهم عندي في عز وأمن من الغارات» الأغاني (١٠/٢٠).

(٣) الأندية: جمع ندى. والطنب: حبل البيت.

(٤) نصر بن سيار: أمير من الدهاة الشجعان كان أمير خراسان سنة ١٢٠ هـ ولاه هشام بن عبد الملك، أقام بمرو ثم خرج إلى قومس، ثم مرض بمفازة بين الري وهمذن وتوفي بساوة سنة ١٣١. الحيوان (٣٥٣/٢).

(٥) (هـ): «سخاء» موضع: «شجاعة».

(٦) أصل معنى الحملة الكرة في الحرب. قال الثعالبي في ثمار القلوب ٣٢١: «يضرب المثل بحرص الخنزير وقبحه وقذره، وحملته، وصعوبة صيده، وشدة الخطر في طرده».

[وصبر الكلب على الجراحة، وحذر الغراب، وحراسة الكركي، وهداية الحمام][1].

وصاحب هذا الكلام أعطى كل جنس خصلة واحدة، وأعطى جنس الدجاج خصلتين ـ وكان مكحول يسافر بالديك.

وعن رسول الله ﷺ: «لا تذبحوا الديك، فإن الشيطان يفرح به»[2].

قال صاحب الديك: والدجاجة يتفاءل بذكرها، ولذلك لما ولد لسعيد ابن العاص عنبسة بن سعيد، قال سعيد لابنه يحيى: أي شيء تنحله[3]؟ قال: دجاجة بفراريجها! يريد احتقاره بذلك، إذ كان ابن أمة ولم يكن ابن حرة. فقال سعيد: ـ أو قيل له ـ إن صدق الطير ليكونن أكثرهم ولداً! وهم بالكوفة والمدينة.

حدث أعرابي قال: نزل عليَّ أعرابي من البادية فأنزلته وكان عندي دجاج كثير ولي امرأة وابنان وابنتان، فقلت لامرأتي؟ بادري واشوي لنا دجاجة وقدميها إلينا لنتغدى بها فلما حضر الغداء جلسنا جميعاً أنا وامرأتي وابناي وابنتاي والأعرابي. فقلنا له: أقسم الدجاجة بيننا نريد بذلك أن نضحك منه ـ فقال: لا أحسن القسمة فإن رضيتم بقسمتي قسمتها بينكم. قلنا: فإنا نرضى. فقطع رأس الدجاجة فناولنيه، وقال الرأس للرأس[4]. وقطع الجناحين وقال: الجناحان للابنين. وقطع الساقين وقال: الساقان للابنتين. وقطع الزمكى[5] وقال: العجز للعجز. ثم قال: والزور للزائر. فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا. فلما كان من الغد قلت لامرأتي: أشوي لنا خمس دجاجات. وقلنا له: اقسم بيننا قال: إني أظنكم وجدتم[6] في أنفسكم! قلنا: لا لم نجد فاقسم.

(١) زدتها كما في (هـ) من ثمار القلوب ٣٠٦، وجمهرة العسكري ٨٥ حيث يوجد هذا النص. وبها تتم الخصال العشر.
(٢) يفرح به: يغم. وهذا الحرف من الاضداد: يقال أفرحه إذا سره، وأفرحه إذا غمه وأثقل عليه.
(٣) نحله ينحله: أعطاه، والمصدر: النحل بالضم، كقفل.
(٤) في النهاية: «للرئيس» والرأس والرئيس بمعنى. أنظر الحيوان (هـ) (٢/٣٥٧).
(٥) الزمكى: أصل الذنب.
(٦) وجدتم: بمعنى غضبتم هنا.

قال: أقسم شفعاً أم وتراً؟ قلنا أقسم وتراً. قال: أنت وامرأتك ودجاجة ثلاثة. وابناك ودجاجة ثلاثة، وابنتاك ودجاجة. وأنا ودجاجتان ثلاثة. وسخر بنا. قال: فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه. فقال: لعلكم كرهتم قسمتي[1] الوتر لا يجيء إلا هكذا وهل لكم في قسمة الشفع؟ قلنا: نعم فضمهن إليه، ثم قال أنت وابناك ودجاجة أربعة، والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة. ثم قال: وأنا وثلاث دجاجات أربعة وضمهن إليه. ورفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم لك الحمد وأنت قسمتنيها.

قال صاحب الكلب: من أعظم مفاخر الدجاج والديك على سائر الحيوان، أن الفروج يخرج من البيضة كاسياً يكفي نفسه، ثم يجمع كيس الخلقة وكيس المعرفة، وذلك كله مع خروجه من البيضة - وزعم صاحب المنطق - أن العنكبوت يأخذ في النسج ساعة يولد، وعمل العنكبوت عمل شاق ولطيف دقيق، لا يبلغه الفروج ولا أبو الفروج!!

على أن ما مدحوا الفروج به من خروجه من البيضة كاسياً، قد شركه فيه غيره، وكذلك أولاد ذوات الأربع كلها تولد كواسب. وفراخ القبج والدراج وفراخ البط الصيني في ذلك كله لاحقة بالفراريج أو تزيد على ذلك أنها تزداد حسناً كلما كبرت - فقد سقط هذا الفخر.

قال صاحب الديك لصاحب الكلب: وسنضرب لكم المثل الذي ضرب للديك والبازي: بينا أبو أيوب[2] جالس في أمره ونهيه، إذ أتاه رسول أبي جعفر فامتقع لونه[3]، فلما رجع تعجبنا من حاله! فقال: سأضرب لكم مثلاً: زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض شيء أقل وفاء منك! قال: وكيف؟ قال:

---

(١) في الأصل: «قسمة» وأثبت ما وافق (هـ) وما في نهاية الارب.

(٢) هو سليمان بن مخلد المكنى بأبي أيوب ونسب إلى موريان: قرية من قرى الأهواز، كان أبو أيوب وزير المنصور العباسي بعد خالد بن برمك جد البرامكة وكان في أول أمره مقرباً لدى المنصور، ثم نقم عليه فأوقع به وعذبه، وأخذ أمواله، وتوفي سنة ١٥٤. وفيات الأعيان (١/٢١٥ - ٢١٦).

(٣) انتقع لونه وامتقع: بالبناء للمجهول تغير.

أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم فأطعموك في أكفهم، ونشأت بينهم، حتى إذا كبرت صبرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ها هنا وها هنا وصحت وصوت، وأخذت أنا [مسنا][1] من الجبال فعلموني والفوني[2] ثم يخلى عني فآخذ صيدي في الهواء فأجيء به إلى صاحبي. فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم مثل ما رأيت من الديوك، لكنت أنفر مني! ولكنكم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي مع ما ترون من تمكن حالي[3].

قال محمد بن سلام: استأذن رجل على امرأة فقالت: ما حاجته[4]؟ قالت الجارية: يريد أن يذكر حاجة [لك][5]. قالت: لعلها حاجة الديك إلى الدجاجة.

أرسل مسلم بن عمرو[6] ابن عم له إلى الشام ومصر ليشتري له خيلاً،

---

(١) سقطت الكلمة من بقية النسخ وأثبتها (هـ) نقلاً عن الوفيات. وفي الدميري: «وقد كبرت سني».

(٢) ألفه، بالتشديد: جعله أليفاً، وفي الوفيات: «وألفوا بي» محرفة. وفي الدميري: «وأونس».

(٣) الفقرة الأخيرة من كلام أبي أيوب، وقد وقع ما كان يترقبه أبو أيوب، فقد عذبه المنصور وأخذ أمواله انظر الحيوان (٢/٣٦٣). اذكر صاحب الوفيات ما رواه الجاحظ عن خالد بن يزيد الأرقط بهذا النص: قال: «خالد بن يزيد الأرقط» بينا أبو أيوب المذكور جالس في أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه، فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلاً لذلك وقال: زعموا أن البازي قال للديك: ما في الأرض حيوان أقل وفاء منك. قال وكيف ذلك؟ قال: أخذك أهلك بيضة فحضنوك، ثم خرجت على أيديهم، وأطعموك في أكفهم، ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت ههنا وههنا، وصت. وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلموني وألفوني ثم يخلى عني فآخذ صيدا في الهواء وأجيء به إلى صاحبي، فقال له الديك: إنك لو رأيت من البزاة في سفافيدهم المعدة للشيء مثل الذي رأيت من الديوك لكنت أنفر مني، ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفي ما ترون من تمكن حالي» ٢/١٤٤ الوفيات والمورياني، بضم الميم وسكون الواو وكسر الراء نسبة إلى موريان، وهي قرية من قرى الأهواز، ذكره ابن نقطة من أعمال خوزستان.

(٤) (هـ): «ماله من حاجة».

(٥) ليس في بقية النسخ.

(٦) مسلم بن عمرو: قائد عربي، كان على ميسرة ابراهيم بن أشتر النخعي صاحب مصعب بن الزبير، أصيب مسلم بجراحات شديدة في حرب «مسكن» التي كانت بين مصعب وبين عبد الملك بن مروان في سنة ٧٢ هـ ومات بها. (انظر الأغاني ١٧/١٦١ - ١٦٤). وقال يزيد بن الرقاع العاملي يذكره هو، ومصعباً، وابن الأشتر: =

فقال له: لا علم لي بالخيل - وكان صاحب قنص - قال: ألست صاحب كلاب؟ قال: بلى، قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكلب فاستعمله في الفرس. فقدم بخيل لم يكن في العرب مثلها[١].

حبس خالد بن عبدالله[٢] الكميت بن زيد، وكانت امرأته تختلف إليه في ثياب وهيئة حتى عرفها البوابون فلبس يوماً ثيابها وخرج عليهم. فسمى في شعره البوابين النوابح، وسمى خالداً المشلي[٣]:

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل[٤] على الرغم من تلك النوابح والمشلي
على ثياب الغانيات وتحتها صريمة أمر أشبهت سلة النصل[٥]

سئل الحسن[٦] فقيل له: إن الصبيان يأتونني ببيضتين مكسورتين يأخذون مني واحدة صحيحة قال: ليس به بأس.

قال مصعب بن الزبير على منبر البصرة، لبعض بني أبي بكرة[٧]: إنما

= نحن قتلنا ابن الحوارى مصعباً أخا أسد والمذحجي اليمانيا
ومرت عقاب الموت منا لمسلم فأهوت له طير فأصبح ثاويا

(١) انظر الخبر في العقد (١/٧٩).

(٢) هو خالد بن عبدالله القسري، والخبر مفصل في الأغاني (١٥/١١٤ - ١١٥).

(٣) المشلي: الذي يغري الكلاب بالصيد.

(٤) هو قدح من قداح الميسر، كان لبني عامر بن صعصعة، لا يجعل في القداح إلا خرج فائزاً أبداً. انظر الميسر والخداع ص ٦٦. وقال ابن قتيبة ص ٣١ في الحديث عن الشعراء: «ولم أجد فيهم أحداً ألهج بذكر القداح من ابن مقبل، ثم الطرماح بعده «انظر الأمالي (١/١٥) وثمار القلوب ١٧٣، والحيوان (٢/٣٦٥).

(٥) سل النصل: أخرجه، والنصل: حديدة السيف. وفي (ش): «صلة النصل». وفي الأغاني غريمة أمر أشبهت سلة النصل

(٦) هو الحسن البصري.

(٧) هو نفيع بن الحارث ويقال ابن مسروح، وقيل اسمه مسروح، كان من فضلاء الصحابة وسكن البصرة وأنجب أولاداً لهم شهرة، وكان تدلى إلى النبي ﷺ من حصن الطائف ببكرة - أي خشبة مستديرة في وسطها محز للحبل تدور على محور - لما قال رسول الله لأهل الحصن: أيما عبد نزل إلي فهو حر. فاشتهر لذلك بأبي بكرة. توفي أبو بكرة عن أربعين ولداً من ذكر وأنثى. في خلافة عمر (الإصابة ٨٧٩٥٤ - وانظر ١٤٣ من باب الكنى والمعارف ١٢٥ والروض الأنف (٢/٣٠٤ - ٣٠٥) والحيوان (٢/٣٦٦).

كانت أمكم مثل الكلبة، ينزو عليها الأعفر والأسود والأبقع، فتؤدي إلى كل كلب شبهه.

وهذا في هذا الموضع هجاء وأصحاب الكلاب يرون أن هذا الباب من النجابة، وأن ذلك من صحة طباع الأرحام حين لا تختلط النطف فتجيء جوارح الأولاد مختلفة مختلطة.

قال صاحب الكلب: وفي وصية عثمان الخياط للشطّار اللصوص، إياكم وحب النساء وسماع ضرب العود، وشرب الزبيب المطبوخ، وعليكم باتخاذ الغلمان، فإن غلاماً أنفع لك من أخيك، وأعون لك من ابن عمك، وعليكم بنبيذ التمر، وضرب الطنبور[1]، وما كان عليه السلف، واجعلوا النقل باقلاء، وإن قدرتم على الفستق، والريحان شاهسفرم[2]، وإن قدرتم على الياسمين[3]. ودعوا لبس العمائم وعليكم بالقناع، والقلنسوة كفر، والخف شرك، واجعل لهوك الحمام، وهارش الكلاب، وإياك والكباش، واللعب بالصقور والشواهين، وإياك البزاة والفهود.

فلما انتهى إلى ذكر الديك قال: والديك [لا تقصر في اتخاذه][4]، فإن له صبراً ونجدة وروغاناً وتدبيراً، واعمالاً للسلاح، وهو يبهر الشجاع.

ثم عليك بالنرد، ودع الشطرنج لأهلها، ولا تلعب في النرد إلا بالطويلتين.

والودع رأس مال كبير، وأول منافعه الحذق باللقف.

ثم حدثهم بحديث يزيد بن مسعود القيسي.

---

(١) الطنبور: آلة موسيقية يستخدمها الآن سكان الشمال من السودان.

(٢) شاهسفرم: نوع من الريحان يقال له الريحان السلطاني. شفاء الغليل ١١٩، وجاء في اللسان: شاهسفرم: ريحان الملك، قال أبو حنيفة: هي فارسية دخلت في كلام العرب وقد وصفه داود (في تذكرته ٢١٢/١) وبقوله: «وهو الأخضر الضارب إلى الصفرة، الدقيق الورق» وانظر الحيوان (٣٦٦/٢). وفي الأصل: «وشاهبتر» وهو تحريف ما هنا.

(٣) (ط): «ثم إن قدرتم على الياسمين»، (ش) كذلك وما هنا هو الصواب.

(٤) سقط هذا الجزء من بقية النسخ.

قال صاحب الديك: روى أبو أمية عبد الكريم بن المعلم قال: كان الحسن[1] بن إبراهيم يكره صيد الكلب الأسود البهيم.

قال دعبل[2] بن علي: كنت عند سهل بن هارون فلم نبرح، حتى كاد يموت جوعاً، فلما اضطررناه قال: ويحك يا غلام، غدنا، قال فأتينا بقصعة فيها لحم ديك لا تحز فيه السكين، ولا تؤثر فيه الأضراس، فاطلع في القصعة وقلب بصره فيها، ثم أخذ كسرة خبزة يابسة، فقلب جميع ما في القصعة حتى فقد الرأس وحده من الديك، ورفع رأسه للغلام فقال له: أين الرأس؟ قال: رميت به. قال ولم رميت به؟ قال: لم أظن أنك تأكله! قال: ولأي شيء ظننت أني لا آكله؟ فوالله إني لأمقت من يرمي برجليه. ثم قال: ولو لم أكره ما صنعت

---

(١) في المخطوطة: «حسن وإبراهيم» صوابه ما أثبت من (ش).

(٢) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان، لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة. وكان شديد التعصب للقحطانية على النزارية وكان شيعياً وكان يتشطر ويصحب الشطار. وأخباره في الأغاني (١٨/ ٢٩ ـ ٦١) وكان يتنقل في البلاد وأقام ببغداد مرة ثم خرج منها هارباً من المعتصم لما هجاه، وعاد إليها بعد ذلك، ولد سنة ثمان وأربعين ومائة وتوفي سنة ست وأربعين ومائتين، تاريخ بغداد ٤٤٩٠. والحيوان هـ (٢/ ٣٧٤). وردت القصة في وفيات الأعيان ٢/ ٣٦ بهذا النص «قال دعبل: كنا يوماً عند سهل ابن هارون الكاتب البليغ وكان شديد البخل فأطلنا الحديث واضطره الجوع إلى أن دعا بغدائه فأتى بقصعة فيها ديك صلب اللحم هرم لا تخرقه سكين ولا يؤثر فيه ضرس فأخذ كسرة خبز فخاض بها في فرقته وقلب جميع ما في القصعة ففقد الرأس فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه وقال للطباخ: أين الرأس؟ فقال: رميت به قال: ولم؟ قال: ظننت أنك لا تأكله فقال: لبئس ما ظننت ويحك! والله إني لأمقت من يرمي برجليه فكيف من يرمي برأسه والرأس رئيس وفيه الحواس الأربع ومنه يصيح ولولا صوته لما فضل وفيه عرفه (فحمة مستطيلة في أعلى الرأس) الذي يتبرك به وفيه عيناه اللتان يضرب بهما المثل فيقال: شراب كعين الديك ودماغه عجب لوجع الكليتين ولم ير عظم قط أهش من عظم رأسه أو ما علمت أنه خير من طرف جناح ومن الساق ومن العنق؟ فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فانظر أين هو؟ قال والله لا أدري أين هو رميت به قال: لكنني أدري أين هو رميت به في بطنك فالله حسيبك «وورد في كتاب البخلاء»: فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله فإنا نأكله فانظر أين هو» ـ أوردت القصة كما هي ليلاحظ الفرق بين الروايتين. ودعبل: بكسر الدال وسكون العين المهملتين وكسر الباء الموحدة ـ وهو اسم الناقة الشارف وكان يقول: مررت يوماً برجل قد أصابه الصرع فدنوت منه وصحت في أذنه بأعلى صوتي: دعبل فقام يمشي كأنه لم يصبه شيء» ٢/ ٣٨ فوات الوفيات.

إلا للطيرة والفأل فكرهته[١]! الرأس رئيس وفيه الحواس الخمس. ومنه يصدح الديك ولولا صوته ما أريد، وفيه عرفه[٢] الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، يقال: «شراب كعين الديك[٣]»، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان من عظم رأسه، فهلا ظننت[٤] أني لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه؟؟ فإن كان قد بلغ من نبلك أنك لا تأكله، فإن عندنا من يأكله، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن الساق، ومن العنق! انظر أين هو؟ قال: والله ما أدري أين رميت به! قال: لكني أدري أنك رميت به في بطنك، والله حسيبك!

(١) أي فكرهت ما صنعت.
(٢) كذا في عيون الأخبار «عرفة» وفي (ط): «وفيه قرنه» وفي (ش): «وفيه فرقة» وفرق الديك: انفراق عرفه.
(٣) أي في الصفاء، وقد ذكر الجاحظ هذا المثل وتحدث عنه.
(٤) (ش): «فهلا إذ ظننت».

الفهرس